CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY

BOUGHT WITH THE INCOME
OF THE SAGE ENDOWMENT
FUND GIVEN IN 1891 BY
HENRY WILLIAMS SAGE

Interlibrary Loan

DATE DUE

MAY 25 1982 E

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY

3 1924 091 771 570

PL40
11/80

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثالث

العصر العباسي الثاني

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس

٢٣٢ - ٤٤٧ هـ (٨٤٧ - ١٠٥٥ م)

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة اسيوط ، وأستاذ الدراسات الإسلامية

بجامعة بنسيلفينيا (سابقا)

أستاذ تاريخ الشرق الأدنى - جامعة كاليفورنيا

لوس انجليس ، الولايات المتحدة الأمريكية

الطبعة الثالثة ١٩٥٥

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع محمد عزيز - القاهرة

DS
223
H34+
V.3

الطبعة الأولى . . . . . فبراير ١٩٤٦

الطبعة الثانية . . . . . يولية ١٩٤٩

الطبعة الثالثة . . . . . يولية ١٩٥٥

153/9809
55
5
D.7.

مطبعة السعادة بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

يسرنى أن أقدم إلى قراء العربية الطبعة الثانية من الجزء الثالث من كتابى « تاريخ الإسلام : السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ؛ ويتناول تاريخ الإسلام فى مدة قرنين وخمس عشرة سنة (٢٣٢ — ٤٤٧ هـ) ، من السنة التى ولى فيها الخلافة المتوكل العباسى ، الذى يعتبر عهده بدء عصر انحلال الدولة العباسية ، إلى أن زال سلطان بنى بويه من بغداد . وإن كان لهذا العصر ميزاته ومظاهر حضارته ، فقد ظهرت فيه دول كثيرة كان لها أثر كبير فى تقدم الحضارة الاسلامية . ذلك أن بغداد ، بعد أن كانت مركزاً لهذه الحضارة ، ظهرت مراكز أخرى مثل قرطبة والقاهرة وبخارى وغزنة وحلب ، تنافس حاضرة العباسيين فى الحضارة والعلوم والآداب ، بفضل تشجيع الخلفاء والأمراء والسلاطين رجال العلم والأدب ، واتساع أفق الفكر الإسلامى ، وذيوع الثقافة الإسلامية. كما ساعد قيام هذه الدول على تدفق الثروة واتساع العمران ورقى المجتمع الإسلامى .

وقد قسمت هذا الجزء إلى عشرة أبواب ، بحثت فى الباب الأول منها أثر استبداد الأتراك بالسلطة (٢٣٢ — ٣٢٤ هـ) ، وكيف أصبح فى أيديهم تولية الخلفاء وعزلهم، وكيف كان ذلك من أهم عوامل ضعف الدولة العباسية وزوالها فى النهاية على أيدى التتار سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ، وتكلمت فى الباب الثانى على عصر إمرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤هـ)، وبينت كيف استبد أمير الأمراء بالسلطة دون الخليفة ، حتى أصبح ينظر فى جميع أمور الدولة ، وعلت مرتبته على مرتبة الوزير الذى لم يبق له سوى الاسم . وعالجت فى الباب الثالث حالة الدولة العباسية ، وخاصة بلاد العراق والأهواز وكرمان فى عهد بنى بويه (٣٣٤ — ٤٤٧هـ) . وكانوا من الشيعة المغالين فى عقائد هذا المذهب ، ومن ثم لم يعترفوا بحق الخليفة العباسى السنى فى السيادة على العالم الاسلامى ، ولم يتورعوا عن التعدى على شخصه وإضعاف سلطته .

وبحثت فى الباب الرابع الولايات الاسلامية التى استقلت عن الدولة العباسية، حيث قامت فى بلاد الفرس وبلاد ماوراء النهر دويلات ، يرجع تاريخها إلى انتعاش روح القومية التى ظهرت منذ أيام المأمون ، فقد قامت الدولة الطاهرية (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ) فى

خراسان ، ومنها انتقلت السلطة إلى دولة جديدة هى الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) على يد يعقوب بن الليث الصفار . والدولة السامانية (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) ، وقد تفرعت عنها الدولة الغزنوية (٣٥١ — ٥٨٢ هـ) التى نبغ فيها السلطان محمود الغزنوى صاحب الفتوح المشهورة فى بلاد الهند ، كما قويت شوكة بنى بويه فى فارس (٣٢٠ — ٤٤٧ هـ) ، وفى الرى وهمذان وأصبهان (٣٢٠ — ٤١٤ هـ). وفى هذا العصر استقل الحمدانيون بالموصل (٣١٧ — ٣٨٦ هـ) ، وحلب (٣٣٣ — ٣٩٤ هـ) ، وقامت فى مصر الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) والدولة الإخشيدية (٣٢٣ — ٣٨٥ هـ) والدولة الفاطمية (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) ، وقوى فى المغرب نفوذ الأدارسة (١٧٢ — ٣٧٥ هـ) ، والأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦ هـ) ، كما قوى نفوذ الأمويين بالأندلس (١٣٨ — ٤٠٧ هـ) . ثم انتزع منهم السلطة بنو حمود العلويون (٤٠٧ — ٤٤٧ هـ) .

وبحثت فى الباب الخامس الحركات السياسية والدينية واتجاهاتها المختلفة ، وما كان لها من أثر فى السياسة والدين والأدب والاجتماع وغير ذلك ؛ فتكلمت على طائفة الاثنا عشرية ، ثم طائفة الإسماعيلية أو السبعية فى دور الستر ، وعلى القرامطة فى بلاد الكوفة ، وفى شمال العراق الغربى ، وبلاد الشام والبحرين ؛ ثم تكلمت على نشر الدعوة الإسماعيلية على يد ابن حوشب فى اليمن ؛ وعلى يد أبى عبد الله الشيعى فى المغرب ؛ ثم تتبعت علاقة الفاطميين بالحمدانيين والعقيليين والصليحيين ؛ وعلاقتهم بالأمويين فى الأندلس والزيريين فى المغرب . ثم بحثت تنظيم الدعوة الفاطمية ومراتبها وداعى دعاتها ومجالس دعوتها . ثم تكلمت على طائفة الدرزية ودعاتها وأهم مميزاتها ؛ وعلى الخوارج ؛ والزنج ؛ والمعتزلة ؛ وانتعاش مذهبهم وتأثره بالفلسفة الإغريقية ؛ وانتعاش أهل السنة ؛ والتصوف والمتصوفين المعتدلين والغلاة .

وفى الباب السادس تكلمت على العلاقات الخارجية للدولة العباسية فى الشرق ، والدولة الفاطمية فى مصر ؛ والدولة الأموية فى الأندلس ؛ مع البيزنطيين ؛ ومع الدول الغربية فى أوربا ؛ ومع صقلية والروس . وعرضت فى الباب السابع لنظم الحكم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية فى الدولة العباسية فى عهد نفوذ الأتراك ، وفى عهد إمرة الأمراء ثم فى عهد بنى بويه ، ثم فى مصر فى عهد الطولونيين والإخشيديين والفاطميين ، ثم فى الأندلس فى عهد الأمويين ، وبينت كيف كانت تدار الحكومة الإسلامية فى ذلك العصر ، ثم عرضت فى الباب الثامن للحالة الاقتصادية وما بلغه المسلمون من تقدم ورقى فى مضمار الزراعة والصناعة والتجارة .

وفى الباب التاسع ألممت بحالة الثقافة والفن . فعالجت مراكز الثقافة ، وأنواع العلوم النقلية كعلوم التفسير ، والحديث والفقه ، وعلم الكلام ، وعلم اللغة ، والأدب من نظم ونثر ؛ فتكلمت على أمراء الشعر العربى كالبحترى ، وابن الرومى ، وأبى الطيب المتنبى ، وأبى العلاء المعرى ، ثم على مشهورى شعراء الفرس ، ثم على شعراء مصر والأندلس ، كأبى حامد الأنطاكى ، وابن هانىء الأندلسى . كما تكلمت على أمراء النثر العربى ، كالجاحظ ، وأبى إسحاق الصابى ، والصاحب إسماعيل بن عباد ، وأبى بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمذانى ، وأبى الفتح البستى ، ثم بحثت أنواع العلوم العقلية وما كان من اهتمام الخلفاء والسلاطين والأمراء بالفلسفة والطب ، وعلم الفلك والنجوم ، والرياضيات ، والتاريخ والجغرافيا . كما ألممت بتاريخ الفنون ، وخاصة فن العمارة الذى يعتبر بحق مقياساً لحضارة الأمم فى كل عصر .

ثم تناولت فى الباب العاشر الحالة الاجتماعية ، فبحثت فى طبقات المجتمع فى عهد العباسيين وفى عهد الفاطميين فى مصر والأمويين فى الأندلس ، ومجالس الغناء والطرب ، وقصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ، وألوان الطعام واللباس ، والأعياد والمواسم والمواكب والحفلات وأنواع التسلية ، وما كان للمرأة من أثر فى المجتمع الإسلامى .

وقد سرت فى هذا الجزء على النهج الذى سرت عليه فى الجزأين الأول والثانى من هذا الكتاب . فبحثت هذا العصر من نواحيه المختلفة ؛ سياسية ودينية وثقافية واجتماعية ؛ مما ييسر على القارىء الإحاطة بتاريخ ذلك العصر ، وحذفت ما أدخل من مادة تاريخية تتصل بالعصر العباسى الأول ؛ وأضفتها إلى الطبعة الثانية من الجزء الثانى ؛ كما حذفت بعض النصوص التى لم أجد بأساً من حذفها ، ليكون هذا الجزء مسايراً للطبعة الثالثة من الجزأين الأول والثانى من الكتاب ؛ وذيلته بملاحق دونت فى آخر الكتاب .

ويجد القارىء فى الهوامش وفى آخر الكتاب تنبيهاً على المصادر ؛ لمن أراد التوسع فى مسألة من المسائل التى لم يسمح المجال بالتوسع فيها . وذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر مرتبة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ؛ كما ذيلته بكشاف شامل لأسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة .

وأرجو أن يظهر قريباً الجزء الرابع ، ويتناول تاريخ العالم الإسلامى مدة قرنين وتسع سنين ؛ من سنة ٤٤٧ هـ التى استولى فيها السلاجقة على بغداد إلى أن زالت الدولة العباسية منها على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

حسن ابراهيم حسن

موضوعات الكتاب

صفحة

مقدمة الكتاب ج

موضوعات الكتاب و

الباب الأول

عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢ - ٣٢٤ هـ)

تمهيد ١

خلفاء العصر العباسى الثانى : جدول ٢

جدول يمثل تسلسل الخلفاء فى الحكم ٣

المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) ٤

المستنصر بالله (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) ٦

المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) ٧

المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) ٩

المهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) ٩

المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) ١٢

المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) ١٧

المكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) ١٧

المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) ٢٠

القاهر بالله (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ) ٢٠

الباب الثانى

عصر إمرة الأمراء (٣٢٢-٣٣٤هـ)

عوامل ظهور نظام إمرة الأمراء ٢٦

ابن رائق يتقلد إمرة الأمراء ٢٧

بين بجكم وابن رائق ٢٧

البريديون ٣٠

الحمدانيون ٣٠

توزون ٣٢

صفحة

ابن شيرزاد ٣٢

الباب الثالث

عصر بنى بويه (٣٣٤—٤٤٧ هـ)

بنو بويه قبل استيلائهم على بغداد ٣٧
بنو بويه ١ — فى فارس ٢ — فى العراق والأهواز وكرمان . . ٣٩
ولايات منقسمة فى العراق كرمان . . . . . .
٣ — فى الرى وهمذان وأصبهان ٤٠
جدول يمثل تسلسل أمراء بنى بويه فى الحكم ٤١

بنو بويه فى العراق

معز الدولة (٣٣٤ — ٣٥٦ هـ) ٤٣
بختيار (٣٥٦ — ٣٦٧ هـ) ٤٥
عضد الدولة (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) ٤٧
صمصام الدولة (٣٧٢ — ٣٧٦ هـ) ٤٧
بهاء الدولة وشرف الدولة (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ) ٥٠
سلطان الدولة ومشرف الدولة ابنا بهاء الدولة (٤٠٣ — ٤١٦ هـ) . . ٥٦
جلال الدولة (٤١٦ — ٤٣٥ هـ) ٥٨
أبو كاليجار (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) ٦١
أبو نصر الملك الرحيم (٤٤٠ — ٤٤٧ هـ) ٦٢

الباب الرابع

الدولة المستقلة

تمهيد ٦٤
الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) ٦٥
يعقوب بن الليث الصفار (٢٥٤ — ٢٦٥ هـ) ٦٥
عمرو بن الليث الصفار ٦٧
الدولة السامانية (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) ٧١
البيت السامانى — تسلسل آل البيت السامانى ٧٢

صفحة

إسماعيل بن أحمد (٢٧٩ — ٢٩٥ هـ) ٧٣
أحمد بن إسماعيل وابنه نصر (٢٩٥ — ٣٣١ هـ) ٧٤
نوح بن نصر (٣٣١ ٣٤٣ هـ) ٧٧
عبد الملك ومنصور ابنا نوح (٣٤٣ — ٣٦٦ هـ) ٧٨
نوح الثانى بن منصور (٣٦٦ — ٣٨٧ هـ) ٧٩
الدولة الغزنوية ـ البيت الغزنوى (٣٥١ — ٥٨٢ هـ) ٨٣
جدول الامراء الغزنويين ٨٤
سبكتكين (٣٦٦ — ٣٨٧ هـ) ٨٥
يمين الدولة محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١ هـ) ٨٧
فتوح محمود الغزنوى فى بلاد الهند ٨٩
مسعود الأول (٤٢١ — ٤٣٢ هـ) ٩٦
مودود بن مسعود (٤٣٢ — ٤٤١ هـ) ٩٩
عبد الرشيد وفروخ زاد (٤٤١ — ٤٥١ هـ) ١٠٠

بنو بويه فى فارس

عماد الدولة بن بويه (٣٢٠ — ٣٣٨ هـ) ١٠٣
عضد الدولة (٣٣٨ — ٣٧٢ هـ) ١٠٤
شرف الدولة وصمصام الدولة (٣٧٢ — ٣٨٨ هـ) ١٠٥
بهاء الدولة وسلطان الدولة (٣٨٨ — ٤١٥ هـ) ١٠٧
عماد الدولة أبو كاليجار (٤١٥ — ٤٤٠ هـ) ١٠٨

بنو بويه فى الرى وهمذان وأصبهان

ركن الدولة (٣٣٠ — ٣٦٦ هـ) ١٠٩
أولاد ركن الدولة (٣٦٦ — ٤٢٠ هـ) ١١١
الدولة الحمدانية
١ — فى الموصل ١١٣
٢ — فى حلب . جدول يمثل أمراء الحمدانيين ١١٤
الحمدانيون فى الموصل :
ناصر الدولة ١١٥

صفحة

أبو تغلب بن ناصر الدولة (٣٥٨-٣٦٩ هـ) ١١٨
الحمدانيون فى حلب
سيف الدولة (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ) ١٢٠
سعد الدولة وسعيد الدولة ١٢٣
الدولة الطولونية
الطولونيون — جدول (٢٥٦ - ٢٩٢ هـ) ١٢٦
أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ) ١٢٦
خمارويه (٢٧٠ - ٢٨٢ هـ) ١٣٠
زوال الدولة الطولونية (٢٨٢ - ٢٩٢ هـ) ١٣٢
الدولة الإخشيدية — جدول ١٣٥
محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ - ٣٣٤ هـ) ١٣٥
وصاية كافور على أولاد الإخشيد ١٣٩
الدولة الفاطمية
الخلفاء الفاطميون ١٤٢
جدول الخلفاء الفاطميين ١٤٣
عبيد الله المهدى (٢٩٦ - ٣٢٢ هـ) ١٤٤
القائم والمنصور (٣٢٢ - ٣٤١ هـ) ١٥٦
المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ هـ) ١٤٧
العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) ١٥١
الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) ١٥٣
الظاهر والمستنصر (٤١١ - ٤٨٧ هـ) ١٥٤
دولة الأغالبة
جدول يمثل نسب الأغالبة ١٥٧
محمد الثانى (٢٥٠ - ٢٦١ هـ) ١٥٧
ابراهيم الثانى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) ١٥٩
زيادة الله الثالث (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ) ١٥٩
دولة الأدارسة
أمراء الأدارسة : ١٦٢
على بن عمر بن إدريس (٢٢١ - ٢٣٤ هـ) ١٦٢

صفحة

يحيى الرابع بن إدريس بن عمر (٢٩٢ - ٣١٠ هـ) ١٦٤
الحسن بن محمد (٣١٠ - ٣١٢ هـ) ١٦٥
الأمويون فى قرطبة
جدول يمثل الأمويين فى قرطبة ١٦٩
عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ١٧٠
عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ١٧٢
الحكم الثانى المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) ١٧٧
هشام الثانى المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) ١٧٩
المنصور بن أبى عامر ١٧٩
الأندلس بعد وفاة المنصور الحاجب ١٨٢
بنو حمود
تسلسل نسب بنى حمود ١٨٤
على بن حمود ١٨٥
خلفاء على بن حمود ١٨٧

الباب الخامس

الحركات السياسية والدينية

تمهيد
١ — الاثنا عشرية ١٩٢
٢ — الإسماعيلية أو السبعية ١٩٤
(ا) دور الستر ١٩٤
(ب) دور الظهور ١٩٨
(ج) تنظيم الدعوة الفاطمية ٢٠٤
٣ — الخوارج ٢٠٧
٤ — ثورة الزنج ٢٠٩
٥ — المعتزلة
(ا) انتعاش مذهب المعتزلة ٢١٣
(ب) تأثر المعتزلة بالفلسفة الإغريقية ٢١٧

صفحة

٦ — انتعاش السنة ٢١٨
٧ — التصوف
(ا) المتصوفون المعتدلون ٢٢٠
(ب) المتصوفون الغلاة
١ — الحسين بن منصور الحلاج ٢٢٤
٢ — الشلمغانى ٢٢٩

الباب السادس
العلاقات الخارجية

١ — مع البيزنطيين
(ا) علاقة العباسيين بالبيزنطيين ٢٣١
(ب) علاقة الفاطميين بالبيزنطيين ٢٤٠
(ج) علاقة الأمويين فى الأندلس بالبيزنطيين ٢٣٩
٢ — مع الدول الغربية فى أوربا ٢٤١
٣ — مع الروس ٢٤٤

الباب السابع
نظم الحكم

١ — النظام السياسى
(ا) الخلافة
١ — الخلافة العباسية ٢٤٥
٢ — الخلافة الفاطمية ٢٥١
٣ — إحياء الخلافة الأموية فى الأندلس ٢٥٣
(ب) الوزارة
١ — الوزارة فى الدولة العباسية ٢٥٥
٢ — الوزارة فى مصر ٢٦٠
٣ — الوزارة فى الأندلس ٢٦٣
(ج) الكتابة ٢٦٥
(د) الحجابة ٢٦٦

صفحة

٢ — النظام الإدارى
(ا) الإمارة على البلدان ٢٦٨
(ب) الدواوين ٢٧٠
(ج) البريد ٢٧٢
(د) الشرطة ٢٧٨
٣ — النظام الحربى
(ا) الجيش
١ — فى الدولة العباسية ٢٨١
٢ — فى مصر ٢٨٦
(ب) البحرية ٢٨٨
٤ — النظام المالى
(ا) فى الدولة العباسية ٢٨٩
نظام الاقطاع ٢٩٤
(ب) فى مصر ٣٠١
٥ — النظام القضائى
(ا) القضاء
١ — فى الدولة العباسية ٣٠٦
٢ — فى مصر ٣١١
٣ — فى الأندلس ٣١٣
(ب) المظالم ٣١٤
(ج) الحسبة ٣١٦
رواتب القضاء ٣١٧

الباب الثامن
الحالة الاقتصادية

١ — الزراعة ٣١٩
٢ — الصناعة ٣٢٢
٣ — التجارة ٣٢٦
(ا) طرق التجارة ٣٢٦
(ب) أشهر مراكز التجارة ٣٢٨

الباب التاسع

الثقافة والفن

١ — الثقافة

صفحة

مراكز الثقافة ٣٣١

(ا) العلوم النقلية

١ — التفسير ٣٣٨
٢ — الحديث ٣٤٣
٣ — الفقه ٣٤٦
٤ — علم الكلام ٣٤٩
٥ — علم اللغة ٣٥٢
٦ — الأدب

(ا) النظم

تمهيد ٣٥٦
١ — أمراء الشعر العربى
(ا) البحترى ٣٥٨
(ب) ابن الرومى ٣٦٠
(ج) أبو الطيب المتنبي ٣٦٢
(د) أبو العلاء المعرى ٣٦٤
٢ — شعراء الفرس ٣٦٧
٣ — شعراء مصر والأندلس ٣٦٨
(ا) ابن هانىء الأندلسى ٣٦٨
(ب) أبو حامد الأنطاكى ٣٦٩

(ب) النثر

١ — الجاحظ ٣٦٩
٢ — أبو اسحاق الصابى ٣٧١
٣ — الصاحب إسماعيل بن عباد ٣٧٣
٤ — أبو بكر الخوارزمى ٣٧٥
٥ — بديع الزمان الهمذانى ٣٧٦

(ب) العلوم العقلية

صفحة

١ ـــ الفلسفة ٣٧٩
(ا) أبو إسحاق الكندى ٣٨٠
(ب) إخوان الصفا ٣٨١
(ج) أبو نصر الفارابى ٣٨٣
(د) أبو على بن سينا ٣٨٤
٢ ـــ الطب ٣٨٥
(ا) أبو بكر الرازى ٣٨٧
(ب) على بن العباس المجوسى ٣٨٩
(ج) أبو على بن سينا ٣٨٩
(د) أطباء مصر ٣٩١
٣ ـــ علم النجوم والفلك ٣٩٣
٤ ـــ الرياضيات ٣٩٦
٥ ـــ التاريخ ٣٩٧
٦ ـــ الجغرافيا ٤٠٣

٢ ـــ الفن

(ا) العمارة عند العباسيين ٤٠٥
(ب) العمارة فى مصر
تأسيس مدينة القطائع ـــ جامع ابن طولون ٤٠٨
تأسيس مدينة القاهرة ـــ الجامع الأزهر ٤١٠
(ج) العمارة فى المغرب والأندلس
تأسيس مدينتى المهدية والمنصورية ٤١٤
تأسيس مدينتى الزهراء والزاهرة ٤١٦

الباب العاشر

الحالة الاجتماعية

١ ـــ طبقات الشعب

(ا) فى عهد العباسيين ٤٢١
(ب) فى عهد الفاطميين ٤٢٥

صفحة

(ح) فى عهد الأمويين بالأندلس ٤٢٦
٢ — مجالس الغناء والطرب
(ا) فى الدولة العباسية ٤٢٨
(ب) فى مصر والأندلس ٤٣٢
٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء
(ا) فى الدولة العباسية ٤٣٣
(ب) فى مصر ٤٣٤
(ح) فى الأندلس ٤٣٦
٤ — الطعام والشراب
(ا) عند العباسيين ٤٣٨
(ب) فى مصر والأندلس ٤٣٩
٥ — الملابس ٤٤٢
٦ — المرأة ٤٤٥
الإماء . . . . . .
٧ — الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات
(ا) الأعياد والمواسم ٤٥١
(ب) المواكب ٤٥٤
(ح) الحفلات ٤٥٥
زواج قطر الندى من الخليفة المعتضد ٤٥٦
٨ — أنواع التسلية ٤٥٩

ملاحق الكتاب

الملحق الأول : كيف كان عضد الدولة يقضى يومه ٤٦٢
الملحق الثانى : سياسة يعقوب بن الليث الصفار ٤٦٤
الملحق الثالث : رد الإخشيد على كتاب رومانوس إمبراطور الروم . . ٤٦٦
الملحق الرابع : الموقعة التى دارت ببلاد الشام بين محمد بن سليمان الكاتب
والحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة ٤٦٨
الملحق الخامس : الجدل بين طائفتى المعتزلة وأهل السنة والجماعة . . . ٤٧٠

صفحة

للحق السادس : استقبال الحكم المستنصر الأموى بالأندلس ، أردون ملك جليقية حين وفد عليه فى سنة ٣٥١هـ واستنجد به على منافسه وابن عمه شانجه ٤٧٢
مصادر الكتاب ٤٧٥
كشاف ٤٨٨
الخرائط والصور :
انحلال الدولة العباسية . . . . . أمام ص ١
اتساع الدولة الفاطمية . . . . . أمام ص ١٤٤
الحروب بين العباسيين والبيزنطيين فى القرن الرابع الهجرى أمام ص ٢٣٢

انحلال الدولة العباسية

في القرن الرابع الهجري

- الدولة العباسية في أقصى اتساعها
- ما بقي تحت حكم الخليفة العباسي
- حدود الولايات التي استقلت

المحيط الأطلسي
الأندلس
المتوسط
المغرب
بلاد
الكبرى
الصحراء
بحر الروم
بحر بنطش
الخزر
الترك
بلاد
الصين
بلاد العجم
بلاد الهند
بحر الهند
مصر
بلاد السودان
بلاد الحبشة
بلاد الصومال
اليمن
حضرموت
عمان
فارس
كرمان
مكران
العراق العجمي
العراق العربي
بحر الخزر
بحر القلزم
الفسطاط
الإسكندرية
دمشق
بغداد
الكوفة
البصرة
واسط
الري
همذان
أذربيجان
أرمينية
خراسان
سمرقند
بخارى
الصغد
فرغانة
الشاش
الديلم
طبرستان
جرجان
نيسابور
هراة
سجستان
مكران
الهند
السند
الملتان
قندهار
غزنة
كابل
الديبل
المنصورة
المدينة المنورة
مكة المكرمة
الطائف
عدن
زبيد
صنعاء
نجران
القلزم
الفرما
برقة
أفريقية
القيروان
تاهرت
سجلماسة
فاس
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
طليطلة
سرقسطة
قرطاجنة
مرسية
بلنسية
طرطوشة
برشلونة
جليقية
نافارة
أرجون
قشتالة
ليون
البرتغال
الأندلس

طبعت بمطبعة الجامعة المصرية بمكتبة (G٣٢/١٩٣٢)

الباب الأول

عصر نفوذ الأتراك

(٢٣٢ — ٣٣٤هـ)

تمهيد :

يعتبر عهد الخليفة المتوكل العباسى بدء عصر انحلال الدولة العباسية الذى انتهى بسقوطها على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ . ويرجع ضعف هذه الدولة إلى عدة عوامل : نذكر منها اعتماد العباسيين على الفرس ثم على الأتراك، وإيثارهم إياهم بالمناصب المدنية والعسكرية على العرب الذين كانوا مادة الإسلام وقوام الدولة العربية ، فضعفت عصبيتهم وانحطت منزلتهم وانصرفت قلوبهم عن تأييد الدولة .

ومما أثار حقد العرب على العباسيين ، فتك هؤلاء ببنى أمية ، وتمثيلهم بهم ، ومناصبتهم العلويين العداء ؛ فقام العلويون فى وجههم ، لأنهم استأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحق بها منهم ، إذ أن الدولة قامت باسمهم وبسيوف أشياعهم .

ذلك إلى ضعف قيمة العهود والمواثيق فى نظر الخلفاء العباسيين ونقضهم لها إذا عارضت مصالحهم ، مع مخالفة ذلك لقوله تعالى . (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) .

ومن ذلك ظهور كثير من بدع الملاحدة والزنادقة ، كالروندية والخرمية وأصحاب المقالات وطوائف المتكلمين كالمعتزلة وغيرهم ، مما أدى إلى انقسام المسلمين شيعاً وطوائف يناهض بعضها بعضاً ، بل يحاول بعضها القضاء على الدولة نفسها .

وعلى الرغم من هذه العوامل ، كان للعصر العباسى الثانى ميزاته ومظاهر حضارته ، فقد اشتهر فيه كثير من الخلفاء الذين حاولوا إعادة الدولة العباسية إلى ما كانت عليه من قوة ومجد ، كما ظهر فيه بعض الدويلات الصغيرة المتنافسة ، كالسامانية والبويهية والحمدانية والغزنوية والسلجوقية . فكان لتلك الدويلات أثر محمود فى تقدم الحضارة الإسلامية

وتشجيع العلوم والآداب والفنون وغيرها ، مع أنها كانت من عوامل ضعف الدولة العباسية .

وسيتضح من ترجمة حياة خلفاء هذا العصر مدى استبداد الأتراك بالسلطة فى جميع أمور الدولة ، وكيف أصبح فى أيديهم تولية الخلفاء وعزلهم .

كان المعتصم أول الخلفاء العباسيين الذين استعانوا بالأتراك وأسندوا إليهم مناصب الدولة وأقطعوهم الولايات الإسلامية . « وكان هذا الانقلاب من الحكم العربى إلى الحكم التركى مظهراً من مظاهر الثورة التى أحس بها معظم أجزاء الخلافة وأدت إلى إضعاف سلطة الخليفة وزوالها فى النهاية » (١) .

وقد أدرك المعتصم خطر هؤلاء الأتراك الذين آذوا أهل بغداد ، ففكر فى نقلهم إلى سامرا التى اتخذها قاعدة لخلافته . وبلغ من ازدياد نفوذهم أن حقد عليهم العرب والفرس وتآمروا على المعتصم وكبار رجال دولته من الأتراك الذين أصبحوا خطراً على الخلفاء العباسيين وعلى الدولة العباسية ، حتى إن المعتصم نفسه شكا منهم فى أواخر أيامه ، وعبر عن أسفه لأحد أعوان أخيه المأمون لاعتماده عليهم .

خلفاء العصر العباسى الثانى

(١٠ — ٨٤٧/٤٤٧ — ١٠٧٥)

	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
(١) المتوكل	٢٣٢	٨٤٧	(١٠) القاهر	٣٢٠	٩٣٢
٢) المنتصر	٢٤٧	٨٦١	(١١) الراضى	٣٢٢	٩٣٤
٣) المستعين	٢٤٨	٨٦٢	(١٢) المتقى	٣٢٩	٩٤٠
٤) المعتز	٢٥٢	٨٦٦	(١٣) المستكفى	٣٣٣	٩٤٤
(٥) المهتدى	٢٥٥	٨٦٦	(١٤) المطيع	٣٣٤	٩٤٦
(٦) المعتمد	٢٥٦	٨٧٠	(١٥) الطائع	٣٦٣	٩٧٤
(٧) المعتضد	٢٧٩	٨٩٢	(١٦) القادر	٣٨١	٩٩١
(٨) المكتفى	٢٨٩	٩٠٢	(١٧) القائم	٤٢٢	١٠٣١
(٩) المقتدر	٢٩٥	٩٠٨	(١٨) المقتدى	٤٦٧	١٠٧٥

(١) Stanley Lane-Poole . History of Egypt in the Midde Ages, p. 29

(٢) الطبرى جـ ١١ ص ٨ — ٩ . أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب (الطبعة الثالثة) جـ ٢ ص ١٧٣

جدول يمثل تسلسل الخلفاء فى الحكم

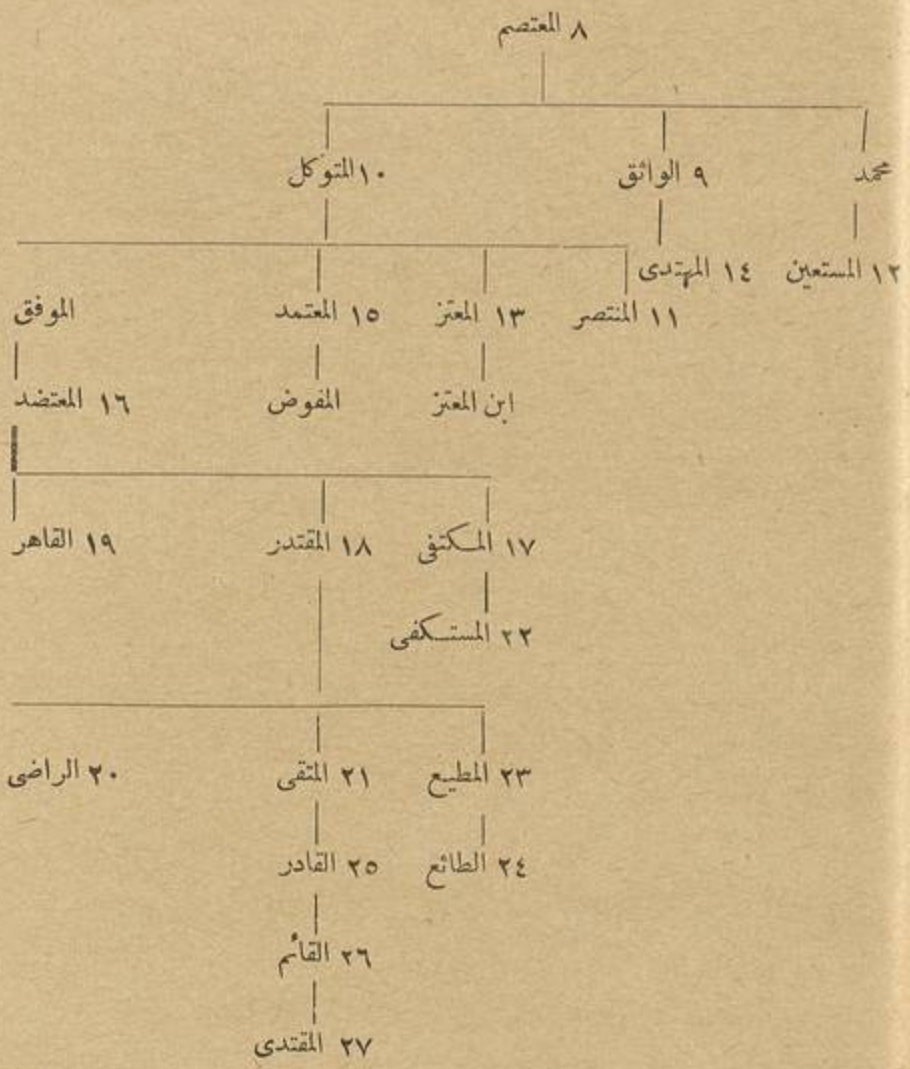

المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) :

ولد جعفر بن المعتصم فى سنة ٢٠٦ هـ بفم الصلح ، وهى بلدة على نهر دجلة على مقربة من مدينة واسط ، ويكنى أبا الفضل . وأمه أم ولد يقال لها شجاع ، « كانت — كما يقول الخطيب البغدادى [١] — من سروات النساء سخاء وكرما » ، قيل إنها تركية ، وقيل أيضاً أنها خوارزمية أو رومية . وقد تربت منذ حداثة سنها فى بيت المعتصم واشتركت فى تربية ابنها وإعداده لاعتلاء العرش .

ولى الواثق أخاه المتوكل إمارة الحج فى سنة ٢٢٧هـ ، ولما عاد غضب عليه الواثق وحد من نفوذه . فقد ذكر المؤرخون أن أم الواثق كانت أم ولد تسمى قراطيس ، وكانت شجاع أم المتوكل أم ولد كما تقدم ، فلم يكن الأخوان شقيقين . وذكر الطبرى (ج ١١ ص ٢٧) أن جعفرا رأى فى المنام كأن سكرا سليمانيا يسقط عليه من السماء مكتوب عليه جعفر المتوكل على الله ، فقال له بعض خاصته : « هى والله أيها الأمير أعزك الله الخلافة » ، وبلغ الواثق ذلك فحبسه وضيق عليه .

مات الواثق ولم يعهد لابنه محمد . وقد سئل وهو فى مرضه الذى مات منه أن يوصى بالخلافة فقال كلمته المأثورة : « لا يرانى الله أتقلدها حيا وميتا » مقتفيا فى ذلك أثر عمر بن الخطاب وكان محمد صغيرا لا يصلح للخلافة ، ولم يكن طامعا فيها لانحراف بعض رؤساء الدولة عنه وخوفهم منه أن يثأر لنفسه منهم .

وكان المتوكل يميل إلى أهل السنة ويعمل على نصرتهم ، وضرب بالسياط رجلا سب أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة . وقد بدأ حكمه بنهى الناس عن القول بخلق القرآن الذى شغل الدولة العباسية فى عهد المأمون والمعتصم والواثق .

ذكر المسعودى [٢] أن المتوكل « أمر بترك النظر والمباحثة فى الجدال ، والترك لما كان عليه الناس فى أيام المعتصم والواثق ، وأمر الناس بالتسليم والتقليد ، وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة » ، وكتب بذلك إلى الأمصار الإسلامية . وكان لعمله هذا أثر حسن فى نفوس المسلمين فأولوه احترامهم : وبالغوا فى تعظيمه والثناء عليه ، حتى قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر الصديق يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى رده المظالم ، والمتوكل فى إحياء السنة .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٩

(٢) تاريخ بغداد جـ ٧ ص ١٦٦

لكن المتوكل أساء إلى نفسه بسياسة العنف التى انتهجها فى معاملة العلويين ، فأمر فى سنة ٢٣٦ هـ بهدم قبر الحسين بن على وما حوله من الدور ، وأن يحرث ويبذر ، ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه ، فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى فى الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة أيام بعثنا به إلى المطبق (سجن) ، فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه ، وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه(١) . وقد أثار المتوكل بهذه السياسة حفيظة المسلمين ، وخاصة أهل بغداد الذين ردوا على الإهانات التى ألحقها بالعلويين بسببه فى المساجد والطرقات .

ومن الآفات الطبيعة التى وقعت فى عهد المتوكل هبوب عاصفة شديدة على بغداد والبصرة والكوفة وغيرها من مدن العراق ، فاحترق الزرع والماشية ، وانقطعت المواد الغذائية عن الأسواق فى بغداد وغيرها ، فانتشرت المجاعة وهلك كثير من الناس .

وقد انتهز الروم فرصة الضعف الذى طرأ على الدولة العباسية فاستأنفوا غاراتهم على أراضيها ، فأغاروا على دمياط وفتكوا بأهلها وأحرقوا دورهم ، ثم غزوا قاليقلا (قيليقا) فى جنوبى آسيا الصغرى ، وهزموا أهلها هزيمة منكرة ، إلى غير ذلك من الحروب التى سيأتى الكلام عليها فى باب العلاقات الخارجية .

ويظن أن المتوكل كان يروم نقل الخلافة إلى الشام ويجعل العرب عمادها وأعوانها ، تبرما بالترك وكثرة ما أحدثوا فى الدولة من فوضى وإفساد للشئون العامة ، حتى ضاق بهم أهالى العراق ولم ينج الخلفاء من شرهم .

اشتهر المتوكل بالحلم . فقد ذكر محمد بن أبى عون أنه لما أتى بمحمد بن المغيث إليه وقد دعا له بالنطع والسيف قال له المتوكل : يا محمد ما دعاك إلى المشاقة ؟ قال : الشقوة يا أمير المؤمنين ، وأنت ظل الله الممدود بينه وبين خلقه . إن لى فيك لظنين أسبقهما إلى قلبى أولاهما بك ، وهو العفو عن عبدك . فقال المتوكل: أفعل خيرهما وأمن عليك ، ارجع إلى منزلك . قال ابن المغيث : يا أمير المؤمنين ! الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وفى سنة ٢٣٥ هـ ولى المتوكل العهد أولاده : محمداً وسماه المنتصر ، وأبا عبد الله بن قبيحة ولقبه المعتز ، وابراهيم وسماه المؤيد ، « وعقد لكل واحد منهم لواءين ، أحدهما أسود وهو لواء العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل » (٢) .

---

(١) الطبرى ج ١١ ص ٤٤ .
(٢) الطبرى ج ١١ ص ٣٨

على أن المتوكل رأى أن يقدم ابنه المعتز على أخوية المؤيد والمنتصر، لمحبته لقبيحة أم المعتز. ويظهر أن ذلك كان راجعاً إلى ما حاكه رجال بلاطه من دسائس لإقصاء المنتصر والمؤيد.

ولكن المنتصر غضب لذلك فدبر مع الأتراك مؤامرة لاغتيال أبيه. ولا غرو فقد حاول بعض الأتراك الملتفين حول المنتصر قتل المتوكل غيلة بدمشق، ولكنهم أخفقوا فى تدبيرهم بفضل بغا الكبير والفتح بن خاقان [١]. على أن بغا الصغير اتفق مع باغر التركى على قتل المتوكل، فضربه بالسيف، واستقرت الخلافة لابنه المنتصر.

ومن هنا نتبين مدى تغلغل نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية وأثرهم فى تصريف شئونها فيما بعد، حتى إن الخليفة العباسى أصبح مسلوب السلطة مهيض الجانب ضعيف الإرادة.

« كانت أيام المتوكل — كما يقول المسعودى — (ج ٢ ص ٣٩٤) فى حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها، وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها، أيام سراء لاضراء، كما قال بعضهم: كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص الشعر وأمانى الحب وأيام الشباب ».

ويقول ميور [٢]: « إن مدح المؤرخين لعهد المتوكل الذى دام خمس عشرة سنة أعاد فى خلالها المذهب السنى إلى ما كان عليه، وشجع الشعراء والعلماء، يخفف بعض الشىء مما اشتهر به هذا العهد من الظلم المنطوى على القسوة والانغماس فى الملاذ والتطرف فى الآراء الدينية ».

المنتصر بالله (٢٤٧—٢٤٨هـ):

خلف المتوكل ابنه وقاتله المنتصر بالله فى شوال سنة ٢٤٧ هـ، وادعى أن الذى قتل أباه هو الفتح بن خاقان، وأنه قتله أخذا بثأر أبيه، وبايعه الناس بالخلافة، وبعث بنسخة البيعه إلى الأمصار [٣].

ولما تمت البيعة للمنتصر حسن إليه الأتراك خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد، إذ كانوا يخشون بأسهما. وكتب كل واحد منهما رقعة بخطه أنه خلع نفسه من البيعة.

---

(١) المسعودى: مروج الذهب ج٢ ص ٣٨٩ — ٣٩٠

(٢) The Caliphate, p. 530

(٣) الطبرى ج ١١ ص ٧١ — ٧٢.

كان المنتصر بخلاف أبيه يحسن إلى العلويين ، فأزال عنهم ما كانوا فيه من الخوف وسمح لهم بزيارة قبر الحسين ، وكان أبوه قد منعهم من ذلك ، فأنشد يزيد المهلبي .

ولقد بررت الطالبية بعدما ذموا زمانا بعدها وزمانا
وردت ألفة هاشم فرأيتهم بعد العداوة بينهم إخوانا

« كان المنتصر — على ما وصفه ابن الأثير (ج ٧ ص ٢٩) — عظيم الحلم راجح العقل غزير المعروف راغباً فى الخير جواداً كثير الإنصاف حسن العشرة » . وروى المسعودى[1] أن على بن يحيى المنجم قال : « ما رأيت أحداً مثل المنتصر ، ولا أكرم أفعالا بغير تبجح منه ولا تكلف . »

وعلى الرغم من أن المنتصر كان يعطف على الأتراك قبل قتل أبيه ، لم يلبث أن غضب عليهم وصار يسبهم ويقول : « هؤلاء قتلة الخلفاء » ، ففكروا فى قتله وأغروا طبيبه ابن طيفور بذلك وأعطوه ثلاثين ألف دينار ، ففصده بريشة مسمومة ، فمات فى ٥ ربيع الآخر سنة ٢٤٨ هـ وله من العمر ست وعشرون سنة .

يقول صاحب الفخرى (ص ٢١٧) « كان المنتصر شهماً فاتكا سفاكا للدم . لما قتل أباه تحدث الناس بأنه لايطول له العمر بعده ، وشبهوه بشيرويه بن كسرى حين قتل أباه ولم يستمتع بالملك بعده . قالوا : لما قتل المنتصر أباه وبويع له بالخلافة ، جلس على بساط لم ير الناس مثله ، وعليه كتابة عجيبة بالفارسية ، فنظر إليها المنتصر واستحسنها وقال لمن حضر : هل تعرفون معناها ؟ فأحجموا وقالوا لا نعرف ، فاستحضر رجلا عجميا غريباً وأمره بقراءتها ، فأحجم الرجل ، فقال له المنتصر : قل وما عليك بأس فليس لك ذنب ، فقال الرجل : على هذا البساط مكتوب : أنا شيرويه بن كسرى قتلت أبى فلم أتمتع بالملك بعده إلا ستة أشهر . فتطير المنتصر من ذلك ونهض من مجلسه مغضباً ، فلم تتم ستة أشهر حتى مات » .

المستعين بالله (٢٤٨ — ٢٥٢هـ):

ولما مات المنتصر اجتمع القواد وتشاوروا فيمن يولونه الخلافة بعده ، وأجمعوا رأيهم على توليـة أحمد بن محمد المعتصم ، وبايعوه وله من العمر ثمان وعشرون سنة ، ولقب

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠٣ — ٤٠٤

المستعين بالله . وكان العباسيون لا يأمنون جانب الأتراك ، كما كان هؤلاء يعملون على تولية الخلافة من يطمئنون إليه من أمراء البيت العباسى . لذلك لم يرضوا بأن يولوا أحدا من أولاد المتوكل حتى لايثأر منهم لقتل أبيه المتوكل وسم أخيه المنتصر (١) .

على على أن الأتراك وعلى رأسهم باغر التركى الذى اشترك فى قتل الخليفة المتوكل ، سرعان ما قلبوا للمستعين ظهر المجن ، ولا سيما بعد أن اتصل بمسامعهم أنه عول على القضاء عليهم . وهنا انقسم الأتراك على أنفسهم : فريق منهم ، وعلى رأسه وصيف وبغا ، صحب الخليفة إلى بغداد ، وفريق آخر طلب إليه العودة إلى سامرا ، واعتذروا عما بدر منهم ، فامتنع عن تلبية طلبهم (٢) .

ولما رأى الأتراك تنكر المستعين بن محمد بن المعتصم لهم وامتناعه عن العودة إلى سامرا ، خلعوه وبايعوا ابن عمه المعتز بن المتوكل . ومن ثم قامت الحرب بينهما ودامت عدة أشهر ، وأثر ذلك فى حالة البلاد الاقتصادية ، فغلت الأسعار ، وعظم البلاء (٣) .

ولما انهزم الخليفة المستعين استجار بمحمد بن عبد الله بن طاهر فخذله ومال إلى المعتز . وانصرف أبو أحمد الموفق من بغداد إلى سامرا ، فخلع عليه المعتز وتوج ووشح بوشاحين ، وخلع على من كان معه من قواده ، وقدم على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبردة والقضيب والسيف وبجوهر الخلافة .

وقد أخرج الخليفة المعزول إلى واسط ، واختار الأتراك أحمد بن طولون ليصحبه ، فأحسن إليه وأطلق له الحرية فى التنقل والصيد . وعلى الرغم من ذلك الفوز الذى أحرزه الأتراك بخلع المستعين ونفيه ، أو جسوا شرا من بقائه حيا ، وأوعزوا إلى المعتز أن خلافته لن تثبت إلا إذا قتل المستعين ، ووافقهم على ذلك قبيحة أم المعتز التى خافت على حياة ولدها أن تمتد إليه يد الأعداء ، فكتبوا إلى ابن طولون يطلبون إليه قتل المستعين ويمنونه ولاية واسط ، فلم يرض أن يقتل خليفة له فى رقبته بيعة ، فأرسلوا سعيدا الخادم أحد حجاب القصر فى شرذمة من الجيش إلى واسط ، فتولى قتل الخليفة بنفسه (٤) .

وصفوة القول أن موقف المستعين من الأتراك كان كما وصفه أحد الشعراء :

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ٤٠ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج٢ص٤٠٧ — ٤٠٨ .
(٣) ابن الأثير جـ٧ ص ٤٩ — ٥٠
(٤) المصدر نفسه جـ٧ ص ٦٠ — ٦١ .

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

ويقول صاحب الفخرى (ص ٢٢٢) : « واعلم أن المستعين كان مستضعفاً فى رأيه وعقله وتدبيره ، وكانت أيامه كثيرة الفتن ودولته شديدة الاضطراب ، ولم يكن فيه من الخصال المحمودة ، إلا أنه كان كريماً وهوباً » .

المعتز — المرهندى :

كان المعتز بن المتوكل — كما يصفه صاحب الفخرى — (ص ٢٢٠) « جميل الشخص ، حسن الصورة ، ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس . إلا أن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير ، وإن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه » .

ومما يدل على مدى تغلغل الأتراك فى أمور الدولة وتسلطهم على حياة الخلفاء أنفسهم هذه العبارة التى رواها صاحب الفخرى (ص ٢٢١) قال : « لما جلس المعتز على سرير الخلافة . قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم : انظروا كم يعيش وكم يبقى فى الخلافة ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا : فكم تقول إنه يعيش وكم يملك ؟ قال : مهما أراد الأتراك ، فلم يبق فى المجلس إلا من ضحك » .

وكان المعتز يخاف الأتراك ويخشى بأسهم ولا يأمن جانبهم . وكان بغا الصغير أشد هؤلاء خطرا عليه . ويصف ابن الأثير [1] قتل المعتز فى هذه العبارة : « فدخل إليه جماعة منهم فجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه ، وأقاموه فى الشمس فى الدار ، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر . وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ، وأدخلوه حجرة ، وأحضروا ابن أبى الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه ، وشهدوا على صالح ابن وصيف أن للمعتز وأمه وولده وأخته الأمان . وكانت أمه قبيحة قد اتخذت فى دارها سرداباً ، فخرجت منه هى وأخت المعتز . وكانوا قد أخذوا عليها الطريق ومنعوا أحداً

---

(١) جـ ٧ ص ٦٨ — ٦٩ .

يجوز إليها ، وسلموا المعتز إلى من يعذبه ، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام ، فطلب حسوة (جرعة) من ماء البئر فمنعوه ، ثم أدخلوه سردابا وحصحصوا عليه ، أى جعلوه فى بيت وسدوا بابه ، فمات .

استخفت قبيحة بعد موت ابنها المستعين خوفاً على حياتها من شر صالح بن وصيف ، وأخفت ما عندها من المال وقدره ١٫٨٠٠٫٠٠٠ دينار ، عدا كثير من الجواهر والحلى والزمرد واللؤلؤ والياقوت الذى لا تعرف له قيمة . ومن الغريب أنها عرضت ابنها للقتل ورفضت أن تدفع للثائرين خمسين ألف دينار فقط (١) .

أما المهتدى بن الواثق فقد ولى الخلافة بعد قتل أخيه المعتز سنة ٢٥٥ هـ ، وظهرت فى أيامه قبيحة أم المعتز بعد أن استخفت مدة ؛ كما قام العامة فى مستهل خلافته بثورة فى بغداد وأبوا مبايعته ، ولكنه استعمل المال فى إخماد هذه الثورة فبايعوه . ثم لم يلبث الجند أن ثاروا عليه بسبب استيلاء سليمان بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد على رواتبهم ، وعبث الخراسانيون بالعامة فعولوا على التخلص من قائدهم وطردوه . كما أذكى العلويون نار الثورة فى كثير من البلاد الإسلامية . فقد ثار الحسن بن زيد العلوى بطبرستان . وبدأت ثورة الزنج التى هددت الدولة العباسية زهاء أربع عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، وشق الخوارج بزعامة مساور الشاورى عصا الطاعة فى الموصل .

ومن أهم هذه الثورات : ثورة أحمد بن عيسى بن الشيخ . وكان أبوه عيسى واليا على فلسطين والأردن . ولما مات تغلب ابنه أحمد على دمشق وامتنع عن حمل المال إلى دار الخلافة ، وانتهز فرصة اضطراب حبل الأمور فى حاضرة الدولة ، فحدثته نفسه بالعصيان والاستيلاء على سائر بلاد الشام وطمع فى مصر .

وقد عمد الخليفة المهتدى إلى التخلص منه بالمكايد والخدع ، فولاه أرمينية على أن يستخلف من ينوب عنه فى ولاية الشام ليقصيه عنها ، وندب أحمد بن طولون لقتاله على أن يتقلد بلاد الشام بعد إخضاعه (٢) . ولكن سرعان ما وافى ابن طولون وهو فى الطريق كتاب من العراق يأمره بالعودة إلى مصر . وقدم ماجور التركى من العراق وهزم قوة ابن

---

(١) المسعودى : مروج الذهب . ج ٢ ص ٤٢٩ — ٤٣٠ .
(٢) الكندى : كتاب الولاة ص ٢١٤ . المقريزى . خطط ج ١ ص ٣١٥ .

الشيخ واستولى على دمشق ، ولحق ابن الشيخ بنواحى أرمينية فتولى ماجور أعمال الشام كلها .

وكان المهتدى — كغيره من الخلفاء الذين جاءوا بعد المتوكل — ألعوبة فى أيدى الأتراك . وليس أدل على ما وصل إليه الخليفة من الضعف وما بلغته الخلافة من الوهن والانحلال من هذه العبارة التى رواها الطبرى : « رفع المهتدى يديه إلى السماء ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : اللهم إنى أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا وإخلاله بالثغر وإباحته العدو ، فإنى قد أعذرت فيما بينى وبينه . اللهم تول كيد من كايد المسلمين اللهم انصر جيوش المسلمين حيث كانوا ! اللهم إنى شاخص بنيتى واختيارى إلى حيث نكب المسلمون فيه ، ناصراً لهم ودافعاً عنهم ، اللهم فآجرنى بنيتى إذ عدمت صالح الأعوان ، ثم انحدرت دموعه يبكى »(١) .

نعم! لقد أصبح الخليفة العباسى فى ذلك العصر ألعوبة فى أيدى هؤلاء الجند الذين كانوا تحت إمرة موسى بن بغا ، ولكن المهتدى اتخذ من هذا الضعف قوة لأخذ الثأر . وكيف يثأر لنفسه ولا جيش يحميه ؟ لقد لجأ إلى الحيلة والدهاء وحاول أن يستميل إليه باكباك أحد قواد الجيش ، فطلب إليه أن يقوم بقتل موسى بن بغا على أن يؤمره على الجيش من بعده . ولكن باكباك لم يثق بالخليفة ووعوده ، وسار إلى موسى وعرض عليه الكتاب ، واتفقا فيما بينهما على أن يسير باكباك إلى المهتدى متظاهراً بالإخلاص له حتى يدبر قتله .

وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على قتل الخليفة على أثر قتله بعض الموالى ، فثاروا عليه ، ثم أسروه وخلعوه ولم يكتفوا بذلك بل عذبوه حتى مات فى رجب سنة ٢٥٦(٢) هـ .

وقد وصف المسعودى (٣) الخليفة المهتدى فى هذه العبارة : « وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ، ونهى عن القيان وأظهر العدل . وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويخطب الناس ويؤم بهم ، فثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله إياهم على الطريق الواضحة ، فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه وعملوا الحيلة حتى قتلوه» .

---

(١) الطبرى جـ ١١ ص ١٧٣٠

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢ .

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٣١ .

وكان المهتدى أحسن الخلفاء العباسيين سيرة وأظهرهم ورعا وأكثرهم عبادة . وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ويقول : إنى أستحيي أن يكون فى بنى أمية مثله ولا يكون مثله فى بنى العباس . وكان يجلس للمظالم فيحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم ، كما كان يتقلل فى مأكله وملبسه (الفخرى ص ٢٢٢ — ٢٢٣) .

روى إبراهيم بن مخلد بن محمد بن عرفة عن بعض الهاشميين قال : إن المهتدى وجدوا له سفطا فيه جبة صوف وكساء وبرنس ، كان يلبسه فى الليل ويسلى فيه ويقول أما تستحى بنو العباس أن لايكون فيهم مثل عمر بن عبد العزيز ، وكان قد أطرح الملاهى وحرم الغناء والشراب ومنع أصحاب السلطان عن الظلم ؟ وقد أثر عنه أنه كان إذا صام أفطر على الخبز والزيت والخل والملح [١] .

المعتمد على الله (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) :

وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على قتل الخليفة المهتدى فى شهر رجب سنة ٢٥٦هـ ، وبايعوا المعتمد بن المتوكل بالخلافة ، وكان إذ ذاك محبوساً بالجوسق . يقول صاحب الفخرى (ص ٢٢٦) «وقد غلب أخوه الموفق حتى لم يبق له من الخلافة إلا إسمها» . وذلك أن صاحب الزنج أو دعى آل على ، لما ثار فى وجه الخلافة العباسية واستفحل أمره فى هجر وبلاد البحرين ، وقدم البصرة ، أنفذ الخليفة المعتمد إلى مكة رسولا أحضر أخاه أبا أحمد طلحة (٢٥٧ هـ) — وكان الخليفة المهتدى قد نفاه إليها — وولى عهده ابنه جعفر ، وسماه المفوض إلى الله ، وولى أخاه أبا أحمد طلحة من بعده وسماه الموفق ، وقسم الدولة العباسية بين ابنه وأخيه ، فخص الموفق بالبلاد الشرقية ، وولى المفوض البلاد الغربية ، وضم إليه موسى بن بغا ، وولاه إفريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وأرمينية وطريق خراسان وغيرها ، فحكمها باسمه ، واتخذ موسى بن عبيد الله بن سليمان بن وهب كاتباً له . وشرط الخليفة أن يختص كل من المفوض والموفق كل بعمله ، فلا ينظر أحدهما فى عمل الآخر ، وأن يقوم كل منهما بالنفقة على قسمه من خراج ذلك القسم ، وأمر بكتاب البيعة فحفظ فى الكعبة . على أن هذا العمل لم يرض الموفق ، لما كان يضمره لأخيه من حسد ، وما كان يراه من عدم أهليته للخلافة ؛ وزاد فى حقده عليه تقديمه ابنه المفوض عليه فى الخلافة . يقول صاحب

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٨٣ — ٨٤

الفخرى (ص ٢٢٦) : « كان المعتمد مستضعفاً ، وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره . وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع ، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة : للمعتمد الخطبة والسكة ، والتسمى بإمرة المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقود العساكر ، ومحاربة الأعداء ، ومرابطة الثغور ، وترتيب الوزراء والأمراء . وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته » . ويقول السيوطى [1] : « وانهمك المعتمد فى اللهو واللذات واشتغل عن الرعية ، فكرهه الناس وأحبوا أخاه طلحة » .

أما موسى بن بغا فهو من أحسن الأمثلة التى تبين لنا مدى اتساع نفوذ الأتراك فى ذلك العصر. كان بغا الكبير أبو موسى من قواد الجيش العباسى أيام الخليفة المعتصم. وقد اشترك فى كثير من الحروب التى شبت للذود عن الخلافة ، وأبدى فيها شجاعة ممتازة رفعته فوق غيره من القواد ، حتى سمح له أن يتزوج من بيت الخلافة فكان — كما يقول الطبرى — ابن خاله المتوكل .

وقد بدأ موسى حياته فى الجندية ، ودرج فى الجيش حتى أصبح من أكبر قواده ، وقام بدور هام فى الثورات التى أقامها الأتراك فى وجه الخلفاء : فطوراً نراه يذب عن عرش الخلافة ، وطوراً يتآمر مع المتآمرين لنيل هذا العرش . كما نرى الخلفاء يندبونه لتهدئة الثائرين على الدولة . ولما ولى المعتمد الخلافة صانع الأتراك وخاصة قائدهم موسى بن بغا وبالغ فى إكرامه ، فأرسله فى سنة ٢٥٩ هـ لقتال صاحب الزنج ، وشيعه إلى خارج مدينة سامرا وخلع عليه . ولما ولى ابنه المفوض العهد ضم إليه موسى ، فغدا الساعد الأيمن لكل من المفوض والموفق ، يستعينان به على إخماد ثورة الزنج تارة ، وعلى كبح جماح الخارجين على الدولة تارة أخرى . حتى وافته منيته سنة ٢٦٤ هـ .

وقد وقع فى عهد الخليفة المعتمد أحداث هامة كان لها أثر كبير فى تاريخ الدولة العباسية : أهمها ثورة الزنج ، واختفاء الإمام الثانى عشر عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية ، وتأسيس طائفة الإسماعيلية التى تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق .

وقد أثارت ثورة الزنج الطاحنة عداء الموفق لابن طولون والى مصر . ولم يكن الموفق بعيد النظر ؛ فلو أنه استمال ابن طولون الذى لبى نداءه أول الأمر وأمده بما يعينه على حرب هذا الخارجى — على الرغم من أنه لم يكن تابعاً له — لاستطاع أن يوجه همه ويبذل كل

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢ .

جهوده فى محاربة صاحب الزنج والقضاء عليه وعلى أتباعه ، قبل أن يستفحل خطرهم ويتفاقم شرهم فى بلاد الدولة العباسية الشرقية التى كان يليها الموفق .

نعم ! لقد نفذت موارد الشرق أو كادت لما حل به من البلاء على أثر هذه الحروب المتصلة التى شنها الموفق على الزنج . هذا إلى ما كان من تثاقل الأهالى عن حمل الخراج وانصراف الخليفة إلى ملاذه ، فأقبل على الصيد واللعب ومنادمة النساء ، فضاعفت حرمة الخلافة واستبد العمال بالولايات .

ولم ير الموفق الذى ندبه الخليفة لمحاربة الزنج بدا من الالتجاء إلى أحمد بن طولون ، فأرسل إليه مع نحرير خادم الخليفة المتوكل كتابا يشكو فيه سوء الحالة المالية فى بلاده ، وطلب إليه أن يمده بالمال الذى يساعده على الاستمرار فى محاربة صاحب الزنج . ولما علم الخليفة المعتمد بذلك أرسل إلى ابن طولون كتاباً يأمره فيه بضرورة حمل مال مصر إلى دار الخلافة وكل ما جرى الرسم بحمله مع المال فى كل سنة من الرقيق والخيل والشمع والطراز [١] وغير ذلك ، كما أرسل إليه أيضاً كتاباً سرياً يقول فيه إن أبا أحمد الموفق إنما أرسل رسوله ليستقصى أخباره وليكون عيناً عليه ، ويشير على ابن طولون بأن يأخذ الحيطة لنفسه ، لأن الموفق كاتب قواد مصر ليفسدهم عليه [٢] .

وقد بعث ابن طولون مع رسول الموفق مليوناً ومائتى ألف دينار ، وشيعه بنفسه حتى وصل إلى العريش ؛ وبذلك خالف ابن طولون الخليفة وأرسل المال إلى الموفق ، لأنه كان يعلم حقيقة الحال فى البلاد الشرقية ، كما وقف على مدى الخطر الذى هدد سلامة الدولة العباسية من ناحية الزنج .

على أن الموفق لم يحمد لابن طولون هذا الصنيع ، وأظهر الجفاء فى كتاب طويل أرسله إليه ، ثم عمد إلى إختيار رجل يصرف به ابن طولون عن مصر ، وأوعز إلى موسى بن بغا — وكان عون الدولة وأشد أهلها بأساً وإقداماً — بصرف ابن طولون عن مصر وتقليدها

---

(١) الطراز من شارات السلطان وهو كتابة اسم الخليفة مع كلمات أخرى يتفاءلون بها فى أثوابهم الخاصة . وقد سميت الدور التى يصنع بها الطراز «دور الطراز» ، كما كان القائم عليها يسمى «صاحب الطراز» — أنظر مقدمة ابن خلدون ص ٢١٣ — ٢٩٣ . الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ٧٩ و ٢١٢ و ٤٠٧ كتاب أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية للدكتور أدولف جروهمان ترجمة المؤلف ص ٣ — ٤
Encyclopaedia of Islam. Tiraz, s. v.

(٢) ابن الدية : سيرة ابن طولون ص ١٩ — ٢٠ . المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٧٨ — ١٧٩

ماجور وإلى الشام : فكتب موسى إلى ماجور كتاب التقليد وأنفذه إليه ، ولكنه توقف عن إرساله إلى ابن طولون ، لما كان بينهما من النسب ، ولأنه آنس فى نفسه العجز عن مناهضته . وقد خشى ابن بغا أن يزداد نفوذ ابن طولون ، لأن فى ولايته على مصر والشام تهديداً لسلطة الخليفة والأتراك معاً . وسرعان ما سار إلى الرقة وأخذ يستعد لقتاله ؛ وأقام ابن بغا بالرقة عشرة أشهر يتحين الفرص لقتال ابن طولون ، لكن أحواله اضطربت لتألب الجند عليه ومطالبتهم بدفع أرزاقهم ، فعاد إلى بغداد حيث عرضت له علته ، فحمل إلى سامرا وأقام بها شهرين ومات فى شهر صفر من سنة ٢٦٤ هـ[١] .

على أن الموفق لم يستطع الكيد لابن طولون والنيل منه بعزله عن مصر ، فعمد إلى عزله عن الثغور الشآمية ، بيد أن الخليفة أمر بردها إليه ، بعد أن اضطربت أحوالها .

وسرعان ما سار بن طولون بجيشه نحو بلاد الشام ، فدانت له أمهات مدنها ودعى له على منابرها (٢٦٤ — ٢٦٥ هـ) ، وجعل الرقة مقر ولايته الجديدة . ولكنه اضطر إلى العودة إلى مصر لإخماد ثورة ابنه العباس ، ولكن لما بلغه خروج لؤلؤ والى الرقة عليه خرج ثانية إلى الشام (جمادى الأولى سنة ٢٦٩هـ) . واستخلف على مصر ابنه خمارويه ، وبينما هو فى طريقه إلى الشام بلغه خروج أهل طرسوس وعزلهم واليه عليهم ، فعول على السير إليها .

وقد انتهز الخليفة فرصة اشتغال الموفق بحرب صاحب الزنج ، وخرج من سامرا متظاهراً بالصيد (جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ) ، وأرسل ابن طولون قائدين من قواده لانتظار الخليفة بالرقة . وأراد الخليفة أن يمر على إسحاق بن كنداج عامل الموصل والجزيرة ، وكان الموفق قد أرسل إليه صالح بن مخلد يأمره برد الخليفة والقبض على من معه من القواد ، ويمنيه بأطيب الأمانى . ولما وصل المعتمد إلى الحديثة لقيه ابن كنداج وتظاهر بموالاته له [٢] ، وانحدر به إلى سامرا . ومنعه من نزول دار الخلافة . ولا غرو فقد شل الموفق يده عن مباشرة أمور الدولة وحجر عليه . وقد قيل إنه احتاج يوما إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها [٣] .

---

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٠٧ـ٢١٨ .

(٢) راجع سيرة ابن طولون لابن الداية ص٦٨ـ٦٩ ، والكندى : كتاب الولاة ص ٢٠٤ـ٢٢٠

(٣) ابن الأثير جـ٧ ص ١٥٧ـ١٨١

وصفوة القول أن الخليفة المعتمد كان على حد قول السيوطى (١) : « هو أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به » .

ولم يزل العداء مستحكما بين الموفق والطولونيين فى مصر بعد وفاة أحمد بن طولون ، فقد واصل ابنه خمارويه لعن الموفق على المنابر ، وبعث الواسطى كاتب أبيه إلى الشام بجيش كثيف ، وعززه من البحر بأسطول قوى . وخرج الموفق من بغداد ، وانضم إليه ابن كنداج والى الموصل ، ومحمد بن أبى الساج والى أرمينية والجبال ، واستولوا على دمشق . فلم ير خمارويه بداً من الخروج بنفسه ، فدخل دمشق سنة ٢٧٣ هـ ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداج فى أعماله ، وتم الصلح بين والى مصر ودار الخلافة ، وكتب الموفق والخليفة المعتمد وابنه المفوض كتاب الصلح بأيديهم ، ويتضمن تولية خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة . هنا أمر خمارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر وبالدعاء له مع الخليفة .

كانت أيام المعتمد أيام محن وخطوب . ذكر ابن الأثير (جـ ٧ ص ١٥٨) أن الحرب اشتعلت فى أوائل سنة ٢٧٨ هـ بين أصحاب وصيف الخادم والبربر وغيرهم . وأنه قتل جماعة كبيرة من الفريقين . وفى هذه السنة توفى أبو أحمد الموفق بعد أن أعياه النقرس الذى ألم به وهو فى بلاد الجبل حتى إنه لم يقدر على الركوب ، فعمل له سرير عليه قبة ، فكان يقعد عليه وخادم له يبرد رجله بالأشياء الباردة ، حتى إنه يضع عليها الثلج ، ثم صارت علة رجله داء الفيل(٢) . وكان يحمل سريره أربعون رجلا بالنوبة ، فقال لهم يوما : قد ضجرتم من حملى ، بودى أن أكون كواحد منكم أحمل على رأسى وآكل وأنا فى عافية . وقال فى مرضه : أطبق ديوانى على مائة ألف مرتزق ما أصبح فيهم أسوأ حالا منى » .

وصل الموفق إلى داره فى اليوم الثانى من شهر صفر سنة ٢٧٨هـ ومات ، فحمل أنصاره الخليفة المعتمد وأولاده من المدائن . ومات الموفق ودفن بالرصافة بعد أن قبض على أزمة الأمور فى الدولة العباسية وغلب على أخيه المعتمد حتى لم يبق له من الخلافة إلا اسمها .

وكان الموفق — مع ذلك — « عادلا حسن السيرة يجلس للمظالم ، وعنده القضاة وغيرهم ، فينتصف الناس بعضهم من بعض » وكان عالما بالأدب والنسب والفقه وسياسة

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٣

(٢) هو ورم فى الساق يسيل منه ماء .

الملك وغير ذلك . قال يوما : إن جدى عبدالله بن العباس قال : إن الذباب ليقع على جليسى فيؤذينى ذلك — وهذا نهاية الكرم — وأنا والله أرى جلسائى بالعين التى أرى بها إخوانى والله لو تهيأ لى أن أغير أسماءهم لنقلتها من الجلساء إلى الأصدقاء والإخوان . وكان الموفق يميل إلى الأبهة والترف .

جلس أبو العباس بن الموفق للعزاء ، واجتمع القواد وبايعوه بولاية العهد بعد المفوض إلى الله بن المعتمد ولقبوه المعتضد بالله ، وتحولت إليه سلطة أبيه . فضعف أمر الخليفة المعتمد ، فأشهد على نفسه أنه خلع ابنه المفوض من ولاية العهد وبايع لأبى العباس المعتضد . ومات المعتمد بعد أشهر فجأة حتى تواترت الإشاعات بأنه سم . وقد بقى فى الخلافة ثلاثا وعشرين سنة ، كانت عهد فتن واضطرابات ، على الرغم من ازدهار عصره بطائفة من العلماء الأعلام كالبخارى ومسلم وأبى داود والترمذى وابن ماجه ومحمد بن عبد الحكم المؤرخ المصرى المشهور والقاضى بكار .

المعتضد بالله — المكتفى بالله :

لما مات الخليفة المعتمد بويع لأبى العباس بن الموفق ولقب المعتضد بالله . وقد أحسن المعتضد إلى آل على ، وأخذ يشيد بفضله ويذم الأمويين ، على أن بعض خاصته نصح له بأن يعدل عن هذه السياسة حتى لا يمهد السبيل إلى رعاياه بالالتفاف حول العلويين فتضيع هيبة العباسيين ويخرج الأمر من أيديهم . كذلك اكتسب المعتضد محبة الناس عندما أصدر أوامره بابطال ديوان المواريث . وبأن يورث ذوو الأرحام . كما منع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وماشا كلها . ومنع القصاص والمنجمين من الجلوس فى الطريق . وصلى بالناس صلاة الأضحى ، فكبر فى الركعة الأولى ستا وفى الثانية واحدة ، ولم تسمع منه الخطبة (١) .

وقد أقر المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب فى الوزارة . وفى عهده خرج عمرو بن الليث الصفار أحد زعماء الصفارية واستولى على كثير من بلاد الفرس ، كما ظهر فى عهده القرامطة فى الكوفة على يد حمدان قرمط ، وفى البحرين على يد أبى سعيد الجنابى . وظهر ابن حوشب فى بلاد اليمن حيث نشر الدعوة للمهدى ، وأبو عبدالله الشيعى الذى نشر

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٥ — ٢٤٧ .

الدعوة الفاطمية فى بلاد المغرب وحارب كثيراً من زعماء البربر ومهد للقضاء على دولة الأغالبة فيما بعد . كما ظهر فى عهد المعتضد نصر بن أحمد السامانى مؤسس الدولة السامانية فى بلاد ما وراء النهر على ما سيأتى الكلام على ذلك فى الباب الرابع .

وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج (سنة ٢٧٨ هـ) والخليفة المعتمد (سنة ٢٧٩ هـ) على توثيق العلاقات بين خمارويه بن أحمد بن طولون والخليفة العباسى . ولا غرو فقد استطاع خمارويه أن يكسب رضا المعتضد بهداياه ، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة ، وجعلها لأولاده من بعده . ويذكر أبو المحاسن [١] « أن رسول الخليفة قدم على خمارويه يحمل إليه اثنتى عشرة خلعة ، وسيفاً وتاجاً ووشاحاً » . وكان من أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التى تلقبت بقطر الندى من ابن الخليفة العباسى ، ولكنه اختارها لنفسه .

وكان المعتضد وافر العقل شديد الوطأة قليل الرحمة ، إذا غضب على قائد أمر بإلقائه فى حفرة وردم عليه . وكان شهماً جلداً موصوفاً بالرجلة ، قد لقى الحروب وعرف فضله ، فقام بالأمر أحسن قيام ، وهابه الناس ورهبوه أعظم رهبة ، وسكنت الفتن فى أيامه لفرط علته . وكانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاء ، وكان قدأسقط المكوس ونشر العدل ورفع الظلم عن الرعية ، كما كان يسمى السفاح الثانى لأنه جدد ملك بنى عباس .

وقد وصفه ابن الأثير [٢] فى هذه العبارة : « كان المعتضد أسمر نحيف الجسم معتدل الخلق ، وكان شهماً شجاعا مقداما . وكان ذا عزم ، وكان فيه شح . بلغة خبر وصيف خادم ابن أبى الساج وعليه قباء أصفر ، فسار من ساعته وظفر بوصيف وعاد فدخل أنطاكية وعليه القباء ، فقال بعض أهلها : الخليفة بغير سواد ، فقال بعض أصحابه إنه سار فيه ولم ينزعه إلى الآن . وكان عفيفاً ، وكان مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفا منه » .

وقد نبغ فى عهد المعتضد كثير من الكتاب والمفكرين والشعراء ، نخص بالذكر منهم ابن أبى الدنيا (٢٨١ هـ) مثقف الخليفة المكتفى فى حداثته ، والبحترى (٢٨٤هـ) ، والمبرد اللغوى المشهور (٢٨٦ هـ) ، وابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، والبلاذرى (٢٧٩ هـ) ، وأبا حنيفة الدينورى (٢٧٦ هـ) ، وابن واضح اليعقوبى (٢٨٢هـ) ، وكانوا من أكابر مؤرخى هذا

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٧٨ . (٢) ج ٧ ص ١٨٣ .

العصر . كما نبغ ثابت بن قرة الحرانى الرياضى المشهور ، وابن الفقيه الهمدانى الجغرافى ، وكلاهما مات حول سنة ٢٨٧ هـ . ومن أفذاذ شعراء هـذا العصر ابن المعتز وابن الرومى وكان المعتضد نفسه شاعراً يجيد الشعر (١) .

لما مات المعتضد ولى الخلافة بعده ابنه أبو محمد وتلقب المكتفى بالله . وأمه أم ولد تركية اسمها جيچك ، وكان يضرب المثل بحسنها . وكان عند موت أبيه بالرقة ، فقام القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب بأخذ البيعة له . وقد عاد الخليفة الجديد إلى بغداد ونزل بدار الخلافة ، وأقر القاسم بن وهب فى الوزارة . وسرعان ما أدركت هذا الوزير الوفاة ، فاستوزر المكتفى العباس بن القاسم .

وقد عمل الوزير القاسم بن وهب الذى أخذ البيعة للمكتفى على التخلص من بدر « صاحب جيش المعتضد والمستولى على أمره والمطاع فى خدمه وغلمانه » . وعزا الطبرى ذلك إلى أن هذا الوزير كان قد حاول تحويل الخلافة عن بيت المعتضد فى حياته ، ولكن بدراً غلام المعتضد لم يوافقه على ذلك ، فانتهز هذا الوزير فرصة تغيب بدر فى فارس ودبر مؤامرة انتهت باغتياله (٢) ، لأنه خاف أن يفشى سر مؤامرته ضد أبناء المعتضد ، واتخذ من تغير المكتفى على بدر منذ عهد أبيه المعتضد وسيلة لإيغار صدره عليه ، وصور بدراً بصورة الثائر (٣) .

وفى عهد المكتفى كان السامانيون أصحاب النفوذ المطلق فى فارس ، كما تفاقم شر القرامطة حول بغداد والبصرة ، وفى سورية بزعامة زكرويه ، وألقوا الرعب والفزع فى قلوب الأهلين . وذكر المؤرخون أنهم هاجموا قوافل الحاج فى عودتهم من مكة وقتلوا منهم عشرين ألف .

وقد خرج القرامطة الشماليون الذين ثاروا فى العراق العربى وبادية السماوة وبلاد الشام بزعامة يحيى بن زكروية ، فقتل فى سنة ٢٩٠ هـ ، ثم خرج أخوه الحسين . كما زالت الدولة الطولونية على يد محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة المكتفى سنة ٢٩٢ هـ ، ثم أزال نفوذ قرامطة الشمال بقتله زكرويه سنة ٢٩٤ هـ .

كان المكتفى حسن السيرة محبوباً عند الرعية ، « سار سيرة جميلة فأحبه الناس ودعوا له » ، ولكنه كان مبذراً كثير البذل . ويقول السيوطى (٤) إنه « هدم المطامير التى اتخذها أبوه

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٨ .
(٢) الطبرى جـ ١١ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .
(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٨٤ — ١٨٥
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٠ ، ٢٥١

المعتضد وصيرها مساجد ،وأمر برد البساتين والحوانيت التى أخذها أبوه من الناس ليعملها قصراً إلى أهلها » . ومن مآثر المكتفى المسجد الجامع بالرحبة والتاج بالدار الشاطئية ببغداد.

واشتهر فى أيام المكتفى من العلماء عبدالله بن أحمد بن حنبل ، وثعلب إمام العربية ، والبزاز صاحب المسند ، ومحمد بن نصر المروروزى الإمام ، وأبو جعفر الترمذى شيخ الشافعية فى العراق .

ولم يعمر المكتفى فى الخلافة ، فمات فى ١١ من ذى الحجة سنة ٢٩٥ هـ،وكان فى ريعان الشباب ، فخلفه أخوه المقتدر .

المقتدر – القاهر :

خلف المكتفى أخوه أبو الفضل جعفر بن المعتضد وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، وتلقب المقتدر ، وكان كالريشة فى مهب الريح ؛ قلده العباس بن الحسن وزير المكتفى ليكون أسلس قياداً من ابن المعتز ، وانتصح بنصيحة ابن الفرات الذى أشار عليه بتولية المقتدر وقال له : اتق الله ولا تنصب فى هذا الأمر من قد عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا وجارية هذا وضيعة هذا وفرس هذا ، ومن لقى الناس ولقوه وعرف الأمور وتحنك وحسب حساب نعم الناس . قال (ابن الفرات) : فاستعاد ذلك منى الوزير دفعات ، ثم قال : فبمن تشير ؟ فقلت بجعفر بن المعتضد فقال : ويحك ! جعفر صبى ، قلت : إلا أنه ابن المعتضد. ولم تجىء برجل يأمر وينهى ويعرف ما لنا وبمن يباشر التدبير بنفسه ويرى أنه مستقل ؟ ولم لا تسلم هذا الأمر إلى من يدعك تدبره أنت ؟ (١) .

ولكن الوزير العباس بن الحسن لم يلبث أن عمل على خلع المقتدر وتولية عبدالله بن المعتز الخلافة . ولما بلغ ذلك المقتدر أعطى ابن المعتز بعض المال ، فعدل عن رغبته فى الخلافة . غير ان هذا لم يمنع أنصاره من تحقيق سياستهم ، فلم ير المقتدر بداً من الهرب فى ٢٠ من ربيع الأول سنة ٢٩٦ هـ ، فحضر القواد والقضاة والأعيان وبايعوا عبدالله بن المعتز بالخلافة ولقبوه «المرتضى بالله» (٢) ، فاستوزر محمد بن داود بن الجراح ، وقلد على بن عيسى الدواوين ، وولى أبا المثنى أحمد بن يعقوب القضاء .

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٣

(٢) يقول الطبرى (ج ١١ ص ٤٠٥) إنه لقب الراضى بالله . ويقول السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢٥٢) إنه لقب الغالب بالله

روى السيوطى [١] أن محمد بن جرير الطبرى لما علم بخلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز قال : « ما الخبر ؟ قيل : بويع ابن المعتز . قال : فمن رشح للوزارة ؟ قيل : محمد بن داود. قال : فمن ذكر للقضاء ؟ قيل : أبو المثنى ، فأطرق ثم قال : هذا الأمر لا يتم ، قيل له : وكيف ؟ قال : كل واحد ممن سميتهم متقدم فى معناه عالى الرتبة ، والزمان مدبر والدنيا مولية ، وما أرى هذا إلا إلى اضمحلال ، وما أرى لمدته طولا » .

ولما تم الأمر لابن المعتز ، أرسل إلى المقتدر يأمره بالانصراف إلى دار محمد بن طاهر حتى يتيسر له الانتقال إلى دار الخلافة ؛ فعول أتباع المقتدر ، وعلى رأسهم مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال والحاشية على محاربة ابن المعتز ، واتجهوا إلى المخرم حيث كان يقيم ابن المعتز ، فهرب مع وزيره محمد بن داود وقاضيه أحمد بن داود وحاجبه يمن . وسادت الفوضى بغداد ، ووقع النهب والقتل ، وحبس المقتدر عبد الله بن المعتز ، فظل فى حبسه إلى أن مات ، وقبض على الفقهاء والأمراء الذين ناصروه وساعدوه على خلعه ؛ وبذلك استقر الأمر للمقتدر من جديد[٢] .

كان المقتدر ـ كما وصفه صاحب الفخرى (ص ٢٣٣) ـ « سمحا كريماً كثير الإنفاق ، رد رسوم الخلافة من التجمل وسعة الإدرارات والمعاش وكثرة الخلع والصلات » .

ولما توطدت سلطة المقتدر استوزر أبا الحسن على بن محمد بن الفرات ، وإليه يرجع الفضل فى تهدئة الفتنة التى سادت بغداد على أثر انتقال الخلافة إلى المقتدر ، وتم له ذلك فى يوم واحد . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

ودبرت فى ساعة دولة تميل بغيرك فى أشهر[٣]

على أن هذا الوزير لم يبق فى الوزارة مدة طويلة ، فقد قبض عليه المقتدر لأمور نسبت إليه ، واستوزر بعده أبا على محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وكان سيء السيرة كثير التولية والعزل . وقد ساءت حالة الدولة فى عهد هذا الوزير ، حتى إن الخليفة المقتدر لم ير بداً من عزله وتعيين على بن عيسى بدله (٣٠١هـ) .

على أن بقاء هذا الوزير المصلح لم يطل بسبب إسراف الخليفة المقتدر ، وعزله الوزراء

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٢.
(٢) مسكوية : تجارب الأمم ج ١ ص ٦ — ٨
(٣) الفخرى ص ٢٣٨ .

والقبض عليهم ، وتدخل النساء فى أمور الدولة لصغر سنه وانصرافه إلى اللهو . وفى ذلك يقول صاحب الفخرى (ص ٢٣٥) : « واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ، ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ؛ فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذته ، خربت الدنيا فى أيامه ، وخلت بيوت الأموال ، واختلفت الكلمة ، خلع ثم أعيد ثم قتل » .

ولا غرو فقد أصبح الأمر والنهى بيد أمه ، وكانت تسمى « السيدة » . وبلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت إذا غضبت هى أو قهرمانتها من أحد الوزراء كان مصيره العزل لامحالة . وقد اتسعت سلطة « السيدة » إلى حد أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها « ثومال » صاحبة المظالم ؛ وأدى تدخل النساء فى أمور الدولة إلى ضعفها وحرمانها من وزرائها الأكفاء واستهتار العامة بها .

انتشرت الفتن فى عهد المقتدر ، فخرج عليه مؤنس الخادم فى سنة ٣١٧ هـ بعد أن بلغه أنه فكر فى تولية هارون بن غريب مكانه ، وأرسل مؤنس إلى المقتدر ينبئه بتذمر الجيش من إسراف الحاشية والخدم ، وضياع الأموال وإفساد الحكم بسبب تدخلهم فى أمور الدولة ويلح عليه فى إخراجهم من قصره والاستيلاء على ما فى أيديهم . فرد المقتدر عليه بكتاب ينفى فيه التهم التى وجهت إليه وإلى رجال حاشيته . فطلب القواد ، وعلى رأسهم أبو الهيجاء الحمدانى ونازوك ، إخراج هارون بن غريب عن بغداد ، فأجابهم الخليفة إلى ما طلبوه ، وولى هارون الثغور الشامية والجزرية . وخلا الجو بذلك لهؤلاء ، فثاروا على الخليفة ، وأخرجوه من داره ، ونادوا بخلعه ، وبايعوا محمد بن المعتضد بالخلافة ، ولقبوه القاهر بالله [1] .

على أن إقامة الحفلات بمناسبة تقليد القاهر الخلافة لم تشبع نهم الجند ، « فجاء العسكر يطلبون رزق البيعة ورزق السنة ، ولم يكن مؤنس حاضراً ، فارتفعت الأصوات ، فقتلوا الحاجب ومالوا إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر ليردوه إلى الخلافة ، فحملوه على أعناقهم من دار مؤنس إلى قصر الخلافة » . وقد هدأت الأحوال بعودة المقتدر الذى أطلق للجند أرزاقهم وزاد فيها ، وباع ما فى خزانته من الأمتعة والجواهر [2] .

---

(١) مسكويه . تجارب الأمم جـ ١ ص ١٨٩ ، ١٩٢
(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ٧٠

وقد وصف ميور[١] الدولة العباسية فى عهد المقتدر فقال : « إن عهد هذا الخليفة التعس قد هوى بالدولة إلى الحضيض . فقد ضاعت ممتلكاتها فى الخارج : فضاعت إفريقية وأوشكت مصر أن تضيع ، واستقل أمراء بنى حمدان بالموصل ، واستطاع البيزنطيون أن يشنوا إغاراتهم المتصلة على الحدود المتاخمة التى ضعف الدفاع عنها . ومع ذلك بقى شىء من الاعتراف بسلطان الخلافة فى البلاد الشرقية ، حتى بين أولئك الأمراء الذين نادوا أخيراً باستقلال ولاياتهم . أما فى الأراضى القريبة من حاضرة العباسيين فقد أخمدت ثورات القرامطة المخيفين إلى حين . وفى بغداد نفسها ، صار الخليفة المقتدر الذى كان آلة فى أيدى رجال البلاط المفسدين ذوى الأطماع الدنيئة تحت رحمة حراسة من الأجانب الذين أصبحوا يأتمرون إلى حد كبير بأوامر القواد من الأتراك وغيرهم ، الذين لايمتون إلى العباسيين بصلة والذين كانوا يشعلون نار الثورة من حين إلى حين .

وإذا علمنا أن هذا الخليفة قد غلب على أمره وخلع مرتين وذبح فى النهاية عندماحاول مقاومة أحد قواده المخلصين لعرشه الذى استعان به . فلا نعجب إذا تلاشت تلك الهيبة التى عمل أسلافه القريبون على استعادتها ، وغدا العرش مرة ثانية هدفا للازدراء فى الداخل ، وفرصة سانحة تحمل على إغراء المغيرين على الدولة من الخارج . أضف إلى ذلك أن الشعب قد فسدت أخلاقه ، ولم تعد بغداد بعد ذلك المكان الذى يضم رجالا أقوياء يدافعون عن بلادهم ، بل يحكمون أنفسهم إذا دعت الحالة إلى ذلك ، أما الآن فقد أصبحوا أحزاباوشيعاً متطاحنة تستطيع أن تخضب الطرق بالدماء . كما فعلوا فى ذلك الحين عند تفسير نص من النصوص ، وكما حدث أيضاً عندما ثار الحنابلة ورموا الطبرى بالإلحاد وحالوا دون دفنه».

وقد أشار ابن الأثير[٢] إلى ذلك بقوله : دفن الطبرى« ليلا بداره لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً ، وادعوا عليه بالرفض ثم ادعوا عليه الإلحاد ... فليس الأمر كذلك وإنما بعض الحنابلة تعصبوا عليه ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم : ولذلك سبب هو أن الطبرى جمع كتاباً فيه اختلاف الفقهاء ـ لم يصنف مثله ـ ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فقيل له فى ذلك فقال : لم يكن فقيها وإنما كان محدثاً ؛ فاشتد ذلك على الحنابلة ، وكانوا لايحصون كثرة ببغداد . فشغبوا عليه وقالوا ما أرادوا .

حسدوا الفتى إذ لم ينالواسعيه فالناس أعداء له وخصوم

---

(١) The Caliphate, pp 567—8

(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ٤٥ — ٤٦

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً إنه لدميم

لم يمض على عودة المقتدر إلى الخلافة للمرة الثانية سنة واحدة ، حتى خرج عليه مؤنس ثانية ، وانتهى الأمر بقتله ، وتركت جثته مكشوفة أياما ، ثم دفن بالموضع الذى مات فيه ، وذلك يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوال سنة ٣٢٠ هـ . وقد أدى ما فعله مؤنس إلى تجرؤ الولاة العباسيين على خلفائهم ، كما أدى إلى ضعف الخلافة (١) .

وفى عهد المقتدر نبغ كثير من العلماء ، نخص بالذكر منهم الفقيه محمد بن داود الظاهرى وابن شريح شيخ الشافعية ، والجنيد شيخ الصوفية . والنسائى صاحب كتاب السنن ، والجبائى شيخ المعتزلة ، وابن جرير الطبرى ، والزجاج النحوى ، والأخفش الصغير النحوى وأبو عوانة صاحب الصحيح ، وقدامة بن جعفر الكاتب ، وابن ذكريا الطبيب .

ولى الخلافة بعد المقتدر أخوه أبو منصور محمد بن المعتضد ولقب القاهر بالله ، وفى عهده انتشرت الفتن الداخلية ، فلم تمض عليه فى الخلافة سنة واحدة حتى شغب عليه الجند ، واتفق بعض كبار رجال دولته وقائده مؤنس ووزيره ابن مقلة على خلعه وتولية أحد أولاد المكتفى ، فلما علم القاهر بذلك عول على التخلص منهم ، « فتحيل القاهر عليهم إلى أن أمسكهم وذبحهم وطين على ابن المكتفى بين حيطين » (٢) .

وقد اشتهر القاهر بالقسوة ، « واتخذ حربة عظيمة يحملها بيده إذا سعى فى ذلك ، ويطرحها بين يديه فى حال جلوسه يباشر الحرب (٣) بتلك الحربة لمن يريد قتله ؛ فسكن من كان يستعدى على من كان قبله من الخلفاء والتشعب والوثب عليهم . وكان .. مخوف السطوة (٤) » ؛ ويقول السيوطى (٥) : « إنه زيدت فى ألقابه عبارة المنتقم من أعداء الله ونقش ذلك على السكة » .

وكان القاهر — كما وصفه الصولى — « أهوج سفاكا للدماء قبيح السيرة كثير التلون والاستحالة ، مدمن الخمر ، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل » .

وقد نجا الوزير ابن مقلة بنفسه ، إلا أن داره أحرقت ، ونهبت دور أتباعه ؛ ولما هدأت الفتنة أعطى الخليفة القاهر الجند أرزاقهم ، فهدأت نفوسهم وسكنت ثائرتهم ، واستطاع أن يقبض على زمام الأمور من جديد (٦) ، إلا أن جماعة الساجية أتباع ابن أبى الساج أحد

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٨٢ — ٨٣
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧
(٣) ولعله يريد الضرب
(٤) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٥١٤
(٥) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧ ، ٢٥٨
(٦) ابن الأثير جـ ٨ ص ٨٣ — ٨٤

قواد المعتمد ، والحجرية [١] خافوا بطش القاهر ، وشجعهم على شق عصا الطاعة دسائس ابن مقلة . وزاد شك هؤلاء الجند إقامة الخليفة القاهر المطامير [٢] فى داره للفتك بزعمائهم ، ويقول ابن الأثير (جـ ٨ ص ٩٧) : إن القاهر لما تمكن من الخلافة أغلظ للساجية والحجرية حتى كان لايقضى لأكابرهم حاجة ، وإنه حفر فى داره خمسين مطمورة تحت الأرض ، وأحكم أبوابها . وقيل : إنه حفرها لمقدمى الساجية والجلارية ، وأثار بذلك نفورهم وخوفهم منه ، كما قبض على جماعة من القرامطة وأرسلوا من فارس إلى بغداد ، فحبسوا فى تلك المطامير ، ثم تقدم سراً بفتح الأبواب عليهم والإحسان إليهم ، ليستعين بهم وبغلمانه على القبض على مقدمى الحجرية والساجية .

وفى عهد القاهر اشتهر من العلماء أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الذى نبغ فى الشعر واللغة ، حتى وصفه المسعودى [٣] بقوله « إنه برع فى الشعر وانتهى فى اللغة وقام مقام الخليل ابن أحمد فيها » .

وذكر صاحب الفخرى (ص ٢٤٩) أن القاهر « خرج يوما ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس ، وقصد بذلك التشنيع على المستكفى ، فرآه بعض الهاشميين ، فمنعه من ذلك ، وأعطاه خمسمائة درهم » . ولما علم المستكفى بذلك منعه من الخروج ؛ وظل محبوساً إلى أن مات فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٩هـ ، وذلك فى عهد الخليفة الطائع لله (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) ، وله من العمر ثلاث وخمسون سنة .

---

(١) هم جماعة من الشباب يقيمون فى حجر منفردة، وهم فرقة من الحرس الخاص فى قصور الخلفاء .

(٢) المطمورة هى حفرة تحت الأرض . وبنى مطمورة إذا بنى بيتا فى الأرض ، ويقصد بذلك حجرا تحت الأرض أعدت للسجن والتعذيب

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥١٨

الباب الثانى

عصر إمرة الأمراء

(٣٢٤ - ٣٣٤هـ / ٩٣٩ - ٩٤٨م)

عوامل ظهور نظام إمرة الأمراء

كانت بلاد فارس وما جاورها بيئة صالحة لنمو كثير من العناصر التى ناوأت الخلافة العباسية ، فقد قامت فى هذه البلاد عدة دول كالطاهرية والصفارية والسامانية ، كما قامت فيها أيضاً دول أسسها رجال من الديلمة من أمثال ماكان بن كالى ، ومرداويج بن زيار ، وأخيه وشمكير بن زيار ، ثم قامت فيها دولة بنى بويه الذين استولوا على بغداد سنة ٣٣٤ هـ ثم دولة السلاجقة الذين استولوا عليها سنة ٤٤٧ هـ ، ووضعوا الخلافة العباسية تحت حمايتهم واستبدوا بالسلطة دون الخلفاء . ثم قامت الدولة الخوارزمية التى تخلصت من نفوذ السلاجقة وناوأت الخلافة والمغول ، وكانت فى النهاية سبب ما حل بالخلافة من المصائب التى انتهت بسقوط بغداد وزوال الدولة العباسية فى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وفى سنة ٣٢٢ هـ عظم أمر مرداويج بن زيار الديلمى أحد قواد أسفار أمير قزوين ، فطرد أسفار واستولى على بلاده ؛ ثم فتح الرى وأصفهان ، وكانا من قبل تحت ولاية يوسف ابن أبى الساج ، واستولى على طبرستان وجرجان والرى وهمذان وأصبهان . وبلغت جيوشه نواحى حلوان . وقد عمل هذا القائد على الاستيلاء على بغداد وإعادة مجد الدولة الفارسية . ولم ير الخليفة العباسى المقتدر بداً من إقراره على ما بيده ، بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية (١) .

ولما قتل مرداويج بن زيار الديلمى على يد غلمانه خلفه أخوه وشمكير . على أن نفوذه

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٦٥ و٧٢ـ٧٣ و٨٤ـ٨٥ و١١٣ـ١١٤ .

سرعان ما ضعف ، وانتزع منه ركن الدولة بن بويه بلاد الرى سنة ٣٣٠ هـ ، كما انتزع أبو على محمد بن المظفر بن محتاج والى نصر بن أحمد السامانى على بلاد خراسان وبلاد طبرستان وجرجان ، وأرغمه على المسير إلى بلاد الجبل حيث أذعن لطاعة نصر بن أحمد السامانى ثم لابنه نوح بن نصر . ولما اعتلى منصور بن نوح عرش الدولة السامانية أنفذه على رأس جيش كبير لمحاربة ركن الدولة بن بويه ، ولكنه مات فى الطريق .

استعان الراضى فى إدارة شئون دولته ببعض وزراء ضعاف كانوا يبذلون للخليفة كثيراً من المال ليرفعهم إلى مرتبة الوزراء . ولا أدل على ذلك مما بذله أبو على بن مقلة حين تقلد الوزارة للمرة الثالثة فى عهد الراضى . فقد دفع للخليفة خمسمائة ألف دينار . غير أنه لم يتمتع بالوزارة طويلا ، إذ ثار عليه الجند ، وقامت فى البلاد فتنة انتهت بعزله ، وصرفه الراضى عن الوزارة واستوزر عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح ؛ فظهر عجزه عن إدارة البلاد . وقلد الراضى أخاه الوزارة ، فاختلت أمور الدولة فى عهد وزارته ، ولم يلبث أن استقال من منصبه ، فحل محله أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخى . وكان — كغيره من الوزراء الذين سبقوه — ضعيف الجانب ، لم يقم بأى عمل فى سبيل إصلاح شئون البلاد وإقالتها من عثرتها ، بل لقد اشتد ضعف الدولة فى عهده ، واضطر أخيرا إلى الاختفاء حتى لا يلحق به أذى الأهلين .

وقد وصفه صاحب الفخرى (ص ٢٥٣–٢٥٤) فى هذه العبارة : « وكان قصيرا جدا فى غاية القصر ، فاحتاجوا أنهم قطعوا من قوائم سرير الخلافة أربع أصابع حتى يتمكن الكرخى الوزير من مشاورة الخليفة ، وتطير الناس من ذلك وقالوا : هذا مؤذن بنقص الدولة ، فكان الأمر كما قالوا عليه ، واختلفت الأحوال واضطربت الأمور لديه فاستتر »

ابن رائق يتقلد إمرة الأمراء — بحكم يخلفه :

ولما رأى الخليفة الراضى أن الكرخى عجز عن النهوض بأعباء الوزارة ، استوزر سليمان بن الحسن بن مخلد ، فعجز هو أيضا عن إدارة شئون البلاد ، لازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم فى أمور الدولة ، مما دعا الخليفة إلى استمالة ابن رائق — وكان يلى واسط والبصرة — وسلم إليه مقاليد الأمور ولقبه « أمير الأمراء » فازدادت سلطته ، وأصبح بيده تولية الولاة وعزلهم ، وزادت مكانته عند الخليفة وعلت على مرتبة الوزير . « ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع وأعمال المعاون فى جميع النواحى ، وفوض إليه

تدبير المملكة ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر فى الممالك ، وبأن يكنى ؛ وأنفذ إليه الخلع واللواء مع ما كرد الديلمى (من الساجية) وخادم من خدم السلطان [١] » .

ويظهر أن محمد بن رائق لم يكن أول من تلقب بلقب أمير الأمراء . فقد ذكر مسكويه[٢] أنه لما ظهرت الوحشة بين الخليفة المقتدر ومؤنس الخادم ، قلد هذا الخليفة هارون بن غريب إمرة الأمراء سنة ٣١٦ هـ .

وبذلك زال نفوذ الوزير فلم يعد ينظر فى شىء من أمر النواحى ولا الدواوين ولم يكن له غير إسم الوزارة ، كما لم يحضر فى دار السلطان إلا فى أيام المواكب ويقف ساكتا . وصار ابن رائق وكاتبه ينظران فى كافة شئون الدولة . « وصارت أموال النواحى تحمل إلى خزائن الأمراء[٣] ، فيأمرون وينهون فيها وينفقونها كما يرون ، ويطلقون لنفقات السلطان ما يريدون ، وبطلت بيوت الأموال » .

وإن حالة الخلفاء العباسيين فى عهد إمرة الأمراء لتشبه فى كثير من الوجوه حالة ملوك الميروفنجيين المتأخرين الذين كانوا أشبه بالأعيب فى أيدى نظار السراى (Maires) والذين لم يعد لهم من الأمر شى إلا ما كان من ظهورهم فى الحفلات الرسمية ، وفيما عدا ذلك عاشوا عيشة العزلة فى إحدى ضياعهم [٤] .

على أن نفوذ ابن رائق لم يلبث أن ضعف سنة ٣٢٦ هـ من جراء منافسة الأمراء له . فقد حاربه أبو عبدالله البريدى صاحب الأهواز ، كما خرج عليه أحد قواده ، واسمه بجكم ، ودخل بغداد سنة ٣٢٧ هـ ، وآلت إليه إمرة الأمراء ، واستولى بذلك على جميع شئون الدولة زهاء سنتين (٣٢٧ — ٣٢٩هـ) . وقد وصف الصولى حالة بغداد فى الوقت الذى تقلد فيه بجكم إمرة الأمراء ، فقال إن العامة عاثوا فى الأرض فساداً ، وانقضوا على الحمامات العامة وأخذوا ثيابا من فيها ، وكثرت المصادرات وتفاقم شر اللصوص الذين تسلحوا بالعدد لكبس الدور ليلا . وشكا الناس من غير جدوى إلى بجكم ما أحله بهم أصحابه من بلاء ، وانتشرت الفوضى والمنازعات وساءت حالة العراق .

وصفوة القول أن حالة الدولة العباسية ، أصبحت من الضعف بحيث لم يتمكن الخليفة

---

(١) تجارب الأمم جـ ١ ص ٣٥١
(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٨٨
(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٩٢
(٤) Oman: European Histony.p.268

الراضى من دفع أرزاق الجند ولا من الحصول على ما يكفيه . وفكر الخليفة فى الاستنجاد بأبى عبدالله الحسن البريدى. (١) وظلت الحال على ذلك حتى توفى الراضى ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٣٢٩ هـ ، بعد أن حكم الدولة العباسية ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وله من العمر إحدى وثلاثون سنة وستة أشهر ؛ وكان الغالب على أمور دولته بجكم التركى . وكان قبل وفاته يقيم بواسط . ويظهر أنه كان لحبسه فى عهد الخليفة القاهر أثر كبير فى ضعف جسمه .

كان الخليفة الراضى آخر خليفة له شعر مدون،وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند ، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء . وقد « سئل أن يخطب يوم جمعة ، فصعد المنبر بسر من رأى ، فشنف الأسماع وبالغ فى الموعظة » (٢) .

وقد وصف ابن الأثير (٣) الدولة العباسية فى عهد الراضى فى هذه العبارة فقال : «ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها ، والحكم فى جميعها لابن رائق ، ليس للخليفة حكم . وأما باقى الأطراف : فكانت البصرة فى يد ابن رائق ، وخوزستان فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمان فى يد أبى على محمد بن إلياس ، والرى وأصبهان والجبل فى يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخى مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان . ومصر والشام فى يد محمد بن طغج ، والمغرب وإفريقية فى يد عبدالرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموى (٤) ، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن أحمد السامانى ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى » .

ولما توفى الراضى بالله اجتمع الكوفى كاتب بجكم مع سليمان بن الحسن وزير الراضى وغيره ممن تقلد الوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة وأفراد البيت العباسى وسائر رجالات الدولة العباسية وشاورهم فيمن يصلح للخلافة فرشحوا إبراهيم بن المقتدر لهذا المنصب.

---

(١) الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ، ص ١٣٣ — ١٣٥ .

(٢) الفخرى ص ٢٥١ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦١ .

(٣) جـ ٨ ص ١١٢ — ١١٣ .

(٤) أعلن عبدالرحمن الثالث بن محمد الأموى فى بلاد الأندلس (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) نفسه خليفة وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله وذلك سنة ٣١٧ هـ .

فأحضر إلى دار الخلافة وبويع له فى العشرين من شهر ربيع الأول سنة ٣٢٩هـ ، وعرضت عليه ألقاب فاختار منها لقب المتقى لله ، وبايعه الناس وسير الخلع واللواء إلى بجكم بواسط(١).

البريديون — الحمدانيون

وقد أحل جند بجكم الهزيمة بالبريديين بالمذار ، بين واسط والبصرة، وأسروا كثيراً من أصحابهم . وسرعان ما تتابعت المصائب على بجكم وأخذ نجمه يأفل ، فنهبت القافلة الذاهبة إلى خراسان ، وأخذ الحزن منه كل مأخذ ، حتى امتنع عن الطعام أياما . ثم ورد الخبر بقتل ماكان بن كالى التركى ،فاحتجب ثلاثة أيام غماعليه . ثم ورد الخبر بإيقاع صاحب خراسان بأخى مرداويج بن زياد وهزيمته إياه ، وانتهت هذه المصائب بقتل بجكم نفسه بيد بعض الأكراد الذين عول على انتهاب أموالهم .

على أن موت بجكم لم يضعف نفوذ الأمراء . فقد دخل أبو الحسين البريدى واسط ثم دخل بغداد فى جيش كثيف من الأتراك والديلم ، واستولى على دار الخلافة وصرف الوزير ابن ميمون ، وتقلد الوزارة أبو عبدالله البريدى . على أن البريديين لاقوا فى بغداد مقاومة عنيفة ، وهرب الخليفة المتقى وابنه ومحمد بن رائق (وكان قد عاد من الشام بعد موت بجكم) إلى الموصل ، وقتل أصحاب البريدى من وجدوه فى دار الخلافة من حاشية الخليفة ونهبوا دار الخلافة نفسها . (٢) .

على أن البريديين لم يظهروا بمحبة الناس جميعا ، فقد عزم الديلم على اغتيال الوزير أبى عبدالله البريدى إذا دخل قصر الخلافة ، وسبوه وأساءوا إلى البريديين ، وأعانهم العامة وتجمعوا على جانبى نهر دجله ، وأخذوا يصيحون ويهتفون هتافات تنم عن سخطهم عليه وكراهتهم له . وهكذا غدت الوزارة عبئا ثقيلا لا يحمله الناس ، فقد رغب على بن عيسى عن قبول الوزارة ، ورغب عنها أخوه عبدالرحمن ، وأخيراً استوزر الخليفة أبا إسحاق الإسكافى المعروف بالقراريطى ، فأشار عليه بأن يعين رجلا يعهد إليه بإمرة الجيش ، وفى ٣ شوال سنة ٣٢٩ هـ عين كورتكين أميرا للجيش ، وخلع عليه ؛ وسرعان ما أرسل على رأس جيش كثيف أخرج البريديين من واسط (٣) .

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٢٩ — ١٣٠ .
(٢) الصولى أخبار الراضى بالله والمتقى لله : ص ٢٠١ — ٢٠٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

علم أبو عبدالله البريدى أن جماعة من الأتراك بزعامة توزون يريدون الفتك به، وعلم توزون بذلك ، فاستولى على دار مؤنس ، وعاد الخليفة المتقى إلى بغداد فى ١٨ شوال سنة ٣٣٠ هـ بعد أن غاب عنها ثلاثة أشهر وعشرين يوما، وقلد توزون شرطة بغداد ، واستوزر أبا إسحاق القراريطى . ثم سطع نجم بنى حمدان فى أفق الدولة العباسية [١] ، فخلع الخليفة على الحسن بن عبدالله ، وطوق وسور بسوارين وسمى ناصر الدولة ، كما خلع على أخيه أبى الحسن ولقب سيف الدولة ، وقد بدأ ناصر الدولة ابن حمدان عهده بإصلاح السكة ، وحال دون عبث العيارين والصيارف بعيارها ، وأضاف إلى عبارة محمد رسول الله « صلى الله عليه وسلم » ، ثم ضرب فى المحرم من سنة ٣٣١ هـ دنانير جديدة ، وهدد الصيارف بإنزال العقاب بهم إذا لم يقلعوا عن الربا [٢] .

على أن حال بغداد فى عهد الحمدانيين (٣٣٠ — ٣٣١هـ) الذين عرفوا بتشجيع الأدباء والشعراء بعطاياهم ، لم تكن أحسن منها فى عهد من سبقهم من أمراء الأمراء. فقد « كثرت المتلصصة ببغداد ، وكبست دور المياسير ، وخرج الناس عن بغداد هاربين إلى كل وجه ، على انسداد طرقهم ، ولو أمنوا لخرج أضعاف من خرج .. وسن (ناصر الدولة) من الضرائب على الناس مالم يسمع بمثله .. وغلت الأسعار فى جمادى الآخرة غلاء عظيما ، ومات الناس جوعا ووقع فيهم الوباء ، فكانوا يبقون على الطريق أياما لا يدفنون حتى أكلت الكلاب بعضهم .. وكثر الجراد فى هذا الوقت فساده الناس ، وانتفع الضعفاء بأكله وصيده . وكان نعمة من نعم الله جل وعلا . . وغلت الأسعار وعز كل شىء من سائر الأطعمة والملبوس »[٣]. أضف إلى ذلك وقوع الخلاف بين سيف الدولة الحمدانى وتوزون واستيلاء البريديين على الجامدة ، ثم وقوع الحرب بين البريديين وأحمد بن بويه على مقربة من البصرة [٣] على أن سوء التفاهم بين الخليفة وبنى حمدان لم يحل دون زواج أبى منصور بن المتقى من ابنة ناصر الدولة بن حمدان .

استوزر ناصر الدولة ابن حمدان أبا العباس أحمد بن عبدالله الأصبهانى ، فلم يكن له من الوزارة إلا اسمها . ويقول الصولى (ص٢٣٥) : « وضيق ناصر الدولة على المتقى لله فى

---

(١) مسكوية ج ٢ ص ٢٨ .

(٢) الصولى أخبار الراضى بالله والمتقى لله : ص ٢٢٦ — ٢٢٩ و ٢٣١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٤ — ٢٣٧ .

نفقاته وعلى أهل داره ، وانتزع ضياعه وضياع والدته فجعلها فى جملته ، واقتصر به على أجزاء يسيرة .. وتحدث الناس عن فعله هذا وصنعه بالخليفة، ما كثر به الشاكى له والداعى عليه ، وتمنى الناس بنى البريدى وغيرهم مع ما نالهم من الضر والضرائب والغلاء ونكبات الناس وأخذ أموالهم » .

وقد علل ميور [١] قصر عهد الحمدانيين فى بغداد فى هـذه العبارة : « إن العرب لم تعد لديهم القدرة على مناوأة العناصر المتبربرة التى أصبحت لها السيادة فى بغداد فى ذلك الوقت ، وإن الجند المرتزقة من الأجانب وقوادهم قد ألفوا منذ زمن طويل الاحترام والطاعة لرؤسائهم من العرب ، حتى إننا نرى أن الجند من العرب الذين أهمل شأنهم وطوح بهم فى زوايا النسيان ، لم يقووا بعد على التماسك والاحتفاظ بشخصيتهم أمام الأتراك الذين مرنوا على الحروب وألفوا حسن النظام » . وهكذا لم يستطع زعماء الحمدانيين من العرب البقاء فى بغداد أكثر من سنة واحدة ، واضطروا إلى العودة إلى الموصل ، واستطاع أحد قواد الترك ، واسمه توزون ، أن يدخل بغداد بعد أن انتصر على البريديين فى البصرة وواسط ولم يستطع الحمدانيون أن يفرضوا نفوذهم على الأتراك فى بغداد التى أصبحت مرعى خصيبا للفوضى ومصادرة الأهلين » .

توزون — ابن شيرزاد :

بذلك مهد ناصر الدولة ابن حمدان لدخول توزون بغداد فى شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ وفى ٦ شوال من هذه السنة خلع الخليفة المتقى على توزون وجعله أمير الأمراء ، وكانت سياسة توزون ترمى إلى مصالحة البريديين فى واسط والتفرغ لمحاربة الحمدانيين [٢] .

على أن البريديين سرعان ما استولوا على واسط ، فطردهم توزون منها ، ثم استولى على تكريت ، واتخذ ابن شيرزاد الذى هرب من البريديين كاتبا له على غير رضا من الخليفة ثم سيره إلى بغداد فدخلها فى المحرم سنة ٣٣٢ هـ ، فعزم الخليفة على الخروج من حاضرة ملكه برغم نصيحة القاضى أبى عبد الله محمد بن عيسى [٣] ويقول السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢٦٢)

---

(١) The Caliphate. p. 573

(٢) الصولى ص ٢٤٤ — ٢٤٥ ، ٢٤٧ .

(٣) بضم العين وتسكين الكاف وفتح الباء ، بليدة من نواحى دجيل بينها وبين بغداد شمالا عشرة فراسخ .

« فسار المتقى بأهله إلى تكريت ، وخرج ناصر الدولة بجيش كثير من الأعراب والأكراد إلى قتال توزون ، فالتقيا بعكبرة [١] ، فانهزم ابن حمدان والمتقى إلى الموصل ، ثم تلاقوا مرة أخرى ، فانهزم ابن حمدان والخليفة إلى نصيبين » .

ولما اتصل بتوزون خبر هرب الخليفة من بغداد وتغيره عليه وعمله على التخلص منه ، اتفق مع البريدى وزوجه ابنته ، ثم سار إلى بغداد ، وسار سيف الدولة الحمدانى إلى تكريت حيث كان يقيم الخليفة ، ولحق به أخوه ناصر الدولة بن حمدان . وعلى مقربة من تكريت وقعت الحرب بين الحمدانيين وبين توزون الذى انتصر عليهم ، ثم سار الحمدانيون مع الخليفة إلى الموصل [٢]

وقد شجع انتصار توزون على الحمدانيين فى تكريت على المسير إلى الموصل لاستخلاصها منهم ، وكتب إلى الخليفة يستميله ، فلم يصغ إليه لأنه لم يكن يثق به . ثم قصد الحمدانيون بصحبة المتقى إلى نصيبين ، ودخل توزون الموصل ، فسار الخليفة إلى الرقة ولحق به سيف الدولة ، وأرسل المتقى إلى توزون كتابا يعبر فيه عن سخطه عليه لاتصاله بالبريدى ، وطلب إليه أن يعقد الصلح مع سيف الدولة وأخيه ناصر الدولة . « فتم الصلح وعقد الضمان على ناصر الدولة لما بيده من البلاد ثلاث سنين ، كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم . وعاد توزون إلى بغداد وأقام المتقى عند بنى حمدان بالموصل ، ثم ساروا عنها إلى الرقة فأقاموا بها » [٣].

وفى سنة ٣٣٢ هـ علم الإخشيد بما آل إليه أمر الخليفة المتقى ، وما كان من خروجه من بغداد ووقوعه فى يد الحمدانيين وقد استفحل أمرهم ، وتنازع السلطة بين توزون والبريدى وقد قوى بطشهما ، فلم يجد بداً من الاستنجاد بمحمد بن طغج الإخشيد فى مصر فحضر إلى الرقة حيث التقى بالخليفة الذى مال إلى مصالحة توزون بعد أن تعهد بحمايته ، وعاد الخليفة إلى بغداد ، وسار الإخشيد إلى مصر .

ولكن بطانة الخليفة أوغرت صدره من ناحية أمير الأمراء ، وشجعته على انتهاج سياسة العداء نحوه . ولا غرو فقد كان توزون يرمى إلى مصالحة ناصر الدولة بن حمدان والخليفة بعد أن تصالح مع البريديين وأمن جانبهم ؛ حتى إذا تم له ذلك تفرغ لمناهضة

---

(١) بضم العين وتسكين الكاف وفتح الباء ، بليدة من نواحى دجيل بينها وبين بغداد شمالا عشرة فراسخ .

(٢) الصولى ص ٢٥٢ — ٢٥٥ . ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٤ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٤ .

بنى بويه الذين تفاقم شرهم وتزايد خطرهم . وتم الصلح بين توزون وناصر الدولة ، ورجع إلى بغداد فى الوقت الذى دخل فيه بنو بويه واسط ، وجمعوا الضرائب وجبوا الخراج . بيد أن توزون لم يهدأ من ناحية الخليفة الذى كاتب بنى بويه ودعاهم إلى المسير إلى بغداد . وقامت المؤامرات فى بغداد لقتل توزون وتمهيد السبيل لدخول بنى بويه .

ولم يدم الصفاء بين توزون والخليفة المتقى بسبب تآمره عليه وعمله على صرفه . فقبض توزون عليه فى شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ ، ونهب أصحابه عسكره ، وأخذ الخاتم من يده . « واستخرج عبد الله بن المكتفى بالله فألبسه ثياباً جاء بها معه ودفع إليه الخاتم . فصار إلى مضرب الأمير ، فعقد له الأمر ، وكحل[١] المتقى لله ، فصاح ، فأمر أصحاب الدبادب[٢] فضربوا بها ، فصاح فلم يسمع صياحه ، بعد أن خلع نفسه وسلم الأمر إلى الخليفة عبد الله ... فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً[٣] » .

يقول السيوطى[٤] : « ولما كحل (المتقى) قال القاهر » :

صرت وإبراهيم شيخى[٥] عمى لا بد للشيخين من مصدر
ما دام توزون له إمرة مطاعة فالميل فى المجمر

وظل المتقى مسجونا خمسة وعشرين سنة إلى أن مات فى شهر شعبان سنة ٣٥٧ هـ .

كانت الدولة العباسية فى الوقت الذى خلع فيه المتقى مضطربه ، إذ كانت السلطة كلها فى يد توزون أمير الأمراء ، وقد استعان بأبى جعفر بن شيرزاد الذى اتخذه كاتباً له . وتولى الوزارة أبو الحسين على بن محمد بن مقلة ، وتقلد القضاء أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقى ، والشرطة ببغداد أبو بكر محمد بن جعفر النقيب ، والحسبة رجل يعرف بالأسمر ؛ كما اتخذ أبا العباس أحمد بن خاقان المفلحى حاجباً له . وولى مصر والشام أبو بكر محمد ابن طغج الإخشيد ، وولى الحسن بن عبد الله بن حمدان الموصل وديار ربيعة وديار بكر ، ونوح بن نصر بن أحمد السامانى بلاد خراسان ، وعلى بن بويه فارس والأهواز ، وأصبهان الحسن بن بويه[٦] . ولما بويع عبد الله بن المكتفى لقب المستكفى بالله ، وكان فى الحادية والأربعين من عمره . وأمه أم ولد تسمى أملح الناس[٧] .

---

(١) كناية عن سمل عينيه .
(٢) الدبادب : جمع دبدبات وهو الطبل
(٣) الصولى ص ٢٨٣ — ٢٨٣ ، ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٩ .
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣ .
(٥) وردت فى السيوطى (ص ٢٦٣) شيخ وهو خطأ .
(٦) الصولى ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .
(٧) السيوطى . تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣ .

وقد أمدنا مسكويه(١) ، وعنه أخذ ابن الأثير ، بمعلومات طريفة عن خلع المتقى وأخذ البيعة للمستكفى ، وما كان للأتراك والنساء من أثر فى ذلك . ومن ذلك يتبين مبلغ الضعف الذى وصلت إليه الخلافة العباسية والخلاف الذى ساد بين أفراد البيت العباسى ، حتى إن هؤلاء كانوا لايتورعون عن التآمر بعضهم على بعض ابتغاء الوصول إلى الحكم(٢).

وكان الخليفة المستكفى كغيره من الخلفاء الذين سبقوه ألعوبة فى أيدى الأتراك ، حتى إن توزون الذى أقره الخليفة فى منصب إمرة الأمراء « ضم إليه غلاما تركياً من غلمانه يقف بين يديه »(٣) . ولا شك أن الدافع الذى حدا بتوزون إلى انتهاج هذه السياسة هو الوقوف على أسرار الخليفة وما يجرى فى دار الخلافة من أمور .

وفى أوائل عهد المستكفى مات توزون (المحرم سنة ٣٣٤هـ) وكانت مدة إمارته سنتين وأربعة أشهر ، فخلفه فى إمرة الأمراء أبو جعفر بن شيرزاد .

اختلف المؤرخون فى تقدير أعمال شيرزاد : فالصولى يرى أنه كان من أحسن الأمراء سياسة ، على أن هذا الأمير لم يكن أقل عنتاً ممن سبقوه ، فقد زاد أرزاق الجند من الأتراك والديلم زيادة كبيرة ، وصادر الأموال لاسترضائهم ، وفرض الأموال الكثيرة على الكتاب والعمال والتجار وغيرهم من الناس ، وزادت الضرائب فى أيامه زيادة حملت التجار على الهرب من بغداد ، وضاعت هيبة الحكومة ، وعجز الشرطة عن الضرب على أيدى اللصوص والمفسدين

ولم تطل خلافة المستكفى بالله ، فقد جلس على العرش سنة وأربعة أشهر استبد توزون فيها بالسلطة ، ثم خلفه ابن شيرزاد الذى استخفى بعد أن تقلد إمرة الأمراء ثلاثة أشهر وعشرين يوما . ثم استولى معز الدولة بن بويه على بغداد .

على أن الخلافة العباسية لم تستفد من هذا النظام الذى أدخله الراضى بإنشاء منصب أمير الأمراء لإقالة الخلافة من عثرتها ، بل ازدادت أحوالها سوءاً . وإن من يستقصى عهد الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩هـ) والمتقى (٣٢٩ - ٣٣٣هـ) والمستكفى (٣٣٣ - ٣٣٤هـ) - ذلك العهد الذى انتهى بدخول بنى بويه بغداد واستبدادهم بالأمر دون الخليفة وأمير الأمراء - يجده عبارة عن سلسلة منازعات لا تنقطع بين رجالات الدولة العباسية الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولى إمرة الأمراء . نعم ! قام النزاع بين ابن رائق

---

(١) تجارب الأمم : جـ٢ ص٧٢ — ٧٥ .
(٢) مسكويه جـ ٢ ص ٣٦ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٤١

وأبى عبد الله البريدى صاحب الأهواز ، وخرج بحكم على ابن رائق وانتزع من يده إمرة الأمراء ، وظل فيها ألى أن قتل سنة ٣٢٩ هـ ، ثم دخل ابن رائق بغداد ، ولحق به منافسه أبو عبد الله البريدى . وانتهى النزاع بينهما بخروج ابن رائق ومعه الخليفة المتقى إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل ، فقتل هذا ابن رائق حتى لايقف فى سبيله ويحول بينه وبين منصب إمرة الأمراء . وسرعان ما دخل ابن حمدان بغداد بصحبة الخليفة العباسى . وتقلد أعباء هذا المنصب فى مستهل شهر شعبان سنة ٣٣٠ هـ . على أن بغداد فى عهد الحمدانيين (٣٣٠ - ٣٣١ هـ) لم تكن أحسن حالا منها فى عهد من سبقهم من أمراء الأمراء . فقد طردهم منها توزون التركى رئيس الشرطة فى شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ ، وطارد جيوشهم إلى الموصل ، وتقلد إمرة الأمراء ، وقبض على الخليفة وسمل عينيه (صفر سنة ٣٣٣ هـ) ، وخلعه وولى بدله المستكفى ثم مات توزون سنة ٣٣٤ هـ وتولى إمرة الأمراء تركى آخر هو ابن شيرزاد صاحب الأمر والنهى فى عهد توزون [١] .

والآن ننتقل إلى الكلام عن عصر بنى بويه فى العراق ، وفى فارس ، وفى الرى وهمذان وأصبهان .

---

(١) حسن إبراهيم حسن ، وعلى إبراهيم حسن : كتاب النظم الإسلامية ص ٧٨ — ٧٩ .

الباب الثالث

عصر بنى بويه فى العراق

(٣٣٤ - ٤٤٧ هـ)

بنو بويه قبل استيلائهم على بغداد:

ظهر بنو بويه فى عالم التاريخ فى أوائل القرن الرابع الهجرى من خلال ذلك الغموض الذى اكتنف تاريخهم قبل ذلك . وقد نقل لنا مترجمو حياتهم أقوالا مختلفة عن أسلافهم وإن سلسلة نسب هذه الأسرة مسألة يحوطها الشك ، شأن الملوك والأمراء الذين تظهر عظمتهم مرة واحدة .

يقول بعض المؤرخين إنهم ينتسبون إلى بهرام جور أحد ملوك ساسان ، ويلحقهم بعض آخر بالآلهة كما كان يفعل الرومان فى تمجيد أبطالهم ، ويقول غيرهم إنهم كانوا من دهماء الناس . ويرى زترشتين[1] أن نسبهم لا يرجع إلى بهرام جور ولكنه يرجع إلى كبير وزرائه مهر نرسى . وينسبهم بعض آخر إلى بنى ضبة من العرب[2] .

ويقول صاحب الفخرى (ص ٢٤٩) : « أما نسبهم فيرتفع من بويه إلى واحد من ملوك الفرس ، حتى يتصل بيهوذا بن يعقوب بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكذلك إلى آدم أبى البشر . وليسوا من الديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم »[3] ... فإن جدهم أباشجاع بويه وأباه وجده كانوا كآحاد الرعية الفقراء ببلاد الديلم ، وكان بويه صياد سمك ، وقد كان

---

(١) أنظر لفظ بويه فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٢٤٤ .

(٣) تقع فى الجنوب الغربى من بحر قزوين (الخزر أو بحر طبرستان لأنها أكبر البلاد الواقعة عليه) . وقد فتحت فى خلافة عمر بن الخطاب ، وخضع أهلها للحكم الإسلامى مع بقائهم على وثنيتهم إلى أن دخل بلادهم الحسن بن على الزيدى الملقب بالأطروش ، فأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم على يديه كثير من الأهالى .

معز الدولة بعد تملكه البلاد يعترف بنعمة الله تعالى ويقول : كنت أحتطب الحطب على رأسى (١) » .

وتاريخ بنى بويه قبل ظهورهم فى عالم الدول أشبه بالخرافة ، وكان لانتشار التنجيم والطلسمات فى ذلك الوقت أثره فى التنبؤ بما أضمره لهم القدر من التقدم فى معارج الرقى والوصول إلى درجة عظيمة من الملك واستبدادهم بالسلطة دون الخلفاء ، حتى خضعت لهم الرقاب ودانت لهم البلاد بعد ما كانوا يعانونه من الفقر والمسكنة ، يقول صاحب الفخرى (ص ٢٤٩ - ٢٥٠) « فكان من مبدأ دولتهم ما حدث شهريار بن رستم الديلمى قال : « كان أبو شجاع بويه فى مبدأ أمره صديقاً لى ؛ فدخلت عليه وقد ماتت زوجته أم أولاده الثلاثة الذين تملكوا البلاد ، وهم عماد الدولة أبو الحسن على، وركن الدولة أبو على الحسن ومعز الدولة أبو الحسين أحمد . وقد اشتد حزن أبو شجاع بويه على زوجته ؛ فعزيته وسكنت قلقه ، ونقلته إلى منزلى ، وأحضرت له طعاما وجمعت إليه أولاده الثلاثة . فبيناهم عندى إذ مر بالباب شخص يقول : المنجم المعزم ، مفسر المنامات ، كاتب الرقى والطلسمات: فاستدعاه أبو شجاع بويه وقال له : قد رأيت البارحة رؤيا فسرها لى ، ثم قص عليه الرؤيا، فقال المنجم : هذا منام عظيم ولا أفسره إلا بخلعة وفرس ، فقال له بويه : والله ما أملك غير الثياب التى على جسدى ، وإن أعطيتك إياها بقيت عريانا . فقال المنجم : فعشرة دنانير ، فقال له بويه : والله ما أملك دينارين فكيف عشرة ؟ ثم إنه أعطاه شيئاً يسيراً ، فقال المنجم : اعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها، ويعلو ذكرهم فى الآفاق، ويولد لهم جماعة ملوك ، فقال له بويه : أما تستحى تسخر بنا ؟ أنا رجل فقير مضطر وأولادى هؤلاء فقراء مساكين ، فمن أين هم والملك ؟ فقال له المنجم : فأخبرنى عن وقت ولادة واحد من أولادك ، فأخبره بويه بذلك ، فجعل ينظر فى أصطرلابه وتقاويمه، ثم نهض المنجم وقبل يد عماد الدولة أبى الحسن على وقال : هذا والله الذى يملك البلاد ؛ ثم يملك هذا من بعده وقبض على يد أخيه أبى على الحسن ، فاغتاظ منه أبو شجاع بويه وقال لأولاده : اصفعوه فقد أفرط فى السخرية بنا ، فصفعوه ونحن نضحك منه فقال المنجم : لا بأس بهذا إذا ذكرتم لى هذا الحال عند ولايتكم ، فأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم وانصرف » .

---

(١) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٥٦) أن معز الدولة كان فى أول أمره يحمل الحطب على رأسه ، ثم ملك هو وإخوته الثلاثة البلاد. وكان أصغر أخوته .

بنو بويه (١)

١ — فى فارس

	هجرية	ميلادية
(١) عماد الدولة (أبو الحسن على)	*٣٢٠	٩٣٢
(٢) عضد الدولة (أبو شجاع خسرو)	*٣٣٨	٩٤٦
(٣) شرف الدولة (أبو الفوارس شيرزاد)	*٣٧٢	٩٨٢
(٤) صمصام (أبو كالينجار المرزبان)	*٣٧٩	٩٨٩
(٥) بهاء الدولة (العراق)	*٣٨٨	٩٩٨
(٦) سلطان الدولة (أبو شجاع)	*٤٠٣	١٠١٢
(٧) عماد الدولة (أبو كاليجار المرزبان)	*٤١٥	١٠٢٤
(٨) أبو نصر خسرو (فيروز الرحيم)	٤٤٠—*٤٤٧	١٠٤٨—١٠٥٥

*(هذه العلامة تدل على أنه كان يحكم بلاد العراق أيضاً)

٢ — فى العراق والأهواز وكرمان

	هجرية	ميلادية
(١) معز الدولة (أبو الحسين أحمد)	٣٢٠	٩٣٢
(٢) عز الدولة (بختيار)	٣٥٦	٩٦٧
(٣) عضد الدولة (فى فارس)	٣٦٧	٩٧٧
(٤) شرف الدولة (فى فارس)	٣٧٢	٩٨٢
(٥) بهاء الدولة (أبو نصر فيروز)	٣٧٩	٩٨٩
(٦) سلطان الدولة (فى فارس)	٤٠٣	١٠١٢

(١) أنظر كتاب Stanley Lane-poole: Muhammadan Dynasties pp. 141—4
حيث نقلنا هذه الجداول التى تبين مدى نفوذ بنى بويه فى فارس ،وفى العراق والأهواز وكرمان، وفى الرى وهمذان وأصبهان .

ولايات منقسمة فى العراق

	هجرية	ميلادية
(١) مشرف الدولة	٤١١	١٠٢٠
(٢) جلال الدولة	٤١٦	١٠٢٥
(٣) عماد الدولة (فى فارس)	٤٣٥	١٠٤٣
(٤) أبو نصر خسرو فيروز (فى فارس)	٤٤٠ — ٤٤٧	١٠٥٨ — ١٠٥٥

كرمان

	هجرية	ميلادية
(١) قوام الدولة (أبو الفوارس)	٤٠٣	١٠١٢
(٢) عماد الدوله (فى فارس)	٤١٩	١٠٢٨
(٣) أبو منصور فلادستون	٤٤٠ - ٤٤٨	١٠٤٨ - ١٠٥٦

٣ — فى الرى وهمذان وأصبهان

	هجرية	ميلادية
(١) ركن الدولة أبو على حسن	٣٢٠	٩٣٢
(٢) مؤيد الدولة أبو منصور (أصبهان فقط)	٣٦٦ — ٣٧٣	٩٧٦ — ٩٨٣
(٣) فخر الدولة أبو الحسن على (ضم أصبهان سنة ٩٧٣م)	٣٦٦	٩٧٦
(٤) مجد الدولة أبو طالب رستم	٣٨٧ — ٤٢٠	٩٩٧ — ١٠٢٩
(عزله محمود الغزنوى)		
(٥) شمس الدولة أبو طاهر (همذان فقط)	٣٨٧	٩٩٧
(٦) سماء الدولة أبو الحسن	٤١٢ -- ٤١٤	١٠٢١ — ١٠٢٣
(عزله ابن كاكويه)		

جدول يمثل تسلسل أمراء بنى بويه فى الحكم

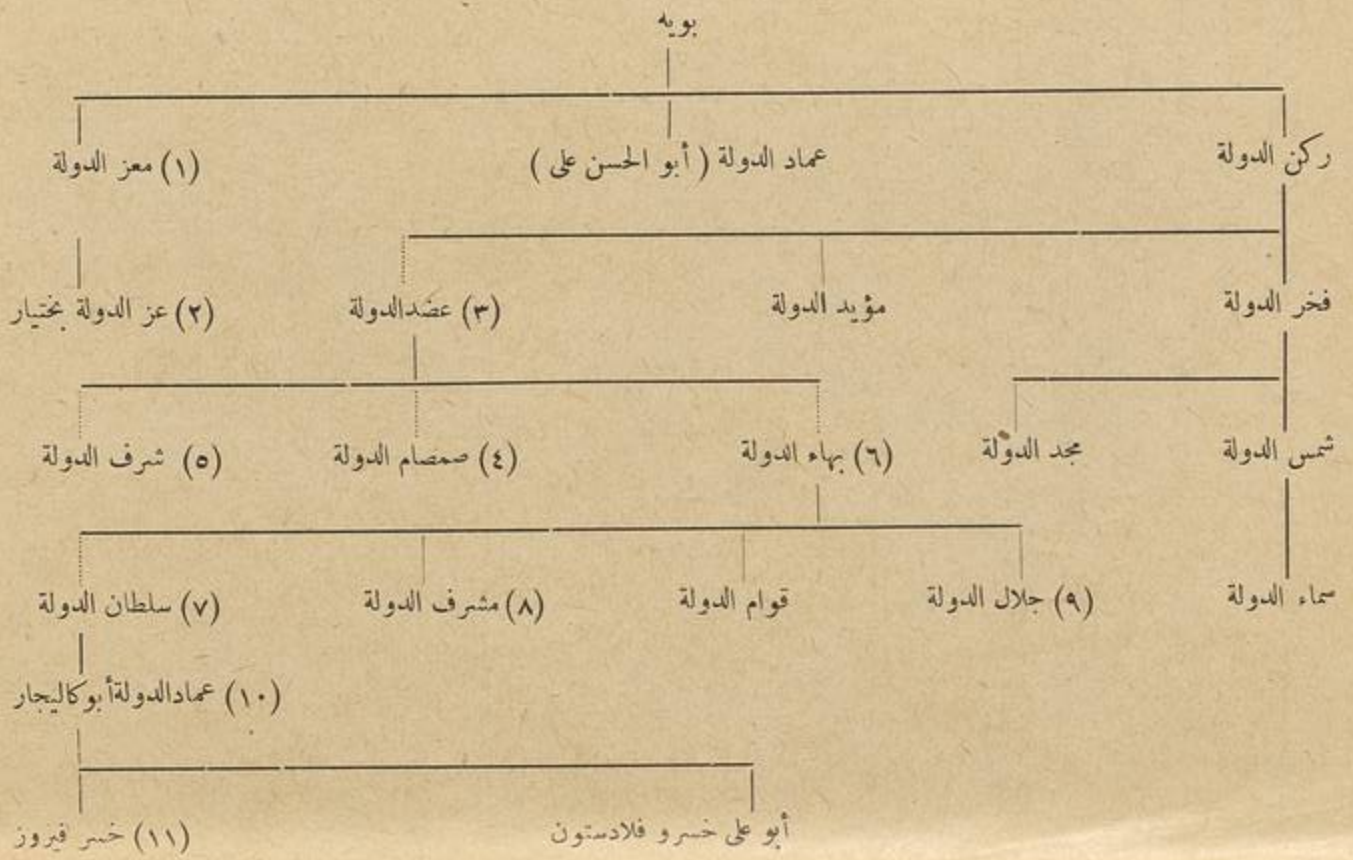

دخل بنو بويه فى زى الأجناد . وسرعان ماارتقى على بن بويه وأخوه الحسن إلى مرتبة الأمراء فى جيش ما كان بن كالى . فلما قام النزاع بينه وبين مرداويج بن زيار، الذى خرج على أسفار بن شيرويه ، واستولى على كل بلاد جرجان وطبرستان وقزوين وزنجان وقم والكرج [١] ، زاد نفوذه حول سنة ٣٢٠هـ (٩٣٢م) ، وتحبب إلى الرعية فاجبته ، وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه ، وسريراً من الفضة يجلس عليه أكابر قواده . وامتدت سلطته إلى حدود العراق ، وأسس الدولة الزيارية ، وأراد أن يستولى على بغداد « وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب » (الفخرى ص ٢٥١) .

ولما رأى أولاد بويه أن كفة مرداويج آخذة فى الرجحان انحازوا إليه ، وسر مرداويج أول الأمر بانحيازهم ، وولى على بن بويه بلاد الكرج [٢] إلا أن مرداويج لم يلبث أن خشى خطرهم فأعاد إلى الخليفة مدينة أصبهان التى كان قد فتحها أحمد بن بويه باسمه ، وجلب على نفسه بذلك عداوة البويهيين [٣] ؛ ثم أرسل إلى أخيه وشمكير فى الرى يأمره بصرف أولاد بويه إذا ما وصلوا إليه ، فصرفهم إلا على بن بويه لما رآه فيه من الكرم وحسن التدبير ، وساعده على الخروج سراً أبو عبد الله الحسين بن محمد الملقب بالعميد والد أبى الفضل بن العميد وزير ركن الدولة المشهور . ومضى على بن بويه إلى بلاد الكرج وآل إليه حكمها [٤] .

على أن الجو لم يصف لعلى بن بويه ؛ فقد عول مرداويج على طرده من بلاد الكرج وأرسل جيشاً كبيراً لإخراجه منها ، فقصد أصبهان ، فلم يحسن صاحبها المظفر بن ياقوت لقاءه ، فاضطر إلى محاربته وانتصر عليه ، واضطره إلى الهرب إلى فارس الذى كان يليها أبوه ياقوت [٥] ، وانضم إليه أربعمائة من الديلم . فبلغ عدد جنده سبعمائة [٦] . ثم علم على ابن بويه بمسير وشمكير إليه ، فقصد مدينة أرجان الكبيرة وتقع على بعد ستين فرسخا من كل من شيراز والأهواز ، واستخرج خراجها الذى بلغ ألفى ألف درهم . ثم خاف أن يجتمع عليه مرادويج ووشمكير ، فسار إلى إصطخر وانتصر على المظفر بن ياقوت ، ثم دخل شيراز سنة ٣٢٢هـ [٧] .

---

(١) الكرج بفتح أوله وثانية مدينة بين همذان أو أصبهان .
(٢) ابن الأثير جـ٨ ص ١٠٠ .
(٣) أنظر لفظ بويه فى دائرة المعارف الإسلامية .
(٤) مسكويه . تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٧٨
(٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٩٦ .
(٦) ابن الأثير جـ ٨ ص ٩٣ حيث نرى اختلافا فى هذا العدد .
(٧) مسكوية تجارب الأمم جـ١ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

أخذ على بن بويه بعد ذلك يعمل على كسب رضاء مرداويج . فتملق نائبه، وأقام الخطبة له وأهدى إليه كثيراً من الطرف ، وأنفذ إليه أخاه الحسن بن بويه رهينة، فقلده أرجان (١) ثم تبع ذلك قتل مرداويج (سنة ٣٢٣هـ) ، فاطمأن على بن بويه من جهته ، ولم يبق أمامه إلا القضاء على مناوأة ياقوت الذى عاد إلى الظهور ، واتفق مع أبى عبد الله البريدى على طرده من شيرزاد ، ثم أحل به الهزيمة بنواحى أرجان، ودانت له بلاد فارس بالطاعة. وعقد الصلح مع البريدى ثم أرسل إلى الخليفة الراضى يطلب اعترافه بسلطانه فى فارس، فتم له ما أراد.

ولم يكن على بن بوية (عماد الدوله) هو وحده الذى سما إلى قمة المجد والعظمة من أولاد أبى شجاع بويه؛ فقد فر أخوه ركن الدولة الحسن الذى كان رهينة عند مرداويج بعد قتله ، واستولى على أصبهان والرى، وهمذان وبقية بلاد العراق العجمى ، واتخذ أبا الفضل ابن العميد وزيرا له (٢) كما نازع أحمد بن بويه (معز الدولة) على بن العباس على ولاية كرمان (٣) وانتصر عليه . ولكنه تركها له ملبيا دعوة أخيه على بن بويه لمعاونة البريدى على ابن رائق (سنة ٣٢٦هـ)، واستولى على الأهواز ، ثم دعاه الخليفة المتقى إلى دخول بغداد حين ساءت العلاقة بينه وبين توزون ، فسار إليها فى سنة ٣٣٢هـ ، ولكن توزون هزمه قبل أن يصل إليها (٤) .

معز الدولة (٣٣٤ — ٣٥٦هـ) :

خلع مرداويج على أولاد بويه على ماتقدم ، وتمكن على بن بويه من مد سلطانه من بلاد الكرج إلى الأهواز ، وتولى أخوه السلطة فى كل جهات فارس الجنوبية ، ثم كاتبه قواد بغداد وطلبوا إليه المسير إليهم والاستيلاء على هذه المدينة ، فقابله الخليفة المستكفى واحتفى به ، وخلع عليه ، ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه عليا عماد الدولة ، ولقب أخاه الحسن ركن الدولة ، «وضرب ألقابهم على السكة ، ولقب المستكفى إمام الحق . وضرب ذلك على السكة» (٥) .

---

(١) مسكوية: تجارب الأمم ج ١ ص ٣٠٢

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ٣٦٤.

(٣) بفتح أوله وقد يكسر ، وسكون ثانية وآخره نون ، ولاية مشهورة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان تقع مكران شرقيها وفارس غربيها وخراسان شماليها وبحر فارس جنوبيها . وهى بلاد كثيرة النخل والزرع والمواشى ، تشبه البصرة فى وفرة خيراتها .

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١١٩ — ١٢٠ و ١٤٤ — ١٤٥

(٥) ذكر ابن خلكان (ج١ ص ٥٦) أنه كان يقال له الأقطع، لأنه كان مقطوع اليد اليسرى وبعض أصابع اليمنى » .

وقد اصبح بنو بويه فى عهد هؤلاء الخلفاء مطلق التصرف فى العراق ، ولم يتورعوا عن التعدى على أشخاص الخلفاء وانتقاص حقوقهم ؛ فإن معز الدولة لما دخل بغداد فكر فى إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية مكانها . ولكنه عدل عن هذه السياسة لما قد يتعرض له سلطانه من خطر ، بسبب وجود خلافة علوية ، يطيعها الجند ، ويعترف بها الديلم ، ويكونون أداة فى يد الخليفة يستغلها لمصلحته متى شاء .

وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص ١٦٢) أن معز الدولة أهان الخليفة المستكفى وقبض عليه وسمل عينيه ، وأجلس المطيع (٣٢٤ - ٣٦٣ هـ) على عرش الخلافة. وحدد له ألف درهم فى اليوم، ثم قطع ذلك الراتب بعد أن فتح البصرة وحدد له إقطاعات يسيرة يعيش منها ، كما عين له كاتبا يتصرف فى شئونها . ولم يكن هذا كل ما قام به معز الدولة لتقوية نفوذه وإضعاف سلطة الخليفة ؛ فقد عين ابنه بختيار أميراً للأمراء فى سنة ٣٤٤هـ[1] .

وكان لسياسة بنى بويه أسوأ الأثر فى العراق ، فقد قامت الفتن الطائفية ، وثار الجند كل فى وجه الآخر ، وانتشرت الفوضى وعم الاضطراب ، وساد الفزع قلوب الأهلين ، وأدى تعصب بنى بويه للشيعة إلى إرغام السنيين على الاشتراك فى أعياد الشيعيين .

ولم تقتصر سياسة معز الدولة على الحد من نفوذ الخليفة العباسى فى بغداد ، بل عمل أيضاً على إقرار نفوذه فى البلاد التابعة للدولة العباسية . فنراه يعمل على إضعاف الحمدانيين فى الموصل ، ويرسل إليها فى سنة ٣٣٤ هـ جيشاً لمحاربة ناصر الدولة بن حمدان الذى انتهز فرصة خروج معز الدولة بصحبة الخليفة المطيع ، واستولى على بغداد . وسار معز الدولة إلى تكريت ، وكانت تحت نفوذ الحمدانيين ، ونهبها ، وعاد بصحبة الخليفة إلى بغداد ونزلا بالجانب الشرقى ، وكان ناصر الدولة وابن شيرزاد قد نزلا بالجانب الغربى منها . ثم قامت الحرب بين الفريقين فى بغداد ، وحال أنصار ناصر الدولة دون وصول الميرة إلى جند معز الدولة ، وأبطل السكة التى تحمل اسم الخليفة المطيع ، وضرب السكة باسم المتقى على النحو الذى ضربت به فى سنة ٣٣١ هـ ؛ واستمرت الحرب أربعة أشهر استقر بعدها معز الدولة ببغداد ، وسار ناصر الدولة إلى عكبرة (٢) .

كذلك عمل معز الدولة على إخضاع البريديين لسلطانه حتى يصفو له الجو فى بلاد العراق ،

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٥٨ . أنظر الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٢٥٠

(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٦٢ — ١٦٣، ١٦٧ .

فعول على انتزاع البصرة من أبى القاسم البريدى ، وصحب معه الخليفة المطيع ، وكان أبو القاسم البريدى قد هرب إلى هجر قاعدة القرامطة الأساسية (١) .

تربع معز الدولة بن بويه على دست السلطنة فى بغداد اثنتين وعشرين سنة (٣٣٤ ـ ٣٥٦ هـ) استأثر فيها بالسلطة دون الخليفة الذى لم يعد له من الخلافة إلا اسمها ، ومد نفوذه على جميع بلاد العراق وخطب له فى عمان . وكانت علاقته بأخويه عماد الدولة على فى فارس ، وركن الدولة حسن فى الرى وهمذان وأصبهان تقوم على أساس متين من المودة والصفاء . وما زال معز الدولة يعمل على تحقيق سياسته حتى اعتراه المرض الذى مات منه وهو فى طريقه لحرب صاحب البطائح على مقربة من البصرة ، فسار إلى واسط ومنها إلى بغداد حيث وافته منيته فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٦ هـ ، وهو فى الثالثة والخمسين من عمره ، فخلفه ابنه أبو منصور بختيار الذى تلقب بلقب عز الدولة ، وكان أبوه قد عهد إليه بالسلطنة من بعده حين شعر بدنو أجله .

بختيار (٣٥٦ ـ ٣٦٧ هـ):

كان معز الدولة بن بويه ملما بأحوال الدولة العباسية ، فعمل على دفع الخطر عنها ، وأمن شر أعدائه البريديين والحمدانيين وغيرهم كما تقدم . فلما شعر بدنو أجله أوصى ابنه عز الدولة بختيار باليقظة والتحرز من ناحية أعدائه ،وخاصة من ناحية الأتراك الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من جنده ، وأن يجريهم على أرزاقهم ، كما أوصاه بمداراة الديلم ليكتفى خطرهم ، وبطاعة عمه ركن الدولة والرجوع إليه فى الأمور الهامة ، وطاعة ابن عمه عضد الدولة لأنه أكبر منه سنا وأكثر منه تجربةوأحذق بالسياسة، كما أوصاه بإقرار كاتبيه أبى الفضل العباس بن الحسين وأبى الفرج محمد بن العباس لإخلاصهما وكفايتهما .

ولكن بختيار لم يعبأ بنصائح أبيه ولم يسر على وفق السياسة التى رسمها له، بل انصرف إلى اللهو واللعب ومعاشرة النساء ، وأثار سخط كاتبيه وفرق بينهما ، وطمع فى إقطاعات كبار حاشيته وخاصة سبكتكين ، وكان معز الدولة يثق به ويعتمدعليه ، فأشارعلى بختيار ألا يقطع أمراً دونه لحسن سياسته وتمكن هيبته من قلوب الجند . ولم يكتف بختيار بهذا

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص١١٢ .

بل أخذ يناوىء ابن عمه عضد الدولة وترك استشارة عمه ركن الدولة ، ونفى كبار الديلم طمعاً فى أموالهم .

ولما رأى سبكتكين انصراف بختيار عنه وطمعه فى إقطاعاته وأمواله ، « انقبض عنه ، فصار لا يركب إليه ولا يثق به ،واقتصر على التراسل على أيدى المتوسطين. وكان لسبكتكين أصحاب أخبار فى المعسكر ، وفى دار بختيار خاصة ، وله عيون وجواسيس من خاصة حاشيته وبطانته ، فكان لا يخفى عليه شىء من حركاته » [1] وفى عهد بختيار استولى الفاطميون على مصر فى سنة ٣٥٨ هـ ، وقطعت الخطبة للخليفة العباسى ،وذكر اسم الخليفة الفاطمى محله.

وسرعان ما عزل بختيار الخليفة المطيع وولى الطائع الخلافة ، واضطربت أمور الدولة فالشيعة فى نزاع متصل مع أهل السنة ، والجند من الأتراك والديلم وغيرهم يلحون فى طلب أرزاقهم ، وأصحاب الإقطاعات التى اغتصبها بختيار حانقون ساخطون يتربصون الدوائر للنيل منه . ولم ير بختيار بداً من الاستنجاد بعمه ركن الدولة فى الرى وهمذان وأصبهان وابن عمه عضد الدولة فى فارس ، كما كتب إلى أبى تغلب بن حمدان يطلب معونته . وكان من أثر تفاقم العلاقة بين بختيار من ناحية وبين سبكتكين والخليفة الطائع من ناحية أخرى ، أن قامت الحرب بين الفريقين فى المحرم سنة ٣٦٤ هـ [2] .

لذلك لم ير بختيار بداً من الاستنجاد بابن عمه عضد الدولة الذى لم يرع لابن عمه حرمة لأنه كان شديد الرغبة فى الاستئثار بالسلطة فى بغداد . واتصل سرا بجند بختيار وشجعهم على طلب أرزاقهم ، وحث بختيار من ناحية أخرى على مقاومتهم والضرب على أيديهم ، واتخذ من حقد الخليفة الطائع وكراهته لبختيار فرصة للوصول إلى السلطة [3] .

وضعف شأن بختيار الذى عزله جنده من الأتراك بإيعاز عضد الدولة ، الذى استقرت قدمه ببغداد وقبض على ابن عمه بختيار (سنة ٣٦٤ هـ) ، وكتب إلى والده ركن الدولة يخبره بذلك ؛ فأنكر عليه غاية الإنكار ، وكتب إليه يهدده بالمسير إليه إن لم يرد ابن عمه إلى ولايته،فأطلقه عضد الدولة ورده إلى ولايته بعد أن استحلفه على أن يكون نائباً عنه بالعراق وألا يخالف له أمراً ، ثم توجه إلى فارس . وكان من أثر ذلك أن تزوج الخليفة الطائع لله

---

(١) مسكويه تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٣٥
(٢) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ١٣٢
(٣) مسكوية : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٤٤.

بنت بختيار على صداق قدره مائة ألف دينار . ولما توفى ركن الدولة فى سنة ٣٦٦ هـ ، قصد عضد الدولة العراق وحارب بختيار فى واسط ، وانتصر عليه وأرغمه على الفرار من بغداد ؛ فقصد الحمدانيين فى الموصل ، واستعان بأبى تغلب بن حمدان ، والتقى الجيشان بنواحى تكريت . ولكن الهزيمة حلت ببختيار ، وأسر وسيق إلى بغداد ، فقتله عضد الدولة (١) .

كان بختيار — على ما وصفه ابن العميد (٢) — « ملكا شهماً جلداً قوى الجسم والقلب فيقال إنه كان يصرع الثور بيديه من غير أعوان ولا حبال (فى الأصل والأحبال) يقبض على قوائمه ويطرحه على الأرض . وكان يبرز الأسود ويصيدها (فى الأصل ويصيدهم) ، وكان كريما شجاعا » .

عضد الدولة (٣) — صمصام الدولة:

بذلك صفا الجو لعضد الدولة فى العراق فى سنة ٣٦٧ هـ ، وخلع عليه الخليفة الطائع الخلع السلطانية وتوجه وطوقه وسوده ، وعقد له لواءين بيده ، وولاه ما وراء بابه (٤) . ولكن العلاقة لم تلبث أن تبدلت بين الخليفة الطائع وبين عضد الدولة الذى أمر بحذف اسمه من الخطبة مدة شهرين وحمله على ضرب الدبادب أمام داره ثلاث مرات فى اليوم : فى وقت الصبح والمغرب والعشاء ، وأن يخطب له على منابر بغداد ، مع أن ذلك من الأمور التى انفرد بها الخليفة دون غيره (٥) .

ونقرأ فى ابن العميد فى حوادث سنة ٣٦٨ هـ أن عضد الدلة استولى على الموصل وديار ربيعة وميافارقين وآمد وديار بكر وديار مضر ، وهرب أبو تغلب الحمدانى إلى الخليفة العزيز بالله الفاطمى ، وأن الخليفة الطائع أمر « بأن يخطب للملك عضد الدولة ببغداد فى خطبة الجمعة ، وأن يضرب على باب عضد الدولة بالدبادب فى أوقات الصلوات الخمس ، كما نقرأ أن عضد الدولة أول من خوطب بالملك فى الإسلام ، وأنه كان يخطب له على المنابر بشاهنشاه

---

(١) ابن الأثير جـ٨ ص٢٣٣ — ١٣٤ و ٢٥ .

(٢) تاريخ المسلمين ص ٢٣٦

(٣) كان عضد الدولة يسمى أبا شجاع فناخسرو ، فلما نزل عمه عماد الدولة إليه عن فارس واستولى أبو شجاع عليها بعد موته تلقب بلقب عضد الدولة . ابن خلكان جـ ١ ص ٤١٦ .

(٤) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٥ (٥) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠

الأعظم ملك الملوك . ولم يبلغ أحد من أمراء بنى بويه ما بلغه عضد الدولة من سعة الملك وبسطة السلطان ، حتى دان له سائر أمراء بنى بويه . وامتد سلطانه — كما يقول ابن العميد — على « بغداد والعراق وكرمان وفارس وعمان وخوزستان والموصل وديار بكر وحران ومنبج » (١) .

قال أمدروز (٢) : « إن قوة بنى بويه قد تسنمت غاربها فى عهد عضد الدولة ، وإن قصره كان محط كبار رجال العلم والأدب ، فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب ومنها كتاب الإيضاح والتكملة فى النحو الذى صنفه له الشيخ أبو على الفارسى ، وكتاب التاجى فى أخبار بنى بويه لأبى إسحاق الصابى . كما أقام البيمارستانات ، ومن أشهرها البيمارستان العضدى ببغداد الذى يقول فيه ابن خلكان(٣) : « ليس فى الدنيا مثل ترتيبه . وأعد له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه » .

بيد أن عضد الدولة ، على الرغم مما اشتهر به من حسن السياسة ، رمى بالقسوة وسفك الدماء والغدر بمن أمنه (٤) . ومما يدل على اغتراره بنفسه واعتزازه بقوته قوله وهو على فراش الموت :

قتلت صناديد الرجال فلم ادع عدواً ولم أهمل على جيشه خلقا
واخليت دور الملك من بعد عزمهم فشردتهم غرباً وبددتهم شرقا (٥)

وقد وصفه علماء عصره فقال أحدهم(٦) : « لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها وأعطاها فوق قيمتها ، وطلب الربح فيها فخسر روحه فيها . وقال الثانى من استيقظ للدنيا فهذا نومه ومن حلم فيها فهذا انتباهه . وقال الثالث : ما رأيت عاقلا فى عقله ولا غافلا فى غفلته مثله . لقد كان ينقض جانباً وهو يظن أنه مبرم ويغرم وهو يظن أنه غانم . وقال الرابع : من جد للدنيا هزلت به ومن هزل راغباً عنها جدت له ، وقال الخامس : ترك هذا الدنيا شاغرة ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة ، وقال السادس : إن ماء اطفأ هذه النار لعظيم وإن ريحاً زعزعت هذا الركن لعصوف ، وقال السابع : إنما سلبك من قدر عليك

---

(١) تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ — ٢٣٩ .

(٢) Amedroz:Three Years of Buwaihid Rule of Baghdad. J. R.A. S. (1901), p. 779. Le Strange : Baghdad During the Abbasid Caliphate, p. 234 et Seq.

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤١٨ .
(٤) أبو شجاع ج ٣ ص ٤٢ و ٥٦ .
(٥) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٩ .
(٦) « أبو شجاع » ج ٣ ص ٧٥ — ٧٧ .

وقال الثامن : أما أنه لو كان معتبراً فى حياته لما صار عبرة فى مماته . وقال التاسع : الصاعد فى درجات الدنيا إلى اسفال والنازل فى درجاتها إلى تعال . وقال العاشر : كيف غفلت عن هذا الأمر حتى نفذ فيك ؟ وهلا اتخذت دونه جنة تقيك ؟ إن فى ذلك لعبرة للمعتبرين وإنك لآية للمستبصرين» .

توفى عضد الدولة فى الثامن من شهر شوال سنة ٣٧٢ هـ ، وله من العمر سبع وأربعون سنة وأحد عشر شهراً ، وحمل إلى مشهد الإمام على بن أبى طالب . وكانت ولايته خمس سنين ونصف سنة ، استبد فيها بالسلطة ، وأمن شر أعدائه فى الداخل والخارج ، ووطد دعائم سلطانه ، فنشر العدل وشجع العلماء وعنى بالعمارة على مارأينا .

ولما مات عضد الدولة خلفه ابنه أبو كاليجار المرزبان . الذى بايعه الأمراء والقواد ولقبوه صمصام الدولة[١] ، ولقبه الخليفة الطائع شمس الملة[٢] « وخلع عليه الخلع السبع والعمة السوداء ، وسور وطوق وتوج ، وعقد له لواءان ، وحمل على فرس بمركب ذهب وقيد بين يديه مثله ، وقرىء عهده بتقليده الأمور فيما بلغت الدولة (العباسية) من جميع الممالك . . . وجددت له البيعة ، وأطلق رسومها وأقيمت الدعوة وغيرت السكة» .

ويظهر أن العلاقة بين الخليفة الطائع وصمصام الدولة كانت تنطوى على شىء من المودة والصفاء . على أن النزاع لم يلبث أن قام بين صمصام الدولة أكبر إخوته وشرف الدولة ، وكان يمتد نفوذه على أصبهان والرى وشيراز وغيرها[٣] . وقد عزم على أخذ بلاد العراق وتسلل إليه جنود صمصام الدولة ودخلوا فى طاعته[٤] .

وقد أدرك صمصام الدولة حرج مركزه ورأى عجزه عن مناهضة أخيه ، فأرسل إليه يطلب الصلح . ولكن هذا الصلح لم يتم . ففى سنة ٣٧٦هـ سار شرف الدولة من الأهواز إلى واسط فاستولى عليها ، ولما استشار صمصام الدولة أصحابه نصح له بعضهم بالمسير إلى الموصل وبلاد الجبل حيث تتاح له فرصة مقاومة أخيه شرف الدولة وإحداث الشقاق بين أنصاره من الديلم والأتراك ، وأشار بعضهم الآخر بمكاتبة عمه فخر الدولة وطلب النجدة منه والمسير إلى قرميسين[٥] ، ثم إلى أصبهان وفارس والاستيلاء على خزائن شرف الدولة فى

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٩ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧١ .
(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٤٢ .
(٤) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٢١ .
(٥) بفتح القاف وكسر الميم ، بلد بينه همذان ثلاثون فرسخاً . تقع بالقرب من دينور كما تقع بين همذان وحلوان على جادة الحاج .

أثناء غيبته عنها ، ومن ثم يضطر هذا إلى العودة إلى فارس وطلب الصلح من جديد[١] . بيد أن صمصام الدولة لم يأبه لتلك النصائح وقصد أخاه فى بعض خاصته ، فأحسن لقاءه ، ولكنه لم يلبث أن قبض عليه ، ثم صحبه إلى بغداد ونزل بقصر الشفيعى .

على أن وصول شرف الدولة إلى بغداد لم يضع حداً للنزاع الذى قام بينه وبين أخيه ، فقد دب الشقاق بين الأتراك والديلم ، وتمت الغلبة لهؤلاء فنادوا بعودة صمصام الدولة إلى السلطنة . ولكن شرف الدولة هدد بقتل أخيه ، وتمكن من توحيد صفوف الأتراك والديلم ، وأرسل أخاه إلى فارس فاعتقل فى إحدى قلاعها[٢] بعد أن حكم فى العراق ثلاث سنين وأحد عشر شهراً .

شرف الدولة — بهاء الدولة:

ولما استقرت إمارة شرف الدولة بن عضد الدولة فى العراق ، قدم بغداد فتلقاه الخليفة الطائع وهنأه بالفتح والظفر وطوقه . وسوره وكتب له عهداً وولاه ماوراء بابه ، وعقد له لواءين ، ولقبه شاهنشاه[٣] .

وكانت سياسة شرف الدولة ترمى إلى التودد إلى أخيه صمصام الدولة ، حتى انه أنكر على الشعراء تعريضهم به فى قصائدهم التى أنشدوها حين هنئوه بالسلطنة[٤] . ولكن بعض رجال حاشيته مازالوا يوغرون صدره على أخيه ويخوفونه من خروجه عليه ، حتى إنه اعتقله فى إحدى قلاع فارس[٥] .

وقد عمل شرف الدولة على تحقيق العدل بين الناس « ورفع أمر المصادرات وقطع أسبابها وذم طرق السعايات وسد أبوابها ... وانتظمت الأمور على يديه كل الانتظام . وطالب العمال بعمل المصالح وأخذهم بإقامة العمارات ووجد الأسعار متزايدة والأقوات متعذرة فرتب نقل الغلات من بلاد فارس فى البحر وجد فى حملها من كل بلد»[٦] .

فلشرف الدولة أحد رؤساء البطيحة أميراً عليها ولقبه مهذب الدولة . وكانت البطيحة

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٧ — ١٨ .
(٢) أبو شجاع : جـ٣ص١٣٢ — ١٣٤ .
(٣) ابن العميد تاريخ المسلمين ص ٢٤١ .
(٤) أبو شجاع : جـ ٣ ص ١٣٤ .
(٥) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٢ .
(٦) أبو شجاع جـ٣ ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

أرضاً واسعة بين واسط والبصرة عمرتها مياه دجلة والفرات منذ أيام كسرى أبرويز ، فتبطح الماء فى تلك الجهات فرحل أهلها عنها . ثم جاء الإسلام وتغلب الماء على النواحى المجاورة ، حتى كانت السفن تسير فيها ، وبنوا القرى فى المرتفعات التى لم يغمرها الماء وزرعوا الأرز فى بعض أرضها . ثم تمكن أهل هذه الجهات فى أوائل عهد بنى بويه من أن يؤمروا عليهم أميراً منهم ، وتحصنوا بالمياه والسفن ، وخرجت هذه الجهات عن طاعة الدولة العباسية .

ويقول ابن الأثير (ج ٩ ص ١٨ — ١٩) إن مهذب الدولة أحسن السيرة وبذل الخير والإحسان ، فقصده الناس وأمن عنده الخائف ، وصارت البطيحة معقلا لكل من قصدها واتخذها الأكابر وطنا ، وبنوا فيها الدور الحسنة ، ووسعهم بره وإحسانه ، وكاتب ملوك الأطراف وكاتبوه ، وزوجه بهاء الدولة ابنته ، وعظم شأنه إلى أن قصده القادر بالله فحماه ، وبقى عنده إلى أن أتته الخلافة .

وقد قامت المنافسة بين شرف الدولة وبين عمه فخر الدولة . لذلك نراه يرسل مقدم عسكره أو قائد قواده ، ويسمى قراتكين الجهشيارى ، لقتال بدر بن حسنويه فى بلاد الجبل لميله إلى عمه . وعلى الرغم من كثرة عدد جند شرف الدولة وإحرازه النصر والظفر أول الأمر أحل بهم بدر الهزيمة ، ثم استولى على بلاد الجبل وما والاها ، وأصبح خطراً يهدد بلاد العراق[١] .

ولم يطل عهد شرف الدولة ، فمات فى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٧٩ هـ ، بعد أن حكم ببغداد سنتين وثمانية أشهر[٢] ولما يتجاوز الثمانية والعشرين من عمره . وكان قد عهد قبل وفاته إلى أخيه أبى نصر ، الذى قبل ذلك بعد تردد ، لاضطراب حبل إمارة بنى بويه فى العراق ، وجلس للعزاء وركب الخليفة الطائع للعزاء كذلك ، فتلقاه بهاء الدولة وقبل الأرض بين يديه[٣] .

وبعد خمسة أيام من وفاة شرف الدولة ، ركب أبو نصر إلى دار الخلافة ، فخلع عليه الخليفة الطائع الخلع السلطانية ، ولقبه بهاء الدولة وضياء الملة ، وقرىء عهده بين يديه بالتقليد[٤] .

---

(١) أبو شجاع ج ٣ ص ١٣٩ — ١٤١ .

(٢) يلاحظ أن ستانلى لينبول أغفل حكم صمصام الدولة فى العراق من سنة ٣٧٢ إلى سنة ٣٧٦هـ ، وجعل سلطنة شرف الدولة فى العراق من سنة ٣٧٢ هـ إلى سنة ٣٧٩ هـ ، على حين أنه لم يحكم فى العراق إلا سنتين وتسعة أشهر (٣٧٦ — ٣٧٩هـ) .

(٣) أبوشجاع ج ٣ ص ١٥٠ — ١٥٢ . ابن الأثير ج ٩ ص ٣٣ .

(٤) أبو شجاع ج ٣ ص ١٥٣ ، ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٤١ .

أقر بهاء الدولة أبا منصور بن صالحان وزير شرف الدولة فى الوزارة ، ثم استوزر أبا نصر خواشاذة وخلع عليه ، وأقر أصحاب الدواوين وغيرهم من الموظفين فى مناصبهم . وتمكن بما أوتيه من الدهاء من القبض على الأمير أبى على ابن أخيه شرف الدولة وقتله ليصفو له الجو ، كما تمكن من استمالة الأتراك الذين التفوا حوله . ولما قامت الفتنة بين الأتراك والديلم فى مستهل إمارته ، انضم بهاء الدولة إلى الأتراك ، واستطاع بذلك أن يضعف من نفوذ الديلم(١) .

بيد أن استمالة بها الدولة الأتراك إليه وإضعاف نفوذ الديلم لم يضع حداً للمصاعب التى قامت فى وجهه ، فقد واجه صعوبة لاتقل خطرا من خارج بلاد العراق ، فإن فخر الدولة صاحب الرى وهمذان وأصبهان طمع فى الاستيلاء على بلاد العراق بعد موت شرف الدولة وشجعه على تحقيق هذه السياسة وزيره الصاحب بن عباد الكاتب المشهور ، الذى كان يرنو ببصره إلى بغداد والجلوس على دست الوزارة فيها ، ويترقب الفرص للوصول إلى غايته ، وأيقن أن الفرصة قد سنحت له بموت شرف الدولة(٢) .

ولما علم بهاء الدولة بنبأ وصول فخرالدولة إلى الأهواز عول على القضاء على جيوشه قبل أن يصل إلى بغداد ، والتقى الجيشان بالقرب من خوزستان ، وتم النصر لبهاء الدولة الذى سار بعد ذلك إلى واسط والبصرة(٣) ، وبعث بجيوشه إلى أرجان ، فاستولى على قلعتها المنيعة ، وكان بها من العين ألف ألف دينار ومن الورق ثمانية آلاف ألف(٤).

والآن نعود إلى الكلام على صمصام الدولة الذى بعث به أخوه شرف الدولة إلى فارس واعتقله فى إحدى قلاعها سنة ٣٧٦هـ ، فنقول إنه تمكن من معتقله ، وانتصر على جيش أخيه بهاء الدولة على مقربة من شيراز سنة ٣٨٠هـ ، وتم الصلح بينهما على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان ، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق ، وحلف كل منهما لصاحبه على الوفاء ، وعاد بهاء الدولة إلى الأهواز(٥).

على أن هذا الصلح لم يطل أمده ، فإن بهاء الدولة عمل على الاستيلاء على فارس ،

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٣ .
(٢) أبو شجاع . جـ ٣ ص ١٦٣ — ١٦٤ .
(٣) أبو شجاع ١٦٦ و١٦٩ .
(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٨ .
(٥) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

وقابل صمصام الدولة هذا العمل باستيلائه على خوزستان فى سنة ٣٨٣ هـ ، وعلى الأهواز فى سنة ٣٨٥ هـ ، وساعده على ذلك موت نائب بهاء الدولة بها ورغبة جنده من الأتراك فى العودة إلى بغداد . كما استولت جيوش صمصام الدولة على البصرة (٣٨٦ هـ) ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من إحراز النصر النهائى لولا تدخل مهذب الدولة صاحب البطيحة . وانتهت هذه الحروب بعقد الصلح بين بهاء الدولة وصمصام الدولة ، على أن يخطب فى البصرة لكل من صمصام الدولة وبهاء الدولة ومهذب الدولة ؛ ولم ينجل الصراع الذى قام بين صمصام الدولة وبهاء الدولة إلا بقتل أولهما فى سنة ٣٨٨ هـ(١).

وسرعان ماساءت العلاقة بين بهاء الدولة والخليفة الطائع ، ولم يستفد الخلفاء العباسيون من سياسة بنى بويه الذين كانوا يتظاهرون بأنهم يستمدون نفوذهم من الخليفة ويتمتعون برضاه ليكتسبوا رضاء العامة . فقد قبض بهاء الدولة على الخليفة الطائع وخلعه ، وبايع للقادر بالله فى سنة ٣٨١ هـ . وقد عزا السيوطى(٢) ذلك إن أن الخليفة حبس أحد خواص بهاء الدولة ولكن الواقع أن السلطان البويهى طمع فى أموال الخليفة وأرسل إلى الطائع يسأله الإذن فى الحضور ليجدد العهد له ، فأذن له الخليفة وجلس له كما جرت العادة . فدخل بهاء الدولة فى جمع كثير ، ثم قبل الأرض وجلس على كرسى ، ودخل أحد الديلم وتظاهر بأنه يريد أن يقبل يد الخليفة ، ثم جذبه وأنزله عن سريره . والخليفة يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه أحد . وأخذ بهاء الدولة مافى دار الخليفة من الذخائر(٣) . وكان من هؤلاء الذين شاهدوا هذه المأساة الشريف الرضى الذى بادر إلى التسليم ونجا بنفسه بعد أن امتهن أكثر رجالات الدولة من القضاة والأشراف وسلبت ثيابهم .

ويقول أبو شجاع إن الخليفة الطائع أجبر على أن يخلع نفسه وينزل عن الخلافة إلى أبى العباس أحمد بن اسحاق بن المقتدر ، الذى تلقب القادر بالله بعد أن بقى فى الخلافة سبع عشرة سنة وثمانية شهور وخمسة أيام (٣٦٣ — ٣٨١ هـ) . وقد وصف ابن العميد (ص ٢٤٣) الخليفة الطائع فقال : « كان جوادا كريماً ، إلا أن يده كانت قصيرة مع بنى بويه ، فإنهم كانوا الملوك وليس للخليفة إلا مجرد الاسم » . وكان القادر أطول الخلفاء العباسيين حكما ، وقد بقيت خلافته أكثر من إحدى وأربعين سنة .

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٩ و ٤١ ، ٤٦ ، ٥٣ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٧٢ .
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٩ .

ثار الديلم والأتراك وطلبوا رسم البيعة على ماجرت به العادة ، ومنعوا الخطبة باسم الخليفة ، وترددت الرسل بين الجند وبهاء الدولة الذى أجاب طلبهم وأغدق عليهم ومنح كلا منهم ثمانمائة درهم ، وأقيمت الخطبة باسم أبى العباس أحمد القادر بالله ، وهنأه الناس بالخلافة ومدحه الشعراء ، وأنشده الشريف الرضى قصيدة طويلة (١) .

كان القادر — كما وصفه الخطيب البغدادى (٢) « من الستر والديانة وإدامة التهجد بالليل ، وكثرة البر والصدقات على صفة اشتهرت عنه ، وعرف بها عند كل أحد ، مع حسن المذهب وصحة الاعتقاد » . وقد صنف فى الأصول كتاباً ذكر فيه فضائل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث ، وذكر فيه فضائل عمر بن عبد العزيز وإكفار المعتزلة والقائلين بخلق القرآن . وكان هذا الكتاب يقرأ كل جمعة فى حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدى ويحضر الناس سماعه .

ازداد نفوذ بهاء الدولة فى عهد القادر ، فاستبد بالسلطة دون الخليفة . الذى « قلده ما وراء بابه » (٣) . وقد استمرت العلاقة بين الخليفة العباسى وبين بهاء الدولة على شئ من الصفاء ، بدليل زواج الخليفة من سكينة ابنة بهاء الدولة على صداق قدره مائة ألف دينار (٣٨٣ هـ) (٤) ، وإضافة هذه الألقاب إلى بهاء الدولة فى خطبة الجمعة بأمر الخليفة وهى : قوام الدين ، صفى أمير المؤمنين » (٥) .

وعلى الرغم من استبداد بهاء الدولة بالسلطة ، نرى الخليفة القادر يعمل على تولية ابنه العهد من بعده لبقاء الحكم فى بيته ، وإن كان ذلك الحكم قد انتقل فى الواقع إلى أيدى بنى نوبه (٦) .

حاول بهاء الدولة التخلص من أبناء بختيار ، وكانوا قد قتلوا صمصام الدولة واستولوا على فارس وعولوا على محاربته واستمالة الديلم الذين كانوا يحقدون عليه لاعتماده على الأتراك إلا أن بهاء الدولة استمال زعيم الديلم إليه ، وحارب ابنى بختيار اللذين انتقلت إليهما الزعامة

---

(١) ديوان الشريف الرضى ج ١ ص ٤٧ .
(٢) تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٧ — ٣٨ .
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٤ .
(٤) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٣٥٤ .
(٥) هلال الصابى . كتاب التاريخ ، الجزء الثامن « بيروت ١٩٠٤ » ص ٤٤٣ .
(٦) هلال الصابى . ذيل تجارب الأمم ج ٣ ص ٤٢٠ .

فى فارس [١] ، واستطاع أن يحدث الشقاق فى صفوفهما ؛ وأن يوقع بهما الهزيمة ويستولى على فارس سنة ٣٨٩ هـ : فلحق أحدهما بالبطيحة ، ولحق الثانى ببلاد الديلم ، ولكنه عاد إلى فارس حيث التف حوله كثير من الزط والديلم والأتراك . واستولى على أغلب بلاد كرمان . على أن بهاء الدولة أرسل إليه جيشاً أحل به الهزيمة وقتله (٣٩٠ هـ) [٢] .

وقد اضطربت أحوال البطيحة واستولى عليها أبو العباس بن واصل ، وطرد صاحبها مهذب الدولة (صهر بهاء الدولة) ثم استولى على البصرة وهدد جنوبى بلاد العراق ؛ وهزم جيوش بهاء الدولة (٣٩٤ هـ) ، الذى أرسل إليه من بغداد جيشاً بقيادة مهذب الدولة ، فتمكن من استردادها ، واتفق مع بهاء الدولة على أن يدفع له خمسين ألف دينار جزية سنوية . على أن خطر ابن واصل لم يزل باستيلاء بهاء الدولة على البطيحة وطرده منها ، فإنه سار إلى البصرة ، وكانت فى قبضة يده ، وهدد الأهواز وانتصر على جيوش بهاء الدولة فيها . وعلى الرغم من انتصار ابن واصل ، راسل بهاء الدولة وصالحه وزاد فى إقطاعه ، وحلف كل منهما لصاحبه وعاد إلى البصرة [٣] .

وفى سنة ٤٠١ هـ تعرض نفوذ بنى بويه فى العراق للخطر ، حيث خطب قراوش بن المقلد أمير بنى عقيل ، الذى آلت إليه السيادة فى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة ، للخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، فأرسل الخليفة القادر أبا بكر الباقلانى الفقيه المشهور إلى بهاء الدولة ، وطلب إليه أن يعمل على قمع هذه الحركة ، فأرسل بهاء الدولة جيشاً اضطر قرواش إلى إعادة الخطبة للخليفة العباسى [٤] .

بيد أن بهاء الدولة أجاب الخليفة العباسى إلى طلبه احتفاظاً بنفوذه هو فى بلاد العراق والوقوف فى سبيل كل من يعمل على الحد من هذا النفوذ ، لاسيما إذا علمنا أن الخليفة العباسى لم يكن له مع بنى بويه من الأمر شىء سوى ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة . ومع هذا فقد عرف بنو بويه بالتعصب للمذاهب الشيعية ، وبلغ من تعصبهم أن قامت الثورات من حين إلى حين بين الشيعيين والسنيين فى بغداد وفى غيرها من أمهات مدن العراق . ففى سنة ٣٩٨ هـ قامت بين الشيعيين والسنيين فى بغداد ثورة كاد يقتل فيها أبو حامد

---

(١) هما أبو نصر الذى تلقب نور الدولة ومحيى الأمة ، وأبو القاسم الذى تلقب حسام الدولة سيد الأمة .
(٢) هلال الصابى : كتاب التاريخ ص ٣٧٩ ــ ٤٩٤ . ابن الأثير جـ ٩ ص ٥٦ ــ ٥٧ و ٦٠ ــ ٦١
(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٥٧ .
(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ٨٣ .

الأسفرايني، وتعصب أهل الشيعة ببغداد للخليفة الحاكم الفاطمي وصاحوا: ياحاكم يامنصور !

وكان بهاء الدولة — على ماوصفه أبو المحاسن [1] — « ظالماً غشوماً سفاكا للدماء ، حتى إنه كان خواصه يهربون من قربه ؛ وجمع من المال مالم يجمعه أحد من بنى بويه ، ولم يكن فى ملوك بنى بويه أظلم منه ولا أقبح سيرة » .

توفى بهاء الدولة فى الخامس من شهر جمادى الآخرة من سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، بعد أن حكم أربعا وعشرين سنة (٣٧٩ — ٤٠٣ هـ) وتسعة أشهر وأيام ، وكان فى الثانية والأربعين من عمره ، وحملت جثته من أرجان إلى مشهد على بن أبى طالب بالكوفة ، فخلفه فى السلطنة ابنه سلطان الدولة أبو شجاع ، وكان قد عهد إليه بالسلطنة من بعده .

سلطان الدولة ومشرف الدولة ابنا بهاء الدولة (٤٠٣ — ٤١٦ هـ) :

خلف بهاء الدولة فى السلطنة ابنه سلطان الدولة أبو شجاع (٤٠٣ — ٤١١ هـ) . وقد استهل عهده بتولية أخيه جلال الدولة أبى طاهر البصرة ، وتولية أخيه الآخر قوام الدولة أبى الفوارس كرمان . ولكن عوامل الشقاق لم تلبث أن دبت بين سلطان الدولة وأخيه أبى الفوارس . ويعزو ابن الأثير (جـ ٩ ص ٩٠ ، ١٠٩ — ١١٠) ذلك الشقاق إلى إغراء الديلم أبا الفوارس بحرب أخيه وأخذ مابيده من البلاد ، فبادر إلى امتلاك شيراز فى سنة ٤٠٧ هـ . ولكن جيوش سلطان الدولة لم تلبث أن أخرجته منها وطاردته إلى كرمان واحتلتها ، ثم إلى خراسان حيث لجأ أبو الفوارس إلى يمين الدولة محمود بن سبكتكين صاحب غزنة ، الذى أمده بجيش استرد به كرمان (٤٠٨ هـ) . على أن هذا الجيش لم يقو على الوقوف فى وجه جند سلطان الدولة ، فاضطر أبو الفوارس إلى التقهقر واللحاق بشمس الدولة بن فخر الدولة بن بويه صاحب همذان ، ثم بمهذب الدولة صاحب البطيحة ، وانتهى الأمر باعادة كرمان إلى أبى الفوارس الذى اعترف بزعامة أخيه سلطان الدولة .

ولم تقتصر مصاعب سلطان الدولة على مناوأة أخيه قوام الدولة أبى الفوارس ، فقد شغب عليه الجند فى العراق وأرادوا تولية أخيه مشرف الدولة السلطنة فيها ، وأشار بعض خواص سلطان الدولة عليه بالقبض على أخيه ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، وعمل على

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٢٣ .

الهرب إلى واسط فقال له الجند : « إما أن تجعل عندنا ولدك (أبا كاليجار) أو أخاك مشرف الدولة ؛ فراسل أخاه بذلك ، فامتنع ثم أجاب بعد معاودة . ثم إنهما اتفقا واجتمعا ببغداد ... وفارق سلطان الدولة بغداد وقصد الأهواز (ذو الحجة ٤١١هـ) ، واستخلف أخاه مشرف الدولة على العراق » (١) (٤١١ — ٤١٦ هـ) . إلا أن الحرب لم تلبث أن قامت بين هذين الأخوين ، وحلت الهزيمة بجيش سلطان الدولة الذى هرب من الأهواز إلى أرجان ؛ وقوى أمر مشرف الدولة ، فلقب فى أواخر شهر ذى الحجة بلقب شاهنشاه ، واعترف أخوه جلال الدولة أبو طاهر صاحب البصرة بسلطانه ، وخطب له ببغداد فى أواخر المحرم سنة ٤١٢ هـ (٢) .

على أن سلطان الدولة أخذ يعمل على استرداد نفوذه ، واتخذ من ثورة الديلم على وزير أخيه مشرف الدولة وقتلهم إياه فرصة لتحقيق أغراضه ؛ فأنفذ ابنه أبا كاليجار إلى الأهواز فاستولى عليها سنة ٤١٢ هـ ، وتم الصلح بينه وبين أخيه سلطان الدولة ، وحلف كل منهما لصاحبه على أن يكون العراق لمشرف الدولة ، وفارس وكرمان لسلطان الدولة (سنة ٤١٣ هـ) وصفا الجو لمشرف الدولة بوفاة أخيه سلطان الدولة فى سنة ٤١٥ هـ وله من العمر اثنتان وعشرون سنة وخمسة أشهر (٣) .

وفى أيام مشرف الدولة ازداد نفوذ الأتراك . ويرجع ذلك إلى ضعف سلاطين بنى بويه وتسنم الأطفال عرش السلطنة فى بغداد فى ذلك الوقت . ولا عجب فقد ولى سلطان الدولة السلطنة وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، وولها أخوه مشرف الدولة وهو فى الثامنة عشرة . ويقول ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٢٥) فى حوادث سنة ٤١٥ هـ إن مشرف الدولة اضطر إلى الهرب مع وزيره وجماعة من مقدمى الديلم إلى قرواش بن مقلد العقيلى ، ولم يعد إلا بعد أن استوثق منهم .

كان مشرف الدولة كثير الخير قليل الشر عادلا حسن السيرة ، ولم يعمر فى السلطنة سوى خمس سنين وخمسة وعشرين يوما ، ومات وله من العمر ثلاث وعشرون سنة .

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ١١٨ .

(٢) المصدر نفسه ٩ ص ١١٩ — ١٢١ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٢١ — ١٢٢ .

جلال الدولة (٤١٦ — ٤٣٥) :

كان أبو طاهر جلال الدولة من أطول سلاطين بنى بويه عهداً فى الحكم ، فقد أقيمت له الخطبة بالعراق بعد أخيه مشرف الدولة ، وطلب إليه وهو بالبصرة الحضور إلى بغداد ، ولكنه سار إلى واسط ثم عاد إلى البصرة ، فقطعت الخطبة له وتحولت إلى ابن أخيه الملك أبى كاليجار بن سلطان الدولة ، وكان مشغولا بالحرب مع عمه أبى الفوارس صاحب كرمان ، فاتخذ جلال الدولة من ذلك فرصة للسير إلى بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة لنفسه من جديد[١] .

ويقول أبو الفدا (جـ ٢ ص ١٥٦) إن الخليفة القادر استدعى جلال الدولة ، وكان بالبصرة ، إلى بغداد « لما حصل من النهب والفتن » ، لخلوها من السلطان ، فدخلها فى اليوم الثالث من شهر رمضان (سنة ٤١٨ هـ) وخرج الخليفة القادر للقائه ، وحلفه واستوثق منه ، واستقر جلال الدولة فى بغداد .

وقد أوضح ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٣٥) ازدياد نفوذ الأتراك وتأثيرهم فى تسيير أمور الدولة العباسية فى ذلك الحين ، حتى إنهم أخذوا يتدخلون فى تولية سلاطين بنى بويه وعزلهم ، ويحملونهم على أن يحلفوا لهم على الطاعة والوفاء ، والخليفة فى ذلك كله لا يملك إلا تنفيذ رغباتهم .

على أن الأتراك كانوا ينزعون دائما إلى شق عصا الطاعة مدفوعين بعوامل الطمع وابتزاز الأموال . ففى سنة ٤١٩ هـ ثاروا على جلال الدولة ببغداد ونهبوا داره ودور أنصاره كما نهبوا صياغات أخرجها جلال الدولة لتضرب دنانير ودراهم ، وتفرق فيهم ، وحصروا جلال الدولة فى داره ومنعوه الطعام والماء ، حتى شرب أهله ماء البئر وأكلوا ثمرة البستان .. ثم أرسل إلى الخليفة القادر بالله ، ليصلح الأمر مع أولئك القواد ، فأصلح بينهم وبين جلال الدولة ، ولم يمض غير أيام حتى عادوا إلى الشغب واضطر جلال الدولة إلى بيع فرشه وثيابه وخيمه ، وفرق ثمنها فيهم[٢] .

ولم يكن هذا كل ما صادف جلال الدولة من صعاب فى سبيل إقرار ملكه بالعراق ، فقد قام فى وجهه أبو كاليجار بن سلطان الدولة الذى استمال إليه بعض أمراء العراق واستولى على البصرة ،

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٢٩ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٣٧ .

ثم سار إلى واسط واحتلها ، فسار جلال الدولة إلى الأهواز وانتهبها فى غيبة أبى كاليجار ، وأحل الهزيمة بجنده واسترد واسط (١) ، ثم استولى على البصرة من جند أبى كاليجار (٢) .

مات الخليفة القادر فى شهر ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ ، بعد أن بقى فى الخلافة إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما ، وكان فى السابعة والثمانين من عمره . وعلى الرغم من استبداد الأتراك والديلم بأمور الدولة ، احتفظ القادر بهيبة الخلافة .

وقد خلف القادر ابنه القائم بأمر الله سنة ٤٢٢ هـ ، وكان فى الثانية والثلاثين من عمره ، وأمه أم ولد رومية تسمى بدر الدجى (وقيل قطر الندى) . وكان أبوه قد ولاه عهده فى سنة ٤٢١ وكان القائم — كما يقول أبو المحاسن — (٣) « متدينا ورعا زاهدا عالما ، فى وجهه أثر صفار من قيام الليل . وكان يسرد (يتابع) الصوم » وقد عمر فى الخلافة أربعا وأربعين سنة (٤) .

وكان الخليفة القائم فى عهد سلطنة جلال الدولة وأبى كاليجار والملك الرحيم مسلوب السلطة كغيره من الخلفاء الذين سبقوه فى الوقت الذى أصبح فيه بنو بويه يديرون العالم الإسلامى من غير أن يشيروا أو يحفلوا بمن يدعى أنه أمير المؤمنين (٥) . على أن ما أصاب الدولة العباسية من ضعف ووهن لم يكن راجعا أيضا إلى قيام النزاع والمنافسة بين بنى بويه من جهة وبينهم وبين الجند من جهة أخرى . ففى سنة ٤٢٤ هـ أصبحت البصرة مركزا للصراع بين جلال الدولة وبين ابن أخيه عماد الدولة بن سلطان الدولة الذى خطب له على منابرها ولكن جند جلال الدولة استردوا هذه المدينة ثم جلوا عنها فى السنة التالية . كما شغب الجند على جلال الدولة وقبضوا عليه وأخرجوه من داره . ولولا انقسام هؤلاء الجند على أنفسهم لزال ملك جلال الدولة الذى أفاد من جراء هذا الانقسام وعاد إلى بغداد بعد قليل (٦) .

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٤٠ — ١٤١ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٥٣ .

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٩٨ .

(٤) يقول أبو المحاسن « جـ ٥ ص ٩٨ » : « ومن الغرائب أن القائم هذا كان معاصراً للمستنصر العبيدى ... وكلاهما مكث فى الخلافة مالم يمكثه غيره من آبائه وأجداده من طول المدة ، فالقائم هذا كانت مدته أربعا وأربعين سنة ، والمستنصر ستين سنة » ، وقد نسى أبو المحاسن أن عبد الرحمن الناصر الأموى فى الأندلس مكث فى الحكم أكثر من خمسين سنة « ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ » وإن لم يكن آباؤه من الخلفاء .

(٥) Arnold : The Caliphate, p. 68

(٦) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٦١ .

وقد صور هارولد باون (١) فى مقاله الذى نشره فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩٢٩ سوء مركز جلال الدولة منذ تولى مقاليد الحكم فى سنة ٤١٦ هـ فقال : « إن إدارة جلال الدولة منذ تولى مقاليد الحكم فى سنة ٤١٦ هـ كانت فى غاية الضعف ؛ فإن بغداد قد غدت منذ ذلك الحين مسرحا للشغب والمنازعات الطائفية ، وزاد هذه المنازعات تعقيدا منافسات الجند الذين كانوا يتألفون من أجناس مختلفة أهمها العرب والديلم والأتراك أضف إلى ذلك أن الأتراك قد عطفوا على دعوى أبى كاليجار بن سلطان الدولة ، الأخ الأكبر لجلال الدولة لتسنم عرش السلطنة فى العراق . وقام هؤلاء الجند ثلاث مرات بمحاولات عنيفة ترمى إلى خلع جلال الدولة وتنصيب ابن أخيه أبى كاليجار فى السلطنة من بعده وكانت الحروب بين الفريقين لا تكاد تنقطع فى السنين الأولى من حكم جلال الدولة . وبلغت الفوضى ذروتها فى بغداد بعد سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣٧ م) ، وأرغم السلطان على الهرب من حاضرة العباسيين ثلاث مرات خوفا على حياته ؛ ولكن جلال الدولة وابن أخيه (أبو كاليجار) عقد الصلح سنة ٤٢٨ هـ ، فساد الوفاق بينهما » .

وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٨٢ — ١٨٣) فى حوادث سنة ٤٣٢ هـ أن النزاع قام بين جلال الدولة البويهى وقرواش بن المقلد العقيلى صاحب الموصل ، الذى لم يعبأ بأوامر جلال الدولة ، وأخذ يؤلب الجند من الأتراك عليه . وانتهت الحروب التى قامت بينهما بعودة قرواش إلى طاعة بنى بويه .

ولم تسكن المصاعب التى صادفت جلال الدولة مقصورة على ذلك النزاع الذى كان يقوم بين أمراء بنى بويه من حين إلى حين ، وعلى شغب الجند عليه ، بل كان راجعا أيضاً إلى تذمر الخليفة القائم منه بسبب تدخله فى شئونه الخاصة .

توفى جلال الدولة فى شهر شعبان سنة ٤٣٥ هـ بعد أن حكم بغداد ست عشر سنة وأحد عشر شهراً ، وكان فى الثانية والخمسين من عمره . وقد عرف بالضعف وسوء التدبير ، وامتاز عهده بازدياد نفوذ الجند والولاة . وكان ، كغيره من سلاطين بنى بويه ، مغالياً فى التشيع ، وكان يكثر من زيارة مشهدى على بن أبى طالب وابنه الحسين ، حتى إنه كان يمشى حافياً قبل أن يصل إلى كل مشهد منهما نحو فرسخ .

---

(١) Harold Bowen: The Last Buwayhids, J. R. A. S. (1929), p. 229

أبو كاليجار (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ):

عمل جلال الدولة على أن يخلفه فى السلطنة ابنه الأكبر أبو منصور فيروز . وقد ولاه أبوه البصرة إلى أن خرجت من يده ، فولاه واسط . ولم يكن فيروز الذى لقبه الخليفة « الملك العزيز » ، كلفا بشئون الدولة ، بل صرف وقته فى الانغماس فى الملاذ من ناحية ، وفى دراسة الأدب والتاريخ والنحو ونظم القصائد من ناحية أخرى (١) .

ولم يستطع الملك العزيز الاحتفاظ بنفوذ أبيه فى بغداد . فقد استمال أبو كاليجار بن سلطان الدولة كبار القواد بالأموال ، فأقاموا الخطبة له ، واستقر أمره ببغداد ، على حين أخذ أنصار الملك العزيز ينفضون من حوله ، ولجئوا إلى الأمراء على غير جدوى ، حتى مات بميا فارقين سنة ٤٤١ هـ .

بذلك استطاع أبو كاليجار دخول بغداد ، ولكنه لم يجد من الخليفة القائم الذى لم يخرج للقائه الترحيب الذى كان يؤمله . ولما ضرب أبو كاليجار الدبادب على داره فى أوقات الصلوات الخمس ، وأمر الخليفة بقصرها على ثلاث مرات ، لم يحفل بأمر الخليفة (٢) .

وقد اعترف بنفوذ أبى كاليجار سائر أمراء العراق ، واستولى أنصاره على همذان ، وطردوا نائب طغرلبك السلجوقى منها . وأمر أبو كاليجار ببناء سور مدينة شيراز . التى ظهر فيها إذ ذاك المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى (٤٧٠ هـ) ، الذى شغل منصب داعى دعاة الفاطميين فى فارس وداعى دعاتهم فى مصر بعد ذلك . ويرجع سبب بناء سور مدينة شيراز فى سنة ٤٣٦ هـ ، إلى ما كان يخشاه أبو كاليجار من اتساع نفوذ السلاجقة الذين ازداد خطرهم فى الأربع السنين الأولى من حكمه .

وقد حارب أبو كاليجار صاحب أصبهان ، لنقضه العهد وانضمامه إلى طغرلبك السلجوقى واستيلائه على بعض نواحى كرمان ، وهزمه ، وطرده من هذه البلاد . ولكن أبا كاليجار نجح فى استمالة صاحب أصبهان الذى دعا له على منابرها فى سنة ٤٣٨ هـ . وبعد ذلك بسنتين عقد الصلح بين أبى كاليجار وبين طغرلبك ، الذى كتب « إلى أخيه (ابراهيم بن ينال) يأمره بالكف عما وراء مابيده . واستقر الحال بينهما على أن يتزوج طغرلبك بابنة أبى

---

(١) أبو الفدا . المختصر ج ٢ ص ١٦٧ .
(٢) أبو المحاسن ج ٥ ص ٣٧ — ٣٨ .

كاليجار ، ويُزوج الأمير أبو منصور بن أبى كاليجار بابنة الملك داود أخى طغرلبك»(١)

وكان من أثر عقد الصلح الذى اقترن بربط البيتين البويهى والسلجوقى برباط المصاهرة ، أن تأجل استيلاء السلاجقة على بغداد إلى حين ، كما تأخر تهديد السلاجقة لأملاك الفاطميين فى الشام ومصر .

وقد اتخذ بنو بويه الشيعيون من التقرب إلى الفاطميين وسيلة لإثارة مخاوف العباسيين حتى لا يرتموا فى أحضان أعدائهم السلاجقة السنيين . وكأنهم بذلك رجعوا إلى السياسة التى أراد معز الدولة بن بويه أن يتبعها حيال الفاطميين بعد استيلائه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، ولكنه أشير عليه بالعدول عن هذه السياسة .

وقد نقل هار ولد باون(٢) عن كتاب fârs-nâmeh أن الدعوة لطائفة الإسماعيلية أو السبعية الذين كانوا يعرفون بالباطنية فى ذلك الوقت ، قد وجدت طريقها إلى قلوب الديالمة فى فارس على يد ذلك الداعى القدير الذى نجح حتى فى تحويل هذا الأمير (أبى كاليجار) إلى عقائد هذا المذهب .

ساءت العلاقة بين أبى كاليجار وبين واليه فى كرمان ، فقصده فى شهر ربيع الآخر من هذه السنة . ولكن المنية عاجلته وهو فى الطريق ، وتوفى فى شهر جمادى الأولى سنة ٤٤٠ هـ وله من العمر أربعون سنة ومدة سلطنته أربع سنين وشهران وأيام ، وحكم فارس والأهواز خمسا وعشرين سنة (٣) . وكان كما يصفه أبو المحاسن (ج ٥ ص ٤٦) «شجاعا فاتكا مشغولا بالشراب واللهو » .

أبو نصر الملك الرحيم (٤٤٠ — ٤٤٧ هـ) :

لما علم أبو نصر خسرو فيروز بموت أبيه أبى كاليجار ، وكان نائبا عنه فى العراق ، استحلف الجند ، وراسل الخليفة القائم فى تلقيبه بالملك الرحيم . وترددت الرسل بينهما فى ذلك إلى أن أجيب إلى ماتمسه ، سوى « الملك الرحيم » ، فإن الخليفة امتنع من إجابته وقال : لايجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى ، واستقر ملكه بالعراق وخوزستان

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٩٩ .

(٢) The Last Buwayhids, J. R. A. S. (1929), p. 234

(٣) أبو المحاسن ج ٥ ص ٤٦ .

والبصرة ، هذا ما ذكره ابن الأثير (ج ٩ ص ٢٠٤) . أما أبو المحاسن (ج ٥ ص ٤٦) فقد ذكر أن الخليفة القائم بأمر الله لقبه « الملك الرحيم وخلع عليه خلعة السلطنة ، وكانت الخلع سبع جباب كاملة ، والتاج والطوق والسوارين واللواءين كما كان فعل بعضد الدولة .

وكان للملك الرحيم إخوة كثيرون هم : الأمير أبو منصور فلادستون ، وأبو طالب كامرو ، وأبو المظفر بهرام ، وأبو على فنا خسرو ، وأبو سعد خسرو شاه ، واسفنديار ، وبويه ، وأخ صغير وأختان ، تزوجت إحداهما الخليفة القائم وماتت سنة ٤٤٠ هـ ، وتزوجت الأخرى طغرلبك[١] .

استولى أبو منصور على شيراز ، فسير إليه أخوة الملك الرحيم أخاه الآخر أبا سعد خسرو شاه فاستولى عليها ، وأقام الخطبة فيها للملك الرحيم الذى سار إلى خوزستان ، فأذعنت له بالطاعة ، كما هزمت جيوشه الملك العزيز بن جلال الدولة الذى طمع فى امتلاك البصرة ، فانقطع أمله فى العودة إلى السلطنة ، ومات فى السنة التالية (٤٤١ هـ) .

ولكن الأحوال تقلبت بالملك الرحيم ، فإن أخاه أبو منصور صاحب فارس انتصر عليه وملك الأهواز (٤٤١ هـ) ، ولم يلبث أن خرج منها بسبب شغب الجند عليه ، وإعادة الخطبة للملك الرحيم الذى استرد الأهواز بنفسه فى السنة التالية ، وفى سنة ٤٤٣ هـ أرسل الملك الرحيم أخاه أبا سعد فاستولى على قلعة إصطخر ومدينة شيراز ، وأصبحت مدن العراق وفارس مركزاً للنزاع بين الملك الرحيم وبين إخوته تارة وبينه وبين السلاجقة تارة أخرى[٢] .

وكانت هذه الحروب التى قامت بين أبناء أبى كاليجار من أهم عوامل ضعف بنى بويه ، فإنه بدلا من أن يستعين الملك الرحيم بإخوته على دفع خطر السلاجقة عن بلاده ، قلم أظفاره بيده وهيأ لمنافسيه السلاجقة الأقوياء سبيل الاستيلاء على بغداد ، كما كانت مناوأة أبى الحارث البساسيرى أحد قواد بنى بويه الأتراك للخليفة القائم من أهم العوامل التى عجلت بسقوط بنى بويه .

ويصف البندارى[٣] كيف دخل طغرلبك بغداد واستقر بها وكيف استقبل فيها ، وكيف أسس سلطانه على أنقاض سلطان البويهيين ، وكيف قضى على الملك الرحيم آخر سلاطين بنى بويه فى العراق ، بعد أن حكموا أكثر من قرن على ماسنفصله فى الجزء الرابع من هذا الكتاب .

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٤ Harold Bown : J. R. A. S. (1929). p. 227

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٦ — ٢٢٠ .

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ — ١٠ .

الباب الرابع

الدول المستقلة

تمهيد

استبد أمير الأمراء بالسلطة على ما تقدم ، وتولى بحكم الحكم فى كافة أمور الدولة ، كما ذكر اسمه فى الخطبة على جميع المنابر ، واستقل أكثر الولايات الإسلامية عن الدولة العباسية ، وقامت الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨ - ٣٩٧ / ٧٥٦ - ١٠٩٢) على يد عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل ، وتأسست دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى (١٧٢ - ٣١١ / ٧٨٨ - ٩٣٢) على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ، ودولة الأغالبة فى تونس (١٨٤ - ٢٩٦ / ٨٠٠ - ٩٠٨) على يد إبراهيم بن الأغلب . كذلك كانت سيادة الطولونيين (٢٥٤-٣٠٢ / ٨٦٨-٩٠٥) والإخشيديين (٣٢٣-٣٥٨ هـ) والفاطميين (٣٥٨ - ٥٦٧ / ٩٦٩ - ١١٧١) فى مصر .

أما فى الشرق فقد قامت الدولة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩/٨٢٠-٨٧٢) فى خراسان، ومنهم انتقلت السلطة إلى أسرة جديدة هى الدولة الصفارية (٢٥٤ - ٢٩٠ / ٧٦٨ - ٩٠٣) التى قامت على يد يعقوب بن الليث الصفار ، والدولة السامانية (٢٦٦ - ٣٨٩ / ٨٧٤ - ٩٩٩) التى تفرعت عنها الدولة الغزنوية (٣٥١ - ٥٨٢ / ٩٦٢ - ١١٣٦) لأن البتكين مؤسس هذه الدولة كان من الموالى الأتراك الذين استخدموا فى البلاط السامانى ، كما زاد نفوذ بنى بويه .

وكان لقيام هذه الدول أثر كبير فى تقدم الحضارة الإسلامية ، ذلك أنه بعد أن كانت بغداد مركزاً لهذه الحضارة ظهرت مراكز أخرى تنافس حاضرة العباسيين فى الحضارة وفى العلوم والمعارف ، مثل قرطبة والقاهرة وبخارى ، وأصبح كل منها قبلة للعلماء والشعراء والكتاب الذين تنقلوا بين هذه الحواضر طلباً للعلم أو ابتغاء الكسب ، هذا إلى أن قيام الدول لم يؤثر فى مظاهر الحضارة الإسلامية ، بل على العكس عاد عليها بفوائد كثيرة ، ولنذكر طرفا عن الدول التى قامت فى ذلك العصر .

الدولة الصفارية

(٢٥٤ — ٢٩٠ / ٨٦٧ — ٩٠٣)

يعقوب بن الليث الصفار :

تأسست الدولة الصفارية على يد يعقوب بن الليث الصفار (٢٥٤ — ٢٦٥ هـ) ، الذى أغار على بلاد الدولة الطاهرية فى خراسان ، التى أسسها طاهر بن الحسين فى عهد الخليفة المأمون (٢٠٥ هـ) .

وقد استقل بنو طاهر بحكم هذه البلاد ، ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه يعترفون بسلطان الخليفة العباسى، وامتد نفوذهم إلى حدود بلاد الهند ، ونقلوا قاعدتهم إلى نيسابور حيث بقوا فيها حتى سنة ٢٥٩ هـ .

كان يعقوب وأخوه عمرو يشتغلان بعمل الصفر ، ويتظاهران بالزهد . وكان يعقوب أحد زعماء المطوعة ، واشتهر أمره منذ سنة ٢٣٧ هـ ، كما كان أحد قواد صالح بن النضر الكنانى الذى استولى على سجستان . ولكن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان إذ ذاك استردها من هؤلاء المطوعة .

وسرعان ما تغلب على هذه المدينة درهم بن الحسين زعيم المطوعة الذى ظهر عجزه ، فولى جنده قائده يعقوب بن الليث الذى تولى أمر المطوعة وحارب الخوارج والشراة وهزمهم هزيمة منكرة ، ولم يلبث أن اشتدت شوكته فتغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما والاها[1] .

ثم احتلت جيوشه نيسابور (سنة ٢٥٩ هـ) قاعدة الدولة الطاهرية ، مخالفا أوامر الخليفة ومدعياً أن أهل خراسان قد بعثوا إليه لاستخلاصها من آل طاهر[2] .

ولم يكن يعقوب بن الليث يرمى إلى القضاء على الدولة الطاهرية ، بل عمل على أن يمد نفوذه على بلاد فارس وخراسان . لذلك نراه يحارب الترك على تخوم سجستان ،

---

(١) ابن خلكان ، جـ ٢ ص ٣١٢

(٢) الطبرى جـ ١١ ص ٢٣٢

« فرهبته الملوك وأذعن له ملك المولتان ، وملك الرخج ، وملك الطبسين ، وملك زابلستان وملك السند ومكران وغيرهم ، كما حارب الحسن بن زيد (٢٥٠ — ٢٧٠ هـ) مؤسس الدولة العلوية فى طبرستان وهزمه [١].

وفى سنة ٢٦١ هـ بدأت أطماع يعقوب بن الليث الواسعة تظهر ظهورا بينا ، وأدرك الخليفة العباسى المعتمد مدى الخطر الذى تستهدفه دولته من جراء ازدياد نفوذه ، فأضمر له العداء ؛ وجمع ببغداد حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان . وقرىء عليهم كتاب الخليفة بلعن يعقوب ، وأرسلت عشرات النسخ من هذا الكتاب إلى الأمصار لتذاع بين الناس [٢].

وقد أثار الخليفة العباسى بعمله هذا حنق يعقوب ، فأعد عدته لقصد العراق ، ثم سار إلى الأهواز ، « وكاتب الخليفة وساله ولاية خراسان وبلاد فارس ، وما كان مضموماً إلى طاهر بن الحسين الخزاعى من الكور ، وشرطى بغداد وسر من رأى ، وأن يعقد له على كرمان وسجستان والسند ، وأن يحضر من قرئت عليهم الكتب التى نسخت فى دار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، ويقرأ عليهم خلاف ماقرىء عليهم أولا . ليبطل ذلك الكتاب بهذا الكتاب . ففعل ذلك الموفق أخو الخليفة المعتمد على الله . . وأجابه إلى ما طلب ، وجمع الناس وقرأ عليهم ما أحبه الصفار ، وأجيب إلى الولاية التى طلب » [٣].

بيد أن أطماع يعقوب لم تقف عند حد ، فلم يقنع بتولية الخليفة العباسى له على هذه البلاد ، بل عمل على قصد بغداد نفسها وحمل الخليفة على الإذعان لمطالبه . ويظهر أنه كان يعتمد على جيش قوى ؛ فقد ذكر ابن خلكان (ص ٣١٧) أن مساحة معسكره كانت ميلا فى ميل ، وأن دوابه كانت فى غاية الفراهية ، ولكن ذلك كله لم يغنه شيئاً ، فقد ثار جنده عليه حين رأوا الخليفة المعتمد على رأس الجيش فحلت به الهزيمة .

على أن هذه الهزيمة لم تفت فى عضد يعقوب بن الليث الذى لم يكتف بما استولى عليه من البلاد ، بل أخذ يحارب بعض ولاة الخليفة . وفى أواخر سنة ٢٦٣ هـ ، استولى على جند يسابور ، ثم أخذ الأهواز من يد صاحب الزنج بعد حروب طاحنة [٤].

وقد ذكر ابن خلكان (جـ ٢ ص ٣٢٠) أن الخليفة المعتمد حاول أن يستميل إليه

---

(١) الطبرى جـ ١١ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .
(٢) المرجع السابق جـ ١١ ص ٢٣٤ .
(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ٣١٦ .
(٤) الطبرى جـ ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

يعقوب بن الليث ليأمن جانبه ، فيقول : « وأرسل إليه رسولا يترضاه ويستميله ويقلده أعمال فارس ؛ فوصل الرسول ويعقوب مريض ، فجلس له ، وجعل عنده سيفاً ورغيفاً . . ومعه بصل ، وأحضر الرسول فأدى الرسالة ، وقال له : قل للخليفة إني عليل ، فان مت فقد استرحت منك واسترحت مني ؛ وإن عوفيت ، فليس بيني وبينك إلا السيف هذا ، حتى آخذ بسيفي أو تكسرني وتفقرني فأعود إلى هذا الخبز والبصل . وعاد الرسول ، فلم يلبث يعقوب أن مات » (في جند يسابور)(١) . وكان موته لأربع عشر ليلة خلت من شهر شوال سنة ٢٦٥ هـ(٢).

اشتهر يعقوب بن الليث باليقظة وحسن التدبير ، فكان يحسن اختيار رجاله ، كما كان يحسن تنظيم جيوشه وإعدادها بالعدة والسلاح . وامتلأت خزائنه بالأموال حتى قيل إنه ترك خمسين ألف ألف درهم وثمانين ألف ألف دينار(٣) .

ويقول براون (٤) إن استقلال بلاد الفرس يمكن أن يقال أنه بعث عن طريق هذه الأعمال الباهرة التي قام بها يعقوب بن الليث الصفار ، فانه على الرغم من أنه لم يكن من بيت عريق ، نجح في تأسيس دولة استطاعت مع قصر عهدها أن تنشر نفوذها ، ليس في سجستان وحدها حيث قامت دولتها أول الأمر ، بل في معظم أرجاء فارس وإلى أسوار بغداد تقريباً .

عمرو بن الليث الصفار: (٢٦٥ — ٢٨٧ هـ)

ولما توفي يعقوب بن الليث الصفار أقر أبو أحمد الموفق أخو الخليفة العباسي المعتمد أخاه عمرو بن الليث على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد ، وخلع عليه . وبذلك قبض عمرو على ما كان بيد أخيه ، وأناب عبيدالله بن عبدالله بن طاهر

---

(١) زاد نظام الملك في كتابة سياسة نامة (siyàsar nàma (ed. schefer. pp. 13–16 أن يعقوب هدد المعتمد بارسال رأسه الى المهدية حاضرة الفاطميين ، وهذا خطأ ظاهر ، لأن يعقوب مات في سنة ٢٦٥ هـ أي قبل قيام الدولة الفاطمية باحدى وثلاثين سنة . وكان تأسيس المهدية التي اتخذها عبيد الله المهدي الفاطمي حاضرة لدولته بعد ذلك ، أنظر أيضا

Browne . Lit· Hist. of persia, voL. 1· p· 353

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٩

(٣) أنظر الملحق الثاني .

(٤) Lit.Hist of Persia,vol.I.pp.346—7.

عنه فى شرطة بغداد وسامرا ، وبعث إلى الموفق بعمود من ذهب[١] .

ويقول ابن خلكان (جـ ٢ ص ٣٢٠) إن عمرو بن الليث لما تولى ولايته أحسن التدبير والسياسة حتى قيل : ما أدرك فى حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث » .

على أن العلاقة لم تلبث أن ساءت بين الدولة الصفارية والخلافة العباسية ، فقد عزل الخليفة المعتمد عمرو بن الليث عن البلاد التى ولاه إياها ، وأعلن هذا الخلع على ملأ من حاج خراسان ، ولعنه بحضرتهم ، وأخبرهم أنه قلد محمد بن طاهر بن الحسين بلاد خراسان وأمر بلعن عمرو على المنابر . بيد أن محمد بن طاهر آثر البقاء بحاضرة الخلافة وأناب رافع بن هرثمة فى إدارة ولاية خراسان . وانتصرت جيوش المعتمد على عمرو بن الليث ، وخرج أبو أحمد الموفق فى سنة ٢٧٤ هـ لحربه ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على كرمان وسجستان وعاد أدراجه[٢] .

ولما ولى المعتضد الخلافة (٢٧٩ هـ) ، عزل رافع بن هرثمة الذى كان محمد بن طاهر قد أنابه عنه فى ولايتها ، وأعادها إلى عمرو بن الليث . ولكن رافعاً لم يذعن لأمر الخليفة وشق عصا الطاعة ، وحارب عمراً الذى قتله فى سنة (٣٨٣ هـ) وبعث برأسه إلى المعتضد ، ففرح لذلك غاية الفرح ، وأرسل إليه الخلع واللواء دليلا على رضائه عنه . ولكن عمراً اعتذر عن قبول هذه الخلع وأصر على طلب ولاية بلاد ماوراء النهر ، وكانت بيد إسماعيل بن أحمد السامانى . ولم يجد الخليفة بداً من إجابة عمرو الذى لم تقف أطماعه عند حد وكتب إليه إسماعيل : « إنك قد وليت دنيا عريضة ، وأنا فى يدى ماوراء النهر ، وأنا فى ثغر ، فاقنع بما فى يدك ، واتركنى مقيما بهذا الثغر ؛ فأبى إجابته إلى ذلك ، وذكر له من أمر نهر بلخ وشدة عبوره ، فقال عمرو: « لو شئت أن أسكره بيدر الأموال وأعبره لفعلت » .

ولكن عمراً لم يقدر الصعاب التى قد تقف فى سبيله وتحول دون تحقيق أمنيته برغم قيادته الجيوش بنفسه ؛ فحلت به الهزيمة ووقع أسيراً فى قبضة إسماعيل بن أحمد السامانى ، وتشتت شمل جيشه الذى بلغ سبعين ألفاً أيدى سبا ، وكانت هذه الموقعة من المواقع الحاسمة

---

(١) الطبرى جـ ١١ ص ٢٥٥ .
(٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٥٣

لأنها كانت من أهم العوامل التى أدت إلى سقوط الدولة الصفارية وقيام الدولة السامانية على أنقاضها (١).

ولما علم الخليفة المعتضد بهزيمة عمرو بن الليث فرح فرحا شديداً وأشاد بذكر إسماعيل ابن أحمد الذى سير عمراً إلى الخليفة ، وألبس عمرو دراعة ديباج وبرنس السخط ، وحمل على جمل له سنامان ـ يقال له إذا كان ضخما على هذه الصورة «الفالج» ـ فى غاية الارتفاع ، وكان عمرو قد أهداه فيما أهدى للخليفة . وقد ألبس الجمل الديباج وحلى بذوائب وأرسان مفضضة ، وأدخل بغداد فاشتقها فى الشارع الأعظم إلى دار الخليفة بقصر الحسنى ، وعمرو رافع يديه يدعو ويتضرع دهاه منه ؛ فرقت له العامة ، وأمسكت عن الدعاء عليه . ثم أدخل إلى الخليفة ، وقد جلس له ، واحتفل به ؛ فوقف بين يديه ساعة وبينهما قدر خمسين ذراعا وقال له : هذا مابيغيك ياعمرو . ثم أخرج من بين يديه إلى حجرة قد أعدت له . ومات عمرو فى غد ذلك اليوم ، ودفن ، وقيل إنه قتل (٢).

«وكان عمرو — كما يقول ابن الأثير (جـ ٧ ص ١٧٨ - ١٧٩) — عظيم السياسة ، قد منع أصحابه وقواده أن يضرب أحد غلاما إلا بأمره ، أو يتولى عقوبة الغلام نائبه أو أحد حجابه . وكان يشترى المماليك الصغار ويربيهم . ويهبهم لقواده ؛ ويجرى عليهم الجرايات الحسنة سراً ليطالعوه بأحوال قواده ، ولايكتم عنه من أخبارهم شيء ، ولم يكونوا يعلمون من ينقل إليه عنهم ، فكان أحدهم يحذره وهو وحده » .

ولما أسر عمرو آل حكم الدولة الصفارية إلى حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث (صفر سنة ٢٨٨ هـ) ، إلا أنه لم يكن له من الأمر شيء ، لاستبداد سبك السبكرى غلام عمرو بن الليث بالسلطة ، حيث قبض عليه وعلى أخيه يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث فى سنة ٢٩٦ هـ وبعث بهما إلى بغداد . وتغلب على بلاد فارس إلى أن طرده منها الليث بن على ابن الليث الصفار ، فاستنجد السبكرى بالخليفة المقتدر؛ فأمده بجيش بقيادة مؤنس الخادم (٢٩٧ هـ) وحلت الهزيمة بالليث الصفارى وأسر ، ولكن الجو لم يصف للخلافة بسبب عصيان السبكرى وامتناعه عن إرسال الأموال إلى بيت المال (٣) .

وقد بعثت الخلافة العباسية الجيوش تلو الجيوش للقضاء على السبكرى ، ولكنها لم

---

(١) ابن الأثير جـ٧ ص ١٧٨ ـ ١٧٩ . ابن خلكان جـ ١ ص ٣٢١ ، ٣٢٣

(٢) ابن خلكان جـ ٢ ص ٣٢٣ .

(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص ٣٢٤ . ابن الأثير جـ٨ ص ٢٠

تستطع القبض عليه حتى تمكن أحمد بن إسماعيل السامانى من الاستيلاء على سجستان والقبض على محمد بن على بن الليث الصفارى ، ثم على السبكرى ، وبعث بهما إلى بغداد فى شوال سنة ٢٩٨ هـ . ومن ثم زالت الدولة الصفارية التى لم يقتصر خطرها على انتزاع ذلك الجزء الكبير من أراضى الدولة العباسية ، بل حاول يعقوب فتح بغداد، واقتفى أخوه عمرو أثره ، ولكنهما لم يصلا إلى بغيتهما .

ويرجع ضعف الدولة الصفارية وزوالها إلى موقف الخلافة العباسية العدائى منها ، وما بذلته من الجهود المتواصلة للقضاء عليها . أضف إلى ذلك موقف السامانيين من هذه الدولة ؛ فقد هزم إسماعيل بن أحمد السامانى جيوش عمرو بن الليث الصفار وأسره وأرسله إلى بغداد وقضى أنه بأحمد بن إسماعيل عليها نهائياً . هذا إلى مناوأة بعض قوادهم ولا سيما سبك السبكرى غلام عمرو بن الليث الصفار الذى كان لثورته أثر كبير فى ضعف الدولة وزوالها فى النهاية .

الدولة السامانية

(٢٦١—٣٨٩/٨٧٤ — ٩٩٩)

البيت السامانى[١]

	هجرية	ميلادية
(١) نصر الأول بن أحمد	٣٦١	٨٧٤
(٢) إسماعيل بن أحمد	٢٧٩	٨٩٢
(٣) أحمد بن إسماعيل	٢٩٥	٩٠٧
(٤) نصر الثانى بن أحمد	٣٠١	٩١٣
(٥) نوح الأول بن نصر	٣٣١	٩٤٢
(٦) عبد الملك الأول بن نوح	٣٤٣	٩٥٤
(٧) منصور الأول بن نوح	٣٥٠	٩٦١
(٨) نوح الثانى بن منصور	٣٦٦	٩٧٦
(٩) منصور الثانى بن نوح الثانى	٣٨٧	٩٩٧
(١٠) عبد الملك الثانى بن نوح الثانى	٣٨١	٩٩٩

(١) أنظر كتاب Stanley Lane-2oole: Muhammadan Dynasties · pp. 132—3

(خانات تركستان ؛ الغزنويون)

تسلسل آل سامان

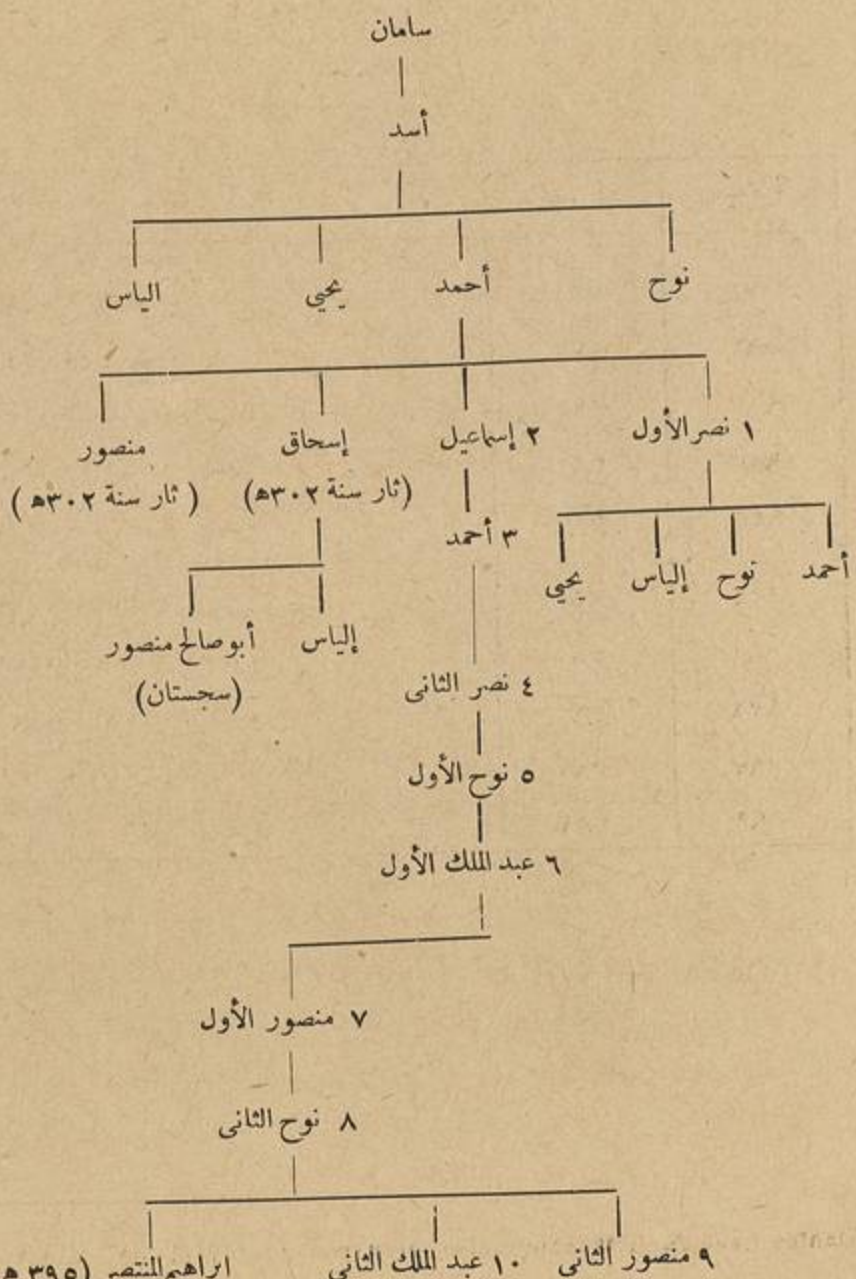

إسماعيل بن أحمد (٢٧٩ — ٢٩٥ هـ) :

تنسب هذه الدولة إلى أسرة فارسية عريقة فى المجد يرجع أصلها إلى بهرام جور . وقد نال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون، فولاهم بلاد ماوراء النهر ورفع من شأنهم .

وقد ارتد سامان عن مذهب زرادشت واعتنق الإسلام ، وسمى ابنه باسم أسد بن عبد الله القسرى والى خراسان فى أواخر عهد الأمويين . وظهر أولاد أسد بن سامان فى عهد الخليفة ، فولى نوح بن أسد سمرقند فى سنة ٢٠٤ هـ ، وأحمد بن أسد فرغانه ، ويحى بن أسد الشاش وأشروسنة ، وإلياس بن أسد هراة ، ولما ولى طاهر بن الحسين بلاد خراسان أقرهم فى هذه الأعمال .

وكان لأحمد بن أسد سبعة أولاد ، اشتهر منهم اسماعيل ونصر الذى خلف أباه على سمرقند وما يليها من قبل الطاهريين حتى ولاه الخليفة العباسى المعتمد بلاد ماوراء النهر سنة ٢٦١هـ . ومن ثم تأسست الدولة السامانية، وأصبح نصر بن أحمد السامانى من القوة بحيث استطاع أن يولى أخاه اسماعيل على بخارى (٢٦١ هـ) . ولكن النزاع لم يلبث أن دب بينهما بسبب إثارة خصومهما العداوة والبغضاء بينهما، حتى إن نصرا قصد أخاه اسماعيل لحربه فى سنة ٢٧٢ هـ ، ولكنهما تصالحا مدة ، ثم ساءت العلاقة بينهما من جديد، وقامت الحرب بينهما فى سنة ٢٧٥هـ، وظفر إسماعيل بأخيه نصر . فلما حمل إليه رجل له اسماعيل وقبل يديه ، ورده من موضعه إلى سمرقند ، وناب عنه فى ولاية بخارى[1] ، ولما مات نصر فى سنة ٢٧٩ هـ آلت زعامة السامانيين إلى أخيه اسماعيل. وفى عهد اسماعيل ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة ، وقامت بدور خطير فى إزالة الدولة الصفارية كما تقدم .

وقد تمكن اسماعيل بن أحمد السامانى من فتح بلاد طبرستان من يد أميرها محمد بن زيد الذى كان ينازع السامانيين السلطة فى خراسان . على أن القائد الذى تم على يديه فتح هذه البلاد لم يلبث أن ثار عليه ، واتخذ البياض شعارا له ، مناوئا بذلك العباسيين الذين اتخذوا السواد شعارا لهم . وسار اسماعيل بن أحمد على رأس جيش كبير ، وأحل الهزيمة بهذا القائد ، وضم الرى وقزوين إلى سلطانه ؛ وبذلك أمن حدود بلاده من ناحية الغرب (سنة ٢٨٩ هـ) .

وفى سنة ٢٩١ هـ صد إسماعيل جيوش الترك الذين أغاروا على حدود بلاده

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ٩٩ و ١٠٠ .

الشرقية [١] ، ومات إسماعيل فى مدينة بخارى سنة ٢٩٥ هـ . ولا يزال قبره حتى اليوم فى مدينة بخارى التى ارتقت فى عهد اسماعيل ، حتى أصبحت من أهم الحواضر الإسلامية . على أنه ليست هناك نقوش تدل على أن هذا القبر هو قبر إسماعيل، كما يستدل من الكتابات التى نقشت على القبر نفسه أو على الأبنية المحيطة به .

وقد وصف ابن الأثير (جـ ٧ ص ١٠٠) اسماعيل بن أحمد السامانى فقال : « إنه كان خيرا يحب أهل العلم والدين ، ويكرمهم » . وقال فى موضع آخر (جـ ٨ ص ٢ — ٣) « إنه كان عاقلا عادلا ، حسن السيرة فى رعيته ، حليما . حكى عنه أنه كان لولده أحمد مؤدب يؤدبه ، فمر به الأمير إسماعيل يوما ، والمؤدب لا يعلم به ، فسمعه وهو يسب ابنه ويقول له : لابارك الله فيك ولا فيمن ولدك . فدخل إليه ، فقال له : ياهذا ! نحن لم نذنب ذنبا لتسبنا ، فهل ترى أن تعفينا من سبك ، وتخص المذنب بشتمك وذمك ؟ فارتاع المؤدب ، فخرج إسماعيل عنه وأمر له بصلة جزاء لخوفه منه » .

أحمد بن اسماعيل وابنه نصر (٢٩٥ — ٣٣١ هـ)

لما توفى إسماعيل بن أحمد السامانى سنة ٢٩٥ هـ أقر الخليفة المكتفى ابنه أبا نصر أحمد ابن إسماعيل على ولاية أبيه وخلع عليه . وقد تم على يديه زوال الدولة الصفارية . فأسر غلامه سيمجور ، سبك السبكرى غلام عمرو بن الليث الصفار ، كما أسر الليث بن على الصفارى [٢] . وفى المحرم من هذه السنة استولى السامانيون على سجستان من يد المعدل ابن على بن الليث الصفارى وأسر أخاه محمد بن الليث ، وبعث بسبك ومحمد إلى بغداد [٣] . على أن هذه البلاد لم تلبث أن خلعت طاعة أحمد بن إسماعيل، ودعا أهلها لعمرو بن يعقوب ابن محمد بن عمرو بن الليث الصفار. فأرسل السامانيون الجيوش لإخضاعها، واستمرت الحرب بين الفريقين نحوا من سنة حتى تم النصر للسامانيين، وقبض على الصفارى، وتولى سيمجور سجستان من قبل السامانيين .

ولم تطل ولاية أحمد بن إسماعيل حيث قتل فى سنة ٣٠١ هـ . وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص ٢٧) أنه كان مولعا بالصيد ، فخرج متصيدا ، وأنه أتاه كتاب نائبه بطبرستان

---

(١) أنظر لفظ اسماعيل بن أحمد فى Encyclopaedia of Islam vol II, pp. 545—6

(٢) الطبرى جـ ١٢ ص ١١ ، ١٩ .

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢١ — ٢٢

بخبره بظهور الحسن بن على العلوى الأطروش وتغلبه عليها ، وأنه أخرجه عنها ؛ فحزن أحمد لذلك وعاد إلى معسكره ، وكان قد أحرقه قبل خروجه للصيد فنزل عليه فتطير الناس من ذلك . وكان له أسد يربطه كل ليلة على بابه ، فلا يجسر أحد أن يقربه ، فأغفلوا إحضار الأسد تلك الليلة ، فدخل إليه جماعة من غلمانه فذبحوه على سريره وهربوا ، وذلك لسبع بقين من شهر جمادى الآخرة سنة ٣٠١ هـ ، فحمل إلى بخارى فدفن بها ولقب بالشهيد .

كان أبو الحسن نصر بن أحمد السامانى فى الثامنة من عمره حين قتل أبوه ، فاستصغر الناس سنه ، واستضعفوه ، واعتقدوا أن أمره لا ينتظم مع وجود عم أبيه . وهو إسحاق ابن أحمد بن أسد صاحب سمرقند الذى استمال أهالى بلاد ماوراء النهر — عدا بخارى — إليه وإلى أولاده ، وأرسل هو وبعض أمراء البيت السامانى إلى الخليفة العباسى المقتدر يسأله كل منهم إمرة ناحية من نواحى خراسان . ولكن الخليفة أقر نصرا على بلاد أبيه ، وأقر اللقب الذى تلقب به وهو السعيد ، وضبط بلاده أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى (١) .

وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٠١ هـ أن اسحاق بن أحمد بن أسد السامانى وابنه إلياس ابن إسحاق ، ثارا على السعيد نصر وسارا نحو بخارى . ولكن الهزيمة حلت بهما غير مرة ، واستولت جيوش نصر على سمرقند ، واختفى إسحاق ، ثم أسر ، وهرب ابنه إلياس إلى فرغانة ، وخرج ابنه الثانى أبو صالح منصور على نصر فى السنة التالية ، وانضم إليه بعض قواد نصر وعملوا على الاستيلاء على سجستان على أن يتولوها نيابة عنه ، وأقاموا الخطبة له على منابر نيسابور ، واستمرت الحروب بين جيوش نصر وجيوش ابن عمه منصور زهاء أربع سنين (٣٠٢ — ٣٠٦ هـ) ، وانتهت بعودة نيسابور وغيرها إلى نفوذ نصر (٢) .

أخذ إلياس بن إسحاق بن أحمد بن أسد السامانى الذى كان قد ثار مع أبيه يعد العدة لمحاربة نصر حتى اجتمع حوله ثلاثون ألف فارس . ثم قصد سمرقند مناوئاً نفوذ السعيد نصر بن أحمد الذى انتصرت جيوشه عليه فى سنة ٣١٠ هـ ، وأرغمته على الهرب إلى فرغانه والاختفاء بها ، ثم أخذ يعد العدة من جديد بمعونة صاحب الشاش ، ولكن الهزيمة حلت به وأسر صاحب الشاش ومات .

وكانت العلاقة بين السامانيين والخلافة العباسية تقوم على أساس المودة ، حتى إن الخلفاء

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٢٨ ، ٣٠ — ٣١ .

كانوا يعتمدون على أمراء البيت السامانى فى إقرار سلطانهم فى بلاد المشرق . ولما دعا الخليفة المقتدر يوسف بن أبى الساج إلى واسط لإنفاذه لمحاربة القرامطة، كتب إلى السعيد نصر الثانى السامانى بولاية الرى ، وأمره بقصدها والاستيلاء عليها من فاتك غلام يوسف ابن أبى الساج ، فاستولى عليها نصر وولى عليها سيمجور وعاد إلى بخارى .

وفى سنة ٣٣٢ هـ ثار أبو على محمد بن إلياس على نصر بن أحمد السامانى واستولى على كرمان ، فسير إليه نصر ماكان بن كالى على رأس جيش كثيف أحل الهزيمة بابن إلياس ، واستولى على كرمان ووليها من قبل السامانيين . على أن ماكان بن كالى خرج على السامانيين فى جرجان سنة ٣٢٨هـ ، فأرسل إليه نصر بن أحمد جيشا هزمه واستولى على هذه البلاد وأعادها إلى نفوذ السامانيين ، كما انتزعت جيوشهم الرى، من يد وشمكير ابن زيار (أخى مرداويج بن زيار) بعد أن هرب إلى طبرستان ثم دخل فى طاعة السامانيين ومن يد ماكان بن كالى الذى قتل ثم أخذت انتصارات جيوش السامانيين تتابع، فاستولت على أبهر وقزوين وقم وهمذان ونهاوند والدينور حتى بلغت حدود حلوان (١).

كان السعيد نصر بن أحمد على جانب عظيم من حسن الخلق . وقد وصفه ابن الأثير فقال إنه كان حليما كريما عاقلا(٢). حكى عنه أنه لما خرج عليه أخوه أبو زكريا ونهب خزائنه وأمواله . فلما عاد السعيد إلى حاضرة ملكه ، قيل له أن جماعة انتهبوا ماله ، فلم يعرض لهم وأخبروه أن بعض السوقة اشترى منها سكينا نفيسا بمائتى درهم ، فأرسل إليه وأعطاه مائتى درهم وطلب السكين ، فأبى أن يبيعه إلا بألف درهم ، فقال : ألا تعجبون من هذا ؟ أرى عنده مالى فلم أعاقبه وأعطيته حقه فاشتط فى الطلب ؟ ثم أمر باسترضائه . وطال مرضه فبقى به ثلاثة عشر شهرا ، فأقبل على الصلاة والعبادة ، وبنى له فى قصره بيتا وسماه بيت العبادة . فكان يلبس ثيابا نظافا ويمشى إليه حافيا ويصلى فيه ويدعو ويتضرع . وكان ذلك فى سنة ٣٣١ هـ ، بعد أن ولى إمرة السامانيين ثلاثين سنة وشهرا وثلاثة أيام ، ومات وله من العمر ثمان وثلاثون سنة (٣).

وقد خالف نظام الملك(٤) ماذكره ابن الأثير عن نهاية السعيد نصر بن أحمد السامانى

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص٩٦، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٧ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٤٢ .

(٤) Siyasset Nàmeh vol. II pp. 278—81

قال إنه دان بعقائد الإسماعيلية . وإن القواد دبروا مؤامرة لاغتياله ؛ فلما أدرك نصر الخطر المحدق به ، نزل عن الإمارة لابنه نوح الذى عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلى وأنصاره فى بلاده . وذكر المقريزى أن نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان بعث إلى عبيد الله المهدى بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال .

نوح بن نصر (٣٣١ — ٣٤٣ هـ) :

تولى نوح بن نصر السامانى بلاد خراسان وما وراء النهر فى شهر شعبان سنة ٣٣١هـ ، واستهل إمارته بالعفو عن بعض الأمراء الذين كان يحقد عليهم فى حياة أبيه ليتألف القلوب حوله ويؤمن خروجهم عليه ، وولاهم بعض الولايات . وقد بدأ الصراع بين السامانيين وبنى بويه فى أيام نوح بن نصر الذى عمل على استرداد الرى من يد ركن الدولة بن بويه . وتفاقم النزاع بينهما ، وانتهى بهزيمة جيوش نوح بسبب انضمام جنده إلى البويهيين . بيد أن نوحا أعد العدة من جديد لمحاربة ركن الدولة والاستيلاء على الرى ، وتمكنت جيوشه من الاستيلاء عليها وعلى بلاد الجبل فى شهر رمضان سنة ٣٣٣هـ[١] .

وقد تعرضت بلاد نوح بن نصر لخطر جسيم بسبب خروج قائده أبى على بن محتاج الذى أخلص له ولأبيه من قبل[٢] .

وقد كاتب الجند إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل عم نوح بن ناصر السامانى — وكان قد انضم إلى ناصر الدولة بن حمدان — يطلبون إليه الحضور لمبايعته ، فلبى دعوتهم . وقامت الحرب بينه بمساعدة أبى على وبين نوح بن نصر ، واستولى على نيسابور ومرو وبخارى فى سنة ٣٣٥ هـ ، وخطب فيها لإبراهيم بن أحمد بن إسماعيل . على أن أبا على لم يلبث أن خرج على إبراهيم الذى مال إلى خلع نفسه والاتفاق مع نوح على أن يتقلد إمرة جيوشه ، وعمل على تولية أبى جعفر محمد بن نصر بن أحمد أخى الأمير نوح بن نصر ، وبايع له ، وأقام الخطبة باسمه فى كثير من نواحى خراسان وبلاد ما وراء النهر . واستمرت الحروب بين أبى على ونوح بن نصر من سنة ٣٣٤ إلى ٣٣٧ هـ ، وانتهت بعقد الصلح بينهما[٣] .

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٦٤ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٦٤ — ١٦٧ ، ١٧٥ .

واستطاع نوح بن نصر أن يسترد الرى وبلاد الجبل من ركن الدولة بن بويه الذى كان له أثر كبير فى إثارة أبى على (٣٣٩ هـ)[١].

وقد أسند نوح قيادة جيوش خراسان إلى أبى على الذى استطاع بمساعدة وشمكير بن زيار أن يرغم ركن الدولة بن بويه على أن يدفع لنوح بن نصر جزية سنوية مقدارها مائتا ألف دينار . على أن نوحاً لم يلبث أن ساورته الريب فى إخلاص أبى على ، فعزله عن قيادة الجيوش فى خراسان ، فراسل ركن الدولة وسار إليه فى الرى حيث أكرمه ، وتدخل لدى الخليفة العباسى المطيع ، فأقره على ولاية خراسان بمساعدة معز الدولة بن بويه ، وذلك سنة ٣٤٣ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها الأمير نوح بن نصر[٢].

عبد الملك ومنصور ابنا نوح (٣٤٣—٣٦٦ هـ) :

لما تولى عبد الملك بن نوح إمرة السامانيين فى ٣٤٣ هـ ، قلد بكر بن مالك قيادة الجيوش فى خراسان ، وسيره من بخارى لإخراج أبى على بن محتاج ، الذى انضم جنده إلى عبد الملك وبقى هو فى مائتى رجل من أصحابه ، واضطر إلى الهرب ولجأ إلى ركن الدولة فى الرى فأحسن وفادته[٣].

على أن أيام عبد الملك بن نوح لم تطل بسبب كبوة فرسه فى شهر شوال سنة ٣٥٠ هـ ، فآلت السلطة من بعده إلى أخيه أبى صالح منصور بن نوح ، وافتتنت خراسان بعده ، كما يقول مسكويه (جـ ٢ ص ١٨٩) ، ودب الضعف إلى جسم الدولة السامانية .

وفى عهد منصور شق أهل سجستان عصا الطاعة على أميرهم خلف بن أحمد ، وولوا مكانه رجلا من أصحابه يدعى طاهر بن الحسين ، ولكن منصور بن نوح ، أمد خلف بجيش استرد به هذه البلاد ، لكنه لم يلبث أن طرد منها ، ثم استردها بمعونة السامانيين . بيد أن علاقته بالسامانيين لم تلبث أن ساءت ، « فقطع ما كان يحمله إلى بخارى من الخلع والخدم والأموال التى استقرت القاعدة عليها » ، فبعث منصور بن نوح الجيوش لمحاربته بسجستان ، واستمرت هذه الحروب سبع سنين انتهت بعقد الصلح بينهما وإعادة الخطبة

---

(١) مسكويه جـ ٢ ص ١٠٠ ـ ١٠١ ـ ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٥٤ — ١٥٧ .

(٣) مسكويه جـ ٢ ص ١٥٧ .

لمنصور بن نوح ، وان دل هذا على شيء فإنما يدل على مبلغ الضعف الذى دب إلى البيت السامانى . وقد أحسن بن الأثير (جـ ٨ ص ٢٠٢) بقوله : «وكان هذا أول وهن دخل على الدولة السامانية ، فطمع أصحاب الأطراف فيهم لسوء طاعة أصحابهم لهم » .

وفى سنة ٣٥٦ هـ قامت الحرب فى جهات الرى بين منصور بن نوح وركن الدولة بن بويه ، ولم ينته العداء بين السامانيين والبويهيين إلا فى سنة ٣٦١ هـ ، حيث تم الصلح بين الأمير منصور بن نوح السامانى وبين عضد الدولة ، على أن يحمل كل من ركن الدولة فى كل سنة مائة ألف دينار ويحمل إليه ابنه عضد الدولة خمسين ألف دينار . وتزوج نوح بابنة عضد الدولة ، وحمل إليه من الهدايا والتحف ، وكتب بينهم كتاب الصلح وشهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق[١].

نوح الثانى بن منصور (٣٦٦ — ٣٨٧ هـ)

ولما مات منصور بن نوح فى شهر شوال سنة ٣٦٦ هـ ، تولى بعده ابنه القاسم نوح الثانى وتلقب المنصور ، وكان فى الثالثة عشر من عمره . وقام بأمر الدولة السامانية فى مستهل إمارته وزيره أبو الحسين العتبى ، ولكن محمد بن ابراهيم بن سيمجور قائد الجيش فى خراسان من قبل السامانيين استبد بالأمر فى هذه البلاد ، واتخذ من صغر سن الأمير الجديد فرصة لتحقيق مطامعه ، فعزل الوزير العتبى ، وولى أبا العباس تاش إمرة الجيش ، كما قامت فى هذه السنة الحرب بين الأمير نوح بن منصور السامانى وبين عضد الدولة بن بويه الذى استولى على جرجان ، ولاسيما بعد أن اتصل بهم نبأ قتل الوزير أبى الحسين العتبى الذى يرجع إليه الفضل فى متابعة هذه الحروب[٢]. أضف إلى ذلك ثورة أحد أمراء البيت السامانى على نوح بعد أن حلت هذه الهزيمة بجيوشه[٣].

على أن الوزير الجديد عبد الله بن عزيز الذى كان يضمر العداوة والبغضاء للوزير العتبى ، عمل على عزل أبى العباس تاش عن خراسان وإعادة أبى الحسن بن سيمجور اليها ؛ فامتنع أبو العباس عن تنفيذ أوامر الوزير الجديد وطلب العون من فخر الدولة بن

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٢٥ أبو المحاسن . جـ ٤ ص ٦٣

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٤ — ٥

(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٠ — ١١

بويه الذى أمده بجيش به ابن سيمجور ، واستولى على نيسابور ، ثم كتب إلى الأمير نوح يستميله ويستعطفه ، ولكن ابن عزيز تشدد فى عزله ووافقته على ذلك أم الأمير نوح التى كان لها الأمر والنهى فى دولة ولدها ، حتى كانوا يصدرون عن رأيها فقال بعض أهل ذلك العصر :

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما رأى النساء وإمرة الصبيان
أما النساء فميلهن إلى الهوى وأخو الصبا يجرى بغير عنان[1]

وفى عهد نوح بن منصور تعرضت الدولة السامانية للزوال ، ففى سنة ٣٨٣ هـ ثار عليه اثنان من أكبر قواد السامانيين هما أبو الحسن بن سيمجور ، وفائق الخصى غلام نوح بن نصر ، واتصلا بشهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف بغراخان التركى ، وكانت بلاده تمتد من حدود الدولة السامانية شرقاً حتى تتاخم حدود الصين ، وأطمعاه فى الاستيلاء على بلاد ماوراء النهر ، وتمكن إيلك فى هذه السنة من الانتصار على جيوش نوح بن منصور والاستيلاء على بخارى ، على أن نوحاً لم يلبث أن استرد حاضرة إمارته على أثر موت بغراخان وثورة أهالى بخارى عليه[2].

وفى سنة ٣٨٤ هـ استعان نوح بن منصور بسبكتكين صاحب غزنه لحرب الأمراء الثائرين عليه . وانتصرت جيوشهما بالقرب من هراة على الأمراء الذين استعانوا ببنى بويه وفروا الى جرجان ، كما استعاد نوح نيسابور ، واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين ، ولقبه سيف الدولة ، ولقب أبيه سبكتكين ناصر الدولة . وعاد نوح إلى بخارى ، وعاد سبكتكين إلى هراة . وأقام محمود بنيسابور[3]. على أن هؤلاء الثائرين لم يلبثوا أن انتصروا على محمود .

ومع أن أيام نوح بن منصور السامانى طالت حتى أربت على إحدى وعشرين سنة ، كان عهده مليئا بالثورات والحروب الأهلية بسبب صغر سنة ، وتدخل النساء والوزراء فى الحكم ، وطمع أمراء الأطراف واستئثارهم بالسلطة ، وطمع بنى بويه والأتراك فى امتلاك بلادهم وقيام المنافسة بين أفراد البيت السامانى نفسه[4].

---

(١) مسكويه ج ٣ ص ٩٣
(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٣٦ — ٤٧
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٨ .
(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٨

زوال الدولة السامانية :

لما توفى نوح بن منصور السامانى سنة ٣٨٧ هـ ، قام بعده ابنه منصور بن نوح ، فعمل على تأليف القلوب حوله ، بإغداق الأموال على أنصاره وقواده . على أن إيلك المعروف بيغراخان التركى . الذى كان قد استولى على بخارى سنة ٣٨٣ هـ . اتخذ من موت نوح بن منصور فرصة للاستيلاء على سمرقند . وانضم إليه فائق الخاصة الذى تمكن من الاستيلاء على بخارى ، متظاهراً بأنه يسعى لخدمة الأمير منصور ، « رعاية لحق أسلافه عليه إذ هو مولاهم ، وأرسل إليهم مشايخ بخارى ومقدمهم فى العود إلى بلده وملكه ، وأعطاه من نفسه مايطمئن إليه من العهود والمواثيق ؛ فعاد إليها ودخلها ، وولى فائق أمره وحكم فى دولته ، وولى بكتوزون إمرة الجيش بخراسان»[1] . وفى السنة التالية بدأ النزاع بين الأمير منصور بن نوح ومحمود الغزنوى الذى أثار سخطه تولية بكتوزون على خراسان ؛ وطلب إعادتها إليه ، فلم يجب إلى طلبه وساءت العلاقة بينهم ، وسرعان ماقبض بكتوزون وفائق الخاصة على منصور بن نوح وسملا عينيه ولما يمض عليه فى الإمارة غير سنة وسبعة أشهر ، ووليا أخاه الصغير عبد الملك بن نوح ، واتخذ محمود الغزنوى من اضطراب حبل الأمور فى الدولة السامانية فرصة للاستيلاء على نيسابور وبخارى واستقر ملكه بخراسان وأزال نفوذ السامانيين عنها وخطب فيها للخليفة القادر بالله . ووقعت بلاد ماوراء النهر فى يد إيلك بغراخان الذى قصد بخارى وأظهر التودد لعبد الملك بن نوح ، ولكنه لم يلبث أن قبض على قواد السامانيين ثم على عبد الملك نفسه ، وحبس معه أخاه منصور بن نوح الذى ولى إدارة السامانيين من قبله كما حبس أخويه أبو إبراهيم إسماعيل وأبى يعقوب ابنى نوح وحبس من أعمامه أبا زكريا وأبا سليمان ، وأفرد كل واحد منهم فى حجرة .

وإن من يستقصى تاريخ السامانيين يرى أن زوال دولتهم يرجع إلى عوامل عدة ، نذكر من بينها وقوع النزاع بين أفراد هذا البيت وخروج القواد وعمال الأطراف عليهم ، واستعانتهم ببعض أمراء هذا البيت على نوح بن نصر (٣٣١ — ٣٤٣ هـ) ، كما استعان بعض هؤلاء القواد وعمال الأطراف ببنى بويه ، مما أضعف الدولة السامانية وأدى إلى زوالها فى النهاية . أضف إلى ذلك تدخل النساء والوزراء فى الحكم بسبب صغر سن بعض الأمراء .

---

(١) ابن الأثير : ج ٩ ص ٤٨ .

وهكذا انقضت الدولة السامانية على أيدى الغزنويين وخانات تركستان ، وأصبحت « كأن لم تغن بالأمس ، كدأب الدول قبلها ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »[1].

ولأمراء السامانيين فضل كبير فى تشجيع الأدب ، وبخاصة الأدب الفارسى الذى بدأ ينتعش منذ القرن الثالث ، حتى أن الفرس أخذوا يؤلفون بلغتهم الفارسية . وقد بدأ الروح الفارسى يظهر فى الأدب الفارسى منذ ذلك الوقت . من ذلك كتاب الشاهنامه للفردوسى ، ومختصر الطبرى للبلعمى وزير منصور الأول بن نوح (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) .

أما الطب والفلك والفلسفة فقد كان الفرس يؤلفون فيها باللغة العربية بدلا من الفارسية إذ لم يكن لهذه العلوم كبير علاقة بالأدب الفارسى . ومن أشهر كتب الطب فى ذلك العصر الكتاب المنصورى الذى ألفه أبو بكر الرازى وأهداه إلى أبى صالح منصور بن إسحاق السامانى الذى ولى سجستان نيابة عن السامانيين . وقد روى لنا ابن سينا الفيلسوف المشهور الذى قامت علاقته بالسامانيين منذ حداثة سنه على أساس متين بعد أن أسعده الحظ بشفاء الأمير نوح بن منصور على يديه مع أنه قد ناهز السابعة عشر من عمره أنه رأى فى مكتبة مدينة بخارى حاضرة الدولة السامانية من طرائف الكتب مالم يسمع بمثله من قبل .

( ) ابن الأثير: ج ٩ ص ٥٤ — ٥٦ .

الدولة الغزنوية

(فى بلاد الأفغان والبنجاب)

٣٥١ - ٥٨٢ / ٩٦٢ - ١١٣٦

البيت الغزنوى[١]

	هجرية	ميلادية
١) ألبكتين	٣٥١	٩٦٢
٢) إسحاق	٣٥٢	٩٦٣
٣) بلاتكين	٣٥٥	٩٦٦
٤) بيرى	٣٦٢	٩٧٢
٥) سبكتكين	٣٦٦	٩٧٦
٦) إسماعيل	٣٨٧	٩٩٧
٧) محمود : يمين الدولة	٣٨٨	٩٩٨
٨) محمد : جلال الدولة	٤٢١	١٠٣٠
٩) مسعود الأول ناصر دين الله	٤٢١	١٠٣٠
١٠) مودود : شهاب الدولة	٤٣٢	١٠٤٠
١١) مسعود الثانى[٢]	٤٤١	١٠٤٨
١٢) على أبو الحسن بهاء الدولة	٤٤١	١٠٤٨
١٣) عبد الرشيد : عز الدولة	٤٤١	١٠٤٩
١٤) طغرل (مغتصب)	٤٤٤	١٠٥٢
١٥) فروخ زاد : جمال الدولة	٤٤٤	١٠٥٢
١٦) ابراهيم : ظهير الدولة	٤٥١	١٠٥٩
١٧) مسعود الثالث علاء الدولة	٤٩٢	١٠٩٩
١٨) شيرازاد : كمال الدولة	٥٠٨	١١١٤
١٩) أرسلان : سلطان الدولة	٥٠٩	١١١٥
٢٠) بهرام شاه : يمين الدولة	٥١٢	١١١٨
٢١) خسرو شاه معز الدولة	٥٤٧	١١٥٢
٢٢) خسرو ملك : تاج الدولة	٥٥٥	١١٦٠
	٥٨٢	١١٨٦

(١) Stanley Lane-poele : Mnhammadan Dynasties, pp. 289-290

(٢) أخطأ ليبول بذكر وفاته فى سنة ٤٤٠ هـ ، ولذلك أصلحنا هذه السنة عن كتب التاريخ .

جدول الأمراء الغزنويين

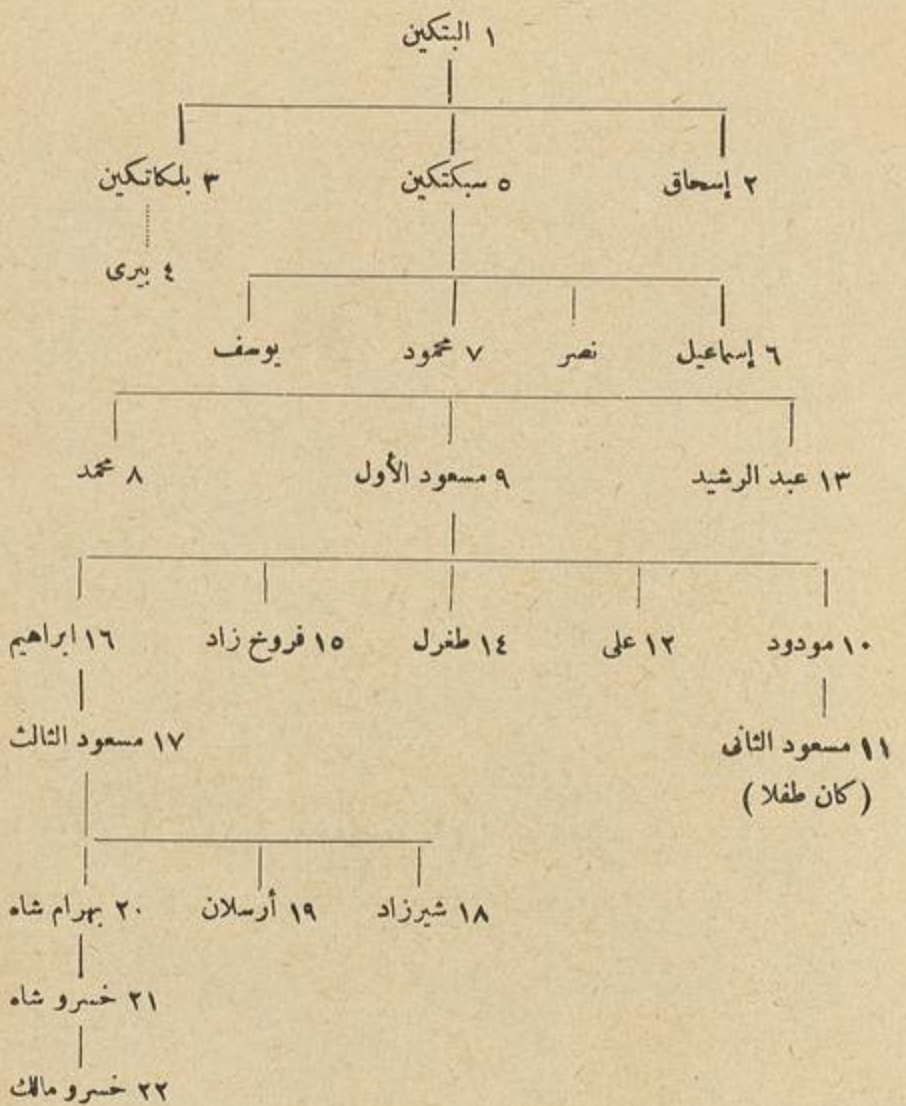

... الأسطر المنقوطة تدل على علاقة السيد بمولاه .

سبكتكين (٣٦٦ — ٣٨٧ هـ) :

كان ألبتكين من الموالى الأتراك الذين كانت لهم منزلة كبيرة عند السامانيين فأسندوا إليهم المناصب العالية فى الدولة . وقد عين عبدالملك بن نوح السامانى (٣٤٣ — ٣٥٠ هـ) ألبتكين حاجبا فى بلاطه ، ثم عينه فى سنة ٣٤٤ هـ عاملا على مدينة هراة ؛ ولكنه أقصى عن منصبه بعد وفاة مولاه ، فعاد إلى مدينة غزنة التى كان أبوه يليها من قبل السامانيين ، وحل محله فى حكمها بعد وفاته سنة ٣٥٢ هـ ، واستطاع أن يناوىء منصوراً الأول بن نوح السامانى (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) ، ولكنه مات بعد سنة واحدة دون أن يتمكن من توسيع رقعة البلاد التى استولى عليها ، كما لم يتمكن ابنه إسحاق من مد نفوذ الغزنويين .

وكان لإسحاق مملوكان ، هما بلكاتكين Balkatigin وسبكتكين Subukitigiu . وقد آلت السلطة من بعده إلى أولهما فضرب النقود باسمه فى غزنة سنة ٣٥٩ هـ ، وتبعه فى حكمها يرى أحد أهالى هذه المدينة . ويعتبر سبكتكين أحد موالى ألبتكين وزوج ابنته المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية (١) . ويذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص٢٤٧) أن إسحاق بن ألبتكين لما توفى «ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للحكم، اجتمع عسكره ونظروا فيمن يلى أمرهم ويجمع كلمتهم ، فاختلفوا ، ثم اتفقوا على سبكتكين ، لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه،فقدموه عليهم وولوه أمرهم ، وحلفوا له وأطاعوه ، فأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة» .

وقد مد سبكتكين سلطانه فى الشرق ، حيث أسس دولة حاضرتها بشاور ،وفى فارس باستيلائه على خراسان التى ولاه عليها نوح بن منصور السامانى فى سنة ٣٨٤ هـ ، مكافأة له على قمع الثوار فى بلاد ما وراء النهر (٢) .

ذكر ابن الأثير فى حوادث سنتى ٣٦٦ ، ٣٦٩ هـ أن سبكتكين استولى على ناحية قصدار القريبة من غزنة ، وبست الواقعة بين سجستان وهراة ، وأن صاحب بست كان قد استعان به على الثوار الذين استولوا على بلاده ، ولكنه لم يف بتعهداته له وماطله ، فأحل به سبكتكين الهزيمة واستولى على بست ، ثم صار إلى قصدار بعد أن خرج عليه واليها ،

---

(١) Ercyclopaedia of Islam, Ghaznavids, S, V. (Vol. II, p, 154)

(٢) Browre : Lit Hist, of Persia, Vol, I, pp. 371—2.

واعتصم بها لمناعتها وصعوبة مسالكها ، واستولى عليها وأرغم هذا الوالى على الاعتراف بطاعته .

وقد أتاحت هذه الانتصارات الفرصة لسبكتكين للاستيلاء على جزء كبير من بلاد الهند ، فاستولى على بعض المواقع الجبلية فيها ، حيث مدينة كابل حاضرة بلاد الأفغان الحالية [١] ، وعاد إلى بلاده سالما ظافرا . ولكن چيبال أحد ملوك الهند ، الذى كانت مملكته تمتد فى شمال غربى الهند ، رأى فى استيلاء سبكتكين على أطراف بلاده تهديدا لمملكته ، وبدأت بين ملوك الهند وملوك غزنة حروب طاحنة انتهت باستيلاء محمود بن سبكتكين على جزء كبير من هذه البلاد [٢] .

وفى سنة ٣٦٩ هـ حلت الهزيمة بچيبال ، وطلب الصلح من سبكتكين « على مال يؤديه إليه وبلاد يسلمها إليه وخمسين فيلا يحملها إليه ، فاستقر ذلك ورهن عنده جماعة من أهله حتى يتم تسليم البلاد ، ولكن چيبال قبض على من معه من المسلمين مقابل رهائنه . فلما سمع سبكتكين بذلك سار نحو الهند وخرب كل ما مر عليه من بلادهم ، ثم قصد لمغان ، وكانت من أحسن قلاعهم ، فافتتحها عنوة ، وهدم بيوت الأصنام ، وأقام فيها شعائر الاسلام . ثم عاد إلى غزنة وسار چيبال فى مائة ألف مقاتل التقوا بجند سبكتكين الذى أحل الهزيمة بالهنود ، وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة ،وكان من أثر انتصار سبكتكين فى هذه الموقعة أن دخل فى طاعته الأفغان والخلج [٣] .

ومع أن سبكتكين كان من الناحية العملية مستقلا عن السامانيين وأكثر نفوذاً منهم، فإنه اعترف — كما يقول ستانلى لينبول [٤] — لهم بالسيادة وشن الحروب وفتح البلاد باسمهم ، حتى «اتسعت رقعة ولايته ،وعظم حجم جريدته،وعمرت أرض خزانته ، وأشفقت النفوس من هيبته» .[٥] ففى سنة ٣٨٤ هـ نرى نوح بن نصر السامانى يستعين بسبكتكين صاحب غزنة على حرب أبى على بن سيمجور وفائق الخاصة ، الذين شقا عصا الطاعة فى خراسان ، وولاه خراسان ، ودارت الحرب بنواحى هراة بين نوح السامانى وسبكتكين

---

(١) كانت هذه الأراضى ولا تزال تعرف باسم Hind أو Hun I ، ويعرف ملوكها باسم ملوك مملكة الشاهات ، ويعرفون عامة باسم ملوك الهنود فى كابل .

(٢) العتبى : تاريخ اليمينى ج ١ ص ٥٨، ٨٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٨ .

(٤) Muhammadan Dynasties. p. 286

(٥) العتبى : تاريخ اليمينى ج ١ ص ٦٣ .

وابنه محمود من ناحية ، وبين أبى على بن سيمجور وفائق الخاصة وفخر الدولة بن ركن الدولة البويهى من ناحية أخرى ، وانتهت بانتصار سبكتكين ، وتتبعه أبا على وفائقا إلى نيسابور ، واستيلائه عليها ، وبعودة نيسابور إلى السامانيين ولى نوح محمود بن سبكتكين عليها كما ولاه على جيوش خراسان ، ولقبه سيف الدولة ، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة (١) .

مات سبكتكين فى سنة ٣٨٧ هـ بعد أن حكم عشرين سنة وضع فيها أساس إمبراطورية الغزنويين بفضل ما أحرزه من نصر مؤزر فى فتوحه فى الشرق والغرب ، وما اشتهر عنه من الصلابة وقوة الإرادة ومتانة الخلق ، تلك الإمبراطورية التى اتسعت رقعتها وامتدت حدودها فى عهد ابنه محمود الغزنوى ، و«كان سبكتكين عادلا خيراً كثير الجهاد ، حسن الاعتقاد ، ذا مروءة تامة وحسن عهد ووفاء » (٢) .

وقد رثاه أبو الفتح البستى الشاعر المشهور الذى اتخذه كاتباً له بقوله :

قلت إذ مات ناصر الدين والدو ... لة حباه ربه بالكرامه
وتداعت جموعه بافتراق ... هكذا هكذا تكون القيامه (٣)

يمين الدولة محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١ هـ) :

عهد سبكتكين قبل موته إلى ابنه إسماعيل ؛ وكان ضعيف الرأى والتدبير حتى كادت تنفد خزائنه ، فأرسل إليه أخوه محمود ، وكان أكبر منه سناً ، يبين له أحقيته فى السلطنة بعد أبيه ، واتصل بمحمود قواد إسماعيل سراً ، والتقت جيوشهما بظاهر غزنة ، وبانتصار محمود استقر له ملك الغزنويين ، وقبض على إسماعيل بعد أن حكم سبعة شهور .

يقول براون (٤) «إن قوة محمود الغزنوى التى لا تحد قد ظهرت فجأة ، وإنه بدأ عهده بوضع يده على مملكته الصغيرة التى ورثها عن أبيه سبكتكين ، ولكنه لم يلبث أن غزا الهند اثنتى عشرة مرة ، وضم إلى مملكته بلاد البنجاب ، وأخضع بلاد الغور ، وبلاد ماوراء النهر ، ووالى لبنى بويه ضرباته التى انتهت باستيلائه على أصبهان » .

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٨ . العتبى : تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٥٠ — ٥١ ، ٥٤ .
(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٤٨ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٨٤ .
(٤) Lit. Hist. of Persia. Vol. I. p,376.

وكان من أهم الأغراض التى رمى إليها محمود الغزنوى أن يرث ملك السامانيين ، وقد حز فى نفسه انتزاع منصور بن نوح منه نيسابور وإمرة جيش خراسان وتوليتهما بكتوزون واتخذ من انحلال الدولة السامانية ، وتآمر بكتوزون وفائق الخاصة على منصور بن نوح ، وقبضهما عليه ، وسمل عينيه ، وتولية أخيه الصغير فرصة لتحقيق سياسته . وأحل الهزيمة بجيش السامانيين فى مرو (جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ) وارتد عبدالملك بن نوح إلى بلاد ما وراء النهر . وصفت له خراسان . وعين أخاه نصراً على جيوشها ، فاتخذ نيسابور مركزا له ، وخطب للخليفة القادر . وبذلك زالت الدولة السامانية من خراسان على يد محمود الغزنوى ، ومن بلاد ماوراء النهر على يد بغراخان (١) .

كان محمود الغزنوى أول من تلقب من الغزنويين بلقب سلطان بعد أن كان يلقب بلقب أمير . وقد لقبه الخليفة القادر بالله يمين الدولة ، وأمين الملة ، وظهرت هـذه الألقاب على السكة التى كانت تحمل اسمه (٢) .

ولم يكتف محمود بما استولى عليه من بلاد ، بل عمل على مد نفوذه وتوسيع رقعة أملاكه ، فحارب خلف بن أحمد صاحب سجستان ، واستولى عليها (٣٩٣ هـ) ، ولـكنه لم تلبث أن خرجت عليه . فأخضعها وأقطعها أخاه نصراً (٣) .

وفى سنة ٤٠١ هـ حارب محمود الغور ، وكانوا لا يدينون بالاسلام، وتقع بلادهم الجبلية الوعرة المسالك بين هراة وغزنة ، ومن ثم كانوا يقطعون الطريق ويخيفون السبيل . وقد أوقع بهم محمود وأخضعهم لسلطانه ، ونشر الاسلام بينهم ، وأرسل إليهم جماعة من المسلمين يعلمونهم أصول الدين .

ومن أهم الأعمال التى قام بها محمود الغزنوى إزالته سلطان البويهيين فى الرى وبلاد الجبل ؛ فقد انتهز فرصة استنجاد مجد الدولة بن فخر الدولة الذى استبدت أمه بالأمر دونه وانصرف إلى النساء واشتغل بقراءة الـكتب ، فاختلت دولته بعد موت أمه ، وأرسل إليه فى سنة ٤٢٠ هـ ، جيشاً قبض عليه وعلى ابنه أبى دلف ، ثم سار محمود إلى الرى ودخلها ، وأحضر مجد الدولة وقال له : أما قرأت شانامة (يقصد الشاهنامة للفردوسى) وهو تاريخ

---

(١) ابن الأثير : جـ ٩ ص ٥٤ .
(٢) ابن خلـكان : جـ ٢ ص ٨٤ ـ ٨٥ .
(٣) تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٩٩ ـ ١٠٤ ، ابن الأثير جـ ٩ ص ٦٠، ٦٤ـ٦٥ .

الفرس ، وتاريخ الطبرى، وهو تاريخ المسلمين؟قال: بلى ! قال: ماحالك حال من قرأهما[١]. أما لعبت بالشطرنج ؟ قال : بلى ! قال : فهل رأيت شاهاً يدخل على شاه ؟ قال : لا ! قال : فمن حملك على أن سلمت نفسك إلى من هو أقوى منك ؟ ثم سيره إلى خراسان وملك قزوين وصلب عدداً كبيراً من أصحابه الباطنية ، ونفى المعتزلة إلى خراسان ، وأحرق كتب الفلسفة والمعتزلة والنجوم ، وأخذ عدا ذلك مائة حمل من الكتب [١] .

كذلك حارب محمود الغزنوى الأتراك الغزية ، أصحاب أرسلان بن سلجوق ، وكانوا يقطنون صحارى إقليم بخارى . ولما قبض على زعيمهم أرسلان فى بلاد ماوراء النهر وأرسله إلى بلاد الهند وقتل كثيراً من أصحابه ، هرب جمع كبير منهم فى سنة ٤٢٠ هـ ولحقوا بخراسان وعاثوا فيها ، فهربوا إلى أصبهان حيث طاردتهم جيوش محمود الغزنوى وأوقعت بهم ، ثم سار محمود إلى خراسان حيث تفاقم شر هؤلاء الغز ، ومازال يحاربهم حتى مات ، واستمر ابنه مسعود فى حربهم[٢] .

ولم تقتصر جهود محمود الغزنوى على فتح البلاد فى فارس وخراسان وغيرهما ، بل إنه اهتم أيضاً بالقضاء على أهل البدع والأهواء . ففى سنة ٤٠٨ هـ نراه يشمر عن ساعد الجد فى محاربتهم فى غير هوادة : يقول الذهبى[٣] ، «وامتثل يمين الدولة محمود بن سبكتكين أمر القادر بالله ، وبث كلمته فى عماله بخراسان وغيرها فى قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة ، وصلبهم ونفاهم ، وأمر بلعنهم على المنابر ، وشردهم من ديارهم » .

ولما وجد الفاطميون فى مصر مايلاقيه أنصارهم من الإسماعيلية فى بلاد المشرق على يد محمود الغزنوى ، عملوا على استمالته إليهم ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق مآربهم .

فتوح محمود الغزنوى فى بلاد الهند:

اصطبغت حملات محمود الغزنوى فى بلاد الهند بين سنتى ٣٩٢ و٤١٥ هـ (١٠٠٠ و١٠٢٤ م) بصبغة الجهاد الدينى ، وكان يرمى من وراء هذه الحملات إلى نشر الإسلام فى هذه البلاد ليكون ذلك كفارة لما كان من قتال المسلمين . ولذلك فرض — كما يقول ابن خلكان

(١) فى الأصل قرأها والسؤال عن كتابين .
(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٣٩ .
(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٤١ — ١٤٢ .
(٤) تاريخ الاسلام : مخطوط جـ ٣ ورقة ٢٧٩ .

(ج ٢ ص ٨٥) — على نفسه فى كل عام غزو الهند أضف إلى ذلك أن چيبال ملك البنجاب الذى حارب أباه سبكتكين حروبا طاحنة ، كان لا يزال فى قوة لا يستهان بها ، كما أن قرب غزنة من بلاد الهند الشمالية ، ووقوعها على قمة الهضبة التى تشرف على سهولها يجعلها سهلة الاتصال بوديان كابل وقورم ونهر جمال — كل ذلك أمد محمودا بمزايا فريدة ساعدت على نجاح غزواته فى بلاد الهند ، ومما ساعد محمودا على تحقيق هذه الأغراض استيلاؤه على بلاد ماوراء النهر التى آلت إلى إيلك خان بعد زوال الدولة السامانية ، وعلى سجستان وبلاد الغور ، مما قوى مركزه الحربى فى الداخل وأطلق يده فى توجيه حملاته المنتظمة إلى بلاد الهند (١) .

وفى سنة ٣٩٢ هـ غزا محمود الغزنوى شمالى الهند ، وانتصر على چيبال وأسره وغنم غنائم كثيرة ، حتى قيل إن عدد الأسرى بلغ أكثر من خمسمائة ألف . ثم أطلق چيبال على جزء من المال يؤديه . وكان من عادة الهنود أن من وقع منهم أسيرا فى أيدى المسلمين لاتنعقد له بعدها رياسة ولذلك حلق چيبال رأسه ، ثم ألقى نفسه فى النار فاحترق ، وترك مملكته لابنه أنندبال Anandpal . وكان من أثر ما أحرزه محمود من نصر فى هذه الغزوة أن أطلق عليه «الغازى» .

وبعد أن أحل محمود الغزنوى الهزيمة بچيبال سار نحو ويهند Und وانتصر على أهلها (٢) ثم قصد إقليم الملتان ، وهو مركز مشهور للحجاج من الهنود فى جنوب بلاد البنجاب على سمت غزنة ؛ فاستولى على مدينة بهاطية ، وانتصر على صاحبها بحيرا (٣٩٥ هـ) ونشر الإسلام فيها ، وولى عليها أحد المسلمين ، وعهد إليه تعليم أهلها قواعد الدين . وفى سنة ٣٩٦ هـ قصد محمود مدينة الملتان نفسها ، وانتصر وهو فى طريقه إليها على أنندبال بن چيبال لأنه لم يسمح له بالمرور من بلاده . ولما سمع أبو الفتوح داود صاحب الملتان ، وكان يدين أهلها بمذهب القرامطة ، بقدوم محمود الغزنوى إلى بلاده ، فر إلى سرنديب ، فقضى محمود على مقاومة أهلها وافتتحها عنوة وفرض عليهم الجزية (٣) .

وفى سنة ٣٩٧ هـ أعلن محمود الغزنوى الحرب على ولد أنندبال الذى اعتنق الإسلام على يد محمود ، وتلقب بلقب نواسه شاه ، وحكم بلاده نيابة عنه ، ولكنه ارتد عن هذا الدين ، وشق عصا الطاعة ، فسار إليه محمود وانتصر عليه وضم بلاده إلى أملاكه .

---

(١) أنظر : Encyclopaedia of Islam, vol. II. p, 155

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٤ .

(٣) Defrèmery : Essai snr l' Histoire des Ismaéliens. p, 30.

وبينما كان محمود مشغولا بحرب إيلك خان ، الذى استولى على بلاد ما وراء النهر من يد السامانيين ثم حارب جيوش السامانيين على مقربة من بلخ وجيوش الغور على ماتقدم . عقد ملوك الهند وأمراؤها حلفا لمقاومة محمود والدفاع عن بلادهم وعن دينهم . وفى سنة ٣٨٨ هـ عبر محمود نهر السند والتقى فى ويهند الواقعة فى إقليم البنجاب بجيش جرار يتألف من قوات أبرهمن‌بال بن أنندبال وراجات أدجين وجواليار ودلها وغيرها ، وكادو يظفرون بالمسلمين[١].

ثم تبع يمين الدولة أثر برهمن‌بال . حتى بلغ قلعة بهيم نغر ، وكان الهنود قد جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم ، ونقلوا إليها الذخائر والجواهر ، فنازلهم يمين الدولة وحصرهم وقاتلهم وأرغمهم على طلب الأمان ، وفتحوا ، باب الحصن ، وملك المسلمون القلعة ، وصعد يمين الدولة إليها فى خواص أصحابه وثقاته ، « فأخذ من الجواهر مالا يحد ، ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية ، ومن الأوانى الذهبيات سبعمائة ألف وأربعمائة منا وكان فيها بيت مملوء من فضة ، طوله ثلاثون ذراعا وعرضه خمسة عشر ذراعا ، إلى غير ذلك من الأمتعة . وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم ، ففرش تلك الجواهر فى صحن داره ؛ وكان قد اجتمع إليه الرسل والملوك . فأدخلهم إليه فرأوا مالم يسمعوا بمثله »[٢] .

وكان من أثر انتصار محمود فى هذه الغزوة أن انتثر عقد هذا الحلف . وزالت الثقة من نفوس هؤلاء الراجات . ودفع أنندبال إلى محمود غرامة كبيرة ، وتعهد بأن يدفع إليه جزية سنوية ، كما تعهد بأن لايقف فى طريقه إذا ما أراد المرور من بلاد البنجاب . أما داود صاحب بلاد الملتان فإنه ارتد إلى عقائد القرامطة ، فغزا محمود بلاده فى سنتى ٤٠٠ و٤٠١ هـ ، واستولى على حاضرتها . وقتل كثيراً من أهلها ، وقبض على داود ، وأرسله إلى بلاد الغور حيث قضى بقية حياته[٣] . ثم استولى محمود الغزنوى على ناردين (٤٠٤ هـ)، وهدم الصنم المعروف بسومنان وغنم غنائم كثيرة .

عزم محمود على امتلاك قشمير ، ولكنه لم يوفق فى حملاته العديدة التى قام بها فى سنتى ٤٠٤ و٤٠٥ و٤٠٦ هـ ، وفقد كثيراً من جنده وغرق كثيراً منهم بسبب فيضان بعض الأنهار[٤] .

---

(١) Wolseley Haig : Encyclopaedia of Islam. Vol. ii. p. 133.

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٧٧ (٣) Encyclopaedia of Islam. vol. II. 133

(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ٩١ — ٩٦ .

أقسم على أن يغزو بلاد الهند فى كل سنة ، ولكنه انشغل فى سنة ٤٠٧ هـ بضم بلاده خوارزم على أثر مقتل خوارزمشاه مأمون ،وكان قد تزوج من أخت محمود واعترف بسلطانه وأراد أن يخطب له على منابر بلاده ، ففتله بعض قواده وأجلسوا ابنه مكانه ، فقصد محمود هذه البلاد . واستولى عليها ، وأنزل العقاب بالثوار ، وولى عليها نائباً من قبله ثم تفرغ لبلاد قشمير(١) .

لذلك نراه يسير من غزنة سيراً متصلا مدة ثلاثة أشهر، ثم يعبر نهرى سيحون وجيلوم فيخضع له ملوك هذه الجهات . ثم يستمر فى سيره حتى يصل إلى قشمير فيخضع له صاحبها ويسلم على يديه . وإن راجا برن Baran ، ويدعى هودب أو هروتا Hordatta زعيم بولندشهر لما سمع بنبأ وصول جيوش محمود إلى بلاده ، سقط فى يده ، وأخذ الفزع من نفسه كل مأخذ ، وخشى على حياته من عقاب الله ، ولم ير بدآ من اعتقاد الاسلام ، إذ رأى أن هذا الدين يحوطه سياج متين من قوة الله سبحانه وتعالى . وسرعان ماتقدم على رأس عشرة آلاف من رجاله ، وأعلنوا للفاتحين رغبتهم فى التحول عن دينهم القديم إلى الإسلام ومناصبة الكفار العداء . ثم سار عنه إلى قلعة كلجند Kulcand ، وعليها راجا مهبان Mahaban ، فقاتله محمود قتالا شديداً ، وغنم المسلمون أمواله،وملكوا حصونه ثم سار نحو متعبد لهم فى مدينة مثوراً Mathira أو بندرابان Bandrapan ،وهو يقع على نهر، وفيه كثير من الأصنام : منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر ، وكان فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفاً وثلثمائة مثقال ، ومن الأصنام المصوغة من النقرة نحو مائتى صنم ، فأخذ يمين الدولة ذلك كله . ثم سار نحو كنوج Kannawdi ، وكان يحميها سبعة حصون على نهر الجنج ، وكان صاحبها راجيال Ràdjyapàla قد فارقها ، ثم عبر نهر الجنج أو كنك على مايسميه ابن الأثير فاستولى محمود الغزنوى على قلاعها وأعمالها ،وفيها : نحو عشرة آلاف بيت من بيوت الأصنام ثم سار إلى قلعة البراهمة وتسمى مجهاون Mujhàwan فقاتلوه قتالا شديداً ، فأحل بهم الهزيمة ولم ينج منهم إلا الشريد ثم سار نحو قلعة آسى(٢) على نهر الجنج ، وصاحبها جندبال . فلما اقترب منها هرب صاحبها جندبال فاستولى عليها يمين الدولة ثم سار إلى قلعة شروة Sharwa ، فلما اقترب منها نقل صاحبها جندراى(٣) ماله وفيوله نحو جبال منيعة يحتمى بها ، ففتحها يمين الدولة وغنم مافيها ، ثم

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٩٨ (٢) ذكرها ولسلى هيج أسنى Asni

(٣) راى هو راجا حسب تسمية ابن الأثير الذى يقول(ج ٩ ص ١١٥) إن «راى هو لقب الملك كقيصر وكسرى ولايزال هذا اللقب إلى الآن شائعا فى بلاد الهند » .

صار فى طلب جندراى ، وأسر كثيراً منهم وغنم مامعهم من مال وفيلة . وكان السبى فى هذه الغزوة من الكثرة بحيث أن أحدهم كان يباع بأقل من عشرة دراهم . ولما عاد محمود الغزنوى من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة وأنفق على بنائه كل ماغنمه فى هذه الغزاة .

وقد حز فى نفس ملوك الهند ما أحرزه محمود الغزنوى من نصر مؤزر وما أبداه بعضهم من تخاذل ، فسار نندا ، راجا كالنجار Kâlindjâr وراجا جواليار Gwaliy إلى راجبال راجا كنوج وحارباه ، لتركه حاضرة بلاده ،وقتلاه ، وانضم إلى نندا كثير من ملوك الهند الخاضعين لنفوذ محمود الغزنوى ، وهددوا سلطانه فى هذه البلاد . فلم يربدا من العودة إلى الهند والقضاء على هذا الخطر قبل استفحاله . وقضى فى طريقه على جماعة الأفغان الذين كانوا يقطنون المناطق الجبلية بين غزنة والهند ، ويقطعون الطريق ، ويعوقون مواصلات محمود إلى هذه البلاد . ولما تم له ما أراد ، قصد نندا وحلفاءه وقضى عليهم فى بلاد البنجاب وغنم منهم غنائم كثيرة (٤٠٩/١٠١٩)[١].

وهكذا استمرت غزوات محمود الغزنوى فى بلاد الهند سنة بعد أخرى ، حتى توج انتصاراته الباهرة فى غزوته التى شنها عليها باسترداد ناردين ، وهدم صنم سومنان الذى كان الهنود يعتبرونه الملاذ الذى يحميهم من غزوات الغزنويين . « فكان كلما فتح يمين الدولة من الهند فتحاً وكسر صنما يقول الهنود إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات (سومنان على الأصح) ، ولو كان راضياً عنها لأهلك من قصدها بسوء . فلما بلغ ذلك يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه . ظناً منه أن الهنود إذا فقدوه ورأى كذب ادعائهم الباطل دخلوا فى الإسلام[٢] . فاستعد لهذه الغزوة أتم استعداد ، واخترق صحراء الهند (صحراء ثار) واستولى على أجمر Adjmar وانهلوارة Anhilwara ، فتركها صاحبها بهيم Bhim ووصل إلى سومنان فى ١٦ ذى القعدة سنة ٤١٦ هـ — يناير ١٠٢٦ م ، فرأى حصنا منيعاً دافع عنه أهله أشد دفاع . ثم علم أن أمراء جوجرات Gudjarât الذين فروا قبل قدومه قد لموا شملهم للذود عن معبودهم ، وساروا نحو المدينة ، فترك بعض رجاله يحاصرون الهند واتجه ببقية جيشه صوب جيوش هؤلاء الأمراء ، وانتصر عليهم بعد أن كادت تحل به الهزيمة ، فولوا الأدبار ، واستطاع أن يستولى على هذا الصنم المشهور . وقد سر محمود الغزنوى بهذا النصر المؤزر. وأرسل إلى الخليفة يعلنه بما فتح الله على المسلمين فى الهند[٣].

---

(١) ابن الأثير ج ص ١١٥ — ١١٦

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١١٨ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٨٤ — ٨٥ .

وقد أعجب محمود بجمال إقليم جوجرات وحسن مناخه ، حتى إنه فكر فى اتخاذ انهلوارا حاضرة له واستخلاف ابنه مسعود فى حكم غزنة . لولا أن قواده أشاروا عليه بالعدول عن هذا الرأى ، وعاد إلى غزنة محملا بالغنائم ، وكانت آخر غزوات محمود الغزنوى لبلاد الهند فى سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) لتأديب الثوار الذين اعترضوه فى أثناء عودته إلى غزنة ، وأعد لهذه الغزوة أسطولا صغيرا ، وأحل الهزيمة بالجات Diats فى نهر السند[١] .

ولم يفتر محمود الغزنوى عن توجيه حملاته إلى بلاد الهند طوال عهده ، حتى إننا نرى نائبه ينال تكين فى هذه البلاد يستولى فى السنة التى توفى فيها محمود على نرسى وكانت تعد من أعظم مدن الهند فى ذلك الوقت .

يقول ولسلى هيج [٢] : « يمكننا إلى حد ما أن نعتبر محمودا (الغزنوى) سلطانا هنديا خالصا . فقد فتح فى خريف حياته إقليم البنجاب ، ونشر الإسلام فى ربوع الهند ، وافتتح طريقا سلكه بعده كثيرون ، وقنع خلفاؤه ، بعد أن جردوا من أملاكهم فى فارس وأفغانستان وبلاد ماوراء النهر ، بحكم إقليم البنجاب ، وكونوا أسرة هندية خالصة » .

ويقول ستانلى لينپول [٣] : « إن حملات الغزنويين فى بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقرا لهم ، يمكن اعتبارها بدء حكم المسلمين الحقيقى فى هذه البلاد . فقد مهدت الدولة الغزنوية فى لاهور السبيل أمام محمد بن سام الغورى [٤] وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهى ونشروا نفوذ المسلمين فى كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية [٥] » .

وقد بلغ محمود الغزنوى فى فتوحه « إلى حيث لم تبلغه فى الإسلام راية ولم تتل به قط سورة ولا آية ، فرحض عنها أجناس الشرك ، وبنى بها مساجد وجوامع [٦] ، وأقام بدلا

---

(١) W. Haig : Encyclopaebia of Islam . Vol II. p. 134,

(٢) Camprdge History of India (Cambridge, 1928) vol,III, pp. 26—7

(٣) The Muhammadan Dynasties, p. 284

(٤) حكمت الدولة الغورية بلاد أفغانستان وهندستان من سنة ٥٤٣ (١١٤٨م) إلى سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) .

(٥) Ishwari Prassad : Inde du VIIe àu XVIIe Siècle, p 84 et suiv.
أنظر حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى الهند : بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، مايو ١٩٤٤ ص ٧ .

(٦) ابن خلكان ج ٢ ص ٨٥ .

عن بيوت الأصنام ، مساجد الإسلام ، وعن مشاهد البهتان ، معاهد التوحيد والإيمان ، فصارت الأطفال تهدد فى بطالتها بإقدامه ، وتفزع باقبال ألويته وأعلامه ، وظل أندبالهم وجبالهم وكماتهم وأبطالهم كما قال الأشجع السلمى :

وعلى عدوك يابن عم محمد رصدان : ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبـــه رعته وإذا هدا سلت عليه سيوفك الأحلام [1]

وقد أطنب العتبى [2] فى سجايا محمود الغزنوى ، وأشاد باتساع رقعة مملكته فى هذه العبارة فقال :

« إن راية الإسلام لم تظل على سلطان أحسن دينا ، وأصدق يقينا ، وأحسن علما ، وأوقع حلما وأسد سيرة ، وأخلص سريره ، وأتم وفاء وأعم سخاء وأوفر حباء ، وأغنى غناء ، وأعظم قدرا وأخم ذكرا ، وأمد باعا ، وأشد امتناعا ، وأجل جلالة ، وأكمل عدة وآلة ، وأرفع ملكا وسلطانا ، وأطوع أنصارا وأعوانا ، وأردع سيفا وسنانا ، وأحمى للاســلام وذويه ، وأنفى للشرك ومنتحليه ، وأعدى للباطل ومن يليه ، اكتسابا ووراثة وطباعا واستفادة ، من الأمير السيد ، الملك المؤيد ، يمين الدولة، وأمين الملة ، أبى القاسم محمود بن ناصر الدين ، أبى منصور سبكتكين : ملك الشرق بجنبيه ، والصدر من العالم ويديه ، لانتظام الإقليم الرابع وما يليه من ثالث الأقاليم وخامسها [3] فى حوزة ملكه وحصون انتظام ممالكه الفسيحة ، وولاياتها العريضة فى قبضة ملكه ، ومصير أمرائها وذوى الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته وجبايته ، واستدرأهم من آفات الزمان بظل ولايته ورعايته ، وإذعان ملوك الأرض على بعدهم لعزته، وارتياعهم من فائض هيبته، واحتراسهم على تقاذف الديار وتحاجز الأنجاد والأغوار من فاجىء ركضته ، واستخفاء الهند والروم تحت جيوبها عند ذكره ، واقشعرارهم لمهب الرياح من أرضه، وقد كان أدام

---

(١) العتبى : تاريخ اليمينى ج ١ ص ٣٨ — ٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٣ — ٣٤ .

(٣) أراد بالاقليم الرابع ، لأنها من أشهر كور هذا الاقليم ، وأراد بالاقليم الثالث الذى منه قندهار وكابل وكثير من مدن بلاد الهند . والاقليم الخامس هو مايلى الاقليم الرابع من ناحية الشمال ، ويراد به ما تملكه السلطان محمود الغزنوى من بلاد الترك وخوارزم وغيرها . ولا يبعد أن يكون العتبى قد أراد بالصدر من العالم الاقليم الرابع خراسان، لأنه يقع بالنسبة إلى الأقاليم السبعة وسطا، وهو كالصدر من الانسان ، وما يليه من الاقليم الثالث والخامس كاليدين .

الله دولته منذ لفظه المهد وجفاه الرضاع ، وانحلت عن لسانه عقدة الكلام ، واستغنى عن الإشارة بالإفهام ، مشغول اللسان بالذكر والقرآن ، مشغول النفس بالسيف والسنان ، ممدود الهمة إلى معالى الأمور ، معقود الأمنية بسياسة الجمهور ، لعبه مع الأتراب جد ، وجده مستكد ، يألم لما لا يعلم حتى يقتله خبرا ، ويحزن لما يحزن حتى يدمثه قسرا وقهرا ».

كان محمود الغزنوى — كما وصفه ابن الأثير (١) — عاقلا دينا (٢) خيرا ، عنده علم ومعرفة . له كثير من الكتب فى الفنون . وقصده العلماء من أقطار البلاد . وكان يكرمهم ، ويقبل عليهم ، ويعظمهم ، ويحسن إليهم . وكان عادلا كثير الإحسان إلى رعيته ، والرفق بهم ، كثير الغزوات ، ملازما للجهاد . وفتوحه مشهورة مذكورة ... وفيه ما يستدل به على بذل نفسه لله تعالى واهتمامه بالجهاد . ولم يكن فيه ما يعاب إلا أنه كان يتوصل إلى أخذ الأموال بكل طريق (٣) . . . وكان ربعة مليح اللون حسن الوجه ، صغير العينين ، أحمر الشعر » .

وقد نقل أبو نصر العتبى عن بديع الزمان الهمذانى (٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م) أبياتا يصف فيها ازدهار الدولة الغزنوية فى عهد يمين الدولة محمود الغزنوى وتحول السادة والنفوذ من العنصر الفارسى إلى العنصر التركى بقضاء محمود الغزنوى على السامانيين (٤).

مسعود الاول (٤٢١ — ٤٣٢ هـ) :

لما حضرت محمود الغزنوى الوفاة ، أوصى إلى ابنه محمد نائبه يبلغ بالحكم من بعده ، ولقبه جلال الدولة ولم يوص لابنه الأكبر مسعود لإيقاع الوشاة به عند أبيه . ووصل محمد إلى غزنة بعد موت أبيه بأربعين يوما ، وخلع على قواده وعساكره فأطاعوه .

---

(١) ج ٩ ص ١٥٠ — ١٥١ .

(٢) ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٨٦) أن محموداً الغزنوى كان مولعا بعلم الحديث ، وقد رأى أن أكثر هذه الأحاديث موافق لمذهب الشافعى ، ولذلك صار إليه محمود ، وترك مذهب أبى حنيفة .

(٣) ذكر ابن الأثير (ج ٩ ص ١٥٠ — ١٥١) أن محموداً قبض على وزيره أبى القاسم أحمد بن الحسن الميمندى (٤١٢ هـ) طمعا فى ماله ، « وأخذ منه لما قبض عليه مالا وأعراضا بقيمة خمسة آلاف درهم وذكر أيضا أنه « بلغه أن إنسانا من نيسابور كثير المال عظيم الغنى ، فأحضره إلى غزنة وقال له : بلغنا أنك قرمطى ، فقال : لست بقرمطى ، ولى مال يؤخذ منه ما يراد وأعفى من هذا الاثم ، فأخذ منه مالا وكتب معه كتابا بصحة اعتقاده » .

(٤) تاريخ اليمينى ج ١ ص ٣٨٤ — ٣٨٦

أما مسعود فقد كان شأنه مع أخيه محمد شأن أبيه محمود مع أخيه إسماعيل بن سبكتكين فإن مسعودا لما بلغه خبر وفاة أبيه وهو بأصبهان ، سار إلى خراسان ، وكتب إلى أخيه يطلب إقراره على البلاد التى كان قد فتحها . وهى بعض بلاد طبرستان والجبل وأصبهان ، ووعد بتقديم اسم أخيه فى الخطبة على اسمه . ولكن محمد لم يجب أخاه إلى طلبه ، وانضم بعض جنده إلى مسعود ، لكبر سنه وشجاعته وقوة بأسه ؛ وثار بعضهم الآخر عليه ، وقبضو عليه وحبسوه وسملوا عينيه ، لأنه كان مشغولا بالشراب واللعب عن تدبير الدولة . ونادوا بأخيه مسعود سلطاناً عليهم وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠١ هـ أى بعد اعتلاء السلطنة بخمسة أشهر[١] ، ولقبه الخليفة القادر ناصر دين الله وحافظ عباد الله ، وظهير خليفة الله[٢] ، وسيد الملوك والسلاطين[٣] .

وفى سنة ٤٠٦ هـ ولى محمود ابنه مسعودا العهد من بعده ، ثم ولاه هراة . وفى سنة ٤١١ هـ عهد إليه بمحاربة الغور ، فأبلى بلاء حسناً ، وأخضع الجزء الشمالى الغربى من هذه البلاد . ولكن أباه لم يلبث أن غضب عليه وسجنه فى المولتان ، ثم عفا عنه ، وقلده ولاية هراة ثانية . ولما فتحت بلاد الرى فى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٢٩ م) وزالت عنها سيادة البويهيين من أبناء ركن الدولة ، وليها مسعود الذى ضم همذان وأصبهان وأزال سلطان البويهيين منهما .

عمل مسعود على إقرار نفوذه فى بلاد المشرق ، فاستولى على مكران (٤٢٢ هـ) ، ثم على كرمان التى لم تلبث أن خرجت عن طاعته ؛ ثم سار إلى خراسان لفتح بلاد العراق ، فاتخذ أحمد بن ينال تكين نائب الغزنويين فى لاهور من ذلك فرصة للاستقلال بهذه البلاد ، واضطر مسعود إلى العودة إلى غزنة ، وولى علاء الدولة بن كاكويه ، وكان بنو بويه قد ولوه أصبهان فطلب من مسعود إقراره عليها بجزية سنوية على هذه المدينة ، وأقر دارا بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير على جرجان وطبرستان ، وأرسل أبا سهل الحمدونى لإقرار الأمور فى الرى . وسار مسعود إلى الهند وفتح قلعة سرستى الجبلية فى جنوبى قشمير : وقد حاول أبوه محمود فتحها من قبل فلم يوفق ، وأرغم نائبه أحمد ابن ينال تكين على الارتداد إلى نهر السند ، حيث غرق (٤٢٦ هـ) ، ثم عاد إلى

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٠ (٢) Encycloopaedia of Islam, vol. III. p. 400
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٨١ .

هذه البلاد فى السنة التالية ، واستولى على بعض قلاعها مثل هانسى Hànsi وسونيبات Sonipat ، وخلف ابنه مجدوداً على بلاد البنجاب (١).

ولما تغلب مسعود على الصعاب التى اعترضته فى الهند، اعترضته صعوبة أخرى فى خراسان، حيث نازعه السلطة فيها قوتان خطيرتان ، هما الغز والسلاجقة ، أما الغز فقد أجلاهم عن خراسان بعد حروب دامت زهاء سنتين (٤٢٩- ٤٣١هـ) ، وأما السلاجقة الذين تفاقم شرهم فى الوقت الذى قامت فيه الاضطرابات بعد وفاة محمود الغزنوى ، فقد نهبوا هراة فى سنة ٤٢٢هـ (١٠٣١ م) ، وبدءوا منذ سنة ٤٢٥ هـ يغيرون على خراسان إغارات منظمة ، وفى سنة ٤٢٦ هـ حاربهم مسعود وهزمهم هزيمة منكرة . ولم يستطع مسعود التفرغ للقضاء على السلاجقة ، لشغله بغزو الهند ، مما أدى إلى ازدياد قوتهم وطمعهم فى أملاك الغزنويين . على أن ذلك لم يضعف قوة السلاجقة المعنوية ، فضاعفوا جهدهم ، واستولوا على مرو ونيسابور وسرخس (سنة ٤٢٩ هـ) ، بل على معظم بلاد خراسان سوى بلخ . ولم ير مسعود بداً من قتالهم بنفسه . فعاد من غزنة ، وانتصر على طغرل فى شهر شعبان سنة ٤٣٠ هـ ، وطرد السلاجقة والغز من خراسان . ولكن السلاجقة لم يلبثوا أن هزموا مسعودا فى شهر رمضان سنة ٤٣١ هـ هزيمة منكرة وأفلت من الأسر .

وكانت هذه الهزيمة بعيدة الأثر فى نفس مسعود ، حتى إنه عزم على الانسحاب إلى بلاد الهند حيث يستطيع أن يجمع جيشاً جرارا يحارب به السلاجقة (٢) . وبعد أن عبر نهر السند بقليل ، ثار مواليه وقبضوا عليه ونهبوا خزائنه ، وانضموا إلى سائر الجند، وأقاموا أخاه محمدا (وكان بصحبته مسمولا بعد أن قبض عليه) وسلموا عليه بالإمارة، وبقى مسعود فيمن معه من العسكر ، وانتهت هذه الحروب الأهلية التى قامت بين جند مسعود وأنصار أخيه محمد بقتل مسعود .

وقد أطنب ابن الأثير (ج ٩ ص ١٨٢) فى وصف مناقب مسعود واتساع رقعة سلطنته فقال ، إنه كان شجاعا كريما ، ذا فضائل كثيرة ، محبا للعلماء ، فصنفوا له التصانيف الكثيرة فى العلوم . وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحاجة ، قيل إنه تصدق مرة فى شهر رمضان بألف ألف درهم ، وأنه عمر كثيرا من المساجد ، وأجزل العطاء للشعراء . أعطى

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٧٠ — ١٧٢ و ١٨١ .
(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٨٢ .

شاعرا على قصيدة ألف دينار ، وأعطى آخر لكل بيت ألف درهم . وكان يكتب خطاً حسناً . وقد امتد نفوذه على أصبهان والرى وهمذان وطبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم وكرمان وسجستان والسند والرخج وغزنة وبلاد الغور والهند .

مودود بن مسعود (٤٣٢ — ٤٤١ هـ):

لما قتل مسعود عاد أخوه محمد إلى غزنة ، وأرسل إلى ابن أخيه مودود بخراسان يتنصل من تبعة قتل أبيه ، فرد عليه بهذه العبارة التى تنم عن حزنه وعزمه على القصاص من قتلة أبيه ، فقال : «أطال الله بقاء الأمير القاسم (محمد بن محمود بن سبكتكين) ، ورزق ولده المعتوه أحمد عقلا يعيش به ، فقد ركب أمرا عظيما ، وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدى ، الذى لقبه أمير المؤمنين سيد الملوك والسلاطين . وستعلمون فى أى حتف تورطتم ، وأى شر تأبطتم ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما »

سار مودود من خراسان قاصدا غزنة وحارب عمه محمدا ، وكان قد عاد من الهند ، بالقرب من دينور على طريق كابل وبشاور ، وانتصر عليه ، ودخل غزنة وقتل أولاده جميعا إلا عبدالرحيم الذى غضب لقتل عمه ، كما قتل كل من رمى بالاشتراك فى هذه المؤامرة وبنى فى المكان الذى انتصر فيه على عمه قرية ورباطا ، سماهما فتح آباذ ، ودخل غزنة فى شهر شعبان سنة ٤٣٢ هـ .

وقد أثار انتصار مودود مخاوف الغز السلاجقة ، فثار عليهم أهالى البلاد التى خضعت لهم،ودخلوا فى طاعة مودود الذى استقر أمره بغزنة ، ولم يعد يخشى أحدا إلا أخاه مجدودا. وكان أبوه مسعود قد سيره إلى الهند وولاه إقليم البنجاب فى سنة ٤٢٦ هـ كما تقدم ، فعصى أخاه مودودا واستقل بلاهور والمولتان ، وجهز جيشاً سار به نحو غزنة ، ولكنه مات فى شهر ذى الحجة من سنة ٤٣٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٤١ م) بعد أن وصل إلى لاهور بثلاثة أيام [١] .

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٨٢ .

وقد أصبح السلاجقة على مر الأيام خطرا يهدد الدولة الغزنوية ؛ ففى سنة ٤٣٥ هـ انتصر ألب أرسلان ابن داود السلجوقى على جيش مودود الغزنوى ، ومع ذلك تمكنت جماعة من جيوش مودود من القضاء على جماعة من الغز بنواحى بست[١] .

ولم يقل اهتمام مودود بشئون الهند عن أسلافه فيها ؛ فقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٩٣ — ١٩٤) أن ثلاثة من ملوك الهند [٢] تحالفوا مع بعض راجاتها ، وحاصروا لاهور حاضرة الغزنويين فى هذه البلاد ، وأن مودودا أرسل جيشا كبيرا للقضاء على قوة الهنود وتقويض حلفهم ، فانهزم سخبال .

وكان من أثر هذا الانتصار أن استعاد الغزنويون هيبتهم فى بلاد الهند الشمالية إلى حين وكان مودود يعمل على استرداد البلاد التى استولى عليها السلاجقة فى عهد أبيه ، فحاربهم فى سنة ٤٣٥ هـ كما تقدم ، وطلب إلى عمال الأقاليم مساعدته على تحقيق أغراضه ، ووعدهم بإقرارهم على مايفتحونه من بلاد ، وغمرهم بالأموال الضخمة . ومن ثم نرى صاحب أصبهان ينشط لمساعدته لولا أن هلك كثير من جنده فى الصحراء ، كما نرى ملك الترك يسير إلى ترمذ ويطرد السلاجقة منها ، وتذهب طائفة من هؤلاء الترك إلى خوارزم ويسير مودود من غزنة فى سنة ٤٤١ هـ لحرب السلاجقة ، ولكن المرض ينتابه ، فيعود إلى حاضرة ملكه ، ويموت فى العشرين من رجب من هذه السنة ، وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، بعد أن ملك تسع سنوات وعشرة أشهر[٣] .

وحال موت مودود المبكر دون القضاء على قوة السلاجقة ؛ فقد عرف بالشجاعة والإقدام ، وعمل على توطيد ملكه وإعادة مملكته إلى ما كانت عليه فى عهد جده يمين الدولة محمود الغزنوى .

عبد الرشيد — فروخ زاد (٤٤١ — ٤٥١ هـ) :

تولى مسعود الثانى بعد وفاة أبيه مودود ، ولكنه لم يبق فى السلطنة سوى خمسة أيام ، ثم تقلد السلطنة بعده عمه أبو الحسن على بن مسعود الأول . وقد انتهز عبد الرشيد بن يمين الدولة محمود

---

(١) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٩٢ .

(٢) ومنهم سخبال Sukhpal الذى تحالف مع نوامى شاه بن جيبال ملك ويهيند Waihand وديبال هريانه Dipal Haryana (٣) ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٠٨ .

الغزنوى فرصة الاضطراب الذى ساد الدولة الغزنوية بعد موت مودود ، ودعا الجند إلى طاعته فأجابوه ، وساروا إلى غزنة ، ففر على بن مسعود ، واستقر الأمر له ، وتلقب عز الدولة ، وشمس دين الله ، وسيف الدولة ، وقيل إنه تلقب أيضاً جمال الدولة .

وقد عمل عبد الرشيد على طرد السلاجقة من خراسان ، مستعينا فى ذلك بطغرل زوج أخت مودود وحاجبه الذى أرسله إلى هذه البلاد . ولما آنس طغرل من نفسه القوة قصد غزنة حتى أصبح على بعد ستة فراسخ منها ، وحاول خداع عبد الرشيد ، مدعياً بأن الجند تألبوا عليه وألحوا فى العودة للمطالبة بزيادة أرزاقهم . وعلى الرغم من اعتصام عبد الرشيد بقلعته فى غزنة ، قبض عليه طغرل وقتله سنة ٤٤٤ هـ ، واستولى على بلاده وتزوج ابنة مسعود الأول .

ولكن عمل طغرل لم يرض بعض القواد كما أنه لم يرض نائب الغزنويين فى الهند برغم ما بذله من جهود فى إغزائه واستمالته إليه . واتصل هذا الوالى بوجوه القواد ، كما اتصل بزوجة طغرل ، وأنكر على هؤلاء إغضاءهم وقعودهم عن الأخذ بثأر عبد الرشيد . وبذلك أثار هذا الأمير حماسة بعض القواد ، فدخلوا على طغرل وقتلوه ، وولوا فروخ شاه الذى اعتمد على خرخيز نائب الغزنويين فى الهند فى إدارة دولته .

قضى فروخ فى السلطنة سبع سنين فى محاربة أعدائه ، وخاصة السلاجقة ، ولم يأمن جانب قواده ومماليكه . ويحدثنا ابن الأثير (ج ١ ص ٢) فى حوادث سنة ٤٥٠ هـ أن بعض قواده ومماليكه ثاروا عليه واتفقوا على قتله وهو فى الحمام ، ولكنه نجا بمساعدة بعض أنصاره . ويظهر أن هذه الحادثة قد أثرت فى حالته النفسية تأثيراً سيئاً ، حتى إنه أخذ يكثر من ذكر الموت ويحتقر الحياة ولم يعش بعد هذه الحادثة طويلا ، فمات فى شهر صفر سنة ٤٥١ هـ ، وتولى السلطنة من بعده أخوه إبراهيم بن مسعود (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) الذى طالت سلطنته ، وعقد الصلح مع السلاجقة ، وفتح فى الهند كثيراً من القلاع التى امتنعت على أبيه مسعود الأول وجده يمين الدولة محمود الغزنوى من قبل .

وبعد فلما كان بحثنا مقصوراً على العصر العباسى الثانى من عهد المتوكل إلى أن استولى السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧ هـ ، رأينا أن نترك إتمام الكلام على الغزنويين إلى الجزء الرابع من هذا الكتاب إن شاء الله .

على أنه ينبغى ألا نترك هذا الموضوع دون أن نبين ما امتازت به الدولة الغزنوية فى هذا

العصر ، فنقول : إن سلاطين هذه الدولة كانوا سنيين متشددين ، ولذلك حاربوا أهل البدع والأهواء ، كالمعتزلة والجهمية والقرامطة وغيرهم ، كما كانوا يشجعون الفن والثقافة ويغدقون على الشعراء والكتاب والعلماء ، كأبى الفتح العتبى (٤٢٨/١٠٣٦) وأبى الريحان البيرونى (٤٤١ هـ) والفردوسى صاحب الشاهنامة . وكان بعضهم ـ كمحمود الغزنوى ـ كلفا بدراسة الحديث وغيره من علوم الدين ، كما عملوا على نشر الإسلام ، فأنفقوا حياتهم لفتح بلاد الغور والهند . وهدموا الأصنام والمعابد . وكان لهذه الفتوح آثار بعيدة المدى فقد فتح الطريق إلى الهند ، وتوغل المسلمون فيها ، وضموا بلاد البنجاب نهائياً ، وخضع أهالى جوجرات الذين قبلوا تنصيب الراجات عليهم من قبل الغزنويين الذين نصبوا أنفسهم للقضاء على قوات السلاجقة فى خراسان ، والغور فى الأفغان ، وخانات الترك فى بلاد ماوراء النهر . كما استولوا على الرى وأصبهان وغيرها من بنى بويه ، وضموا إليهم خوارزم وطبرستان وبلاد الجبل ، وامتدت بلادهم ـ كما رأينا ـ من لاهور إلى سمرقند وأصبهان[١].

ويمثل ظهور الدولة الغزنوية — كما يقول فيليب حتى[٢] — أول انتصار للعنصر التركى فى صراعه مع العنصر الإيرانى على السيادة النهائية فى الإسلام ومع ذلك فإن الدولة الغزنوية لاتختلف فى أساسها عن الدولة السامانية أو الدولة الصفارية . وإن هذه الدولة المفككة الأوصال إنما حافظت على كيانها بقوة السيف ؛ ولما تراخت اليد التى كانت تقبض على هذا السيف ، لم يكن بد من أن تتداعى هذه الأجزاء التى كانت تتألف منها هذه الامبراطورية وهذا ماحدث بعد موت محمود الغزنوى » .

وقد زالت الدولة الغزنوية على يد شهاب الدين الغورى سنة ٥٨٢ هـ — ١١٨٦ م ، ومن ثم تداعى سلطان الغزنويين فى الهند وانقسمت إلى أسرات إسلامية مستقلة .

---

(١) Lane–Poole : Muhammadan Dydasties, p. 288

(٢) Histoty of The Arabs, p. 9.465

بنو بويه فى فارس

عماد الدولة بن بويه (٣٢٠ — ٣٣٨ هـ) :

رأينا من قبل كيف ولى على بن بويه بلاد الكرج من قبل مرداويج بن زيار الديلمى وكيف أمر أخاه وشمكير بن زيار فى الرى بصرف أولاد بويه ، فصرفهم إلا على بن بويه لما رآه فيه من حسن التدبير ، وكيف ساعده أبو عبد الله محمد الملقب بالعميد والد أبى الفضل بن العميد على المسير إلى بلاد الكرج التى آل إليه حكمها ومع ذلك فقد عمل وشمكير على صرف عماد الدولة عن بلاد الكرج فقال له العميد : « إنه لايرجع طوعا ، وربما قاتل من يقصده ويخرج عن طاعتنا ، فتركه[١] » .

على أن على بن بويه تحبب إلى أهالى الكرج وأحسن إليهم ، وافتتح كثيراً من قلاع الحرمية واستولى على مافيها من الذخائر والأموال ، وأغدق على الأهلين ، فلهجت ألسنتهم بالثناء عليه ، وامتدحوا سيرته ، وأحبه الناس وقصدوه . ولكن الجو لم يصف له ، لموقف مرداويج العدائى منه . وعزمه على طرده من بلاد الكرج ، وحنق بعض ولاته عليه . وملك على بن بويه أصبهان ، فقوى أمره وعلا شأنه فى عيون الناس . لأنه هزم بمائتين من أصحابه آلافا من أصحاب السلطان ، وبلغ ذلك مرداويج فأقلقه[٢] .

ولما أحس مرداويج بن زيار ازدياد نفوذ على بن بويه وعد بأن يمده بجيوش يفتتح بها ماحوله من البلاد باسمه ، وأن يؤول حكمها إليه مع إقامة الخطبة لمرداويج على منابرها وأرسل فى الوقت نفسه أخاه وشمكير على رأس جيش كثيف يفاجىء به على بن بويه فى أصبهان وهو مطمئن إلى وعوده . ولكن على بن بويه أدرك سوء نية مرداويج ، فرحل عن أصبهان .

ثم استولى على شيراز ، ثم لم يلبث أن استقر نفوذه فى فارس ، وكتب إلى الخليفة العباسى الراضى وإلى وزيره أبى على بن مقلة ، يعلن طاعته ويطلب إقراره على مابيده من البلاد ، ويتعهد بأداء ألف ألف درهم فى كل سنة ، فأجيب إلى طلبه ، وأقر على ولاية فارس ، وأرسلت إليه الخلع[٣]

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٩٢ (٢) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .
(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٩٤ — ٩٥

ولما قتل مرداويج سنة ٣٢٣ هـ ، ولم يبق أمام على بن بويه إلا مناوأة ياقوت الذى استولى على الأهواز وحاربه بنواحى أرجان ، وأصبح يخشى بأسه ، وكان — كما يقول ابن خلكان[١] — سبب سعادة بنى بويه وانتشار صيتهم ، واستيلائهم على البلاد ، وامتلاكهم العراقين والأهوار ، وسياستهم أمور الرعية أحسن سياسة .

وفى سنة ٣٣٤ هـ لقب الخليفة المستكفى على بن بويه عماد الدولة، ولقب أخاه الحسن ركن الدولة . ولقب أخاه أحمد معز الدولة ؛ ومن ثم أصبح بنو بويه أصحاب الأمر والنهى فى بغداد .

وكانت علاقة عماد الدولة على فى فارس بأخويه معز الدولة أحمد فى العراق وركن الدولة حسن فى الرى وهمذان وأصبهان ، تقوم على أساس متين من المودة والصفاء . فقد كان معز الدولة صاحب أمر الخلافة يومئذ « يحب أخاه عماد الدولة ويحترمه ، ويكاتبه بالعبودية ويقبل الأرض بين يديه إذا اجتمعا ، مع عظم سلطانه لكونه أكبر سنا[٢] » .

وليس أدل على ماساد بين أولاد بنى بويه من وئام ووفاق ومودة من أن عماد الدولة علياً لما أحس بالموت أرسل إلى أخيه ركن الدولة يطلب إليه ابنه عضد الدولة ليوليه عهده بفارس ، لأنه لم يكن له ولد ذكر .

عضد الدولة (٣٣٨ — ٣٧٢ هـ) :

لما مات عماد الدولة فى سنة ٣٣٨ هـ ، تولى بلاد فارس بعده ابن أخيه عضد الدولة ولكن نفوذه لم يستقر فى هذه البلاد بسبب سخط بعض قواد البويهيين عليه ، لولا تدخل عمه معز الدولة صاحب بلاد العراق . وأبيه ركن الدولة صاحب الرى وهمذان وأصبهان[٣] . واستمرت العلاقة بين عضد الدولة وعمه معز الدولة على أساس من المودة والصفاء ، حتى آلت السلطة إلى بختيار ، فاتخذ عضد الدولة من سوء سياسة ابن عمه فرصة لبسط نفوذه على البلاد التابعة له . ففى سنة ٣٥٧ هـ قامت الثورة فى بلاد كرمان ، فاستولى عليها عضد الدولة وأقطعها ابنه أبا الفوارس ، الذى ولى بعده ولقب شرف الدولة (٣٧٢ - ٣٧٩ هـ) . كذلك اتخذ عضد الدولة من ضعف نفوذ بختيار فى عمان فرصة لإقامة الدعوة لنفسه فيها

---

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٦٤ (٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٠٠

(٣) ابن الاثير ج ٨ ص ١٧٤ .

وبسط نفوذه عليها فلما ثار الزنج على عامل عضد الدولة وقتلوه وولوا عليها رجلا منهم ، أرسل من كرمان جيشاً استرد هذه البلاد فى سنة ٣٦٢ هـ ، ثم قضى على الثوار نهائياً فى السنة التالية[١]، ثم ولما مات ركن الدولة فى سنة ٣٦٦ هـ عم عضد الدولة شطر العراق وحارب جيوش بختيار فى واسط ، وأحل به الهزيمة فى تكريت وأسره ، وبعث به إلى بغداد حيث قتل وخلع عليه الخليفة الطائع[٢]. وبذلك امتد نفوذ عضد الدولة إلى العراق والأهواز وكرمان وفارس ، ثم إلى البلاد الممتدة بين همذان والرى التى استولى عليها من أخيه فخر الدولة فى سنة ٣٦٩ هـ ، وأناب عنه فى حكمها أخاه مؤيد الدولة .

شرف الدولة — صمصام الدولة (٣٧٢ — ٣٨٨ هـ) :

رأينا أن عضد الدولة لما استولى على كرمان فى سنة ٣٥٧ هـ أقطعها ابنه شرف الدولة الذى خرج بعد موت أبيه فى سنة ٣٧٢ هـ من كرمان إلى فارس ، « وقبض على نصر بن هارون النصرانى وزير أبيه وقتله لأنه كان يسىء صحبته أيام أبيه، وأطلق الشريف أبا الحسين محمد بن عمر العلوى ، والنقيب أبا أحمد الموسوى والد الشريف الرضى ، والقاضى أبا محمد ابن معروف ، وأبا نصر خواشاذة ، وكان عضد الدولة قد حبسهم ، وأظهر العداء لأخيه صمصام الدولة وقطع خطبته ، وأقام الخطبة لنفسه ، وتلقب بتاج الدولة ، واستولى على البصرة ، وأقطعها أخاه أبا الحسين ، فبقى كذلك ثلاث سنين إلى أن قبض عليه شرف الدولة [٣] .

ويظهر أن صمصام الدولة كان يخشى منافسة أخيه الأكبر شرف الدولة . لذلك نراه بعد أن يلى أمور العراق يخلع على أخويه أبى الحسين أحمد وأبى طاهر فيروز شاه ، ويقطعهما فارس ، ويأمرهما بأن يحولا دون وصول أخيهما شرف الدولة إليها . غير أن شرف الدولة كان قد سبقهما إلى احتلالهما فعاد إلى الأهواز . ومن ثم قامت الحرب بين صمصام الدولة وشرف الدولة الذى انتصر على أخيه واستقل بالأهواز سنة ٣٧٣ هـ [٤] .

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢١٠ ـ ٢٣٢ — ٢٣٣

(٢) مسكويه : جـ ٢ ص ٣٨٠ ـ ٣٨٦ .

(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ٩ .

(٤) مسكويه : جـ ٣ ص ١٢٠ ـ ١٢٤

وفى سنة ٣٧٥ هـ قصد شرف الدولة الأهواز واستولى عليها ، وأرغم أخاه أبا الحسين على الفرار ، ثم استولى على البصرة وقبض على أخيه أبى طاهر فيروز شاه . وخشى صمصام الدولة ازدياد خطر أخيه شرف الدولة ، وتم الصلح بينهما ، ويقضى بأن يذكر اسم شرف الدولة على المنابر فى بلاد العراق قبل اسم أخيه وأن يكون نائبا عن أخيه فى حكم العراق ، وأن يطلق صمصام الدولة أخاه بهاء الدولة أبا نصر ويسيره إليه. وخلع الخليفة الطائع على شرف الدولة كما جرت العادة بأن يخلع على كل من تئول إليه السلطة .

ولكن هذا الصلح لم يطل وعاد شرف الدولة عن الصلح وقصد بغداد ، واستولى على بلاد العراق من يد أخيه صمصام الدولة فى سنة ٣٧٦ هـ ، وساق أخاه إلى فارس حيث اعتقل فى إحدى قلاعها ، وسملت عيناه .

فلما مات شرف الدولة فى سنة ٣٧٩ هـ فر صمصام الدولة من معتقله ، والتف حوله كثير من الديلم ، واستأنف الصراع بينه وبين أخيه بهاء الدولة الذى آل إليه حكم بلاد العراق بعد أخيه شرف الدولة ، كما قامت الحرب بينه وبين أبى على بن شرف الدولة فى فارس وكان يليها من قبل أبيه . وفى سنة ٣٨٠ هـ انتصر صمصام الدولة على جيش بهاء الدولة على مقربة من شيراز ، وعقد الصلح بينهما ، على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان ، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق [١] . وصاحب حسن الطالع صمصام الدولة ، فأحرز الانتصارات المتصلة باستيلاء جيوشه على الأهواز سنة ٣٨٥ هـ ، وعلى خوزستان والبصرة سنة ٣٨٦ هـ ، وكادت تقع بلاد العراق فى قبضته لولا تدخل مهذب الدولة صاحب البطيحة . وانتهت هذه الحروب بعقد الصلح بين بهاء الدولة وصمصام الدولة ، على أن يخطب لهما ولمهذب الدولة فى البصرة . ولم ينته ذلك الصراع إلا باغتيال صمصام الدولة فى سنة ٣٨٨ هـ على يد أبى نصر أخذا بثأر أبيه بختيار الذى قتله عضد الدولة . وكان صمصام الدولة حين قتل فى الخامسة والثلاثين من عمره [٢] .

---

(١) أبو شجاع : ذيل تجارب الامم لمسكويه جـ ٢ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٢) راجع أسباب اغتيال صمصام الدولة فى ابن الاثير جـ ٩ ص ٥٣ .

بهاء الدولة — سلطان الدولة (٣٨٨ — ٤١٥ هـ) :

ولما قتل صمصام الدولة استولى ابنا بختيار هذان على فارس، وتلقب أولهما نور الدولة ومحيى الأمة ، وتلقب ثانيهما حسام الدولة سيد الأمة ، ولكن بهاء الدولة أحل بهما الهزيمة ، واستولى على فارس فى سنة ٣٨٩هـ[١] ، ثم قصد شيراز، واستأصل شأفة أنصار أبناء بختيار ، وأخرج جثة أخيه صمصام الدولة ودفنها فى مقبرة بنى بويه بشيراز ، ثم استولت جيوشه على كرمان[٢] .

وفى سنة ٣٩٠ هـ عاد أبو نصر بن بختيار ، وكان قد هرب إلى بلاد الديلم بعد أن حلت به الهزيمة بشيراز سنة ٣٨٩ هـ ، إلى فارس ، والتف حوله عدد كبير من الديلم والأراك والزط ، ثم قصد كرمان وحارب عامل بهاء الدولة فيها، واستولى على أغلب بلادها، وأثار قلق بهاء الدولة الذى سير إليه جيشا أحل به الهزيمة وقتله[٣] ، وبعث برأسه إلى بهاء الدولة وبذلك استقر سلطان بهاء الدولة فى فارس وكرمان إلى أن مات فى سنة ٤٠٣ هـ، فخلفه ابنه سلطان الدولة أبو شجاع ، وكان قد عهد إليه بالسلطنة فى العراق وفارس وما يليهما من بعده .

وقد ذكرنا من قبل أن سلطان الدولة استهل سلطنته بتولية أخويه جلال الدولة البصرة وقوام الدولة أبى الفوارس كرمان ، وأن الشقاق دب بينه وبين أخيه قوام الدولة الذى أغراه الديلم بحرب أخيه ، فاستولى على شيراز ثم على كرمان ، التى استردها سلطان الدولة فى السنة التالية بمساعدة محمود الغزنوى، وانتهى الأمر بإعادة كرمان إلى قوام الدولة واعترافه بسلطان أخيه . كما تعرض نفوذ سلطان الدولة للخطر بسبب مناوأة أخيه مشرف الدولة الذى استخلف على العراق (٤١١ — ٤١٦ هـ) وخطب له ببغداد فى (٤١٢ هـ) وانتهى هذا النزاع بعقد الصلح على أن يكون العراق لمشرف الدولة وفارس وكرمان لسلطان الدولة الذى لم يلبث أن توفى سنة ٤١٥ هـ .

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٥٦ .
(٢) مسكويه جـ ٣ ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .
(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ٦٠ — ٦١ .

عماد الدولة أبو كاليجار (٤١٥ — ٤٤٠هـ) :

لما توفى سلطان الدولة الذى آل إليه ملك فارس لم يصف الجو لابنه أبى كاليجار وأصبحت فارس مركزا للنزاع وتقلبت هذه البلاد بين أبى كاليجار وعمه أبى الفوارس حتى استولى أبو كاليجار عليها نهائيا فى سنة ٤٤٧ هـ [1] .

وقد ذكر ابن الأثير (جـ٩ ص ١٣٤ — ١٣٥) فى حوادث سنة ٤١٨ هـ أن نفوذ أبى كاليجار امتد إلى جنوبى العراق، وأن أهالى البطيحة ثاروا عليه فأخضعهم لنفوذه ، وأن الحرب تجددت بينه وبين عمه أبى الفوارس صاحب كرمان ، وأن الصلح عقد بينهما على أن تكون كرمان لأبى الفوارس وفارس لأبى كاليجار ، وأن يدفع أبو كاليجار لعمه عشرين ألف دينار فى كل سنة .

وفى سنة ٤١٩ هـ استولى أبو كاليجار على البصرة وطرد منها الملك العزيز بن جلال الدولة ، واستولى فى السنة نفسها على كرمان على أثر وفاة صاحبها أبى الفوارس بغير قتال، ثم على مدينة واسط (٤٢٠ هـ) ولكن جلال الدولة لم يلبث أن استردها ، كما استرد البصرة (٤٢١ هـ) التى أصبحت مركزا للصراع بينه وبين أبى كاليجار الذى خطب له على منابرها فى سنة ٤٢٤ هـ .

على أن تولية أبى كاليجار السلطنة فى بلاد العراق (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) لم تشغله عن الاهتمام بشئون فارس وتستنفد الكثير من صحته ، حتى إنه مات سنة ٤٤٠ هـ وهو فى طريقه لإخماد ثورة نائبه بكرمان .

وفى عهد أبى نصر فيروز الملك الرحيم بن أبى كاليجار (٤٤٠ — ٤٤٧ هـ) زال سلطان البويهيين فى فارس والعراق . ولا غرو فقد ورث هذا السلطان عن أبيه تركة مثقلة بالمتاعب والأخطار فى الداخل والخارج . ففى الداخل نرى انقسام أفراد هذا البيت بعضهم على بعض : فهناك الملك عبد العزيز بن جلال الدولة، كان يطمع فى السلطنة ويحارب الملك الرحيم فى البصرة ، لولا أن حالت وفاته فى سنة ٤٤١ هـ دون تحقيق أمنيته ، وهناك أيضا أبو منصور بن أبى كاليجار (أخو الملك عبد الرحيم) يستولى على الأهواز (٤٤١ هـ) .

---

١) ابن الاثير جـ ٩ ص ١٢٥ — ١٢٦

ولولا شغب الجند عليه لخرجت هذه البلاد عن سلطان الملك الرحيم. وتجددت متاعب هذا السلطان بخروج أخيه أبى منصور عليه من جديد، واستيلائه على الأهواز ومطاردة جيوشه إلى واسط، كما حارب أيضا أخاه أبا على فناخسرو فى البصرة، وإن كان قد تم له النصر عليه. وهكذا أصبحت أمهات مدن العراق وفارس مركزاً للصراع بين الملك الرحيم وبين إخوته وأقاربه.

أما فى الخارج فقد ازداد نشاط السلاجقة وتفاقم خطرهم وقويت أطماعهم فى الاستيلاء على فارس والعراق، بل على الشام ومصر. وشجعهم على تحقيق هذه الأمانى ضعف بنى بويه فى أواخر أيامهم، واستعانة العباسيين بمنافسيهم السلاجقة لتخليصهم من استبداد البويهيين. وقد تمكن السلاجقة أخيراً من الاستيلاء على أملاك بنى بويه فى فارس والعراق كما كانت مناوأة أبى الحارث البساسيرى للخليفة العباسى المطيع من أهم الأسباب التى عجلت بسقوط هذه الدولة، بعد أن حكمت كثيراً من البلاد الإسلامية أكثر من قرن.

بنو بويه فى الري وهمذان وأصبهان

ركن الدولة (٣٣٠ — ٣٦٦هـ):

بينا من قبل كيف تألق نجم أولاد بويه فى أوائل القرن الرابع الهجرى، فمد عماد الدولة نفوذه فى فارس، واستولى ركن الدولة الذى كان رهينة عند مرداويج بن زيار على أصبهان والرى وهمذان وسائر بلاد العراق العجمى. واستولى معز الدولة على الأهواز. وفى سنة ٣٣٤ هـ استعان الخليفة العباسى المستكفى بأحمد بن بويه لتخليصه من شر الأتراك، وطلب إليه المسير إلى بغداد، ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه عليا عماد الدولة، ولقب أخاه أبا على الحسن ركن الدولة.

وفى سنة ٣٢٧ هـ بدأ الصراع بين ركن الدولة الحسن وبين وشمكير بن زيار الديلمى أخى مرداويج بن زيار، الذى عز عليه استيلاء ركن الدولة على البلاد التى كانت بيد أخيه فأرسل إليه جيشاً طرده من أصبهان، فاضطر ركن الدولة إلى التقهقر إلى بلاد فارس، ثم سار فى السنة التالية إلى واسط ليمد نفوذه منها إلى ماجاورها من البلاد، ولكنه اضطر أمام مقاومة البريديين والخليفة الراضى وبجكم إلى التقهقر نحو الأهواز. وفى هذه

السنة نفسها عاد ركن الدولة إلى أصبهان واستولى عليها وطرد أصحاب وشمكير منها ، واتفق هو وأخوه عماد الدولة مع أبى على بن محتاج قائد نصر بن أحمد السامانى بخراسان وأخذ يحرضانه على ما كان ابن كالى ووشمكير ، ويعدانه المساعدة عليهما . وقد رمى ركن الدولة وعماد الدولة ابنا بويه من وراء صداقتهما لابن محتاج إلى بسط نفوذهما على بلاد وشمكير[١]. ولم يكتف ركن الدولة بذلك ، بل سار فى سنة ٣٢٩ هـ إلى الرى حيث حارب جيوش وشمكير وانتصر عليها ، وانضم إليه عدد كبير منهم[٢] ، وقد تحققت سياسة ابنى بويه ركن الدولة على الرى فآلت إليهما أعمال الرى والجبل وفارس والأهواز والعراق وجبى باسمهما خراج الموصل وديار بكر وديار مضر (٣٣٥ هـ) .

على أن ركن الدولة لم يتمتع بالهدوء فى بلاده التى تتعرض لهجمات منافسيه الكثيرين وكان من أشد هؤلاء خطراً ، وشمكير بن زيار الديلمى ، وأمراء الساسانيين . ولكن موت وشمكير بن زيار فجأة ، أبعد هذا الخطر الذى كان يهدد بلاد ركن الدولة[٣].

وكان ركن الدولة يعمل على أن يكون البويهيون قوة متحدة متماسكة تقف فى وقت الخطوب يداً واحدة ، كما كانت العلاقة بين معز الدولة وعماد الدولة وركن الدولة أولاد بويه تقوم على أساس المودة والصفاء ، واحترام الصغير لمن هو أكبر منه سنا ، كما كانت تقوم على أساس احترام العهود والمواثيق حتى مع غير بنى بويه . وقد رأينا ذلك واضحاً جلياً ، حين تهددت بلاد ركن الدولة لخطر وشمكير والساسانيين ، وعندما استنجد عز الدولة بختيار بابن عمه عضد الدولة صاحب فارس الذى طمع فى بلاده واتخذ من ضعفه فرصة للوصول إلى السلطنة ، فأنكر أبوه ركن الدولة عليه عمله وهدده بالمسير إليه فى العراق ، ورد بختيار إلى سلطنته فيها .

كان عماد الدولة أكبر أولاد أبيه ، وركن الدولة أوسطهم ومعز الدولة أصغرهم. «وكان ركن الدولة ـ كما وصفه ابن خلكان (ج ١ ص ١٤١) ـ ملكا جليل المقدار عالى الهمة» .

اشتهر ركن الدولة بحسن الخلق وعفة اللسان والعفو عند المقدرة . ذكر ابن الأثير (ج ٨ ص ٢٠٨) أن وشمكير ابن زيار الديلمى كتب إلى ركن الدولة يتهدده بضروب من

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٧ ، ١٣٠ . (٢) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٨ .
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

الوعيد والتهديد ويقول : والله لئن ظفرت بك لأفعلن بك ولأصنعن ، بألفاظ قبيحة ، فلم يتجاسر الكاتب أن يقرأه ، فأخذه ركن الدولة فقرأه وقال للكاتب : اكتب إليه . أما جمعك وأحشادك ، فما كنت قط أهون منك على الآن ، وأما تهديدك وإبعادك ، فوالله لئن ظفرت بك لأعاملنك بضده ، ولأحسنن إليك ولأكرمنك .

ولما كتب ركن الدولة إلى عضد الدولة يلومه على مافعل مع ابن عمه بختيار ، وعزمه على إبعاده عن السلطنة فى العراق وانتزاعها منه ويتهدده إن هو أصر على تنفيذ أغراضه ذكر له حسن معاملته لأصدقائه وأعدائه على السواء ، ووفائه بوعوده فقال « أما عرفت أنى نصرت الحسن بن الفيرازان وهو غريب منى مراراً كثيرة أخاطر فيها بملكى ونفسى؟ فإذا ظفرت أعدت له بلاده ، ولم أقبل منه ماقيمته درهم واحد ، ثم نصرت إبراهيم بن المرزبان وأعدته إلى أذربيجان ، وأنفذت وزيرى وعساكرى فى نصرته ، ولم آخذ منه درهما واحداً . كل ذلك طلباً لحسن الذكر ومحافظة على الفتوة[1] .

وتوفى ركن الدولة فى سنة ٣٦٦ هـ بعد حياة طويلة حافلة بالنصر والظفر ومكارم الأخلاق ، وكان فى الثانية والثمانين من عمره .

أولاد ركن الدولة (٣٦٦ — ٤٢٠ هـ) :

ذكرنا أن ركن الدولة ولى عهده ابنه عضد الدولة وجعل لولده فخر الدولة همذان وأعمال الجبل ، ولولده مؤيد الدولة أصبهان وأعمالها ، على أن يحكما هذه البلاد بإشراف أخيهما عضد الدولة . وكان عضد الدولة يخشى أخاه فخر الدولة ويخاف اتصاله ببختيار واتحادها عليه ، فعول على أخذ بلاد العراق على بلاد أخيه فخر الدولة فى سنة ٣٦٩ هـ فأخذ عضد الدولة ماكان بيد فخر الدولة ، وأناب أخاه مؤيد الدولة عنه فى حكم هذه البلاد[2] .

ولما مات عضد الدولة سنة ٣٧٢ هـ ، ولحق به أخوه مؤيد الدولة اختار قواده أخاه فخر الدولة ، وأشار الصاحب بن عباد باختياره لكبر سنه ووافر هيبته . واتخذ فخر الدولة الصاحب بن عباد وزيراً له ، وخلع عليه الخليفة العباسى الطائع ، وقامت العلاقة بين

---

(١) ابن الاثير جـ ٨ ص ٢٣٥

(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٢٥٦ .

كل من فخر الدولة وابنى أخيه صمصام الدولة وشرف الدولة ابنى عضد الدولة على أساس الوفاق واتحاد المصلحة(١).

ولكن هذه العلاقة تبدلت فى عهد بهاء الدولة فى العراق (٣٧٩ — ٤٠٣ هـ) . فقد طمع فخر الدولة كما طمع أخوه عضد الدولة من قبل فى الاستيلاء على بلاد العراق وشجعه وزيره الصاحب بن عباد على فتحها ليتقلد الوزارة فى بغداد . ولكن بهاء الدولة صاحب العراق سير إليه جيشاً التقى به على مقربة من خوزستان وأحل به الهزيمة(٢).

وكان فخر الدولة ، بحكم قرب بلاده من بلاد السامانيين ، فى عداء مع أمرائهم وكان يقوم بمساعدة الخارجين عليهم ، كما حدث فى مساعدته أبا على بن محتاج وفائق الخاصة على نوح الثانى بن منصور السامانى فى سنة ٣٨٤ هـ .

توفى فخر الدولة فى سنة ٣٨٧ هـ ، وقام بالأمر من بعده ابنه مجد الدولة أبو طالب رستم (٣٨٧ — ٤٢٠) الذى لم يجاوز الرابعة من عمره ، على أن يلى أخوه شمس الدولة أبو طاهر همذان وقرميسين إلى حدود العراق ، وكان لأمه مركز خاص فى إدارة شئون دولة ابنها الصغير . واستعانت فى ذلك الأمر ببعض الأمراء . ولكن ذلك لم يحل دون طمع أمراء البلاد المجاورة لبلاده . فقد طمع فيها شمس المعالى قابوس ابن وشمكير بن زيار الديلمى ، واستولى على جرجان ومزق جيوش مجد الدولة شر ممزق .

ولم يتوطد ملك مجد الدولة فى عهده الطويل الذى بلغ ثلاثا وثلاثين سنة . ويرجع ذلك إلى صغر سنه كما تقدم ، وطمع بعض الأمراء فى السلطنة ، واستبداد أمه بالأمر دونه ، « حتى جعلته كالمحجور عليه » ، مما أثار حنقه عليها ، وجعله يعمل على التخلص من نفوذها . فلما فطنت إلى مايراد بها ، هربت من الرى ، واستعانت بابنها الثانى شمس الدولة أبى طالب صاحب همذان وقرميسين ، كما استعانت ببدر بن حسنويه الكردى أمير الجبل من قبل مجد الدولة ، الذى استعان به من قبل زوجها فخر الدولة على بهاء الدولة . ثم عادت إلى الرى ، وحبست مجد الدولة ، وأجلست ابنها شمس الدولة على العرش فى سنة ٣٩٠ هـ . فتقلد الأمور نحواً من سنة « صارت فيها تعطى الأمر وتسمع رسائل الملوك وتعطى الأجوبة وأثارت بذلك حنق شمس الدولة الذى أصبح معها كالمحجور عليه ،

---

(١) ابن الاثير جـ ٩ ص ١٠ .

(٢) ابو شجاع : جـ ٣ ص ١٦٦ ، ١٦٩ .

فأعادت أخاه شمس الدولة إلى الملك لأنه ألين عريكة. وسرعان ما ازدادت مطامع شمس الدولة ، فعمل على إقصاء أخيه وأمه من بلاد الرى ، وأرغمهما على الرحيل عنها ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى همذان على أثر شغب الجند عليه[١] .

ولم تطل أيام أولاد ركن الدولة فى همذان وقرميسين ؛ فقد استعان شمس الدولة بعلاء الدولة أبى جعفر بن كاكويه ، وكان يلى أصبهان من قبل مجد الدولة ، على الأتراك الذين تفاقم شرهم وكثرت مشاغباتهم عليه . وعلى الرغم من قضائه عليهم فى سنة ٤١٤ هـ أخذت قوته تضعف سريعاً وسلطانه يضمحل ، وتمكن ابن كاكويه من انقضاء على ابنه أسماء الدولة فى سنة ٤١٤ هـ ، وزال سلطان ركن الدولة وأولاده نهائيا من هذه البلاد .

كذلك لم تطل أيام أولاد ركن الدولة فى الرى ، فإن مجد الدولة بن فخر الدولة ، الذى استبدت أمه بالأمر دونه ، وانصرف إلى المطالعة والدرس واختلت أحوال بلاده بعد وفاة أمه ، استنجد فى سنة ٤٢٠هـ بيمين الدولة محمود الغزنوى ، فأرسل إليه جيشا قبض عليه وعلى ابنه أبى دلف ، واستحوذ على ما كان فى خزائنه من الأموال ، كما استولى على الرى وأزال عنها سلطان البويهيين نهائياً .

الدولة الحمدانية[٢]

(فى الموصل وحلب وغيرها)

٣١٧ — ٣٩٤ / ٩٢٩ — ١٠٠٣

١ — فى الموصل

	هجرية	ميلادية
١) ناصر الدولة أبو محمد الحسن	٣١٧	٩٢٩
٢) عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر	٣٥٨	٩٦٨
	٣٦٩	٩٧٩
٣) أبو طاهر إبراهيم	٣٧١	٩٨١
أبو عبد الله الحسين	٣٨٠	٩٩١

(البويهيون والعقيليون)

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٧٦ و ٩٢ — ٩٣ .

(٢) Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 112—3

٢ — فى حلب

	هجرية	ميلادية
١) سيف الدولة أبو المحاسن على	٣٣٣	٩٤٤
٢) سعيد الدولة أبو المعالى شريف	٣٥٦	٩٦٧
٣) سعيد الدولة أبو الفضائل سعد	٣٨١	٩٩١
٤) أبو الحسن على	٣٩٢	١٠٠١
أبو المعالى شريف	٣٩٤	١٠٠٣

(الفاطميون)

جدول يمثل أمراء الحمدانيين

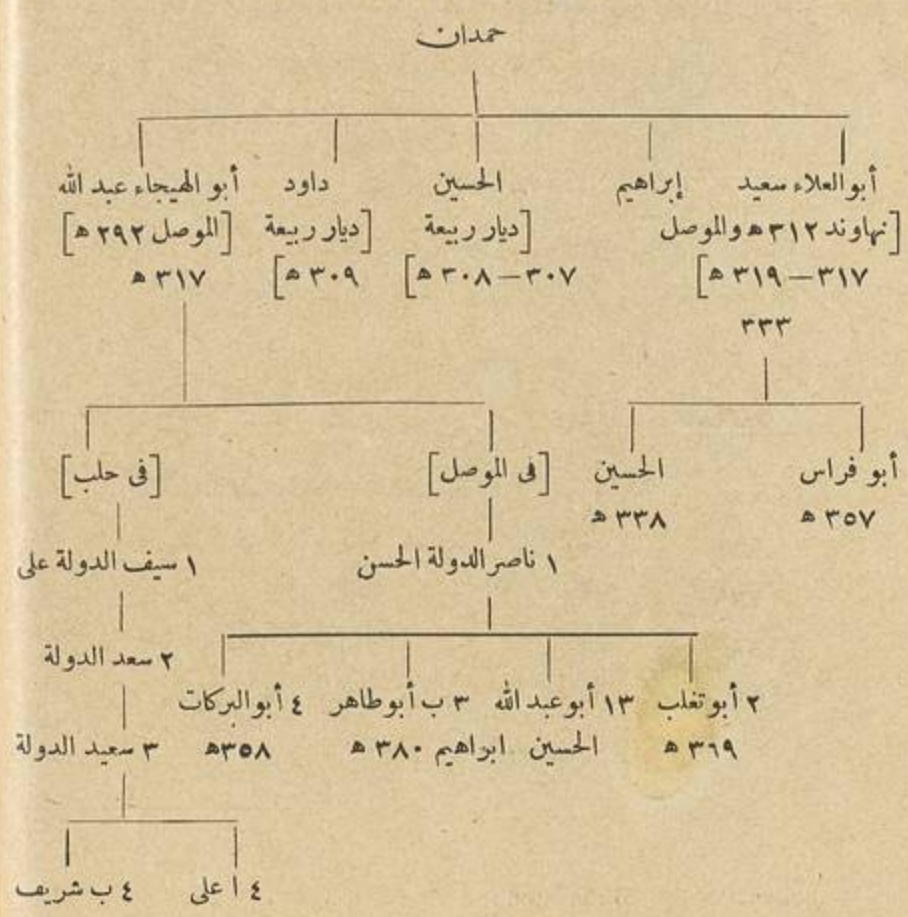

الحمدانيون فى الموصل

ناصر الدولة (٣١٧ — ٣٥٨ هـ) :

ينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب العربية الأصل التى قامت بضواحى مدينة الموصل ، وقد قام حمدون بدور هام فى الحوادث السياسية التى وقعت فى هذه المدينة منذ سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) . وقد تحالف مع هارون الشارى الخارجى فى سنة ٢٧٢ هـ . واستولى على قلعة ماردين بعد ذلك بقليل ، وحاربه الخليفة المعتضد فى سنة ٢٨١ هـ ، فهرب حمدان تاركا ابنه الحسين عليها . واستولى الخليفة على ماردين ، وطارد حمدان وظفر به بعد قليل ، وسجنه فى بغداد ؛ واستمر فى سجنه حتى هزم ابنه الحسين هارون الخارجى وخلع عليه المعتضد . وطوقه وخلع على إخوته ... وأمر بحل قيود حمدان ابن حمدون[١] والتوسعة عليه والإحسان إليه ووعد بإطلاقه»[٢] .

من ذلك الوقت بدأت شهرة الحمدانيين ، فاشتهر الحسين بن حمدان فى حروبه مع القرامطة ومناصرته عبد الله بن المعتز الذى استولى على الخلافة من المقتدر مدة قصيرة ، فكرهه المقتدر وأقصاه ثم عفا عنه بتوسط أخيه إبراهيم ، وولاه قم وقاشان ، ولكنه لم يلبث أن تنازع مع الخليفة المقتدر ، فحبسه حتى مات فى سنة ٣٠٦ هـ .

قلد الخليفة المقتدر أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان الموصل ومايليها فى سنة ٢٩٢ هـ ، وولى أخاه ابراهيم ديار ربيعة فى سنة ٣٠٧ هـ ، فظل بها إلى أن خلفه عليها أخوه داود سنة ٣٠٩ هـ ، كما ولى أخاه سعيداً نهاوند فى سنة ٣١٢ هـ ، وقلد غيرهم من بنى حمدان بعض مناصب الدولة ، وأناب عبد الله بن حمدان ابنه ناصر الدولة الحسن عنه فى حكم الموصل ٣٠٨ هـ ، واستطاع أن يحتفظ بنفوذه فيها إلى أن مات فى سنة ٣٥٨ هـ ، إلا فترة قصيرة لاتزيد على سنتين (٣١٧ — ٣١٩ هـ). كما استطاع أن يمد نفوذه على جميع أرجاء ديار بكر وديار ربيعة ، ولقبه الخليفة المتقى فى شهر شعبان سنة ٣٣٠ هـ ناصر الدولة ، ولقب أخاه سيف الدولة[٣] .

---

(١) وردت فى ابن الأثير ج ٧ ص ١٧ ابن حمدان . (٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٦٦ — ١٦٧ ، ١٦٩ — ١٧٠ .
(٣) مسكويه : تجارب الامم ج ٢ ص ٢٨ .

سطع نجم ناصر الدولة بن حمدان فى أفق الدولة العباسية ، كما رأينا ، وتقلد إمرة الأمراء فى هذه السنة بعد أن قتل ابن رائق ونال رضاء الخليفة المتقى لله[١]؛ فأصلح السكة ولكنه اشتط فى فرض الضرائب ، فغلت الأسعار ، وعز الطعام واللباس ، وضيق على الخليفة المتقى لله فى نفقاته ، وانتزع منه ضياعه وأثار بذلك حنق الخليفة وسخط الناس عليه[٢].

وقامت الحروب الأهلية بينه وبين البريديين من ناحية وبين هؤلاء والبويهيين من ناحية أخرى[٣] ، وانتهز الخليفة فرصة خروجه إلى الموصل ، فاستنجد بتوزون ومهد له السبيل لدخول بغداد (سنة ٣٣١ هـ) . ولم يستطع زعماء الحمدانيين من العرب البقاء فى بغداد أكثر من سنة واضطروا إلى العودة إلى الموصل .

وسرعان ما قام العداء بين توزون والخليفة العباسى الذى لجأ إلى ناصر الدولة بن حمدان وقامت الحرب بين الفريقين فى عكبرة، وتبعد عن بغداد بعشرة فراسخ ، وانهزم ابن حمدان والخليفة إلى الموصل ثم إلى نصيبين . وقد شجعت هزائم الحمدانيين على ضياع الموصل وعقد الصلح بين توزون وابن حمدان ، الذى أقر على ما بيده من البلاد ثلاث سنوات ، على أن يؤدى ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم فى كل سنة .

ولم يقف النزاع بين توزون والبريديين من ناحية وبينه وبين الحمدانيين والخليفة المتقى من ناحية أخرى ، حتى إن الخليفة مل من الحمدانيين وكاتب توزون فى الصلح . ولكن محمد بن طغج الإخشيد الذى التقى بالخليفة فى الرقة ، نصح له بالمسير معه إلى مصر ، ولكنه عاد إلى بغداد ، وكان الخليفة المتقى يستعين على توزون تارة بناصر الدولة بن حمدان فى الموصل وببنى بويه الذين أخذت قوتهم فى الازدياد تارة أخرى ، ولكن ذلك لم يغنه شيئا ، فقد سمله توزون وحبسه ، وولى المستكفى الخلافة (صفر سنة ٣٣٣ هـ) [٤] ثم مات توزون بعد قليل (المحرم سنة ٣٣٤ هـ) . وتولى ابن شيرزاد إمرة الأمراء . وقد قيل إنه رغب فى تحويل إمرة الأمراء إلى ناصر الدولة بن حمدان ، إلا أن الجند أبوا عليه ، وأقرهم الخليفة على ذلك .

---

(١) ابن الاثير جـ ٨ ص ١٣٥ .
(٢) أبو بكر الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٤٠ ، ٢٤٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٣ — ٢٣٧ .
(٤) الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

وسرعان مادخل بنو بويه بغداد (٣٣٤هـ) ، ودخلت العلاقة بين البويهيين والخلافة العباسية فى طور جديد . وكانت سياسة بنى بويه ترمى إلى الحد من نفوذ الحمدانيين فى الموصل ؛ فنرى معز الدولة بن بويه يسير بصحبة الخليفة المطيع لمحاربة ناصر الدولة، ويلتقى الجيشان عند عكبرة ويتمكن ابن شيرزاد من أن يدخل بغداد ويحكمها باسم ناصر الدولة، ثم يلحق به هذا بعد قليل ويخطب للمتقى على منابر بغداد ويضرب السكة باسمه ، ولم يستطع معز الدولة أن يسترد بغداد إلا بعد أربعة أشهر ، وأرغم ناصر الدولة على الارتداد إلى الموصل ، وعقد الصلح بينهما فى أوائل سنة ٣٣٥ هـ ؛ ولكن العلاقة بين الحمدانيين والبويهيين لم تستقر نهائيا ، بل أخذ النزاع يدب بينهم من حين إلى حين .

وفى سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ — ٩٥٧ م) اتخذ ناصر الدولة بن حمدان ، من خروج معز الدولة من بغداد لإخماد الثورة فى الأهواز ، فرصة لدخول بغداد والاستيلاء عليها . ولما قضى معز الدولة على هذه الثورة ، رحل الحمدانيون عن بغداد ، وامتنع ناصر الدولة عن إرسال الأموال المقررة لدار الخلافة ، فاستولى معز الدولة على الموصل ونصيبين ، وأرسل جيشا إلى الرحبة ، وأرغم ناصر الدولة على الهرب إلى ميافارقين ثم إلى حلب التى استقل بها أخوه سيف الدولة ، ولم يتم الصلح بينه وبين معز الدولة إلا بعد أن تدخل سيف الدولة وأخذ على عاتقه أداء ماعلى أخيه من الأموال [١] .

ويظهر أن الحوادث التى تتابعت على ناصر الدولة الحمدانى قد أثرت فى حالته النفسية تأثيراً شديداً . فضمان أخيه سيف الدولة له بأن يقوم بدفع الأموال المقررة عليه لمعز الدولة (٣٤٧ هـ) ، وطلب البويهيين زيادة هذه الأموال ، وتوغل جيوشهم فى البلاد التابعة لناصر الدولة وعقد معز الدولة لابنه أبى تغلب ضمان الموصل وديار ربيعة والرحبة وماكان فى يده بمال مقرر (٣٥٣ هـ) . وموت أخيه سيف الدولة الذى كان شديد المحبة له (٣٥٦ هـ) كل ذلك حز فى نفسه ، حتى تغيرت أحواله ، وساءت أخلاقه ، وضعف عقله ، ولم يبق له حرمة عند أولاده الذين اختلفوا على أنفسهم وقبض عليه ابنه أبو تغلب بمدينة الموصل وحبسه ، وظل فى حبسه إلى أن توفى فى شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ [٢] .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٨٣ — ١٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٩٨ .

أبو تغلب بن ناصر الدولة (٣٥٨ — ٣٦٩ هـ) :

أسرع إلى الدولة الحمدانية فى الموصل الضعف بعد وفاة ناصر الدولة واختلف أولاده على أنفسهم، وصاروا شيعا وأحزابا ، وطرد بنو بويه أبا تغلب الغضنفر من الموصل (٣٦٧ هـ) ولم يكن استردادها على أيدى أخويه أبى طاهر إبراهيم وأبى عبدالله الحسين إلا انتعاشا قصير المدى .

وبعد وفاة ناصر الدولة استمر النزاع بين أولاده وانقسموا إلى فريقين: فريق يناصر حمدان ابن ناصر الدولة ، وفريق آخر يناصر أخاه أبا تغلب ، ولكن الهزائم تتابعت على حمدان، فلجأ إلى بختيار ابن معز الدولة فى بغداد ، فأكرم وفادته ، وتوسط فى الصلح بينه وبين أخيه ، وأرسل النقيب أبا أحمد الموسوى والد الشريف الرضى سفيرا فى الصلح بين ولدى ناصر الدولة . وقد دفع بختيار إلى اختيار أبى أحمد الموسوى أنه من العلويين الذين كان يميل إليهم الحمدانيون والبويهيون على السواء وتم الصلح بين الأخوين وعاد حمدان إلى الرحبة [١] ، وكان أخوه أبو تغلب قد استولى عليها منه وأناب عليها أخاه أبا البركات (٣٥٨ — ٣٥٩ هـ) . على أن النزاع لم ينته بهذا الصلح ، بل تجدد فى عنف وشدة ، حتى إن حمدان قتل أخاه أبا البركات (٣ رمضان ٣٥٩ هـ) . واشتد الصراع بين أبى تغلب وحمدان ، الذى حلت به الهزيمة ، فسار إلى بغداد ، ولجأ مع أخيه إبراهيم إلى بختيار من جديد ، فتلقاهما بالقبول وأكرمهما ، وأصبح الحمدانيون جماعتين : جماعة بزعامة حمدان وإبراهيم يساعدهما بختيار ، وجماعة بزعامة أبى تغلب وأخيه الحسين [٢] .

صفا الجو لأبى تغلب بعد أن أحل الهزيمة بأخيه حمدان ، فاستولى على حران (٣٥٩ هـ) ولكنه عجز عن الوقوف فى وجه الروم الذين أغاروا على الرها ووصلوا إلى نصيبين وديار بكر ، وعلى الرغم من حالة الضعف التى سادت بين أفراد البيت الحمدانى ، كان أبو تغلب كأبيه ناصر الدولة ، ينفس على البويهيين ازدياد نفوذهم ويعمل على إزالة سلطانهم من العراق ، فلما قصد بختيار بلا دالموصل لمساعدة حمدان على أخيه أبى تغلب . انتهز هذا فرصة ابتعاد بختيار عن بغداد وخلوها من جنده ، وقصدها وكاد يستولى عليها . وقد خشى

---

(١) بضم الراء وسكون الحاء وفتح الباء بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات جنوبى قرقيسيا .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٣ — ٢١٤

بختيار بأس هذا المنافس . وقد جاء فى عقد الصلح أن يرد أبو تغلب إلى أخيه حمدان أملاكه وإقطاعه إلا ماردين ، وأن يلقب (أبو تغلب) بلقب سلطان ، وأن يسلم إليه ابنة بختيار التى كان قد تزوجها ، ولكن الحرب التى تجددت بينهما انتهت بإقرار هذا الصلح سنة ٣٦٣ هـ (١) .

وفى سنتى ٣٦٧ ، ٣٦٨ هـ استولى عضد الدولة البويهى على الموصل وديار ربيعة وميافارقين وآمد وديار مضر من يد أبى تغلب الحمدانى ، فعول على قصد دمشق واتخاذها مركزاً لولايته ، ولكنها امتنعت عليه ، فلجأ إلى الخليفة العزيز الفاطمى الذى طلب منه القدوم إلى القاهرة لإمداده بالمال والرجال ، ولكنه خشى أن يكون فى هذا خديعة للفتك به ، فرحل إلى طبرية وتبودلت الرسل بينهما ، وفى ذلك الوقت خرج دغفل بن مفرج الطائى أمير الرملة من قبل العزيز بالله الفاطمى ، وعمل على طرد العقيليين من الشام ، ولجأ هؤلاء إلى أبى تغلب بن ناصر الدوله وطلبوا منه المعونة ، ولكنه اعتذر عن إجابة طلبهم حتى لا يثير حنق الخليفة الفاطمى عليه ، بل توسط بينهم وبين هذا الخليفة ، وخشى دغفل بن مفرج ، والفضل بن صالح — وكان العزيز قد أرسله على رأس جيش لقمع الثورة فى دمشق — خطر أبى تغلب وحارباه هو وبنى عقيل ، وأحلا به الهزيمة وقتلاه فى شهر صفر سنة ٣٥٩ هـ (٢) .

على أن الحمدانيين استعادوا الموصل وما يليها فى سنة ٣٧٩ هـ على يد أبى طاهر إبراهيم ابن ناصر الدولة ، وأخيه أبى عبد الله الحسين (٣) . ولكنهم لم يبقوا فيها أكثر من سنة ، لأن الأكراد طمعوا فى إزالة دولتهم ، وانتصر أبو على بن مروان الكردى على أبى عبد الله الحسين أخى أبى تغلب بن ناصر الدولة الحمدانى ، وبعث به إلى مصر بشفاعة الخليفة العزيز بالله الفاطمى .

كما قتل أبو الزواد محمد بن المسيب أمير بنى عقيل أبا طاهر بن ناصر الدولة الحمدانى ، واستولى على مدينتى نصيبين وبلد (٣٧٩ هـ) ، وضم إليهما الموصل فى السنة التالية ، ولكنه طرد منها على أيدى بنى بويه ، ثم استردها أخوه المقلد بن المسيب العقيلى الذى أقره بهاء الدولة البويهى على هذه البلاد وما يليها فى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٤م) (٤) .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ — ٢٢٨ .
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٤١ .
(٣) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٧٤ — ١٧٥ .
(٤) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٧٨ — ١٧٩

الحمدانيون فى حلب

سيف الدولة (٣٣٣ — ٣٥٦ هـ)

ذكرنا أن الخليفة المتقى لقب الحسن بن حمدان ناصر الدولة ، ولقب أخاه عليا سيف الدولة فى شهر شعبان سنة ٣٣٠ هـ ، وأن سيف الدولة أصبح الساعد الأيمن لأخيه ناصر الدولة فى حروبه مع البريديين والأتراك ، فنراه يستولى على مدينة واسط من البريديين ويعمل على ضم البصرة إليه ، ولكنه لم يستطع تحقيق أمنيته لقلة المال عنده . بيد أن علاقة المودة التى كانت تربط الحمدانيين بالأتراك ، وعلى رأسهم توزون ، لم تلبث أن تبدلت ، وثار الأتراك على سيف الدولة بواسط ، فهرب من معسكره إلى بغداد ، ثم لحق بأخيه ناصر الدولة الذى كان يلى إمرة الأمراء ، وأرغم أمام ثورات الأتراك على المسير إلى الموصل ، وانتهز سيف الدولة فرصة النزاع الذى قام فى واسط بين الأتراك بزعامة توزون ، وعول على خذ بغداد، وساعده الخليفة المتقى سرا ، ولكنه لم يستطع البقاء فيها لاستيلاء توزون عليها.

سار سيف الدولة الحمدانى إلى حلب فملكها سنة ٣٣٣ هـ [١] ، وهرب إلى مصر يانس المؤنسى الخصى ، وكان قد وليها من قبل الإخشيد ، فأرسل الإخشيد جيشاً لمحاربته بقيادة كافور ومعه يانس ، فتقابلا مع الحمدانين عند الرستن الواقعة على نهر العاصى الذى يمر بالقرب من حماه ، فحلت الهزيمة بالمصريين. وأسر منهم أربعة آلاف عدا القتلى والغرقى.

تقدم سيف الدولة يريد دمشق ، فسار إليه الإخشيد الذى حلت به الهزيمة فى قنسرين ، ولكنه انتهز فرصة انشغال الحمدانيين بجمع الغنائم واقتسامها ، فأطلق عشرة آلاف من صناديد جنده ، بددوا شمل العدو ، ودخل حلب حاضرة الحمدانين واسترد دمشق ، إلا أنه — على الرغم من انتصاره — تصالح من الحمدانيين ، على أن يترك لهم حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا ، كما تعهد بأن يدفع لهم جزية سنوية كفاء احتفاظه بدمشق [٢] .

---

(١) ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ٣٦٦) أن أول من ملك حلب من بنى بويه هو الحسين ابن سعيد أخو أبى فراس الحمدانى الشاعر المشهور ، وذلك فى شهر رجب سنة ٣٣٢ هـ .

(٢) ابن الأثير جـ ١ ص ١٥٩ — ١٦٠ .

ولعل الإخشيد كان يرمى من وراء إبرام الصلح على هذه الصورة ، أن يبقى الدولة الحمدانية حصنا منيعاً يكفيه مئونة محاربة البيزنطيين ، الذين لا يفترون عن مهاجمة الولايات الإسلامية المتاخمة لبلادهم ، والذين أغاروا سنة ٣٣١ هـ على أرزن وميافارقين ونصيبين ، فقتلوا وسبوا كثيراً من المسلمين ، ثم دخلوا فى السنة التالية (٣٣٢ هـ) رأس العين ، المدينة الكبيرة المشهورة فى بلاد الجزيرة ، بين حران ونصيبين ، فى ثمانين ألفاً ، فقتلوا وسبوا خلقاً عظيما من المسلمين .

ولكن هذا الصلح لم يطل ، فإن الإخشيد لما مات فى سنة ٣٣٤ هـ وتولى كافور الوصاية على ابنه أبى الحسن على ، استولى سيف الدولة الحمدانى على دمشق فى هذه السنة ، ثم سار إلى الرملة لغزو مصر ، فحاربه كافور بصحبة الحسن بن عبيدالله بن طغج وانتصر عليه فى اللجون ببلاد الأردن ، وتبعد عن طبرية بنحو عشرين ميلا وعن الرملة بنحو أربعين ميلا ، ثم انتصرا عليه انتصارا حاسما بالقرب من مرج عذرا بجوار دمشق ، ودخل الجيش مدينة حلب ، وعقدت بين الفريقين معاهدة الصلح ، بنفس الشروط التى عقدت بها فى أواخر أيام الإخشيد ، ماعد الجزية فقد وقف دفعها (١) .

وسرعان ما أخذ نفوذ سيف الدولة يزداد ، حتى إن معز الدولة بن بويه قبل توسطه لديه فى شأن أخيه ناصر الدولة ؛ فأبرم الصلح معه ، على أن يضمن سيف الدولة أداء الأموال التى يجب على أخيه ناصر الدولة أداؤها لبيت المال ببغداد .

وقد امتاز عهد سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيين ، حتى قيل إنه غزا بلادهم المجاورة لبلاده أربعين غزوة ، انتصر فى بعضها وحلت به الهزيمة فى بعض آخر ، وكان كثير من البلاد الإسلامية مسرحا للحروب التى دارت بين الحمدانيين والروم فى ذلك العصر وقد أغار سيف الدولة على زبطرة وعرقة وملطية ونواحيها ، فقتل وأحرق وسبى ، وانثنى قافلا إلى درب موزار ، فوجد عليه قسطنطين بن فردس الدمستق فأوقع به ، وقتل صناديد رجاله ثم عبر الفرات وأوغل فى بلاد الروم والتقى بجيش فردس بمرعش وهزمه ، وقتل رءوس البطارقة ، وأسر قسطنطين بن الدمستق الذى أصابته ضربة فى وجهه ، وأكثر الشعراء فى هذه الموقعة فقال أبو فراس الحمدانى :

وآب بقسطنطين وهو مكبل تحف بطاريق به وزرازر (٢)

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٦٤ .

(٢) جمع زرزار وهو البطريق .

وولى على الرسم الدمستق هاربا وفى وجه عذر من السيف عاذر[١]

ثم سار سيف الدولة لبناء الحدث ، وهى قلعة عظيمة الشأن ؛ فاشتد ذلك على ملك الروم الذى أرسل جيشاً جرارا يضم عظماء مملكته وعلى رأسهم فردس الدمستق وأحاطوا بعسكر سيف الدولة ، الذى حمل على العدو واخترق الصفوف طلبا للدمستق ، فولى هاربا ، وأسر صهره وابن بنته ، وقتل خلق كثير من الروم ، وأكثر الشعراء فى هذه الموقعة ، فقال أبو الطيب المتنبى :

بناها علىّ والقنا تقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم

ازدهر عهد سيف الدولة بطائفة من مشاهير العلماء والكتاب والشعراء ، كأبى الفتح عثمان بن جنى النحوى ، وأبى الطيب المتنبى . واشتهر كثير من أمراء الحمدانيين بالشعر ، كأبى فراس الحمدانى ابن عم سيف الدولة ، وابن أخيه الحسين بن ناصر الدولة ، وكان سيف الدولة نفسه شاعرا يجيد الشعر ؛ فمن شعره الذى يعبر فيه عن وفائه لأخيه ناصر الدولة قوله :

وهبت لك العليا وقد كنت أهلها وقلت لهم بينى وبين أخى فرق[٢]

وقد وصف الثعالبى (ج ١ ص ١١ — ١٢) سيف الدولة وما بلغته الدولة الحمدانية فى عهده فى هذه العبارة فقال :

« كان بنو حمدان ملوكا وأمراء ، أوجههم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة . وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسطة قلادتهم . وكان غرة الزمان وعماد الإسلام ، ومن به سداد الثغور وسداد الأمور ، وكانت وقائعه فى عصاة العرب تكف بأسها وتنزع لباسها . ويفل أنيابها وتذل صعابها . وتكفى الرعية سوء آدابها . وغزواته تدرك من طاغية الروم الثار ، وتحسم شرهم المثار ، وتحسن فى الإسلام الآثار ، وحضرته مقصد الوفود ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرحال ، وموسم الأدباء وحلبة [٣] الشعراء ، ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد الملوك بعد الخلفاء ، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها ، وكان

---

(١) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٢١ — ٢٣ .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٨ .
(٣) الحلبة : الخيل تجتمع للسباق من كل أوب ولا تخرج من مكان واحد .

أديباً شاعراً محبا لجيد الشعر ، شديد الاهتزاز لما يمدح به . . . وكان كل من أبى محمد بن عبدالله بن محمد القاضى الكاتب ، وأبى الحسن على بن محمد الشمشاطى قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت كقول أبى الطيب المتنبى :

خليلى إنى لا أرى غير شاعر فلم منهم الدعوى ومنى القصائد
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة ولكن سيف الدولة اليوم واحد

توفى سيف الدولة بحلب فى شهر صفر سنة ٣٥٦ هـ ، ونقل إلى ميافارقين بعد أن ملك ثلاثا وعشرين سنة ، وتولى بعده ابنه سعد الدولة أبو المعالى شريف .

سعد الدولة — سعيد الدولة (٣٥٦ — ٣٩٢ هـ) .

وفى عهد سعد الدولة بدأ الضعف يدب فى جسم الحمدانيين فى حلب . فقد قتل خاله أبا فراس بن أبى العلاء سعيد بن حمدان ، الشاعر المشهور (سنة ٣٥٧ هـ) [١] ، وثار عليه قرعوية غلام أبيه سيف الدولة واستولى على حلب ، وحال دون دخوله إليها ، وأقام فيها نحو ست سنين [٢] ، ثم عبر أبو المعالى نهر الفرات وقصد حماه فأقام بها [٣] .

سار سعد الدولة بعد ذلك إلى حمص وشرع فى عمارتها وتحصينها . وكان الروم قد عاثوا فيها حين أغاروا عليها فى سنة ٣٥٨ هـ . وتم الصلح بينه وبين قرعوية (٣٥٩ هـ) . وخطب له على منابر حلب . ولكنه آثر البقاء بحمص وناصر الفاطميين . فخطب للخليفة المعز لدين الله [٤] .

على أن النزاع لم يلبث أن قام بين بكجور وسعد الدولة الذى عزله عن حمص . فكتب إلى العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ — ٣٨٦هـ) يطلب إليه أن يوليه دمشق وينفذ إليه جيشاً يستولى به على حلب .

دخل بكجور دمشق سنة (٣٧٣هـ) ، وساءت العلاقة بينه وبين يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز ، الذى حقد عليه لقتله نائبه فى ضياعه بدمشق ، وعمل على قتله . ولما كشف بكجور سر هذه المؤامرة ، نكل بأتباع ابن كلس وقتلهم وصلبهم (رمضان ٣٧٧ هـ) . ثم

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢١١
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧
(٣) ابن الاثير جـ ٨ ص ٢١٥
(٤) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

طلب من سعد الدولة أن يرده إلى ولاية حمص ، فأجابه إلى ذلك (٣٧٩ هـ) ، ولكنه لم يستطع الاستقرار فيها ، وساءت علاقته بالفاطميين وبسعد الدولة ، فلجأ إلى بهاء الدولة بن بويه فلم يظفر بشيء .

ولما مات يعقوب بن كلس وتقلد الوزارة عيسى بن نسطورس ، وكان نصرانيا من أقباط مصر ، خافه بكجور كما خاف يعقوب بن كلس من قبل ، وأرسل إلى الخليفة العزيز يطلب مساعدته للاستيلاء على حلب ، فأجابه إلى ما أراد وكتب إلى والي طرابلس يأمره بمساعدته ولكن عيسى أمره بمماطلة بكجور الذي وصل إلى حلب ، وعلم سعد الدولة الحمداني بما يراد به ، فكاتب باسيل الثاني إمبراطور الروم (٣٥٢ — ٤١٦ / ٩٦٣ — ١٠٢٥) ، وطلب إليه أن يأمر والي انطاكية بمعونته . ووقعت الحرب بين بكجور ، يساعده المغاربة والعرب ، وبين سعد الدولة ، يساعده الروم والأرمن والديلم والأتراك وخمسمائة من صناديد العرب من بني كلاب [1] .

وهكذا وقع النزاع بين الحمدانيين وبين قوادهم ، وقامت الحروب الأهلية بينهم ، وأصبح سعد الدولة يستعين بالروم ، وغدا غلامه بكجور يستعين بالفاطميين . وكان لسعد الدولة وبكجور الغرم وللروم والفاطميين الغنم .

وقد أراد سعد الدولة أن يوحد الصفوف بين جند الحمدانيين جميعا ، وآثر سياسة اللين والمسالمة على سياسة النزاع والحرب ؛ فكتب إلى بكجور يدعوه إلى رعاية حق الرق والولاء ، ويطلب إليه الكف عن مناجزته ومناوأته ، ويعده بإقطاعه الأراضي الممتدة بين حمص والرقة ، فلم يزدد بكجور إلا غرورا ، وأبى إلا القتال ، ودارت رحى الحرب ووقعت الدائرة عليه . وقد عزا ابن القلانسي (ص ٣٤ — ٣٦) هزيمة بكجور إلى بخله وانتصار سعد الدولة إلى جوده وكرمه وميل العرب إليه .

لما صفا الجو لسعد الدولة الحمداني وأمن شر بكجور ، سار إلى الرقة ، وكان بها أبو الحسن ابن المغربي ، وكان قد هرب إلى الكوفة خوفا من بطش بكجور ، كما كان بها أولاد بكجور ، الذين آلت أموالهم إلى سعد الدولة بعد قتل أبيهم ، فكتبوا إلى الخليفة العزيز الفاطمي يسألونه التدخل لدى سعد الدولة عسى أن يكف عن أذاهم ؛ فكتب إليه العزيز كتابا يتوعده فيه ويأمره بإنفاذهم إلى مصر . ولما وصل كتاب الخليفة الفاطمي إلى سعد الدولة

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣ — ٣٤ .

أساء معاملة رسوله ، وأخذ سعد الدولة بعد العدة لحربه لولا أن عرضت له علته التى مات منها فى سنة ٣٨١ هـ ، فحمل تابوته إلى الرقة ودفن بها (١) .

تولى سعيد الدولة بعدوفاة أبيه سعدالدولة ، وكان قد عهد إليه وهو فى مرضه الأخير ، وأوصى لؤلؤاً الخادم به وبابنه الآخر أبى الهيجاء وبأخته ست الناس. وقد أخذ لؤلؤ البيعة لسعيد الدولة الذى امتاز عهده بوقوع الحروب بين الحمدانيين والفاطميين ، الذين لم يتمكن قائدهم منجوتكين من أخذ حلب بسبب قلة الأقوات وارتد إلى دمشق . وعظم ذلك على الخليفة العزيز ، فخرج بنفسه لفتحها ولكنه مات فى بلبيس سنة ٣٨٦ هـ (٢) .

ولم يكد سعد الدولة يتخلص من شر بكجور ، حتى وقع ابنه سعيد الدولة فى شر لؤلؤ الذى آلت إليه الوصاية عليه ، فطمع فى ولايته وقتله هو وابنته ، وكان قد تزوج منها ، ثم ملك الدولة الحمدانية باسم ولدى سعيد الدولة : أبى الحسن على ، وأبى المعالى شريف ، ولم يلبث أن أرسلهما مع سائر أفراد البيت الحمدانى إلى القاهرة ، وجعل ابنه منصوراً وليا على الدولة (سنة ٣٩٤ هـ) . ومات لؤلؤ بعد أن تقدمت به السن (سنة ٣٩٩/٠٨ ١) ، فخلفه ابنه منصور الذى اعترف بسلطان الخليفة الفاطمى الحاكم وذكر اسمه فى الخطبة فلقبه مرتضى الدولة . ويمكن أن يقال إن نفوذ الفاطميين امتد إلى حلب منذ ذلك الحين، ولكنه توطد بعد أن قام النزاع بين مرتضى الدولة وبين الفتح غلام أبيه ، الذى انضم إلى جانب الحاكم الفاطمى . فأقطعه صيدا وصور وبيروت ، ولقبه (مبارك الدولة وسعدها) ، واستمر على حكم حلب من قبل الحاكم . وبذلك قضى الفاطميون على حكم الحمدانيين فى حلب (٣) .

---

(١) ابن القلانسى: ص ٣٨ — ٣٩

(٢) Vasil' Ev.: Cambridge Mediaeval History, vol IV p. 149

(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٥٦ ، ٢٥٨ .

الدولة الطولونية

(فى مصر والشام)

٢٥٤ - ٢٩٢ / ٨٦٨ - ٩٠٥

الطولونيون

	هجرية	ميلادية
(١) أحمد بن طولون	٢٥٤	٨٦٨
(٢) خمارويه بن أحمد	٢٧٠	٨٨٣
(٣) أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢	٨٩٥
(٤) هارون بن خمارويه	٢٨٣	٨٩٦
(٥) شيبان بن أحمد	٢٩٢ —	٩٠٤ —
	٢٩٢	٩٠٥ —

أحمد بن طولون (٢٥٤ — ٢٧٠ هـ) :

ظلت مصر بعد قيام الدولة الأموية فى حالة ضعف وجمود فى كل ناحية من نواحى الحياة ، إلا فى فترات قليلة عمل فيها ولاة هذه البلاد على تقدمها ورقيها ، كمسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٢ هـ) ، وعبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) ، وموسى بن عيسى الذى ولى مصر ثلاث مرات (فى سنى ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٩ هـ) . على أنها أخذت تنتعش منذ قامت الدولة الطولونية التى استقلت بحكمها استقلالا يكاد يكون تاما . وعلى الرغم من أن عمر هذه الدولة لم يزد على ثمان وثلاثين سنة، أخذت مصر بقسط موفور من التقدم والإصلاح.

كان أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة تركياً ، وكان أبوه أحد الأتراك الذين كان يرسلهم الولاة من بلاد ماوراء النهر إلى الخلفاء العباسيين ضمن هداياهم ، وقد كثر هؤلاء الأتراك منذ ولى المعتصم الخلافة (٢١٨هـ) ، إذ كانت أمه تركية ؛ فاعتمد على العنصر التركى ، واتخذ من الأتراك حراسا له ، وأسند إليهم مناصب الدولة، كما كان يفعل الخلفاء العباسيون من قبله من تولية الفرس مناصب الدولة ، فولى المأمون عبدالله بن طاهر بن الحسين مصر صلاتها وخراجها (٢١١ - ٢١٣هـ) ، وولى المعتصم آشناس التركى مصر (٢١٩- ٢٢٩هـ) ، وقلد الواثق إيتاخ (٢٣٤ — ٢٣٥ هـ) . وكان هؤلاء الولاة يستخلفون عنهم نوابا يحكمون

البلاد باسمهم ، ويدعون لهم بعد الخليفة على المنابر، وينقشون اسمهم على السكة ، إذ لم يكن من السهل عليهم أن يتركوا دار الخلافة وما فيها من نعيم وترف ويأتوا إلى مصر للاقامة فيها . ولما أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء ، واعتمد على الأتراك ، انتشر العرب فى ريف مصر ، واحترفوا الزراعة وغيرها طلبا للرزق ، وأخذ العنصر العربى يضعف شيئا فشيئا ، وبدأ ظل الولاة من العرب يزول بإحلال ولاة من الأتراك محلهم . ولم يل مصر بعد ذلك عربى إلا عنبسة بن إسحاق (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ) .

تقلد (باكباك) التركى مصر ، فاستخلف عليها ابن طولون وجعله على حاضرتها ، وضم إليه جيشاً فدخلها فى شهر رمضان سنة ٢٥٤ هـ . وكان ولاة مصر فى ذلك العصر لاينيبون عنهم شخصاً واحداً فى هذه البلاد . وإنما كانوا يقسمون أعمالها بين عدة أشخاص ، ليكون كل واحد منهم عيناً على الآخر ، فلا يتطلع أحدهم إلى الاستقلال بما فى يده خشية اتفاق الآخرين عليه . وكان هؤلاء الأتراك يسندون القضاء والخراج لغير هؤلاء الولاة ؛ وبذلك كانت أعمال مصر عندما دخلها أحمد بن طولون مقسمة بين عدة أشخاص : فكان على الإسكندرية إسحق بن دينار ، وعلى برقة أحمد بن عيسى الصعيدى ، وعلى القضاء بكار ابن قتيبة ، وعلى البريد شقير الخادم غلام قبيحة أم المعتز ، وعلى الخراج أحمد بن المدبر .

من ذلك نرى أن ولاية مصر لم تصف لابن طولون ، لأنه إنما تقلد قصبة هذه البلاد دون غيرها ، إذ كان يحكمها باسم واليها باكباك ، وفى استطاعته أن يعزله إذا لم يحز رضاه هذا فضلا عما كان من منافسة ابن المدبر عامل الخراج فى مصر ومثابرته على الإيقاع به عند الخليفة ، ومن قيام الثورات التى أضرم نارها الخوارج فى مصر ومن بينهم ابنه العباس إلى ما كان من سخط أبى أحمد الموفق طلحة ولى العهد عليه وعمله على صرفه عن هذه البلاد . فلم يكن بد من أن يعمل ابن طولون على التغلب على هذه الصعاب ، وتثبيت قدم أولاده من بعده .

قتل باكباك فتولى مصر يارجوخ صهر أحمد بن طولون ، فكتب إليه « تسلم من نفسك بنفسك » . وبذلك أقره على ما بيده ، وزاد فى سلطته بأن استخلفه على مصر كلها ، وزاد قلق ابن المدبر عامل الخراج ، الذى أثار سخط المصريين بزيادته الضرائب ، واستعماله القسوة فى جبايتها ، وعمل على عزل ابن طولون ، وخشى عاقبة أمره فى مصر ، فطلب صرفه عن خراجها ، وتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن فى سنة ٢٥٧ هـ ، وتقلد خراج مصر من بعده أحمد بن خالد .

وفى شهر رمضان سنة ٣٥٩ هـ مات يارجوخ صاحب إقطاع مصر الذى كان ابن طولون يحكمها نيابة عنه ويدعو له على منابرها بعد الخليفة ، فتوطد قدمه فى هذه البلاد وأصبح والياً عليها من قبل الخليفة مباشرة . وفى سنة ٢٦٣هـ كتب الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩هـ) إلى ابن طولون يستحثه على إرسال الخراج ، فرد عليه : « لست أطيق ذلك والخراج فى يد غيرى » ؛ فقلده خراج مصر ، وولاه الثغور الشامية ، وبذلك أصبحت جميع أعمال مصر الإدارية والقضائية والعسكرية والمالية فى يده .

بعد أن قضى ابن طولون على الصعاب التى قامت فى وجهه فى مصر ، اعترضته صعوبة كادت تقضى على آماله ، لولا ما أوتيه من حسن السياسة وعلو الهمة ورباطة الجأش . وكان مصدر هذا الشر أبو أحمد الموفق طلحة ، الذى غلب على أخيه الخليفة حتى إنه لم يبق له من الخلافة إلا اسمها . كما أن ثورة الزنج الطاحنة أثارت عداء الموفق لابن طولون والى مصر ، الذى وقف على مدى الخطر الذى هدد سلامة الدولة العباسية من ناحية الزنج ، فبعث إلى الموفق بمليون ومائتى ألف دينار . ولكن الموفق استقل هذا المال ، وبعث إلى ابن طولون بكتاب ينطوى على الجفاء والشر ، فرد عليه بكتاب شديد اللهجة .

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسى كان يميل إلى ابن طولون ، أرغم على عزله من ولاية الثغور الشامية ، لكنه لم يلبث أن ردها إليه بعد أن اضطربت أحوالها . ووجد ابن طولون الفرصة سانحة لأخذ بلاد الشام بعد وفاة واليها ماجور لاشتغال الموفق بحرب صاحب الزنج ، وخشى ضياع ولاية الثغور منه بسبب وقوع بلاد الشام بينها وبين مصر ، وسار بجيشه نحو بلاد الشام ، فدانت له أمهات مدنها ، ودعى له على منابرها (٢٦٤-٢٦٥هـ) ولكنه اضطر إلى العودة إلى مصر لقمع ثورة ابنه العباس . ثم خرج إلى الشام (جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ) بعد أن اتصل به نبأ خروج لؤلؤ والى الرقة عليه وانضمامه إلى الموفق واستخلف على مصر ابنه خمارويه . وبينما هو فى طريقه إليها ، بلغه خروج أهل طرطوس عليه ، فعول على السير إليها ، ولكنه لما وصل إلى دمشق جاءه كتاب الخليفة العباسى ينبئه فيه بالمسير إليه والاحتماء به . ورحب ابن طولون بهذه الفكرة لما تنطوى عليه من تقوية شأنه فى مصر . ولكن ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة قبض على الخليفه المعتمد وساقه إلى سامرا ، وكوفىء بولاية مصر .

وقد فعلت سياسة الموفق فعلها فى الناس؛ فقد كان من أثر لعن الخليفة ولعن ابنه المفوض وأخيه الموفق لابن طولون ، وانضمام لؤلؤ ومن معه من القواد ومنافسة ابن كنداج له

وتوليته على مصر والشام ، أن ضعف نفوذه الأدبى فى البلاد التى دانت لسلطانه ، خلت الهزيمة بجيشه فى مكة ، ولعن فى المسجد الحرام [١] . وكان من أثر هذه الدعاية الواسعة التى نشرها الموفق ضد عدوه ابن طولون، أن حلت به الهزيمة لأول مرة فى طرسوس ومات أكثر جنده من البرد بسبب غرق أمتعتهم [٢] .

سار ابن طولون بعد ذلك إلى المصيصة وأقام بها ثلاثة أيام . وهنا عرضت له علته التى أودت بحياته .

قال الكندى [٣] : وتزايدت علة أحمد بن طولون ، فأمر الناس بالدعاء له ، فغدا الناس بالدعاء له إلى مسجد محمود بسفح المقطم يوم الإثنين لست خلون من شوال سنة سبعين ومائتين . وحضر معهم القصاص فدعوا له ، ثم غدوا أيضا بالدعاء له . وحضرت اليهود والنصارى معتزلين عن المسلمين ، وحضروا أيضاً اليوم الثالث مع النساء والصبيان ، وأقاموا على ذلك أياما . ثم توفى ليلة الأحد لعشر خلت من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين وله من العمر خمسون سنة وشهر وسبعة عشر يوما ، ودفن باليحموم بسفح المقطم بعد أن حكم نيفاً وستة عشر سنة ، وترك من الأولاد ثلاثة وثلاثين ، منهم سبعة عشر من الذكور وستة عشر من الإناث .

كان ابن طولون بعيد النظر عالى الهمة قوى البأس شديد المراس . اتسع ملكه حتى امتد من العراق إلى برقة ومن النوبة إلى آسيا الصغرى ، وخشى بأسه إمبراطور الروم ، على ما بين بلاديهما من بعد الشقة ووعورة الطريق ، فأهدى إليه عدة مصاحف للقرآن الكريم ، وأرسل إليه من تحت يده من المسلمين .

وكان ابن طولون سياسيا محنكا ، وقائداً ماهراً ، خبيراً بأساليب الحروب وتعبئة الجيوش ، كما كان إدارياً حازما [٤] ، وقف على موارد الثروة على اختلافها ، وعرف كيف يستغلها لمصلحة دولته من غير أن يرهق الأهلين بالمكوس والضرائب ، وعمل على ترفيههم ونشر العدل بينهم ؛ فاستتب الأمن واستقرت الأمور وسادت الطمأنينة بين الناس . وشمل الرخاء البلاد فى عهده ، حتى بيع عشرة الأرادب من القمح بدينار واحد . هذا

---

(١) الطبرى جـ ١١ ص ٣٢٠ .
(٢) ابن الداية: سيرة ابن طولون ص ٧١ .
(٣) كتاب الولاة ص ٢٣١ .
(٤) ابن خلكان جـ ١ ص ٦٨ — ٦٩ .

إلى تحصينه الثغور والاحتفاظ بجيش كامل العدد والعدة ، كما ضرب بسهم وافر فى سبيل الإصلاح ، فاهتم بالزراعة وعنى بإقامة الجسور وحفر الترع .

أما أخلاقه وصفاته ، فقد كان مضرب الأمثال فى الكرم والجود ، وفى الشجاعة والبسالة ، وفى صدق الفراسة ، وفى العدل والتواضع . وكان يقرب إليه العلماء ، ويجزل لهم العطاء ، كما كان يتصدق على الفقراء . فقد أثر عنه أنه كان يتصدق كل شهر بألف دينار وكان — إلى جانب ذلك — يبذل فى أعمال الخير ألف دينار فى كل يوم .

قال المقريزى (خطط ج ١ ص ٣١٦) : « كانت صدقاته على أهل المسكنة والستر من الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة . . . سوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم للصدقات فى داره وغيرها ، ويذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس فى القدور الفخار والقصاع على كل قدر أو قصعة أربعة أرغفة ، فى اثنين منها فالوذج ، والاثنان الآخران على القدر . وكانت تعمل فى داره وينادى : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر . وتفتح الأبواب ويدخل الناس ، وابن طولون ينظر ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته » .

ويعد ابن طولون من حفظة القرآن المعدودين ، ولذلك كان من أكثر الولاة احتراماً لحفاظه (١) .

خمارويه (٢٧٠ — ٢٨٢ هـ) :

بعد وفاة ابن طولون ، اجتمع الجند — على ما قضت به العادة فى ذلك الوقت — وولوا مكانه ابنه خمارويه ، ولم يستطع الخليفة العباسى إلا الموافقة على تعيين الوالى الجديد وله من العمر عشرون سنة . ولم تكن ولاية مصر قد توطدت أركانها لآل طولون ، وأصبح خمارويه أمام عدة صعاب لا سبيل إلى التغلب عليها إلا بالقوة حيناً وبالدهاء حيناً آخر .

ولا غرو ، فقد ظلت مصر فى عهد خمارويه كما كانت فى عهد أبيه ، محط أطماع

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٩ .

المتنافسين من القواد الأتراك ، ومثار حسد أبى أحمد الموفق ؛ فواصل لعن الموفق على المنابر ، وبعث الواسطى كاتب أبيه بجيش كثيف ، وعززه من البحر بأسطول قوى . وخرج الموفق من بغداد ، وانضم إليه ابن كنداج والى الموصل ، ومحمد بن أبى الساج والى أرمينية والجبال ، واستولوا على دمشق . فلم ير خمارويه بداً من الخروج بنفسه ، فدخل دمشق سنة ٢٧٣ هـ ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداج فى أعماله ، وتم الصلح بين والى مصر ودار الخلافة ، وكتب الموفق والخليفة المعتمد وابنه المفوض كتاب الصلح بأيديهم ، ويتضمن تولية خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة . هنا أمر خمارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر ، والدعاء له مع الخليفة[١] .

وكان من أثر هذا الانتصار أن استولى خمارويه على الرقة ، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة ، ودعى له على منابرها كما أخضع ابن أبى الساج (٢٧٦ / ٨٨٨) ، وطارد جيوشه إلى مدينة (بلد) على نهر دجلة ، حيث بنى على شاطئه سريراً من الذهب ليجلس عليه ، إشارة بما حازه من نصر مؤزر . كما كان من أثر هذا الانتصار أن اعترف بسلطانه والى طرسوس (٢٧٦ هـ) ، بعد أن كان قد نبذ طاعة الطولونيين سنة ٢٧٠ هـ . ولم تقتصر أعمال خمارويه الحربية على ما تقدم ، بل اتسع نفوذ مصر فى عهده إلى ما وراء ولاية طرسوس ، فغزت جيوشه الولايات الرومانية عدة مرات (٢٧٨ — ٢٧٩ هـ)[٢] .

وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج (سنة ٢٧٨ هـ) والخليفة المعتمد (سنة ٢٧٩ هـ) على توطيد سلطان خمارويه الذى استطاع أن يكسب رضا الخليفة المعتضد بهداياه ، فاقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة ، وجعلها لأولاده من بعده . وكان من أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التى تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة العباسى ، ولكن الخليفة اختارها لنفسه .

توفى خمارويه فى سنة ٢٨٢ هـ . وكان محباً للترف يبذل الأموال الضخمة على أبهة بلاطه ومبانيه الفخمة ومتنزهاته وغير ذلك . وقد بلغت نفقات جيشه تسعمائة ألف دينار فى كل سنة ؛ وكانت رواتبهم وأرزاقهم تدفع إليهم بانتظام هذا إلى ما عرف عن خمارويه

---

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٣٥ ــ ٢٣٨ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٠

(٢) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٣٥ ــ ٢٣٩ . المقريزى : خطط ج ١ ص ٣١٩ .

من كثرة إنفاقه على مطابخه ، حتى بلغت نفقاته فى كل شهر ثلاثة وعشرين ألف دينار (٢٧٦,٠٠٠ دينار فى السنة) ، ولاشك أن كثرة هذا المبلغ وتسمية مطبخه مطبخ العامة يدلان على أنه نسج على منوال أبيه فى حبه للجود والكرم ، وشغفه بمد يد المساعدة إلى الفقراء والمعوزين . هذا إلى ما أطلقه من الأرزاق لجواريه وأولاده ومن يقوم بخدمتهم .

زوال الدولة الطولونية (٢٨٢ — ٢٩٢ هـ) :

ولى مصر بعد خمارويه ثلاثة من آل طولون لم يزد حكمهم على عشر سنين ، لم تستفد البلاد فيها شيئاً غير انتشار الفوضى ، وتألب الجند ، وتنازع السلطة بين المتنافسين ، وانتصار الجند لفريق دون فريق . ذلك أنه لما توفى خمارويه بدمشق (ذو القعدة ٢٨٢ هـ) عاد ابنه أبو العساكر جيش إلى مصر ، حيث أخذ الناس عليه أموراً أثارتهم عليه ، فاستوحش من كبار الجند وتنكر لهم ، فعملوا على الكيد له والخلاص منه ، وفر بعضهم إلى الخليفة العباسى ، وخلع طاعته طغج بن جف (أبو محمد الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر) عامل دمشق . وقد آلى جيش على نفسه ليشعلن نار الفتن والثورات ، فقتل عمه مضر بن أحمد بن طولون ؛ فوثب عليه الجند وخلعوه ، ثم جمعوا الفقهاء والقضاة فتبرءوا من بيعته ، وانضموا إلى الجند فى خلعه (١٥ جمادى الآخرة سنة ٢٨٣ هـ) ، وذلك بعد نيف وستة أشهر من ولايته ، فظل فى سجنه إلى أن مات بعد أيام .

اجتمع الجند يوم خلع جيش وولوا — على ما جرت به العادة فى ذلك الوقت — أبا موسى هارون بن خمارويه ، وكان صغيراً لم تزد سنه على الرابعة عشرة ، فلم يكن يصلح للولاية والحكم ، وربما كان ذلك مما دفع بطائفة من الجند إلى عدم الرضا بتوليته ، فكاتبوا رجلا آخر من بنى طولون ، هو ربيعة بن أحمد بن طولون ، وكان فى الإسكندرية وطلبوا إليه أن يسير إلى مصر ، ووعدوه أن يقوموا بنصرته . فليس من عجب إذا صادفت هذه الدعوة قبولا فى نفس ربيعة الذى جمع من أهل البحيرة ومن البربر وغيرهم جيشاً كثيفاً سار على رأسه حتى نزل قريبا من الفسطاط . على أن حال هؤلاء القوم مع ربيعة كانت أشبه من بعض الوجوه بحال أهل الكوفة مع الحسين بن على ؛ فقد خذلوا ربيعة وقعدوا عن نصرته ، ولم يحولوا على الأقل دون خروج جند هارون الذين قاتلوه وأسروه (شعبان سنة ٢٨٤ هـ) ، ثم أثخنوه بالسياط ، حتى قيل إنه ضرب ألفاً ومائتى سوط ، ومات تحت الضرب .

لم يفلح المناوئون لحكم هارون فيما دبروه ، بل لم تعد نصرتهم لربيعة حد التدبير والكتابة . وفى عهد هارون خرج القرامطة بالشام (٢٩٠ هـ) ، وكانت تابعة لمصر ، فأنفذ والى مصر جيشا لمحاربتهم ، ولم يستطيع هذا الجيش إخراجهم من الشام ، بل حلت به الهزيمة وأدى هذا الضعف إلى تجديد رغبة الخلافة العباسية فى إعادة مصر إلى سلطانها المطلق ، فبعث الخليفة المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) محمد بن سليمان الكاتب لاستردادها من هارون [١]، فنزل بحمص وبعث بأسطول إلى سواحل هذه البلاد ، ثم واصل السير إلى فلسطين ، وخرج هارون بن خمارويه لدفع سليمان عن دخول مصر ، وسير المراكب الحربية لقتاله . وفى تنيس التقى الأسطولان العباسى والمصرى ، فحلت الهزيمة بأسطول مصر ، ووقعت تنيس ودمياط فى يد محمد بن سليمان .

رأى هارون أنه لا طاقة له بهزيمة الجيش العباسى ، فصمم على الفرار ، ولجأ إلى العباسة [٢]. ومعه أهله وأعمامه ونفر يسير من جنده . وفى هذا المكان قتله عماه شيبان وعدى ابنا أحمد بن طولون . وهو منشغل باللهو ثمل بالخمر (صفر سنة ٢٩٢ هـ) ، ولم يناهز حينذاك الثانية والعشرين من عمره .

هكذا انتهت ولاية هارون الذى قتل على يد عميه ، فكان طبيعيا إذا أن يؤول أمر هذه الولاية إلى أحد قتلته . وقد آلت فعلا إلى عمه شيبان الذى لم يلبث أن سار إلى الفسطاط لاستلام مقاليد هذه الولاية . بيد أن هذا العمل لم يرض الجند ، بل أغضبهم بمقدار ما أغضبهم قتل مضر بن أحمد بن طالون على يد ابن أخيه جيش بن خمارويه من قبل . وأنكر القواد والجند جميعا ماأتاه شيبان وأخوه ، ولم يعترفوا بولاية شيبان ، وكاتبوا محمد ابن سليمان وطلبوا منه المسير إلى مصر ، فسار حتى نزل العباسة حيث لقيه طغج بن جف فى

---

(١) الطبرى ٢ : ٢٢٥١ — ٢٢٥٢ .

(٢) قال ياقوت فى معجمه : هى بليدة أول مايلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية ، ذات نخل طوال وقد عمرت فى أيامنا ، لأن الملك الكامل بن العادل بن أيوب جعلها من متنزهاته وكان يكثر الخروج إليها للصيد ، لأن إلى جانبها مما يلى البرية مستنقع ماء يأوى إليه طير كثير ، فهو يخرج إليها للصيد ، بينهما وبين القاهرة خمسة عشر فرسخا . سميت بعباسة بنت أحمد بن طولون التى صحبت قطر الندى ابنة أخيها خمارويه فى طريقها إلى بغداد لتزف إلى الخليفة المعتضد العباسى . وفى هذا الموضع عملت عباسة قصرا أحكمت بناءه ، وفيه ودعت أبنة أخيها ، ومن ثم عمر ذلك المكان المقفر ، وصار بلدا ، فكان يقال له قصر عباسة ، ثم أطلق عليه فيما بعد عباسية فقط ، ويطلق الآن على بلدة بجوار الزقازيق .

جمع كثير من القواد ، وصحبوه إلى الفسطاط . وهنا انضم إليهم أصحاب شيبان الذى لم يجد بداً من طلب الأمان من محمد بن سليمان . وفى شهر ربيع الأول من سنة ٢٩٢ هـ خرج شيبان ، ولم يكن قد مضى على ولايته غير اثنى عشر يوما ، ودخل القائد العباسى مدينة القطائع ، وألقى فيها النار ، ونهبت رجاله الفسطاط وكسروا أبواب السجون ، وأخرجوا أولاد ابن طولون وأنصارهم من القواد . وهكذا زالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت هذه البلاد ثمانيا وثلاثين سنة (١) .

على أن الاضطرابات استمرت فى هذه البلاد ، بسبب ضعف الخلفاء العباسيين ، وعجزهم عن المحافظة على سلطانهم فيها ، ثم لاستبداد الأتراك بالسلطة ، وضعف مصر نفسها وقيام المنافسة بين الولاة وعمال الخراج . هذا إلى أن مصر قد تعرضت فى ذلك الوقت لغزوات الفاطميين ، الذين أسسوا دولتهم فى بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ ، وحاولوا الاستيلاء على مصر مرات لاتخاذها مركزاً لنشر دعوتهم ، ومقراً لخلافتهم وبسط نفوذهم فى الشرق ، وظلت مصر على هذه الحال ، إلى أن وليها محمد بن طغج الإخشيد ، فدخلت فى عهده فى طور جديد من التقدم والإصلاح (٢) .

---

(١) أنظر سقوط الدولة الطولونية فى المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٣١٢ وما يليها ، وأبى المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ص ٨٨ ــ ١٤٣ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : أنظر كتاب المجمل فى التاريخ المصرى ص ١٥٢ .

الدولة الإخشيدية

(فى مصر والشام)

٣٢٣ — ٣٥٨ / ٩٣٥ — ٩٨٩

الإخشيـــديون[١]

	هجرية	ميلادية
(١) محمد الإخشيد بن طغج	٣٢٣	٩٣٥
(٢) أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد	٣٣٤	٩٤٦
(٣) أبو الحسن على بن الإخشيد	٣٤٩	٩٦٠
(٤) أبو المسك كافور	٣٥٥	٩٦٦
(٥) أبو الفوارس أحمد بن على	٣٥٧	٩٦٧
	٣٥٨	٩٦٩

[الفاطميون]

محمد بن طغج[١] الإخشيد (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ):

كان أبوبكر محمد بن طغج بن جف من أولاد ملوك فرغانة ، وكان كل من ملوكها يلقب بالإخشيد ، كما يلقب ملك الفرس بكسرى ، وملك الروم بقيصر ، وملك الحبشة بالنجاشى .

سار جف جد الإخشيد إلى الخليفة المعتصم ، فأكرمه ، وأقام معه إلى أن توفى هـذا الخليفة ؛ فاتصل بابنه الواثق ثم بأخيه المتوكل ، وظل على ذلك إلى أن توفى فى نفس الليلة التى قتل فيها المتوكل .

---

(١) Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, p. 96

(٢) وتفسير طغج — على ما ذكره ابن خلكان — عبدالرحمن .

ولما سار إلى بغداد بمن بقى من الطولونيين وأنصارهم ، سار معه ابنه طغج ، فثقل على الوزير العباس بن الحسن ، لأنه ترفع عن النزول له والترجل ،فأوقع به الوزير عند الخليفة وحبسه مع ابنيه محمد وعبيدالله .

وقد ظل طغج وابناه فى الحبس إلى أن توفى سنة ٢٩٤ هـ على ما تقدم ؛ فأطلق الوزير ابنيه ، فلزما خدمته ، وكانا يركبان معه إذا ركب ويقفان بين يديه إذا جلس ، وظلا على ذلك إلى اليوم الذى ضرب فيه الحسين بن حمدان الوزير العباس بن الحسن بالسيف على عاتقه . ولم يكن ولدا طغج قد نسيا الأخذ بثأر أبيهما كما لم يكن ابن حمدان يجهل ما فعله الوزير بطغج ، فلما سقط الوزيرعن جواده صاح ابن حمدان بولدى طغج ليثأرا لقتل أبيهما، فضربا العباس بالسيف . وهرب ابن حمدان إلى ديار ربيعة ، وهرب عبيد الله بن طغج إلى شيراز حيث دخل فى خدمة أميرها .

أما طغج بن جف فقد زودنا ابن زولاق بشىء ذى غناء عن سيرته ، فذكر لنا أنه ولد له سبعة أولاد من الذكور ، أحدهم محمد الإخشيد الذى ولد فى منتصف شهر رجب سنة ٢٦٨ هـ بشارع باب الكوفة ببغداد ، ووصفه بالثراء وسعة العيش (١) .

اتصل محمد بن طغج بخدمة ابن بسطام عامل بلاد الشام ، وقد ذكر ابن سعيد (٢) نقلا عن ابن زولاق أن عبيد الله بن طغج عاد إلى بغداد فى أيام الخليفة المقتدر ،واتصل بخدمته ، وحاز من علو المرتبة ما جعله يفتخر على أخيه الإخشيد . فكان يخرج معه للصيد ، ولما ولى ابن بسطام مصر صحبه الإخشيد إليها وبقى معه إلى أن توفى سنة ٢٩٧ هـ ، فاتصل بخدمة ابنه أبى القاسم على ، ثم حارب تحت قيادة تكين (٣) ، فى الموقعة التى دارت بين الجند المصريين وجند حباسة بن يوسف السكامى قائد عبيدالله المهدى الفاطمى فى بلاد المغرب . وفى هذه الموقعة أبلى الإخشيد بلاء حسنا ، وتوثقت الصلة بينه وبين تكين ، فكان يتنقل معه بين الشام ومصر . وقد ولى عمان وجبل الشراة شمالى العقبة سنة ٣٠٦هـ نيابة عن تكين الذى كان يلى بلاد الشام إذ ذاك ، ثم ولاه الإسكندرية فى ولايته الثانية على مصر (٣٠٧ —

---

(١) تتجلى فى وصفه له روح المبالغة ، من ذلك قوله إن خزانة طيبه حملت فى إحدى سفراته على أكثر من خمسين جملا ، وإنه كان له بدمشق قبة مشبكة يتطيب فيها ، فتصل رائحة الطيب إلى أكثر جهات المدينة .

(٢) المغرب فى حلى المغرب ص ٧ .

(٣) ولى تكين مصر ثلاث مرات هى : ٢٩٧ — ٣٠٢ ، ٣٠٧ — ٣٠٩ ، ٣١١ — ٣٢١ هـ .

٣٠٩ هـ) ، واشترك فى غزوة الفاطميين الثانية على مصر بقيادة القائم بن المهدى وولى عهده .

اشتهر أمر محمد بن طغج فى الدولة العباسية منذ سنة ٣٠٦ هـ ، حين ولى إقليم طبرية وجبل الشراة نيابة عن تكين ، وذلك على أثر بلائه وإيقاعه بجماعة من لخم وجذام كانوا قد دهموا حاج الشام وجماعة من أهل العراق ، منهم جارية أم الخليفة المقتدر ، وقد سار الإخشيد بالأسرى إلى دمشق ، فحمد له تكين هذا العمل ، وكتب أهل العراق بما كان من خلاصهم على يد الإخشيد ، فاشتهر أمره ، وكتب إليه الناس يشكرون له فعله ويحمدون مروءته .

ولا غرو فقد كان من أثر انتصار محمد بن طغج على جند الفاطميين الذين غزوا مصر (٣٢١ — ٣٢٤ هـ) ، أن أمر الخليفة العباسى بزيادة « الإخشيد » على اسمه ، وهو اللقب الذى كان يطلق على ملوك فرغانة ، ودعى له بهذا اللقب على منابر مصر والشام فى شهر رمضان سنة ٣٢٧هـ[١] .

وقد أعاد الإخشيد النظام والسكينة ، ووطد مركزه فى مصر والشام ، وصد غزوات الفاطميين الذين أرسلوا إلى مصر حملة استمرت ثلاث سنوات (٣٢١ — ٣٢٤ هـ) ، حدثت فيها مناوشات بين جند الفاطميين والمصريين ، وانتهت بمعاهدة الصلح .

ويخبرنا الكندى [٢] أنه حدثت فى عهد ولاية الإخشيد الثانية (رمضان سنة ٣٢٣ — جمادى الثانية سنة ٣٢٤) عدة مواقع انتهت بعقد الصلح بين الفريقين ، وانضمام بعض الزعماء المصريين إلى جيش المغاربة الذى دخل الإسكندرية ، فأرسل إليهم الإخشيد جيشاً هزمهم وأرغمهم على العودة إلى بلادهم .

وكتب القائم الفاطمى إلى الإخشيد بيده كتابا دونه ابن سعيد فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب [٣] وإنما فعل ذلك رغبة منه فى أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لا تفعله سياسة العداوة والحرب التى أخفق فيها هو وأبوه من قبل .

---

(١) كتاب الولاة ص ٢٨٨ .

(٢) كتاب الولاة ص ٢٨٣ — ٢٨٥ ، ٢٨٧ .

(٣) ص ٣٥ — ٣٦ ، أنظر أيضا « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٨٣ — ٨٤ .

وقد سادت صلة الوفاق بين الإخشيد والخلافة العباسية إلى سنة ٣٢٨ هـ ، حين تبدلت هذه الصلة بمسير محمد بن رائق الخزرى إلى الشام يريد مصر بتقليد من الخليفة ، مما حدا بالإخشيد إلى إلغاء الخطبة للخليفة العباسى وذكر اسم الخليفة الفاطمى محل اسمه فى الخطبة أو على الأقل إلى وقف الدعوة للخليفة العباسى ردحا من الزمن .

وفى هذه السنة وقعت الحرب فى العريش بين الاخشيد وابن رائق ، الذى استولى على دمشق من قبل ، فمضى ابن رائق منهزما إلى الرملة . وعلى الرغم من قتل عبيد الله بن طغج أخى الاخشيد ، عقد الصلح على ما يحب ابن رائق ، فتقلد ولاية الأراضى الشامية الواقعة شمالى الرملة ، وتعهد الاخشيد أن يدفع إليه ١٤٠،٠٠٠ دينار جزية سنوية ، مما حدا ببعض المؤرخين إلى أن يعد عقد الإخشيد الصلح على هذه الصورة ، مع انتصاره على خصمه دليلا على ضعف سياسته .

على أننا نرى فى عمله هذا ما يبرره نظراً للأحوال التى كانت تحيط به ، لأنه كان يخشى أن تواصل الخلافة العباسية الحملات عليه ، على الرغم من انتصاره فى هذه المرة ، ولأنه كان يخشى خصما آخر يهدده من ناحية مصر الغربية . وهو الخليفة الفاطمى .

بيد أن وفاة ابن رائق بعد الصلح بسنتين أعادت إلى حوزة الإخشيد كل بلاد الشام من غير حرب ، ودخلت مكة والمدينة تحت سيادة مصر ، وأصبح الإخشيد من القوة بحيث يستطيع أن يأمر عماله وقواده بالاعتراف بولاية ابنه أنوجور .

غير أن الأمر لم يكن قد استتب للاخشيد بعد ، لخروج العلويين عليه فى مصر ، ومناوأة الحمدانيين الذين استولوا على قنسرين والعواصم سنة ٣٣٢ هـ ، فولاها ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان[١] . ثم سار الاخشيد إلى الشام ، فانتهز ابن السراج العلوى[٢] هذه الفرصة ، وسار إلى الصعيد ونهب بعض بلاده . ولكن قوته لم تكن بالتى تديل دولا وتقيم أخرى ؛ فسرعان ما سار إلى برقة ودخل فى سلطان الخليفة[٣] .

---

(١) أبو المحاسن ج ٣ ص ٢٨٠ .

(٢) هو محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن موسى بن على بن أبى طالب .

(٣) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٩١ .

وقد ساءت العلاقة بين الاخشيديين وسيف الدولة الحمدانى على أثر استيلائه على حلب . واضطر الاخشيد إلى عقد الصلح الذى يقضى بترك حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا للحمدانيين ، وتعهد بأن يدفع لهم جزية سنوية كفاء احتفاظه بدمشق .

وصاية كافور على أولاد الإخشيد :

ولما شعر الاخشيد بدنو أجله ، عهد إلى كافور بالوصاية على ولده أبى القاسم أنوجور وقد مات الاخشيد بدمشق فى ٢٣ ذى القعدة سنة ٣٣٤ هـ (يوليه سنة ٩٤٦ م) ، وهو فى السادسة والستين من عمره ، ونقل إلى بيت المقدس ، ودفن بها بعد أن ولى مصر إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ويومين . خلفه ابناه أبو القاسم أنوجور ثم أبو الحسن على ولا نستطيع الحكم عليهما ، إذ لم تترك لهما الفرصة الكافية لاظهار كفايتهما حتى ماتا فى غموض تام ، لم يشعر بولايتهما أحد . وكان أنوجور فى ذلك الحين لا يزال طفلا لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ؛ فقام بتدبير أمره كافور الإخشيد ، الذى بقيت علاقته بهذا الوالى الجديد على ما كانت عليه من قبل ، وهى علاقة الاستاذ بالتلميذ ، وأصبح كافور بذلك صاحب السلطان المطلق فى إدارة الدولة الاخشيدية[١] ، « وبقى الاسم لأبى القاسم والدست[٢] لكافور[٣] » .

وقام فى وجه كافور فى مبدأ حكمه بعض المشاكل الداخلية والخارجية : فنجح فى القضاء على ثورة قام بها أهل مصر ، فارتفع شأنه عند الناس على اختلافهم[٤] . وبعد ذلك بقليل وردت الأنباء باضطراب الأمور فى الشام واستيلاء سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب على دمشق وبأنه عول على المسير إلى الرملة لغزو مصر ، فحاربه كافور وانتصر عليه انتصاراً حاسماً بالقرب من مرج عذرا بجوار دمشق . ودخل الجيش المصرى مدينة حلب ، وعقدت بين الفريقين معاهدة الصلح ، بنفس الشروط التى عقدت بها فى أواخر أيام الإخشيد ، ماعدا الجزية التى وقف دفعها .

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ١٥٤ . ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ١٤٥ . الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٩٣ .

(٢) معناه الديوان ومجلس الوزارة والرياسة (راجع كتاب شفاء الغليل) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢ .

(٤) المصدر السابق جـ ٤ ص ٢

وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسى على تولية الأمير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، كما ضم إلى حكم مصر فيما بعد كل بلاد سورية حتى مدينتى حلب وطرسوس . وبذلك عظم شأنه وزادت شهرته ، واستطاع أن يقبض على زمام الأحكام من غير أن تكون له سلطة شرعية . وخاطبه علية القوم بالأستاذ ، وذكر اسمه فى الخطبة ، ودعى له على المنابر فى مصر والبلاد التابعة لها ، وأتيح له بما أغدقه من العطايا والهبات أن يكتسب محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين(١).

على أن أنوجور لما كبر وشعر بحرمانه من سلطته ظهرت الوحشة بينه وبين كافور . وانقسم الجند فريقين : الإخشيدية ، وهم مماليك الأسرة الإخشيدية وأنصارها ، والكافورية وهم أنصار كافور الذين رقاهم إلى المناصب العالية فى الدولة . ومع ذلك ظل كافور على ماهو عليه ، يصرف لابن سيده راتباً سنويا قدره أربعمائة ألف دينار .

ولاشك أن كافوراً كان مشغوفاً بالإمارة ولوعا بالسلطة ؛ فإنه لما تولى أبو الحسن على ابن الإخشيد بعد أخيه أنوجور ، ظل كافور يباشر الأمور بنفسه ، على الرغم من أن الوالى الجديد قد ناهز الثالثة والعشرين من عمره ، بل إنه حرمه كل عمل ، ومنع الناس من الاجتماع به ، فأصبح أبو الحسن أسيراً فى قصره لاعمل له إلا الصلاة أو اللهو . وعين له كافور — كما عين لأخيه من قبل — أربعمائة ألف دينار فى كل سنة ، وبقى أبو الحسن على ذلك إلى أن مات سنة ٣٥٥ هـ بالعلة التى مات بها أخيه من قبل .

وكان الوارث للعرش ولد صغير يدعى أحمد بن أبى الحسن على ، فحال كافور دون تعيينه بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه ، وبقيت مصر بغير أمير نحواً من شهر . وفى المحرم سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتاباً من الخليفة العباسى بتقليده على ولاية مصر ، وأظهر الخلع التى وصلت إليه من الخليفة ، فنودى به والياً على مصر وما يليها من البلاد ، فلم يتغير لقبه «الأستاذ» ، ودعى له بعد الخليفة على المنابر(٢) .

ظل كافور على رأس الحكومة المصرية زهاء سنتين وأربعة أشهر (١٠ صفر ٣٥٥ — ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ) . ويصف المؤرخون عهده بأنه كان عهد أسود ، توالت فيه المصائب على مصر ؛ فقد تعرضت بلاد الشام لغارات القرامطة الذين نهبوها وقبضوا على

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٥٤٧ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب ص ٤٦ ، ٤٩ ، نقلا عن أبى عبد الله محمد بن سعد القرطبى .

قافلة مصرية كبيرة تحتوى على عشرين ألف جمل كانت ذاهبة إلى مكة لأداء فريضة الحج سنة (٣٥٥ هـ) ، ووقعت بمصر زلازل مروعة ، وشبت نيران هائلة ، دمرت ١٧٠٠ منزل من منازل الفسطاط ، وأغار ملك النوبة على مصر فجأة ، وعاث فسادا فى البلاد الواقعة بين الشلال الأول وأخميم . فأحرق بعض المدن وقتل أهلها بالسيف ونهب أموالهم . وكان أشد هذه الأهوال انخفاض ماء النيل .

وفى عهد كافور حاول المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين العودة لغزو مصر ، وسار بجيشه إلى حدود هذه البلاد الغربية ، ووصل إلى الواحات . فجهز إليه كافور جيشاً وقف تيار تقدمه وطرده ، ولكنه تلقى بالقبول الدعاة الفاطميين الذين قدموا عليه من قبل المعز يدعونه إلى طاعته والاعتراف بسيادته ، ووعد كثير من رجال بلاطه وكبار موظفى دولته بتقديم الولاء للخليفة الفاطمى .

روى أبو المحاسن [1] عن الذهبى : « وكان كافور يدنى الشعراء ويجيزهم ، وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية . وله ندماء . وكان عظيم الحرمة ، وله حجاب ، وله جوار مغنيات ، وله من الغلمان الروم والسود مايتجاوز الوصف زاد ملكه على مولاه الإخشيد . وكان كثير الحلم والهبات ، خبيرا بالسياسة . فطنا ذكيا ، جيد العقل داهية . كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس . ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء . وتم له الأمر » .

وقد نبغ بمصر فى عهد كافور الإخشيد كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين ، ومن أشهرهم القاضى أبو بكر بن الحداد ، وتلميذه محمد بن موسى المعروف بسيبويه المصرى ، وأبو عمر الكندى ، والحسن بن زولاق .

توفى كافور بمصر فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ ، وعاش بعضا وستين سنة ، وكانت إمارته على مصر ثلاثا وعشرين سنة ، استقل منها بالملك سنتين وأربعة شهور ، خطب له فيها على منابر مصر والشام والحجاز والثغور ، مثل طرسوس والمصيصة وغيرها ، وحمل بابوته إلى القدس فدفن به . وكتب على قبره :

ما بال قبرك يا كافور منفردا بالصحصح المرت بعد العسكر اللجب

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ .

يدوس قبرك آحاد الرجال وقد كانت أسود الشرى تخشاك فى الكتب

ولما توفى كافور ، اختار رجال البلاط أبا الفوارس أحمد حفيد الإخشيد والياً على هذه البلاد ؛ وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من عمره ، فعينوا الحسن بن عبيد الله بن طغج — والى الشام — وصيا عليه غير أنه لم يلبث أن استبد بالأمر وأساء معاملة الأهلين ، فسخط عليه المصريون ، واضطر أخيراً إلى العودة إلى بلاد الشام وقد انتهز المعز لدين الله الفاطمى فرصة هذا الاضطراب الذى فشا فى مصر ، وضعف بغداد عن الدفاع عنها ، لاشتغالها بصد غارات البيزنطيين الذين توغلوا فى بلاد الدولة العباسية ، فبعث جيشا لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٨ هـ .

الدولة الفاطمية

(فى بلاد المغرب ومصر)

٢٩٨ — ٥٦٧/ ٩٠٩ — ١١٧١

الخلفاء الفاطميون[1]

	هـ	ميلادية		هـ	ميلادية
١) المهدى أبو محمد عبيد الله	٢٩٧	٩٠٩	٨) المستنصر أبو تميم معد	٤٢٧	١٠٣٥
٢) القائم أبو القاسم محمد	٣٢٢	٩٣٤	٩) المستعلى أبو القاسم أحمد	٤٨٧	١٠٩٤
٣) المنصور أبو طاهر إسماعيل	٣٣٤	٩٤٥	١٠) الآمر أبو على المنصور	٤٩٥	١١٠١
٤) المعز أبو تميم معد	٣٤١	٩٥٢	١١) الحافظ أبو الميمون عبدالمجيد	٥٢٤	١١٣٠
٥) العزيز أبو منصور نزار	٣٧٥	٩٧٥	١٢) الظافر أبو المنصور إسماعيل	٥٤٤	١١٤٩
٦) الحاكم أبو على المنصور	٣٨٦	٩٩٦	١٣) الفائز أبو القاسم عيسى	٥٤٩	١١٥٤
٧) الظاهر أبو الحسن على	٤١١	١٠٢٠	١٤) العاضد أبو محمد عبد الله	٥٥٥	١١٦٠
				٥٦٧	١١٧١

(١) Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 71—3 .

جدول الخلفاء الفاطميين

عبيد الله المهدى (٢٩٦ — ٣٢٢ هـ) :

اختلف المؤرخون فى نسب الفاطميين مذاهب شتى : فبعضهم يقول إنهم ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ومن ثم سموا الإسماعيلية أيضاً، وبعضهم ينكر صحة نسبهم إلى إسماعيل، ويقول إنهم يرجعون فى نسبهم إلى رجل فارسى هو عبدالله بن ميمون القداح الأهوازى، الثنوى المذهب، الذى يقول بوجود إلهين اثنين : إله النور وإله الظلمة .

ولد سعيد بن محمد الحبيب فى سنة ٢٥٩ هـ (وقيل سنة ٢٦٠) [١] فى سلمية، التى اتخذها الإسماعيلية مركزاً لدعوتهم . وكان أبوه قد أرسل فى سنة ٢٧٠ هـ أحد أشياعه، ويسمى رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى، إلى بلاد اليمن، لنشر الدعوة للفاطميين فيها، وسرعان ما اعتقد أهالى اليمن فى المهدى من آل على وانتظروا ظهوره، بفضل جهود ابن حوشب الذى ابتنى حصنا بجبل لاعة باليمن، وتغلب على معظم أرجائها، وبعث دعاته إلى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب . ولما اتصل بابن حوشب موت الحلوانى وأبى سفيان داعى الاسماعيلية فى بلاد المغرب، عهد إلى أبى عبدالله الشيعى، وكان من أهل صنعاء، بنشر الدعوة فى هذه البلاد . ولما استقر به المقام وصادفت دعوته فيها شيئاً كثيرا من النجاح، أرسل إلى سلمية يدعو عبيد الله (المهدى) للحضور إلى إفريقية [٢] ؛ فرحب بهذه الدعوة، ولكن الخليفة العباسى المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) علم بذلك، فأمر بالقبض عليه .

من ذلك نقف على مدى الصعاب التى لقيها عبيدالله المهدى فى طريقه إلى المغرب، وكيف أفلت من القبض عليه فى مصر حيث ظهر فى زى التجار، وكيف استغل الأموال الكثيرة التى حملها معه من سلمية فى رشوة بعض الولاة فى طريقه إلى المغرب ليأمن الوقوع فى أيديهم، وكيف أفلت من أيدى عمال زيادة الله بن الأغلب أمير إفريقية الذى وضع الأرصاد والعيون للقبض عليه، ولكن اليسع بن مدرار أمير سجلماسة، التى اتخذها بنو مدرار حاضرة لولايتهم منذ سنة ١٦٠ هـ، لم تجد معه الرشوة نفعا، وسرعان ما قبض على عبيد الله المهدى وحبسه [٣]، ثم أخذ أبو عبدالله يواصل فتوحه، على الرغم من وقوع المهدى فى يد اليسع،

---

(١) قال ابن خلكان (وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٧٢) : وكانت ولادته فى سنة ٢٥٩ هـ، وقيل سنة ٢٦٠ هـ بمدينة سلمية، وقيل بالكوفة، ودعى له بالخلافة على منابر مدينة رقادة فى شهر ربيع الأول سنة ٢٩٧ هـ .

(٢) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٥٢ .

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٣ — ١٤ .

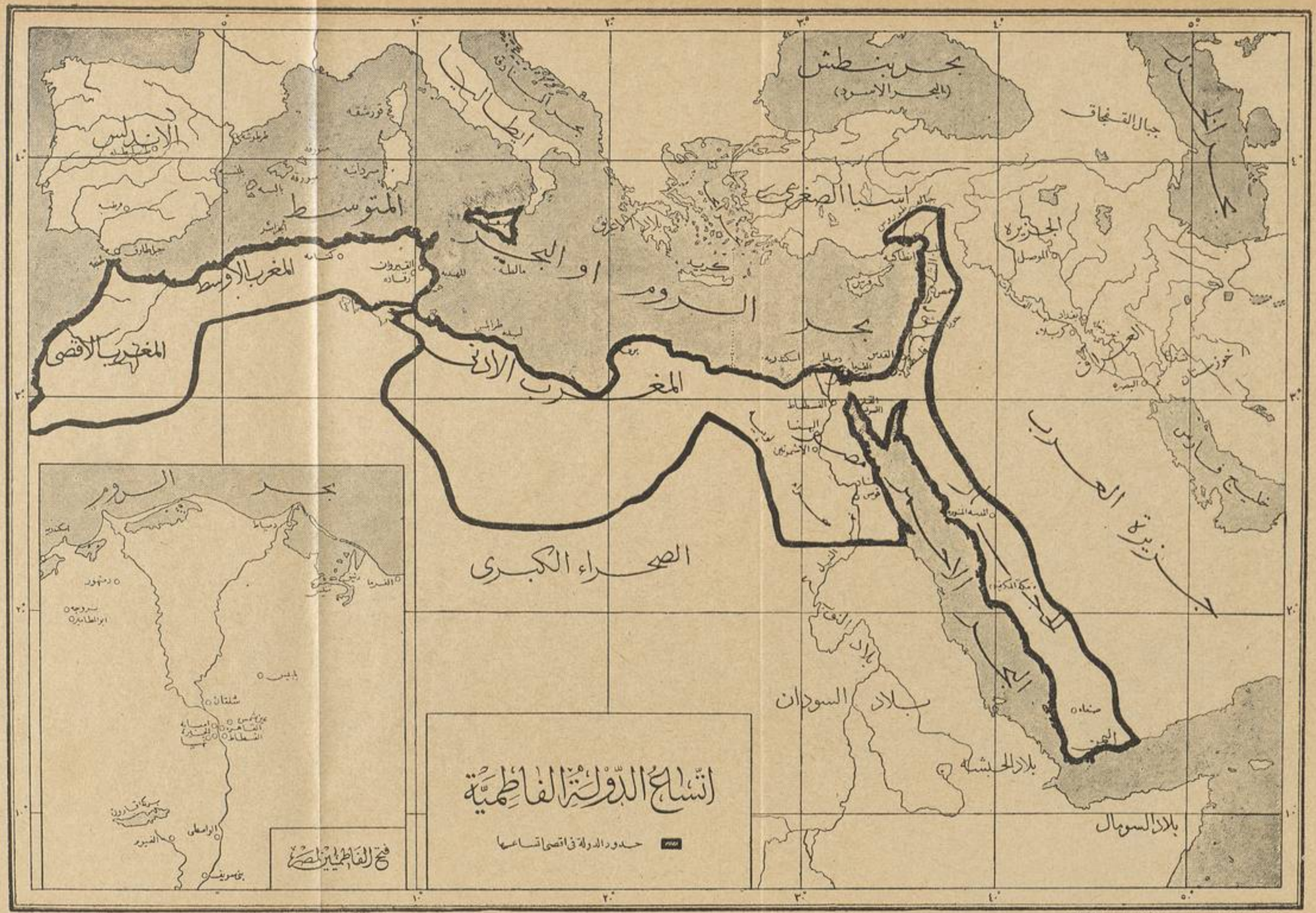

طبعت بمصلحة المساحة المصرية بالقاهرة (٦٣٢/١٥٢١)

ويمد نفوذه على معظم أرجاء المغرب ، واستطاع أخيراً أن يدخل رقادة (رجب ٢٩٦ هـ) التى اتخذها إبراهيم الثانى الأغلبى (٢٦١ — ٢٨٩ هـ) مقرا لإمارته ، ويستقر فى دار الإمارة ، ويزيل نفوذ الأغالبة ، ويبطل اسم الخليفة العباسى من الخطبة [١] .

ظل عبيد الله المهدى فى حبسه بسجلماسة حتى تم لداعى الشيعة الفتح والنصر ؛ فسار فى قوة كبيرة إلى هذه المدينة ، ولما سمع اليسع بن مدرار بوصول أبى عبد الله الشيعى إليها ، هرب ليلا ، وحمل معه أقاربه وأمتعته ، وأطلق داعى الشيعة عبيد الله المهدى من سجنه (٧ رجب سنة ٢٩٦ هـ) .

قرب المهدى من القيروان ، حيث سلم عليه أهلها بالخلافة ، وبايعوه على الطاعة ، وذكر اسمه فى الخطبة ، وتقلب « المهدى أمير المؤمنين » . ولم يلبث أن قسم على رؤساء كتامة الذين ساعدوا على إقامة دولته ، أعمال هذه الدولة ، ثم دون الدواوين ، وجبى الأموال ، واستقرت قدمه فى هذه البلاد .

ولم يكتف عبيد الله المهدى بما أحرزته جيوشه من نصر وظفر وما استولت عليه من بلاد ، بل عمل على مد سلطانه إلى مصر ، وعلى أثر تأسيس دولته فى القيروان ، وضع الخطط لتحقيق سياسته ، وأعد فى سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) جيشا من المغاربة تحت قيادة ولى عهده أبى القاسم ، وحباسة بن يوسف ، أحد زعماء كتامة ، واستولى هذا الجيش على برقة ، ثم واصل السير ، حتى استولى على الاسكندرية وسار إلى الوجه البحرى .

ولكن الخليفة المقتدر العباسى بعث مؤنسا الخادم [٢] على رأس جيش كبير ، قيل إنه بلغ أربعين ألفا ، أحل الهزيمة بالجيش الفاطمى وأرغمه على العودة إلى المغرب [٣] ، وفى سنة ٣٠٧ هـ سار إلى مصر جيش آخر بقيادة أبى القاسم بن المهدى واستولى على الاسكندرية فأرسل الخليفة العباسى مؤنسا الخادم فألحق الهزيمة بالفاطميين ، وأحرق كثيرا من مراكبهم ، وأرغمهم على العودة إلى بلادهم (سنة ٣٠٩) [٤] . ويقول الكندى [٥] عن

---

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٥٧ — ٦٠ .
(٢) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ٣٦ .
(٣) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٦٨ — ٢٧٣ . المقريزى : اتعاظ الحنفا باخبار الخلفا ص ٤١ .
(٤) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٨٣ — ٨٦ . الكندى : كتاب الولاة ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .
(٥) كتاب الولاة ص ٢٨١ — ٢٨٧ .

الحملة الفاطمية الثالثة على مصر، إنها ظلت ثلاث سنين (٣٢١ — ٣٢٤ هـ) ، وإن معاهدة الصلح أبرمت بين الفريقين فى سنة ٣٢٣ هـ ، ولكن هذا الصلح لم يطل أمده . فقد انضم بعض زعماء المصريين إلى جيش المغاربة الذى دخل الاسكندرية فى ربيع الثانى سنة ٣١٤ هـ فبعث إليهم الاخشيد جيشا أحل بهم الهزيمة وأرغمهم على العودة إلى بلادهم (١) .

أقام عبيد الله المهدى بالقيروان الذى اتخذها حاضرة لدولته إلى سنة ٣٠٣ هـ ، حيث اختط مدينة المهدية على بعد مرحلتين جنوبى القيروان ، وقد ظلت هـذه المدينة آهلة بالسكان إلى سنة ٥٤٣ هـ . حين أرسل روجر النرمندى صاحب صقلية أحد قواده فاستولى عليها . وبقيت فى أيدى الفرنجة إلى أن استولى عليها عبد المؤمن فى سنة ٥٥٥ هـ . ومات عبيدالله المهدى فى سنة ٣٢٢ هـ .

القائم والمنصور (٣٢٢ — ٣٤١ هـ):

ولى أبوالقاسم الخلافة بعد أبيه عبيد الله المهدى ، وتلقب القائم . وكان كغيره من الخلفاء الفاطميين ، ينقم على السنيين ، حتى إنه أمر بلعن الصحابة . وأن ذلك أثار غضب المغاربة . وخاصة الخوارج الذين ثاروا على الفاطميين . وكان أشد هذه الثورات خطرا وأشدها بلاء ، تلك الثورة التى أشعل نارها أبويزيد مخلد بن كيداد ،والتى استمرت طوال عهد القائم ولم تخمد إلا فى عهد ابنه المنصور .

توفى القائم فى شهر رمضان سنة ٣٣٤ هـ . وخلفه ابنه أبوالطاهر إسماعيل الذى تلقب المنصور (٣٣٤ — ٣٤١هـ) . وقد ولد بالقيروان سنة ٣٠٢ هـ (وقيل ٣٠١ هـ) ، وكان حين ولى الخلافة فى الثانية والعشرين من عمره ، وقد اشتهر الخليفة الجديد بالشجاعة ورباطة الجأش ، كما استطاع أن يؤثر فى نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب (٢) .

وقد أخفى المنصور موت أبيه حتى لا يؤثر فى حماسة جيوشه التى كانت مشغولة بثورة أبى يزيد ، وانقطعت العلاقات بين مصر وبلاد المغرب طوال عهد هذا الخليفة ، لأنه قصر كل همه وأنفق كل موارد بلاده للقضاء على هذه الثورة التى شملت كل أرجاء الدولة الفاطمية .

---

(١) ابن الأثير حـ ٨ ص ٩٨ . ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٣٩ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٧٧ .

ولما ولى المنصور الخلافة قويت جيوشه بانضمام صنهاجة وغيرها إليه ،واستطاع أن يهزم جيوش أبى يزيد ، وطارده إلى الصحراء ، وقبض عليه ، وسيق إلى المهدية حيث مات متأثراً من جراحه (المحرم ٣٣٦ هـ)[١] .

وقد قضى المنصور البقية الباقية من خلافته فى إعادة تنظيم بلاده ،فأنشأ أسطولا كبيراً، وأسس مدينة المنصورية (٣٣٧ هـ) على مقربة من القيروان ، واتخذها حاضرة لدولته ، وغدت منذ ذلك الحين حاضرة الفاطميين ، إلى أن قدم ابنه المعز لدين الله مصر فى سنة ٣٦٢ هـ ، واتخذ القاهرة التى بناها جوهر (٣٥٨ هـ) حاضرة لدولته .

ويرجع الفضل فيما أحرزه المنصور من نصر على أبى يزيد إلى شجاعته وإقدامه ، وإلى فصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب ، وقد حكم سبع سنين وستة أيام ، ومات فى يوم الجمعة آخر شوال سنة ٣٤١ هـ ، ودفن بالمهدية ، وقد قيل فى سبب موته إنه خرج من المنصورية حاضرة ملكه للتنزه ، فاشتد هطول المطر وهبوب الريح ، حتى فاجأه المرض وأوهن جسمه ومات أكثر من كان معه . ولما دخل المنصورية أراد أن يدخل الحمام ،فنهاه طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلى ، فاشتد عليه المرض ولازمه الأرق ، فأعطاه منوما فمات[٢] .

المعز لدين الله (٣٤١ — ٣٦٤هـ):

كان المعز مثقفا يجيد عدة لغات : منها اللغة التليانية التى تعلمها فى صباه بجزيرة صقلية ، واللغة الصقلية التى كانت منتشرة فى هذه الجزيرة ، كما عرف اللغة السودانية ، وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب[٣] فضلا عما عرف به من حسن التدبير وإحكام الأمور كما كان عليه آباؤه من قبل .

وفى عهده دانت له كافة قبائل البربر ، ولاسيما قبيلتا بنى كملان وبنى مليلة من قبائل هوارة . وقد أبتا أن تذعنا للخلفاء الفاطميين من قبله . ويرجع الفضل فى امتداد نفوذه

---

(١) راجع ابن الأثير جـ ٨ ص ١٥٠ — ١٥٨ ، والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٤٥ — ٥٥ و٥٩ ، وابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب : جـ ٢ ص ٢٢٤ — ٢٢٦ ، وابن أبى دينار : المونس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٥٩ — ٦١ ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٨٦ — ٨٧ .

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٧ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦١ ، ٦٥ .

على كافة بلاد المغرب إلى جوهر الصقلى وزيرى بن مناد الصنهاجى . وقد بعث هذا الخليفة جوهرا على رأس جيش كثيف يضم كثيرا من رجالات المغاربة لفتح ما بقى من بلاد المغرب . فوصل إلى ساحل المحيط الأطلسى . وأرسل إلى مولاه المعز هدية من سمك هذا المحيط إشعاراً ببلوغ نفوذه أقصى بلاد المغرب غربا .

ولما دانت بلاد المغرب للمعز فكر فى فتح مصر . ولا غرو فقد حاول الفاطميون فتح هذه البلاد من أجل ثروتها وهدوء الأمر فيها . وأهمية موقعها الجغرافى من الناحيتين السياسية والحربية . وقربها من بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، التى كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين ، ذلك إلى أن نجاح الفاطميين فى فتح مصر يسهل عليهم الاستيلاء على المراكز الاسلامية القديمة ، وهى المدينة المنورة ، ودمشق ، وبغداد حاضرة الدولة العباسية فى ذلك الحين .

ومن العوامل التى شجعت المعز على فتح مصر ، استتباب الأمن فى كافة أرجاء بلاد المغرب بعد إخماد ثورة أبى يزيد ؛ وانتشار الاضطرابات والفوضى فى مصر إثر وفاة كافور سنة ٣٥٨ هـ . وضعف الخلافة العباسية واشتغالها بدفع البيزنطيين عن بلادها . أضف إلى ذلك تأييد الشيعيين فى مصر للدعوة الفاطمية . حتى إنهم كتبوا إلى المعز يطلبون إليه إرسال جيش لفتح هذه البلاد . وكان ليعقوب بن كلس الذى استوزره كافور ثم هرب إلى بلاد المغرب واتصل بالمعز ، أثر كبير فى بيان حالة الضعف التى سادت مصر على أثر وفاة كافور ؛ وحث الخليفة على المبادرة بإرسال جيوشه إليها .

وفى شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ ، سار جوهر نحو مصر[١] ، ومر على برقة ، ثم استأنف المسير إلى الإسكندرية ، ففتحت له أبوابها من غير مقاومة ، ومنع جنده من التعرض للأهلين ، واستطاع أن يكبح جماح عساكره الذين وسعت لهم الأرزاق[٢] .

ولما اتصل بأهل الفسطاط نبأ وصول جيوش الفاطميين إلى الإسكندرية واستيلائهم عليها ، ندبوا الوزير جعفر بن الفرات لمفاوضة جوهر فى الصلح ، فأجابه جوهر إلى ماطلب وكتب له عهداً تعهد فيه بأن يطلق للمصريين حرية العقيدة على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ،

---

(١) ابن خلكان : جـ١ ص ١٤٨ .

(٢) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوتيخا ص ١٣٢

وأن يقوم بما تطلبه البلاد من وجوه الإصلاح ، كما تعهد بنشر العدل والطمأنينة فى النفوس بحماية مصر من عدوان المغيرين عليها[١].

ولما اتصل بالخليفة المعز نبأ فتح مصر ، سر سروراً عظيماً ، وأنشده شاعره محمد بن هانىء الأندلسى قصيدة طويلة جاء فى مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر ... فقل لبنى العباس قد قضى الأمر[٢]

وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين عن مصر ، وأصبحت هذه البلاد ولاية فاطمية ، وتحقق حلم الخليفة المعز ومن جاء قبله من الخلفاء الفاطميين ، فى تحويل حاضرة خلافتهم إلى مصر واتخاذها مركز إمبراطوريتهم الشاسعة الأرجاء[٣] .

وجه جوهر همه لمد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز التى كانت تابعة لمصر منذ أيام الطولونيين لذلك عهد إلى جعفر بن فلاح أحد قواد المغاربة من قبيلة كتامة بهذا الفتح ، لما اشتهر به من الشجاعة وحسن القيادة ، ولأن جوهراً أراد بذلك أن يبعده عن مصر حتى لاينافسه فى حكمها . ولما وصل جعفر إلى الرملة ، لقيه جيش الحسن بن عبيد الله بن طغج والى الرملة ودمشق ، ودارت الدائرة على الحسن ، وأسر مع كثير من جنده ، وسيق إلى الفسطاط ، ثم أرسل إلى بلاد المغرب ، فبقى بها إلى أن مات فى سنة ٣٧١ هـ .

استأنف جعفر السير إلى طبرية واستولى عليها من يد واليها فاتك الذى كان يليها من قبل الاخشيديين ، دون أن يلقى مقاومة تذكر ثم دخل دمشق ، وأشعل النار فى أسواقها وأذكى الفتنة بين أهلها الذين لعنوا الفاطميين على المنابر ، ولكنهم لم يجدوا بدا من طلب الأمان من جعفر الذى خطب للخليفة المعز الفاطمى على منابر دمشق فى المحرم سنة ٣٥٩ هـ .

وقد أثار جعفر نفوس أهل الشام فلم يخلصوا له ، واستمروا يدبرون الفتن والمؤامرات للخلاص من حكم الفاطميين الذين يخالفونهم فى المذهب الدينى ، واستنجدوا بالقرامطة والأتراك الذين تفاقم خطرهم فى عهد المعز ، ولم يتم القضاء عليهم إلا فى عهد ابنه العزيز .

---

(١) راجع هذا العهد فى المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ — ٦٨ .

(٢) ديوان ابن هانىء ص ٨٦ .

(٣) راجع حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٠٥ — ١١١ .

وبعد أن فرغ جوهر من بناء القاهرة وتأسيس الجامع الأزهر وإقامة الدعوة الفاطمية فى فلسطين والشام والحجاز ،بعث إلى مولاه المعز رسولا ينبئه بذلك ؛ فسر سروراً عظيما ، وخرج من المنصورية حاضرة خلافته ، فوصل إلى سردانية التى دانت هى وصقلية لسيادة الفاطميين ، واستخلف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى على إفريقية ، « وتوجه إلى مصر بأموال جليلة المقدار ورجال عظيمة الأخطار »[١] ، وحمل معه جثث آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله .

دخل المعز الاسكندرية فى ٤ من شعبان سنة ٣٦٢ هـ (٣٠ مايو ٩٧٣ م) ، ثم دخل القاهرة فى ٧ من رمضان سنة ٣٦٢ هـ (١١ يونيه ٩٧٣ م) . ودخل القصر الذى بناه له جوهر وخر ساجداً لله تعالى ، وصلى ركعتين فى إحدى ردهاته . وصلى خلفه من كان معه .

وأقام أولاد المعز وحاشيته وخدمه وعبيده معه فى القصر ، وكان جوهر قد أعد به كل يحتاج إليه الملوك ، ونزل جوهر بقصر الوزارة فى القاهرة[٢] .

وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب ، وغدت القاهرة ، بدل المنصورية ، مركز الدولة الفاطمية الشاسعة الأرجاء .

على أن نقل المعز مقر خلافته من المنصورية إلى القاهرة أفقد الفاطميين إفريقية (تونس) فاستقل بلكين بن زيرى بن مناد شيخ صنهاجة ، وأسس الدولة الزيرية فى سنة ٣٦٢ هـ ، وحذا حذوه الحماديون فى سنة ٣٩٨ هـ . وتقلص ظل الحكم الفاطمى عن كل بلاد المغرب فى عهد المستنصر الفاطمى .

وقد تسلم المعز مقاليد الحكم من جوهر الذى حكم مصر أربع سنين ، ثم أخذ يتوارى عن مسرح السياسة المصرية ولم يعد إلى الظهور إلا فى أواخر سنة ٣٦٤ هـ ، حين تفاقم خطر الأتراك بزعامة أفتكين ، وخطر القرامطة بزعامة الحسن بن أحمد ، واستعصى على المعز كبح جماحهما ، فلجأ إلى جوهر وولاه قيادة جيوشه .

قضى المعز الشطر الأكبر من خلافته فى بلاد المغرب ، ولم يبق فى مصر أكثر من سنتين

---

(١) ابن خلكان : جـ٢ ص ١٠٢ .
(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٠٢ــ ١٠٣ .

إلاقليلا . وقد توفى المعز فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة .

العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) :

يعتبر عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمى عهد يسر ورخاء وتسامح دينى وثقافة . ولاعرو فهو أول من حول الجامع الأزهر إلى جامعة بمعناها المعروف الآن بعد أن كان معهدا خاصاً بدراسة الفقه الشيعى وإقامة الصلاة .

ولد أبو منصور نزار الملقب بالعزيز بالله فى يوم الخميس ١٤ المحرم سنة ٣٤٤ هـ بمدينة المهدية التى بناها عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية ، وقدم القاهرة مع أبيه المعز فى سنة ٣٦٢ هـ ، وخلفه فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ وهو فى الثانية والعشرين من عمره .

وقد ترامت رقعة الدولة الفاطمية فى عهد العزيز من بلاد العرب شرقا إلى ساحل المحيط الأطلسى غربا ، ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوبا . وزادت مملكته — كما يقول ابن خلكان (ج ٢ ص ١٥٣) — على مملكة أبيه ، وفتحت له حمص وحماة وشيزر وحلب أبوابها ، وخطب له المقلد بن المسيب العقيلى صاحب الموصل بالموصل وأعمالها فى سنة ٣٨٢ هـ ، وضرب اسمه على السكة والبنود وخطب له باليمن.

وفى أيام العزيز تفاقم خطر القرامطة وأفتكين ببلاد الشام ، وكان قد استعصى أمرهما على أبيه المعز من قبل . ولم يكد العزيز يوطد سلطته فى مصر حتى وجه عنايته لاسترداد بلاد الشام وفلسطين وكانتا تابعتين لمصر فى عهد الطولونيين والإخشيديين ؛ فوجه جوهر الصقلى ولكنه لم يستطع استردادهما ، وعاد إلى مصر ، وأشار على العزيز بحرب أفتكين والقرامطة بنفسه ، فالتقى العزيز بجيوشهما فى الرملة ، ودارت الدائرة أخيراً على القرامطة وأفتكين (المحرم سنة ٣٦٨ هـ) . وبذلك قضى الخليفة الفاطمى على هذه الفتنة بعد أن كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية الفتية ،وفر أفتكين على فرس له فقبض عليه بعض العرب بعد أن بذل الخليفة الفاطمى لمن يأتى به مائة ألف دينار ، ولكن العزيز عفا عنه وأغدق عليه .

وقد وجه الفاطميون فى عهد العزيز اهتمامهم إلى بث عقائد المذهب الشيعى ، وأصبحت كل أمور الدولة فى أيدى الشيعيين ، أو بعبارة أخرى فى أيدى المغاربة أنصار الفاطميين ، وعزل أبو الطاهر القاضى السنى وعين مكانه عبد العزيز بن النعمان القاضى المغربى الفاطمى

المذهب . وقلد العزيز يعقوب بن كلس الوزارة (رمضان سنة ٣٦٨ هـ) فأدار شئون الدولة الفاطمية بمهارة وهمة .

وقد بنى الخليفة العزيز كثيراً من المنشآت التى تدل على وفرة ثروة مصر فى عهده : منها القصر الغربى ، واهتم ببناء المساجد ، فأسس فى سنة ٣٨٠ هـ مسجداً أتمه ابنه الحاكم فنسب إليه ، وأسس قاعة الذهب حيث يجتمع مجلس الملك ؛ وبنت الملكة تغريد زوجة المعز فى عهده مسجد القرافة وقصر القرافة .

وفى عهد العزيز نبغ طائفة من الشعراء والكتاب والأطباء والمؤرخين : ومن الشعراء أبو حامد الأنطاكى الذى أقام بمصر زمنا طويلا ، ونظم معظم قصائده فى مدح المعز والعزيز والحاكم ، وأشاد بذكر جوهر الصقلى ويعقوب بن كلس . ونبغ فى الطب على بن رضوان الذى ألف عدة كتب فى الطب والفلسفة والمنطق ، ونبغ فى التاريخ الحسن بن إبراهيم بن زولاق الذى يعتبر حجة فى تاريخ العصر الفاطمى الأول ، وأبو الحسن على الشابشتى الذى ولاه العزيز خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه .

وكان العزيز رجلا ممتعا يميل إلى الأبهة ، كما كان خبيرا بالجواهر : ابتدع نوعا جديدا من العمائم محلاة بخيوط الذهب ، وسروجا معطرة بالعنبر ، واقتنى كثيرا من الطرف يزين بها موائده ، وشغف — كخمارويه بن أحمد بن طولون — بجوارح الطير الغريبة ، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان. وكان مغرما بالصيد، وخاصة صيد السباع [١] ذكيا أديناً مستنيرا ، يجيد عدة لغات كأبيه المعز .

وكان العزيز فوق ذلك كريما محبا للعفو ، وصنيعه مع أفتكين التركى خير مثل لذلك . واشتهر العزيز بالتسامح الدينى ، فكان يعطف على النصارى واليهود كما كان أبوه من قبله ، وتزوج بنصرانية ، وتوالى عطفه على الكنيسة القبطية، وقلد عيسى بن نسطورس النصرانى الوزارة ، كما عين منشا بن إبراهيم اليهودى بلاد الشام [٢] .

ومات العزيز ببلبيس سنة ٣٦٨ هـ ، وهو فى الرابعة والأربعين من عمره [٣] .

---

(١) ابن خلكان جـ ٢ ص ١٥٢ .

(٢) أبو صالح الارمنى : كنائس وأديرة مصر ٤٥ — ٤٦ .

(٣) ذكر ابن القلانسى (ص٤٢) أنه ولد فى القيروان سنة ٣٤١ هـ ، وأن مدة خلافته إحدى وعشرون سنة ، وهو خطأ واضح .

الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ هـ) :

ولد أبو على المنصور فى شهر ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ . وعهد إليه أبوه بالخلافة من بعده فى سنة ٣٨٣ هـ ، ثم بويع له بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه أبوه ، وذلك فى (رمضان ٣٨٦هـ) ، وله إحدى عشرة سنة ونصف سنة ، وتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان الخادم . ويمكن تقسيم عهد الحاكم ثلاثة أقسام .

(الأول) من سنة ٣٨٦ إلى سنة ٣٩٠ ، وكان الحاكم فى هذه المدة لا يملك من أمور السلطان شيئا ، إذ كانت كل السلطة فى يد ابن عمار ثم فى يد برجوان .

(الثانى) من سنة ٣٩٠ إلى سنة ٣٩٥ هـ ، وفيها كان للحاكم على حداثة سنه سلطة كبيرة أظهر فيها تعصبا شديدا للمذهب الفاطمى ؛ وبذلك اضطهد أهل الذمة من ناحية والمسلمين من غير الشيعيين من ناحية أخرى (١) .

(الثالث) من سنة ٣٩٦ إلى سنة ٤٠١ هـ . وفى هذه الفترة بدل الحاكم سياسة التعصب ، مدفوعا بعاملين هما تهديد حدود مصر من ناحية الغرب ، حين أغار عليها أبو ركوة الذى ادعى النسب للأمويين فى الأندلس بجيش كبير من المغاربة ، وأعلن أنه أحق بامتلاك مصر من الفاطميين . وقد لاقى الحاكم صعوبة كبيرة فى القضاء على أبى ركوة ، حتى أسر وصلب على أحد أبواب القاهرة ، أما العامل الثانى فهو ماقاسته مصر من جراء انخفاض النيل مدة ثلاث سنين (٣٩٨ — ٤٠١ هـ) (٢) .

(الرابع) من سنة ٤٠١ إلى سنة ٤١١ هـ . وفيها كانت سياسة الحاكم تمتاز مع رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم بعنف كثير ، كما كانت تمتاز بشىء كثير من التذبذب والاضطراب (٣) .

على أن سياسة الحاكم هذه ، وإن كانت قد أثارت سخط المصريين عامة ، ساعدت على إقرار الأمن والمحافظة على الآداب العامة ، وقضت على الفوضى التى كانت سائدة فى أوائل

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٥٦ ، ٥٩ — ٦٠ .
(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٨٧ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ص ١٢٦ .

عهده . وفى عهده ظهرت طائفة الدرزية التى دعت إلى الاعتقاد بألوهيته، مما أثار بينه وبين السنيين ذلك النزاع الذى انتهى بقتله فى سنة ٤١١ هـ .

وقد أنشىء فى عهد الحاكم دار الحكمة التى كان يشتغل بها كثير من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين ، وألحق بها مكتبة أطلق عليها دار العلم ، حوت كثيراً من أمهات الكتب مما ألف فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية .

الظاهر والمستنصر (٤١١ — ٤٨٧ هـ) :

ولد أبو هاشم الظاهر فى شهر رمضان سنة ٣٩٥ هـ ، وولى الخلافة بعد قتل أبيه بأيام (شوال ٤١١ هـ) ، وقد قامت عمته ست الملك بالوصاية عليه فى الفترة الأولى من حكمه ، فأظهرت كفاية ممتازة فى إدارة شئون البلاد ، وبذلت العطاء للجند ، وظلت تشرف على أعمال الدولة إلى أن توفيت فى سنة ٤١٥ هـ .

وكان الظاهر سمحا ، عاقلا ، لين العريكة . استطاع بحسن سياسته أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له ، فتمتعوا فى عهده بالحرية الدينية . كما وجه عنايته إلى ترقية شئون البلاد وتحسين حالة الزراعة (١) .

ولم يتمتع الظاهر بالخلافة مدة طويلة، فقد مرض بالاستسقاء ، وتوفى فى منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ. ولما علم وزيره الجرجرائى بذلك ،أخذ البيعة لابنه أبى تميم الذى تلقب المستنصر .

ولد أبو تميم محمد بن الظاهر فى شهر جمادى الآخرة سنة ٤٢٠ هـ ، وبويع له بالخلافة فى يوم وفاة أبيه ، وكان فى السابعة من عمره ، وظل فى الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر . وكان أطول الخلفاء عهدا ، غير أن مصر لم تتمتع طوال هذه المدة بالرخاء والطمأنينة غير فترة قصيرة . ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية أدت إلى تزعزع مركز الخلافة الفاطمية .

وقد امتد سلطان الفاطميين فى القسم الأول من عهد المستنصر على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال إفريقية . وكان اسمه يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص٢٥٢ .

الأطلسى غربا إلى البحر الأحمر شرقا ، وكذا فى صقلية واليمن والحجاز والموصل ، بل فى بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحوا من سنة ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث أن خرج من سلطان الفاطميين ؛ فقد أعلن بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى استقلاله وأسس الدولة الزيرية فى سنة ٣٦٢ هـ ، وحذا حذوه الحماديون فى سنة ٣٩٨هـ، ولم تأت سنة ٤٤٣هـ حتى تقلص الحكم الفاطمى من بلاد المغرب . وفى سنة ٤٧٥ هـ زالت سلطة الفاطميين من بلاد المغرب الأقصى ، واستولى روجر النرمندى على صقلية التى كانت تابعة للفاطميين منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ، وخلع أمير مكة والمدينة طاعتهم فى سنة ٤٦٢ هـ .

وعلى الرغم من المنازعات التى قامت فى أوائل عهد الخليفة المستنصر بين التسترى والفلاحى ، وتدخل أم الخليفة فى إدارة شئون الدولة ، تمتعت مصر بشىء من الطمأنينة والرخاء ؛ فقد أمدنا ناصر خسرو عند زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ بوصف ضاف لثروة البلاط الفاطمى وأبهته ، وما كانت عليه القاهرة فى ذلك الوقت من يسر ورخاء [١] .

غير أن هذا الرخاء الذى كانت تتمتع به مصر فى ذلك الحين لم يدم طويلا ، فقد انتشر الوباء والقحط فى مصر ، وانقطع ماء النيل ، فأهملت الزراعة ، وانتشرت المجاعة ، وعم الوباء الذى يعتبر أطول وباء عرفته هذه البلاد فى العصور الوسطى ، وامتد ثمانى سنين (٤٤٦ — ٤٥٤ هـ) ، ونكبت به جميع الأمم الإسلامية من مصر إلى سمرقند ، ودونت عنه قصص مروعة .

ويحسن بنا ألا نطيل الكلام على عهد المستنصر الفاطمى الذى حكم الدولة الفاطمية أكثر من ستين سنة كما تقدم ، ولاسيما بعد أن تقلد بدر الجمالى الوزارة ، وحكم البلاد حكما مطلقا منذ سنة ٤٦٦ هـ ، لأن هذا يخرج بنا عن نطاق هذا الجزء الذى خصصناه لدراسة العالم الإسلامى من سنة ٢٣٢ إلى سنة ٤٤٧ هـ ، أى قبل تقلد بدر الوزارة بنحو عشرين سنة ، وقبل وفاة المستنصر بأربعين سنة (شوال ٤٨٧ هـ) . لذلك رأينا أن نرجىء الكلام على القسم الثانى من عهد المستنصر إلى الجزء الرابع من هذا الكتاب .

---

(١) Safar Nâmeh, p. 127 et seq.

دولة الأغالبة [١]

(فى تونس وغيرها)

١٨٤ — ٢٩٦ / ٨٠٠ — ٩٠٩

	هجرية	ميلادية
١) إبراهيم الأول	١٨٤	٨٠٠
٢) عبد الله الأول	١٩٦	٨١١
٣) زيادة الله الأول	٢٠١	٨١٦
٤) أبو عقال الأغلب	٢٢٣	٨٣٧
٥) محمد الأول أبو العباس	٢٢٦	٨٤٠
٦) أحمد	٢٤٢	٨٥٦
٧) زيادة الله الثانى	٢٤٩	٨٦٣
٨) محمد الثانى	٢٥٠	٨٦٤
٩) إبراهيم الثانى	٢٦١	٨٧٤
١٠) عبد الله الثانى	٢٨٩	٩٠٢
١١) زيادة الله الثالث	٢٩٠	٩٠٣
	٢٩٦	٩٠٩

(١) Stanley Lane—Poole : Muhammadan Dynasties, pp. 37-8.

جدول يمثل تسلسل نسب الأغالبة

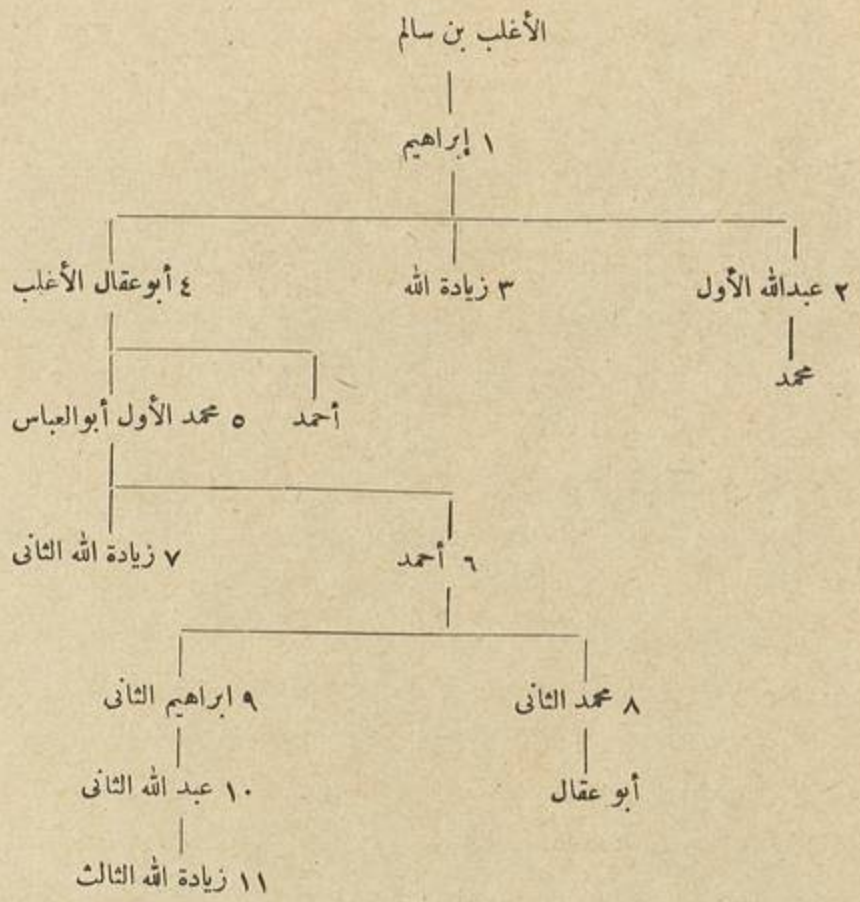

أبو الغرانيق محمد الثانى (٢٥٠ — ٢٦١ هـ) :

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب [١] أن أبا العباس محمد كان من أطول أمراء الأغالبة عهدا ، وأنه قد تخللت عهده حوادث كثيرة كان أشدها خطراً اغتصاب أخيه أحمد الإمارة منه .

---

(١) راجع ما ذكرناه عن دولة الأغالبة إلى عهد محمد الأول فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٣) ص ١٩٢ — ١٩٣ .

على أن محمداً الأول لم يكد ينتهى من ثورة أخيه أحمد عليه فى سنة ٢٣٢ هـ ، حتى فوجىء فى السنة التالية بثورة سالم بن غلبون أمير الزاب ، الذى دارات الدائرة عليه وقتل . وفى سنة ٢٣٤ هـ خرج عمرو بن سليم التجيبي فقضى عليه محمد بن الأغلب فى سنة ٢٣٦هـ وقتله، ودخل مدينة تونس واستولى عليها من أنصار التجيبي .

ولما فرغ محمد الأول من هذه الثورات، تفرغ للاستيلاء على جزيرة صقلية ، واهتم بهذه الحرب اهتماما جعله فى مرتبة الجهاد ضد الروم وقد تولى العباس بن الفضل الفزارى تتمة الفتح : ففتح بين سنتى ٢٣٧ ، ٢٤٧ هـ قصريانة [١] وقطانية وسرقوسة . ويظهر أن المسلمين كانوا يستولون على هذه المدن ثم لا يلبثون أن يتخلوا عنها تحت ضغط الروم، فكانت حرب المسلمين فى هذه الجزيرة ، كما يقولون ، حربا مائعة غير ثابتة [٢] .

وفى سنة ٢٤٢ هـ توفى محمد بن الأغلب بعد أن حكم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر واثنى عشر يوما ، فخلفه ابنه أحمد (٢٤٢ — ٢٤٩ هـ) . « وكان — كما يقول ابن عذارى [٣] — حسن السيرة كريم الأخلاق والأفعال ، من أجود الناس وأسمحهم وأرفقهم بالرعية ، مع دين واجتناب للظلم على حداثة سنه وقلة عمره . وكان يركب فى ليالى شعبان ورمضان ، وبين يديه الشمع ، فيخرج من القصر القديم فيمشى حتى يدخل من باب أبى الربيع (أحد أبواب القيروان) ومعه دواب بالدراهم ، فكان يعطى الضعفاء والمساكين حتى ينتهى إلى المسجد الجامع بالقيروان ، فيخرج الناس إليه يدعون له » .

ولم يطل حكم أحمد حيث توفى سنة ٢٤٩هـ ،فخلفه أخوه زيادة الله الثانى بن محمد (٢٤٩ — ٢٥٠ هـ) ، ولكنه لم يلبث أن توفى بعد سنة واحدة وستة أيام وتولى بعده ابن أخيه محمد الثانى بن أحمد (٢٥٠ — ٢٦١ هـ) ، ويلقب بأبى الغرانيق ، لأنه كان مولعا بصيد الغرانيق، حتى إنه بنى قصرا يخرج إليه ليصيدها، أنفق عليه ثلاثين ألف مثقال من الذهب. وقد وصفه ابن عذارى [٤] فى هذه العبارة فقال أنه كان مسرفا فى العطاء مع حسن سيرته فى الرعية ، ثم غلبت عليه اللذات .

---

(١) قال أبو الفدا (المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٣٨) إن قصريانة « هى المدينة التى بها دار الملك بصقلية ، وكان الملك قبلها يسكن مرقوسة « يقصد سرقوسة » فلما أخذ المسلمون بعض الجزيرة انتقل الملك إلى قصريانة لحصانتها ، ففتحها العباس فى سنة ٢٣٧ هـ ... وبنى بها مسجدا فى الحال ونصب فيها منبرا ، وخطب وصلى فيها الجمعة » .

(٢) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، المكتبة الصقلية ج ١ ص ٤٣١ — ٤٣٣ .

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ١٠٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص١٠٧ وما يليها.

ولم يقع فى عهد أبى الغرانيق مايستحق الذكر ، سوى متابعة فتح صقلية ، مقتديا فى ذلك بأسلافه ، وكثرة توليته الولاة على هذه الجزيرة .وقتل بعض هؤلاء الولاة ،إما بسبب نشوب الحرب بينهم وبين الروم ، أو نتيجة لعمله على إشعال نار العصبية القبلية بين العرب النازلين فيها ويقول ابن عذارى إن الحرب وقعت بين المسلمين والروم فى صقلية من سنة ٢٥٥ هـ إلى سنة ٢٥٩ هـ ، وإن المسلمين حاولوا فى خلال هذه الفترة فتح مدينة سرقوسة وغيرها من أمهات المدن فى هذه الجزيرة وفى جنوبى إيطاليا .

وقد توفى أبوالغرانيق فى شهر جمادى الأولى سنة ٢٦١هـ بعد أن حكم إفريقية وما يليها عشر سنين وخمسة أشهر ونصف ، عاصر فى خلالها من الخلفاء العباسيين المستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد ، وأقره كل منهم على ولايته على ماجرت به العادة فى ذلك العصر .

ابراهيم الثانى — زيادة الله الثالث:

يعتبر إبراهيم الثانى أطول أمراء الأغالبة فى إفريقية عهدا بالإمارة . وقد وقعت فى عهده أمور كثيرة ، منها أنه اغتصب الولاية من ابن أخيه أبى عقال بن محمد الثانى ولما يمض عليه فى الإمارة غير أيام ، ثم بناء مدينة رقادة فى سنة ٢٦٣ هـ ، وفتح سرقوسة نهائياً وسقوطها فى يد المسلمين فى سنة ٢٧٤ هـ ، وتنكيله بالموالى بالقصر القديم لأنهم ثاروا عليه ثم هزيمته العباس بن أحمد بن طولون فى سنة ٢٦٧ هـ .

وتعتبر الحرب التى دارت بين إبراهيم الثانى والعباس بن أحمد بن طولون، الذى خرج على أبيه كما تقدم ، من أهم الأحداث التى وقعت فى عهده ، وقد ذكر ابن عذارى [1] فى إسهاب العوامل التى أدت إلى وقوع هذه الحرب ، وما وقع فيها من معارك، وما انتهت إليه من نتائج . كما تناول الكلام عليها مؤرخو مصر كابن الداية والمقريزى .

ذلك أن العباس بن أحمد بن طولون سولت له نفسه الخروج على أبيه والتوجه إلى إفريقية ، وصغر له أتباعه من شأن إبراهيم الثانى بن أحمد الأغلبى أمير هذه البلاد، فأرسل إليه العباس كتاباً يقول فيه إن أمير المؤمنين قلده أمر إفريقية، ويأمره بالدعاء له على منابرها والاستعداد لاستقباله ، ويخبره أنه قد أقره عليها على أن يحكمها نيابة عنه . ثم سار العباس

---

(١) البيان المغرب ج ١ ص ١١١ — ١١٣ .

حتى وصل إلى مدينة لبدة ، فخرج إليه عاملها وأهلوها مرحبين ، فازدادت نفسه غرورا ، وقبض على عاملها وأباح المدينة لجنده ، فنهبوا أموالها وقتلوا رجالها واستباحوا نساءها ، فاستغاث أهلها بإلياس بن منصور صاحب نفوسه وزعيم الإباضيةمن الخوارج . وقد أرسل إليه العباس بن أحمد بن طولون رسولا من قبله يأمره بالإذعان والخضوع ، فقال إلياس للرسول . « قل لهذا الغلام . أما أنك أقرب الكفار منى وأحقهم بمجاهدتى ، فقد بلغنى من قبيح أفعالك ما لايسعنى التخلف معه عن جهادك . وأنا على إثر رسالتى إليك »[١] . وسرعان ما أرسل إليه جيشا من ١٢٫٠٠٠ مقاتل ، وجرد ابن الأغلب لقتاله جيشاً آخر ، فهزم العباس وعاد إلى برقة[٢] .

« كان إبراهيم — كما وصفه ابن الأثير (ج ٧ ص ١٠١ — ١٠٢) — عادلا حازما فى أموره ، آمن البلاد وقتل أهل البغى والفساد . وكان يجلس للعدل فى جامع القيروان يومى الخميس والاثنين ، يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم . . . وكان عاقلا حسن السيرة محبا للخير والإحسان ، تصدق بجميع ماتملك ووقف أملاكه جميعها . وكانت له فطنة عظيمة بإظهار خفايا العملات[٣] .

توفى إبراهيم الثانى فى شهر ذى القعدة سنة ٢٨٩ هـ ، بعد أن حكم ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر واثنى عشر يوما .

بويع عبد الله أبو العباس بن إبراهيم الثانى بعد أبيه ، ولكنه لم يبق فى الإمارة سوى تسعة أشهر وأحد عشر يوما ، ثم قتل بيد غلمانه ، وقد قيل إن ذلك حدث بإيحاء ابنه زيادة الله فخلفه ابنه زيادة الله الثالث ، وكان أبوه قد قبض عليه وحبسه إذ بلغه أنه يريد الخروج عليه .

وكان زيادة الله آخر أمراء الأغالبة ببلاد المغرب . وفى عهده بدأت أعمال أبى عبد الله الشيعى داعى الفاطميين ، فوقع فى يده كثير من المدن . وقضى زيادة الله أيامه فى اللهو والترف ، وكان وزراءه لاينالون إلا بنجاح المذهب الشيعى الذىاعتنقه معظمهم ، وساعدوا

---

(١) ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ص ٦١ .

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٢٠ .

(٣) لعله يريد بالعملات جمع عملة يعنى المكيدة كما يعبر عنها العوام وكما يفهم من سياق القصة التى ذكرها ابن الأثير .

على إزالة سلطان الأغالبة ومد نفوذ الفاطميين إلى أكثر أجزاء هذه البلاد . وفى سنة ٢٩١ هـ غدا الفاطميون أصحاب السلطان المطلق فى جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان أكبر مدن بلاد المغرب (١).

وقد ذكر ابن عذارى(٢) أن زيادة الله لما سمع بدخول أبى عبد الله الشيعى مدينة رقادة فى سنة ٢٩٦ هـ ، وفرار أهلها منها ، حمل معه ماخف وزنه وغلا ثمنه ، ثم « ركب فرسه وتقلد سيفه وقدم الأحمال تمر بين يديه هارباً على عيون أهله وولده ، فأخذت جارية من جواريه عوداً ووضعته على صدرها وغنته لتحركه على حملها معه فقالت :

لم أنس يوم الوداع موقفها وجفنها فى دموعها غرق
وقولها والركاب سائرة تتركنا سيدى وتنطلق ؟
أستودع الله ظبية جزعت للبين والبين فيه لى حرق »

فدمعت عينا زيادة الله ، وشغله سوء الموقف عن حملها معه ، وخرج من مدينة رقادة مع وجوه رجاله وعبيده ، ولحق بمدينة طرابلس .

وبذلك زال سلطان بنى مدرار عن سلجماسة ، وبنى رستم عن تاهرت ، وبنى الأغلب عن تونس ، وقامت الدولة الفاطمية فى شمال إفريقية .

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ — ٢٧ . حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٥٦ — ٥٧ .

(٢) البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ١ ص ١٤٣ — ١٤٤ .

دولة الأدارسة

(فى مراكش)

١٧٢ — ٣٧٥ / ٧٨٨ — ٩٨٥

أمراء الأدارسة (١)

	هجرية	ميلادية
إدريس	١٧٢	٧٨٨
إدريس الثانى	١٧٧	٧٩٣
محمد بن إدريس الثانى	٢١٣	٨٢٨
على بن محمد	٢٢١	٨٣٦
يحيى الأول بن محمد	٢٣٤	٨٤٩
يحيى الثانى بن محمد		
على الثانى بن عمر بن إدريس الثانى		
يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثانى		
يحيى الرابع بن إدريس بن عمر	٢٩٢	٩٠٤
الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس	٣١٠	٩٢٢

[بربر مكناسة]

على بن عمر بن ادريس الثانى (٢٢١ — ٢٣٤ هـ) :

لما توفى إدريس الثانى فى شهر جمادى الآخرة سنة ٢١٣ هـ ، خلفه ابنه محمد بن إدريس لكنه لم يلبث أن توفى فى شهر ربيع الثانى سنة ٢٢١ هـ ، فخلفه ابنه على بن محمد وكان فى التاسعة من عمره ، ولقب حيدرة وهو لقب على بن أبى طالب، ولم يحدث فى عهده ما يستحق الذكر حتى توفى فى شهر رجب سنة ٢٣٤ هـ ، فخلفه أخوه يحيى بن محمد الذى امتد سلطانه ، وعظمت دولته ، وحسنت أيامه ، واستبحر عمران فاس ، وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار ، وبنيت خارجها الأرباض (٢) .

ولما توفى على بن محمد خلفه ابنه يحيى بن على بن محمد بن إدريس ؛ وكان سيء السيرة

---

(٢) Stanley Lane—Poole : Muhammadan Dynasties, p. 35

(١) ابن خلدون : العبر ص ١٥٤ .

فثارت عليه العامة ، فاختفى بعدوة الأندلس[١] ريثما تخمد الفتنة ، ومات من ليلته . واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل ، الذى تزعم الثورة على يحيى بن على ، على مدينة فاس . وكتبت زوجة يحيى إلى أبيها على بن عمر بن إدريس صاحب الريف وطلبت إليه الحضور لإخماد هذه الثورة ، فجاء إلى فاس واستولى عليها ، وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس الثانى ، وأصبح فى عقب عمر بن إدريس صاحب الريف تارة ، وفى عقب القاسم بن إدريس الزاهد تارة أخرى[٢] .

ولم يلبث أن دخل أهل فاس فى طاعة على بن عمر بن إدريس ، وخطب له على منابر المغرب ، واستقرت قدمه فى هذه البلاد فترة من الزمن . حتى ثار عليه عبد الرزاق الفهرى أحد زعماء الخوارج الصفرية ، وتبعه أهالى البلاد القريبة من مدينة فاس التى دخلها ، ففر على بن عمر إلى أوربة .

على أن فريقاً من أهل فاس بعثوا إلى يحيى بن القاسم بن إدريس ، ويعرف بالعوام[٣] يطلبون منه الحضور إلى بلدهم ، ولما وصل إليهم بايعوه على الطاعة . ثم تفرغ لحرب عبد الرزاق الصفرى ، وأرغمه على الخروج من عدوة الأندلس ، فدخلها يحيى وبايعه أهلها وجميع من نزل بها من أهل الأندلس الربضيين[٤] ؛ وصرف وقته فى قتال الخوارج الصفرية ، ودارت بينه وبينهم وقائع كثيرة ، وظل يحيى أميراً على فاس وما يليها من بلاد المغرب الأقصى إلى أن قتله الربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ .

وقد ذكر السلاوى[٥] أنه بعد وفاة يحيى الأول سنة ٢٣٤ هـ إلى وفاة يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثانى سنة ٢٩٢ هـ وقعت ببلاد المغرب الأقصى حوادث جسام ، بسبب انتشار الفوضى فى هذه الفترة التى دارت فيها رحى الحروب الأهلية بين أبناء إدريس والخوارج الصفرية ، مما أثر تأثيراً سيئاً فى حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية . فقد انتشر القحط وعدمت الأقوات وغلت الأسعار ، وفشا الموت لدرجة لم يعهد أهالى البلاد لها مثيلا من قبل . ففى سنة ٢٥٣ هـ انتشر القحط ببلاد العدوة ، وقاسى الأهلون الشدائد والأهوال

---

(١) بضم العين هى الأرض المرتفعة على ساحل البحر الأبيض والمحيط الأطلسى من بر الأندلس ، ويقابلها عدوة المغرب

(٢) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧٨ .

(٣) ويسمى أيضاً الجوطى نسبة إلى جوطة وهى قرية على نهر سبو ببلاد المغرب وقد نزلها يحيى فنسب إليها . السلاوى ج ١ ص ٧٨ .

(٤) نسبة إلى ربض مدينة قرطبة .

(٥) الاستقصا ج ١ ص ٧٨ ــ ٧٩ .

سبع سنين عجاف ، وفى سنة ٢٦٧ هـ حدثت « زلزلة عظيمة لم يسمع بمثلها ، تهدمت منها القصور ، وانحطت منها الصخور من الجبال ، وفر الناس من المدن ، وتساقطت السقوف والحيطان، وفرت الطيور عن أوكارها، وعمت هذه الرجفة جميع بلاد الأندلس، سهلها وجبالها، وجميع بلاد العدوة من تلمسان إلى طنجة ، ومن البحر الرومى إلى أقصى المغرب » .

وفى سنة ٢٧٦هـ انتشرت الفتن ببلاد المغرب الأقصى وإفريقية، وهدد القحط بلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضا ، وهلك خلق كثير من الوباء. وصفوة القول أن هذه الفترة قد سادها الاضطراب والفوضى ، وانقسم الأدارسة على أنفسهم ، حتى إن ابن خلدون الذى يعتبر شيخ مؤرخى المغرب، لم يستطع أن يحدد مبدأ ونهاية حكم امراء الأدارسة فى هذه الفترة الغامضة.

يحيى الرابع بن ادريس بن عمر (٢٩٢ — ٣١٠ هـ) :

لما قتل يحيى بن القاسم ولى يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس ، فبايعه أهل فاس ، وخطب له على منابرها ، وامتد ملكه على جميع بلاد المغرب الأقصى وكان يحيى «واسطة عقد البيت الإدريسى، أعلاهم قدرا وأبعدهم ذكرا ، وأكثرهم عدلا ، وأغزرهم فضلا ، وأوسعهم ملكا ، وكان فقيها ، حافظاً للحديث ، ذا فصاحة وبيان ، بطلا شجاعا ، حازماً ، ذا صلاح ودين وورع » [١] . ولم يبلغ أحد من الأدارسة ما بلغه يحيى الرابع فى سعة الملك وبسطة السلطان ، حتى ظهر الفاطميون فى إفريقية فى أواخر القرن الثالث الهجرى. ثم مدوا نفوذهم نحو بلاد المغرب الأقصى فى عهد عبيدالله المهدى وخلفائه من بعده [٢] .

استقر ملك يحيى الرابع نحو خمس عشرة سنة ؛ ففى سنة ٣٠٠ هـ غزا بلاده قائد عبدالله المهدى مصالة بن حبوس صاحب تاهرت والمغرب الأوسط وفتح تاهرت [٣] ، ثم التقى بيحيى بن إدريس بالقرب من مكناسة وأحل به الهزيمة ثم حاصر مدينة فاس واضطر يحيى إلى الصلح ، على أن يؤدى إليه بعض الأموال ، وأن يبايع للمهدى الفاطمى ، وولى مصالة يحيى بن إدريس فاس ، كما ولى موسى بن أبى العافية ابن عم مصال بن يحيى سائر بلاد المغرب الأقصى لمساعدته إياه على غزو هذه البلاد . وبذلك امتد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الأدارسة ، ولما عاد مصالة إلى فاس سنة ٣٠٩ هـ ، أوغر موسى بن أبى العافية صدره على يحيى بن إدريس فقبض عليه . واستصفى أمواله ، ثم نفاه ، فأقام عند بنى عمه ببلاد الريف، فتصدى له موسى بن أبى العافية وحبسه ، ثم أطلقه بعد عشرين سنة ، فقصد إفريقية ومات فى مدينة المهدية سنة ٣٣٢ هـ [٤] .

---

(١) السلاوى : ج ١ ص ٧٩ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٦.
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٧٧ — ١٧٨ .
(٤) السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٧٩ — ٨٠ .

الحسن بن محمد (٣١٠ — ٣١٢ هـ) :

ولما قبض مصالة على يحيى بن إدريس ولى ريحان الكتامى على فاس ، ولكن ولايته لم تطل ، حيث ثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم المعروف بالحجام فى سنة ٣١٠هـ . واستولى على فاس وقتل ريحان ، فبايعه الناس ودخلوا فى طاعته ، ثم مد نفوذه إلى ما جاوره من البلاد ، وتفرغ لقتال موسى بن أبى العافية ، ودارت بينهما عدة معارك قتل فى إحداها ولد موسى . ومات الحسن فى سنة ٣١٢ هـ ، واستولى موسى على ملك الأدارسة ببلاد المغرب [١] ، فشايع الفاطميين بإفريقية ، ولكن دولة الأدارسة ، التى كادت تزول على يد موسى بن أبى العافية من ناحية ، وعلى أيدى الفاطميين من ناحية أخرى ، تحولت إلى بلاد الريف ، واستقر الأمر لموسى بن أبى العافية فى المغربين الأقصى والأوسط[٢] .

على أن موسى بن أبى العافية لم يلبث أن خلع طاعة الفاطميين ودخل فى طاعة عبد الرحمن الناصر الأموى فى الأندلس (٣٠٠ — ٣٥٠هـ) ؛ وكان قد طمع فى امتلاك المغرب الأقصى ، واستولى على سبته ، وأرغم موسى على إقامة الخطبة له على منابر بلاده . ولما علم عبيد الله المهدى بذلك أرسل جيشاً من عشرة آلاف مقاتل بقيادة حميد بن يصليت صاحب تاهرت وابن أخى مصالة بن حبوس . وانتهت هذه الحرب بفرار موسى من مدينة فاس فولى عليها حميد أحد قواده ؛ ولكنه لم يلبث أن قتل بعد وفاة عبيد الله المهدى سنة ٣٢٢ هـ بيد أحد الثوار الذى بعث برأسه وبابنه إلى موسى بن أبى العافية ، فبعث به إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة ، وخطب للأمويين فى بلاد المغرب من جديد[٣] .

على أن الخليفة الفاطمى القائم أرسل قائده ميسوراً الخصى إلى المغرب الأقصى فى سنة ٣٢٣ هـ ، فحاصر فاس واستولى عليها من يد أحمد بن بكر ، وبعث به إلى المهدية ، وخطب للقائم الفاطمى على منابرها ، وضرب السكة باسمه ، وولاها الحسن بن القاسم اللواتى الذى استمرت ولايته عليها حتى أطلق أحمد بن بكر من حبسه فى المهدية سنة ٣٣٥ هـ ، فسار

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .
(٢) السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ٨١ .
(٣) السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ٨٢ .

إلى فاس وأقام بها متنكراً حتى تمكن من خلع الحسن بن القاسم وتولى إمرة فاس[١] . واعتصم موسى بن أبى العافية بحصن أليكاى ، واستفحل خطره ، وبدأ ينشر الدعوة للأمويين فى شمال إفريقية ، ثم خلفه ابنه إبراهيم بعد وفاته . ولما توفى إبراهيم سنة ٣٥٠هـ خلفه ابنه عبد الرحمن ، ثم ابنه محمد الذى انقرضت فى أيامه دولة آل أبى العافية فى بلاد المغرب الأقصى سنة ٣٦٣ هـ ، بعد أن حكمت مائة وأربعين سنة (٣٠٥ - ٤٤٥ هـ) ، ثم استمر نفوذهم فى أطراف المغرب حتى قضى عليهم يوسف بن تاشفين .

تحولت دولة الأدارسة إلى بلاد الريف كما تقدم، ولم تتمتع هناك بالاستقلال الذى تمتعت به فى فاس ، حتى طردهم موسى بن أبى العافية ، واستأثر بالنفوذ فى المغربين الأقصى والأوسط . وهكذا أصبح الأدارسة ببلاد الريف « تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب ، إما من الشيعة أصحاب إفريقية ، وإما من المروانيين أصحاب الأندلس» .

ولما طارد ميسور الخصى ، موسى بن أبى العافية إلى الصحراء ، انتقلت السلطة فى بلاد المغرب إلى القاسم وإبراهيم أخوى الحسن بن محمد بن إدريس آخر أمراء الأدارسة بفاس ، وبايع أهالى هذه البلاد القاسم بن الحسن ، الذى ملك أكثر بلاد المغرب عدا فاس ، واتخذ قلعة حجر النسر مقراً لإمارته ، وأخذ فى نشر الدعوة الشيعية حتى توفى سنة ٣٣٧هـ فخلفه ابنه أبو العيش أحمد بن القاسم ، وكان — كما يصفه السلاوى (ج ١ ص ٨٥) —: فقيها ، ورعا حافظاً للسير ، عارفا بأخبار الملوك وأيام الناس وأنساب قبائل العرب والبربر شجاعا ، جوادا ، وكان يعرف فى بنى إدريس بأحمد الفاضل .

ولكن أبا العيش لم يلبث أن دعا إلى الأمويين بالأندلس وقطع دعوة الفاطميين ، وانتشر نفوذه فى كافة بلاد المغرب الأقصى إلى سجلماسة . ثم طمع عبد الرحمن الثالث الأموى فى امتلاك طنجة من أبى العيش وضمها إلى سبتة ، وكان قد استولى عليها من قبل فأبى أبو العيش ، ولكنه اضطر إلى الإذعان بعد أن أرسل إليه الخليفة الأموى جيشاً وأسطولا حاصراه وضيقا عليه وزاد نفوذ الأمويين ببلاد المغرب الأقصى حتى مات أبو العيش سنة ٣٤٨[٢] .

---

(١) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٣٥ — ١٣٦ .
(٢) السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٨٥ — ٨٦ .

خلف أبو القاسم بن محمد بن القاسم بن كنون ، ويلقب بكنون ، أخاه أبا العيش ، الذى استخلفه على بلاد المغرب حين سار مع عبد الرحمن الناصر لجهاد الفرنجة فى الأندلس وكان القاسم آخر أمراء الأدارسة فى المغرب الأقصى التى زالت فى عهده على أيدى الفاطميين .

وقد امتد حكم الأدارسة ببلاد المغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران ، وكانت حاضرة ملكهم مدينة تاس ثم البصرة ببلاد المغرب الأقصى . وقد زال ملكهم بعد أن حكموا قرنين وثلاث سنين (١٧٢ — ٣٧٥)[1] ، لم تتمتع فيها البلاد بشىء من الاستقرار الذى يمكن القائمين بالحكم فيها من توجيه جهودهم إلى نشر العلوم والفنون والأخذ بأسباب الحضارة .

---

(١) تأسست ببلاد المغرب فى هذا العصر دول عدة ، نذكر منها الدولة الحمادية ببلاد الجزائر (٣٩٨ — ٥٤٧ هـ) ، ودولة المرابطين بمراكش وبعض بلاد الجزائر وبلاد الأندلس (٤٤٨ — ٥٤١ هـ) ودولة الموحدين فى كل شمال إفريقية (٥٢٤ — ٦٦٧ هـ) ، والدولة الحفصية فى تونس (٦٢٥ — ٩٤١ هـ) والدولة الزيانية فى بلاد الجزائر (٦٣٣ — ٧٩٦ هـ) ، والدولة المرينية بمراكش (٥٩١ — ٨٧٥ هـ) والدولة الشريفية بمراكش (٩٥١ — ١٣١١ هـ) ، وسنرجىء الكلام عليها إلى الأجزاء الباقية من هذا الكتاب إن شاء الله .

أنظر Stanley Lane- Poole : Muhammadan Dynasties pp. 23 — 61

الأمويون فى قرطبة[1]

(١٣٨ - ٧٥٦/٤٢٢ - ١٠٣١)

	هجرية	ميلادية
١) عبد الرحمن الأول	١٣٨	٧٥٦
٢) هشام الأول	١٧٢	٧٨٨
٣) الحكم الأول	١٨٠	٧٩٦
٤) عبد الرحمن الثانى	٢٠٦	٨٢٢
٥) محمد الأول	٢٣٨	٨٥٢
٦) المنذر	٢٧٣	٨٨٦
٧) عبد الله	٢٧٥	٨٨٨
٨) عبد الرحمن الثالث (الخليفة الناصر)	٣٠٠	٩١٢
٩) الحكم الثانى المستنصر	٣٥٠	٩٦١
١٠) هشام الثانى المؤيد	٣٦٦	٩٧٦
١١) محمد الثانى المؤيد	٣٩٩	١٠٠٩
١٢) سليمان المستعين	٤٠٠	١٠٠٩
١٣) محمد الثانى (للمرة الثانية)	٤٠٠	١٠١٠
١٤) هشام الثانى (للمرة الثانية)	٤٠٠	١٠١٠
١٥) سليمان (للمرة الثانية)	٤٠٣	١٠١٣
١٦) على بن حمود[2]	٤٠٧	١٠١٦
١٧) عبد الرحمن الرابع المرتضى	٤٠٨	١٠١٨
١٨) القاسم بن حمود	٤٠٨	١٠١٨
١٩) يحيى بن على	٤١٢	١٠٢١
٢٠) القاسم (للمرة الثانية)	٤١٣	١٠٢٢
٢١) عبدالرحمن الخامس المستظهر	٤١٤	١٠٢٣
٢٢) محمد الثالث المستكفى	٤١٤	١٠٢٤
٢٣) يحيى المرة الثانية	٤١٦	١٠٢٥
٢٤) هشام الثالث المعتد	٤١٨	١٠٢٧
	٤٢٢	١٠٣١

[دول صغيرة]

---

(١) راجع كتاب Stanley Lane-Poole: Muhammadan Dynasties, pp. 21-22, 23

(٢) من أسرة الحموديين (فى سبتة) .

جدول يمثل نسب الأمويين فى قرطبة

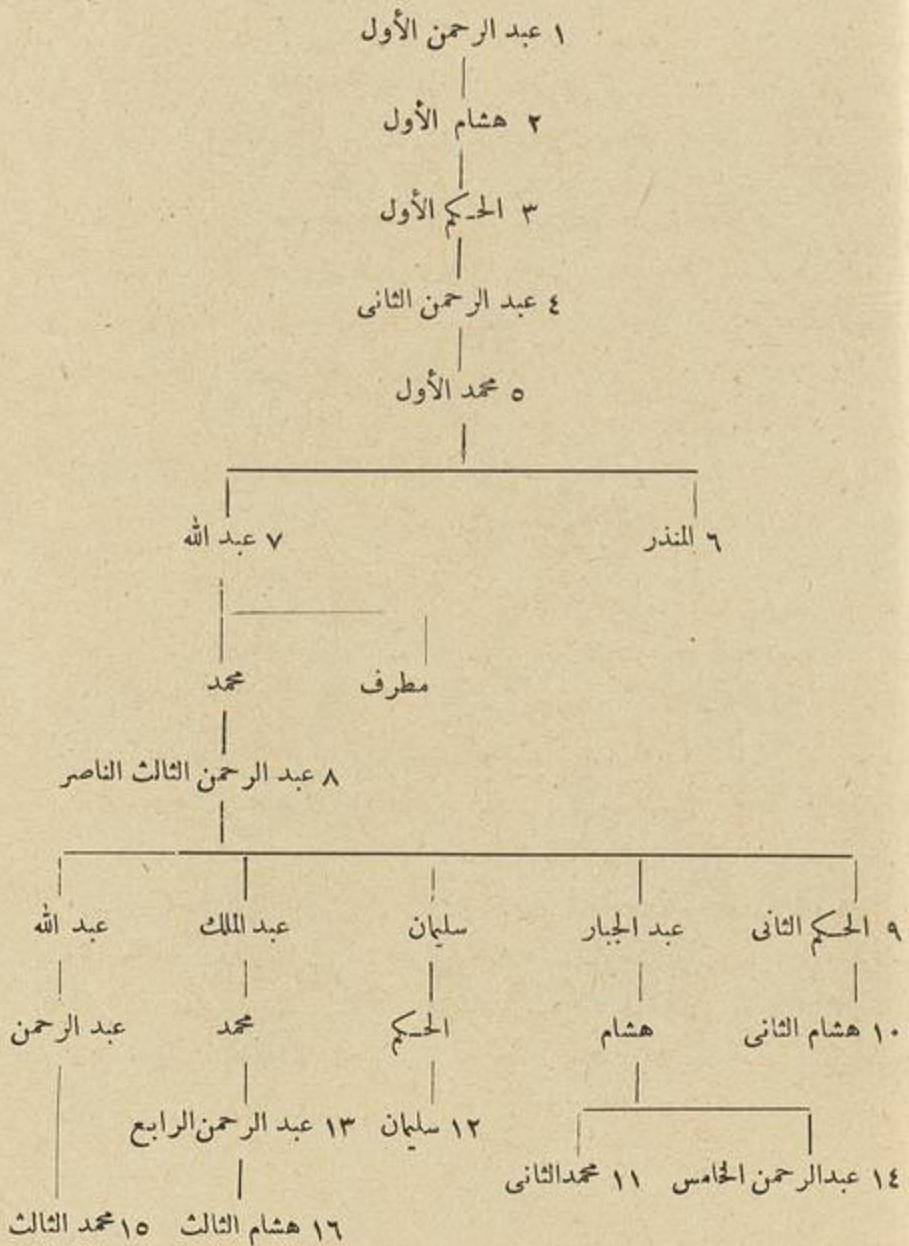

عبدالله (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) :

لما مات عبدالرحمن الثانى سنة ٢٣٨ هـ خلفه ثلاثة من أمراء البيت الأموى هم : محمد الأول ، والمنذر وعبدالله ، وعلى الرغم من أن هؤلاء حكموا هذه البلاد اثنتين وسبعين سنة ، لم يكن لهم أثر يذكر فى تاريخ الأندلس ، بل قاست هذه البلاد كثيراً فى خلال هذا العصر الذى تميز بخروج عمال الأقاليم على الأمراء ، وثورات مسيحيى الشمال ، وانتشار روح العصيان ، إلى أن اعتلى عرشها عبدالرحمن الثالث فى سنة ٣٠٠ هـ .

خلف محمد الأول (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) أباه عبدالرحمن الثانى ، ولا يذكر عنه سوى إرسال هذه الحملات الموفقة فى مستهل إمارته (٢٣٨هـ) إلى شمال أسبانيا للقضاء على الثورات التى قامت فى برشلونة وطليطلة وغيرهما ، واستطاع بذلك أن يوطد الأمن فى هذه الأرجاء، وقد دون المقرى [١] حروب محمد الأول فى سنى ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ هـ ، وهى تتلخص فى إرسال حملات إلى بمبلونة وجليقية وماردة تكللت بالنصر ، وأخضعت أهالى هذه الجهات ، ثم توفى هذا الأمير فى شهر صفر سنة ٢٧٣ هـ بعد أن قضى فى إمارته خمسا وثلاثين سنة ، وولى بعده ابنه المنذر (٢٧٣ — ٢٧٥ هـ) ، ولكن إمارته لم تطل، وأقام سنتين إلا نصف شهر .

ثم ولى أخوه عبدالله (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) ، وكان عهده كعهد أخيه المنذر وأبيه محمد مليئاً بهذه الثورات التى أعقبت ثورة المسيحيين بقرطبة ، وانتشر العصيان فى ولايات الأندلس ، فلما تولى عبدالله الذى دبر مقتل أخيه المنذر ، كان أضعف من أن يقف على قدميه فى وجه الخطر الذى كان يهدد ملكه ،واشتهر بالقسوة وسوء التدبير مما أثار كراهية الناس له فنبذوا طاعته ، حتى أن أكثر بلاد الأندلس قد استقلت ولما يمض على توليته ثلاث سنين واتخذ زعماء العرب والبربر والأسبان من ضعفه وسوء حكمه فرصة للخروج عليه والاستقلال بالولايات التى تحت أيديهم ، وانتشرت الفوضى ،واستولى العرب ، وكانوا أقلية فى البلاد،على بعض الإمارات كإشبيلية التى أصبحت منافساً خطيراً لقرطبة، كما استقل حاكما لورقة وسرقسطة استقلالا تاما ، ولم يعد عبدالله يعتمد إلا على الجنود المرتزقة فى إخضاع أهل قرطبة إخضاعا صوريا .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ .

أما البربر فقد عادوا إلى النظام القبلى الذى يتفق وتقاليدهم وطبائعهم ، فاستقلوا ببعض الولايات الغربية مثل استرامادور Stramadora ، وجنوب البرتغال ، واحتلوا مراكز عظيمة الشأن فى بلاد الأندلس كمدينة جيان ، وتفاقم خطر أسرة ذى النون من البربر التى عاثت فى جميع نواحى الأندلس ، كما استولى الأسبان الذين دخلوا الإسلام، وكانوا يبغضون أمراءهم ، على ولاية الجرف Algarave فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة ، واستقلوا بكثير من الولايات .

وقصارى القول أن هؤلاء جميعاً أجمعوا على كراهية عبدالله واستهانوا بسلطانه ،وكان أكثر الزعماء قوة وأشدهم خطراً عمر بن حفصون ، وكان يدين بالإسلام ، ثم ارتد إلى المسيحية وسمى نفسه صمويل ،وأثار سكان الجبال فى مقاطعة إلفيرا Elvira بإمارة غرناطة ، وأقام فى معقلة بيشتر Bobastro . وهزم جيوش الامير عبدالله غير مرة ، واضطر إلى مصالحته بعد أن ناوأ سلطان الأمير خمسا وعشرين سنة (١) ، كما استقل حاكم مرسية Murcia الذى ولع بالشعر والأدب ، واستولى نصارى الشمال على طليطلة ، وضنت الولايات بإرسال حاصلاتها ، وخلت خزائن الدولة من المال ، وغلا ثمن الخبز غلاء فاحشاً ، وعد رجال الدين من المسلمين ذلك من سخط السماء ، وأخذوا ينشرون بين الناس تكهنات محزنة .

هكذا كانت حال الأندلس ، وهذا ما آل إليه أمرها ؛فقد أصبحت ممزقة الأشلاء منبتة الأواصر ، تبعثرت فيها المقاطعات المستقلة التى صارت أشبه بالضياع منها بالولايات التى تكون دولة قوية ، وصارت أعجز من أن تقف فى وجه فاتح قوى عزوم (٢) على أن بعض هذه الولايات كانت تزدهر من حين إلى حين بطائفة من حكامها الذين اشتهروا بالأدب ، كحاكم مرسية وقسطلونة . وابن حجاج حاكم إشبيلية الذى ذاعت شهرته وراسله الملوك وبعثوا إليه بهداياهم . وتوافد عليه العلماء والفقهاء من المدينة المنورة ،وازدان قصره بأشهر المغنين من بغداد . وكانت جاريته «قمر» البغدادية شاعرة . رائعة الحسن بديعة الصوت فصيحة اللسان مرهفة الحس . وهى التى تقول فيه :

ما فى المغارب من كريم يرتجى ... إلا حليف الجود إبراهيم
إنى حللت إليه منزل نعمة ... كل المنازل ما عداه ذميم

---

(١) Dozy : The Moslems in Spain. pp. 291–6.

(٢) Lane–Poole : The Moorsin Spain pp. 79-107 ترجمة على الجارم ص ٩٢ — ٩٨ .

وقد قصده الشعراء وطمع شعراء قرطبة فى كرمه . وقد قيل إن أحد شعرائها هجا فى حضرته منافسيه من أشراف قرطبة ، فقال له عبد الله : كذبت نفسك ياهذا إن ظننت أن رجلا مثلى يهش لسماع هذا الهجائى الدئىء .

ولكن عبد الله لم يستطع أن يتغلب على هذه المصائب التى حلت بالبلاد ، ومات فى سنة ٣٠٠ هـ وهو فى الثامنة والستين من عمره بعد أن قضى فى الحكم أربعاً وعشرين سنة . وقد أشرفت دولة الأمويين بالأندلس فى عهده على الزوال لولا أن قيض الله لها عبدالرحمن الثالث الناصر .

عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) :

ولد عبد الرحمن فى رمضان سنة ٢٢٧ هـ (٨٩١م) ، وكان أبوه محمد بن الأمير عبد الله بن محمد الأول وأمه أم ولد سماها ابن الأثير (جـ ٨ ص ٢٦)[١] مرتة ، وقال إن عبدالرحمن يوم قتل أبوه لم يزد عمره على واحد وعشرين يوماً . وكان قتله بسبب وشاية أخيه مطرف الأصغر عند أبيهما عبد الله طمعاً فى اعتلاء العرش . وكان لقتل محمد أثر بالغ فى نفس أبيه عبد الله الذى أمر بإدخاله حفيده عبد الرحمن بن محمد إلى قصره ، وحاطه برعايته وقربه إليه ، وآثره على أبنائه [٢] .

وقد شب عبد الرحمن فى بيت الإمارة وأخذ بقسط وافر من الثقافة ومال إلى دراسة الفلسفة . وكان جده يخصه بعطفه دون أبنائه ، حتى قيل إنه رمى إليه بخاتمه[٣] ، فاتخذ الناس من ذلك دليلا على رضاه عنه وإيثاره على أبنائه بالإمارة من بعده ، كما كان ينيبه عنه فى الأعياد والمواسم والحفلات وعرض الجند . ولما مات عبد الله فى ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ (٩١٢ م) أجلس الأمراء والقواد عبدالرحمن على العرش وبايعوه ولقبوه الناصر ، ولم يقم فى وجهه أحد من أعمامه وأعمام أبيه[٤] ، وأرسلت البيعة إلى سائر الولايات الأندلسية .

كان الناصر حين اعتلى عرش الأندلس شاباً فى مقتبل العمر لم يتجاوز الثانية والعشرين واستبشر بإمارته رجال القصر وأهالى قرطبة لما اتصف به من سمو الأخلاق وقوة الإدراك

---

(١) Dozy : The Moslems in Spain p. 38

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٦٢ .

(٣) ابن الخطيب : إعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام جـ ٣ ص ٣٢ .

(٤) Dozy : The Moslems ih Spain, p. 382.

وأنشد ابن عبدربه هذه الأبيات يوم تولية الناصر الإمارة :

بدا الهـــلال جديداً والملك غض جديد
يا نعمةَ الله زيدى إن كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر فأنتَ للدهر عيد[١]

كانت بلاد الأندلس عند اعتلاء عبد الرحمن العرش — كما يقول المقرى (ج ١ ص ١٦٦) — «مضطربة بالمخالفين مضطرمة بنيران المتغلبين . فأطفأ تلك النيران ، واستنزل أهل العصيان ، واستقامت له الأندلس فى سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من أيامه » .

وقد أعلن الأمير الجديد عن سياسته التى عول على نهجها . ودعا الخارجين إلى الخضوع لسلطانه ، واتجهت إليه أنظار الشعب لتخليصه من عصابات اللصوص والمجرمين الذين أتلفوا الزرع وأقفروا الأرض ، فخضع أكثر الولايات وسلموا حين رأو أميرهم الشاب يتقدم جيوشه فى شجاعة وثقة واعتزاز بالنفس ، وأعجبوا به لأنهم وجدوا فيه من الصفات مالم يجدوه فى جده عبد الله ، وفتحت له مدن الأندلس أبوابها ، فسلمت له الولايات التى فى جنوب قرطبة وتبعتها إشبيلية ، وأرغم البربر فى الغرب على الطاعة ، وحذا حذوه أمير الجرف .

وكان عبد الرحمن يخلع على كل من نزل من الثوار عن حصنه ويقربه ويدر عليه الأرزاق والهبات . وبذلك خضع له كثير من هؤلاء الثوار طائعين . ثم تفرغ لقتال من بقى من الثائرين . وكان أشد هؤلاء بأساً وأعظمهم خطرا عمر بن حفصون الذى لقى جده عبد الله فى سبيل محاربته كثيرا من العنت والإرهاق . وظل عبد الرحمن يقاتل هو وأولاده فى معاقلهم الجبلية فى ببشتر إلى أن توفى سنة ٣٠٥[٢]، وسلم إليه أولاده بعد حروب طويلة ولم تأت سنة ٣٢٠هـ حتى كانت بلاد الأندلس الإسلامية خاضعة لعبد الرحمن . ولما وقف على مشارف هذا الحصن المنيع ورأى قمته الشاهقة الشديدة الانحدار المحيطة به ، سجد شكراً لله على ما أولاه من نعمة الفتح والنصر وظل طول مدة إقامته فى هذا الحصن صائماً وعفا عن أعدائه.

وكانت طليطلة آخر حصون الثائرين التى سقطت فى يد عبد الرحمن ، حيث سلمت إليه فى سنة ٣٢٠ هـ ، وكان أسلافه قد اضطروا إلى منحها نوعاً من الاستقلال الذاتى . وبذلك

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٧.

(٢) Dozy : The Moslems in Spain, p. 392.

استرد عبد الرحمن ماققده أسلافه من بلاد الأندلس فى مدة لاتتجاوز عشرين سنة ، وغدا نفوذه قويا بين العرب والبربر والإسبان والمولدين .

أما سياسة الناصر الداخلية إزاء مسيحيى الأندلس ، فقد كانت راجعة إلى ما أظهره هؤلاء المسيحيون من الحماسة الدينية التى عبر عنها المؤرخون بالحرب المقدسة . وقد استعان عبد الرحمن فى حروبه التى شنها على مسيحيي الأندلس الشماليين وعلى الفاطميين بالصقالبة خاصة ، وكان تجار الإغريق والبنادقة يجلبون له الأرقاء ويبيعونهم صغاراً ليهذبهم وينشئهم نشأة إسلامية . وكانت بلاد الأندلس فى عهده مهددة بخطر الفاطميين فى بلاد المغرب جنوبا وخطر المسيحيين وخاصة أهالى أستوريش شمالا . وقد انتشر هؤلاء المسيحيون فى مقاطعة ليون ، وبنوا قلاع زمورة وسان استبان St. Estevano وأوسما Osma وسيمنقاس Simanacas ، ولم ير العرب بداً من استرداد أراضيهم ،ولكن المسيحيين هزموهم هزيمة منكرة وأغاروا على بلادهم ، وشد أزرهم شانجة Sancho ملك نافار «Navarre» الذى أصبح زعيم المسيحية فى الشمال(١).

وقد أطنب ستانلى لينبول(٢) فى وصف مناقب المسلمين وحسن معاملتهم لأعدائهم ، وندد بأخلاق المسيحيين التى كانت مطبوعة بطابع الغلظة والخشونة والقسوة فقال: «وكانت أخلاقهم على اتساق مع أميتهم ، وما كان يتوقع من هؤلاء الجفاة المتوحشين إلا التعصب والقسوة ، فإنهم لم يؤمنوا مستجيراً ، ولم يتركوا فارا ، ولم يبقوا على جريح . وهذا يذكرنا ، والحزن ملء صدورنا ؛ بما كان للعرب من بطولة ورفق وسماحة خلق ، فكثيراً ماعفوا عن أعدائهم نبلاء متكرمين ، بينما نرى اليوم أن رجال ليون وقشتالة العتاة ، يذبحون جميع رجال الحاميات ، ويستأصلون مدنا مليئة بالقطان ، حتى إذا نجا أحد من سيفهم لم ينج من استعبادهم» .

كذلك أغار أردون الثانى Ordon II. على بلاد الأندلس الإسلامية ووصلت جيوشه إلى ماردة merida ، وقابل عبد الرحمن ذلك بإرسال جيش أغذ السير نحو الشمال ، وأغار على مملكة المسيحيين فى سنة ٣٠٤ هـ ، ثم أرسل فى السنة التالية حملة أخرى ، ولكن أردون أحل بها الهزيمة أمام أسوار سان استيبان وغنم كثيرا من الغنائم . وقد أثار هذا

---

(١) Dozy : The Moslems in Spain, p. 414

(٢) The moors in Spsin. p. 119 ، ترجمة على الجارم ص ٦٠٨ .

الانتصار الحماسة فى نفس ملكى ليون ونافار ، فسارت جيوشهما صوب طليطلة ، وعاثت فى البلاد القريبة منها ، وانتصرت عليهم جنود قرطبة فى موقعتين .

وقد عول عبدالرحمن على الاستعداد لحرب المسيحيين، وقاد الجيوش بنفسه سنة٣٠٨هـ وهدم قلعة أوسما ، ودمر سان استيبان ، ثم سار صوب نافار ونازل شانجة واضطره إلى الفرار . وعلى الرغم من الهزائم المتكررة التى منيت بها جيوش المسيحيين ، أغار أردون ملك ليون على حدود المسلمين ، وزحف شانجة ملك نافار واحتل حصون المسلمين سنة ٣١١ هـ ، فسار عبد الرحمن نحو الشمال واستولى على كل ماصادفه من المدن ، ومزق جيش شانجة وهدم حاضرته بمبلونة .

وقد أتاحت هزيمة شانجة ملك نافار، وموت أردون ملك ليون ، ووقوع النزاع وقيام الحروب الأهلية بين أبنائه ، الفرصة لعبد الرحمن للتفرغ لاصلاح بلاده ، وأحس بقوته فى الداخل والخارج ، حتى إنه لقب نفسه بلقب خليفة فى سنة ٣٤٧ هـ .

على أن عبد الرحمن لم يلبث أن وجد نفسه أمام خطر ردمير (راميرو الثانى) Ramiro II الذى خلف أردون فى حكم ليون ، واستطاع أن يتحد مع مسيحيى الشمال، وأن يعقد الصلح مع محمد بن هاشم التجيبى أمير سرقسطة، وكان قد خلع طاعة عبدالرحمن الناصر. وأسرع هذا إلى إخضاع سرقسطة، ثم زحف على نافار، وانتصر على المسيحيين فى عدة مواقع. ولكن راميرو قتل من جيش المسلمين فى موقعة «الخندق» أكثر من خمسين ألفا، وقيل إن جيشهم بلغ مائة ألف ، ونجا عبد الرحمن بنفسه فى أقل من خمسين فارسا (١) . ولم ينس المسلمون هذه الكارثة ، حتى إنهم أطلقوا على السنة التى حلت فيها بسنة الخندق (٢) .

كانت بلاد الأندلس فى عهد عبد الرحمن الناصر يحيط بها الأعداء من كل جانب : فكان الفرنجة فى الشمال يطمعون فى توسيع أملاكهم جنوبا ، ولاسيما بعد استيلائهم على برشلونة ، وكانت الامارات المسيحية فى الأقاليم الجبلية الشمالية تهدد بلاده . أضف إلى ذلك منافسة العباسيين والفاطميين . وكان الأخيرون أشدهم خطراً على بلاد الأندلس فى عهد عبد الرحمن الناصر ، حيث خلع موسى بن أبى العافية الذى استحوذ على المغربين الأقصى

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٧ .

(٢) Lane — Poole : The Moors in Spain, pp. 122–3.

والأوسط وخلع طاعة عبيد الله المهدى الفاطمى ، ودخل فى طاعة عبد الرحمن الناصر الأموى ، الذى استولى على سبتة وخطب له على منابر المغرب ولكن هذه الخطبة لم تلبث أن قطعت بعد فرار موسى من مدينة فاس أمام الجيوش الفاطمية ، ثم أعيدت مرة أخرى فى عهد القائم الفاطمى .

وقد عمل عبد الرحمن الثالث على تقوية دولته ماديا وأدبيا ، فبنى أسطولا من مائتى سفينة ، وتلقب بلقب خليفة . ومن ثم أصبح فى العالم الاسلامى ثلاث خلافات : الخلافة العباسية فى المشرق ، والخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب ، والخلافة الأموية فى بلاد الأندلس. وساعده على ذلك ضعف الخلافة العباسية ، وازدهار دولته ، وارتفاع شأنها فى الداخل والخارج . ويقول المقرى [١] عن عبد الرحمن : « وهو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين عندما التات أمر الخلافة بالمشرق، واستبد موالى الترك على بنى العباس وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة [٢] ، فتقلب بألقاب الخلافة .

وقد أطنب مؤرخو العرب والفرنجة فى مدح عبد الرحمن الناصر ، فقال المقرى [٣] : « كان سلطانه أعظم ما كان ، وأعز ما كان الاسلام بملكه » . « وحكى أنه وجد بخط الناصر رحمه الله أيام السرور التى صفت له دون تكدير . يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ، ويوم كذا من كذا ، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوما . فأعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها ،هذا الخليفة الناصر حاف السدود ، المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود ، ملكها خمسين سنة ، وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام ، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوما . فسبحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة ، لا إله إلا هو » [٤] .

ووصفه ستانلى لينپول [٥] فقال . « نعم إن عبدالرحمن أنقذ الأندلس من نفسها ومن أعدائها . ولم يكتف بإنقاذها من الدمار ، بل خلق منها دولة عزيزة الجانب ، ولم تكن قرطبة فى عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهارا مما كانت عليه فى عهد الناصر ، ولم

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٦ .
(٢) هذا خطأ لأن المقتدر امتدت خلافته إلى سنة ٣٢٠هـ.
(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٧٩ .
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٧٩ .
(٥) The Moors in Spain, pp.126—7 ترجمة على الجارم ص ١١٧ — ١١٨ .

تكن الأندلس قبل أيامه فى تلك الحال من الخصب والإمراع والإنتاج وتوالى الخيرات ، التى نماها ووصل بها إلى الكمال كد أهلها ومهارتهم فى الصناعة، ولم يكن الحكم الأندلسى فى يوم من أيامه أبهر انتصارا على الفوضى، كما لم تكن قوة القانون أكثر نفوذا إلى القلوب وأعظم هيبة مثلما كانت فى أيام عبد الرحمن ، فقد تسابق إلى أبوابه الرسل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا ليقدموا إليه تحية الإجلال والتمجيد . وكانت قوته وحكمته وثروة مملكته مضرب المثل فى أوربا وإفريقية ، وبلغت شهرته أقصى حدود المملكة الإسلامية بآسيا . وكان مصدر كل هذا الانقلاب العجيب رجلا واحداً ، عانده كل شىء فقهره ، ووقف فى طريقه كل شىء فحطمه . بعث الأندلس من حضيض البؤس إلى قمة القوة والازدهار ، ولم تصل البلاد إلى كل هذا إلا بذكاء الخليفة عبد الرحمن الناصر وصدق عزيمته » .

الحكم الثانى المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) :

كان عبد الرحمن الناصر آخر عظماء أمراء بنى أمية فى الأندلس . وقد خلفه الحكم المستنصر الذى أتاحت له فتوح أبيه وما حازه من نصر وظفر على أعدائه فترة من الهدوء والطمأنينة ، إذ شعر نصارى الشمال بقوة الدولة التى تركها الناصر ، فلم تعترضه هذه الثورات الجامحة التى اعترضت أباه فى العشرين سنة الأولى من عهده. كما وجد الحكم حكومة منظمة أقام دعائمها أبوه ، « فجرى على رسمه، ولم يفقد من ترتيبه إلا شخصه، وولى حجابته جعفراً الصقلبى » ، الذى أهدى له يوم ولايته هدية نفيسة تدل على ضخامة ثروة الأندلس وما كانت تتمتع به من يسر ورخاء [١] .

ولم يقف فى وجه الحكم أحد من إخوته وأعمامه وغيرهم، وجلس المستنصر على سرير الملك فى البهو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية فى السطح الممرد [٢] وقد بايعه أخوته ، ثم بايعه الوزراء وأولادهم وإخوتهم ، ثم أصحاب الشرطة وغيرهم [٣] .

وكان الحكم الثانى ميالا بطبعه إلى السلم والدعة ، وكان الرعب الذى غرسه الناصر عظيما فى قلوب أهل الأندلس ، وخاصة مسيحيى الشمال . الذين كانوا لا يزالون يشعرون بقوة الخلافة ، ولم يكن الحكم ضعيف القلب أو جبانا ، حتى إنه كان يقود الجيوش

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٠ .
(٢) ممرد البناء ملسه وسواه وصقله .
(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٣ .

بنفسه لمحاربة نصارى ليون إذا نقضوا عهودهم ، وبلغ من قوة دولته أن استنجد به أردون ملك جليقية ، فاحتفل الحكم بقدومه ... ووصل إلى الحكم وأجلسه . ووعده بالنصر من عدوه (فريدلند قومس [١] قشتيلية) ، وخلع عليه ... وعاقده على موالاة الإسلام ومقاطعة فريدلند القومس ، وأعطى على ذلك صفقة يمينه ، ورهن ولده غرسيه ، ودفعت الصلات والحملان له [٢] ولأصحابه ، وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة عند رعيته ويقبضوا رهنه . وعند ذلك بعث ابن عمه شانجة بن ردمير ببيعته وطاعته مع قمامسة [٣] أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم ، يرغب فى قبوله ويمت بما فعل أبوه الناصر معه ، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها ، كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين ، ثم بعث ملكا برشلونة وطركونة وغيرهما يسألان تجديد الصلح وإقرارهما على ما كانا عليه . . وعقد على أن يهدموا الحصون التى تضر بالثغور ، وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم ، وأن ينذروا بما يكون من النصارى فى الإجلاب على المسلمين ثم وصلت رسل غرسيه بن شانجة ... فى جماعة من الأساقفة والقمامسة يسألون الصلح [٤] .

وكذلك بعث الحكم المستنصر جنده إلى بلاد المغرب الأقصى والأوسط ، وخطب له على منابرها ، وأبطلت الخطبة للفاطميين ، كما قضى على نفوذ الأدارسة بالعدوة بنواحى الريف [٥] .

وكان الحكم مشغوفا بالاطلاع والقراءة ، وجمع كثيراً من الكتب ، وأرسل الرسل لابتياعها من دمشق وبغداد والقاهرة ، حتى زخرت خزانة كتبه بقرطبة بأربعمائة ألف كتاب ، فى وقت لم تعرف فيه الطباعة . وامتاز الحكم بقراءة كثير من هذه الكتب والتعليق عليها ، ولا غرو فقد كان غزير العلم واسع الإطلاع ، حتى لقد اعتبر العلماء تعليقاته من أجل ما يكتب [٦] ، « وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت إليه بضائعه من كل قطر » [٧] . وبلغ من اهتمامه بجمع الكتب أنه كان إذا ظهر كتاب جديد بعث إلى صاحبه

---

(١) القومس بفتح القاف وتسكين الواو الأمير ، وجمعها قمامسة .
(٢) فى الأصل الحملات ، والصواب الحملان ، وهى الدواب التى تحمل الهبات ونحوها .
(٣) فى الأصل قواميس وهو تحريف ، انظر القاموس .
(٤) نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ .
(٥) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٦ .
(٦) Lane — Poole : The Moors in Spain, pp. 155— 6
(٧) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٢ .

فى طلبه ، من ذلك أنه لما علم بظهور كتاب الأغانى طلب من مؤلفه أبى الفرج الأصفهانى أن يبيعه إياه ،وبعث له بألف دينار من الذهب،فبعث به إليه قبل أن يرسله إلى العراق(١).

توفى الحكم المستنصر فى اليوم الثانى من شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ ، بعد أن حكم ست عشرة سنة .

هشام الثانى المؤيد (٣٦٦ — ٣٩٩ هـ):

خلف الحكم ابنه هشام، ويكنى أبا الوليد،ويلقب المؤيد ، وأمه أم ولد تسمى «صبح» وكان هشام فى العاشرة من عمره حين ولى الخلافة ، فتغلبت على أمره أمه صبح ، وتولى تدبير مملكته أبوعامر محمد عبدالله .

المنصور بن أبى عامر :

ولد أبو عامر عبدالله محمد بن أبى عامر فى إحدى قرى المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء جنوبى بلاد الأندلس ، ويرجع فى أصله إلى قبيلة معافر القحطانية ، وقد وفد على قرطبة فى حداثة سنه،والتحق بجامعها حيث كان أبوه يقوم بالتدريس فيه ، وامتاز بين أقرانه بالذكاء وعلو الهمة والطموح إلى مدارك الرقى حتى تملكته الرغبة فى النفوذ والسلطان .

ولما آلت الخلافة إلى هشام المؤيد وأصبحت أمه «صبح» تتمتع بالنفوذ المطلق والسلطان الذى لا يحد قربت إليها ابن أبى عامر الذى عاش فى مبدأ أمره من كتابة الرسائل فى القصر . ولم يلبث أن اتصل بكبير الحجاب وكان يتمتع بنفوذ كبير الوزراء إذ ذاك ، فأسند إليه بعض الأعمال فى القصر ، واستطاع ابن أبى عامر أن يكتسب عطف السيدة صبح ، لما كانت تتوسمه فيه من الذكاء وبعد الهمة ، فأسند إليه بعض المناصب الهامة ، منها القضاء فى بعض المدن ، والنظر فى الزكاة والمواريث ، والإشراف على أملاك ولى العهد الخاصة . كما اشتهر ابن أبى عامر بعلو الأدب والتواضع والكرم والعطف على البائسين ، واستطاع بذلك أن يستميل كبار رجال الدولة على اختلافهم .

ولما مات الحكم وآلت الخلافة إلى ابنه هشام ، كان ابن أبى عامر ساعد السيدة صبح

---

(٨) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

الأيمن ، واستطاع أن يقضى على مؤامرة صقالبة القصر الذين كانوا يحولون دون استخلاف هشام ؛ واكتسب محبة الناس بقضائه على هؤلاء الصقالبة (١) ، ثم لم يلبث أن تخلص من جعفر بن عثمان المصحفى الحاجب ليصفو له الجو فى حكم بلاد الأندلس ، واتخذ لذلك الأمر عدته فاستمال إليه الجند بعد أن غزا مملكة ليون وعاد منها محملا بالغنائم ، وعلت منزلته فى قلوب الجند ، واستطاع بما أوتيه من مكر ودهاء ، أن يوقع الخلاف بين المصحفى وغالب قائد الجيش ، واتهم المصحفى بالخيانة والسرقة ، وزج به فى غياهب السجن ، وجلس مكانه على كرسى الحجابة ، وأصبح الحاكم الحقيقى للدولة الإسلامية فى الأندلس ، ودعى له على المنابر ، وضربت السكة باسمه بعد الخليفة الصغير ، ولبس الملابس المنسوجة بالذهب . ونقش اسمه عليها كما كان ينسج اسم الخلفاء .

وقد مات المصحفى بعد خمس سنوات أشنع ميتة مسجى برداء ممزق . ويقال أن ابن أبى عامر دس له السم (٢) كما استطاع ابن أبى عامر أن يحول دون سخط رجال الدين عليه ، فأمر بإحراق كتب الفلسفة فى ميادين قرطبة وأحرق بعضها بيده ، وبذلك أرضى الفقهاء الذين عرفوا بتشددهم فى الدين وكراهتهم للفلاسفة ، وسمى حامى الإسلام ، ولم تقف سعة اطلاعه وولوعه بالفلسفة عقبة فى سبيل تحقيق مطامعه السياسية (٣)

وكان ابن أبى عامر واسع الحيلة بعيد النظر ، ولكى يأمن جانب جنده من العرب والصقالبة والأسبان . اتخذ له جندا من المرتزقة من المغرب ونصارى الشمال ، واصطنعهم وأدر الأرزاق عليهم ، فأحبوه وأخلصوا له ، حتى لقد قيل إنه غزا أكثر من خمسين غزوة ولا غرو فقد استولى على ليون وهدم قلاعها ، وقهر برشلونة ، وجعل كنيسة سانت ياقب St. Jacob كعبة المسيحيين فى غليسية فى ذلك الحين أثرا بعد عين (٤) .

ولم يلبث ابن أبى عامر أن كفى أمر غالب القائد بزواجه من ابنته ، ومات غالب بعد ذلك فى إحدى الغزوات . وقد صمم ابن أبى عامر على إنزال العقاب بأهالى ليون لمساعدة منافسه غالب ، وحاصر زامورة (٣٧١/٩٨١) ، وأشعل النار حولها ، وقتل أربعة

---

(١) المراكشى ص ١٨ Dozy : The Moslems in Spain p. 138

(٢) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع من المجلد الأول (القاهرة ١٩٤٥) ص ٤٩ .

(٣) Dozy, pp, 490 - 1

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٩٦ — ١٩٧ .

آلاف من النصارى ، ودخل راميرو الثالث ، ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره . فى حلف مع غرسية . وكونت قسطيلية ، وملك ناڤار ، ولكن الهزيمة حلت بهم .

ثم استأنف ابن أبى عامر السير إلى ليون ، ولما رأى أن الهزيمة حلت بجنده ، خلع عمامته وسار نحو العدو ، ولحق به قواده وجنده الذين ثارت حماستهم ، وطاردوا العدو إلى أسوار ليون وكادوا يستولون على المدينة لولا أن حال بينهم سقوط الثلوج ، وعاد ابن أبى عامر إلى قرطبة محملا بالغنائم والأسلاب ولقب من ذلك الحين بذلك اللقب الذى عرف به فيما بعد وهو « المنصور بالله » ، وأصبح صاحب السلطان المطلق والنفوذ الذى لا يحد (١) .

يقول ستانلى لينپول (٢) : إن ليون والممالك التابعة لها خضعت للمنصور ، وأدت الإتاوات إلى قرطبة ، فقد تكررت هزائم قشتالة ، وبرشلونة ، وناڤار ، وسانت ياقب ، واستولى المنصور على ليون وبلبونة وبرشلونة ، وسانت ياقب . وحمل مرة ملك ناڤار على أن يحثو أمامه ذليلا على ركبتيه ، لأن هذا الوزير ، وهو لا يتجاوز عن شىء . علم أن امرأة مسلمة وقعت أسيرة فى مملكته ، فأطلقت فى الحال مع كثير من ضروب الذلة والاعتذار .

وكان ابن أبى عامر محبا للعلوم مشغوفا بالأدب مشجعا للعلماء والأدباء ، وقد زخرت بلاد الأندلس فى الفترة التى تقلد فيها الحجابة بطائفة من مشهورى العلماء والأدباء والشعراء ، نخص بالذكر منهم أبا العلاء صاعد بن الحسن الذى وفد على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ ، فأكرمه ابن أبى عامر وأدر عليه الأرزاق ، لما اشتهر به من التعمق فى اللغة والنحو والأدب والشعر والسير ، وما عرف به من التفكه والظرف ، وقد ألف أبو العلاء هذا للحاجب المنصور كتبا أجازه عليها ، كما أنشد للمظفر بن المنصور بن أبى عامر الذى ولى الحجابة بعد أبيه ، قصائد رائعة ، وكان لابن أبى عامر مجلس فى كل أسبوع يجتمع فيه العلماء للمناظرة فى حضرته (٣) وقد قيل إنه كتب بيده مصحفاً كان يحمله معه فى أسفاره وغزواته ويتبرك به (٤) ، وقد وضع أبو مروان بن حيان كتابا سماه « المآثر العامرية » استقصى فيه غزوات بن أبى عامر التى نيفت عن الخمسين غزوة (٥) .

---

(١) Dozy : The Moslems in Spain. pp, 497 - 8

(٢) The Moors in Spain, pp. 163 - 5 ، ترجمة على الجارم ص ١٤٨ .

(٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٩ — ٢٤ .

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٩٣ ، ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع من المجلد الأول ص ٢ — ٤٠ حيث تجد ترجمة وافية لأبى العلاء صاعد .

(٥) المراكشى ص ٢٤ .

ومن آثار ابن أبى عامر بناء مدينة «الزاهرة» على نهر الوادى الكبير شرقى قرطبة والتى استغرق بناؤها سنتين ، ولم تلبث أن أخذت فى الاتساع حتى اتصلت أرباضها بمدينة قرطبة نفسها ، كما بنى قنطرة قرطبة ، وبذل فى سبيل بنائها ١٤٠ ألف دينار .

اشتهر المنصور بن أبى عامر بالذكاء والكرم والحزم والعدل والصبر على المكاره ، وغيرها من الصفات التى جعلته بحق أعظم حكام الأندلس فى عهد هشام الثانى المنتصر .

وصفوة القول أن المنصور بن أبى عامر كسب محبة الشعب ورجال الدين والجند بعلمه وبعد نظره وحسن سياسته ، ولم يكن للخليفة هشام المؤيد من الصفات ما يؤهله لأن يكون من عظماء الرجال؛ فقد انزوى فى قصره، وقضى أوقاته فى اللهو ، وكانت لابن أبى عامر مطامع خفية كما تقدم ، فحجر على هشام ومنع الناس من مقابلته حتى أصبح فى الواقع سجينا، ولم يبق له من مركز الخلافة إلا الاسم فقط [١] . وقتل ابن أبى عامر كل من وقف فى سبيله من الأمراء وزعماء القبائل والقواد ، مدعيا أنه إنما كان يفعل ذلك لحماية الخليفة ، كما شرد حرس الخليفة من الصقالبة ، وأنشأ جيشاً جديداً من المرتزقة من قبائل البربر ومن المسيحيين ، وقدم البربر على العرب وأقصى هؤلاء عن مناصب الدولة .

وقد تولى ابن أبى عامر الحجابة نحوا من سبع وعشرين سنة كانت حافلة بجلائل الأعمال مليئة بالغزوات ، وتوفى فى آخر غزواته ببلاد مسيحيي الشمال فى سنة ٣٩٣ هـ . وحمل فى سريره على أعناق الرجال وعسكره يحف به إلى أن وصل إلى مدينة سالم ، وقد أحس نصارى الشمال بقوة شكيمته وشدة بأسه ، وفرحوا بموته فرحا عظيما إذ كانوا يعتبرونه حامى الإسلام .

الأندلس بعد وفاة المنصور الحاجب :

ولما مات المنصور بن أبى عامر سار ابنه أبو مروان عبد الملك الذى آلت إليه الحجابة وتلقب « المظفر » سيرة أبيه فى الاستئثار بالسلطة دون الخليفة هشام الثانى المؤيد . «وكانت أيامه — كما يقول المراكشى [٢] — أعياداً فى الخصب والأمان ، دامت سبع سنين إلى أن مات . ثم ثارت الفتن من بعده ، وتقلد ما كان يتقلده أخوه عبد الرحمن الذى تلقب

---

(١) Dozy : The Moslems in Spain. p. 492

(٢) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥ — ٢٦ .

بالناصر . فخلط ، وتسمى ولى العهد . ولم يزل مضطرب الأمور مدة أربعة أشهر ، إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر فى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ ، فخلع هشاماً المؤيد ، وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر ، فقتل وصلب .

تلقب محمد بن هشام الذى استبد بالأمور بعد أن خلع الحاجب عبد الرحمن بن المنصور ابن أبى عامر بلقب « المهدى » ، وتولى أمور قرطبة إلى أن ثار عليه هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وأخوه أبو بكر بمساعدة البربر ، فحاربهم المهدى ، وأسر هذين الأخوين ، وضرب أعناقهما ، ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجنود البربر ، وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة ، وتآمروا فبايعوه ولقبوه « المستعين بالله » ونهضوا به إلى ثغر طليطلة »[1] .

وقد استنجد سليمان المستعين بالمسيحيين ، وساروا مع البربر إلى قرطبة ، والتقوا بجيوش محمد بن هشام المهدى . الذى حلت به الهزيمة ، ولحق بطليطلة ، ودخل المستعين قرطبة سنة ٤٠٠ هـ . على أن المهدى استنجد بالمسيحيين أيضاً ، وتوجه إلى قرطبة ، وهزم المستعين . واضطره إلى الخروج منها مع جنده من البربر . فتفرقوا فى البلاد وتوجهوا نحو الجزيرة الخضراء ، ولم يكتف المهدى بذلك ، بل تتبع المستعين مع أعوانه من المسيحيين ولكن الهزيمة حلت به ، وتتبعهم المستعين بدوره إلى قرطبة . وهنا لجأ المهدى إلى الحيلة . فأخرج هشاماً المؤيد من سجنه ، وبايعه ، وقام بحجابته . ولكن الأهالى لم يلبثوا أن ثاروا عليه وقتلوه .

ثم دخل المستعين قرطبة فى سنة ٤٠٣ هـ وقتل هشام المؤيد سراً ، وجلس على ذلك العرش المتداعى نحو أربع سنين (٤٠٣ — ٤٠٧ هـ) ، استقل فيها بالأطراف كثير من الأمراء من أمثال باديس بن حبوس فى غرناطة . والبرزالى فى قرمونة ، واليفرنى فى رندة ، وهرزون فى شريش . وافترق شمل الجماعة بالأندلس ، وصار الملك طوائف فى آخرين من أهل الدولة ، مثل ابن عباد بإشبيلية ، وابن الأفطس ببطليوس . وابن ذى النون بطليطلة ، وابن أبى عامر ببلنسية ، وابن هود بسرقسطة ، ومجاهد العامرى بدانية الجزائر .

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٢ .

بنو حمـــود[1]

(فى ملقـا)

٤٠٧ — ٤٤٩ هـ

	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١) على الناصر بن حمود	٤٠٧	١٠١٦	٨) إدريس الثانى (العالى)	٤٣٤	١٠٤٠
٢) القاسم المأمون	٤٠٨	١٠١٨	٩) محمد الأول المهدى	٤٣٨	١٠٤٦
٣) يحيى المعتلى	٤١٢	١٠٢١	١٠) إدريس الثالث الموفق	٤٤٤	١٠٥٢
٤) القاسم (للمرة الثانية)	٤١٣	١٠٢٢	١١) إدريس الثانى (العالى)	٤٤٥	١٠٥٣
٥) يحيى (للمرة الثانية)	٤١٦	١٠٢٥	(للمرة الثانية).		
٦) إدريس المتأيد	٤٢٧	١٠٣٥	١٢) محمد الثانى المستعلى	٤٤٦	١٠٥٤
٧) حسن المنتصر	٤٣١	١٠٣٩			

[المرابطون]

تسلسل نسب بنى حمـــود

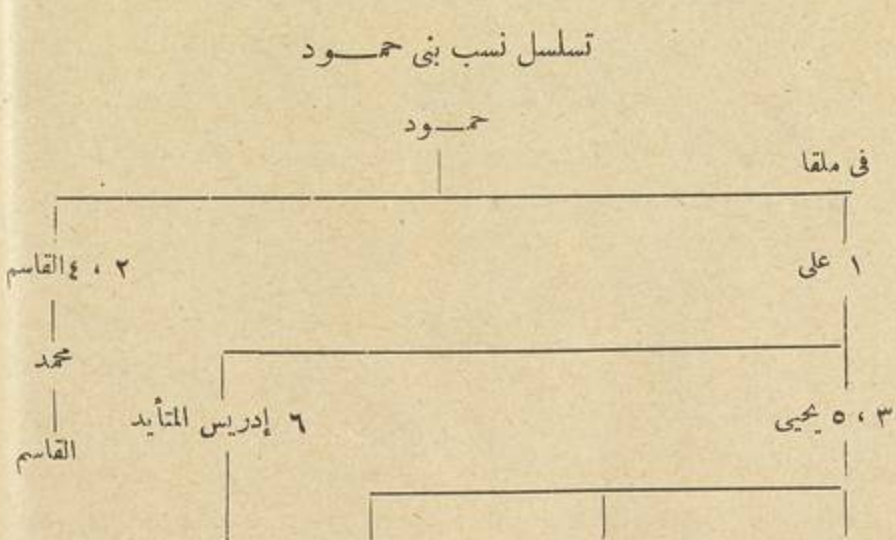

(١) Lane-Poole : Muhammaban Dynasties, pp 23—4 .

على بن حمود:

ملك بنو حمود قرطبة سنة ٤٠٧ هـ ، وقتلوا سليمان المستعين ، وأزالوا ملك الأمويين بالأندلس ، وحكموا هذه البلاد نحواً من أربعين سنة تخللتها صحوات عاد فيها الملك إلى بعض أفراد البيت الأموى . ولكن كيف يقبض الأمويون على العرش بأيديهم الضعيفة ، فى ذلك الوقت الذى قامت فيه الفتن والثورات ، واشتدت منافسة الزعماء من البربر والصقالبة والعرب والأسبان ؟

فى سنة ٤٠٧ هـ ولى بلاد الأندلس على بن حمود بن أبى العيش الذى ينتمى إلى إدريس ابن عبد الله العلوى مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب . وكان على بن حمود يلى مدينة سبتة ، وأخوه القاسم بن حمود يلى الجزيرة الخضراء جنوبى الأندلس . وقد دعى خيران — وكان من البربر الذين يميلون إلى هشام المؤيد — الناس إلى الخروج على سليمان المستعين وبث الدعوة لعلى بن حمود ، وأطمعه فى ملك الأندلس . ولم يلبث أن قوى أمر خيران ، وسار ابن حمود نحو قرطبة ودخلها فى سنة ٤٠٧ هـ ، وبايعه الناس على طاعة هشام المؤيد — وكانوا يظنون أنه لا يزال على قيد الحياة — وانهزم سليمان المستعين ومن معه من البربر وأسر ؛ وسيق إلى ابن حمود مع أخيه وأبيه الحاكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وقتل سليمان ، ودعى لابن حمود على منابر قرطبة ، ولقب «المتوكل على الله» (١)

وقد بحث دوزى مصير هشام المؤيد فقال : إن على بن حمود لما دخل مدينة قرطبة ، كان أول ما اهتم به خيران والصقالبة الآخرون أن يبحثوا عن هشام . وارتاحت نفس ابن حمود لأنهم لم يعثروا له على أثر ، وسأل سليمان المستعين فى مجلس كان فيه الوزير ورجال الدين عما حدث لهشام ، فأجاب بأنه قتل ، فطلب إليه ابن حمود أن يدله على قبره ، ولما عين مكان القبر . فتح ، وسأل ابن حمود أحد خدام هشام : هل هذه الجثة التى وجدت فى قبر مولاه جثة هشام ؟ فأكد الخادم — الذى كان يعرف أن هشاما لا يزال حياً — القول بوفاة هشام خوفا من بطش ابن حمود ، واستدل على أن الجثة التى فى القبر جثته بسن له سوداء كان يتميز بها ذلك الخليفة ، وأقر بعضهم هذه الشهادة تقربا إلى ابن حمود ، أو خوفا من إثارة حنقه عليهم وبطشه بهم .

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٠٠ — ١٠١ . المقرى جـ ١ ص ٢٠٣ .

ومن ثم أصبح الصقالبة أمام الأمر الواقع ، وهو الاعتراف بموت حاكمهم الشرعى وبخلافة على بن حمود ، ثم أمر على بن حمود بقتل سليمان المستعين وأخيه وأبيه ، وبينما اقتاد الجند الحاكم أباسليمان ليقتلوه قال ابن حمود : إذا لقد قتلت هشاما ؟ فأجاب ذلك الرجل التقى الذى قضى أيامه فى العبادة ولم يشترك فى الحوادث السياسية : لا ! والله شهيد على ما أقول ، إننا لم نقتل هشاما ، وإنه لا يزال حياً ،وقبل أن يتم كلماته هذه ، أشار ابن حمود الذى خشى أن ينكشف أمره ، إلى سيافه فهوى بالسيف على سليمان فقتله ، ثم دفنت جثة هشام الثانى المؤيد من جديد بعد أن احتفل به الاحتفال اللائق بمثله من الملوك .

ويقول دوزى إن هشاما لم يظهر أبداً رغم ظهور ذلك الدعى الذى كان يشبهه تمام الشبه وادعى ملك إشبيلية ، واعترف به أميرها محمد بن عباد ، لأغراض سياسية غايتها اتخاذ ذلك ذريعة لاستثاره بالسلطان هناك ومناوأة خصومه .

ولكن لم يقم دليل على أن هشاما قتل بيد سليمان المستعين أو أنه مات ميتة طبيعية فى أثناء حكمه ، وكان أشياع الأمويين فى الأندلس الذين عرفوا هشاما ، يصرحون بأن هذه الجثة التى ووريت فى التراب من جديد لم تكن جثة هشام ، وقد يكون اعتراف سليمان المستعين لعلى بن حمود بأن هشاما لا يزال حيا وسيلة لتخليصه من الموت ، أو أن ابن حمود قد وعده أن يكون هذا الاعتراف مؤديا إلى نجاته . أضف إلى ذلك أن سليمان لم يكن ميالا بطبعه لسفك الدماء ، ولو أن هشاما مات حقيقة فى عهده ، لأمر بعرض جثته على أهل قرطبة كما جرت العادة بذلك ،وكما كانت تقضى مصلحته الخاصة ليستميل إليه قلوب الصقالبة الذين بذل ابن حمود قصارى جهده فى اعترافهم بسلطانه ، ولم يكن ابن حمود يجد وسيلة أحسن من هذه لو أنهم تحققوا موت هشام ، أضف إلى ذلك شهادة الحاكم أبى سليمان ، الذى لم يرض عن تصريح ابنه سليمان ،وأشهد الله على أن هشاما كان لا يزال على قيد الحياة فهل كذب هذا الرجل الورع فى آخر ساعاته من الدنيا وهو مقبل على الوقوف بين يدى أحكم الحاكمين ؟

ويميل دوزى إلى تصديق أقوال نساء قصر هشام وخصيانه ، الذين أقروا بأنه جاهد للفرار من قصره فى عهد سليمان ، وأنه بعد أن استخفى فى قرطبة وعاش كما يعيش الصناع العاديون ، هرب إلى آسيا الصغرى ، فهل تم له ما أراد من ذلك بإغضاء سليمان عنه ؟ وهل أقسم هشام بأن لا يزعج سليمان بعد ذلك ؟ وهل اتصل أحدهما بالآخر بالمراسلة ؟ هذه أسئلة توحى بها إجابة الحاكم أبى القاسم المستعين ساعة قتله ، ولكنها مجرد احتمالات

لا يقين معها ، ولا يبعد أن يكون هشام،الذى قلق من سماع اسمه تردده الإشاعات ويستغله ذوو الأطماع ، قد رأى أن يلجأ إلى مكان بعيد فى إحدى جهات آسيا المجهولة ، يقضى فيه البقية الباقية من حياته المليئة بالآلام والأحزان فى دعة واطمئنان . وقيل أيضاً إنه آثر أن يقضى بقية أيامه فى التعبد بالمدينة بعيداً عن ذلك العرش الذى التف حوله الطامعون وكثرت عنده الفتن والمنافسات (١) .

وقد أفلت من هذه الفتنة عبدالرحمن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر ، وترك قرطبة ، واستخفى بجبل جيان ، فبايعه خيران ولقبه المرتضى،وكان قد خرج على ابن حمود، وتبعه أمراء سرقسطة وشاطبة وبلنسية وغيرها ، ويموا غرناطة ، ولما وصلوا إليها أرسل عبدالرحمن المرتضى إلى زاوى ، وكان قد بايع سليمان المستعين بالخلافة ، كتابا رقيقا يدعوه فيه إلى مبايعته ، ولما قرأ زاوى هذا الكتاب ، أجاب بسورة الكافرون (بسم الله الرحمن الرحيم ، قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين) (٢) .

ولم يلبث على بن حمود أن قتل فى السنة التالية فى أثناء محاربته أهل جيان المشايعين للأمويين،وقد قيل فى سبب قتله إن ثلاثة من الصقالبة الذين تمتعوا بعطفه هم الذين قتلوه، ولما سئلوا عن الأسباب التى حملتهم على ارتكاب جريمتهم أجابوا بأنهم لا يحملون لعلى ضغينة أو حقدا ، وإنما قتلوه غيرة للوطن وتخليصا له من ذلك الحاكم الذى أصبح لا يحتمل طغيانه وظلمه وجبروته ، كما أقروا أنهم لم يقوموا بهذا العمل بتحريض خيران أو أهالى قرطبة (٣) .

خلفاء على بن حمود :

ثم تولى القاسم بن حمود ملك قرطبة ، ولقب « المأمون » ، ولكن ملكه لم يطل ، إذ خرج عليه ابن أخيه يحيى بن على بن حمود أمير سبتة فى سنة ٤١٣ هـ (٤) ، وتلقب

---

(١) Dozy : The Moslemis in Spain, pp. 565 — 6.

(٢) Dozy : Ibid. p. 568 . ١٠٩ : ١ — ٦

(٣) Dozy Ibid . p 586 . أنظر أيضا المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٤ .

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

«المعتلى» ، وفر القاسم إلى إشبيلية حيث بايعه القاضى أبوالقاسم محمد بن إسماعيل بن عباد وانضوى تحت لوائه كثير من البربر ، وسار بهم إلى قرطبة ، فملكها فى السنة التالية وبقى بها ست سنين ، ولم يلبث يحيى أن سار إلى قرطبة ، وأسر القاسم وحبسه إلى أن مات يحيى ، وملك أخوه إدريس . فقتله (٤٣١ هـ) وهو فى الثمانين من عمره (١) .

ولما انهزم القاسم بن حمود وأنصاره من البربر ، أجمع أهل قرطبة على إعادة الخلافة إلى بنى أمية ، فبايعوا عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر فى ١٣ رمضان سنة ٤١٤ هـ ، ولقب « المستظهر بالله » ، ولكنه لم يبق فى الخلافة أكثر من شهر وسبعة عشر يوما ، ثم قتل . فبايع الناس محمد بن عبدالرحمن الناصر ، ويكنى أبا عبدالرحمن الأموى (ذو القعدة سنة ٤١٤ هـ) ، ولقبوه « المستكفى بالله » ، ولم يهتم الخليفة الجديد إلا بإشباع بطنه وشهواته ، ولم يبق فى الخلافة غير ستة عشر شهرا حيث ثار عليه أهل قرطبة فى شهر ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ وخلعوه .

ولما توفى المستكفى عاد أهل قرطبة إلى دعوة الحموديين ، وبايعوا يحيى بن على بن حمود (المعتلى بالله) للمرة الثانية ، وخطب له على منابر قرطبة سنة ٤١٦ هـ ، ولكنه آثر البقاء فى مالقة ، وولى قرطبة عبدالرحمن بن عطاف اليفرنى ، وبقى يحيى بن حمود خليفة على قرطبة إلى أن أبطلت الخطبة للحموديين فى سنة ٤١٧ هـ ، وأعيدت إلى الأمويين . وبايع الناس أبا بكر هشام بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر ولقبوه « المعتمد بالله » (ربيع الأول ٤١٨ هـ) ، ودخل قرطبة فى شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ ، ولكن عهده امتاز بكثرة الفتن والاضطرابات ، ولم يلبث أن خلع فى شهر ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ ، وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٠٥) أن هذا الخليفة الأموى كان يساعد البربر ويحسن إليهم . « فنفر عنه أهل قرطبة فوضعوا عليه من خلعه » .

وذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٠٤) أيضا أنه بعد أن قطعت الخطبة ليحيى بن على بن حمود للمرة الثانية ، وبويع هشام الثالث المعتمد بالله (٤١٨ - ٤٢٢هـ) ، « سار يحيى إلى قرمونة فأقام بها محاصرا لإشبيلية طامعا فى أخذها ، فأتاه الخبر يوما أن خيلا لأهل إشبيلية قد أخرجها القاضى أبو القاسم بن عباد إلى نواحى قرمونة ، فركب إليها ولقيهم وقد كمنوا له ، فلم يكن بأسرع من أن قتل ، وذلك فى المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة » .

---

(١) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٤٣ .

بويع بالخلافة بعد يحيى أخوه إدريس بن على (٤١٧ - ٤٣١ هـ) صاحب سبتة وطنجة وسار إدريس إلى مالقة بعد أن أناب عنه ابن أخيه حسن بن يحيى فى حكم سبتة . وتلقب إدريس « المتأيد بالله » ، وبقى فى الخلافة إلى سنة ٤٣١ هـ (وقيل سنة ٤٣٠ هـ) .

ولكن القاضى أبا القاسم بن عباد ناوأ سلطان الحموديين ، فأرسل ابنه إسماعيل لانتزاع هذه البلاد من أيديهم ، فاستولى على قرمونة وأشبونة وأستجه ، وقتل ابن عباد وأرسل رأسه إلى إدريس الذى لم يلبث أن مات بعد يومين ، فملك بعده ابنه محمد الأول الجزيرة الخضراء ولم يلقب نفسه بلقب خليفة .

وآلت الخلافة بعد محمد إلى حسن بن يحيى بن على بن حمود الذى لقب «المستنصر بالله» ولكنه لم يلبث أن مات فى سنة ٤٣٤ هـ . وقيل إن زوجته ابنة عمه إدريس سمته انتقاما لقتل أخيها يحيى . وأخرج البربر إدريس الثانى بن يحيى وبايعوه بالخلافة ولقبوه «العالى» . وقد اشتهر بالتصدق على الفقراء حتى كان يتصدق بخمسمائة دينار فى كل أسبوع ، وسمح للمبعدين بالعودة إلى بلادهم ورد إليهم ممتلكاتهم . كما اشتهر إدريس بالأدب وأجاد الشعر . غير أنه يؤخذ عليه مصاحبة الأشرار الذين أغدق عليهم ومنحهم كثيرا من الحصون ، وسلم إليهم وزيره موسى بن عفان فقتلوه ، كما اعتقل محمد والحسن ابنى عمه إدريس الأول بن على . ولما ظهر سوء سياسته ، خرج عليه أنصاره وبايعوا ابن عمه محمد الأول بن إدريس بن على (٤٣٨ — ٤٤٤ هـ) ولقبوه « المهدى » . وقد عرف بالشجاعة والإقدام ، فهابه البربر وخافوه ، وعملوا على التخلص منه ، ولذلك كتبوا إلى إدريس بن يحيى (٤٤٤ — ٤٤٥ هـ) ، ثم بايعوه بالخلافة ولقبوه « الموفق » ، وخطب له بسبتة وطنجة .

وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٠٥) أن الأمور اضطربت فى أواخر أيام بنى حمود ، حتى إنهم لقبوا أربعة من أفراد البيت الحمودى بالخلافة فى وقت واحد وفى مكان ضيق من الأرض لا تجاوز مساحته ثلاثين فرسخاً ، فولى الجزيرة ابنه القاسم ولم يتسم بالخلافة ، وبقى محمد بن إدريس بمالقة إلى أن مات سنة ٤٥٥ هـ فلما توفى إدريس (الأول المتأيد) ابن على ، قصد إدريس بن يحيى مالقة فملكها ، ثم انتقلت إلى صنهاجة .

بويع محمد بن إدريس الثانى العالى بالخلافة وتلقب « المستعلى » (٤٤٦ هـ) ، غير أنه لم يكن له من الأمر شىء ، بل امتازت الثلاث سنين التى قضاها فى الحكم بقيام الفتن والثورات . وكان محمد آخر من ولى الحكم من بنى حمود ، فقد تغلب باديس بن حبوس

على مالقة فى سنة ٤٤٩ هـ ، وخلع محمداً الذى أرغم على المسير إلى المرية ، ثم بويع بالخلافة ببلاد المغرب سنة ٤٥٦ هـ حيث بقى بها إلى أن توفى سنة ٤٦٠ هـ .

ويقول المقرى (ج ٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٨) : « وانقرضت دولة الأشراف الحموديين من الأندلس ، بعد أن كانوا يدعون الخلافة . . . وانقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالجهات ، واقتسموا خطتها ، وتغلب بعض على بعض واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ، ولاذوا بالجزى للطاغية أن يظاهر عليهم أو ينتزع ملكهم ، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان ، حتى قطع عليهم البحر ملك العدوة وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى ، فخلعهم ، وأخلى منهم الأرض . فمن أشهرهم بنو عباد ملوك إشبيلية فى غرب الأندلس الذين منهم المعتمد بن عباد الشهير الذكر بالمغرب والمشرق وفى الذخيرة والقلائد من أخباره ما هو كاف ، ومنهم بنو جهور ، كانوا بقرطبة فى صورة الوزارة حتى استولى عليها المعتمد بن عباد وأخذ قرطبة وجعل عليها ولده ، ثم كانت له وعليه حروب وخطوب ، وفرق أبناءه على قواعد الملك وأنزلهم بها . واستفحل أمره بغرب الأندلس ، وعلت يده على من هنالك من ملوك الطوائف مثل ابن باديس بغرناطة ، وابن الأفطس ببطليوس ، وابن صمادح بالمرية وغيرهم . فكانوا يخطبون سلمه ويغلون فى مرضاته ، وكلهم يدارون الطاغية ويتقونه بالجزى ، إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين (سنة ٤٤٨ / ١٠٥٦ م) ، واستفحل ملكه ، فتعلقت آمال الأندلس بإعانته ، وضايقهم الطاغية فى طلب الجزية ، فقتل المعتمد اليهودى الذى جاء فى طلب الجزية للطاغية بسبب كلمة قالها آسفه بها (آلمه) . ثم أجاز البحر صريحاً إلى يوسف بن تاشفين ، فأجاز معه البحر ، والتقوا معه فى الزلاقة ، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى ، ونصر الله تعالى الإسلام نصر الأكفاء له » .

وقد أدى انقسام بلاد الأندلس إلى ضعف المسلمين ، ومهد السبيل للامارات المسيحية فى الشمال للقيام فى وجه أمراء العرب على أثر ما قام بينهم من التنافس على السلطان ، حتى بلغ من تنافسهم أن كان بعضهم يستعين بالمسيحيين على منافسيه . وبلغ الفونس الرابع حاكم قشتالة من القوة بحيث أرغم أمراء المسلمين المجاورين له على دفع الجزية .

وعلى الرغم من ذلك الانحلال الذى دب فى جسم الدولة الأموية فى الأندلس ، كان عصر ملوك الطوائف من أزهى العصور فى العلوم والفنون والآداب . ولا غرو فقد نافس كل من إشبيليه وطليطلة ومالقة وبلنسية وغيرها من حواضر هـــذه الدويلات ، مدينة قرطبـة بعد أن كانت وحدها مركزاً للعلوم والفنون فى بلاد الأندلس .

الباب الخامس

الحركات السياسية والدينية

١ — الاثنا عشرية

زخر العصر العباسى الثانى بكثير من الحركات السياسية والدينية التى كان لها أثر بعيد فى تاريخ هذا العصر ؛ فقد قام الشيعيون بحركات ثورية كان من أثرها انتزاع كثير من بلاد الدولة العباسية ، وانتشار المبادىء الشيعية ، وخاصة مبادىء الإسماعيلية بين القرامطة فى سواد الكوفة ، وفى البحرين ، وفى شمال العراق ، وفى بلاد اليمن على يد ابن حوشب وخلفائه من الصليحيين خاصة . ولم تخل بلاد الفرس من دعاة الإسماعيلية فى هذا العصر وتكللت جهود الإسماعيلية بقيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ثم فى مصر . وامتداد رقعتها إلى فلسطين والشام ، وإلى بلاد الحجاز وغيرها ، وخطب للفاطميين فى الموصل وبغداد حيناً من الدهر .

وظهر كذلك فى هذا العصر كثير من الحركات السياسية والدينية على أيدى الخوارج والزنج . وعلى الرغم من أن العباسيين استطاعوا أن يقضوا على هذه الحركات ، إلا أنها شغلت الدولة العباسية وكلفتها كثيراً من الدماء والأموال . أضف إلى ذلك حركات المعتزلة الذين انتعش مذهبهم حينا من الدهر ، وتأثروا بالفلسفة الإغريقية كما تأثر بها إخوان الصفاء مؤلفوا الرسائل الفلسفية المشهورة ، وذاع مذهب السنة بظهور أبى الحسن الأشعرى وحجة الإسلام الغزالى ، وتطورت آراء المتصوفين ، فظهر منهم المعتدلون والغلاة على ما سيأتى .

فى أواخر الدولة الأموية انضم فريق كبير من الزيدية الذين كانوا قد اعتزلوا زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على ، إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق . والإمام — على ما ذهب إليه الإمامية — يكتسب حقه فى الإمامة بالوراثة عن على بن أبى طالب باعتباره خليفة النبى شرعا . ويكون الإمام وارثاً للنبى عن طريق ابنته فاطمة ،

ويغلب فى اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه سنا ، بيد أن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ قد أدى — على مارأينا — إلى انقسام الشيعة الإمامية قسمين :

١ — الإمامية الموسوية : وقد أطلق عليهم فيما بعد الاثنا عشرية ، وكانوا يقولون بإمامة موسى الكاظم ، الابن الأصغر لجعفر الصادق ، وهو عندهم الإمام السابع .

٢ — الإمامية الإسماعيلية : ويقولون بإمامة إسماعيل بن جعفر ، وكان أكبر أولاد أبيه. ومع أن وفاته كانت فى حياة أبيه سنة ١٤٥ هـ ، حول أنصار هذا المذهب إمامة إسماعيل إلى ابنه محمد المستور ؛ وهو عندهم الإمام السابع ، ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية ، لتمييزهم عن طائفة الاثنا عشرية (١) .

وفى شعبان سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) ولد للحسن العسكرى (٢) ، وهو الإمام الحادى عشر عند الشيعة الإمامية ، ولد سماه محمدا من أم ولد اسمها صقيل ، فلما توفى الحسن فى سنة ٢٦٠ هـ كان ابنه محمد فى الخامسة من عمره ، فأصبح الإمام الثانى عشر عند طائفة الإمامية الموسوية ، الذين عرفوا فيما بعد بطائفة الإمامية الاثنا عشرية ، ويقال إن محمد دخل سردابا فى مدينة سامرا وأمه تنظر إليه ، ولكنه لم يعد ، ولم يقف له أشياعه على أثر منذ ذلك الحين .

ومن هنا تنسب إلى محمد الإمام الثانى عشر غيبتان : الغيبة الصغرى ، وتبدأ بمولده فى سنة ٢٥٥ هـ وتنتهى بموت أبيه فى سنة ٢٦٠ هـ ، والغيبة الكبرى ، وتبدأ من اختفائه أخيرا فى سنة ٢٦٥ هـ إلى الآن ، ولا يزال أنصاره ينتظرونه إلى اليوم ؛ ولهذا يعتقد الامامية الاثنا عشرية أن محمد الإمام الثانى عشر سيظهر ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً . ومن ثم سمى الامام المنتظر ، وصاحب الزمان ، والقائم بالأمر ، والحجة .

وقد ذكر المؤرخون عند كلامهم على الغيبة الكبرى سنة ٢٦٥ هـ أن الحسن العسكرى

---

(١) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٤٤ — ٤٥ .

(٢) نسبة إلى العسكر . والمراد هنا مدينة سامرا التى أسسها الخليفة المعتصم لتكون معسكرا لجنده الأتراك ، ولكنها لم تلبث أن أصبحت حاضرة الخلافة العباسية نحو ستين سنة (٢٢١ — ٢٨٩ هـ) ، ثم عادت بغداد حاضرة هذه الخلافة .

عهد بنشر دعوته إلى بعض رؤساء الشيعة : فكان أبو سعيد العمرى رئيس الامامية الاثنا عشرية الوكيل الأول ، والنميرى الذى يعتبرونه أصل الطائفة النصيرية [١] الوكيل الثانى ، وحسن بن جعفر النوبختى الذى قامت الدعوة لآل علىّ على يد رجال من بيته الوكيل الثالث .

وقد ظلت طائفة الامامية الاثنا عشرية معينا يمد طائفة الإمامية الإسماعيلية بمشهورى الدعاة الذين كان لهم أثر كبير فى تاريخ الاسماعيلية ، مثل ابن حوشب ، وابن فضل اليمى اللذين قامت الدعوة الاسماعيلية فى بلاد اليمن بفضل جهودهما . وأبى عبدالله الشيعى المحتسب الذى يرجع إليه الفضل فى نشر الدعوة الاسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ويظهر أن هؤلاء الدعاة الجريئين ملوا انتظار عودة الامام الثانى عشر فعملوا على تحقيق آمالهم فى ظل إمام الاسماعيلية المستور الذى يترقب الفرص المواتية لكى يظهر للناس ويملأ الأرض عدلا ، ويؤثرون ذلك على انتظار الإمام الثانى عشر ، الذى طالت غيبته ، وغدا ظهوره فى نظرهم أمرا بعيد الوقوع [٢] .

٢ — الاسماعيلية أو السبعية

(أ) دور الستر :

قام النزاع بين الموسوية أشياع موسى الكاظم وبين الإسماعيلية أشياع أخيه إسماعيل ومحمد ابن إسماعيل من بعده ، وهؤلاء يقولون ببطلان إمامة موسى ، لأنه قد نص على إمامة إسماعيل إلا أن المعتدلين من الإسماعيلية لم يعترضوا على إمامة موسى فى حياة أبيه ، وقالوا إنه إمام مستودع (acting or trustee Imam) كالحسن بن على بن أبى طالب الذى لم يستطع أن يورث الإمامة لأبنائه ، رغم أنه كان إماما ، على حين كان الاسماعيلية يرون أن إسماعيل إمام مستقر (permanent or necessary Imam) يستطيع أن يورث الإمامة لأبنائه ، فهو والحالة هذه كالحسين بن على بن أبى طالب [٣] ويرى بعض آخر أن جعفر

---

(١) من أشهر الفرق الاثنا عشرية وغلاتهم الذين يؤلهون على بن أبى طالب ، ولايزال لهم بقايا فى فارس والشام .

(٢) Dozy : Histoire des Musulmanes d'Espagne. vol. III, p. 128.

(٣) Bernard Lewis : The Origins of Isma'ilism. pp. 49-52 .
Ivanow : kalami pir. p. xlviii.

الصادق عهد بالإمامة إلى موسى الكاظم تقية (تظاهرا بغير مايخفى ليتقى سطوة الحاكم)، حتى لا يتعرض أبناء إسماعيل ، وهم الأئمة الحقيقيون ، لاضطهاد العباسيين . ويرى بعض المؤرخين أن جعفر الصادق خلع ابنه إسماعيل من الامامة لأنه رمى بشرب الخمر وسوء السيرة ؛ ويعتقد أنصاره عصمته زاعمين أن شرب الخمر قد يكون لحكمة قد لا يستطيع المرء فهمها .

ومن ذلك يتبين أن الإمام المستودع هو الذى يتمتع بالإمامة فى حياته ولا يستطيع أن أن يحولها إلى أبنائه من بعده ، كالحسن بن على فى نظر الإمامية ، وموسى الكاظم فى نظر معتدلى الإسماعيلية ، وأن الإمام المستقر هوالذى يتمتع بالإمامة فى حياته ويستطيع أن يحولها إلى أبنائه من بعده ، كالحسين بن على وأبنائه من الأئمة ، وكإسماعيل بن جعفر فى نظر الإسماعيلية .

كان من أثر تضييق الخلفاء العباسيين الخناق على الشيعيين عامة ، أن عمد أئمة الإسماعيلية إلى الاختفاء ونشر دعوتهم فى طى الكتمان . ولا غرو فقد أوقع العباسيون بمحمد النفس الزكية فى الحجاز وبأخيه إبراهيم فى العراق سنة ١٩٤٥ هـ ، وقتلوا الحسين ابن على بن الحسن فى موقعة فخ (سنة ١٦٩ هـ) التى هرب منها يحيى بن عبدالله صاحب الديلم ، وأخوه إدريس بن عبدالله الذى أسس دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى ، وخرج فى خلافة المأمون محمد الديباج بن معز الصادق بمكة ، والقاسم بن إبراهيم بن الحسن الذى استتر فى مصر نحوا من عشرسنين ، وبث دعاته فى مكة والمدينة والكوفة والرى وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم ، وفى بلخ والطالقان ومرو ، وظل على ذلك إلى أن انتقض عليه أمره فى عهد المعتصم (١) .

لذلك لا نعجب إذا رأينا أئمة الإسماعيلية يلجئون إلى نشر دعوتهم فى الخفاء ، وفى بلاد بعيدة عن مركز الدولة العباسية ، ليدرءوا عن أنفسهم ما أضمره لهم العباسيون من حنق ونقمة (٢) ، وأخذ دعاتهم يجوبون البلاد لجذب الأشياع إليهم .وقد اتخذ أئمة الإسماعيلية مدينة سلمية من أعمال حماه ببلاد الشام مركزاً لنشر هذه الدعوة ؛ وكانوا يبعثون من

---

(١) انظر الجزء الثانى من هذا الكتاب (الطبعة الثالثة) ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٤٨ — ٤٩ .

هذه المدينة الدعاة إلى كافة الأقطار الإسلامية ، ويعهدون فى تنظيم الدعوة إلى كبار الدعاة الذين كان يطلق عليهم فى هذا الدور ، وهو دور الستر، نواب الأئمة أو الحجج ، وهؤلاء يرسلون دعاة من قبلهم لنشر المذهب الإسماعيلى فى أرجاء العالم الإسلامى .

ومن أشهر نواب الأئمة الإسماعيلية الذين تصدوا لنشر هـذا المذهب وكانت إليهم رياسة هذه الدعوة ، ميمون القداح الذى وضع دعامة المذهب الإسماعيلى ، حتى اعتقد بعض أنه هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق نفسه ، واعتقد بعض آخر أنه كان يصدر فى عمله عن ميول شعوبية ترمى إلى مقاومة الإسلام وإعادة النفوذ إلى الفرس ، وأنه إنما اتخذ قداحة العيون أو تطبيبها (هى عملية استخراج ماء من العين) وسيلة لإخفاء أغراضه الأصلية ، وهى نشر المذهب الإسماعيلى ، ومهد بذلك السبيل لابنه عبدالله الذى أقام فى سلمية ، وابتدع دعوة منظمة قسمها إلى سبع درجات أو مراتب زيدت بعده حتى أصبحت تسعا فى أيام الفاطميين ، ولم يمت عبدالله حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد راجت فى كثير من البلاد الإسلامية .

ولما مات عبدالله بن ميمون خلفه فى رياسة الدعوة الإسماعيلية ابنه أحمد[1] ، ويرى ابن النديم (ص ٢٦٥) أن الذى خلف عبدالله ابنه محمد ، وذكر غيرهم أن أحمد هو الذى خلف أباه عبدالله وأنه كان يلقب أبا الشلعلع ، ويظهر أن عبدالله اتخذ من سلمية مركزا رئيسيا لنشر الدعوة ، وعين ابنه الحسين لرياسة الدعوة بها ، كما عين ابنه أحمد أبا الشلعلع لرياسة الدعوة فى بعض مدن العراق ، وخاصة الكوفة وبغداد ، وعين أحد أولاده لرياسة الدعوة فى فارس . ولما مات الحسين بن عبدالله حول سنة ٢٦٠ هـ ، عهد عبدالله إلى ابنه أحمد أبى الشلعلع برياسة الدعوة فى سلمية العراق ، ومن ثم انتقلت إليه رياسة الدعوة بعد موت أبيه حول سنة ٢٧٠ هـ ، وأصبح وصيا على سعيد ابن أخيه الحسين الذى يزعم بعضهم أنه عبدالله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ، وقد بعث أحمد هذا ابن حوشب لنشر الدعوة فى بلاد اليمن ، كما بعث أبا عبدالله الشيعى إلى اليمن لتلقى أصول الدعوة عن ابن حوشب قبل رحيله إلى بلاد المغرب .

أرسل عبدالله بن ميمون وهو فى الأهواز أحد دعاته، وهو الحسين الأهوازى ، إلى سواد الكوفة ، حيث لقى حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط ، الذى لم يلبث أن دخل فى الدعوة وساعد على نشرها فى سواد العراق ، بعد أن ترك له الحسين الأهوازى أمر الدعوة ، وصادفت الدعوة الإسماعيلية على يد حمدان رواجا عظيما بين العرب .

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٤٨ . النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط جـ ٢٦ ص ٢٤ .

وكان من أكبر دعاة حمدان ، صهره عبدان الذى صادفت الدعوة الإسماعيلية على يده كثيراً من النجاح، حتى إن أبا سعيد الجنابى مؤسس دولة القرامطة فى البحرين ، وزكرويه ابن مهرويه زعيم قرامطة الشمال ، أى شمال غربى بلاد العراق، وبادية السماوة، وبعض بلاد الشام قد أخذا الدعوة عنه. ولم يلبث أن اختفى حمدان قرمط وقتل عبدان على أثر انتقاضهما على أبناء القداح بعد سنة ٢٨٠ هـ ، وتحول نشاط القرامطة نحو الشمال على يد زكرويه ، ونحو الجنوب على يد أبى سعيد الجنابى .

بدأ زكرويه ينشر دعوته فى الخفاء وامتد نشاطه إلى بادية السماوة وبعض مدن الشام . وتسمى هذه الحركة حركة الجزيرة العراقية والشام (The Syro Mesopotamian Movement) [١] . وانتشرت دعوة القرامطة على يد أبناء زكرويه ؛ فقد حاصر ابنه يحيى دمشق سنة ٢٨٩هـ ، ولكنه قتل على أبوابها ، وانتقلت رياسة الدعوة إلى أخيه الحسين الذى أثار القلق فى بلاد الشام حتى قضى عليه محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسى المكتفى سنة ٢٩١ هـ . وخرج زكرويه من مخبئه وحارب العباسيين انتقاما لقتل ابنيه ورغبة فى نشر الدعوة الإسماعيلية ، ولكنه قتل فى سنة ٢٩٤ هـ .

أما الحسين بن بهرام، ويكنى أبا سعيد الجنابى، نسبة إلى جنابة ، وهى بليدة على ساحل الخليج الفارسى شرقا فقد قام بنشر الدعوة الاسماعيلية فى القطيف ، وامتد نفوذه إلى أرجاء البحرين كافة ، وعمل على تكوين مجتمع إسماعيلى يدين له بالطاعة . ولكن الدولة العباسية لم تستطع القضاء عليه بسبب انشغالها بحرب قرامطة الشمال بزعامة زكرويه بن مهرويه وأبنائه .

وصفوة القول أن القرامطة فى دور الستر أقلقوا العباسيين ، فأذكوا الفتن فى سواد الكوفة ، وفى العراق العربى ، وبادية الشمال ، وفى أكثر أرجاء سورية .

وكذلك انتشرت الدعوة الاسماعيلية فى بلاد اليمن على يد ابن حوشب وابن فضل الجدنى نسبة إلى جدن وهى منازة باليمن . وقد قيل إن أحمد بن عبد الله بن ميمون هو الذى استمال ابن حوشب إليه وأرسله إلى بلاد اليمن ، حيث استقر بقلعة لاعة جنوبى مدينة صنعاء ، واتخذها مركزا لنشر دعوته ومد نفوذه . ولم يلبث أن استمال إليه أهالى هذه البلاد ، وأقام

---

(١) Bernard Lewis : The Origins of Ismailism, pp. 73-4

الحصون والمعاقل ، وانتصر على والى العباسيين وأمراء اليمن ، وأرسل الدعاة إلى سائر بلاد اليمن والبحرين واليمامة والسند والهند ومصر والمغرب .

ولما اتصل بابن حوشب نبأ موت الحلوانى وأبى سفيان داعيى الإسماعيلية فى المغرب ، عهد إلى أبى عبد الله الشيعى بنشر الدعوة فى هـذه البلاد . فسار إلى مكة ، حيث التقى بحجاج كتامة ، وصحبهم إلى مصر ، وجذبهم إليه ببلاغته ، فطلبوا إليه المسير معهم إلى بلادهم ولما وصل إلى بلاد كتامة وهى ببلاد الجزائر اليوم (ربيع الأول سنة ٢٨٨هـ) ، نزل بفج الأخيار بجبل إيكجان من أرض كتامة على مقربة من قسنطينة وأخذ ينشر دعوته بمساعدة الكتاميين وغيرهم من القبائل المجاورة . وقد حاول إبراهيم الثانى الأغلبى (٢٦١-٢٨٩هـ) أن يجذب أبا عبد الله إليه . ولما أخفق فى محاولته أرسل إليه حملة (٢٨٧ هـ) انتهت بالإخفاق ، كما أرسل إليه حملة أخرى حلت بها الهزيمة أيضا .

وفى سنة ٢٩١ هـ وقع فى يد داعى الشيعة كثير من مدن المغرب ، وساعد على انتصاره موت إبراهيم الثانى الأغلبى ، ولحاق ابنـه أبى العباس به فى السنة التاليـة ، وتولية ابنه زيادة الله (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ) ، الذى انصرف إلى اللهو ، وميل وزرائه إلى عقائد المذهب الشيعى الذى اعتقده كثير من أهالى هذه البلاد . وفى سنة ٢٩٦ هـ استولى أبو عبـد الله على القيروان التى تبعد أربعـة أميال عن مدينة رقادة وفر زيادة الله من رقادة ، وزالت دولة الأغالبة بإفريقية ، وأطلق عبيد الله المهدى من سجنه بسلجماسة .

قد استطاع أبو عبد الله الشيعى أن يجهر بالدعوة لعلى وفاطمة؛ فأمر بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الحسين وفاطمة[1] . وتكللت جهود الاسماعيلية فى دور الستر بالنجاح ، وقامت الدولة الفاطمية أو دولة الفواطم ، التى عرفت أيضا باسم دولة العبيديين نسبة إلى عبيد الله المهدى مؤسس هذه الدولة .

(ب) دور الظهور :

١ — نشر الدعوة الفاطمية فى الدور المغربى .

أخذت الدولة الفاطمية تعمل على تنظيم دعوتها فى جميع أنحاء العالم الاسـلامى عن

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٦ .

طريق دعاتهم . ففى بلاد اليمن تعرضت الدعوة الاسماعيلية للخطر بسبب قيام النزاع بين ابن حوشب (منصور اليمن) وعلى بن فضل الذى خرج على هذه الدعوة، وحارب ابن حوشب واستولى على عدن ولاعة . ولم يلبث ابن فضل أن مات مسموما (٣٠٣ هـ). كذلك كان موت منصور اليمن (٣٠٢ هـ) من العوامل التى أضعفت الدعوة الاسماعيلية باليمن [١] . واتخذ السنيون من هذه الحالة فرصة للقضاء على المذهب الاسماعيلى، وأضطر أنصار الفاطميين إلى نشر دعوتهم فى الخفاء ، حتى ظهرت قوتهم حول منتصف القرن الخامس الهجرى على يد على بن محمد الصليحى ، فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى .

وفى البحرين عمل أبو سعيد الجنابى وابنه سعيد على التقرب إلى العباسيين مما أثار حنق

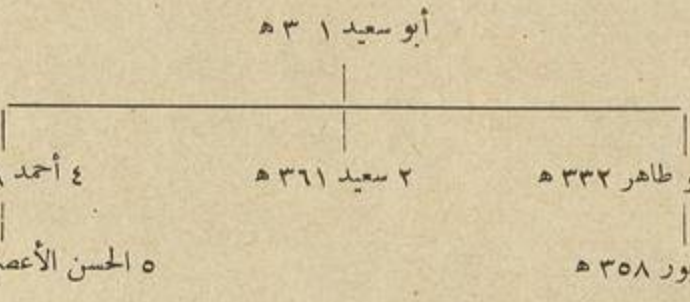

الفاطميين وأنصارهم من القرامطة ، فأثاروا الفتن وخلعوا سعيدا وولوا أخاه أباطاهر ، وأقرهم عبيد الله المهدى على ذلك (٣٠٥ هـ) . وقام أبو طاهر بحملات إرهابية ليشغل العباسيين ، ويتيح الفرصة للفاطميين لامتلاك مصر . ولما مات أبو طاهر سنة ٣٣٢هـ ، أقر الخليفة الفاطمى القائم أخاه أحمد فى رياسة الدعوة فى هذه البلاد . وقد أدت هذه السياسة إلى قيام النزاع بين أنصار أبى طاهر وأنصار أخيه أحمد . وبين القرامطة والفاطميين حينا من الدهر .

وفى فارس قام « خلف » بنشر الدعوة الإسماعيلية ، وجمع حوله لفيفاً من العلماء من أمثال الداعى غياث الذى أصبح فى عهد أحمد بن خلف نائبا لرياسة الإسماعيلية أو الخلفية كما كانت تسمى فى فارس [٢] . واصطبغت الدعوة الإسماعيلية فى هذه البلاد بالصبغة العلمية والفلسفية . ومن أكبر دعاة الإسماعيلية فى فارس : أبو حاتم الرازى المتوفى سنة ٣٢٢هـ ،

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٥١ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٦ .

وكان له تأثير كبير على الأمراء ، حتى إن يوسف بن أبى الساج أمير الرى ، فكر فى خلع طاعة الخليفة المقتدر العباسى (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) والدخول فى طاعة المهدى الفاطمى ، كما جذب أسفار بن شيرويه أمير قزوين ، وقائده مرداويج بن زيار الديلمى .

ومن أشهر دعاة الإسماعيلية فى فارس محمد بن أحمد النسفى (٣٣١هـ) ، الذى عمل على جذب نصر بن أحمد السامانى (٣٠١ — ٣٣١ هـ) أمير خراسان وماوراء النهر ، وأدخله فى الدعوة الإسماعيلية : ولكن قواده سخطوا عليه لاعتناقه عقائد هذه الدعوة ودبروا مؤامرة لاغتياله ، فنزل عن الإمارة لابنه نوح الذى عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلى فى بلاده (١) .

وفى مصر كان الفاطميون يرسلون إليها مع جيوشهم دعاة لنشر مذهبهم فيها ، فكانوا يندمجون فى المصريين ، ويلقنونهم عقائد هذا المذهب الذى اعتنقه كثير من المصريين . وكان للخلفاء الفاطميين نصيب كبير فى نشر هذه الدعوة. وليس أدل على ذلك من الكتاب الذى أرسله الخليفة الفاطمى القائم إلى محمد بن طغج الإخشيد يدعوه إلى قبول دعوته والدخول فى طاعته (٢) .

وفى عهد المعز الفاطمى أصبح فى مصر جماعة كبيرة تدين بعقائد المذهب الاسماعيلى ، فأرسل إلى كافور الإخشيد وإلى أكابر قواده يدعوهم إلى طاعته . ويقول المقريزى (جـ٢ ص ٢٧) « قدمت عليه دعاة المعز لدين الله من بلاد المغرب يدعونه لطاعته ، فلاطفهم ؛ وكان أكثر الإخشيدية والكافورية والكتاب قد أخذت عليهم البيعة للمعز » . وكان كافور نفسه يحسن إلى العلويين فى مصر ويدر عليهم الهبات والأرزاق .

٢ — نشر الدعوة الفاطمية فى الدور المصرى .

انقسم القرامطة بسبب قيام المنافسة بين أولاد أبى سعيد فريقين : فريق بزعامة بيت أبى طاهر ظل على ولائه للفاطميين ، وفريق آخر بزعامة بيت أحمد بن أبى سعيد وعلى رأسه الحسن الأعصم الذى أصبح يضمر العداء للفاطميين ويعمل على التقرب إلى العباسيين.

وقد اتخذ الحسن الأعصم من استيلاء الفاطميين على دمشق فى سنة ٣٥٨ هـ ومنعهم الجزية التى كانت تدفع للقرامطة ، فرصة للانتقام من الفاطميين ، فسار إلى بلاد الشام واستولى

---

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٧٣ — ٧٤ .

(٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ٣٦ — ٧٤ .

على دمشق ، ثم سار إلى الرملة ثم إلى الفرما وعسكر بجنده فى عين شمس . وفى أوائل ربيع سنة ٣٦١ هـ دار القتال بين القرامطة والفاطميين عند باب مدينة القاهرة ، ودارت الدائرة على القرامطة الذين ارتدوا إلى القلزم [١] . وأرسل الخليفة المعز ، وكان لايزال فى بلاد المغرب مدداً لجوهر ، الذى استطاع أن يرد الحسن القرمطى وجيشه إلى دمشق ، وأخذ يعد العدة لغزو مصر من جديد ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى الأحساء لإخماد ثورة أنصار أبى طاهر .

لما قدم المعز إلى مصر أواخر سنة ٣٦٢ هـ أرسل إلى الحسن الأعصم القرمطى كتابا طويلا يهدده فيه ويتوعده [٢] ؛ فرد الحسن على هذا الكتاب بكلمات قصيرة تدل على عدم مبالاته بتهديد المعز ووعيده ، وعلى شدة رغبته فى محاربة الفاطميين ، فقال : « وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ، ونحن سائرون إليك على إثره والسلام » [٣] . ولم يلبث أن ظهر القرامطة فى عين شمس (ربيع الثانى ٣٦٣هـ)، وحميت الحرب بين الفريقين، وانتهت بتشتيت قوة الحسن القرمطى واسترداد الفاطميين دمشق .

وفى أواخر عهد المعز ثار أهل دمشق وأتاحوا الفرصة لدخول أفتكين التركى مولى معز الدولة بن بويه وإعادة الخطبة للعباسيين . وقد عمل العزيز الفاطمى على استمالة أفتكين الذى أبى ، واستعان بالقرامطة . وتمكن من الاستيلاء على الرملة ، ويمم شطر عسقلان ، وحاصر جوهر الصقلى ، وحمله على طلب الصلح . ولكن العزيز خرج بنفسه ، ودارت بين الفريقين على نهر الطواحين بالقرب من الرملة معركة انتهت بهزيمة القرامطة وأفتكين، وعادت دمشق إلى أيدى الفاطميين .

وقد أضعفت هذه الحروب القرامطة المناوئين لسلطان الفاطميين، واستطاع العزيز أن يجذبهم إليه ويعيدهم إلى الطاعة [٤] .

أما من ناحية العباسيين فقد عملوا على القضاء على أعدائهم الفاطميين ، وساعدهم فى ذلك بنو بويه برغم تمسكهم بعقائد المذهب الإسماعيلى مذهب الفاطميين حتى لايتعرض

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٦ ، خطط جـ ٢ ص ١٣٨ .
(٢) المقريزى : اتعاظ ص ١٣٤ ــ ١٤٣
(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٢٩ .
(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٩١

سلطانهم فى بلاد العراق للخطر . وهذا يعلل مساعدة البويهيين للقرامطة فى حروبهم مع الفاطميين . وقد حاول العزيز الفاطمى أن يجذب إليه البويهيين ، فأرسل إلى عضدالدولة ابن ركن الدولة رسولا من قبله ٣٦٩ هـ ، ثم تتابعت رسائله إليه ، « فأجابه عضد الدولة بكلام يتضمن صدق الطوية وحسن النية » (١) .

على أن سياسة المودة قد تبدلت فى أواخر عهد عضد الدولة الذى توجس خيفة من ناحية الفاطميين، فجمع مجلساحضره العلويون الذين أقروا بطلان نسب الفاطميين. ويعتبر هذا العمل بدء تدوين المحاضر العباسية التى عقدت ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، وأنكر فيها نسب الفاطميين إلى على وفاطمة ، وقد هال العباسيين إقامة الخطبة للحاكم الفاطمى فى بلاد الموصل(٢) .

على أننا نلاحظ تطورا واضحا فى سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبى كاليجار (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) ، الذى تقرب إلى الفاطميين لإلقاء الرعب فى قلوب العباسيين ، وذلك بتأثير المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى المستنصر الفاطمى فى فارس الذى عمل على مساعدة البساسيرى حين خرج على الخليفة العباسى القائم وأقام الخطبة للخليفة الفاطمى على منابر بغداد نحواً من سنة .

وكان الحمدانيون ، كبنى بويه ، يخشون ازدياد نفوذ الفاطميين ، على الرغم من أنهم كانوا يميلون إلى المذهب الإسماعيلى . ولذا نرى الحمدانيين يشجعون القرامطة على غزو بلاد الشام فى عهد المعز وابنه العزيز الذى عمل على الاستيلاء على حلب من يد سعيد بن سيف الدولة (٣٨١ — ٣٩٢ هـ) ، ولم ينقذه سوى تدخل البيزنطيين بقيادة الإمبراطور باسيل الثانى ، وموت العزيز فى بلبيس وهو فى طريقه لفتح حلب سنة ٣٨٦ هـ . (٣) ولم تخضع حلب لحكم الفاطميين إلا فى عهد الخليفة الحاكم (٣) .

وقد انتشرت الدعوة للفاطميين فى الموصل بعد أن انتزعها المقلد بن المسيب العقيلى من من أيدى الحمدانيين سنة ٣٨٦ هـ وأسس فيها دولة العقيليين ، وخطب قرواش بن المقلد للفاطميين على منابر الموصل والأنبار والكوفة والمدائن فى شهر المحرم سنة ٤٠١ هـ ، مما

---

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١١ .
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٣ — ٤٤ .
(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٥٦، ٢٥٨ .

أثار حنق العباسيين والبويهيين ، حتى إنهم فكروا فى السنة التالية فى عقد مؤتمر كتب فيه محضر بالطعن فى نسب الفاطميين (١) .

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن على يد على بن محمد الصليحى المتوفى سنة ٤٥٩ هـ ، وقد استعان به الخليفة المستنصر على إزالة نفوذ العباسيين من بلاد الحجاز وإعادة سلطان الفاطميين عليها . ثم خلف على الصليحى فى نشر الدعوة الفاطمية فى هذه البلاد ابنه الملك المكرم ، والسيدة أروى الحرة الصليحية زوجة المكرم (٢) .

أما علاقة الفاطميين بالأمويين فى الأندلس ، فقد كانت تنطوى على الكراهية والبغضاء بسبب ذلك العداء التقليدى الذى استمر بين البيتين الهاشمى والأموى منذ أيام الجاهلية ومما يدل على استمرار ذلك العداء تلك الرسائل التى تبودلت بين العزيز بالله الفاطمى والحكم المستنصر الأموى. ذكر ابن خلكان (٣) أن العزيز كتب إلى الحكم يسبه ويهجوه ، فرد هذا عليه بقوله : أما بعد ، قد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك . ويقول العينى (٤) إن الحكم كتب إلى العزيز صاحب مصر كتابا حجاه فيه وفى أهله ، وأنه دعى فى نسبه ، وأن جده القداح باطنى ، وكتب فى أول كتابه :

ألسنا بنى مروان كيف تقلبت بنا الحال أو دارت علينا الدوائر ؟

فلما وقف العزيز عليه كتب فى أوله :

إذا ولد المولود منا تهللت له الأرض واهتزت إليه المنابر

عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لهجوناك ، والسلام » .

ولم يقتصر هذا العداء على الأمويين فى الأندلس وحده بل شمل المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية بفضل مساعدتهم ؛ فإن بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى الذى ولاه المعز لدين الله الفاطمى بلاد المغرب قبل مسيره إلى مصر واتخاذه القاهرة حاضرة لدولته ، لم يهتم هو وأبناؤه من بعده بنشر الدعوة للفاطميين فى المغرب .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ص ٢٢٤ — ٢٢٧ .

(٢) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص٤٣ ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢١٥ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص١٥٢ .

(٤) عقد الجمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ١٩ ص ٣٩٦

وقد قامت الحرب بين المعز الصنهاجى وبين المستنصر الفاطمى الذى استعان بقبائل بنى هلال ، واستولى على القيروان سنة ٤٤٩ هـ ؛ ففر المعز إلى المهدية، ثم قطع ابنه تميم الخطبة المستنصر الفاطمى وخطب للقائم العباسى وخلفائه حتى قامت دولة الموحدين على يد أبى عبدالله محمد بن تومرت الذى تلقب بلقب المهدى، ومات فى سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م)، ثم قطع أحد أخصائه من القواد ، وهو عبدالمؤمن ، الخطبة للخليفة العباسى ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين (١) .

(حـ) تنظيم الدعوة الفاطمية :

كان الإسماعيلية يتظاهرون أمام الناس بأمور تحبب إليهم المذهب الإسماعيلى الذى يدعو إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق .

وكان دعاة هذا المذهب إذا شكـكوا المدعو أو المريد وطلبوا منه حل رموز الدعوة ، أخذوا عليه العهود والمواثيق بأن لا يكشف عن سر هذه الدعوة ، وأن يتحمل فى سبيل الدفاع عنها كل ضروب العذاب والآلام ، وكانت هـذه الدرجات رائجة فى دورى الستر والظهور وقد أولاها الفاطميون كثيراً من العناية ، فعقدوا لها المجالس فى القصور والمكتبات والمساجد .

وكانت هذه الدعوة الإسماعيلية تسند إلى «داعى الدعاة» ؛ وكان يلى قاضى القضاة فى الرتبة ، وكثيرا ما كانت الوظيفتان تسندان إلى رجل واحد ، ويساعد داعى الدعاة فى نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيبا ، وله نواب ينوبون عنه فى البلاد (٢) .

وكان داعى الدعاة يقوم برياسة الدعوة الإسماعيلية ويأخذ العهد على المريدين ، إما مباشرة ، أو بواسطة نوابه فى مصر وفى غيرها من البلاد التى ساد فيها المذهب الإسماعيلى ، والإشراف على محاضرات المجالس وتنقيحها وعرضهـا على الخليفة لإقرارها وتذييلها بإمضائه (٣) . ومن أشهر دعاة الدعاة ، أسرة أبى حنيفة النعمان المغربى ، والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٥٠ ـ ٥١ .
(٢) المؤيد فى الدين : السيرة المؤيدية ص ١٢١ .
(٣) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٩١ .

وقد خصص لداعى الدعاة مكان خاص بقصر الخليفة ، هو دار العلم ، حيث كان يعقد المجالس ويقرأ من مصنفاته على الناس ، فيحاضر الرجال، ويعقد للنساء مجلساخاصا يسمى «مجلس الدعوة»، حيث يلقنهن أصول المذهب .

ويتسلم داعى الدعاة كتب الدعوة التى تقرأ على الناس فى القصر من سلفه المباشر (١). أما هذه الكتب فهى من غير شك الكتب التى ألفها دعاة من أمثال أبى حنيفة النعمان المغربى (٢) ، ويعقوب بن كلس (٣) ، والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى (٤) وغيرهم من دعاة الإسماعيلية .

وقد قامت فى العصر الفاطمى طائفة من غلاة دعاة الإسماعيلية ألهوا الخليفة الحاكم ، وخرجوا على السواد الأعظم من الإسماعيليين المعتدلين الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة . ومن أعظم هؤلاء الغلاة حمزة بن على الزوزنى ، والحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم ، ومحمد بن إسماعيل أبوشتكين البخارى الدرزى .

ففى سنة ٤٠٨ هـ جهر حمزة بن على بألوهية الحاكم ، وصنف كتابا ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت فى آدم عليه السلام ، ثم انتقلت إلى على بن أبى طالب، وأن روح على انتقلت إلى العزيز ، ثم إلى ابنه الحاكم ، الذى أصبح فى نظرهم إلها عن طريق الحلول (incarnation) .

ويعتبر حمزة بن على المؤسس الحقيقى لمذهب الدرزية (٥) ، وقد استغل الحسن بن حيدرة الفرغانى الأخرم ، ومحمد بن إسماعيل البخارى الدرزى فى نشر عقائد هذا المذهب وشجع الأخرم على الجهر بتأليه الحاكم فى سنة ٤٠٩ هـ حيث قتل .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٤٢ — ١٤٤ .

(٢) ومن أشهر كتبه : كتاب دعائم الإسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام ، وكتاب المهمة فى معرفة الأئمة ، وكتاب المجالس والمسايرات ، وكتاب أساس التأويل ، وكتاب افتتاح الدعوة الزاهرة.

(٣) ومن أشهر كتبه : الرسالة الوزيرية ، التى نهج فيها إلى حنيفة النعمان فى كتبه .

(٤) ومن أشهر كتبه : كتاب السيرة المؤيدية .

(٥) الدرز (بالفتح) : واحد درزة ، الثوب ونحوه ، وهو فارسى معرب . ويقال درز بالدال والذال ، وأولاد درزة . السفلة والسقطاء والغوغاء من الناس والخياطون ، وهم من أسافل الناس . والدرزى (بالفتح) : الخياط . والعامة تضم الدال فتقول دزرى ، وفى الجمع دروز ، والصواب درزى فى المفرد ، ودرزية فى الجمع والشائع اليوم دروز وهو خطأ .

وكان الحاكم يشجع هذه الدعوة فى مصر أولا وفى الشام ثانيا ، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله . وقد ادعى تجسم الإله فى شخصه ؛ وهو وإن لم يصرح بذلك ، كان يوافق على آراء أنصاره ، كحمزة بن على ، والدرزى اللذين نسبا إليه الصفات التى لايتصف بها إلا الله سبحانه وتعالى كما شجع بعض الشعراء المتصلين بالبلاط الفاطمى هذا الاعتقاد ، ولم يترددوا فى أن ينسبوا إليه بعض صفات الله وهم يقرءون القرآن بحضرته ، حتى لقد أرغم كل من لم يقل بألوهية الحاكم على دفع الجزية كأهل الذمة .

ومن أهم مميزات الدرزية اتخاذهم تقويما جديدا يؤرخون به حوادثهم ، ويبدأ من سنة ٤٠٨ هـ وهى السنة التى ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم على يد حمزة بن على .

وكان الدرزية ينقسمون إلى طائفتين : الأولى طائفة الروحانيين وتكون الطبقة المستنيرة التى تلم بأصول المذهب الدرزى . والطائفة الثانية هى الجثمانيين ، وتنقسم إلى قسمين : الأمراء الجثمانيين والعامة أو الجهال . فالأمراء الجثمانيون يتولون شئون الحرب والزعامة الوطنية ، والعامة أو الجهال وهم لايعرفون من أصول المذهب إلا اسمه [1] . ولا يسمح لأحد من طائفة الجثمانيين بالانتظام فى طائفة الروحانيين إلا بعد اختبار طويل شاق يظهر فيه استعداده لتلقى أصول المذهب الدرزى والاطمئنان إلى أنه سوف يصبح عضوا نافعا متفقها فى عقائده .

وقد خلف حمزة بن على وغيره من دعاة الدرزية الأقدمين كثيرا من المؤلفات التى كشفت عن كثير من غوامض هذا المذهب ؛ ومنها نتبين أنهم من غلاة الإسماعيلية ، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلى فى جوهره . وقد بنيت هذه الرسائل على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة ؛ لأن الفلسفة ، وهى أساس الشريعة عند الفاطميين ، قد حلت فى عهد الحاكم محل القرآن والسنة . كما نقف من هذه الرسائل على أن داعى الدعاة كان يعاونه مائة وواحد وخمسون داعيا ، بالإضافة إلى ما كان يقوم به المؤذنون وخطباء المساجد من نشر المذهب الإسماعيلى .

---

(١) Philip Hitti: The Origins of the Druze People and Religion, p. 43

٣ — الخوارج

إذا كان الخوارج قد شاركوا إلى حد كبير فى سقوط الدولة الأموية ، فقد أقلقوا خلفاء العصر العباسى الأول فى المغرب خاصة ، حيث مال أهلها إلى مبادئ الخوارج من الإباضية والصفرية وغيرهم الذين بلغت جيوشهم نحو مائة ألف ، وخلعوا طاعة أبى جعفر المنصور وهزموا جيوشه واستولوا على مدينة القيروان فى عهده أكثر من مرة .

على أن خطر الخوارج لم ينته فى العصر العباسى الأول ، بل إننا نقرأ عن ثوراتهم التى كانوا يذكونها من حين إلى حين . ففى سنة ٢٥٢هـ خرج مساور بن عبد الحميد بن مساور الشارى البجلى الخارجى على والى الموصل فى عهد الخليفة المستعين، وأخرج ابنه حوثرة من السجن، وحارب هذا الوالى ، واستولى على أكثر أعمال الموصل وهزم الجيوش العباسية عدة هزائم ولكنه لم يستطع البقاء بها فسار إلى الحديثة ، وكان قد اتخذها دار هجرته » (١).

وقد تعرض مساور لخطر جسيم بسبب انشقاق بعض الخوارج عليه بزعامة عبيدة الذى خالفه فى قبول توبة الخاطىء . وكان مساور يرى كما كان يرى الخوارج المعتدلون فى أواخر العصر الأموى ، عدم تكفيره وقبول توبته ، على حين تمسك عبيدة بمبادىء الخوارج الأول فى تكفير العاصى ، وقامت الحرب بسبب ذلك بين الفريقين على مقربة من الموصل فى شهر جمادى الأولى سنة ٢٥٧ هـ . وعلى الرغم من انتصار مساور على خصمه وقتله ، انتهز الخليفة العباسى المعتمد هذه الفرصة وأرسل الجيوش بقيادة مفلح ، الذى استطاع أن ينتصر عليه فى عدة مواقع ، وأخرجه من الموصل والحديثة . ولكن مساوراً صمد لخصمه واتبع معه خطة الكر والفر والتوغل فى الجبال والشعاب والمضايق ، حتى نهك قوته وأرغمه على العودة إلى سامرا حاضرة الدولة العباسية فى ذلك الحين ، واستولى على هذه البلاد ، وجبى خراجها ، وقويت شوكته واشتد أمره (٢) .

وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٥٧ هـ أن على بن مساور وطوقا الزهيرى الخارجين خرجا فى الموصل فى أربعة آلاف رجل وعاثا فى هذه البلاد. وذكر الطبرى (ج ١١ ص ٢٣٢) فى حوادث سنة ٢٦٠ هـ أن الأكراد انضموا إلى مساور الخارجى وقتلوا رجلا

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ٦١ ، ٦٦ ، ٧٢ .
(٢) المصدر نفسه : جـ ٧ ص ٨١ .

من كبار ربيعة ، وأن الحرب قامت بينهما . ولما مات مساور فى سنة ٢٦٣ هـ ، خلفه فى زعامة الخوارج أيوب بن حيان الوراقى البجلى ، وقام النزاع بينه وبين محمد خرزاد الذى أدعى أن مساوراً عهد إليه قبل وفاته ، وقتل أيوب ، فآلت الزعامة إلى محمد بن عبد الله ابن يحيى الوراقى ، ويعرف بالغلام ؛ ولكنه قتل أيضا ، فبويع هارون بن عبد الله البجلى الذى كثر أتباعه وانتصر على ابن خرزاد ، واستولى على أعمال الموصل وجبى خراجها . وبذلك استقر الخوارج فى نواحى الموصل ، وصدوا بنى شيبان حين أغاروا عليها (٢٧٢ هـ) وحاربوا جند يوسف بن أبى الساج قبل أن يستولى عليها فى السنة التالية وأوقعوا به الهزيمة [١] . كما صدوا بنى شيبان حين حاولوا الإغارة على مدينة نينوى من أعمال الموصل وانتصروا عليهم بمساعدة أهل هذه البلاد (٢٧٩ هـ) .

على أن أمر الخوارج أخذ فى الضعف بسبب وقوع النزاع بينهم ، فقد انشق على هارون زعيم الخوارج محمد بن عبادة المعروف بأبى جوزة ، وانضوى تحت لوائه كثير منهم ، واستولى على بعض البلاد التى كانت فى حوزة هارون ، وأقام الحصون ، والتقى الجيشان على مقربة من سنجار . وعلى الرغم مما أحرزه هارون من نصر وظفر أضعفت هذه الحروب من قوة الخوارج وأتاحت للعباسيين فرصة التغلب عليهم ، واستطاع عامل الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) على آمد أن ينتصر على محمد بن عبادة الخارجى ، وأن يسوقه إلى دار الخلافة . كما أدى ذلك النزاع إلى انتصار عامل الخليفة العباسى على الموصل على هارون الخارجى (٢٨٢ هـ) . وتمكن الحسين بن حمدان من الانتصار عليه فى السنة التالية وساقه إلى حاضرة الخلافة . « وخلع المعتضد على الحسين بن حمدان ، وطوقه وخلع على إخوته ، وأدخل هارون على الفيل ، وأمر المعتضد بحل قيود حمدان بن حمدان والتوسعة عليه والإحسان إليه . ووعد بإطلاقه . ولما أركبوا هارون على الفيل ، أرادوا أن يلبسوه ديباجا مشهرا ، فامتنع وقال : لا يحل ، فألبسوه كارها ، ولما صلب نادى بأعلى صوته . لا حكم إلا لله ولو كره المشركون . وكان هارون صفريا [٢] » .

وبموت هارون بن عبد الله البجلى الشارى ضعف أمر الخوارج فى الموصل ، ولكنهم ظلوا يقلقون الفاطميين فى المغرب والعباسيين فى اليمن وعمان خاصة . ففى المغرب اشتد

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٢٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ — ١٥٣ .

(٢) المصدر نفسه : جـ ٧ ص ١٦٢ ؛ ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٠ .

نفوذ الخوارج بزعامة أبى يزيد مخلد بن كيداد الذى راجت دعوته فى أواخر عهد عبيد الله المهدى الفاطمى (٢٩٦ – ٣٢٢هـ)، وتفاقم خطره فى عهد ابنه القائم ، وانتشرت جيوشه فى كل أرجاء الدولة الفاطمية فى سنة ٣٣٣ هـ ، وكاد يستولى على مدينة المهدية حاضرة الفاطميين فى ذلك الحين . ولم يستطع الفاطميون الانتصار على جيوش أبى يزيد إلا فى عهد الخليفة المنصور (٣٣٤ — ٣٤١ هـ) ، وقبض عليه وسيق إلى المهدية حيث مات متأثرا من جراحه فى شهر المحرم سنة ٣٣٦ هـ .

أما فى اليمن وعمان خاصة، فقد انتشر مذهب الخوارج الذين استطاعوا فى سنة ٤٤٢ هـ أن يستولوا على مدينة عمان حاضرة هذه البلاد وأقصوا عمال البويهيين عنها ، ونشروا الأمن فيها . وأظهر ابن راشد الحال العدل « وأسقط المكوس ، واقتصر على رفع عشر مايرد إليهم ، وخطب لنفسه ، وتلقب بالراشد بالله ، ولبس الصوف ، وبنى موضعا على شكل مسجد » (١) .

٤ — ثورة صاحب الزنج

أثار الزنج (Ethiopians) وهم طائفة من عبيد إفريقية القلق والرعب فى حاضرة الخلافة العباسية . وكان مسرح هذه الثورة الجامحة العنيفة التى دامت أكثر من أربع عشرة سنة ، هذه المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط ، وانضمت إليهم جماعات من العبيد الهاربين من القرى والمدن المجاورة تخلصا من حالتهم. وكانوا لايتقاضون من الأجر شيئا ، بل كانوا يقتاتون بقليل من الدقيق والتمر والسويق ، مما جعلهم إزاء هذه الحالة الاقتصادية والاجتماعية السيئة على أتم الاستعداد للخروج على ولاة الأمر فيهم (٢) .

وقد قاد هؤلاء الزنوج رجل فارسى يسمى على بن محمد ، من أهالى الطالقان، ادعى أنه من ولد على زين العابدين بن الحسين بن على (٣) كما ادعى أن العناية الإلهية قد أرسلته لإنقاذهم مما كانوا يعانونه من بؤس ، كما ادعى أيضا العلم بالغيب وانتحل النبوة (٤). ولكنه

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢١١ .

(٢) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٦٧ — ٧٧ .

(٣) زعم أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . وذكر ابن الأثير (ج ٧ ص ٧٢) أن اسمه على بن محمد بن عبد الرحيم .

(٤) الطبرى ج ٢١ ص ١٧٦ . أنظر الدورى ص ٧٩ .

لم يجهر بعقائد المذهب الشيعى على الرغم من ادعائه النسب إلى على وفاطمة ، وإنما جهر بعقائد مذهب الخوارج .

وقد علل نلدكة [١] هذه الدعوة الغريبة فى هذه العبارة فقال : « لقد بلغ من معرفة هذا الزعيم الثائر بميول أصحابه ، أنه تظاهر بالدعوة إلى مذهب الخوارج الذى يلائم ميولهم الديمقراطية أكثر من مذهب الشيعة ، وإن كان هو قد افتخر بأنه من نسل على وفاطمة ، لما ينطوى عليه المذهب الشيعى من التوريث الذى لا يلائم عقول مواطنيه » .

« ومن ثم يتضح وضوحا كافيا — كما يقول نلدكة (ص ١٥٤) — لماذا رفض قرمط المؤسس الحقيقى لمذهب القرامطة ، وهو المذهب الشيعى المتطرف الذى قدر له أن يملأ العالم الإسلامى قاطبة خوفا وهلعا ، أن يرتبط بزعيم العبيد ، على الرغم مما قد يفيده من اشتراكه معه فى حركته ، متأثرا بعوامل مذهبية » .

ومهما يكن من شىء فإن صاحب الزنج لم يلبث أن كشف عن ميوله الحقيقية ، حتى إن أعداءه سموه دعى على ، كما سموه الخبيث [٢] .

قدم صاحب الزنج بلاد العراق ، واتصل ببعض بطانة الخليفة المنتصر (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) ، ثم سار فى سنة ٢٤٩ هـ إلى البحرين ، ودعا إلى تحرير العبيد فى البصرة وضواحيها ، واستمال قلوبهم ، حتى إنهم تركوا مواليهم وانضموا إليه ؛ فعظم شأنه وقويت شوكته ، ولقيت دعوته قبولا بين أهالى هجر والبحرين والعراق [٣] . ثم سار إلى بغداد سنة ٢٥٤ هـ ، وأقام هناك سنة ، « فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما فى ضمائر أصحابه » [٤] .

ويدل هذا النص الذى نقش على لواء صاحب الزنج أن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد حانت ولهذا أول هذه الآيات التى نزلت فى سورة التوبة (٩ : ١١١) تأويلا سياسيا قصد به تضليل أنصاره (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى

---

(١) أنظر Noeldeke: Sketches from Eastern History, Chap. V. pp. 146—175.
Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. pp. 349 - 50.

(٢) Muir : The Caliphate, p. 545.

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢٧ .

(٤) ابن الأثير ج ٧ ص ٧٣ .

بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) . وقد أول صاحب الزنج هذه الآية، بأن المؤمنين، وقد اشتروا أنفسهم، لم يعودوا بعد عرضة للرق والعبودية[١]

وسرعان ماقدم صاحب الزنج البصرة ، فأسرع إليه بعض غلمانها رغبة فى التخلص من الرق ويقول ابن الأثير (جـ ٧ ص ٤٧) : « وأتاه مواليهم وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم إليه عبده فبطح أصحابهم ، وأمر كل من عنده من العبيد ، فضربوا مواليهم أو وكيلهم كل سيد خمسمائة سوط ، ثم أطلقهم » .

وما زال الزنج يلتفون حول صاحبهم حتى كان يوم الفطر ، فخطبهم وصلى بهم ، وأعاد إلى أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعنت ، ومناهم الأمانى الطيبة من إطلاق حرياتهم واستمتاعهم بالأموال التى يغنمونها فى حروبهم . واتخذ فى مدينته التى بناها وسماها « المختارة » منبراً كان يصعد عليه ، ويسب عثمان وعلياً ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة على الرغم من ادعائه الانتساب إلى على .

انتشرت جيوش صاحب الزنج فى العراق وخوزستان والبحرين ، ونهبوا القادسية وهزموا أهالى البصرة ، واستولوا على ألف وتسعمائة سفينة كانت تحمل بعض الحجاج إلى مكة ، وألقوا الرعب والفزع فى قلوب الأهلين ، حتى عجزوا عن مقاومتهم ، وشكوا إلى الخليفة المهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦هـ) ماحل بهم من بلاء ، فأنفذ إليهم أحد قواده الأتراك[٢] ولما ولى المعتمد الخلافة (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) سير « جعلان » أحد قواد الأتراك لمحاربة صاحب الزنج بالبصرة ، ونشب القتال بين الفريقين ، فانتصر صاحب الزنج ، وقتل القائد التركى ، واستولى على مدينة الأبلة على مقربة من الخليج الفارسى وشط العرب حيث يتفرع دجلة والفرات ، ثم استولى على الأهواز وخربها ، واضطر أهالى البصرة وما جاورها إلى مغادرة بلادهم والانتقال إلى المدن البعيدة عن مطامع الزنج .

وقد أدخل الزنج الفزع والرعب فى قلوب كثير من أهالى البلاد الإسلامية ، فاستولو على البصرة سنة ٢٥٧ هـ ، وذبحوا كثيرا من أهلها ، وخربوا مسجدها العظيم ، وأشعلو النار فى المدينة ، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من حاضرة الخلافة [٣] .

---

(١) Muir : The Caliphate, p. 545

(٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ٧٥ — ٧٦ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢

(٣) ابن الأثير : جـ ٧ ص ٨٦ — ٨٧ .

وبعد ذلك دخلت جموع صاحب الزنج واسط ورامهرمز [١] ، فسير إليهم الخليفة المعتمد كثيراً من مشهوري قواده ، من أمثال موسى بن بغا الذى قتل عددا كبيراً منهم . غير أن هذه الهزيمة لم تفل شوكتهم ، بل ظل خطرهم يتزايد وانتصاراتهم على الجيوش العراقية تتوالى ، فبعث الخليفة المعتمد فى طلب أخيه أبى أحمد الموفق طلحة ، وكان الخليفة المهتدى قد نفاه إلى الحجاز ، وعهد إليه بقتال الزنج . وعلى الرغم من أنه حاز هو وموسى بن بغا شيئا من النجاح فى بعض المواقع ، انطلقت جيوش الزنج فى غزو العراق وخوزستان والبحرين بشكل جماعات منظمة غايتها النهب والسلب ، وألقوا الفزع والرعب فى قلوب الأهلين .

ولما اطمأن الموفق من ناحية أعدائه الآخرين تفرغ لحرب الزنج وتولى قيادتها بنفسه وخرج من بغداد إلى واسط فى شهر صفر سنة ٢٦٧ هـ ، وهزم فريقا كبيرا منهم ، وأسر بعضهم . وما زالت انتصارات الموفق تتوالى على الزنج حتى أجلاهم عن الأهواز ، وحاصر مدينتهم «المختارة» وبنى بإزائها مدينة سماها « الموفقية » نسبة إليه [٢] . وقطع العباس بن الموفق الميرة عن مدينة صاحب الزنج ، ثم استولى أبوه على الجزء الغربى من هذه المدينة [٣] واضطر بعض زعمائهم إلى طلب الأمان ، بعد أن تضاءل أملهم فى إحراز النصر ، وبدأ بقية الثائرين ينضمون إلى الموفق ، فأمنهم وعفا عنهم وأحسن معاملتهم . وأخيرا سقطت قلعتهم وعاد الناس إلى قراهم بعد أن تخلصوا من الأسر والرق ، وقتل «الخبيث» [٤] .

دامت الحرب بين جيوش العباسيين والزنج أكثر من أربع عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) كما تقدم . وقضى عليهم الموفق وقواده ، وقتل «بهبوذا» وكان من قواد صاحب الزنج ، وحمل رأسه إلى الموفق ، فخر ساجدا ، وعلت كلمة الجند بالتهليل والتكبير . على أن أحد أنصار صاحب الزنج رمى الموفق بسهم فى صدره وهرب إلى رامهرمز ، فبعث به عاملها إلى الموفق فقتله ابنه العباس الذى ولى الخلافة بعد المعتمد . وقد ذكر السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢) أن عدد القتلى فى تلك المعارك بلغ ألف ألف وخمسمائة ألف . وذكر صاحب الفخرى (ص ٢٢٧) أن عددهم بلغ ألفى ألف وخمسمائة ألف . وقتل صاحب الزنج — على ما ذكره ابن الأثير (ج ٧ ص ١٤١) — فى ٢ من صفر سنة ٢٧٠ هـ بعد

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١١١ ، ١١٧

(٢) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٣٩ — ١٤٠

(٤) Muir: The Caliphate, p. 546

أن أقلق بال الدولة العباسية وكلفها كثيرا من الجهود والأموال والأرواح ، وظل أتباعه يعيثون فى البلاد الإسلامية أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام ، وعلق رأسه على رمح ، وزينت بغداد بأبهى معالم الزينة ، وطيف برأسه بين مظاهر الفرح ، واستطاع الناس العودة إلى بلادهم التى استولى عليها الزنج ، وأشاد الشعراء بذكر هذا الانتصار .

٥ — المعتزلة

(ا) انتعاش مذهب المعتزلة :

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب [١] أن تعاليم المعتزلة ازدهرت فى العصر العباسى الأول ، وخاصة فى عهد المأمون الذى وافقهم على القول بخلق القرآن واستخدم نفوذه فى سبيل إقرار هذه العقيدة فى أذهان الناس . وسار المعتصم على سياسة أخيه المأمون فى حمل الناس على القول بخلق القرآن ، واقتدى الواثق بأبيه المعتصم وعمه المأمون فى انتصاره للمعتزلة وتشدده فى فرض آرائه الدينية على الناس ، حتى جعل إطلاق أسرى المسلمين فى بلاد الدولة البيزنطية مقصوراً على الذين يقولون بخلق القرآن واعتبار من سواهم خارجين على الإسلام .

وقد أوضح أبو الحسن الأشعرى [٢] المتوفى سنة ٣٢٤ هـ آراء المعتزلة فتكلم على آرائهم فى التوحيد ، وفى المكان والرؤية ، وفى قدرة الله سبحانه وعلمه ، وفى اختلاف المعتزلة فى كون الله لم يزل سميعاً بصيراً ، وفى سائر صفات الله ، وفى القدر وغير ذلك من المسائل . ولخص الأشعرى آراء المعتزلة فى التوحيد وغيره فى هذه العبارة [٣] :

« أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير ؛ وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ، ولا بذى لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة ، ولا بذى حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق ؛ ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض

---

(١) الطبعة الثالثة سنة (١٩٥٣) ص ١٤١ — ١٤٣ .

(٢) مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٣) مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ص ١٥٥ — ١٥٦ .

وليس بذى أبعاض وأجـزاء وجوارح وأعضاء ؛ وليس بذى جهـات ، ولا بذى يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ، ولا يحيط به مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا تجوز عليه الملامسة ولا العزلة ولا الحلول فى الأماكن ، ولا يوصف بشىء من صفات الخلق الدالة على حدثهم ، ولا يوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات وليس بمحدود ، ولا والد ولامولود ، ولا تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجرى عليه الآفات ، ولا تحل به العاهات ، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له ، لم يزل أولا سابقاً متقدما للمحدثات ، موجودا قبل المخلوقات ؛ ولم يزل عالما قادراً حيا ، ولا يزال كذلك ، لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام ولا يسمع بالأسماع ؛ شىء لاكالأشياء ، عالم قادر حى لا كالعلماء القادرين الأحياء ؛ وإنه القديم وحده ولا قديم غيره ولا إله سواه ، ولا شريك له فى ملكه ، ولا وزير له فى سلطانه ، ولا معين له على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق ، لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شىء بأهون عليه من خلق شىء آخر ولا بأصعب عليه منه ، لا يجوز عليه اجترار المنافع ، ولا تلحقه المضار ، ولا يناله السرور واللذات ، ولا يصل إليه الأذى والآلام ، ليس بذى غاية فيتناهى ، ولا يجوز عليه الفناء ولا يلحقه العجز والنقص ، تقدس عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصحابة والأبناء . فهذه جملة قولهم فى التوحيد ، وقد شاركهم فى هذه الجملة الخوارج وطوائف من الشيع ، وإن كانوا للجملة التى يظهرونها ناقضين ولها تاركين » .

تطور مذهب المعتزلة فى العصر العباسى الثانى ، وقد أجاد دوزى [1] فى تلخيص تطور هذا المذهب ونموه فقال إنه اتخذ شكلا جديدا ، وانتشر تحت تأثير فلسفة أرسطو ، كما انقسم ، بطبيعة الحال ، إلى أقسام تتفق جميعها فى نقط معينة ، فقد أجمع المعتزلة على اختلاف فرقهم على نفى الصفات الإلهية ، وعارضوا كل فكرة تتنافى مع وحدة الله ، ولكى ينزهوا الله عن الظلم ، اعترفوا للانسان بالحرية التامة فى خلق أفعاله ، وكان من تعاليمهم أن إدراك وسائل الخلاص وطرق النجاة إنما ترجع إلى سلطان العقل ، وأنه يمكن تمحيص هذه المسائل فى ضوء العقل ، سواء أكان ذلك قبل الوحى أو بعده ؛ بمعنى أن الرجل يجب

---

(١) Dozy: Essai sur l'Histoire de l' Islamisme, (trans, by Victor Chauvin), 1879, pp. 105 — 7.

عليه فى جميع الأزمان والأمكنة أن يرجع إلى العقل فى الفصل فى تلك المسائل ، وزادت الفرق الأخرى على هذه الآراء المتفق عليها آراء أخرى خاصة بها .

و د عالج معظم المعتزلة علم التوحيد بتوسع كثير ، بينما انساق آخرون وراء مناظراتهم وشغفهم بالجدل ، مما أبعدهم عن روح الإسلام وطوح بهم عن تعاليمه . وكان بعضهم يعتقد بالتناسخ ومما يدل على صحة هذا القول ما ذكره البغدادى [١] عن خروج الحائطية أتباع أحمد بن حائط القدرى ، والحمارية من معتزلى عسكر مكرم ، على جميع فرق المعتزلة وأهل السنة ، فإن أحمد ابن حائط القدرى — وكان من أصحاب النظام فى الاعتزال — كان يقول بالتناسخ ، وزعم هو وفضل الجدنى « أن للخلق ربين وخالقين ، أحدهما قديم وهو الله سبحانه ، والآخر مخلوق وهو عيسى بن مريم ، وزعما أن المسيح ابن الله على معنى النبى دون الولاة ، وزعما أيضاً أن المسيح هو الذى يحاسب الخلق فى الآخرة ، وهو الذى عناه الله بقوله (وجاء ربك والملك صفا صفا) [سورة الفجر ٨٩ : ٢٢] ، (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور) ، [سورة البقرة ٢ : ٢١٠] ، وهو الذى خلق آدم على صورة نفسه ، وذلك تأويل ما روى أن الله تعالى خلق إلها على صورته ، وزعم أنه هو الذى عناه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » ، وهو الذى عناه بقوله إن الله تعالى خلق العقل فقال له أقبل فأقبل ، وقال له أدبر فأدبر ، فقال : ما خلقت أكرم منك وبك أعطى وبك آخذ ، وقال إن المسيح تذرع جسداً وكان قبل التذرع عقلا ... وأضاف ابن حائط وفضل الجدنى فعل الخيرات كلها إلى عيسى بن مريم ، وأضافا إليه محاسبة الخلق فى الآخرة ، والعجب فى قولهما إن عيسى خلق جده آدم عليهما السلام » . كما كان يتخيل آخرون أن لكل جماعة من جماعات الحيوانات نبيا ، وهو حيوان من أنفسهم ، ومن الغريب أن نقول إنهم اعتمدوا فى عقائدهم هذه على آيتين من القرآن (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ، والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات . من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم)[٢] .

ولكن ليس من العدل أن نرمى المعتزلة جميعهم بضلالات هؤلاء . وبالنظر إلى عقيدة

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

(٢) سورة الأنعام (٦ : ٣٨ ، ٣٩) . الشهرستانى انظر الملل والنحل : ج ١ ص ٨٠ — ٨١ .

المعتزلة فى أوامر الدين ونواهيه ، فإنهم يعتبرون من طائفة العقليين (Rationalists) فى الإسلام الذين يقولون بسلطان العقل وفهمه لطبائع الأشياء ، من ذلك أنهم قالوا بخلق القرآن ، فى الوقت الذى ذهب فيه الرسول إلى القول بعكس ذلك ، ويستدلون على صحة ذلك بقولهم « إن القرآن لو لم يكن مخلوقا لأدى ذلك إلى القول بوجود أزليين أبديين ، أما إذا اعتبر القرآن أو كلام الله مخلوقا ، كان محالا أن نعتبره صفة من الصفات الإلهية ، لما لتلك الصفات من الثبات وعدم التغير لأنه يترتب عليه قيام الحادث بالقديم ، وهو محال لما فيه من قلب حقائق الأشياء ؛ إذ لو صح قيام الحادث بالقديم لأدى ذلك إلى إحدى نتيجتين لامناص منهما : إما قلب الحادث قديما لقيامه بالقديم ، وإما قلب القديم حادثاً لقيام الحادث به » . ومع ذلك فقد تزعزعت عقيدة الوحى على يد المعتزلة تزعزعا شديداً ، حتى أعلن كثير منهم صراحة ، أنه ليس مستحيلا أن يأتى إنسان بقرآن كهذا أو أحسن منه ، مخالفين فى ذلك قوله تعالى فى سورة الإسراء (١٧ : ٨٨) (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) . ومعنى فكرة الوحى أن القرآن كلام الله ، وأنه أوحى به إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، وذهبوا إلى أن الاعتقاد بقدم القرآن إلى جانب قدم الله شرك (١) .

وعلى ذلك عارض المعتزلة عقيدة أزلية القرآن ، أى أنه كلام الله ، كما عارضوا فكرة الوحى ، بمعنى أن الله يتصل بالإنسان ويوحى إليه كما جاء فى سورة الشورى (٤٢ : ٥١) (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم) . ، وكانوا لا يصغون إلى أية فكرة يشم منها رائحة التجسد لله سبحانه وتعالى ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « ترون ربكم (يوم القيامة) كما ترون القمر ليلة البدر » ، ويسمى المعتزلة هؤلاء المشبهة أو المجسمة . وكانت هذه الكلمات التى فهمها أهل السنة على ظاهرها حجر عثرة يرتطمون به أنى ساروا ، ومع هذا فسر أهل السنة هذا الحديث بقولهم إن الإنسان بعد موته يرى الله بعين البصيرة ، وكذلك رفض المعتزلة دعوى أن الله خلق الكافر (٢) ، كما لم يرضوا القول بأن الله يضر لمنافاة ذلك للعدل الإلهى بمعنى أن الله إذا كان يسوق الكفار إلى الكفر ويريد منهم ذلك ، كان من الظلم

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام : ترجمة أبى ريدة ص ٥٦ .

(٢) يقصدون طبعا ان كل إنسان خلق قابلا للايمان ، وأن الكفار صاروا كذلك بتمردهم وليس بارادة الله ، بمعنى أن الله لم يرد كفر الكفار ، وإنما أصبحوا كفاراً بمحض إرادتهم دون إرادة الله سبحانه وتعالى .

مؤاخذتهم عليه ؛ إذ كانت إرادة الله تعالى لا تتخلف ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، فهم يقررون اختيار الإنسان فى أفعاله ، بعكس ما ذهب إليه الجبرية الذين يقولون إن الإنسان مجبر على أفعاله . ولم يعترفوا بالمعجزات التى وردت فى القرآن ، كما أنكروا انشقاق البحر لموسى ليشق طريقا لبنى إسرائيل وقد خرج بهم من مصر (إلى بلاد العرب) مخالفين فى ذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء (٦٣:٢٦) (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) كما أنكروا أن عصا موسى قد تحولت أفعى (وألقاها فإذا هى حية تسعى) (سورة طه ٢٠:٢٠) وأن عيسى قد أحيى الموتى ، ولم ينج محمد نفسه من إنكارهم لمعجزاته .

(ب) تأثر المعتزلة بالفلسفة الإغريقية :

تأثرت المعتزلة منذ عهد طويل تأثراً شديداً بالفلسفة الإغريقية ، وقد نقل براون [١] عن شتينر [٢] أن المعتزلة أول من قرأ تراجم الطبعيين من الإغريق وفلاسفتهم التى ترجمت تحت رعاية أبى جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) ، والمأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) ، واقتبسوا منها جميع المعارف النافعة ، ولكنهم أجهدوا أنفسهم فى أن يضيفوا إلى المعانى الإسلامية التى جاء بها القرآن ، وكانت محصورة فى دائرة ضيقة ، جميع ما احتوته الثقافة اليونانية من فكر ومعان علمية وفلسفية ، وأن يلائموا بينهما ويخرجوا منها مزيجاً جديداً يتفق مع تعاليم الإسلام وأصوله .

ومن الفلاسفة الإسلاميين أبو نصر الفارابى (٣٣٩/١٠٣٧) فيلسوف المسلمين غير مدافع الذى يقول فيه ابن خلكان (جـ ٢ ص ٧٦) : « هو أكبر فلاسفة المسلمين ؛ ولم يكن فيهم من بلغ رتبته فى فنونه ، والرئيس أبو على بن سينا [٣] (٤٢٨/١٠٣٧) المقدم ذكره بكتبه تخرج ، وبكلامه انتفع فى تصانيفه ، وابن رشد (٥٩٥/١١٩٨) . وقد سبقهم الكندى (٢٦٠/٨٧٣) الذى وجه همته — على ما يظهر — إلى دراسة الآراء التى أثارها المعتزلة بوجه خاص ، فى الوقت الذى تجنب فيه أتباعه التعرض لبحث المسائل الدينية ، وتجنبوا إثارة النقاش فيها بقدر الإمكان ، وكان يعتبر كلا من التوحيد والعلوم الطبعية

---

(١) Brewne : Lit. Hist, of Persia, Vol. I. p. 288.

(٢) Steiner : Die Mu'taziliten oder die Freidenker im Islam, p. 5.

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٥٢ — ١٥٤ .

وما تحتويه من الفلسفة مناطق ذات حدود واضحة ، ومن ثم لم تقم مشكلة من المشاكل فى سبيل التوفيق بينها بمعنى أن التوحيد والعلوم الطبعية ، بما فى ذلك الفلسفة ، كان كل منها على حدة مستقلا عن الآخر . ويقول شتينر أيضاً إن فلاسفة العرب من تلاميذ مدرسة أرسطو كانوا فى الوقائع علماء طبعيين أكثر منهم فلاسفة ، وإن أعمالهم الرئيسة كانت تنحصر فى ملاحظة الظواهر الطبيعية عدا دراسة علم الطب والفلك (١) .

وقد نشأ الخلاف بين الاعتزال والفلسفة من ناحية ، وبين الدين من ناحية أخرى ، وأفنى المعتزلة قواهم فى تلك المناقشات المستمرة التى أثارتها مدرستا البصرة وبغداد وكان أبوالحسين البصرى أحد معاصرى ابن سينا آخر من عالج تعاليمهم بشىء من الحرية واستقلال الرأى ، كما أكمل ما كان فيها من نقص فى نواح كثيرة ، واستمر هذا الصراع بين هؤلاء وأولئك على أشده ، واستمر المعتزلة على قوتهم حتى ثار عليهم أبوالحسن الأشعرى وصرعهم حجة الإسلام الغزالى .

٦ ــ انتعاش السنة

أخذ مذهب المعتزلة فى الضعف منذ بداية العصر العباسى الثانى ، حيث بدأ المتوكل ، أول خلفاء هذا العصر ، عهده بنهى الناس عن القول بخلق القرآن ، مخالفا فى ذلك المأمون والمعتصم والواثق ثم ظهر جماعة من علماء الكلام عارضوا المعتزلة ، ومن هذه المذاهب : مذهب الكرمية الذى بقى إلى ما بعد القرن الثالث الهجرى .

أما انتصار مذهب أهل السنة فقد توج بظهور أبى الحسن الأشعرى ذلك أنه لم يكد يمضى اثنا عشر عاما على موت المتوكل ، حتى ولد (سنة ٨٧٣/٢٦٠) ذلك الرجل الذى تربى بين أحضان مذهب المعتزلة ، ثم رفض تعاليمهم فى الأربعين من عمره ، بعد أن تسلح بالأسلحة المنطقية التى أمدوه بها وحاربهم بها بقية حياته ، وحمل على آرائهم حملة كتب لها التوفيق والنجاح — ذلك الرجل هو أبوالحسن الأشعرى ، من أعقاب أبى موسى الأشعرى الذى كان أحد الحكمين بين على ومعاوية بدومة الجندل .

وقد ألف الأشعرى بعد أن انفصل عن أستاذه الجبائى من المعتزلة مؤلفات كثيرة فى علم التوحيد يربو عددها على المائتين أو الثلثمائة ، وله من الكتب : كتاب اللمع ، وكتاب

(١) أنظر : Browne : Lit. Hist of Persia, vol. I, p. 289, note 1.

الموجز ، وكتاب إيضاح البرهان ، وكتاب التبيين عن أصول الدين ، وكتاب الشرح والتفصيل فى الرد على أهل الإفك والتضليل ، وهو صاحب الكتب فى الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعين (١) .

وقد عارض الأشعرى المعتزلة ووافق أهل السنة فى كثير مما ذهبوا إليه ، ويقول الشهرستانى (٢) : « ومذهبه فى الوعد والوعيد والأسماء والأحكام والسمع والعقل مخالف للمعتزلة من كل وجه . قال : الإيمان هو التصديق بالقلب ، وأما القول باللسان والعمل على الأركان ففروعه . فمن صدق بالقلب ، أى أقر بوحدانية الله تعالى ، واعترف بالرسل تصديقاً لهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى بالقلب صح إيمانه ، حتى لو مات فى الحال كان مؤمناً ناجيا ، ولا يخرج من الإيمان إلا بإنكار شىء من ذلك ، وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة ، يكون حكمه إلى الله تعالى ، إما أن يغفر له برحمته ، وإما أن يشفع فيه النبى صلى الله عليه وسلم إذ قال : شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ، وإما أن يعذبه بمقدار جرمه ، ثم يدخله الجنة برحمته ، ولا يجوز أن يخلد فى النار مع الكفار ، لما ورد به السمع من إخراج من كان فى قلبه ذرة من الإيمان . قال : ولو تاب ، لا أقول بأنه يجب على الله قبول توبته بحكم العقل ، إذ هو الموجب فلا يجب عليه شىء بل ورد السمع بقبول توبة التائبين وإجابة دعوة المضطرين ، وهو المالك فى خلقه ، يفعل ما يشاء ويحكم مايريد فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفاً ، ولو أدخلهم النار لم يكن جوراً ، إذ الظلم هو التصرف فيما لا يملكه المتصرف ، أو وضع الشىء فى غير موضعه ، وهو المالك المطلق ، فلا يتصور منه ظلم ولا ينسب إليه جوز » .

وكان لجهود أبى الحسن الأشعرى أثر كبير فى إحياء السنة ، حتى إنه كاد يقضى على مذهب الاعتزال قضاء مبرما ، بدليل ما ذكره أبوبكر الصيرفى : « كانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله الأشعرى فجحرهم فى أقماع السمسم » (٣) .

وقد تم انتصار السنة على الاعتزال بظهور حجة الإسلام الغزالى الذى وجه نشاطه إلى الإشادة بمذاهب السنة والحط من شأن الاعتزال والفلسفة وغيرها .

---

(١) Dozy : Histoire de l'Islamisme, pp. 252—6. ابن خلكان جـ ١ ص ٢٧٠ .

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٣) ابن خلكان : جـ ١ ص ٣٢٧ .

٧ ــ التصوف

(أ) المتصوفون المعتزلون :

ومن المسائل التى شغلت أفكار المسلمين فى ذلك العصر « التصوف » ذلك أن كثيراً من المسلمين الذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا فى علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب الله سبحانه وتعالى ، فرأوا أن يتقربوا إليه عن طريق الزهد والتقشف وفناء الذات فى حبه تعالى ؛ ومن ثم سموا «المتصوفين» . ويقول براون [١] إنه ليس ثمة علاقة بين اسم الصوفية وبين الكلمة اليونانية «سوفس» Sofis (وتكتب بالسين لا بالصاد ويقابلها بالعربية فيلسوف) ، أو « سفسطى »Sophist أو بكلمة «صفاء» كما يدعى الصوفيون أنفسهم . أو «بأهل الصفة» وهم جماعة من الفقهاء ظهروا فى صدر الاسلام وكانوا يجلسون على صفة فى المسجد ويجمعون معاشهم من أهل الورع عن طريق الفتاوى [٢] ، ولكنه مشتق من الكلمة العربية « صوف » ، كما يتضح من قرائن أخرى كاسمهم بالفارسية « پشنيناپوشى » pashnima - push ومعناها الملابس الصوفية ، مما يتميز به المسلمون الأولون الذين عرفوا بالبساطة والتقشف ، ويقول المسعودى إن عمر بن الخطاب « كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل العباءة ، على حين كان سلمان الفارسى يلبس الصوف [٣] ويقال هذا أيضاً عن أبى عبيدة بن الجراح الذى « كان يظهر للناس وعليه الصوف الجافى » [٤] .

ولما تقدم الزمن بالمسلمين وسادت المادية والبذخ ، حافظ بعض المسلمين على سنة خلفاء الرسول فى الملبس ، واحتجوا بذلك احتجاجا صامتاً على المادية والتبذير الذين انغمس فيهما معاصروهم ، فأطلق عليهم «الصوفيون» ، ولحق بهم مايلحق عادة بالمحافظين ، وقد تكلم القشيرى [٥] المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١٠٧٣ م) على المتصوفين الأول فقال : « فلما ظهرت

---

(١) Lit Hist. of Persia, vol, I. p. 297.

(٢) وقد جاء فى تاج العروس والنهاية لابن كثير أن أهل الصفة كانوا أضياف الاسلام من فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه .

(٣) مروج الذهب جـ ١ ص ٤١٧ .

(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤١٨ .

(٥) Browne ; Lit. Hist, of Persia. vol. I. pp. 297 _ 8 ، نقلا عن جامع نفحات الأنس (طبعة نساو ليز Nassau Lees ، كلكتا سنة ١٨٥٨ م)

البدع وتشاحنت الفرق ، وصار أصحاب كل بدعة وأنصار كل فرقة يدعون أن فيهم زهاداً. انفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم الصوفية ، وأطلق هذا الاسم عليهم قبل نهاية القرن الثانى الهجرى بقليل » .

وقد أوضح عبدالرحمن جامى الشاعر الفارسى المشهور ، (نفحات الأنس ص ٣٤) أن أول من تسمى بالصوفى هو أبو هاشم الذى ولد فى الكوفة ومضى سواد حياته فى الشام وتوفى سنة ١٦٠ هـ (٧٧٧ — ٧٧٨ م) ، وأن أول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو ذو النون المصرى (٢٤٦/٨٦٠) تلميذ الإمام مالك، وأن الذى شرحها وبوبها ونشرها هو الجنيد البغدادى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (٩١٠ م) ، ودعا إليها من فوق المنابر الشبلى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) . (ص ٣٦) ولعل أحسن مثل للتصوف الخالص هى رابعة بنت إسماعيل العدوية التى اشتهرت بالصلاح والتقوى ، وكان النساء يجلسن إليها ويسمعن وعظها ، وقد أشار جامى إلى ذلك (ص ٧١) فى هذين البيتين :

ولو كان النساء كمن ذكرنا ... لفضلت النساء على الرجال
فلا التأنيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخر للهلال [1]

وكانت رابعة تقول فى مناجاتها : إلهى تحرق قلبا يحبك ؟ ومن وصاياها : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم . ومن قولها فى حب الله سبحانه وتعالى :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وكانت رابعة تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر . ولما ماتت كفنت فى جبتها ، وهى خمار من صوف كانت تلبسه، وكانت وفاتها سنة ١٣٥ هـ (وقيل سنة ١٣٨ هـ) [2] . وقبرها يزار بظاهر القدس من شرقيه .

وقد تطور مذهب التصوف عند المسلمين ، وخاصة عند الفرس ، فى عصر متأخر ،

---

(١) هذان البيتان لأبى الطيب المتنبى فى قصيدته فى رثاء أم سيف الدولة ومطلعها :

نعد المشرفية والعوالى ... وتقتلنا المنون بلا قتال

والرواية الصحيحة فى البيت الأول هى : ولو كان النساء كمن فقدنا وليس كمن ذكرنا .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٨٢ — ١٨٣ .

وأصبحت فلسفة التصوف — إن صح هذا التعبير — قائمة على الأفلاطونية الحديثة (١)، وعلى عناصر فارسية وأخرى هندية .

وللمتصوفة نفس هذا المذهب فى حب الله ، فهم يحبونه حبا روحانيا خاليا من الرغبات والنزعات ، أى أنهم يحبونه حبا أفلاطونيا. ولاشك أنهم اكتسبوا هذا الحب وصيغ التعبير عنه مما وصلهم من هذه الفلسفة . ويظهر هذا الشبه من قراءة أشعار المتصوفين ؛ فاقرأ مثلا قول عمر بن الفارض :

سقتنى حميا الحب راحة مقلتى ... وكأسى محبى من عن الحسن جلت
وبالى أبلى من ثياب تجلدى ... به الذات فى الاعدام نيطت بلذة
فلو كشف العوار بى وتحققوا ... من اللوح مامنى الصبابة أبقت
لما شاهدت منى بصائرهم سوى ... تخلل روح بين أثواب ميت
ومنك شقائى بل بلائى منة ... وفيك لباس البؤس أسبغ نعمة(٢)

وهكذا فانك لاتجد إلا روحانية تنبعث فى هدوء واستكانة كما ينبعث النفس من بين شفتى الريض . فانظر فى هذه الأبيات فهل تجد إلا إنكار الذات وفناء الجسم وتيقظا فى الروح ؟ ففى البيت الأول أحب بعينيه ، وفى الثانى وجد لذة فى انعدام ذاته أمام ما يفكر فيه من جمال المحبوب « قدرة الله » ، وفى الثالث والرابع فى جسمه وبقيت روحه المعذبة المدنفة التى تجد « فى البيت الخامس » لذة فى الألم واستمراء فى البؤس .

كما اتخذ بعض التصوف وسيلة لتحقيق مآربهم الشخصية. وفى ذلك يقول محمود الوراق :

تصوف كى يقال له أمين ... وما يعنى التصوف والأمانة
ولم يرد الإله به ولكن ... أراد به الطريق إلى الخيانة

---

(١) الأفلاطونية الحديثة هى الفلسفة التى ضمت فلسفة أفلاطون اليونانى بعد إعطائها صبغة شرقية أسسها أمونيس سكاس أحد فلاسفة الإسكندرية فى القرن الثالث ونقحها أفلوطين وغيره من الفلاسفة . أما وجه الشبه بين مذهب المتصوفة وفلسفة أفلوطين — فيما يظهر — فهو أن أفلوطين له مذهب فى الحب سموه الحب الأفلاطونى ، وهو حب روحانى لا تتطرق إليه الأغراض المادية ولا النزعات الحسية .

(٢) وهى قصيدة طويلة تسمى تائية السلوك الكبرى تقع فى أكثر من سبعمائة بيت . راجع ديوان ابن الفارض (بيروت سنة ١٣٢٨) .

وقال ابن السماك للصوفية : « والله لئن كان لباسكم وفقا لسرائركم . لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها ، ولئن كان مخالفا لها لقد هلكتم » [١] .

ويقول فون كريمر [٢] : « يظهر من غير شك أن التصوف جمع بين عنصرين مختلفين: تقشف مسيحى قديم دخل بقوة حتى فى فجر الإسلام ، ثم دخل بعد ذلك بكثير عنصر بوذى هو عنصر التأمل والتفكير العميق ؛ وذلك نتيجة لتأثير الفرس فى الإسلام . وكانت لهذا العنصر الغلبة فى تكوين التصوف الإسلامى الخالص : فالأول يعبر بجلاء عن تأثير ذلك العنصر فى العقل العربى أكثر من غيره ، والثانى يعبر عن تأثيره فى الطبيعة الفارسية » .

ويظهر أن التأثير الهندى فى التصوف الإسلامى لم يكن كبيرا بالدرجة التى تصورها فون كريمر ، فإن تأثير الأفلاطونية الحديثة والعناصر الإسلامية كان فى الواقع أعظم منها بكثير . وقد أجاد دى بور [٣] فى كلامه عن التصوف فقال : « وإذا تكلمنا على التصوف ، فنحن نعالج نظاما عمليا أساسه دينى أو روحى . ولكن للأنظمة العملية صدى فى الفكر دائما ، وهى تتخذ من ذلك صبغة نظرية . ولم يكن بد من أفعال لها أسرارها ، ومن مرشدين يقربون مابين الإنسان وربه . ويحاول هؤلاء المرشدون أن يطلعوا على أسرار تلك الأفعال ثم يظهروا خواص مريديهم عليها ، وأن يتخذوا لأنفسهم فى سلسلة مراتب الوجود مكانا يصلون فيه بين الله والناس . ولابد أن تكون نظريات المذهب الأفلاطونى الجديد خاصة قد أثرت تأثيرها فى ذلك ... ويظهر أنه كان لمذهب اليوجا الهندى تأثير عظيم فى بلاد الفرس على الأقل . ولكن التصوف ظل فى الجملة فى داخل نطاق مذهب أهل السنة ، وقد كان هؤلاء من الحكمة بحيث تغاضوا عن شطحات الشعراء وأصحاب المواجد ، والمتكلمون وأهل التصوف متفقون تمام الاتفاق فى القول بأنه لا فاعل فى كل شىء إلا الله » .

---

(١) العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٥١ .

(٢) نقلا عن Herrsch. Id. p. 67 , Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 300

(٣) تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ٧٣ .

(ب) المتصوفون الغلاة

١ — الحسين بن منصور الحلاج :

غير أن هناك جماعة من المتصوفين غلوا فى تصوفهم وقالوا إنه لا موجود فى كل شىء إلا الله . ومن هذا نشأ مذهب وحدة الوجود الذى خالف مذهب جمهور المسلمين ، وكان من شأنه أن جعل العالم خيالا لاحقيقة ، كما وحد بين ذات الإنسان وذات الله . وبعد أن كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الإلهية، قال الصوفية بوحدة شاملة لكل شىء. وبعد أن كان الأولون يقولون بفعل الله فى كل شىء ، قال الآخرون بوجوده فى كل شىء (١) . وقد نظر السنيون إلى هؤلاء المتصوفين الغلاة نظرتهم إلى المشبهة الذين يشبهون الله بالإنسان ، والمجسمة الذين يجسمون الله فيجعلون له جرما وحدا ، والحلوليين الذين يقولون بحلول الله فى الأجسام .

ومن غلاة المتصوفين الحسين بن منصور الحلاج الذى ادعى الألوهية فى عهد المقتدر العباسى (٢٩٥ — ٣٢٠هـ) ؛ ويكنى أبا مغيث . وهو مجوسى الأصل من أهل بلدة البيضاء بفارس . ونشأ بواسط ثم قدم بغداد واتخذها دارا له، واختلط بالصوفية وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره من المتصوفين (٢) . وقد « سمى الحلاج لأنه اطلع على سر القلوب ، وكان يخرج لب الكلام كما يخرج الحلاج لب القطن بالحلج . وقيل كان يقعد بواسط بدكان حلاج ، فمضى الحلاج فى حاجة ورجع ، فوجد القطن محلوجا مع كثرته فسماه الحلاج » (٣) .

اشتغل الحلاج فى مبدأ أمره بالتصوف . وله فى هذا شطحات كثيرة ، بمعنى أن كلامه « يحتمل معنيين : أحدهما حسن محمود ، والآخر قبيح مذموم » (٤) . واختلف الناس فيه ، فمنهم من يبالغ فى تعظيمه ومنهم من يكفروه (٥) . وكان ظاهره أنه ناسك صوفى، فإذا

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ٧٣ ، ٨٤ .
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٨ — ١٤٩ .
(٣) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٩٩ — ١٠٠ .
(٤) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٤٧ .
(٥) ابن خلكان ج ١ ص ١٢٦ .

علم أن أهل بلدة يرون الاعتزال صار معتزليا، أو يرون الإمامة صار إماميا وأراهم أن عنده علما بإمامهم ، أو رأى أهل السنة صار سنيا[١] .

وكان الحلاج مخلطا يلبس الصوف والمسوح تارة ، والثياب المصبغة تارة ، والعمامة الكبيرة والدراعة ، وتارة يلبس القباء وزى الجند . وقد طاف البلاد ، وقصد الهند وخراسان وبلاد ماوراء النهر وتركستان وغيرها . وقال بعض أصحابه : « صحبته سنة إلى مكة ، وأقام بمكة بعد رجوع الحجاج إلى العراق وقال : إن شئت أن تعود فعد ، فإنى قد عولت أن أمضى من هنا إلى بلاد الهند . وكان الحلاج كثير الأسفار . ثم إنه نزل فى البحر يريد الهند ، فصحبته إلى بلاد الهند ، فلما وصلنا إليها استدل على امرأة ومضى إليها وتحدث معها ، ووعدته إلى غد ذلك اليوم. ثم خرجت معه إلى جانب البحر ومعها غزل ملفوف وفيه عقد شبه السلم ، فقالت المرأة كلمات ، وصعدت فى ذلك الخيط، وكانت تضع رجلها فى الخيط وتصعد حتى غابت عن أعيننا . ورجع الحلاج وقال لى : لأجل هذه المرأة كان قصدى إلى الهند[٢] » .

وكان لهذه الشعبذة والنارنجيات التى تعلمها الحلاج فى الهند خاصة أثر كبير فى عقول العامة الذين التفوا حوله ومالوا إلى مذهبه المغرق فى الغلو ، حتى إن بعضهم رماه بأنه أحد دعاة مذهب القرامطة الذى ساد فى أيامه على يد أبى طاهر الجنابى (٣٣٢ هـ) . وقد قيل إن الحلاج كان يدعو فى أول أمره إلى الرضا من آل محمد[٣] . واستطاع بمهارته أن يجذب إليه العامة ، فكان يحفر فى بعض الطرقات موضعا يضع فيه زقا فيه ماء ، ثم يحفر موضعا آخر يضع فيه طعاما ، ثم يسير مع أصحابه إلى الموضع الأول فاذا احتاجوا إلى ماء يشربونه ويتوضئون منه ، نبش هذا الموضع بعكاز فيخرج الماء ، فيشربون ويتوضئون، ثم يسير إلى الموضع الآخر فيخرج منه الطعام ، ويوهم أصحابه أن ذلك من كرامات الأولياء . ولم تقتصر أساليبه فى اجتذاب الناس إليه على ذلك، بل كان يحفظ الفواكه ويخرجها فى غير أوانها[٤]

وادعى البعض أن الحلاج أحيا طائرا لابن الخليفة المقتدر ، فقد ذكر عريب بن سعد

---

(١) عريب بن سعد ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٠١، ١٠٢، ١٠٥.
(٣) الفخرى ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .
(٤) عريب بن سعد ص ٩٩ .

(ص ٩٣) أن المقتدر أرسل إلى الحلاج خادما ومعه طائر ميت وقال : إن هذه الببغا لولدى أبى العباس ، وكان يحبها ، وقد ماتت . فإن كان ماتدعى صحيحا ، فأحيى هذه الببغا ؛ فقام الحلاج إلى جانب البيت الذى هو فيه وبال ، وقال : من تكن هذه حالته لايحيى ميتا. فعد إلى الخليفة وأخبره بما رأيت وبما سمعت منى . ثم قال : بلى ! لى من إذا أشرت إليه أدنى إشارة أعاد الطائر إلى حالته الأولى . فعاد الخادم إلى المقتدر وأخبره بما رأى وسمع ، فقال : عد إليه وقل له المقصود إعادة الطائر إلى الحياة ، فأشر إلى من شئت . قال : فعلى بالطائر ، فأحضره إليه وهو ميت ، فوضعه على ركبتيه وغطاه بكمه ، ثم تكلم بكلمات ثم رفع كمه وقد عاد الطائر حيا ، فأعاده الخادم إلى المقتدر وأخبره بما رأى .

وقد ألف الحلاج كتبا ذكر فيها مبادىء تخالف المبادى الإسلامية ؛ فأباح الحج إلى غير مكة لكل من بنى فى بيته بناء مربعا وطاف حوله فى أيام الحج وأدى فيه مناسك الحج ، وأطعم ثلاثين يتيما بيده ، وكسا كل واحد منهم قميصا ، ومنحه سبعة دراهم. فإن ذلك كله يقوم مقام الحج (عريب ص٩٣) كما أباح الحلاج الإفطار فى شهر رمضان لمن صام ثلاثة أيام بلياليها ولم يفطر ، وأفطر فى اليوم الرابع على ورقات من الهندب [١] ، فإن ذلك يغنيه عن صوم رمضان . وأباح ترك الصلاة لمن صلى ركعتين من أول الليل إلى آخره. فإن ذلك، فى نظره، يغنيه عن الصلاة طول حياته. وأعفى من الزكاة من تصدق بجميع ما يمتلكه فى يوم واحد، كما أعفى من العبادة من زار قبور الشهداء بمقابر قريش ، وأقام بها عشرة أيام يقضيها فى الصلاة والصوم مع إفطاره على قليل من خبز الشعير والملح [٢] .

وكان الحلاج مع ذلك خفيف الحركات شعوذيا ، قد حاول الطب وجرب الكيمياء ، فلم يزل يستعمل المخاريق (الحيل والتمويهات) حتى استهوى بها من لاتحصيل عنده . ثم ادعى الربوبية وقال بالحلول ، وعظم افتراؤه على الله عز وجل ورسله. ووجدت له، كما يقول عريب (ص٨٩، ٩٢) كتب فيها حماقات، وكلام مقلوب وكفر عظيم، وقال فى بعض كتبه: إنى المغرق لقوم نوح والمهلك لعاد وثمود . وكان يقول لأصحابه: أنت نوح وأنت موسى، وأنت محمد قد أعدت أرواحهم إلى أجسادكم . ويزعم بعض الجهلة المتبعين له بأنه كان يغيب عنهم ثم ينزل عليهم من الهواء .

---

(١) بكسر الهاء وفتح الدال وقد تكسر جمع هندبة أو هندابة وهى بقلة نافعة للمعدة والكبد والطحال أكلا ولاسعة العقرب ضمادا .

(٢) عريب بن سعد ص ١٠٥ — ١٠٦ .

وقد راجت دعوة الحلاج بين كثير من الناس ، وخاصة أهالى بغداد والطالقان (بخراسان) الذين افتتنوا به ، حتى خشى أهل السنة أن يتفاقم خطره ، ورموه بالكفر والقول بالحيلولة، وأثر عنه أنه قال : من هذب نفسه فى الطاعة وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين، ثم لايزال يصفو ويرتقى فى درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية. فاذا لم يبق فيه من البشرية حظ ، حل فيه روح الإله الذى حل فى عيسى بن مريم ، ولم يرد حينئذ شيئا إلا كان كما أراد ، وكان جميع فعله فعل الله تعالى . وزعموا أنه ادعى لنفسه هذه الرتبة ، وقيل إنهم ظفروا بكتب له إلى أتباعه عنوانها « من الهوهو رب الأرباب المتصور فى كل صورة إلى عبده فلان» ، فظفروا بكتب أتباعه إليه وفيها : « يا ذات الذات ومنتهى غاية الغايات [١] ، نشهد بأنك المتصور فى كل زمان بصورة ، وفى زماننا هذا بصورة الحسين بن منصور ، ونحن نستجير بك . ونرجو رحمتك ياعلام الغيوب»[٢].

ولم تقف دعوة الحلاج عند حد التأثير فى العامة ، بل لقد تأثر بها كثير من رجال البلاط والكتاب وبعض كبار الهاشميين، ورمى نصر حاجب المقتدر وأنصاره باعتقاد مبادىء الحلاج ، حتى إنهم اعتقدوا أنه يحيى الموتى ، وأن الجن يخدمونه ويحضرون إليه مايريد ، وأن فى استطاعته أن يأتى بالمعجزات التى أتى بها الرسل والأنبياء ، كما اعتقدوا ألوهيته ونبوة أحد أتباعه [٣] .

انتشر دعاة الحلاج فى كثير من الأمصار الإسلامية لنشر مذهبه، واتبع فى ذلك طريقة دعاة كبار الإسماعيلية ، فقد روى مسكويه (ج ١ ص ٧٩) أنه « كان فى الكتب الموجودة له عجائب من مكاتبات أصحابه النافذين إلى النواحى، وبوصيته إياهم بما يدعون إليه الناس، وبما يأمرهم به من نقلهم من حال إلى حال أخرى ومرتبة إلى مرتبة ، حتى يبلغوا الغاية القصوى ، وأن يخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم، وعلى قدر استجابتهم وانقيادهم وجوابات لقوم كاتبوه بألفاظ مرموزة لايعرفها إلا من كتبها ومن كتبت إليه » . وقد ادعى الحلاج الألوهية ، وكان يقول بحلول اللاهوت فى الإنسان، ويكتب إلى أصحابه «من النور الشعشعانى [٤]» . وروى عنه أنه قال : مافى الجبة غير الله[٥]، يعنى جبته ، كما روى عنه أنه قال : أنا الحق ، وكان يتغنى بقوله :

---

(١) فى الأصل والشهوات والصواب والغايات .
(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٤٨ .
(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٧٦ .
(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣ .
(٥) Mossignon : La Passion DAL Hosayn-Ibn- mansour, tome 1. pp. 61-2

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا

كما نسب إليه قوله :

سبحان من أظهر ناسوته ... سرّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهرا ... فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب (١)

وكذلك اعتقد أنصار الحلاج أنه يعرف السر وسر السر ، وأنه أضحى من أهل الكشف كما يتبين ذلك من قوله :

مواجيد أهل الوجد تصدق عن وجدى ... وأسرار أهل السر مكشوفة عندى

وقوله :

الله يعلم مافى النفس جارحة ... إلا وذكرك فيها نيل مافيها
ولا تنفست إلا كنت فى نفسى ... تجرى بك الروح منى فى مجاريها (٢)

ظهر خطر الحلاج منذ مستهل القرن الرابع الهجرى، فقد قبض عليه ببغداد فى ٣٠١هـ وشهر به بدعوى ادعائه الربوبية وقوله بالحلول . وعلى الرغم من أن على بن عيسى وزير المقتدر وقف على جهله بالقرآن وعلوم الدين ، دافع عنه نصر الحاجب الذى أدخل فى روعه أن الرافضة هم الذين رموا الحلاج بالكفر والمروق عن الإسلام ، وكان على بن عيسى يعتقد أن فى الحلاج قدرة خارقة وأنه قادر على أذاه فتهيب من قتله .

وكان حامد بن العباس وزير المقتدر يكره الحلاج ويعمل على التخلص منه ، فاتخذ من امرأة ابن الحلاج عينا عليه واستشهد بها عليه ، كما أحضر كتبه وقرأها ووقف على مافيها من شعوذة وكفر ، ثم عقد مجلسا ضم كبار القضاة الذين ناظروه فيما كتبه وبينوا له بطلان ماذهب إليه وخروجه على الدين الإسلامى،ورموه بالكفر وأفتوا جميعا بكفره وأحلوا دمه؛ فأمر الخليفة بضربه ألف سوط وإحراق جثته وإلقاء رمادها فى دجلة . وقد ادعى أصحابه

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ١٤٧ .
(٢) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٩٨ ، ١٠٤ .

أنهم ماقتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وأن المضروب كان عدوا للحلاج ألقى شبهه عليه. كما قال بعض آخر إنه رآه وخاطبه وحدثه؛ وادعى قوم من أصحابه أنهم رأوه يركب حمارا وأنه قال لهم : إنما حولت دابة ، ولست المقتول كما ظن هؤلاء البقر. ولما زادت دجلة اعتقد أصحابه أن ذلك بسبب ما ألقى فيها من رماد جثته . وقال أبو عمرو بن حيويه : لما أخرج الحلاج ليقتل مضيت فى جملة الناس ، ولم أزل أزاحم حتى رأيته ، فقال لأصحابه :لايهولنكم هذا فإنى عائد إليكم بعد ثلاثين يوما [١] .

ولكن خطر الحلاج لم يزل بموته ، فقد افتتن به كثير من الدهماء لما رأوه من سحره وشعوذته وحاله وإشاراته ، حتى إنهم ألهوه ودانوا بربوبيته . وقد دافع عنه حجة الإسلام الغزالى وحمل أقواله على محمل حسن . ومهما يكن من شىء فقد أقلقت مبادىء الحلاج الخلافة العباسية، ولذلك أحضر الوراقون وحرم عليهم أن لايبيعوا من كتبه شيئا ولايشتروه. وقد قبض عليه ثم قتل فى شهر ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ .

٢ — الشلمغانى :

ويظهر أن فكرة تأليه الحلاج لم تقتصر على غلاة المتصوفين ؛ فقد رأينا السبئية يؤلهون على بن أبى طالب ، والروندية يؤلهون أبا جعفر المنصور ، والخطابية يؤلهون جعفرا الصادق ، والمتصوفين الغلاة يؤلهون الحلاج، ويؤله العذاقرة أباجعفر محمد بن على الشلمغانى وينسب إلى إحدى قرى واسط . وقد أدعى حلول روح الإله فيه وسمى نفسه روح القدس ووضع لأتباعه كتابا ينطوى على الخروج على الشريعة الإسلامية [٢] .

وقال ابن الأثير (جـ ٨ ص ١٠١) : وكان من مذهبه أنه إله الآلهة يحق الحق ، وأنه الأول القديم ، الظاهر الباطن ، الرازق التام ، الموما إليه بكل معنى . وكان يقول إن الله سبحانه وتعالى يحل فى كل شىء على قدر مايحتمل ، وأنه خلق الضد ليدل على المضدود . فمن ذلك أنه حل فى آدم لما خلقه ، وفى إبليسه أيضا ، وكلاهما ضد لصاحبه لمضادته إياه فى

---

(١) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٩٤ ، ٩٧ . راجع محاكمة الحلاج فى:
Massignon : La Passion D'Al - Hallaj, tome I. pp. 197-220

(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٤٩ .

معناه ، وأن الدليل على الحق أفضل من الحق ، وأن الضد أقرب الشيء من شبهه ، وأن الله عز وجل إذا حل فى جسد ناسوتى ظهر من القدرة والمعجزة مايدل على أنه هو » . وهذا يشبه إلى حد كبير آراء الإمامية وخاصة الإسماعيلية منهم ، فى الحلول ومبدأ الضد فى نظرية الإمامة .

وقد تأثر بآراء الشلمغانى بعض كبار رجال الدولة العباسية فى هذا العصر . ومن هؤلاء المحسن بن أبى الحسن بن الفرات فى عهد وزارة أبيه الثالثة ، كما وجد صدرا رحيبا من ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان الذى أحسن وفادته وتستر عليه ، وبقى عنده بالموصل إلى أن جاء بغداد حيث تبعه كبار رجالها وممن تبعه أيضا الحسين بن القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب الذى وزر للمقتدر بالله ، وأبو على بن بسطام ، وابراهيم بن أبى عون ، وابن شبيب الزيات ، ولكنهم لم يلبثوا أن اختفوا حين كشف أمرهم فى عهد وزارة ابن مقلة فى خلافة المقتدر .

ولما ازداد خطر الشلمغانى فى عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) قبض عليه وعلى كثير من أنصاره ، ووجدت عنده وثائق تثبت ادعاء الألوهية وإغراق أنصاره فى ألوهيته . وفيها خط الحسين بن القاسم ، فعرضت الخطوط فعرفها الناس ، وعرضت على الشلمغانى فأقر أنها خطوطهم ... وأخذ ابن أبى عون وابن عبدوس معه وأحضرا معه عند الخليفة وأمرا بصفعه فامتنعا . فلما أكرها مد ابن عبدوس يده وصفعه ، وأما ابن أبى عون فإنه مد يده إلى لحيته ورأسه ، فارتعدت يده ، فقبل لحية الشلمغانى ورأسه ثم قال : إلهى وسيدى ورازقى ، فقال له الراضى : قد زعمت إنك لاتدعى الإلهية فما هذا ؟ فقال : وما على من قول ابن أبى عون ؟ والله يعلم أننى لاقلت له إننى إله قط . فقال ابن عبدوس : إنه لم يدع الإلهية ، وإنه أدعى أنه الباب إلى الإمام المنتظر ... وكنت أظن أنه يقول ذلك تقية . ثم أحضروا عدة مرات ومعهم الفقهاء والقضاة والكتاب والقواد . وفى آخر الأيام أفتى الفقهاء بإباحة دمه ، فصلب ابن الشلمغانى وابن أبى عون فى ذى القعدة (سنة ٣٢٢ هـ) وأحرقا بالنار » (١) .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٠٠ — ١٠١ .

الباب السادس

العلاقات الخارجية

١ — مع البيزنطيين :

(أ) علاقة العباسيين بالبيزنطيين :

اتخذ البيزنطيون من سوء الحال التى سادت الدولة العباسية فى العصر العباسى الثانى لاستبداد الأتراك والبويهيين من بعدهم بالسلطة دون الخلفاء ، فرصة سانحة للاغارة على بلاد الدولة العباسية . ففى سنة ٢٣٨ هـ أغار البيزنطيون على سواحل مصر ، واستولوا على دمياط وتنيس وعاثوا فيهما ؛ ولم يتمكن عنبسة بن إسحاق (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ) الذى ولى هذه البلاد من قبل الخليفة المتوكل العباسى من أن يضرب على أيديهم ، أو أن يمنعهم من نهب البلاد وسبى النساء والأطفال وأهل الذمة . وقد نظم يحيى بن فضل قصيدة بعث بها إلى الخليفة المتوكل ، وعاب فيها على عنبسة تهاونه وقعوده عن مطاردة الروم فقال :

أترضى بأن توطأ حريمك عنوة وأن يستباح المسلمون ويحربوا[1]

كذلك أغار الروم فى عهد المتوكل على مدينة عين زربا[2] على مقربة من المصيصة (سنة ٢٤١ هـ) ، وأسروا من كان فيها من الزط الذين كان المعتصم قد نقلهم إليها بعد ثورتهم فى البطائح بين واسط والبصرة . وفى هذه السنة تبودلت الأسرى بين المسلمين والروم فى عهد ميشيل الثالث (٢٢٨ - ٢٥٣ / ٨٢٤ - ٨٦٧) ، الذى آلت الوصاية عليه إلى أمه تيودورا ، وبلغ عدد أسرى المسلمين عشرين ألفا كانوا يلاقون كل ألوان التعذيب ، حتى إن كثيرا منهم اضطروا إلى الدخول فى المسيحية. وقد قيل إن تيودورا عرضت على هؤلاء

---

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٠١ .

(٢) بفتح الزاى وسكون الراء وباء موحدة وألف مقصورة . وقد أمر هارون الرشيد ببنائها سنة ١٨٠ هـ وأقطعها فريقا من أهل خراسان وغيرهم ، ثم نقل إليها المعتصم جماعة من الزط ، ويسميها الفرنجة Anazarbus .

الأسرى الارتداد عن الإسلام ، فتنصر بعضهم . وكانوا أكثر من سبعة آلاف ، وأبى الآخرون ، فقتلت منهم اثنى عشر ألفا ، ولم يبق من المسلمين سوى تسعمائة بين رجل وامرأة (١) .

كذلك أغار البيزنطيون على الأراضى الواقعة شمالى العراق حتى بلغوا آمد وأسروا نحو عشرة آلاف من المسلمين . ولكن المتوكل عول على أخذ الثأر من البيزنطيين ، فاستولى على بعض بلادهم جنوبى آسيا الصغرى (٢٤٤ هـ)(٢) ، كما أسر المسلمون فى سنة ٢٤٥ هـ بقيادة على بن يحيى الأرمنى أحد بطارقة الروم أى قوادهم ، واستولوا على مدينة لؤلؤة . « وكان البطريق الذى كان صاحب الروم وجهه إليهم يقال له لغثيط ... وقيل إن على بن يحيى الأرمنى حمله إلى المتوكل ، فدفعه المتوكل إلى الفتح بن خاقان ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فقالوا نقتلك ، فقال : أنتم أعلم . وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من المسلمين » (٣) .

وقد اتخذت الحروب مع البيزنطيين وسيلة لإبعاد بعض القواد المناوئين . فقد قامت العداوة والبغضاء بين أحمد بن الخصيب وزير المنتصر (٢٤٧ — ٢٤٨هـ) ، وبين وصيف التركى ؛ فعمل هذا الوزير على التخلص من ذلك القائد ، وأغرى الخليفة بإبعاده عن حاضرة الدولة لغزو بلاد الروم (٤) .

دخل وصيف بلاد الروم وأوغل فيها ، ومات المنتصر فى ذلك الحين وآلت الخلافة إلى المستعين . وفى عهده غزا جعفر بن دينار الصائفة ، واستولى على بعض الحصون البيزنطية ، وقتل اثنان من أشد قواد المسلمين بأسا وأعظمهم خطرا وهما : عمر بن عبيد الله الأقطع ، وعلى بن يحيى الأرمنى اللذان يقول فيهما الطبرى (جـ ١١ ص ٨٥) : « كانا نابين من أنياب المسلمين ، شديدا بأسهما عظيما غناؤهما عنهم ، فى الثغور التى هما بها » . ويقول المسعودى (٥) إنهما كانا من أهل البأس والنجدة والمكايد فى النصرانية ، حتى إن الروم

---

(١) الطبرى جـ ١١ ص ٥١ — ٢٥ .
(٢) المصدر نفسه جـ ١١ ص ٥٥ — ٥٦ .
(٣) المصدر نفسه جـ ١١ ص ٦٠ .
(٤) المصدر نفسه جـ ١١ ص ٧٤ — ٧٥ .
(٥) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٥ .

طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٣٤ (٥٣٢/١١٢)

صوروا فى كنائسهم عشرة من كبار قواد المسلمين ، من بينهم عمر بن عبيدالله، وعلى بن يحيى الأرمنى .

وكان لقتل هذين القائدين أثر بعيد فى إذكاء روح الجهاد بين أهالى بغداد وسامرا وإلى هذا يشير ميور[1] : « وكانت كفة الحرب فى الخمسين سنة الماضية فى غير مصلحة الدولة البيزنطية بوجه عام ، بيد أنه فى السنة التالية (٢٤٩ هـ) منيت غارة المسلمين على المسيحيين بإخفاق ذريع ، فقد تمزقت أوصال كتيبتين من كتائب المسلمين فى أرمينية وآسيا الصغرى ، وأثارت أنباء هذه الهزائم حماسة أهل بغداد ، وتعالت تلك الصيحات القديمة فى الطرقات معلنة الجهاد والنفير . . وكان لهذه الصيحات أثرها فى إثارة حماسة العامة، ففتحوا السجون وأحرقوا الجسور ، ولكن بغداد ، وإن لم تستطع بعد أن تملى شروطها على حكامها ، استطاعت أن تثير الشغب والاضطراب ، بيد أن روح الحرب الدينية كانت من القوة بحيث استطاعت أن تجتذب جموعا كثيفة من الأمصار القريبة ، جاءوا زرافات ووحدانا بحرابهم باذلين نفوسهم فى سبيل جهاد المسيحيين » .

ولما ولى المعتمد (٢٥٦ ٢٧٩ هـ) الخلافة تقلصت الدولة العباسية إلى حدود الجزيرة والعراق ، وتجدد النزاع بين المسلمين والروم ، الذين جرءوا على العبث ببعض بلاد الدولة العباسية ، ولا غرو فقد قويت شوكة الدولة البيزنطية وانتشر الأمن فيها منذ اعتلاء باسيل الأول (٢٥٣ — ٨٦٧/٢٧٣ — ٨٨٦) العرش ، فتمكن من إحراز النصر على بعض أمراء المسلمين وساعده على ذلك ضعف بعض الخلفاء واستبداد القواد بهم وثورة الجند عليهم .

وكان أحمد بن طولون الذى ولى الثغور الشامية من قبل الخليفة المعتمد ، مصدر خوف البيزنطيين ، حتى إنهم هادوه فى سنة ٢٦٥ هـ ، وفى ذلك يقول الطبرى (جـ ١١ ص ٢٥٣) « بعث ملك الروم بعبد الله بن رشيد بن كاوس ، الذى كان عامل الثغور فأسر ، إلى أحمد ابن طولون مع عدة من أسراء المسلمين وعدة مصاحف هدية منه إليه » ، على أن البيزنطيين لم يلبثوا أن أغاروا فى السنة التالية على ديار ربيعة ، فتصدى لهم أهل الموصل ونصيبين ؛ وردوهم على أعقابهم بعد أن عاثوا فى هذه البلاد[2] ، فرد نائب أحمد بن طولون على الثغور

---

(١) The Caliphate, pp. 522 – 3

(٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ١١٨ .

الشآمية على البيزنطيين بإغارته على الأراضى القريبة من هرقلة وإيقاعه بأهلها [١] .

وقد أتاح اشتغال العباسيين بقتال صاحب الزنج الفرصة للبيزنطيين للايغال فى بلاد الدولة العباسية ، فحاصروا قلمية (بفتح القاف واللامية وسكون الميم) القريبة من طرسوس فى جيش كثيف قيل إنه بلغ مائة ألف ؛ ولكن المسلمين أوقعوا بهم وغنموا منهم غنائم لا تحصى [٢] .

وكذلك أتاح اشتغال العباسيين بمحاربة قرامطة زكروية فى شمال العراق وبادية الشام وبعض المدن الشآمية ، الفرصة للبيزنطيين ، فأغاروا فى سنة ٢٩٢ هـ على الثغور الشآمية فى مائة ألف جندى ، وعاثوا فى كثير من المدن مثل الحدث (بفتح الحاء والثاء) ، فخرج إليهم المسلمون من طرسوس ، وفتحوا أنطاكية الحصينة التى يقول ابن الأثير (جـ ٧ ص ١٩٠) إنها تشبه القسطنطينية ، وقتلوا خمسة آلاف من أهلها وأسروا مثلهم وأنقذوا أسرى المسلمين فيها ، كما استولوا على ستين مركباً ، وغنموا ما فيها من الأموال والمتاع والرقيق ، وكانت غنائم المسلمين من الكثرة بحيث بلغ نصيب كل منهم ألف دينار . كما بلغ المسلمون قونية فى سنة ٢٩٤ هـ وخربوها ، واضطر إمبراطور الروم إلى طلب الصلح وتبادل الأسرى بين الفريقين [٣] .

وقد اتخذ البيزنطيون من ثورة الحسين بن حمدان على بنى بويه فرصة للاغارة على الثغور الجزرية ، فقصدوا حصن منصور سنة ٣٠٣ هـ وسبوا من كان فيه ، كما أوقعوا بجند المسلمين فى طرسوس وعاثوا فساداً بمرعش [٤] ، وسار القائد مؤنس فى السنة التالية إلى ملطية وفتح كثيراً من حصون الروم ، وكان من أثر هذا الانتصار المؤزر الذى أحرزه مؤنس على الروم أن خلع عليه الخليفة المقتدر لقب المظفر ، وقد اضطر الروم إلى طلب المهادنة من المسلمين (سنة ٣٠٥ هـ) ويقول ابن الأثير (جـ ٨ ص ٣٧) إن إمبراطور الروم أرسل إلى المقتدر رسولين يطلبان المهادنة والفداء .

على أن البيزنطيين وقفوا على مبلغ الضعف الذى حل بالدولة العباسية فى عهد المقتدر . الذى عجز عن إمداد الثغور بالرجال والعتاد ، حتى إن الإمبراطور قسطنطين السابع

---

(١) الطبرى جـ ١١ ص ٢٥٨ .
(٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٤٧ .
(٣) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٩٧ .
(٤) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٣٣ .

(٢٩٩ — ٣٤٨/٩١١ — ٩٥٩) أرسل إلى أهل الثغور يرسم لهم أداء الخراج إليه ويقول : « إن فعلتم ذلك طائعين وإلا قصدتكم ، فقد صح عندى ضعفكم »[١] . وكان من أثر ذلك أن دخل الروم ملطية بعد أن فر أهلها إلى بغداد واستغاثوا بالخليفة (٣١٣ هـ).

ولم تكن حالة الدولة العباسية فى عهد إمرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤) أقل سوءاً واضطرابا بسبب تنافس الأمراء على السلطة والنفوذ ، وقد أدرك البيزنطيون هذا الضعف ، فطمعوا فى الإغارة على بلاد الدولة العباسية المجاورة لهم ، ففى سنة ٣٣٠ هـ أوغل البيزنطيون فى هذه البلاد حتى وصلوا إلى حلب وعاثوا فيها ، وقابل المسلمون فى طرسوس هذا العمل بإغارتهم على البيزنطيين فى آسيا الصغرى وأسر كثير من قوادهم[٢] . ووصلت جيوش الروم فى السنة التالية إلى أرزن وميافارقين ونصيبين فنهبوها وسبوا أهلها وبلغوا دارا بين نصيبين وماردين[٣] ، « وطلبوا منديلا فى كنيسة الرها يزعمون أن المسيح مسح به وجهه فارتسمت صورته فيه ، على أن يطلقوا جميع من سبوا ، فأرسل إليهم وأطلق الأسرى[٤] كما استولى البيزنطيون فى السنة التالية على مدينة رأس عين ، وأخذوا جميع ما كان فيها ونهبوها ، ثم أحرقوها عند رحيلهم (الصولى ص ٢٥١) .

وكان لأمراء العباسيين فى مصر نصيب كبير فى العلاقات التى قامت بين العباسيين والبيزنطيين ، فقد كان أحمد بن طولون وابنه خمارويه من بعده شجى فى حلق هؤلاء البيزنطيين ، ولم يكن محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ - ٣٣٤ هـ) أقل خطراً على البيزنطيين من الطولونيين ، نعم ! كان الإخشيد مصدر فزع للامبراطورية البيزنطية ، حتى إن الإمبراطور رومانوس تودد إليه ومدحه وكاتبه دون الخليفة على غير ما جرت به العادة فى ذلك الوقت ، وأرسل إليه كتابا مع رسولين من قبله يطلب تبادل الأسرى ، فرد عليه الإخشيد بكتاب طويل يدل على ثقته بنفسه وإقراره بالتبعية للخليفة العباسى ، ثم بسط اتساع رقعة البلاد التى تدين له بالطاعة[٥] .

وكذلك كانت بلاد الحمدانيين مسرحا للنزاع بين البيزنطيين والمسلمين ، فقد امتاز عهد

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ١٤٦ .
(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٣٩ .
(٣) الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .
(٤) السيوطى : أخبار الخلفاء ص ٢٦٢ .
(٥) راجع القلقشندى : جـ ٧ ص ١٠ — ١٨ .

سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيين ، حتى إنه غزا بلادهم أربعين غزوة ، انتصر فى بعض وهزم فى بعض آخر . ففى سنة ٣٣٩ هـ غزا سيف الدولة بلاد الروم وبلغ قيسارية ، ثم يمم شطر سمندو (بفتح السين والميم وسكون النون) فى أواسط آسيا الصغرى، فهرب الدمستق فقال المتنبي :

رضينا والدمستق (١) غير راض ... بما حكم القواضب والوشيج (٢)
فإن يقدم فقد زرنا سمندو ... وإن يحجم فموعدنا الخليج (٣)

قصد سيف الدولة بعد ذلك مدينة صارخة على مسيرة سبعة أيام من القسطنطينية ،وأوقع بجيش الدمستق ، وأقام المنابر وخطب له فيها ،وكانت غزوة صارخة من أشهر الغزوات التى انعقد فيها لواء النصر لسيف الدولة على الروم (٤) .

وفى سنة ٣٤٢ هـ عادت الحرب بين سيف الدولة وبين الروم سيرتها الأولى ، وأسر قسطنطين بن الدمستق الذى ساقه سيف الدولة إلى حلب حيث بقى عنده حتى مات ، وقد قابل الروم هذا العمل بغزو البلاد الإسلامية حتى بلغوا طرسوس فى سنة ٣٤٨ هـ ،وخربوا حصن الهارونية الذى بناه هارون الرشيد على مقربة من مرعش ، ثم توجهوا إلى ديار بكر ووصلوا إلى ميافارقين ، وعاثوا فى بلاد الحمدانيين والعباسيين، وأوقعوا الفزع فى قلوب الأهلين ، حتى إن الخطيب عبدالرحيم بن نباته أنشأ هذا النوع من الخطب التى أطلق عليها الخطب الجهادية لإثارة حماس المسلمين وحثهم على الجهاد (٥) .

ولم تكن الدولة العباسية فى عهد بنى بويه أحسن حالا منها فى عهد نفوذ الأتراك وعهد إمرة الأمراء فقد استبدوا بالسلطة دون الخلفاء ، وقامت المنافسة بين أفراد البيت البويهى، مما أطمع البيزنطيين فى الدولة العباسية ، فاستولى القائد نقفور فوكاس على جزيرة كريت سنة ٣٥٠ (٦) ثم انتصر على سيف الدولة الحمدانى ، ثم على كثير من مدائن الأناضول مثل

---

(١) الدمستق اسم لملك الروم .
(٢) الوشيج شجر الرماح أى بما حكمت به الرماح .
(٣) يقصد خليج القسطنطينية .
(٤) أبو المحاسن :النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٠٣.
(٥) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٣١٩ ، ٣٢٢ .
(٦) مسكويه :تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٩٢ ، ٢٢٠ .

مرعش وديبق ، وبالقرب من منبج أسر أمير هذه المدينة أبو فراس الحمدانى الشاعر المشهور. ثم استولى على مدينة حلب حاضرة الحمدانيين (١) . وقد قيل إن جيش الروم بلغ مائتى ألف مقاتل ، وكان لسقوط حلب فى يد الروم أثر بالغ فى نفوس المسلمين عامة وفى نفوس أهل بغداد خاصة ، حتى إنهم اجتمعوا وبنحوا الخليفة المطيع لله بكائنة جلب ، وطلبوا منه أن يخرج بنفسه إلى الغزو ويأخذ بثأر أهل حلب (٢) .

وبعد موت رومانوس رابع أباطرة الدولة البيزنطية من سلالة باسيل (٣٥٢ هـ/٩٦٣م)، تزوجت أرملته تيوفونيا من نقفور فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م) ، ثم من قاتله جون زيمسكيس ويسميه مؤرخو العرب ابن الشمشقيق (٩٦٩ — ٩٧٦م) بطلى ذلك العصر ، وإليهما آلت الوصاية على أولادها الصغار ، وامتدت غزوات هذين الامبراطورين من تلال كبادوكيا إلى صحراء بغداد (٣) .

وفى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٤ م) تقدم البيزنطيون إلى حدود سورية ، ووقعت فى أيديهم مدينتا المصيصة وطرسوس (٣٥٥ هـ) ،وتبعتهما مدينة كيلكيا التى تقع شمال زاوية خليج إسكندرونة ، وتعرف عند العرب بقاليقلا ، كما انتزع جزء من بلاد سورية ، واعترف قسم كبير من بلاد الدولة العباسية بالتبعية للامبراطورية البيزنطية (٤) .

والواقع أن هذا الانتصار يرجع إلى كثرة الفتن والاضطرابات فى بلاد الشام ، فإن الفاطميين استولوا على دمشق على أثر فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ، وقامت الحرب بينهم وبين القرامطة بمساعدة البويهيين ، ثم تجدد النزاع بين الفاطميين فى عهد العزيز من جهة وبين القرامطة وأفتكين التركى من جهة أخرى ، فاتخذ البيزنطيون من هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن غاراتهم على هذه البلاد .

وكان عبور الفرات فى الجهات الواقعة جنوبى جبال طوروس مستحيلا على الاغريق منذ أيام هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) ولكن زيمسكيس استطاع أن يكتسح كثيراً من المدن العريقة فى الشهرة،مثل الرها وديار بكر وميافارقين ونصيبين الواقعة عندحد الامبراطورية

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٩٥ ، ١٩٨ .
(٢) أبو المحاسن جـ ٧ ص ٣٣٢ ، ٣٣٥ .
(٣) Vasil' Ev. : Cambridge Mediaeval History. vol·IV. p. 145
(٤) Ibid pp 146 — 7

القديم على مقربة من نهر دجلة ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الاستيلاء على بيت المقدس ، لولا أنه وجد أن قواته لا تكفى لتحقيق هذا الغرض ، فسار نحو الشمال . واستولى على المدن الساحلية مثل بيروت وصيدا وجبيل . ولكن الهزيمة حاقت بجنده فى طرابلس ، ثم عادت الجيوش البيزنطية إلى أنطاكية ، وعاد الامبراطور نفسه إلى حاضرة ملكه حيث مات فى ١٠ يناير سنة ٩٧٦ م (٣٦٦ هـ)[١] .

وقد تفاقم رعب الناس بما أذاعه الفالة عن زيمسكيس وما كان يصحب ذكر اسمه من خوف وهلع على أن مخاوف أهل بغداد قد تبددت بانسحاب البيزنطيين الذين لم يقووا على تحمل العطش والجوع فى حربهم فى الصحراء ، وتبع ذلك قيام ورد بن منير السقلاروس Bardas Sclerus فى الجهات الشرقية للامبراطورية البيزنطية ابتغاء الجلوس على العرش ومسيره بعد إخفاقه إلى بغداد طالبا النجدة من الخليفة العباسى الذى رحب به ، وما تبع ذلك من توافد رسل الامبراطور باسيل الثانى يطلبون تسليم برداس[٢] .

كان لإغارة الفاطميين على حلب فى سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ - ٩٩٥ م) أثره فى علاقة البيزنطيين بالمسلمين ، فقد طلب الحمدانيون النجدة من الامبراطور باسيل الثانى ، الذى رحب بهذا الطلب على الرغم من اشتغاله بحرب البلغار الذين عرضوا إمبراطوريته للخطر ، وقرر الذهاب بنفسه إلى المشرق ، ولاسيما أن أنطاكية قد تعرضت لحصار الفاطميين ، ولهذا استطاع هذا الامبراطور أن يخلص مدينة حلب حاضرة الحمدانيين ، كما استولى على حمص ، ولكنه اضطر بسبب عدم إحرازه النصر أمام أسوار طرابلس ، إلى العودة إلى بلاده لمحاربة البلغار ، ولم تلبث الهزيمة أن حلت بجيوش البيزنطيين على مقربة من فامية[٣] .

ومن ثم نجد باسيل الثانى يظهر فى سورية من جديد (٣٩٠/٩٩٩) فى شيزر وحمص ، ولكن الهزيمة حلت به فى طرابلس ثانية واضطر إلى العودة إلى القسطنطينية فى سنة ٣٩٢ هـ[٤] .

---

(١) Ibid pp. 148 مسكويه جـ ٢ ص ٣٠٣ — ٣٠٤ . ابن الأثير جـ ٨ ص ٣٢٢ .

(٢) مسكويه جـ ٣ ص ١٣ — ١٤ .

(٣) مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص ويقال لها أفامية .

(٤) Vasil' Ev. : Cambridge Mediaeval History. vol. iv. pp. 147 -8.

(ب) علاقة الفاطميين بالبيزنطيين :

أما علاقة الفاطميين بالدولة البيزنطية فإن الخليفة العزيز أرسل فى سنة ٣٧٧ هـ حملة بحرية لغزو بلاد الروم ؛ غير أن هذه الحملة لم تحقق الغرض الذى أرسلت من أجله لاحتراق مراكبها . ثم قدم إلى مصر رسل إمبراطور الروم يحملون الهدايا إلى العزيز وطلبوا منه عقد الصلح ، فأجابهم إلى طلبهم واشترط عليهم عدة شروط أهمها :

١ — إطلاق سراح أسرى المسلمين فى بلادهم .
٢ — الدعاء للخليفة الفاطمى بجامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة .
٣ — حمل ما يطلبه الخليفة من أمتعة الروم .
٤ — عقد الهدنة بين الفريقين سبع سنين (١) .

وكانت بلاد الشام التى كانت تابعة للفاطميين إذ ذاك مركزا للصراع بينهم وبين البيزنطيين على ما تقدم فقد عمل الحاكم على منع البيزنطيين من التقدم جنوبا فى هذه البلاد ، وأعد لذلك حملتين انتصرت إحداهما على البيزنطيين بحرا بالقرب من طبرية ، وانتصرت الأخرى برا بالقرب من قامية .

ولما علم إمبراطور الروم بما حل بجيشه من الهزيمة أرسل رسولا من قبله لمفاوضة الخليفة الفاطمى فى الصلح وتم الاتفاق بينهما على عقد صلح يقضى بوقف الحرب بين الفريقين عشر سنين (٢) .

ولما ولى الخليفة الظاهر الفاطمى الخلافة عمل على استمرار العلاقات الودية مع البيزنطيين ففى سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) عقدت الهدنة مع الامبراطور قسطنطين الثامن ، وتقضى بإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى فى مساجد بلاد الروم، وإعادة بناء جامع القسطنطينية مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس التى كان الحاكم قد هدمها ، وترك الحرية للمسلمين الذين تحولوا إلى الإسلام فى عهد الحاكم بالعودة إلى دينهم القديم (٣) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٥١ — ١٥٢ .
(٢) المصدر نفسه جـ ٤ ص ١٩٣ .
Lane - poole : Hist of Egypt in the middle Ages, p. 136.
(٣) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٥٥ .

وكانت العلاقة بين الدولة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية فى أوائل عهد المستنصر على شىء من الصفاء، ففى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) تم الاتفاق بين الخليفة المستنصر والامبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ — ١٠٤١ م) على أن يطلق الروم « خمسة آلاف أسير لتعمير كنيسة القيامة التى كان قد خربها [١] كما تم الاتفاق بين المستنصر والإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢ — ١٠٥٤ م) فى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) الذى تعهد بأن يمد مصر بالغلال والأقوات لمقاومة المجاعة التى حلت بمصر فى هذه السنة .

غير أن هذا الامبراطور توفى قبل تنفيذ هذا الاتفاق ، وخلفته الامبراطورة تيودورا (١٠٥٤ – ١٠٥٦ م) . فاشترطت لمعونة مصر شروطا أهمها أن يتعهد الخليفة الفاطمى بمساعدتها إذا اعتدى على بلادها ، فلم يوافق المستنصر على ذلك ، واشتبك الفريقان فى معارك برية كان النصر فيها حليف الفاطميين، ولكن أسطول البيزنطيين انتصر على الفاطميين فى مياه الشام وأسر كثيراً من قوادهم، فرأى المستنصر وقف القتال وطلب المهادنة ، وأرسل فى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٧ م) إلى الامبراطورية تيودورا القاضى أباعبدالله القضاعى لتسوية الخلاف ، بيد أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة .

(ج) علاقة الأمويين فى الأندلس بالبيزنطيين :

رأينا من قبل أن العباسيين عملوا فى العصر العباسى الأول على مناوأة أعدائهم البيزنطيين والأمويين فى الأندلس ، فتقربوا إلى أعدائهم الفرنجة، وخطب شرلمان ود هارون الرشيد، فأرسل إليه وفداً لتسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس ونشر التجارة بين البلدين وارتشاف العلوم من مواردها فى الشرق . وقد رحب الرشيد بهذه الوفود وأرسل مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرلمان الذى أصبح حامى المسيحية ، وتبودلت الهدايا بينهما .

بيد أنه فى العصر العباسى الثانى ، نرى البيزنطيين يعملون على محالفة الأمويين فى الأندلس الذين اتسع نفوذهم وازداد خطرهم فى عهد عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ) للوقوف فى وجه العباسيين أعداء البيزنطيين والأمويين جميعا ، ولذلك عمل الامبراطور قسطنطين پورفيروچنيتس Constantine porphryogenitsus (٩١١ – ٩٥٩م) على التحالف مع الناصر ، وأوفد فى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ – ٩٤٨م) إلى البلاط الأموى بالأندلس سفارة تحمل كتابا من الامبراطور داخل صندوق من الفضة مغطى بالذهب [٢] .

(١) أبو الفدا: المختصر ج ٢ ص ٦٣ .
(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٧٣

وقد اهتم عبد الرحمن الناصر باستقبال هذا الوفد استقبالا عظيما. وكان يرمى من وراء ذلك إلى «أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه وتصف ماتهيأ من توطيد الخلافة فى دولته» (١).

ولم تقف علاقة المودة بين الأمويين فى الأندلس والبيزنطيين عند هذا الحد. فقد أمر الإمبراطور قسطنطين السابع بعمل قبلة للمسجد الجامع بقرطبة صنعت من الفسيفساء المذهب والملون. وقد وصفها الإدريسى الذى شاهدها بقوله «قبلة يعجز الواصفين وصفها، وفيها إتقان يبهر العقول تنسيقها». كما أهدى إليه كثيرا من الأعمدة التى استعملت فى بناء مدينة الزهراء، وأرسل إليه الراهب نيقولا Nicholas لترجمة الكتاب الطبى الذى كان قد أهواه إليه من اليونانية إلى اللاتينية على أن يتولى ابن شبروط ترجمته إلى العربية.

٢ — مع الدول الغربية فى أوربا:

استقرت قدم العرب فى إسپانيا وفى صقلية وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط كما تقدم، وحاولوا الاستقرار على سواحل البحر المتوسط فى إيطاليا وفرنسا، واستطاعوا أن يؤسسوا إمارة مستقلة على سواحل إقليم بروڤانس الأسفل وازدادت قوتهم بما كانت تصل إليهم من الإمدادات من بلاد الأندلس وإفريقية وجزيرة صقلية، وتمكنوا بذلك من إقامة المعاقل والحصون فوق المرتفعات المشرفة على خليج غريمو جنوبى إقليم بروڤانس وفى غابة فراكسينت Fraxinet. ومن ثم أطلق على هذه الدولة العربية الفراكسينية. ولم يلبث هؤلاء العرب أن ألفوا سكنى الجبال والغابات والسير فى الأدغال والأحراج. ومما ساعد على ازدياد قوتهم قيام النزاع بين أمراء الإقطاع المجاورين الذين كانوا يطلبون منهم مساعدة بعضهم على بعض.

ولم يكتف هؤلاء العرب بما بلغوه من قوة وما حازوه من ثروة، بل اعتبروا أنفسهم سادة هذه البلاد وأصحاب النفوذ المطلق فيها، واستطاعوا فى خلال القرن العاشر الميلادى أن يهددوا تورينو ويخربوا بعض الأديرة وينتشروا فى نواحى مونت فرات وبيدمونت ويستقروا فى سهول نهر البو. ثم تقدموا فى سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٥ م) إلى حدود ليجوريا Liguria، ودخلوا مدينة جنوة، ووقعت فى أيديهم ممار جبال الألب الشاهقة، وخاصة ممر سان برنار، وفرضوا الضرائب على المسافرين.

---

(١) المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ١٧٣.

ولم يقف نشاط العرب عند هذا الحد، بل اجتازوا جبال الألب الشمالية ودخلوا سويسرا، وامتد نفوذهم من شواطىء بحيرة كنستانس شمالا إلى جنوة ومرسيليا ونيس جنوبا، وعملوا على نشر الاسلام فى هـذه الجهات ، حتى إننا لانزال نرى اسم الحى العربى Canton de Sarazins فى أحد أحياء مدينة نيس.

على أن نفوذ هؤلاء العرب لم يلبث أن أخذ فى الضعف حول منتصف القرن الرابع الهجرى ، بعـد أن دانت هذه البلاد لسلطانهم زهاء سـبعين سنة وكان أهم هذه الحصون الحصن المسمى Fraxinatum بقرية جارد فرينيه Garde-Frainet التى تقع الآن فى سفح الجبل من الناحية الشرقية بمقاطعة بروفانس جنوبى فرنسا (أنظر شـكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٦٢ ، ١٦٤) . ويسمى الاصطخرى هذا الموقع جبل القلال . وقد وصفه فى هذه العبارة فقال : « وأما جبل القلال فإنه كان جبلا خرابا وفيه ماء وأرض ، فوقع إليه قوم من المسلمين فعمروه وثاروا فى وجوه الأفرنجة لايقدر عليهم لامتناع مواضعهم ، ومقداره فى الطول يومان » (١) .

وقد عمل ملك بروفانس على طرد عرب الفراكسينت من بلاده ، فاستعان بأوتو الأكبر (٩٣٦ - ٩٧٣م) ، إمبراطور ألمانيا الذى أصبح فى سنة ٩٦٢م إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، على الحد من نفوذ عرب مملكة الفراكسينت بامبراطور الدولة البيزنطية الذى أمده بأسطول ، وكاد يقضى على نفوذ العرب فى بلاده ، لولا أن ثار عليه أحد خصومه فى إيطاليا ، وخشى أن يصل إليه عدوه عن طريق ممار الألب التى كانت فى حوزة العرب . ولذلك هادن هؤلاء العرب على أن يسدوا هذه الممار فى وجه عدوه .

واعتقد أوتو الأكبر أن عبد الرحمن الناصر الأموى بالأندلس كان يساعد العرب فى نشر فتوحهم ؛ فأرسل إليه سفارة للعمل على وقف إغارات هؤلاء العرب . ويقول بعض المؤرخين إن عبد الرحمن كان قد أرسل إلى أوتو سفراء لإنشاء علاقات سياسية بين الدولتين، وإنه أرسل إليه كثيرا من الهدايا . وكانت هذه السفارة برياسة أحد الأساقفة المستعربين فى الأندلس ، وأن هذا الكتاب دون باللغة العربية ، وكان يحتوى على بعض عبارات فيها نقاش حول التثليث . ولكن المنية وافت هذا الأسقف وهو فى طريقه إلى أوتو . وقد قيل أن أوتو اعتبر العبارات التى تدور حول فكرة التثليث إهانة لدينه ، فأهان هؤلاء المبعوثين وأساء معاملتهم وأبقاهم ببلاده ثلاث سنين .

---

(١) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٦٤ - ١٦٥ ، ١٦٦ - ١٧٠ .

وبعد قليل أرسل أوتو رسلا إلى قرطبة لوقف إغارات الفرا كسينت العرب من ناحية ورد الإهانة التى وجهها المسلمون إليه من ناحية أخرى، وعهد أوتو فى رياسة هؤلاء الرسل إلى جان دى جورتزا Jean de Gorza الذى وصل إلى قرطبة سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) . وعلم الخليفة الناصر بما اشتمل عليه كتاب أوتو وتعريضه بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فأرسل إلى رئيس هؤلاء الرسل مطران قرطبة ينصح له بالعدول عن سب الرسول ، فلم يزدد إلا عناداً ، وأخذ يوبخه على تساهل مسيحيي الأندلس مع المسلمين ، ومسايرتهم لهم فى الختان والامتناع عن أكل لحم الخنزير . وصمم الخليفة الناصر على إبقاء أعضاء السفارة تسع سنوات لا ثلاث سنوات كما فعل أوتو برجال سفارته من قبل ، وأرسل إلى إمبراطور ألمانيا كتابا مع رجل مسيحي يسمى ريسمند ، يطلب فيه تغيير كتابه الأول .

وقد نجح هذا الرسول فى مهمته ، واستبدل أوتو كتابه بكتاب آخر وصل بعد ثمانية عشر شهرا من وصول كتابه الأول ، وكوفىء هذا الرسول بتعيينه أسقفا . وهنا مثل جورتزا بين يدى الخليفة الناصر ، واصطفت الجند على جانبى الطريق التى مر فيها أعضاء هذه السفارة، ووقف الصقالبة شاكى السلاح، وفرشت ممرات قصر قرطبة بالبسط والديباج وجلس الخليفة فى البهو الكبير . فتقدم الأسقف جورتزا وقبل يده وجلس بجانبه ، وأخذ الناصر يثنى على الإمبراطور أوتو وعلى سعة عقله وكفايته ، لكنه تعرض لاحدى نقائص الحكم فى دولته لاعترافه بنفوذ حكامه الاقطاعيين ومشاركتهم إياه فى حكم البلاد مما يثير فى نفوسهم الغرور والميل لشق عصا طاعته [١] .

وعلى الرغم من عدم تصدى المؤرخين لما كان لهذه السفارة من أثر ، لا يمنعنا ذلك من القول بأن بلاط الناصر كان محطا لسفراء الدول، كسفارة أوتو ملك الصقالبة فى سنة ٩٤٥ م (٣٣٤ هـ) [٢] ، وسفراء حكام فرنسا [٣] . كما دخل عبد الرحمن الناصر فى حلف مع ملك إيطاليا الذى آلمه تخريب الفاطميين لمدينة جنوة ، كما حالف البيزنطيين الذين تطلعوا إلى انتزاع جزيرة صقلية من الخليفة القائم الفاطمى [٤] .

---

(١) Dozy : The Moslems in Spain, p. 429

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٤ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣٤ .

(٤) Dozy : The Moslems in Spain. p. 434.

٣ — مع الروس :

وقد تعرضت البلاد الإسلامية فى الشرق لهجوم الروس ، ففى سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ — ٩٤٤م) أغار جماعة من الروس الذين كانوا يقيمون شمالى بلاد الخزر على أذربيجان واستولوا على قصبتها برذعة وقد اشتهر الروس بقوة أبدانهم وشدة بأسهم ومهارتهم فى الحرب . وقد وصفهم مسكويه [١] فى هذه العبارة فقال : « هؤلاء أمة عظيمة لهم خلق عظام ، ولهم بأس شديد ، لايعرفون الهزيمة ، ولا يولى الرجل منهم حتى يقتل أو يقتل . ومن عادة الواحد منهم أن يحمل آلة للسلاح ، ويعلق على نفسه أكثر آلات الصناع من الفأس والمنشار والمطرقة وما أشبهها ، ويقاتل بالحربة والترس ، ويتقلد السيف . ويعلق عليه عمودا وآلة كالدشنى ، ويقاتلون رجالة لاسيما هؤلاء الواردين » .

وقد أوقع هؤلاء الروس الهزيمة بأمير أذربيجان ، وحاولوا أن يستميلوا الناس إليهم . فلما أبوا أن يجيبوهم إلى طلبهم ، عاثوا فى بلادهم وقتلوا أهل برذعة عن آخرهم . ويقول ابن الأثير (جـ ٨ ص ١٤٦) إن الروس نزلوا برذعة ونادوا فيها بالأمان ، فأحسنوا السيرة وأقبلت العساكر الإسلامية من كل ناحية ؛ فكانت الروس تقاتلهم فلا يثبت المسلمون لهم ، وكان عامة البلد يخرجون ويرجمون الروس بالحجارة ويصيحون بهم ، فينهاهم الروس عن ذلك ، فلم ينتهوا سوى العقلاء فإنهم كفوا أنفسهم ، وسائر العامة والرعاع لايضبطون أنفسهم . فلما طال ذلك عليهم نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه ، وأن لايقيموا بعد ثلاثة أيام ، فخرج من كان له ظهر يحمله وبقى أكثرهم بعد الأجل ، فوضع الروسية فيهم السلاح ، فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف نفس ، وجمعوا من بقى بالجامع وقالوا : اشتروا أنفسكم وإلا قتلناكم . وسعى لهم إنسان نصرانى فقرر عن كل رجل عشرين درهما ، فلم يقبل إلا عقلاؤهم . فلما رأى الروسية أنه لايحصل منهم شىء ، قتلوهم عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا الشديد ، وغنموا أموال أهلها ، واستعبدوا السبى واختاروا من النساء من استحسنوها » .

ثم الروس بعد ذلك صوب مراغه ، وعاثوا فى البلاد ، فهال المسلمين ذلك ودعوا للجهاد ، وأعد المرزبان بن محمد بن مسافر أمير أذربيجان جيشا لمحاربة العدو واستطاع أن يوقع بهم [٢] وهكذا كانت علاقات المسربين بالروس عدائية كعلاقاتهم مع البيزنطيين والفرنجة وغيرهم .

---

(١) تجارب الأمم جـ ٢ ص ٦٢ .

(٢) مسكويه جـ ٢ ص ٦٤ — ٦٧ . Muir : The Caliphate, p. 475

الباب السابع

نظم الحكم

١ — النظام السياسى

(أ) الخلافة

١ — الخلافة العباسية :

طبعت الخلافة فى هذا العصر بطابع الوهن والضعف ، لازدياد نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية ، حتى أصبح خلفاء هذا العصر مسلوبى السلطة ضعيفى الإرادة ، بسبب تدخل هؤلاء الأتراك فى شئون الدولة ، وتنصيب من يشاءون وعزل من يشاءون أو قتله أو سمل عينيه ، كما طبعت بطابع تدخل النساء فى شئون الدولة ، وكثرة تولية الوزراء وعزلهم ، وتولية العهد أكثر من واحد ، مما أدى إلى قيام المنافسة بين أمراء البيت الواحد .

وقد أدت تولية المتوكل (٢٣٢ — ٢٣٧ هـ) ، الذى وصفه بعضهم بأنه ظل الله الممدود بينه وبين خلقه ، أولاده الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد العهد ، وتقديم ابنه المعتز على المنتصر ، إلى اغتيال هذا الخليفة بيد ابنه المنتصر وتحريض الأتراك ، ولا غرو فقد حاول بعض هؤلاء الأتراك اغتيال هذا الخليفة فى دمشق من قبل ، ولكنهم لم يفلحوا ، فانتهزوا فرصة حنق المنتصر على أبيه وانضموا إليه وقتلوه ، فخلفه ابنه وقاتله على العرش ، ولم يلبث أن عمل بتدبير الأتراك على إقصاء أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد ، إذ كانوا يخشون أن ينتقم هذان الأميران . وخاصة المعتز ، منهم لقتل أبيهما المتوكل [١] .

وعلى الرغم من قصر عهد المنتصر (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) أدى خوف هؤلاء الأتراك من أبناء المتوكل إلى تحويل الخلافة إلى أحد أبناء المعتصم ، فولوا أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) [٢] . وفى عهده تفاقم نفوذ الأتراك ، وعلى رأسهم

---

(١) الطبرى جـ ١١ ص٧٥ — ٧٦ .
(٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ٤٠ .

بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش وباغر . ولم يلبث بعض هؤلاء الأتراك الذين أجلسوا هذا الخليفة على العرش أن انقلبوا عليه ، بسبب تواتر الإشاعات بأنه عزم على الفتك بهم ، ومن ثم قامت الفتن والحروب الأهلية .

وقد بلغ من تفاقم نفوذ الأتراك وخوف الخلفاء من بطشهم أن كان المعتز لا يلتذ بالنوم ولا يخلع سلاحه لا فى ليل ولا فى نهار خوفا من الأتراك وعلى رأسهم بغا الصغير[١] . وهذا يفسر لنا لماذا عمل المعتز على اصطناع المغاربة والفراغنة للتخلص من الأتراك الذين عملوا بدورهم على التخلص منه ، وطالبوه برواتبهم وثاروا فى وجهه وقبضوا عليه وقتلوه بعد أن مثلوا به .

ثم ولى المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) الخلافة وكان ، كغيره من الخلفاء العباسيين ، ألعوبة فى أيدى هؤلاء الأتراك وخاصة موسى بن بغا وسرعان ما أسر وخلع وعذب حتى مات فى شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ[٢] .

أما الخليفة الجديد وهو المعتمد فقد اعتلى العرش على أيدى الأتراك الذين أخرجوه من « الجوسق » الذى حبسه فيه المهتدى ، وكان — كما يقول السيوطى (ص ٢٤٣) — « أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به » . ولا غرو فقد شل أخوه أبو أحمد الموفق طلحة يده عن مباشرة أمور الدولة حتى أصبح مسلوب الإدارة .

ولم ير المعتمد بداً من مصانعة الأتراك ، وخاصة قائدهم موسى بن بغا ، الذى خلع عليه وضمه إلى ابنه المفوض ، وقسم دولته بين ابنه جعفر ، وسماه المفوض وخصه بالبلاد الغربية وضم إليه موسى بن بغا فحكمها باسمه ، وولى أخاه أبا أحمد طلحة بعد ابنه المفوض ، وسماه الموفق وخصه بالبلاد الشرقية ، وبذلك ضعفت الخلافة فى عهد المعتمد الذى أصبح مسلوب السلطة أمام أخيه الموفق والأتراك .

ولما توفى الموفق فى شهر صفر سنة ٢٧٨ هـ اجتمع القواد من الأتراك وبايعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوض بن المعتمد ، ولكن هذا الخليفة لم يلبث أن بايع لأبى العباس ولقبه « المعتضد » ، فولى الخلافة بعد وفاة عمه فى سنة ٢٧٩ هـ وفى عهده انتعشت

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٢٨ .
(٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ٨٣ — ٨٤ .

الخلافة العباسية ، « وأحيا ما درس من أطلال الخلافة حتى أصبحت قوية مهيبة تخشاها الدول [١] » .

مات المعتضد ، والمعتمد من قبله . ميتة طبيعية بعكس الخلفاء الذين فتك بهم الأتراك ، وقد آلت الخلافة من بعده إلى ابنه أبى محمد الذى تلقب « المكتفى بالله » وعلى الرغم مما اشتهر به المكتفى من التبذير . نشر العدل بين الرعية ، فهدم المطامير التى اتخذها أبوه المعتضد وجعلها مساجد ، وأمر برد البساتين والحوانيت التى سلبها أبوه من الناس .

وقد خلف المكتفى أخوه أبو الفضل جعفر بن المعتضد الذى تلقب المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) ويرجع السبب فى اختياره إلى صغر سنه ، إذ لم يتجاوز الثالثة عشرة ، ليكون أسلس قياداً ، ولكن المقتدر لم يلبث أن خلع وبويع عبدالله بن المعتز ولقب « الغالب بالله » إلا أن أتباع الخليفة المخلوع أعادوه إلى العرش ، واشتهر المقتدر بعزل وزرائه والقبض عليهم ، والرجوع إلى قول النساء والخدم والتصرف على مقتضى آرائهن ، ولا غرو فقد أصبح الأمر والنهى بيد أمه التى يطلق عليها المؤرخون اسم « السيدة » [٢] .

ازداد ضعف الخليفة العباسى منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ، لازدياد شوكة القواد من الأتراك وتفاقم خطر الدول المستقلة ، فقد ازدادت شوكة على بن بويه فى فارس ، وأصبحت الرى وأصبهان وبلاد الجبل فى يد أخيه الحسن بن بويه ، كما استقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر ، أما مصر والشام فقد استقل بهما محمد بن طغج الإخشيد ، واستقل بخراسان نصر بن أحمد السامانى ، ولم تكن الحالة فى المغرب أحسن منها فى المشرق ، فقد أعلن عبدالرحمن الثالث الأموى بالأندلس (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) نفسه خليفة ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وأصبح فى العالم الاسلامى فى ذلك الوقت ثلاث خلافات .

ولم يكن حظ القاهر (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) أقل سوءاً ممن سبقه من الخلفاء العباسيين ، فقد سمل وحبس ، وساءت حاله حتى إنه خرج يوما يطلب الصدقة بجامع المنصور ، فأعطاه بعض الهاشميين خمسمائة درهم ، وأمر المستكفى بحبسه ، فظل فى الحبس حتى مات فى عهد المطيع سنة ٣٣٩ هـ .

---

(١) حسن إبراهيم حسن ، وعلى إبراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٧٠ — ٧١ .
(٢) ابن الأثير : جـ ٨ ص ٢٥ .

وجد الخليفة الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) نفسه إزاء ضعف الوزراء وازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم فى أمور الدولة ، مضطراً إلى استمالة أحد هؤلاء الأمراء وتسليم مقاليد الحكم إليه . ووجد فى ابن رائق ، وكان يلى واسط والبصرة ، الرجل الذى يستطيع أن يعتمد عليه ، فأسند إليه كافة أمور الدولة ، ولقبه « أمير الأمراء » . وبعد أن كان الصراع بين الخلفاء العباسيين وكبار القواد والأمراء ، أصبح بين الخلفاء وأمراء الأمراء من ناحية ، وبين هؤلاء وكبار القواد من ناحية أخرى .

ولم يكد معز الدولة أحمد بن بويه الذى استنجده الخليفة المستكفى يستقر فى بغداد حتى حجر عليه وسمل عينيه ، واستدعى الفضل بن المقتدر وبايعه بالخلافة ولقبه المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) . وكان بنو بويه شيعة غالية ؛ ومن ثم لم يعترفوا بأحقية الخليفة العباسى السنى فى زعامة المسلمين[١] ، فلم يكن للخليفة العباسى فى عهدهم شىء من النفوذ . ولولا خوف بنى بويه من ضياع نفوذهم السياسى لما تورعوا عن تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين . لذلك لم يدخروا وسعا فى تقوية نفوذهم وسلب السلطة من يد الخلفاء العباسيين [٢] .

وصف البيرونى [٣] موقف الخلفاء العباسيين من سلاطين بنى بويه فى هذه العبارة فقال : « وإن الدولة والملك قد انتقل فى آخر أيام المتقى وأول أيام المستكفى من آل العباس إلى آل بويه . والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية إنما هو أمر دينى اعتقادى ، لا ملك دنياوى . فالقائم من ولد العباس الآن (يعنى فى عهد البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ) هو رئيس الإسلام لا ملك » .

ولم يقف نفوذ البويهيين عند هذا الحد ؛ فنرى الخليفة المستكفى يلقب البويهيين بألقاب مختلفة ، ويأمر بذكر أسمائهم فى الخطبة ونقشها على السكة فلقب أحمد معز الدولة ، وعليا عماد الدولة ، والحسن ركن الدولة ، وذكر ستانلى لينپول أنه خلع على معز الدولة لقب « أمير الأمراء » الذى احتفظ به أفراد البيت البويهى فيما بعد ، وقال : « إن من الخطأ أن نقول أنهم تلقبوا بلقب سلطان لأنهم لم يتخذوا لأنفسهم هذا اللقب قط على السكة ، وإنما استعملوا لقب أمير وملك فحسب ، ومع ذلك فإن نفوذهم كان مطلقا كنفوذ أى سلطان فى بغداد » .

---

(١) Arnold : The Caliphate p. 61.

(٢) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٣) الآثار الباقية (طبعة لايبسك سنة ١٩٢٣) ص ١٣٢ .

وذكر المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى فى كتابه « السيرة المؤيدية » ، وكان معاصرا لجلال الدولة وأبى كاليجار والملك الرحيم آخر أمراء بنى بويه فى العراق أن بنى بويه كانوا يلقبون بألقاب متعددة منها لقب « شاهنشاه المعظم ملك الملوك محيى دين الله وغياث عباد الله ، سلطان الدولة ، معز أمير المؤمنين ، ويمين خليفة الله ، كما كانوا يلقبون أحيانا بلقب أمير الأمراء » .

ونرى المطيع يخلع على عضد الدولة البويهى خلع السلطنة ويطوقه ويسوره ويعقد له لواءين : أحدهما مفضض على رسم ولاة العهود ، ويلقبه بلقب « شاهنشاه الأعظم ملك الملوك » ، ويأمر بأن يضرب على بابه بالدبادب فى أوقات الصلوات الخمس » (١) كما نرى الخليفة الطائع (٣٦٣ — ٣٨١هـ) يلقب صمصام الدولة بن عضد الدولة بلقب شمس الدولة ويخلع عليه الخلع السبع والعمامة السوداء ، ويسوره ويطوقه ويتوجه ويعقد له اللواءين ويحمله على فرس ويأمر بقراءة عهده بتقليده أمور الدولة العباسية وينقش اسمه على السكة (٢) ويفعل مثل هذا مع شرف الدولة بن عضد الدولة ، فيلقبه بلقب شاهنشاه (٣) ، ثم يخلع على أبى نصر بن عضد الدولة ويقرأ عليه العهد (٤) . إلا أن الخليفة أرغم فى سنة ٣٨١ هـ على النزول عن الخلافة لأنه حبس رجلا من خواص بهاء الدولة .

وقد أصبح الخلفاء فى عهد بنى بويه — كما يقول توماس أرنولد (٥) — « لا قيمة لهم فى الوقت الذى غدا غيرهم أكثر قوة ونفوذا . وأصبحوا يديرون العالم الاسلامى من غير أن يشيروا أو يحفلوا بمن يدعى أنه أمير المؤمنين ، بل لقد أصبحوا ألعوبة فى أيدى سلاطين بنى بويه ، يجلسونهم على العرش ويعزلونهم متى شاءوا وشاءت أهواؤهم » .

وعلى الرغم من أن الخليفة أصبح مسلوب السلطة ، كان بنو بويه يراعون مظاهر احترامه فى الحفلات ، كما كانوا ينظرون إليه باعتباره الرئيس الأعلى للجماعة الاسلامية . فكان الخليفة يستقبل السفراء ، ويلبس بردة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويضع أمامه مصحف

---

(١) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ — ٢٣٧ هـ . ابن خلكان ج ١ ص ٤١٦ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧١ .
(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٤١ .
(٤) ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٥٣ .
(٥) The Caliphate, p. 68

عثمان توكيدا لسلطته الدينية . وقد امتد نفوذ بنى بويه فى عهد عضد الدولة فى البلاد الممتدة بين بحر قزوين والخليج الفارسى ، ومن أصبهان إلى حدود سورية ، وأصبح اسمه يذكر فى الخطبة وينقش على السكة [١] . كما كان بنو بويه يزوجون بناتهم من بعض الخلفاء حتى تتحول الخلافة بذلك إلى أحفادهم . فقد تزوج الخليفة الطائع من بنت عز الدولة بختيار ، وتزوج هذا الخليفة من ابنة عضد الدولة. وتجددت «وصلة بين الطائع لله وبين عضد الدولة فتزوج الطائع ابنته . وكان غرض عضد الدولة أن تلد ابنته ولدا ذكرا فيجعله ولى عهده ، فتكون الخلافة فى ولد لهم فيه نسب [٢] » .

على أن ضعف الخلافة العباسية فى عهد بنى بويه لم يكن راجعا إلى ضعف الخلفاء أنفسهم وصراعهم مع بنى بويه الذين استبدوا بالسلطة دونهم، بل كان راجعا أيضا إلى تلقيب الخلفاء لهم بهذه الألقاب الضخمة التى رفعت من شأنهم وقللت من هيبة الخلفاء أنفسهم مثل : تاج الملة وضياء الملك وغياث الأمة ، وشاهنشاه وغيرها . وقد أسرف الخلفاء العباسيون فى تلقيب أمرائهم ، فنرى الخليفة العباسى القادر بالله (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) يلقب محمود الغزنوى بن سبكتكين بألقاب سلطان ويمين الدولة وأمين الملة [٣] . ويلقب ابنه مسعود «سيد الملوك والسلاطين [٤] » ، ويلقب جلال الدولة نفسه فى سنة ٤٢٣ هـ بلقب السلطان المعظم مالك الأمم . فلما اعترض عليه رسول الخليفة ، وهو أبو الحسن الماوردى صاحب كتاب الأحكام السلطانية بأن هذه الألقاب لا تكون إلا للخليفة نفسه . عدل عنها ولقب نفسه مالك الدولة . أضف إلى ذلك انقسام أفراد البيت البويهى عن أنفسهم .

ظل الخلفاء العباسيون فى هذا العصر يلقبون بلقب « أمير المؤمنين » الذى تلقب به الخلفاء منذ أيام عمر بن الخطاب ، كما كان الناس يعتبرون الخلفاء العباسيين « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه [٥] » وكما لقب الخليفة المستكفى (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) نفسه بلقب « إمام الحق » ، ونقش ذلك على السكة ، منافسا فى ذلك الخلفاء الفاطميين الذين تلقبو

---

(١) النظم الاسلامية للمؤلف ص ٩٠ .
(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٥٧ .
(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ٨٤ — ٨٥ .
(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٣١ .
(٥) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٩٥ .

بلقب « إمام » [١] . وذكر الصولى [٢] أن الأمير أبا العباس أحمد بن المقتدر طلب إليه قبل أن يتلقب بلقب الراضى بالله ، أن يرسل إليه الألقاب التى يصح أن ينعت بها الخلفاء وتكون أوصافا لهم ، فأرسل إليه رقعة تشتمل على ثلاثين لقبا ليختار منها مايريد ، وأشار عليه بأن يختار لنفسه لقب المرتضى بالله، ولكنه اختار لنفسه لقب الراضى بالله وقال للصولى: « قد كنت عرفتنى أن ابراهيم بن المهدى لما بويع أيام الفتنة بالخلافة أراد أن يكون له ولى عهد ، فأحضروا منصور بن المهدى وسموه المرتضى . وما أحب أن أتسمى باسم قد وقع لغيرى ولم يتم له أمره . وقد اخترت الراضى بالله » .

وكانت ولاية العهد زمن الخلفاء الراشدين تقوم على أساس الشورى ، ولكنها أصبحت وراثية فى عهد الأمويين والعباسيين ، وأصبح انتخاب ولى العهد صوريا ، بمعنى أن الخليفة أصبح يعين ولى عهده ويأخذ البيعة له من وجوه الناس وكبار القواد فى حضرته وعن طريق الولاة فى الأقاليم . ولكن هذه الطريقة كانت محفوفة بالمخاطر ، لإثارة الكراهة والبغضاء بين أبناء الخليفة وقيام المنافسة بين أفراد البيت المالك. وقد رأينا أثر تولية المتوكل العهد لابنائه المنتصر والمعتز والمؤيد ، وكيف أدى ذلك إلى قتل الخليفة نفسه .

وعلى الرغم من ضعف الخلافة فى عصر إمرة الأمراء وبنى بويه، استمر الخلفاء العباسيون يولون العهد أبناءهم . على أن الأتراك والبويهيين من بعدهم كانوا لايحفلون بهذا النظام إذا كان لايتفق مع مصالحهم . وكان هؤلاء الخلفاء يهتمون اهتماما بالغا بتولية أبنائهم العهد فى احتفال رائع [٣].

٢ — الخلافة الفاطمية :

كانت الخلافة الفاطمية التى قامت بالمغرب فى أواخر القرن الثالث الهجرى نتيجة لهذا الصراع العنيف بين السنيين والشيعيين . فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٢) أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢ — ٤ .

(٣) انظر تولية الخليفة القادر ابنه أبا الفضل العهد من بعده فى كتاب تحفة الأمراء للهلال الصابى ص ٤٢٠ .

المسلمين . لأنهم أولاد على، ابن عم النبى وزوج ابنته فاطمة . وظل هؤلاء العلويين يناضلون فى سبيل هـذه الزعامة ، بالسيف تارة وبالمكيدة والدهاء تارة أخرى ، حتى توجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية فى المغرب التى أصبحت تنافس الخلافة العباسية فى المشرق . وقد قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته، ومن ثم نرى الشيعيين يخلعون على خلفائهم من صفات التقديس مالم يتصف به خلفاء بنى العباس . وقد قيل إن الخوارج فى بلاد المغرب لم يرقهم بعض عقائد الشيعة الغالية. فثاروا فى وجه الخلافة الفاطمية فى عهد القائم والمنصور بزعامة أبى يزيد مخلد بن كيداد .

ولكى يحيط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس، عمدوا إلى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذهب الذى يقوم على تقديس الأئمة . وكان من أثر هذه الجهود أن راجت فكرة تقديس الأئمة فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى كمصر واليمن وفارس والهند، بل توغلت هذه التعاليم فى بلاد الأندلس نفسها التى كانت تحت نفوذ الأمويين السنيين(١).

وقد لقيت نظرية الحق الملكى المقدس التى كانت سائدة فى بلاد الفرس فى عهد آل ساسان ، والتى أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد ، قبولا عند الفاطميين . وأصبح الإمام فى نظر الناس ظل الله فى الأرض ، كما أصبح شخصا مقدسا ، حتى لقد تعرض الناس للموت إذا أظهروا سخطا أو تذمراً أو قاوموا أوامر الخليفة ونواهيه ، لأنها صادرة من الله الذى أملاها على الإمام المعلم ، الذى تلقى علمه من الله عن طريق الوحى .

وقد استمرت فكرة تقديس الخلفاء الفاطميين رائجة فى مصر . فقد ادعى المعز لنفسه كثيرا من صفات التقديس ، وادعى الحاكم الألوهية التى شغلت كل حياته تقريبا .

وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها: الخليفة الفاطمى أو العلوى وأمير المؤمنين . ومن الألقاب المحببة إلى الإسماعيلية لقب إمام وصاحب الزمان وسلطان والشريف القاضى ، كما يظهر من مخاطبة قاضى القضاة له فى صلاة الجمعة : السلام على أمير المؤمنين «الشريف القاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته». وكان السنيون يطلقون عليهم «العبيديين» نسبة إلى عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ، كما كان يطلق عليهم « العلويون » نسبة إلى على بن أبى طالب ، و« الفاطميون » نسبة إلى فاطمة الزهراء . كما كان يطلق عليهم

---

(١) Dozy : The Moslems in Spain, pp. 409, 413—15.

أيضا « السلاطين» . وكان الفاطميون يقرنون اسم الله سبحانه بأسمائهم : فنجد مثلا المعز لدين الله ، والعزيز بالله ، والحاكم بالله ، والظاهر لدين الله ، والمستنصر بالله .

وقد حذا الفاطميون حذو الأمويين والعباسيين فى تولية أبنائهم العهد . فكان الخليفة إذا شعر بدنو أجله يعهد بالخلافة إلى أحد أبنائه . ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته . ولما تطرق الضعف إلى الخلافة الفاطمية فى عهد المستنصر ، أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة ، فلم يراعوا فى اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه ، كما فعل بدر الجمالى وابنه الأفضل من تفضيل المستعلى على أخيه نزار الذى كان أبوه المستنصر قد عهد إليه لأنه أكبر أبنائه ؛ فجر ذلك إلى انقسام أشياع الفاطميين إلى نزارية ومستعلية ولا يزال أغا خان وأتباعه من الخوجات فى الهند يمثلون النزارية ، كما لايزال البهرة من الإسماعيلية فى الهند أيضا يمثلون المستعلية .

٣ — إحياء الخلافة الأموية فى الاندلس :

كان أمراء بنى أمية فى الأندلس يلقبون أنفسهم بألقاب منها : أمير وسلطان وابن الخلائف ، حتى اعتلى عبد الرحمن الناصر العرش فى سنة ٣٠٠ هـ . ولما استقرت قدمه فى البلاد ، ورأى ما وصلت إليه الخلافة العباسية فى الشرق من ضعف ، حتى إن سلطة الخليفة لم تكد تتعدى مدينة بغداد ، وما كان من تحكم النساء والخدم والأتراك فى عهد المقتدر وانصرافه إلى اللهو واللعب مع أنه كان لايزال يستعمل هذه الألقاب الضخمة[١] ، وأدرك الخطر الذى يهدد بلاده من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية فى المغرب» ، ووجد أنه ليس أول من العباسيين والفاطميين أثراً فى الدفاع عن العالم الإسلامى ضد أوربا المسيحية ، وفى شن الغارات ومطاردة المسيحيين فى البلاد المتاخمة لبلاده[٢] — لما رأى عبد الرحمن ذلك كله فكر فى إقامة الدعوة لنفسه وتلقب بأمير المؤمنين (٣)

لذلك أمر عبدالرحمن فى سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) بإقامة الدعوة له باعتباره أمير المؤمنين ، وخطب له بذلك على منابر قرطبة ، ثم كتب إلى ولاته بإقامة الدعوة له وتلقيبه بأمير المؤمنين[٤].

---

(١) Arnold : The Caliphate, p. 58

(٢) Dozy : The Moslems in Spain, p. 423

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٦ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص٢١٢

وعلى ذلك أصبح فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ثلاث خلافات : الخلافة العباسية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية فى المهدية ، والخلافة الأموية فى قرطبة ؛ وأصبح الناصر لا يحفل بالنظرية القديمة التى تشترط السيادة على الحرمين لمن يدعى الخلافة وإمرة المؤمنين .

وقد أفاد عبد الرحمن الناصر من هذا التغير الخطير فى نظام الحكم ، فظهر فى نظر رعاياه بمظهر لا يقل عظمة عن الخلفاء العباسيين والفاطميين. أما فى الخارج فقد تمتع بمركز ممتاز بين أمراء المسلمين فى ذلك الحين بما أحرزه من انتصارات على الأوربيين ، حتى إن هؤلاء الأوربيين، وعلى رأسهم أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا الذى أصبح فيما بعد إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، لجئوا إليه لوقف غارات عرب الفراكسينت كما تقدم .

وقد قرن عبد الرحمن الناصر اسم الله باسمه ، متشبها فى ذلك بالعباسيين والفاطميين فتلقب الناصر لدين الله ، وسن بعمله هذا السنة التى سار على نهجها أبناؤه من بعد؛ فتسمى ابنه الحكم المستنصر بالله ، وتسمى حفيده هشام المؤيد بالله وهكذا .

احتفظت الخلافة الأموية فى الأندلس بقوتها فى عهد الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الذى شعر نصارى الشمال فى عهده بقوة الخلافة ، وخطب له على منابر المغرب ، وقضى على نفوذ الأدارسة فى بلاد الريف . ولكن هذه الخلافة قد تطرق إليها الضعف فى عهد هشام المؤيد بن الحكم ، الذى أصبحت أمه صبح تتمتع بالنفوذ المطلق فى الدولة . ثم تولى ابن أبى عامر الحجابة وأصبح الحاكم الحقيقى للدولة الأموية فى الأندلس ، وحجر على الخليفة هشام ، الذى انزوى فى قصره ، وقضى أوقاته فى اللهو ، ولم يبق له من الخلافة إلا اسمها .

ولما مات ابن أبى عامر سنة ٣٩٣ هـ سار ابنه أبو مروان عبد الملك المظفر على نهجه فى الاستئثار بالسلطة دون الخليفة ، ثم تقلد الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن الذى تلقب الناصر ، ولكنه لم يلبث أن خلع وقتل وصلب، واستبد بالأمور محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر (سنة ٣٩٩ هـ) الذى تلقب « المهدى» . ولكن هشام بن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر تلقب « المستعين » ، ودخل قرطبة سنة ٤٠٠ هـ ، ثم طرد منها بيد المهدى الذى لم يلبث أن طرد بدوره وقتل ، ودخل المستعين قرطبة ثانية ، وقتل هشام المؤيد سراً وجلس على عرش الخلافة المتداعى نحو أربع سنين (٤٠٣ — ٤٠٧ هـ) استقل فيها كثير من أمراء الأطراف . ثم ملك بنو حمود قرطبة وأزالوا الخلافة الأموية بالأندلس ، « وحكموا هذه البلاد نحوا من أربعين سنة تخللتها صحوات عاد فيها الملك إلى

بعض أفراد البيت الأموى . ولكن كيف يقبض هؤلاء الأمويون على العرش بأيديهم الضعيفة ، فى ذلك الوقت الذى قامت فيه الفتن والثورات ، واشتدت منافسة الزعماء من البربر والصقالبة والعرب والأسبان ؟ »

(ب) الوزارة

١ — الوزارة فى الدولة العباسية.

قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، وتقلد الوزارة فى العصر العباسى الأول وزراء أكثرهم من الأعاجم كالبرامكة وبنى سهل ؛ كما اشتهر فى العصر العباسى الثانى بنو الفرات وبنو الجراح الذين نبغ منهم على بن عيسى وزير المقتدر ، وعبد الرحمن بن عيسى وزير الراضى . على أن ضعف الخلافة فى العصر العباسى الثانى أدى إلى ازدياد نفوذ الوزراء واشتداد المنافسة على الوزارة ؛ ومن ثم تفشى الدس وانتشرت الرشوة ابتغاء الوصول إلى كرسى الوزارة .

وكان المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٨ هـ) ، كسائر خلفاء بنى العباس ، يستعين بالوزراء فى إدارة شئون الدولة . فاستوزر محمد بن عبد الملك الزيات وزير أخيه الواثق وأبيه المعتصم . وكان ابن الزيات — كما يقول صاحب الفخرى (ص ٤١٤ — ٢٦٥) — : « نادرة وقته عقلا وفهما وذكاء وكتابة وشعراً وأدبا وخبرة بآداب الرياسة وقواعد الملوك . ولكنه كان جباراً متكبراً فظاً غليظ القلب خشن الجانب مبغضاً إلى الخلق ، حتى كان ذلك سبب قتله على يد المتوكل بعد أن استوزره أياما » ، وذكر الطبرى [1] أن ابن الزيات كان يرى استخلاف أحد أبناء الواثق بن المعتصم بدل المتوكل . فلما آلت الخلافة إلى المتوكل حنق عليه وعمل على قتله . وقد قيل فى قتله إنه كان قد عمل تنوراً من حديد وضع فيه مسامير ليعذب به من يريد عذابه ، فكان هو أول من عذب به ، وقال له ذق ما كنت تذيق الناس . ومن وزراء المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وقد اشتهر بالتعفف وكرم الأخلاق .

---

(١) جـ ١١ ص ٢٨ ، ٦٧ — ٦٨

ولم يكن للوزارة فى عهد المنتصر بن المتوكل شأن يذكر لقصر عهده واستبداد الأتراك بأمور الدولة . فلما ولى المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) أقر أحمد بن الخصيب وزير المنتصر ولكنه لم ينعم بالوزارة أكثر من شهرين ، ثم خلفه أبو صالح عبد الله بن محمد بن يزداد ، وكان من أشهر كتاب عصره وأقدرهم فى إدارة أمور الدولة ، فاستطاع أن يضبط الأموال ويضيق على الأمراء ، فتهددوه بالقتل وأرغموه على الهرب فلم يستوزر المستعين بعده أحداً وإنما كان يعين كتاباً يقومون بأعمال الوزراء (الفخرى ص ٢٢٤) وكانت منزلة الكتاب فى هذا العصر كمنزلة أصحاب الوساطة فى العصر الفاطمى .

ثم اتخذ المهتدى بالله (٢٥٥ — ٢٥٦هـ) أبا الفضل جعفر بن محمود الإسكافى، وكان قد وزر للمعتز ، وزيراً له ؛ فلم يلبث أن عزله ، واستوزر سليمان بن وهب . وكان بنو وهب — كما كان البرامكة وبنو سهل من قبلهم — « من رؤساء الناس وحذاقهم وفضلائهم وكرمائهم . وكانت دولتهم ناضرة وأيامهم مشرقة ، والأدب فى زمانهم قائم المواسم والكرم واضح المعالم »[1].

ولما ولى المعتمد الخلافة (٢٥٦ هـ) ضعف شأن الوزارة لاستبداد أخيه الموفق بأمور الدولة دونه . وفى عهده تقلد الوزارة عبيد الله بن يحيى بن خاقان على كره منه . ولما مات استوزر المعتمد الحسن بن مخلد كاتب أخيه الموفق ، فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق . وكان ابن مخلد من أشهر كتاب عصره وأكثرهم دراية بأمور الدولة . ومن أشهر وزراء المعتمد عبيد الله بن سليمان بن وهب[2] .

ولما مات عمل المعتضد على استصفاء أموال أهل بيته واستئصال شأفتهم . إلا أن ابنه القاسم بن عبيد الله عرض على الخليفة أن يدفع ألفى ألف دينار ، فقلده الوزارة . وهكذا استطاع أن يشترى هذا الكرسى كما احتفظ بهيبة أسرته الفارسية العريقة .

ولما ولى المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) استوزر أبا الحسن على بن الفرات سنة ٩٢٦هـ وقد ولى الوزارة ثلاث مرات ، ثم قبض عليه سنة ٣١٢ هـ . وكان لبنى الفرات ما كان للبرامكة وبنى سهل وبنى وهب من الشهرة فى العصر العباسى[3]

---

(١) الفخرى ص ٢٢٣ — ٢٢٦

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٠

(٣) ابن الاثير جـ ٨ ص ٢٢ ، ٣٤ ، ٤٧ ، ٥١

ومن أشهر وزراء المقتدر الوزير المصلح على بن عيسى الذى استطاع أن يقرب بين العباسيين وأبى سعيد الجنابى زعيم قرامطة البحرين ، وأثار بذلك حنق عبيد الله المهدى على أبى سعيد . وكان هذا الوزير « من كبار الكتاب ، اشتهر بالورع والزهد ، وفيه يقول الصولى : « ما أعلم أنه وزر لبنى العباس وزير يشبه على بن عيسى فى زهده وعفته ، وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه ، وكتابته وحسابته وصدقاته ومبراته » .

كما ضبط على بن موسى الدواوين ونظم شئون الدوله الداخلية ، فاستتب الأمن فى عهده بحسن سياسته ومهارته الإدارية وحرصه على نشر العدل بين الرعية ، حتى كان يجلس بنفسه للمظالم . على أن بقاء هذا الوزير المصلح فى الحكم لم يطل . بسبب إسراف الخليفة المقتدر وعزله الوزراء والقبض عليهم ، وتدخل النساء فى أمور الدولة . وقد قيل فى سبب عزله إن أم موسى قهرمانة « السيدة » أم الخليفة أرسلت إليه تطلب تقديم المال اللازم لعيد الأضحى ، ولكنه اعتذر ؛ فغضبت وأوغرت صدر «السيدة» عليه ، فقبض عليه غداة يوم الإثنين ٨ ذى الحجة سنة ٣٠٤ هـ[1] .

خلف على بن عيسى فى الوزارة حامد بن العباس . وقد تم على يديه قتل الحسين بن منصور الحلاج . غير أن هذا الوزير كان قليل الخبرة بأمور الوزارة ، فضم إليه الخليفة المقتدر وزيره السابق على بن عيسى ، وجعله نائباً له . فاستطاع بفضل خبرته الإدارية وإلمامه بشئون الدولة أن يقبض على زمام الأمور ، وأصبحت كلمته نافذة على جميع الولاة . أما الوزير حامد بن العباس ، فقد أصبح مسلوب السلطة ، وكان يلبس السواد شعار الدولة العباسية ويجلس فى دست الوزارة ، ويجلس على بن عيسى بين يديه كالنائب بملابسه المعتادة فقال بعض الشعراء :

أعجب من كل ما رأينا أن وزيرين فى بلاد
هذا سواد بلا وزير وذا وزير بلا سواد[2]

وهكذا ساءت حالة الدولة العباسية الداخلية فى عهد المقتدر ، واضطربت الأمور بسبب هذه السياسة التى اتبعها فى تعيين وزرائه وعزلهم ، حتى تقلد الوزارة فى عهده نحو اثنى عشر

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٦ . هلال الصابىء : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٢٨٦
(٢) الفخرى ص ٢٤٢ .

وزيراً ، عزل بعضهم مراراً ، كأبي الحسن بن على بن الفرات وعلى بن عيسى . أضف إلى ذلك اعتماده على وزراء ضعاف كأبي على بن محمد بن مقلة الذى عزله الراضى لوشاية أعدائه به ، وحبسه بعد أن قطعت يده اليمنى ، وكان يبكى على يده ويقول : « قد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة من الخلفاء[١] ، وكتبت بها القرآن دفعتين ، تقطع كما تقطع أيدى اللصوص[٢] » .

على أن بعض وزراء المقتدر ، وإن كانوا قد احتفظوا بشىء من النفوذ ، فقد عجز الوزراء فى عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) عن إدارة الدولة بسبب ازدياد نفوذ القواد واضطر هذا الخليفة إلى تقليد ابن رائق شئون الدولة كافة ولقبه بلقب « أمير الأمراء » ولم يبق للوزراء شىء من النفوذ ، واقتصرت أعمالهم على الحضور إلى دار الخلافة فى أيام المواكب مرتدين السواد ، متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من شعار الوزارة ، وأصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء[٣] .

ولما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ استبدوا بأمور الخلافة ، وقضوا على نفوذ الخلفاء ، وزال نفوذ الوزراء ، لأن بنى بويه حلوا محلهم . ومن أشهر وزراء بنى بويه أبو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة بن بويه (٣٣٠ - ٣٦٦هـ) . وكان أبوه أبو عبدالله الحسين بن محمد الكاتب الملقب بالعميد وزير مرداويج بن زيار الديلمى . وقد عرف له عماد الدولة فضله بعد أن ساعده على الخروج من وجه مرداويج والسير إلى بلاد الكرج التى آل إليه حكمها . وكان لابن العميد أثر كبير فى إدارة شئون الرى وهمذان وأصبهان فى عهد ركن الدولة ابن بويه ، فاستوزره فى سنة ٣٣٨ هـ [٤] كما كان له أثر كبير فى تنشئة عضد الدولة [٥] ، وتعليمه أصلح الطرق لتدبير ملكه حتى كان يذكر له هذا الصنيع ويشيد بفضله ويدعوه « الأستاذ الرئيس » [٦] .

ولا غرو فقد كان « أبو الفضل بن العميد - كما يقول ابن خلكان (جـ ٢ ص ٥٧) - :

---

(١) هؤلاء الخلفاء الثلاثة هم : المقتدر والقاهر والراضى

(٢) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ٣٣٨

(٣) حسن إبراهيم حسن ، وعلى إبراهيم حسن : النظم الاسلامية : ص ١٦٣ — ١٦٤

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٥٧

(٥) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٨١ .

(٦) المصدر نفسه : جـ ٢ ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

«متوسعا فى علوم الفلسفة والنجوم . وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد فى زمانه . وكان يسمى الجاحظ الثانى . وكان كامل الرياسة جليل القدر من بعض أتباعه الصاحب بن عباد » . وهو الذى قيل فيه : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد . وكذلك كان أبو الفضل بن العميد قائدا ماهرا ؛ فقد أثر عنه أنه انتصر على ابن ما كان فى الرى وأصبهان وأسره فى سنة ٣٤٤ هـ ، ومات وهو فى طريقه لحرب حسنويه زعيم الأكراد سنة ٣٦٠ هـ (وقيل سنة ٣٥٩ هـ) [١] .

ورث أبو الفتح على بن محمد العميد أباه فى مواهبه . وقد صحب أباه فى حرب حسنويه الكردى وقد استوزره ركن الدولة فى الرى بعد أبيه ، فبقى فى الوزارة إلى أن مات ركن الدولة ، ولأبى الفتح بن العميد أثر كبير فى فض النزاع الذى قام بين ركن الدولة وابنه عضد الدولة الذى عمل على أخذ بلاد العراق من يد ابن عمه بختيار [٢] وقد عرف لأبى الفتح حسن بلائه فى إقرار سلطنته بالعراق ؛ فأبقاه فى بغداد ، وخلع عليه (٣٦٦ هـ) ، ولقبه ذا الكفايتين لمهارته الحربية وعلو كعبه فى العلم وحذقه السياسة ، وكان يركب مع ابن بقية وزير بختيار ، كما اتفق مع بختيار سراً على أن يتقلد الوزارة فى العراق بعد وفاة عضد الدولة ، فلما علم هذا أضمر له العداء ، ولما مات ركن الدولة صاحب الرى وهمذان وأصبهان سنة ٣٦٦ هـ ، استوزره ابنه مؤيد الدولة ، ولكن النزاع لم يلبث أن قام بين أبى الفتح بن العميد والصاحب بن عباد وألقى عضد الدولة بابن العميد فى السجن ، وصودرت أملاكه ، وعذب حتى وافته منيته فى هذه السنة [٣] .

ومن أشهر وزراء بنى بويه الصاحب إسماعيل بن عباد الذى قلده مؤيد الدولة بن ركن الدولة الوزارة بعد أبى الفتح بن العميد ، ثم أقره خسرو الدولة فى الوزارة سنة ٣٧٣ هـ ، وقد تقلد أبوه عباد الوزارة فى عهد ركن الدولة ، روى ابن خلكان (جـ ١ ص ٧٥) : أن الصاحب نشأ « من الوزارة فى حجرها ، ودب ودرج من وكرها ، ووضع أفاويق درها ، وورثها عن آبائه ، كما قال فيه أبو سعيد الرستمى :

ورث الوزارة كابر عن كابر موصولة الإسناد بالاسناد

---

(١) أنظر « أبو الفضل بن العميد » فى دائرة المعارف الإسلامية .
(٢) مسكويه : جـ ٢ ص ٣٤٨ — ٣٥٢ .
(٣) المصدر نفسه : جـ ٢ ص ٣٣٧ .

وهو أول من لقب بالصاحب من الوزارة لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد ، ويقيل له صاحب ابن العميد ، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تقلد الوزارة وبقى علما عليه ، وقيل إنه لقب بذلك لأنه كان يصحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة الذى أطلق عليه «الصاحب» ثم سمى بهذا الاسم كل من تقلد الوزارة بعده .

وكان الصاحب بن عباد فوق ذلك قائداً ، فقد قام فى سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ — ٩٨٨ م) على رأس جيش لغزو طبرستان ، واستولى على بعض قلاعها ونظم أمورها ، كما كان شاعراً مجيداً ، حتى قيل إنه اجتمع عنده مالم يجتمع عند غيره من الشعراء الذين مدحوه بغرر القصائد ، وظل على ذلك حتى مات فى شهر صفر ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) ودفن بأصبهان (١) وقد نصح لفخر الدولة الذى زاره فى مرضه الأخير بقوله « قد خدمتك أيها الأمير خدمة استفرغت قدر الوسع ، وسرت فى دولتك سيرة جلبت لك حسن الذكر بها ، فإن أجريت الأمور بعدى على نظامها وقررت القواعد على أحكامها ، نسب ذلك الجميل السابق إليك ، ونسبت أنا فى أثناء ما يثنى به عليك ، ودامت الأحدوثة الطيبة لك . وإن غيرت ذلك وعدلت عنه ، كنت أنا المشكور على السيرة السالفة ، وكنت أنت المذكور بالطريقة الآنفة ، وقدح فى دولتك ما يشيع فى المستقبل عنك ؛ فأظهر فخر الدولة قبول رأيه » (٢).

٢ — الوزارة فى مصر :

لم تعرف الوزارة فى مصر فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، لأن هؤلاء الخلفاء لم يكونوا قد استحدثوا نظام الوزارة بعد ، بل كانوا يرسلون إلى هذه البلاد ولاة يديرونها باسمهم ، أما فى العصر العباسى ، فنرى أحمد بن طولون يتخذ أحمد بن محمد الواسطى كاتباً له وكان يضطلع بأعباء الوزارة دون أن يلقب بلقب الوزير (٣) . وقد استوزر خمارويه ابن أحمد بن طولون أبا بكر محمد بن رستم المادرائى الكاتب (٤) .

وقد تقلد الوزارة بمصر فى عهد الدولة الاخشيدية الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٧٥ .
(٢) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٣ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١٦ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١١٩ . المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٠ .

ابن الحسن بن الفرات المعروف بابن حنزابة [١] ، وكان تقليده الوزارة من قبل الخليفة الراضى ، ولم يلبث هذا الوزير أن ارتبط بالإخشيد برباط المصاهرة بزواج ابنه جعفر من ابنة الإخشيد [٢] وأدى ذلك إلى توطيد صلة المودة بينه وبين والى هذه البلاد الذى كان يخرج لوداعه إذا غادر البلاد أو لاستقباله إذا عاد إليها .

وكان ابن الفرات يتمتع بمركز ممتاز فى الدولة العباسية حتى إنه تقلد الوزارة فى بغداد سنة ٣٢٦ هـ ، ولكنه آثر العودة إلى مصر لاستبداد أمير الأمراء بالسلطة ، ولكن المنية عاجلته وهو فى الرملة فى ١٨ جمادى الأولى سنة ٣٢٧ هـ [٣] . فقلد الخليفة الراضى ابنه أبا الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة أيضاً نسبة إلى جدته ، على ما كان بيد أبيه ، فبقى فى الوزارة إلى أن جاء المعز الفاطمى إلى مصر ، فعزله لأنه كان سنياً .

وكانت الوزارة فى العصر الفاطمى الأول (٣٥٨ - ٤٦٥ هـ) وزارة تنفيذ ، لأن الخلفاء كانوا من القوة بحيث يستطيعون أن يديروا أمور الدولة بأنفسهم ، ومن أشهر وزراء هذا العصر يعقوب بن كلس .

وقد وصف ابن منجب الصيرفى [٤] علاقة يعقوب بن كلس بالخليفة الفاطمى المعز وابنه العزيز وكيفية تقليده الوزارة ، وما خلع عليه من الألقاب وما أسبغ عليه من المنح ، كما وصف أثره فى العلم والأدب .

وبوفاة يعقوب بن كلس ضعفت الوزارة ثم تحولت إلى ما يسمى « الوساطة » خوفا من ازدياد نفوذ الوزراء ، ففى أوائل عهد الحاكم (٣٨٦ - ٤١١ هـ) عزل عيسى ابن نسطورس ، وكان نصرانياً ، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين « الوساطة » ، وتلقب بلقب « أمين الدولة » [٥] (٣ شوال سنة ٣٨٦ هـ) ولكنه حابى الكتاميين وأبطل أعطيات الأتراك ، ونفذت أوامره فى الخزائن والأموال إطلاقا وعطاء ، حتى على جوارى القصر هبه وعتقاً » .

---

(١) نسبة إلى أمه حنزابة وكانت جارية رومية ، والحنزابة المرأة القصيرة الغليظة (ابن دقماق : كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٥٧) .

(٢) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ١١ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٦ — ١٨، ٢٤ .

(٤) الإشارة إلى من نال الوزارة ٢١ — ٢٢ .

(٥) أبو شجاع ص ٢٢٢ .

وبعد ابن عمار تقلد الوساطة « برجوان » أستاذ الحاكم ومستشاره (رمضان سنة ٣٨٧ هـ) . وكان يستعين فى إدارة شئون الدولة بكاتبه أبى العلاء فهد بن إبراهيم — وكان نصرانياً ، وظل برجوان يدبر شئون الدولة الفاطمية ويشرف على الخليفة الذى ضاق بأستاذه ذرعا ، فأمر بقتله فى شهر (ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ) ، فحل محله الحسين بن جوهر القائد الذى استعان بفهد بن إبراهيم ، وكان يلقب « الرئيس» (١) .

وإن من يستقصى تاريخ الوزارة فى عهد الخليفة الحاكم يرى أن كثيراً من الوزراء كانوا من أهل الذمة ، وأنهم كانوا لا يستقرون فى الحكم طويلا لمحاباتهم أبناء جلدتهم .

ومن أشهر وزراء العصر الفاطمى الأول أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح ، الذى لقب « وزير الوزراء ذا الرياستين الآمر المظفر قطب الدولة » (٢) .

وممن تقلد الوساطة والوزارة أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى(٣) . وقد تقلد بعض المناصب العالية فى عهد الحاكم ، ثم تقلد الوساطة مع جليل الدولة أبى عبد الله محمد بن العداس فى أوائل خلافة الظاهر الفاطمى (٤١١ — ٤٢٧ هـ) ، وبقيا معا سبعة أشهر . ولكن الجرجرائى لم يتقلد «الوزارة» إلا فى سنة ٤١٨ هـ ، حيث بقى فيها حتى مات الظاهر ، فأقره ابنه المستنصر فى منصبه فظل فيه حتى مات سنة ٤٣٦ هـ (٤) .

وقد تلقب بعض الوزراء الذين تقلدوا الوزارة بعد المعز بألقاب منسوبة إلى الدولة ، كأبى محمد الحسن بن عمار الكتامى ، الذى تلقب بلقب أمين الدولة . وتلقب الحسن بن صالح بن على الروذبارى بلقب عميد الدولة ، ولقب زرعة أخو عيسى بن نسطورس الشافى ، الحسين بن طاهر أمين الأمناء ، وأبو الحسن على بن جعفر بن فلاح وزير الوزراء ذا الرياستين الآمر المظفر قطب الدولة ، وأبو القاسم الجرجرائى الوزير الأجل صفى أمير المؤمنين وخالصته ، وأبو منصور صدقة الفلاحى بتاج الملة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين .

وسنرى فى الجزء الرابع من هذا الكتاب أن الوزارة فى عهد المستنصر أصبحت وزارة

---

(١) ابن منجب : الاشارة ص ٢٧ ، ٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٠ — ٣٢ .
(٣) ينسب إلى جرجرايا إحدى قرى سواد العراق
(٤) ابن منجب الصيرفى : الاشارة ص ٣٥ — ٣٧ .

تفويض ، وأن من تقلدها كانوا من أرباب السيوف، بعد أن كانت وزارة تنفيذ أو وساطة يرجع من يتقلدها إلى أمر الخليفة ونهيه .

٣ — الوزارة فى الاندلس :

لم يكن إطلاق لفظ الوزارة فى الدولة الأموية بالأندلس شائعا كما كان فى الدولة العباسية فى المشرق وفى الدولة الفاطمية فى مصر. فكان يطلق على من يضطلع بأعباء الوزارة فى الأندلس اسم الحاجب تارة واسم الوزير أو ذى الوزارتين تارة أخرى . ولهذا نرى أن الحاجب فى الدولة الأموية بالأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذى يحجب السلطان عن الخاصة والعامة كما كانت الحال عند الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين ، وإنما قصد به هنا من يتولى الوزارة بمعناها المعروف .

ويقول المقرى[1]: «وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنها كانت فى مدة بنى أمية مشتركة فى جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصا لمكان النائب المعروف بالوزير ، فيسميه بالحاجب . وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة فى البيوت المعلومة لذلك ، إلى أن كانت ملوك الطوائف . فكان الملك منهم ، لعظم اسم الحاجب فى الدولة المروانية ، وأنه كان نائبا عن خليفتهم يسمى بالحاجب ، ويرى أن هذه السمة أعظم ماتنوفس فيه وظفر به. وهى موجودة فى أمداح شعرائهم وتواريخهم. وصار اسم الوزارة عاما لكل من يجالس الملوك ويختص بهم، وصار الوزير الذى ينوب عن الملك يعرف بذى الوزارتين . وأكثر مايكون فاضلا فى علم الأدب، وقد لا يكون كذلك، بل عالما بأمور الملك خاصة » .

وقد ألقى ابن خلدون (مقدمة ص ٢٠٨) ضوءاً على نظام الوزارة فى الدولة الأموية بالأندلس ، فبين أن الحاجب كان يقوم بعمل الوزير فى الدولتين العباسية والفاطمية ، ويشرف على أعمال أصحاب الدواوين الذين يطلق على كل منهم اسم الوزير . فكان الحاجب يقوم بعمل رئيس الوزراء اليوم ، ويتولى رياسة مجلس الوزراء الذى يشرف على شئون الدولة .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ .

ولم يكن مجلس الحاجب ، أو بالأحرى مجلس الوزارة ، هو وحده الذى يدير شئون الدولة ، بل كان إلى جانبه مجلس آخر يسمى « مجلس الشورى » يرأسه الأمير أو الخليفة، ويضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من أفراد البيت الأموى .

وكان عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠هـ) أول من لقب وزيره بذى الوزارتين، مقتديا فى ذلك بالعباسيين ، لجمعه بين خطتى السيف والقلم . ففى سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م) لقب أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذا الوزارتين ، وضاعف له راتبه . وكان هذا الموظف يقوم ببعض أعمال الحاجب إذا اشتد ضغط العمل عليه. وقد أسند الأمويون الوزارة أحيانا إلى غير المسلمين من أهل الذمة ، كما فعل عبد الرحمن الناصر مع حسداى بن شبروط الذى بعث به سفيراً إلى أوتو إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

ولما ضعفت الخلافة الأموية فى الأندلس ازداد نفوذ الحاجب ، حتى إن الخليفة لم يعد له من الأمر شىء . وقد رأينا كيف تخلص ابن أبى عامر من جعفر بن عثمان المصحفى الحاجب فى عهد هشام المؤيد (٣٦٦ — ٣٩٩ هـ) ليصفو له الجو فى بلاد الأندلس ، وكيف جلس مكانه على كرسى الحجابة ، وأصبح الحاكم المطلق للدولة الإسلامية فى هذه البلاد ، حتى دعى له على المنابر وضربت السكة باسمه بعد هذا الخليفة، ونقش اسمه على الملابس المنسوجة بالذهب كما كان ينسج اسم الخلفاء .

(ج) الكتابة :

ولما تعددت الدواوين فى الدولة العباسية أصبح من الضرورى تعيين طائفة من كبار الموظفين للاشراف على هذه الدواوين . ويسمى كل من هؤلاء الموظفين « الكاتب » . ومن أشهر الكتاب فى العصر العباسى الثانى : كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضى . ومهنة كاتب الرسائل إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها فى الصيغة النهائية وختمها بخاتمه كما كان يجلس مع الخليفة أو أمير الأمراء أو السلطان فى مجلس القضاء ، للنظر فى المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة . وكان كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة .

وقد ذكر ابن خلدون (مقدمة ص ٢١٥) الصفات التى يجب أن تتوافر فى الكاتب

عامة وفى كاتب الرسائل خاصة فى هذه العبارة فقال : « واعلم أن صاحب هذه الخطة لابد من أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم ،وعارضة البلاغة . فإنه معرض للنظر فى أمور العلم لما يعرض فى مجلس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ماتدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ، مع مايضطر إليه فى الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها » .

ومن أشهر الكتاب فى ذلك العصر محمد بن عبدالملك الزيات. وكان يلى ديوان الرسائل فى عهد الواثق ، وهو الذى كتب البيعة بولاية المتوكل العهد . ولما ولى المتوكل الخلافة نكبه بعد قليل [١] . وكان الخلفاء يستعيضون عن الوزراء بالكتاب أحيانا ، كما كانت الكتابة سبيلا إلى الوزارة فى كثير من الأحيان : فنرى الخليفة المتوكل يتخذ أبا الوزير كاتبا له بعد ابن الزيات دون أن يلقبه بالوزير [٢]. ونرى الخليفة المقتدر يتخذ ابن الفرات الذى تقلد الكتابة من قبل وزيرا له . وكثيرا ماترى بعض الخلفاء يتخذون من الكتاب قوادا يعتمدون عليهم فى الغزوات . وأحسن مثل لذلك محمد بن سليمان الكاتب الذى قضى على الحسين بن زكرويه القرمطى ، وأزال خطره عن بلاد الشام فى سنة ٢٩١ هـ ، كما قضى على الطولونيين فى مصر فى السنة التالية .

ولم يكن اتخاذ الكتاب مقصوراً على الخلفاء وحدهم ، بل كان أمراء الأمراء وسلاطين بنى بويه وعمال الأقاليم يتخذون كتابا يعاونونهم فى الإدارة فقد اتخذ بجكم الذى تقلد إمرة الأمراء فى عهد الراضى والمتقى « الكوفى » كاتبا له . وكان لهذا الكاتب أثر فى تولية المتقى الخلافة . وكذلك اتخذ توزون الذى تقلد إمرة الأمراء فى عهد المتقى أبا جعفر بن شيرزاد كاتبا له [٣] . كما نرى ابن العميد وزير ركن الدولة بن بويه فى الرى وهمذان وأصبهان يتخذ ابن عباد كاتبا له ، ويعهد إليه بتنشئة مؤيد الدولة بن ركن الدولة . ولم يلبث هذا الكاتب أن ارتقى إلى رتبة الوزارة فى عهد مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة .

ولم تعرف الوزارة فى مصر قبل عهد الإخشيديين كما تقدم، فإن أحمد بن طولون اتخذ أحمد بن محمد الواسطى كاتبا له ، ثم اتخذ جعفر بن عبد الغفار المصرى . « على أنه يظهر

---

(١) الطبرى جـ ١١ ص ٣٦ .
(٢) أنظر هذا الكتاب ص ٢٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ٨٣ ، ٨٥ .

أنه لم يكن من الكفاية بحيث يستطيع الاضطلاع بأعباء هذا المنصب، فأشار أحمد بن خاقان على ابن طولون بصرفه ، فقال له : أنا احتمله لأنه مصرى . فقال له ابن خاقان : أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصرى على الكاتب البغدادى ، قال : لا والله ، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلدا أن يكون كاتبه منه ، وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه يجتمع له فى ذلك البلد أمور صالحة منها : أن تكون بطانة الكاتب وحاشيته فى ذلك للبلد فيعود مرفقه على فريق من أهله ، ومنها رغبته فى اعتقاد المستغلات به فيكون صفاقا (ضمانا) لجناياته . وهو مع هذا وشمله ظاهرون مستقلون فى خدمتى . والكاتب العراقى ليس كذلك ، لأنه يعتقد المستغلات فى بلده النائى عنه وعنى ، ويستبطن الرقاع ، ومن يشير عليه أن يعمر بلده الذى يعمل فيه ، وهو فى كل وقت متطلع إلى بلده . فبهذا السبب زهدت فى كتاب سر من رأى ، مع علمى بتقدمهم فى الكتابة والرجاحة ، فصوبت رأيه ورأيت عذره » (١).

وكانت الكتابة فى عهد الفاطميين تلى الوزارة فى الرتبة، وكان الخلفاء لايسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور ، فإذا حاز صاحبها رضاء الخليفة رشحه للوزارة فى أى وقت .

وكانت الكتابة فى الأندلس تلى الوزارة فى الرتبة وتنقسم قسمين : كتابة الرسائل ، ويسمى صاحبها « الكاتب » ، ويشترط فيه أن يكون بليغا حسن الأسلوب جزل العبارة ؛ وكاتب الزمام ، ويعرف بكاتب الجهبذة ، ويشترط فيه أن لا يكون ذميا ، بل يجب أن يكون من عظماء المسمين ووجوههم ، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير، وفيه يقول المقرى (ج١ ص ١٠٣) : « أعظم من الوزير وأكثر أتباعا وأصحابا ، وأجدى منفعة . فإليه تميل الأعناق ، ونحوه تمد الأكف ، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار » وكثيرا ما كان هذا الكاتب غرضا للاضطهاد والعزل والمصادرة ، ولا سيما حين ضعفت الدولة وتزعزع الأمن فيها .

(د) الحجابة :

كان معاوية أول من اتخذ الحجاب من الخلفاء بعد مؤامرة الخوارج عليه وعلى بن أبى طالب وعمرو بن العاص ، وذلك خوفا على حياتهم ، ومنعا لازدحام الناس على أبوابهم

---

(١) سيرة أحمد بن طولون لابن الداية ص ١٥ : النظم الإسلامية ص ١٨١ — ١٨٢

حتى لاينشغلوا عن سهام الدولة . وقد حذا العباسيون حذو الأمويين ، فاتخذوا الحجاب وزادوا فى منع الناس من لقاء الخليفة إلا فى الأمور الهامة . ومن ثم أصبح بين الخليفة وبين الناس داران : دار الخاصة ودار العامة حيث يقابل كل طائفة فى مكان معين حسبما يرسمه الحجاب . ثم تطور نظام الحجابة فى العصر العباسى الثانى ، فاتخذ الخلفاء حجاباً ثالثا أشد من الأولين (١) .

ولم تقتصر مهمة الحاجب فى ذلك العصر على حراسة الخليفة ومنع الناس من الاتصال به ، بل تعداه إلى التدخل فى أهم شئون الدولة ، حتى إن بعضهم استبد بهذه الشئون دون الوزراء . وكان أصحاب الدواوين يرجعون إليهم فى المسائل المتعلقة بدواوينهم ولا يفصلون فيها إلا بعد الرجوع إليهم . وكثيرا ماكان الحاجب يصبح غرضا لدسائس الوزير إذا زاد نفوذه وعظم استبداده بأمور الدولة . ومن أحسن الأمثلة التى تؤيد صحة هذا الرأى تدبير الوزير أبى على بن مقلة مؤامرة انتهت بالقبض على محمد بن ياقوت الحاجب (٢) .

ولم يكن للحاجب فى الدولة الفاطمية ماكان له من النفوذ فى العصر العباسى الثانى . ويقول ابن خلدون إنه لم يكن فى دول المغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التى كانت فيهم . « وربما يوجد فى دولة العبيديين عند استعظامها وحضارتها ، إلا أنه لقليل » . ولم تقتصر الحجابة على الخلفاء الفاطميين ، بل اتخذ كل من قاضى القضاة والوزير حاجباً أو أكثر يقفون بين يديه إذا جلس للحكم .

أما فى بلاد الأندلس فكانت الحجابة تختلف اختلافا كبيرا عنها عند العباسيين والفاطميين كما تقدم ، لاستبداد الحاجب فى الأندلس بشئون الدولة . وأحسن مثل لذلك الحاجب المنصور بن أبى عامر .

والآن ننتقل إلى الكلام على النظام الإدارى :

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩ .

(٢) مسكويه : ج ١ ص ٣١٨ ــ ٣١٩ .

٢ — النظام الإدارى

(أ) الإمارة على البلدان :

كانت الدولة العباسية فى أوائل القرن الرابع الهجرى تتألف من عدة ولايات هى : مصر ، وفارس ، والبصرة ، والأهواز ، والرى ، والشام ، وأصبهان ، والثغور[1] . وكان يساعد الوالى أو الأمير فى ولايته موظف كبير يسمى العامل أو صاحب الخراج، لأن عمله مقصور على جمع الخراج وإرساله إلى بيت المال بحاضرة الدولة والإنفاق على ما تتطلبه الولاية من ضروب الإصلاح . وكان هذا الموظف لايقل فى المنزلة عن الوالى أو الأمير ، فيخاطب فى المراسلات الخاصة به بما يخاطب به الوالى كما ترسل إليه المنشورات فى الوقت الذى ترسل فيه إلى الوالى الذى لايمتاز عنه إلا بالصلاة بالناس فى المسجد ، مما يجعل ولايته أعم من العامل أو صاحب الخراج .

وإذا اتفق كل من الوالى والعامل ، كان هذا الاتفاق مصدر خير للولاية . وكثيراً ما أدى اتفاقهما إلى إثارة المتاعب على الدولة نفسها . ففى سنة ٣١٩ هـ استطاع والى فارس وكرمان وعامل الخراج فيهما أن يمنعا وصول الأموال إلى بغداد مما كان مصدر قلق للخلافة العباسية . وإذا اجتمع هذان المنصبان لرجل واحد أصبح أشد خطرا على الخلافة ، كما حدث حين امتنع بجكم التركى عن تولى أمور الأهواز مع بقاء عامل الخراج بجانبه، وحمل الخليفة العباسى على أن تكون له الولاية والخراج ، فأجيب إلى ذلك (٣٢٥ هـ) [2] .

ولما أخذت الدولة العباسية فى الضعف ، أصبح الولاة يؤثرون البقاء فى بغداد أو فى سامرا وينيبون عنهم من يدير شئون الولايات باسمهم . وكان من أثر هذه السياسة أن جنح بعض النواب والولاة إلى الاستقلال . كما كان لضعف السلطة المركزية أثر فى استقلال ولاة الأقاليم البعيدة عن حاضرة الدولة : فنرى أحمد بن طولون يعمل على الجمع بين وظيفتى الوالى (الحرب والصلاة) والعامل (الخراج) والاستقلال بمصر ، ويحذو حذوه فى ذلك محمد بن طغج الإخشيد .

---

(١) هلال بن الصابىء : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٥٦ .

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٣٢ — ١٣٣ .

وكذلك فعل يعقوب بن الليث الصفار الذى استولى على كثير من بلاد الدولة العباسية وحمل الخليفة على الاعتراف بنفوذه فيها ، وأسس الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) . واستطاع السامانيون أن يستقلوا ببلاد ماوراء النهر ويستحوذوا على ما كان فى أيدى الصفارية ويؤسسوا الدولة السامانية (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) . وهذه الحالة السيئة تعلل قيام الدول المستقلة فى ذلك العصر : فظهرت فى مصر الدولتان الطولونية والإخشيدية اللتان قامتا على أنقاضهما الدولة الفاطمية ، وظهر فى المشرق دول الصفارية والسامانية والغزنوية والبويهية فى فارس وفى الرى وهمذان وأصبهان .

وكان يساعد الوالى والعامل فى المدن جماعة من الموظفين أهمهم القاضى ، والبندار ، ويعرف بكاتب السلعة ، ومهنته المطالبة بالخراج ووجوه المال ، وصاحب الجند ، وصاحب البريد ، ومتولى السوافى أو الضياع السلطانية ، وصاحب المعونة ، وكان يساعد صاحب الجند . وكان هؤلاء الموظفون يعينون من قبل الوزير ، ويعزلون بعزله ، ثم يعودون إلى الحكم بعودة الوزير مما أدى إلى إشاعة الاضطراب وكثرة التعطل (١) .

وكانت ولاية الأقاليم من المناصب الرفيعة فى الدول الإسلامية. فقد ذكر القلقشندى (٢) كيفية تقليد الخلفاء العباسيين ولاة الأقاليم فى هذه العبارة فقال : « وإن كان الذى يوليه الخليفة من ملوك النواحى البعيدة عن حضرة الخليفة ، كملوك مصر إذ ذاك ونحوهم ، جهز له التشريف من بغداد صحبة رسول من جهة الخليفة ، وهو جبة أطلس أسود بطراز مذهب وطوق من ذهب يجعل فى عنقه ، وسواران من ذهب يجعلان فى يديه ، وسيف قرابه ملبس بالذهب ، وفرس بمركب من ذهب ، وعلم أسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة ينشر على رأسه ، كما كان يبعث إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم أخيه العادل فإذا وصل ذلك إلى سلطان تلك الناحية ، لبس الخلعة والعمامة ، وتقلد السيف وركب الفرس وسار فى موكبه حتى يصل إلى محل ملكه ، وربما جهز مع خلعة السلطان خلع أخرى لولده أو لوزيره أو أحد من أقاربه بحسب ما يقتضيه الحال حينئذ » .

ومن وصف ابن الأثير (جـ ٨ ص ١١٢ — ١١٣) لحالة الدولة العباسية فى عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) . نقف على أسماء الولايات التى كانت تتألف منها هذه الدولة المتداعية ، واستبداد كثير من الولاة واستقلالهم عن الدولة : « ولم يبق للخليفة غير بغداد

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٧٧ .

(٢) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٦ .

وأعمالها ، والحكم فى جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم ، وأما باقى الأطراف : فكانت البصرة فى يد ابن رائق ، وخوزستان فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه وكرمان فى يد أبى على محمد بن إلياس ، والرى وأصبهان والجبل فى يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخى مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان ومصر والشام فى يد محمد بن طغج ، والمغرب وإفريقية فى يد أبى القاسم القائم بأمر الله بن المهدى العلوى وهو الثانى منهم ويلقب بأمير المؤمنين ، والأندلس فى يد عبدالرحمن ابن محمد الملقب بالناصر الأموى ، وخراسان وما وراء النهر فى يد أحمد السامانى ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم . والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى » .

وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٧ ص ٦٩) الصفات التى يجب أن يتحلى بها من يرشح لولاية الأقاليم وتدبير شئونها والعمل على إسعاد أهلها ، فقال : إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا « رجل قد تكاملت فيه خصال أربع : حزم يتقى به عند موارد الأمور حقائق مصدرها ، وعلم يحجزه عن التهور والتغرير فى الأشياء إلا مع إمكان فرصتها ، وشجاعة لا تفضها الملمات مع تواتر جوائحها . وجود يهون تبذير الأموال عند سؤالها ، وسرعة مكافأة الإحسان إلى صالح الأعوان ، وثقل الوطأة على أهل الزيغ والعدوان ، والاستعداد للحوادث إذلا تؤمن حوادث الزمان .

ولم يغير العرب نظم الحكم فى مصر تغييراً يذكر بعد الفتح ، حتى جاءت الدولة الفاطمية ، فأدخلت عليه كثيراً من التغيير . فقد عمل جوهر الصقلى على إحلال المغاربة الشيعيين محل المصريين السنيين فى المناصب الهامة ، ليفسح المجال أمام هؤلاء المغاربة ، حتى « إن جوهراً لم يدع عملا إلا جعل فيه مغربياً شريكا لمن فيه »[1] ، ومن أهم الأعمال الإدارية التى أسندت إلى الشيعيين : الوزارة ، وجباية الخراج ، والقضاء ، والحسبة ، ولم يختلف نظام الولاية على الأقاليم عند الفاطميين والأمويين فى الأندلس اختلافا يذكر عنه فى عهد العباسيين .

(ب) الدواوين :

كانت الدولة العباسية أشبه باتحاد يتألف من ولايات كثيرة ، لكل ولاية ديوان ببغداد يشرف على شئونها . وينقسم كل ديوان قسمين : الأول ، ويسمى الأصل ، ويختص بسن

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٨ .

الضرائب وحملها إلى بيت المال ، والثانى ، الزمام أو ديوان المال ، واستمر هذا النظام إلى أن ولى المعتضد الخلافة (سنة ٢٧٩ هـ) فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض ، وكون منها ديواناً واحداً أطلق عليه « ديوان الدار » ، ويسمى أحياناً « ديوان الدار الكبير » .

وقد أثنى هلال بن الصابىء [١] على نظام الدولة العباسية فى عهد المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) فى هذه العبارة فقال : « وسمعت مشايخ الكتاب يقولون إنه لم يجتمع فى زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش مثل المعتضد بالله ، وأبى القاسم عبيد الله بن سليمان ، وأبى العباس بن الفرات وبدر » .

وقد قسم المعتضد الديوان أقساما ثلاثة : ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان السواد (يعنى العراق) ، وأسند « الأصل » لشخص واحد و « الزمام » لشخص آخر

وفى القرن الرابع الهجرى كانت إدارة الدولة « تنقسم إلى ما يشبه وزارتين ، إحداهما للداخلية ، وهى ديوان الأصول ، والأخرى للمالية ، وهى ديوان الأزمة . وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساما كثيرة تسمى دواوين أيضاً ، لأنه كان لكل ناحية ديوانها ، ولكن لما كان الوزير ، وهو رئيس السلطة المركزية ، هو الذى يتولى إدارة ديوان السواد بنفسه ، فإن كثيراً من دواوين الولايات ببغداد كانت تقوم مقام دواوين للدولة .

ولم تصل الإدارة فى الدولة الاسلامية إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الدواوين بدقة ، ومن هذه الدواوين : ديوان الجيش ، وديوان النفقات فى بغداد وينظر فى حاجات دار الخلافة ، وديوان بيت المال ، وهو فى بغداد ، ويشرف على ما يرد على بيت المال من الأموال وما يخرج من ذلك من وجوه النفقات والاطلاقات ، وديوان المصادرين ، وديوان الرسائل ، وكان يسمى فى مصر فى عهد الفاطميين ديوان الإنشاء والمراسلات ، وديوان البريد ، وديوان التوقيع وإليه تقدم رقاع أصحاب الحاجات ، وديوان الخاتم ، وديوان الفض حيث تفض الكتب الواردة من الأمراء والعمال إلى الخليفة ، وديوان الجهبذة ، ويجرى فيه من الأموال مال الكسور والكفاية والوقاية وما يجرى مجرى ذلك من توابع أصول الأموال وديوان البر والصدقات [٢] .

---

(١) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٨٩ .

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ١٢٥ — ١٣١ .

ومما ذكر ابن الصابىء [١] نرى أن أصحاب الدواوين كانوا ثلاث طبقات : الطبقة الأولى والطبقة الثانية ، والطبقة الثالثة .

وفى عهد الفاطميين بمصر كانت هناك عدة دواوين على رأس كل منها موظف كبير . ومن هذه الدواوين : ديوان الجيش ، وكانت تعرض على صاحبه شئون الأجناد وخيولهم وما إلى ذلك ، وديوان الكسوة والطراز ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأقلام ، وديوان الأحباس ويشبه وزارة الأوقاف اليوم،وديوان الرواتب ، ويعد صاحبه استمارات الرواتب ويعرضها فى كل سنة على الخليفة [٢] .

وكان عدد الموظفين فى أيام الفاطميين كبيراً . منهم صاحب الباب،وحامل مظلة الخليفة وصاحب الرسالة ويحمل كتاب الخليفة إلى الوزير وغيره من كبار الموظفين،وصاحب بيت المال وهو أشبه بوزير المالية الآن ، وقاضى القضاة ، وينظر فى الأحكام الشرعية وعلى دور السكة وضبط عيارها . ويلى قاضى القضاة فى الرتبة داعى الدعاة ، ويقوم بنشر الدعوة الفاطمية فى المساجد ودار العلم ، والمحتسب ، وله النظر فى الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل واستيفاء الديون والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة ، ومن كبار الموظفين فى العهد الفاطمى وكيل بيت المال ، ونائب صاحب الباب . ويستقبل سفراء الدول وينزلهم فى الأماكن اللائقة بهم ، ويرتب القراء الذين يقرءون القرآن بحضرة الخليفة ويعرفون بقراء الحضرة [٣] .

(ج) البريد :

كان البريد فى العصر العباسى الثانى من مصالح الخاصة ، وكان صاحب البريد يراقب العمال ويتجسس على الأعداء ، ويقوم بالإعمال التى يقوم بها رئيس قلم المخابرات فى وزارة الدفاع الآن ، وكانت مهمته أول الأمر توصيل أخبار الولاة والعمال إلى الخليفة ،ثم توسعوا فى هذا العمل حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة ينقل أوامره إلى ولاته وعماله كما ينقل أخبار هؤلاء إليه [٤] .

---

(١) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٥٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٩٥ .

(٣) كتاب النظم الاسلامية للمؤلف ص ٢١٠ — ٢١١ .

(٤) Von kremet : Orient under the Caljphs p, 233 seq.

وقد ذكر قدامة بن جعفر [١] الشروط التى يجب أن تتوافر فى صاحب البريد فقال : « يجب أن يكون ثقة، إما فى نفسه أوعند الخليفة القائم بالأمر فى وقته، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافى المتصفح [٢]، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ (المحترز) ولا غنى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه [٣] مالا يحتاج فى الرجوع فيه إلى غيره ، وما إن سأله عنه الخليفة وقت الحاجة إلى شخوصه وإنفاذ جيش يهمه أمره وغير ذلك مما تدعو الضرورة إلى علم الطرق بسببه ، وجد عتيداً [٤] عنده ومضبوطا قبله ، ولم يحتج إلى تكلف عمله والمساءلة عنه » .

وكان الخلفاء العباسيون يكتبون لصاحب البريد عند توليته عهداً يرسمون له فيه الطريقة التى يجب أن يسير عليها . فقد ذكر قدامة بن جعفر [٥] أنه يجب على صاحب البريد « أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجرى عليهم أمرهم ، ويتبع ذلك شافياً ، ويستشفه استشفافا بليغا [٦] ، وينهيه [٧] على حقه وصدقه وأن يعرف حال عمارة البلاد وماهى عليه من الكمال والاختلال ، ومايجرى فى أمور الرعية ، فيما يعاملون به من الإنصاف والجور والرفق والعسف ، فيكتب به مشروحا . . . وأن يعرف ما عليه الحكام فى حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم . . . وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق ، وما يلزمه الموردون من السكلف [٨] والمؤن ، ويكتب بذلك على حقه وصدقه وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجرى فيه ، ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته ، وأن يكون ما ينهيه من الأخبار شيئاً يثق بصحته . . وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط فى عمله [٩] ، ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم ، وعدد السكك فى جميع عمله وأميالها ومواضعها ، ويوعز إلى هؤلاء المرتبين بتعجيل الخرائط

---

(١) كتاب الخراج وصنعة الكتابة ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٢) تصفح الكلام بحث فيه وتأمله ، والكافى هو الجدير بالشىء الحسن التقدير له ، ثم أطلق على ما نسميه الآن « الموظف » .

(٣) أى من المعرفة بحال الطرق . (٤) أى حاضراً من غير بحث وسؤال .

(٥) راجع كتاب آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ترجمة أبى ريدة ج ١ ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(٦) أى يبذل أقصى الجهد للوقوف على حقيقة أمره .

(٧) يوصله إلى دار الخلافة .

(٨) ما يكلفونه .

(٩) أى حمل الخريطة وهى الحقيبة التى تحوى الرسائل .

المنفذة على أيديهم ، وإلى الموقعين بإثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات التى سبيله أن يرد السكة فيها [١] ، وأن يفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كتبا بأعيانها ، فيفرد لأخبار القضاة وعمال المعاون والأحداث ، والخراج والضياع وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتبا يجرى كل كتاب فى موضعه [٢] .

وبلغ نظام البريد فى عهد بنى بويه مبلغاً عظيما من الدقة والسرعة حتى كانت بواكير الفواكه تصل إلى قصور السلاطين طرية سليمة . وكانت الدولة توقع أشد العقوبة بكل من يتوانى فى أداء واجبه من موظفى البريد ، كما كانت المراسلات البريدية تفض فى حضرة السلطان ، فيأخذ منها الرسائل الهامة ، ويرسل سائر الرسائل إلى ديوان البريد فيوزع على أربابها ، وقد ذكر أبوشجاع [٣] أن الرسائل كانت تقرأ على عضد الدولة أكثر من مرة ، فيرد عليها بنفسه أو يأمر كتابه بالرد عليها . ثم تعرض هذه الردود عليه . فربما زاد فيها أو نقص منها . ثم تصلح وتختم وتجعل فى أسكدارها [٤] وتحمل إلى ديوان البريد فتصدر فى وقتها .

وبلغ من عناية عضد الدولة بالبريد أنه «إذا ترحل النهار . سأل عن ورود النوب المترددة بالكتب . ولها وقت معلوم تصل فيه وتراعى من ساعات النهار ، فإن اتفق أن تأخر ، قامت القيامة ووقع البحث عن العارض العائق ، فإن كان بعائق ظاهر فيه عذر قبل ، أو عن أمر يحتاج إلى إزالته أزيل ؛ أو من تقصير النوبيين أنزل العذاب بهم . وذكر بعض الطراد [٥] أن أحد المرتبين قالت له امرأته : قد طبخنا أرزاً فتوقف لتأكل منه وتمضى ؛ فتوقف بقدر ما أكل . وتأخرت النوبة ذلك المدى . فضرب الطراد والمرتبون مابين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاثة آلاف عصا . لا جرم أن النوب كانت تصل من شيراز فى سبعة أيام . وكان يحمل مع المرتبين بواكير الفواكه والمشموم من نواحى فارس وخوزستان فتصل طرية سليمة [٦] .

---

(١) أى التى يجب عليه أن يجاوزها .

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ترجمة أبى ريدة ، ج ١ ص ١٢٩ ، نقلا عن كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ، مخطوط باريس ، ورقة ١٨ ب — ١٩ ب . ويرجع تاريخ هذا العهد إلى سنة ٣١٥ هـ أى إلى عهد الخليفة المقتدر.

(٣) ذيل تجارب الأمم ج ٣ ص ٤٠ — ٤١ .

(٤) الأسكدار ، مثلث الهمزة مضموم الكاف : لفظة فارسية معناها المدرج (القائمة) الذى يكتب فيه عدد خرائط البريد والكتب الواردة والنافذة وأسامى أربابها — أنظر مفاتيح العلوم للخوارزمى ، ومعجم الألفاظ الفارسية لاشتينجاس .

(٥) هم أشياء المفتشين على حاملى البريد .

(٦) أبوشجاع ج ٣ ص ٤٠ .

وكان العباسيون يستعملون البغال فى بلاد الديلم ، ويقيسون المسافات فى البلاد الواقعة غربى الفرات بالأميال (١) ، وفى البلاد الواقعة شرقى هذا النهر بالفراسخ (٢) .

وللبريد محطات تسمى السكك ، وكانت تزود بالخيل وراكبها فى كل سكة من سكك البريد على بعد ثلاثة أميال أو ستة ، وكانت طرق البريد منتشرة فى المشرق والمغرب ، ومن أهمها :

١ — من بغداد إلى القيروان بحذاء دجلة ، ويمر بالموصل وسنجار وبلد بحذاء دجلة ، ثم يخترق أرض الجزيرة إلى سنجار ونصيبين والرقة ومنبج وحلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية والرملة والقاهرة والإسكندرية والقيروان (٣) .

٢ — من بغداد إلى الشام عن طريق الضفة الغربية للفرات ، ماراً بالأنبار وهيت ودمشق .

٣ — من بغداد إلى المشرق ويمر بحلوان وهمذان والرى ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند ، إلى أن يصل إلى الصين، ومن مرو يبدأ طريق آخر يمر فى أواسط بلاد خراسان حتى يصل إلى مرو الروذ والطالقان ، ثم يخترق نهر جيحون بالقرب من ترمذ حتى يصل إلى فرغانة (٤) ،

وكانت الحكومة العباسية تنقل البريد فى أثناء الحرب بالجمازات (٥) والجمازة شبه محفة على عجلة تجرها الخيول السريعة، فلما عزم الفاطميون على غزو مصر سنة ٣٠١ استعمل على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر الجمازات من بغداد إلى مصر ليقف على حقيقة الحال فى كل يوم وفى ذلك يقول عريب بن سعد القرطبى (٦) : وخلع على مؤنس فى شهر ربيع الأول سنة ٣٠٢، وخرج متوجهاً إلى مصر ، وتقدم على بن عيسى الوزير بترتيب الجمازات من مصر إلى

---

(١) هذا اللفظ مأخوذ من اليونانية التى كان لها تأثير كبير فى البلاد الواقعة غربى الفرات.

(٢) الفرسخ ثلاثة أميال ، ويظهر أن الفرس لم يستعملوا الأميال .

(٣) قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ص ٢٢٧ — ٢٢٩.

(٤) آدم متز الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٤٩ — ٣٥٣ .

(٥) جمز الانسان يجمز : عدا مسرعا ، وبعير جماز : وثاب . الجمازة هنا من المحامل . وهى أشبه بالعربة التى تجرها الخيل السريعة فى زماننا ، وكان يركبها عمال البريد ، ورجال الحرب ، وأمثالهم ممن يتطلب عملهم السرعة (أنظر تاج العروس) .

(٦) صلة تاريخ الطبرى : ذيل كتاب الطبرى جـ ١٢ ص ٢٨ .

بغداد ليروح عليه الأخبار فى كل يوم ، فورد الخبر بأن جيش عبيد الله الخارج مع ابنه ومع قائده حباسة انهزموا ، وبشر على بن عيسى بذلك المقتدر ، فتصدق فى يومه بمائة ألف درهم ، ووصل على بن عيسى بمال عظيم » .

وكذلك كان لبنى بويه أثر كبير فى ترقية البريد . فقد أدخل معز الدولة نظام السعاة : وكان يقال لهم الفيوج ، وهم طائفة من موظفى البريد يتخصصون فى نقل البريد السريع من مكان إلى آخر واستمال معز الدولة هؤلاء السعاة بالأرزاق والجرايات الكثيرة حتى رغب الشبان فى هذه الحرفة . وأقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم إلى معز الدولة لتدريبهم .

وكان يقام على رأس كل فرسخ حصن . وقد عدل الأمراء فيما بعد عن اتخاذ الخيل فى البريد ، واستعملوا الجمازات بدلا عنها ، حتى إننا نجد ابن العميد يتخذ الجمازات عندما أراد اللحاق بسيده ركن الدولة فى فارس سنة ٣٦٤ هـ (١)

أما استعمال النار فى الإشارة كوسيلة من وسائل المراسلة ، فلم يكن معروفا عند المسلمين إلا فى البلاد التى كانت تابعة للدولة البيزنطية التى كانت تستعملها من قبل ، وأما فى سائر بلاد الإسلام فإنها لم تستعمل ، وإنما استخدمت استخداماً حسناً فى القرن الثالث الهجرى على الساحل الإفريقى الشمالى ، حتى كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبتة فى ليلة واحدة ، ومن طرابلس إلى الاسكندرية فى ثلاث ساعات . ولم يبطل هذا النظام إلا فى سنة ٤٤٠ هـ حينما أثار المعز بن باديس الفتن فى المغرب فى وجه الفاطميين ، الذين لم يعودو يستطيعون حماية الحصون من البدو (٢) .

وكذلك اعتمد العباسيون على حمام الزاجل فى نقل الرسائل . وراج هذا النوع من البريد عند فرق الباطنية . وخاصة الإسماعيلية . فقد استعان عبدالله بن ميمون بالطيور فى نقل الأخبار إلى أنصاره (٣) . كما استعان حمدان قرمط مؤسس مذهب القرامطة فى العراق وابن حوشب فى بلاد اليمن . وأبوعبدالله الشيعى فى المغرب . وكذلك عامة دعاة الإسماعيلية فى فارس .

وذكر عريب بن سعد (٤) أن القرامطة لما دخلوا البصرة أخبروا الناس بتولية ابن الفرات

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٣٥ .

(٢) الأمير شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٢٣٤ .

(٤) صلة تاريخ الطبرى ص ٥٧ .

الوزارة وعزل حامد بن العباس قبل وصول الخبر إلى البصرة بأربعة أيام ، مستعينين فى ذلك بالحمام الذى أتاهم بهذا الخبر من وقته ، وذكر مسكويه [١] عند كلامه عن حوادث سنة ٣٢٨ هـ أن البريديين كانوا يستخدمون الحمام فى البريد ، وكذلك كان بجكم ، وأن طائراً سقط « فصاده غلمان بجكم وجاءوا به إلى مولاهم ، فوجد على ذنبه كتابا فقرىء ، فإذا هو « كتاب من كاتبه هذا إلى أخيه بخطه يعرفه فيه انحدار بجكم ومن أنفذ على الظهر من الجيش [٢] ، وسائر أسراره وعزائمه ، فلما وقف عليه بجكم عجب واغتاظ ، وأحضر هذا الكاتب ورمى إليه بالكتاب ، فسقط فى يده ، ولم يمكنه جحده لأنه بخطه المعروف ، فاعترف به ، فأمر به فرمى بالزوبينات بحضرته إلى أن قتله ورمى به فى الماء » .

وكان البريد من الوسائل التى تذرع بها أحمد بن طولون فى مناوأة الخلافة العباسية ، فقد استطاع أن يعين أحد المقربين إليه عاملا للبريد فى حاضرة الدولة العباسية ليكون عينا له ، يوافيه بما يجرى فى العراق وبما يحيكه له أعداؤه من مؤامرات فى هذه البلاد ، واستطاع ابن طولون بفضل هذا العامل أن يكشف عن نيات منافسيه فى مصر الذين كانوا يشون به عند الخليفة ويطهر البلاد منهم ، واطمأن بفضل هذه الجاسوسية التى أقامها فى بغداد على مركزه فى مصر .

ولما وقع الخلاف بين أحمد بن طولون وأبى أحمد الموفق طلحة أخى الخليفة العباسى المعتمد ، وعمل هذا على صرف ابن طولون عن مصر ، وألب القواد عليه ، أخبر عامل البريد ، ابن طولون بهذا ، فاحتاط لنفسه وأحبط هذه المؤامرة [٣] .

وكان لطرق البريد أثر كبير فى تيسير انتقال قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد ابن طولون إلى العراق عند زواجها من الخليفة المعتضد ، وقد أمر خمارويه عمال بريد مصر بإعداد الطريق بين القطائع وبغداد فبنوا لها على رأس كل مرحلة قصراً تنزل فيه .

ومما ذكره أبو المحاسن [٤] نرى أنه كان يضطلع بأعباء البريد سنة ٢٩٢ هـ شخص يدعى شفيعاً اللؤلؤى ، ويلقبه هذا المؤرخ بصاحب البريد ، ولا نعرف كثيراً عن إدارة البريد فى عهد الإخشيديين ولا فى عهد الفاطميين ، اللهم إلا ما كان من اعتمادهم على حمام الزاجل ،

---

(١) تجارب الأمم جـ ١ ص ٤١٢ ـ ٤١٤ .
(٢) الظهر ما يحمل عليه الجنود من خيل وغيرها .
(٣) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .
(٤) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٨ .

فقد ذكر القلقشندى [١] أن الفاطميين اهتموا بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل ، « وحافظ عليه (الحمام) الخلفاء الفاطميون ، وبالغوا حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام » .

(د) الشرطة :

ذكرنا من قبل [٢] أن نظام الشرطة من النظم الإدارية الهامة ، وأن صاحبها كان يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة ، وأنه أشبه بالمحافظ فى هذا العصر ، إذ يتولى الجند الذين يعملون على استتبات الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وقد حدد ابن خلدون المهام التى يضطلع بها صاحب الشرطة فى هذه العبارة فقال :

« وكان أصل وضعها فى الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم فى حال استبرائها [٣] أولا ، ثم الحدود بعد استيفائها ، فإن التهم التى تعرض فى الجرائم لا نظر للشرع إلا فى استيفاء حدودها ، وللسياسة النظر فى استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة فى ذلك . فكان الذى يقوم بهذا الاستبراء وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضى يسمى صاحب الشرطة . وربما جعلوا إليه النظر فى الحدود والدماء بإطلاق ، وأفردوها من نظر القاضى ، ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ، ولم تكن عامة التنفيذ من طبقات الناس . إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرتب والضرب على أيدى الدعار [٤] والفجرة . . وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة ترشيحاً للوزارة والحجابة » .

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٩٠ .

(٢) ص ٢١٨ ــ ٢١٩ من الجزء الثانى من هذا الكتاب .

(٣) كذا فى مخطوطة المكتبة الزكية رقم ١٠١٦ المحفوظة بدار الكتب المصرية ، وعليها خط المؤلف ، وكذا فى المخطوطتين رقمى جـ ٨٠٤٥ و ٢١٠٦ المحفوظتين بالدار أيضا : استبرائها ، وهو الصواب . ومعناه استقصاء الأمر وطلب آخره دفعا للشبهة ، كما فى تاج العروس . والمراد بذلك التحقيقات الأولى التى يجريها ضابط البوليس ينتهى الدقة ويدونها فى المحاضر الخاصة . ثم يسلمها بعد ذلك إلى السلطة القضائية . وفى نسخة المقدمة طبع بيروت ص ٢١٨ ــ ٢١٩ وكذا فى جميع طبعات القاهرة : « استبدائها » وهو تحريف لما أثبتناه .

(٤) كذا فى المخطوطات الثلاث المشار إليها فى الحاشية قبل هذه وفى جميع النسخ المطبوعة ببيروت والقاهرة « الرعاع » وهو تحريف لما أثبتناه .

وكانت الدولة العباسية تتخذ فى كل مدينة من المدن جماعة من الجند تخضع لرئيس منهم ينوب عن صاحب الشرطة الذى كان يتخذ مقره فى حاضرة الدولة أو الولاية . ويضطلع هؤلاء بحفظ الأمن وإقرار النظام وتنفيذ أحكام القضاة والمحتسبين ، كما كانوا يقومون بالعس فى الليل تحت إشراف رؤسائهم من الضباط . وكانت الدولة تنفق عن سعة على رجال الشرطة ، فتمنحهم الرواتب الكبيرة ، حتى كان منصب رئيس شرطة بغداد لا يقل عن منصب الوالى (١) ، كما كانت الحكومة المركزية فى حاضرة الدولة أو الولاية تعتمد على صاحب الشرطة فى إقرار الأمن وحفظ النظام (٢) . وكانت الشرطة تابعة للقضاء فى أول الأمر ، يتولى صاحبها إقامة الحدود من القبض على المجرمين . وتنفيذ أحكام القضاء ، إلا أنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء ، حتى استقل صاحب الشرطة بالنظر فى الجرائم . وكان أمر تولية صاحب الشرطة فى الولاية وعزله من اختصاص الوالى لا الخليفة .

ولما فتح العرب مصر كانت الشرطة فى مدينة الفسطاط . ولما تأسست مدينة العسكر سنة ١٣٢ هـ أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على دار الشرطة فى الفسطاط دار الشرطة السفلى ، وانقسمت الشرطة بذلك قسمين :

١ — الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط .

٢ — والشرطة العليا ومقرها العسكر . وربما سميت بهذا الاسم لأن مكان العسكر (جبل يشكر وطولون) يقع شمالى الفسطاط . ومن ثم سميت الشرطة العليا (٣) . ولما فتح جوهر الصقلى مصر نقل الشرطة العليا من العسكر إلى القاهرة . وذكر ابن دقماق (٤) أن صاحب الشرطة توفى فى نفس اليوم الذى وصل فيه جوهر إلى مصر ، فأسند عمله إلى جبر ، وبقيت دار الشرطة السفلى فى الفسطاط وتقلدها عروبة بن إبراهيم وشبل المعرضى (٥)

وكانت الشرطة فى بلاد الأندلس على نوعين : شرطة كبرى ، وشرطة صغرى . ويقول ابن خلدون (٦) فى بيان اختصاص كل من الشرطتين مانصه :

---

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ص ٢٦٠ — ٣٦١ .

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٣٣ .

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٥ . (٤) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ١١ .

(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٥ . أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ١٨٢

(٦) أنظر ص ٢٤٩ من مقدمة ابن خلدون المخطوطة بالمكتبة الزكية المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٠١٦ وعليها خط المؤلف .

ثم عظمت نباهتها فى دولة بنى أمية بالأندلس، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء، وجعل له [١] الحكم على أهل المراتب السلطانية، والضرب على أيديهم فى الظلامات، وعلى أيدى أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه. وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة، ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب دار السلطان، رحل [٢] يتبوءون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا فى تصريفه».

ولما اعتلى عبد الرحمن الناصر العرش ابتدع نوعا ثالثا للشرطة، أطلق عليه الشرطة الوسطى. ويظهر أن صاحبها اختص بالنظر فى جرائم الطبقة الوسطى. وهم أعيان التجار وأصحاب المصانع وأصحاب المهن الراقية كالأساتذة والأطباء ومن فى طبقتهم، وأسند هذا المنصب إلى سعيد بن سعيد بن جدير [٣]: ويقول المقرى [٤] عن الشرطة فى الأندلس: «وأما خطة الشرطة بالأندلس فانها مضبوطة إلى الآن معروفة بهذه السمة. ويعرف صاحبها فى ألسن العامة بصاحب المدينة، وصاحب الليل. وإذا كان عظيم القدر عند السلطان، الأعظم، وهو الذى يحد على الزنا وشرب الخمر. وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه، قد صارت تلك عادة تقرر عليها القاضى؛ وكانت خطة القاضى أوقر وأتقى عندهم من ذلك» [٥].

ولا يختلف نظام العسس فى الأندلس عنه فى المشرق إلا فى التسمية، حيث عرف العسس فى الأندلس بالدرابين، «لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة [٦]

---

(١) كذا فى نسخ المقدمة المطبوعة فى بيروت ومصر ومخطوطة المكتبة الزكية التى سبقت الإشارة إليها. وليس فى الكلام مرجع للضمير فى (له). ويظهر أنه يعود على صاحب الشرطة الكبرى وهو مفهوم من السياق ومن هذا أو مابعده يظهر أن صاحب الشرطة الكبرى أوسع اختصاصا من صاحب الشرطة الصغرى. فللأول:

(ا) الحكم على الخاصة والدهماء (ب) الحكم على أهل المراتب السلطانية وأقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه. أما صاحب الشرطة الصغرى فليس له حكم إلا على العامة، وهم الدهماء.

(٢) كذا فى المخطوطات الثلاث المحفوظة بدار الكتب المصرية من مقدمة ابن خلدون. والرجل: اسم جمع لراجل، وهم الرجالة أيضا، وفى النسخ المطبوعة «رجال».

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ٢ ص ٢١٢.

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣

(٥) كان صاحب الشرطة فى الدولة العباسية وفى الأندلس وفى عهد الفاطميين فى المغرب ومصر ينظر فى الجرائم ويقيم الحدود (راجع مقدمة ابن خلدون ص ١٩٣).

(٦) أى بعد صلاة العشاء.

ولكل زقاق باثت فيه [١] له سراج معلق وكلب يسهر ، وسلاح معد ،وذلك لشطارة [٢] عامتها وكثرة شرهم »[٣] .

٣ — النظام الحربى

(١) الجيش

١ — فى الدولة العباسية :

كان الجيش فى عهد الرسول وفى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين يتألف من العنصر العربى . وقد اعتمد العباسيون على الفرس فى إقامة دولتهم ؛ ومن ثم أصبح للعنصر الفارسى أثر ملحوظ فى الجيش . ولما ولى المعتصم الخلافة اعتمد على الأتراك ، لأن أمه كانت تركية فولاهم حراسة قصره ، وآثرهم على الفرس والعرب ، ومحا أسماء العرب من ديوان العطاء وزاد اعتماده على الأتراك حتى أربى عددهم على السبعين ألفا . ومن ثم ازداد نفوذ هذا العنصر التركى حتى أصبح خطرا يهدد حياة الخلفاء أنفسهم . وأصبح بيد هؤلاء القواد من من الأتراك تولية الخليفة وعزله وسمل عينيه وقتله ، فنجد المتوكل يذهب ضحية تآمر هؤلاء الأتراك عليه ويتبعه ابنه المنتصر الذى دس له الأتراك السم على يد طبيبه . وقد عبث هؤلاء الأتراك بهيبة الخلافة بقتلهم الخليفة المعتز وتمثيلهم به وتعذيبهم الخليفة المهتدى حتى مات .

ولم يلبث أن اندمج فى الجيش العباسى عناصر أخرى من غير الأتراك . وكان جميع هؤلاء الجند من المرتزقة ؛ لاهم لهم إلا جمع المال ، وإثارة الفوضى والقلاقل ، إذا تأخر دفع رواتبهم . كما أنهم كانوا ينضمون إلى كبار القواد إذا أجزلوا لهم العطاء .وكان الجيش فى عهد المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) يتألف من الأتراك والمغاربة والفراغنة ، كما يظهر من هذه الأبيات التى نظمها أحمد بن الحارث اليمامى فى وصف ثورة القواد على هذا الخليفة حيث يقول :

وأقبلت الترك والمغربون وجاء الفراغنة الدارعونا
تسير كراديسهم[٤] فى السلاح يروحون خيلا ورجلا تبينا

---

(١) بواب يعرف أهل الزقاق ويفتح لهم الباب .
(٢) الشاطر الخبيث
(٣) المقرى : نفح الطيب ج١ ص ١٠٣ .
(٤) جمع كردوسة وهى قطعة عظيمة من الخيل .

فقام بحربهم عالم بأمر الحروب تولاه حينا
فجدد سوراً على الجانبين حتى أحاطهم أجمعينا
وأحكم أبوابها المصمتات ألوف ألوف إذ تحسبونا[١]

وقد عمل بعض الخلفاء على التخلص من قواد الأتراك ،فاستعانوا ببعض فرق المرتزقة[٢] من العناصر الأخرى . فنرى المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) يصطنع المغاربة والفراغنة دون الأتراك . وكان ذلك سببا فى قتل هذا الخليفة على أيدى الأتراك . وكذلك كان الخلفاء العباسيون وبعض القواد يستعينون بالعناصر الأجنبية المعادية للدولة نفسها . من ذلك أن الخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) استعان بالقرامطة وأدخلهم فى صفوف جيشه ولم يسلم هو من أذاهم ، إذ ثاروا عليه وانضموا إلى ابن رائق الذى عمل على الاستئثار بالنفوذ دونه . « واستحاش بألف من القرامطة وجاء بهم إلى بغداد فأكثروا فيها الفساد[٣] ». وكان هؤلاء المرتزقة من القرامطة ينضمون إلى ابن رائق تارة وإلى أعدائه تارة أخرى . ويصبحون شرا مستطيرا على الدولة . ولا غرو . فقد حارب هؤلاء القرامطة فى صفوف ابن رائق ضد البريدى تارة[٤] ، كما حاربوا فى صفوف أبى عبد الله البريدى تارة أخرى . فأمد أبو طاهر الجنابى القرمطى أبا عبد الله البريدى بجيش للاستيلاء على البصرة ، كما عاونه على الخليفة المتقى سنة ٣٣٠هـ . ولم يكتف البريدى بالقرامطة بل « كان معه الأكراد والديلم والقرامطة »[٥] .

ولما استبد بنو بويه بالنفوذ فى الدولة العباسية منذ سنة ٣٣٤ هـ ، قامت المنافسة بين الأتراك الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من الجند ، ويتمتعون بنفوذ كبير منذ عهد المعتصم ، وبين الديلم الذين ينتسب البويهيين إليهم ، والذين اعتمدوا عليهم فى إقرار سلطانهم فى البلاد ، وقد شعر معز الدولة بذلك فأوصى ابنه بختيار بمداراة الديلم والتودد إلى الأتراك[٦] وقد أخذ سلاطين بنى بويه يتقربون إلى الأتراك تارة وإلى الديلم تارة أخرى : فنرى بختيار

---

(١) الطبرى ج ١١ ص ٩٧ . أنظر هذا الكتاب ص ٢٣ — ٢٤ .

(٢) كان الجيش يتألف من قسمين : مرتزقة وهم الذين يتناولون الرواتب من الدولة ، ومتطوعة وهم الذين ينتظمون فى الجيش كلما دعا داعى الجهاد ، ويتناولون أرزاقهم فى مدة تطوعهم فقط ، وتمنح أسراتهم مخصصات عينية أو نقدية .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١١ ص ١٨٩ .

(٤) ابو بكر الصولى : اخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٢٣ .

(٥) الذهبى : تاريخ الإسلام ، مخطوط ج ٣ ورقة ١٣٦ .

(٦) انظر هذا الكتاب ص ٦٥ .

يخشى الأتراك . فيتقرب إليهم ويعتصم بهم ويثير بذلك حنق الديلم عليه . على أن هؤلاء الأتراك لم يلبثوا أن عزلوا بختيار سنة ٣٦٤ هـ بإيعاز ابن عمه عضد الدولة ولولا تدخل ركن الدولة أبى عضد الدولة لآلت سلطنة العراق إلى عضد الدولة منذ ذلك الحين [١] . وكان الجيش فى عصر بنى بويه يتألف من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراغنة والمغاربة وغيرهم من المرتزقة . وقد ذكر أبوشجاع[٢] أنه كان للجيش فى عصر عضد الدولة عارضان قائدان للجيش : أحدهما للديلم والآخر للأتراك والأعراب والأكراد . ويظهر أن المغاربة والفراغنة كانوا هم وغيرهم من المرتزقة تحت إمرة هذا القائد الثانى .

وكان للجيش ديوان خاص به ، ولهذا الديوان مجلسان هما : مجلس التقرير وينظر فى تقدير رواتب الجند وأوقات دفعها إليهم ، ومجلس المقابلة ويختص بالإشراف على سجلات الجند ومراجعة أسمائهم . وينقسم كل من هذين المجلسين إلى أقسام معينة من الجند كجند الخاصة وجند الخدمة العسكرية وجند الولايات (٣).

وكان الجيش يتكون من عدة فرق : المرتزقة والمتطوعة : وتتألف المرتزقة من المشاة أو الحربية ويتسلحون بالرماح والسيوف والحراب والتروس، والرماة ويتسلحون بالسيوف والأقواس والتروس والنشاب ، ويلبسون الخوذ لتقى رءوسهم والدروع لتقى صدورهم ، ولها أجزاء للساعدين والساقين. ولكل فرقة منها فصيلة لقذف النفط يعرف رجالها بالنفاطين. ويرتدون الملابس التى لاتؤثر فيها النيران لافتحام الحصون المشتعلة ، وفصيلة أخرى من المعماريين يحملون المعاول بجانب السيوف والتروس .

وعلى رأس كل عشرة آلاف جندى « أمير » ، وعلى رأس كل ألف « قائد » وعلى كل مائة « نقيب » ، وعلى كل عشرة « عريف ». ويختلف لباس الجند باختلاف الفرق والأسلحة. ولما ولى المتوكل الخلافة أمر الجند بتغيير زيهم القديم ، وألبسهم أكسية رمادية ، وأمرهم بألا يجعلوا السيوف على أعناقهم ، بل يتمنطقون بها حول وسطهم [٤] مقلدين فى ذلك الفرس .

---

(١) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٢) ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه ج ٣ ص ٤٠ .

(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ١٢٥، نقلا عن كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ، مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ورقة ١٢ — ب .

(٤) النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٣٥ .

وهناك حرس الخليفة « وجنود المنزل » ، ويعهد إليهم بأعمال أقل أهمية مما يقوم به حرس الخليفة . وقد أطلق عليهم فيما بعد اسم « الجاندار » . وهناك أيضا جماعة من الغلمان يتلقون علومهم فى البلاط ويتدربون على الفنون الحربية ، ثم يعينون « مرافقين » إذا بلغوا سن الرشد ، ويعيشون فى حجرات منفصلة عن ثكنات فرق الجيش. ومن ثم أطلق عليهم الحجرية ، لتمييزهم عن الفرق الأخرى كالساجية الذين ينتسبون إلى ابن أبى الساج وغيرها .

وكان العباسيون يستخدمون جماعة من المهندسين يعرفون بالمنجنيقيين، ويعرف رئيسهم باسم أمير المنجنيقيين . ومن أشهر هؤلاء يعقوب بن صابر الذى وضع فى الهندسة الحربية كتابا سماه « عمدة المسالك فى سياسة الممالك » عالج فيه كل ناحية من نواحى الحرب ، كالتعبئة والاستيلاء على الحصون، وتشييد القلاع، والفروسية والهندسة والحصار ،وتركيب الآلات الحربية، وصفات الخيل والفرسان وأنواعهم. وكذلك كان الجيش يزود بمستشفيات الميدان ، فتحمل الجرحى والمرضى على محفات تحملها الجمال (١) .

وقد عنى العباسيون بالجاسوسية فى الجيش ، واستخدموا فى ذلك كلا من الجنسين الرجال والنساء، الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة، متنكرين فى أزياء التجار والأطباء وغيرهم ، لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم . ولم تكن الجاسوسية العربية أكثر نشاطا ولا أعم انتشارا فى بلد من البلاد منها فى الدولة البيزنطية ، التى كانت لا تزال تنافس الدولة العربية والتى كان أهلها فى الماضى أساتذة العرب فى الفنون الحربية .

ولكى يحمى العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم ، وتسمى الثغور (٢) . وهذا ضرب من التدابير الحربية التى تدل على نشاط العرب ، وولعهم بالحروب ، ونبوغهم وكان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى مصدراً للخطر بالنسبة إلى العرب . وقد تحاربت القوتان المتنافستان مدة طويلة ، فكانت كفة النصر ترجح مرة فى

---

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(٢) لما استولى أبو جعفر المنصور على المدن الواقعة على حد سورية المقابل لآسيا الصغرى ، مثل طرسوس وأدنة ومرعش وملطية ، حصنها وأحكم بناءها من جديد ، وأطلق عليها اسم « الثغور » ولما ولى هارون الرشيد الخلافة أنشأ ولاية جديدة سماها « ولاية الثغور » وجعل لها نظاما عسكرياً خاصا ، وأقام بها المعاقل ، وأمدها بحاميات دائمة ، ومنح الجند ، فوق أرزاقهم ، أرضا قاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسراتهم ، فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتصلة ، وأصبحت أحوالها فى يسر ورخاء إلى أيام الواثق ، ثم أخذت بعد ذلك فى الأفول .

أنظر كتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ص ٢٥٢ — ٢٦٩ .

جانب العرب وأخرى فى جانب الروم. ولذلك كانت هذه الثغور تقع طورا فى أيدى العرب وطورا فى أيدى البيزنطيين .

وكانت صلاحية الجند للخدمة العسكرية تقرر بعد اختبار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد . فقد ذكر هلال بن الصابىء [١] طريقة هذا الاختبار وتقدير مراتب النجاح أو الرسوب فى هذه العبارة فقال :

« ويقف القواد والغلمان بين يديه (يعنى المعتضد) فى الميدان، ويجلس كتاب العطاء أسفل بحيث لايراهم . ويتقدم القائد ومعه جريدة بأسماء أصحابه وأرزاقهم ، فيأخذها خادم منه ويصعد بها إلى المعتضد بالله ، ويدعو عبيد الله بن سليمان بواحد واحد ممن فيها، فيدخل الميدان ، ويمتحن على البرجاص [٢] . فان كان يرمى رميا جيدا وهو متمكن من نفسه ومستقر فى سرجه ومصيب أو مقارب فى رميه ، علم على اسمه « ج » وهى علامة الجيد ، ومن كان دون ذلك علم على اسمه « ط » ، وهى علامة « المتوسط » ، ومن كان متخلفا لايحسن أن يركب فرسه أو يرمى هدفه علم على اسمه « د »، وهى العلامة الدون. ثم يحمل بعد العرض والامتحان إلى كتاب الجيش ليتأملوا حليته ويقابلوا بها ماعندهم من صفاته لئلا يكون دخيلا أو بديلا » .

وكان الجيش فى وقت القتال يتألف من خمسة أقسام : هى القلب ، وهو مركز القائد العام ، والميمنة ، والميسرة ، والطليعة ، والساقة . وكانت تتقدم الجيش الطليعة وهى سرية من الفرسان يلبسون الدروع اللامعة والخوذ الفولاذية ويحملون الرماح . ويقول سيد أمير على [٣] :

« ومما لاشك فيه أن منظر الجيش العربى ، وهو يشق طريقه فى صفوف لانهاية لها فى بلاد الأعداء ، قد بلغ حد العظمة والبهاء . فكان الفرسان يسيرون فى المقدمة ، وعلى جانبيهم حملة النبال . ثم يأتى بعدهم الرجالة الذين كانوا يسيرون فى صفوف متراصة بنظام عجيب ، ويليهم صفوف الجمال المحملة ، والعدد والخيم والعتاد . ثم تأتى بعدهم المستوصفات

---

(١) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٣ ـ ١٤ .
(٢) الهدف يعلق ويرمى فيه .
(٣) مختصر تاريخ العرب ص٣٧٧ .

الصحية والنقالات لحمل المرضى والجرحى ، ثم آلات الحرب كالمنجنيقات والعرادات محمّلة على ظهور الجمال والخيول والبغال وهى تسير فى المؤخرة . أما إذا سار الخليفة أو أحد أفراد الأسرة المالكة على رأس الجيش ، فلا شك فى أن المنظر كان يبدو أكثر روعة وبهاء ، إذ كان جنود الحرس الخلافى يتشحون بالملابس الزاهية ويحملون الأعلام ذات الشعار الملكى المنقوش بالذهب ، كما كان القواد والأمراء يرتدون الملابس الفخمة . وعلى الجملة كان هذا المنظر يبدو فخما رائعا ، وكانت الطليعة حين تصل إلى الموضع المقصود ، تأخذ فى حفر الخنادق ؛ إذ كان نظام الجيش يقضى ألا يعسكر الجند قبل أن يتخذوا الحيطة من الهجوم المفاجىء . فإذا وصل الجيش الرئيسى ، نصبت الخيم فى نظام بديع ، وأقيمت الشوارع والأسواق والميادين كما لو كان المعسكر مدينة عامرة . وكانت توزع الأرزاق ، فتوقد المطابخ ، وتنصب عليها القدور . وبعد تناول العشاء يؤم الخليفة أو قاضى القضاة الجند فى الصلاة ، ثم يجلس الجميع فى حلقات يستمعون إلى أقاصيص الحروب والمخاطرات . أو إلى القصائد الحماسية المصحوبة بصوت الناى . وكانوا لاينامون إلا بعد الهزيع الأول من الليل » .

ويتبين لنا نظام التعبئة مما ذكره محمد بن سليمان الكاتب عن الموقعة التى دارت بينه وبين الحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة فى بلاد الشام سنة ٢٩٢هـ ، ومنها نتبين كيف كانت الجيوش تستخدم الكمين كخدعة من خدع الحرب ، وكيف كانوا يعتمدون على السياط كآلة من آلات الحرب الهامة ، وإلى أى حد بلغ اهتمامهم بفرق الفرسان والرجالة (١) .

٢ — فى مصر :

أما فى مصر فقد اتخذ أحمد بن طولون جندا كثيفا من السودان والنوبيين والروم . وكان بقصره مكان يشرف منه فى يوم عرض الجيش . وكان يخرج من الباب الأوسط ، ويخرج عسكره من البابين الآخرين فى عدد عظيم وفى أتم نظام . وقد قيل إن جيش مصر فى عهد ابن طولون بلغ مائة ألف .

ويتبين مبلغ اهتمام الطولونيين بالجيش من وصف موكب خمارويه عند خروجه للصيد

---

(١) أنظر الملحق الثالث .

أو التنزه أو الاحتفال بأعياد الدولة ومواسمها . وقد بلغ موكب هذا الأمير حد الروعة والبهاء . ويسير فيه أولاد الحوف وشناترة الضياع ، وكانوا من قطاع الطرق ضخام الأجسام المعروفين بالشجاعة والبأس . فأدخلهم خمارويه فى خدمته ، وأدر عليهم الأرزاق والعطايا ، ومنع عن الناس أذاهم ، واتخذهم حرسا له . وكانوا يلبسون الأقبية من الحرير والديباج ، ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة ، ويتقلدون بالسيوف المحلاة . وتسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة يتلوهم ألف من السودان ، لهم درق من حديد محكم الصنعة ، وعليهم الأقبية والعمائم السود ، فيخالهم الناظر بحراً أسود يسير لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم. ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم ، والبيض[1] التى تلمع من تحت العمائم. فإذا مضى السودانيون ، قدم خمارويه وسار منفردا عن موكبه بمقدار نصف غلوة[2] سهم . ويحف به حرسه المختار ، وهو يمتط فرسا ، تكسوه الهيبة ، ويدل مظهره على السطوة وشدة البأس . فإذا سار سار الناس جميعا وبينهم الجند فى صمت عميق كأن على رءوسهم الطير .

وفى عهد الإخشيد كانت مصر آمنة مطمئنة بجيشها الذى بلغ أربعمائة ألف مقاتل، عدا حرسه الخاص وعبيده ومماليكه الذين كان يزخر بهم قصره ، وكانوا إذ ذاك ثمانية آلاف رجل . وأصبح الإخشيد من القوة بحيث يستطيع أن يأمر عماله وقواده بتولية ابنه أنوجور العهد[3] . ولما تولى كافور زمام مصر وما يليها من البلاد بعد وفاة الإخشيد انضم إلى الجيش عدد كبير من السودان[4] .

وقد وجه الفاطميون عنايتهم إلى إعداد جيش قوى يتألف من الأمراء وطوائف الجند. ولكل من هاتين الطبقتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها . وكان يخلع على بعض الأمراء بأطواق الذهب فيحملونها حول أعناقهم، والبعض الآخر يركب فى المواكب بالقضب الفضية. وكان الجيش يتكون من عدة عناصر كالمغاربة والأتراك والأكراد والغز والديلم والسودان. وكان بعض هذه العناصر ينسب إلى الخلفاء : كالحافظية والآمرية ، والبعض الآخر ينسب إلى الوزراء : كالجيوشية والأفضلية .

---

(١) جمع بيضة وهى الخوذة الحديدية .
(٢) رمية .
(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٥٢ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢ .
(٤) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٥٢ .

وقد اهتم الخلفاء الفاطميون بعرض الجيش وتوديع الحملات الحربية ، وخاصة إلى بلاد الشام وفلسطين ، وكان أهلها فى ثورات متصلة على الفاطميين (١) .

(ب) البحرية :

اهتم المسلمون على أثر فتح بلاد الشام ومصر بإنشاء أسطول لحماية سواحل هذه البلاد من غارات البيزنطيين ، ومحاولة فتح القسطنطينية . وقد ظهر ذلك واضحا منذ عهد عثمان ابن عفان وفى عهد الدولة الأموية التى استقرت فى بلاد الشام . على أن انتقال الخلافة إلى العراق أدى إلى جعل مهمة الدفاع عن هذه البلاد من اختصاص ولاتها أنفسهم . وبلغ من اهتمام المسلمين بالبحرية أن سفنهم أصبحت أكبر وأقوى من سفن البيزنطيين ، وكان للمسلمين فى كل مرفأ منار لهداية السفن ، أطلق عليه اسم « الخشب » ، كما كان لكل سفينة حربية قائد أو « مقدم » يرأس من يعمل فيها من الجند ويقوم بتدريبهم وإعداد العدة للحملات البحرية . وإلى جانب هذا القائد موظف آخر يدعى الرئيس يتولى الملاحة فقط . أما القائد العام للأسطول فيدعى « أمير الماء » أو « أمير البحر » الذى اشتق منه الأوربيون لفظ Admiral .

وقد اشتهرت مصر فى العصر الإسلامى بصناعة المراكب النيلية لنقل حاصلات البلاد من مكان إلى آخر ، كما اشتهرت أيضا بصناعة السفن الحربية التى يتكون منها الأسطول المصرى ، والتى كانت تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة البيزنطية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتنيس والفرما .

ويرجع إنشاء « الصناعة » فى مصر إلى هذه الغزوة التى شنها البيزنطيون على البرلس وتكبد فيها المصريون خسائر فادحة ، وما تبع ذلك من استيلائهم على تنيس فى سنة ١٠١ هـ (٧٢٠ م) وعلى دمياط سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٣ م) . وكان من أثر هذه الحملة الأخيرة أن قام عنبسة بن إسحاق (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ) والى مصر فى ذلك الوقت بتحصين سائر الموانى المصرية . كما قام فى الوقت نفسه بإنشاء هذه « الصناعة » التى ظلت موضع عناية ولاة

---

(١) النظم الاسلامية للمؤلف ص ٢٣٩ — ٢٤١ . وسنقف على ترتيب الجند فى عهد الفاطميين من الوصف الذى أورده ناصر خسرو عن الاحتفال بجبر الخليج فى عهد المستنصر فى الباب العاشر من هذا الكتاب .

مصر إلى أن قامت الدولة الطولونية ، وأنشأ فيها أحمد بن طولون أسطولا كبيرا من السفن الحربية . ولكن بقاء «الصناعة» فى هذا المكان أصبح مصدر خطر للبلاد بعد أن أحرقها الثوار فى سنة ٣٢٣ هـ ، ثم استولوا على الأسطول المصرى فى الفيوم واستخدموه فى الهرب إلى الإسكندرية ثم إلى برقة . ومن ثم أمر الإخشيد بنقل دار الصناعة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة أحمد بن طولون (شعبان سنة ٣٢٥ هـ) ، ثم أقام فى موضعها بستانه المعروف « بالمختار » (١) .

ولم تقف جهود الفاطميين عند حد اهتمامهم بتكوين الجيش ، بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين لبلاد الشام التى كانت تابعة لمصر ، واستيلائهم على أمهات مدنها مثل أنطاكية وحلب ، أنهم فى حاجة ماسة إلى أسطول قوى ، فأنشأ المعز لدين الله الفاطمى ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين السفن الحربية فى مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) ، وفى الإسكندرية ودمياط . وكانت تسير بعض وحداتها المرابطة فى الموانى الشامية مثل عكا وصور وعسقلان .

وأنشأ المعز فى المقس داراً لصناعة السفن بنى فيها ستمائة مركب (٢) . وذكر القلقشندى (٣) أنه كان على رأس الأسطول المصرى عشرة قواد عليهم رئيس هو «قائد القواد» ، ويسمى فى عصر الفاطميين « أمير الجيش » ، وفى عهد المماليك « ناظر الجيش » . ويتناول كل من هؤلاء القواد رواتب تصل إلى عشرين دينارا فى الشهر . وكان للأسطول المصرى ميزانية ضخمة من مستغلات الإقطاعات المحبوسة عليها . ولم يزل الأسطول محل عناية الفاطميين حتى قام النزاع بينهم وبين الصليبيين ، فأمر شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بإحراق مدينة الفسطاط ليحول دون وصول العدو كما أحرق مراكب الأسطول .

٤ — النظام المالى

(أ) فى الدولة العباسية :

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن سياسة العباسيين المالية كانت ترمى إلى تحقيق التوازن بين موارد الدولة ومصارفها ؛ ومن ثم كانت تقسم الميزانية العامة قسمين : قسم الاستخراج ويعرف بموارد الدولة ، وقسم النفقات ويعرف بمصارف الدولة .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٩٩ . (٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(٣) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ .

وقد بلغ النظام المالى فى العصر العباسى الثانى مبلغا عظيما من الدقة والنظام . فكان لكل ولاية ديوان للخراج يتبع ديوان الخراج الرئيسى فى بغداد أو فى سامرا، وينقسم كل منهما قسمين : يشرف أحدهما على النفقات ويحمل ماتبقى إلى دار الخلافة ، ويشرف الثانى على الموارد . وكان بيت المال بدار الخلافة يعنى بشئون الدواوين وما يتعلق بالجزء الشرقى لمدينة بغداد ، لأن هذا الجزء كان تابعا لدار الخلافة ، على حين كان الجانب الغربى لهذه المدينة تابعا لإقليم بادرايا .

وقد بين الخوارزمى [1] القوانين والدفاتر والأعمال التى كانت مستعملة فى الدواوين بخراسان فى ذلك العصر فقال :

« قانون[2] الخراج أصله الذى يرجع إليه وتبنى الجباية عليه، وهى كلمة يونانية معربة.

الأوارج أعراب أواره ، ومعناها بالفارسية المنقول ، لأنه ينقل إليه من القانون ماعلى إنسان ، ويثبت فيه مايؤديه دفعة بعد أخرى إلى أن يستوفى ماعليه .

الرزنامج ، تفسيره كتاب اليوم ، لأنه يكتب فيه مايجرى كل يوم من الخراج أو نفقة أو غير ذلك .

الختمة كتاب يرفعه الجهبذ [3] فى كل شهر بالاستخراج والجمل والنفقات والحاصل كأنه يختم الشهر به — الختمة الجامعة تعمل كل سنة لذلك .

التأريج قيل لفظة فارسية ومعناه النظام ، لأنه كسواد يعمل كالعقد لعدة أبواب يحتاج إلى علم جملها . وأنا أظن أنه تفعيل من الأوارج . تقول : أرجت تأريجا لأن التأريج يعمل للعقد شبيها بالأوارج ، فإن مايثبت تحت كل اسم من دفعات القبض يكون مصفوفا ليسهل عقده بالحساب ، وهكذا يعمل التأريج .

العريضة ، شبيهة بالتأريج ، إلا أنها تعمل لأبواب يحتاج إلى أن يعلم فضل مابينها ، فينقص الأقل من الأكثر من بابين منها ، ، ويوضع ما يفضل فى باب ثالث ، وهو الباب

---

(١) مفاتيح العلوم (القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ) ص ٣٦ — ٣٩ .
(٢) كانت لفظة Kanon فى العصر التالى لعصر دقلديانوس هى الاصطلاح العام للضرائب العادية .
(٣) الجهبذ بالكسر : النقاد الخبير بغوامض الأمور ، البارع العارف بطرق النقد ، وهو معرب .

المقصود الذى تعمل العريضة لأجله ، مثل أن تعمل عريضة للأصل والاستخراج . ففى أكثر الأحوال ينقص الاستخراج عن الأصل فيوضع فى السطر الأول من سطور العريضة ثلاثة أبواب : أحدها للأصل ، والثانى للاستخراج ، والثالث لفضل مابينها . ثم يوضع فى السطر الثانى والثالث والرابع إلى حيث ينتهى تفصيلات الأصل والاستخراج فضل ما بينهما ويثبت كل واحد منهما بإزاء بابه ، وتثبت جملة كل باب تحته .

البراءة : حجة يبذلها الجهبذ أو الخازن للمؤدى بما يؤديه إليه .

الموافقة والجماعة : حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل ، ولا يسمى موافقة ما لم يرفع باتفاق بين الرافع والمرفوع إليه ؛ فإن انفرد به أحدهما دون أن يوافق الآخر على تفصيلاته سمى محاسبة .

ومن دفاتر ديوان الجيش الجريدة السوداء ، وهى تكسر لقيادة قيادة فى كل سنة بأسامى الرجال وأنسابهم وأجناسهم وحلاهم ومبالغ أرزاقهم وقبوضهم وسائر أحوالهم ، وهو الأصل الذى يرجع إليه فى هذا الديوان فى كل شىء .

الرجعة : حساب يرفعه المعطى فى بعض العساكر لطمع [1] واحد إذا رجع إلى الديوان والرجعة الجامعة يرفعها صاحب ديوان الجيش لكل طمع من صنوف الإنفاق .

الصك : يعمل لكل طمع يجمع فيه أسامى المستحقين وعدتهم ومبلغ مالهم ويوقع السلطان فى آخره بإطلاق الرزق لهم .

والمؤامرة : عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة فى مدة أيام الطمع ، ويوقع السلطان فى آخره بإجازة ذلك . وقد تعمل المؤامرة فى كل ديوان تجمع جميع ما يحتاج إليه من استثمار واستدعاء توقيع . والصك أيضا يعمل لأجور السار بانيين والجمالين ونحوهم .

الاستقرار : عمل يعمل ، لما يستقر عليه من الطمع بعد الإثبات والفك والوضع والزيادة والحط والنقل والتحويل ونحو ذلك .

المواصفة : عمل يعمل ، فتوصف فيه أحوال تقع وأسبابها ودواعيها وما يعود بثباتها أو زوالها .

---

(١) الطمع حركة رزق الجهبذ ، وجمعها أطماع وأطماعهم أوقات قبض أرزاقهم .

الجريدة المسجلة : هى المختومة ، فأما السجل فكتاب يكتب للرسول أو المخبر أو الرحال أو غيرهم بإطلاق نفقته حيث بلغ ، فيقيمها له كل عامل يجتاز به . والسجل أيضا المحضر يعقده القاضى بفصل القضاء ، يقال سجل الحاكم لفلان بكذا تسجيلا .

الفهرست : ذكر الأعمال والدفاتر تكون فى الديوان ، وقد يكون لسائر الأشياء .

الدستور : نسخة الجماعة المنقولة من السواد .

الترقين : خط يخط فى التأريج أو العريضة إذا خلا باب من السطر لكى يكون الترتيب محفوظا به ، وهو بمنزلة الصفر فى حساب الهند وحساب الجمل ، واشتقاقه من رقان ، وهو بالنبطية الفارغ .

الجائزة علامة المقابلة .

ومن الدفاتر التى يستعملها كتاب العراق ، الإنجيذج تفسيره للملفوظ لفظة فارسية معربة .

الأوشنج : تفسيره المطوى والجموع لفظة فارسية معربة أيضا .

والدروزن ذكر الماسح وسواده الذى يثبت فيه مقادير ما يمسحه من الأرضين .

ومن أهم موارد بيت المال فى هذا العصر : الخراج ، والجزية ، والزكاة ، والفىء ، والغنيمة والعشور .

وقد زادت الضرائب فى عهد بنى أمية على ما كانت عليه فى عهد الخلفاء الراشدين ، إذ لم يراع الخلفاء القواعد التى قررها أسلافهم ، بل تجاوزوا حدود الضرائب التى فرضوها وسن الأمويون نظاما دقيقا للاشراف على جباية الأموال . ففى عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق مع الجباة وموظفى الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية . وكان للتحقيق مع هؤلاء أماكن خاصة تسمى « دار الاستخراج » .

وفى العصر العباسى الأول كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج .

١ — المحاسبة : وهى إما أن تكون نقدا أو نوعا أو هما معا .

٢ — المقاسمة : وهى ضريبة نوعية تؤخذ من المحصول .

٣ — المقاطعة : وهى ضريبة تجبى بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والخاصة . ويدخل فى هذا النظام معظم أراضى التاج . وكثيرا ما كان يعفى البعض من دفع الضرائب حتى فى العهود التى ساد فيها العسر والجدب . مثال ذلك أن الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) تجاوز عن ربع الضريبة بإجارئه السنة المالية من مارس إلى ١٧ يونيه ، ثم بإرجائها مرة أخرى إلى ٣١ يونيه [١] .

---

(١) راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢٢٣ .

وقد بلغ ماحمل إلى بيت المال فى أواخر القرن الثالث الهجرى فى كل سنة ـ على ما أورده قدامة بن جعفر [١] من العين ٤٫٩٢٠٫٠٠٠ دينار من الورق . وكان الدينار يساوى فى ذلك الوقت خمسة عشر درهما ، فيكون مجموع الخراج ٧٣٫٨٠٠٫٠٠٠ درهم

وقد فصل قدامة [٢] جباية أقاليم الدولة فى هذا العصر فقال :

وتفصيل ذلك عينا وورقا :

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية
السواد	١٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم
الأهواز	٢٣٫٠٠٠٫٠٠٠ »
فارس	٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ »
كرمان	٦٫٠٠٠٫٠٠٠ »
مكران	١٫٠٠٠٫٠٠٠ »
أصبهان	١٠٫٥٠٠٫٠٠٠ »
ماسبذان	١٫٢٠٠٫٠٠٠ »
مهرجان قذق	١٫١٠٠٫٠٠٠ »
الإيغارين	٣٫٨٠٠٫٠٠٠ »
قم وقاشان	٣٫٠٠٠٫٠٠٠ »
أذربيجان	٤٫٥٠٠٫٠٠٠ »
الرى ودماوند	٢٠٫٠٨٠٫٠٠٠ »
قزوين وزنجان وأبهر	١٫٨٢٠٫٠٠٠ »
قومس	١٫١٥٠٫٠٠٠ »
جرجان	٤٫٠٠٠٫٠٠٠ »
طبرستان	٤٫٢٨٠٫٠٠٠ »
تكريت والطيرهان والسن والبوازيج	٠٫٩٠٠٫٠٠٠ »
شهرزور والصامغان	٢٫٧٥٠٫٠٠٠ »
كورة الموصل	٦٫٣٠٠٫٠٠٠ »
قردى وزبدى	٣٫٢٠٠٫٠٠٠ »
ديار ربيعة	٩٫٦٣٥٫٠٠٠ »

(١) كتاب الخراج وصنعه الكتابة ص ٢٤٩

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٩ — ٢٥١ .

اسماء الاقاليم	مقدار الجباية	
سجستان	١و٠٠٠و٠٠٠	درهم
خراسان	٣٧و٠٠٠و٠٠٠	»
حلوان	٩٠٠و٠٠٠و٠٠٠	»
ماء الكوفة	٥و٠٠٠و٠٠٠	»
ماء البصرة	٤و٨٠٠و٠٠٠	»
همذان	١و٧٠٠و٠٠٠	»
أرزن وميافارقين	٤و٢٠٠و٠٠٠	»
مقاطعة طرون	١٠٠و٠٠٠	»
أرمينية	٤و٠٠٠و٠٠٠	»
آمد	٢و٠٠٠و٠٠٠	»
ديار مضر	٦و٠٠٠و٠٠٠	»
أعمال طريق الفرات	٢و٩٠٠و٠٠٠	»
قنسرين والعواصم	٣٦٠و٠٠٠	دينار
جند حمص	٢١٨و٠٠٠	»
جند دمشق	١١٠و٠٠٠	»
جند الأردن	١٠٩و٠٠٠	»
جند فلسطين	٢٥٩و٠٠٠	»
مصر والاسكندرية	٢و٥٠٠و٠٠٠	»
الحرمين	١٠٠و٠٠٠	»
اليمن	٦٠٠و٠٠٠	»
اليمامة والبحرين	٥١٠و٠٠٠	»
عمان	٣٠٠و٠٠٠	»

ومما يدخل فى شىء من الارتفاع جزية رءوس أهل الذمة بحضرة مدينة السلام وهى ٢٠٠ر٠٠٠ درهم .

نظام الاقطاع :

ولم يأت الخراج عن طريق الأرض الخراجية وحدها بل كان يأتى أيضا عن طريق الأرض المقطعة . ويرجع نظام الإقطاع إلى عهد الفتوح الإسلامية الأولى ، فكانت أراضى

الأكاسرة وأفراد البيت المالك والمرازبة ، وهم كبار أصحاب الأراضى ، ملكا للدولة تقطعها من تشاء . وقد ذكر الماوردى [١] أن الإقطاع ضربان : إقطاع استغلال ، وإقطاع تمليك والثانى ينقسم إلى موات وعامر . والثانى وهو ضربان : أحدهما مايتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض فى حق لبيت المال إذا كانت فى دار الإسلام . فان كانت فى فى دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد فأراد الإمام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها فإنه يجوز » .

وكان الخراج الذى يؤدى عن الأرض المقطعة يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع وبين الحكومة؛ويبلغ العشر على ما قرره الفقهاء .وتعود هذه الأرض المقطعة إلى الحكومة فى حالة مصادرة أصحابها أو عند تطرق الخراب إليها ، وكثيراً ما كان الخراج عبئا ثقيلا على صغار ملاك الأراضى ، حتى إن بعضهم كان يلحق أرضه بالأقوياء ، فراراً من كثرة الخراج المفروض عليهم ، ومن ثم كانوا لا يدفعون عن هذه الأراضى إلا العشر فقط [٢] ، وتسمى هذه الطريقة التلجئة ، وهى « أن يطلق الضعيف ضيعة إلى أقوى ليحامى عليها» [٣].

على أن نظام الإقطاع لم يخل من بعض العيوب ، إذ أن المقطع أو الملتزم كان يعمل على الإثراء وجمع المال ، ولا يتردد فى إرهاق الأهلين وإثقالهم بالضرائب المختلفة ، حتى يستطيع أن يؤدى إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحتفظ لنفسه بما زاد على ذلك، والأهالى فى ذلك مغلوبون على أمرهم ، قلما تصل شكاياهم إلى السلطة المركزية ، فضلا عما كان يسلكه معهم بعض الجباة من وسائل التعذيب [٤] .

ولم يكن الالتزام مقصوراً على إقطاع أجزاء من الأرض فى الولاية الواحدة ، بل قد يشمل ولاية برمتها ، وقد ساد هذا النظام فى العصر العباسى الأول حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية ، وأصبحوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغا من المال عدا الهدايا والطرف ، كما كان متبعاً فى نظام الإقطاع الذى ساد أوربا فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين [٥]) .

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٨١ — ١٨٨ .
(٢) هلال بن الصابىء : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٣٤ ، ٢٢٠ .
(٣) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٤١ .
(٤) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٨ ، ٦١ ، ٧٠ — ٧١ .
(٥) النظم الاسلامية للمؤلف ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

وقد اهتم الخلفاء بمواعيد الخراج. وكان ميعاده عيد النيروز عادة ، ولما حاول الأمويين تقديم ميعاد الخراج نحوا من شهر ، طلب أصحاب الأراضى العدول عن تنفيذ هذا القرار ؛ ولكن هشام بن عبدالملك أبى ذلك عليهم ، واستمر هذا النظام إلى أيام هارون الرشيد حيث طلب أصحاب الأراضى من يحى بن خالد البرمكى تأجيل ميعاد الخراج شهرين ، وكاد يجيب طلبهم ، ولكنه عدل ذلك لأنه رمى بالتعصب للمجوسية ، ولم تحل هذه المسألة إلا فى عهد الخليفة المتوكل . ولما جاء ابنه المنتصر أعاد ميعاد الخراج إلى ما كان عليه من قبل ثم جاء المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) فقدم ميعاد الخراج عما كان عليه فى عهد المتوكل بستة عشر يوما ، فأصبح فى ٢٠ يونيو من كل سنة .

وكانت الجزية التى تؤخذ من أهل الذمة من أهم مصادر بيت المال ؛ وقد فرضت أول الأمر على النصارى واليهود مقابل حمايتهم والدفاع عنهم ، ومن ثم كانت هذه الضريبة أشبه بضريبة الدفاع الوطنى أو البدل العسكرى. لذلك لم تفرض إلا على القادرين على حمل السلاح وكانت هذه الضريبة التى عرفت باسم الجزية أو جزية الرءوس أو الضريبة الشخصية تؤدى على قدر طاقة الشخص . ولذلك قسم أهل الذمة طبقات ثلاث : دنيا ويدفع الشخص ١٢ درهما فى السنة ، ووسطى ويدفع ٢٤ درهما . وعليا ويدفع ٤٨ درهما ، وفى البلاد التى استعملت فيها العملة الذهبية كانت الضريبة ديناراً ودينارين وأربعة دنانير على التوالى . وكانت الجزية تؤخذ على أقساط تبلغ أحيانا ستة أو خمسة وأحيانا أربعة أو ثلاثة أو اثنين ، وفرضت فى العراق أول الأمر فى كل شهر . وفى سنة ٣٦٦ هـ صدر أمر الخليفة بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة فى شهر المحرم من كل سنة ، وألا تؤخذ من النساء ، ولا ممن لم يبلغ الحلم ، ولا من ذى سن عالية ، ولا ذى عاهة بادية ، ولا من فقير معدم ، ولا من راهب متقبل ، ويعطى لمن دفع الجزية براءة تثبت أداءه لها (١) .

وقد بلغ المتحصل من ضريبة الجزية فى أواخر القرن الثالث الهجرى بمدينة بغداد ٢٠٠ر٠٠٠ درهم فى السنة .

ومن مصادر بيت المال أيضاً ما يؤخذ من تركة من يموت دون أن يترك وارثا له ، حيث يؤول ميراثه إلى بيت المال ، وكان هذا مقصوراً على المسلمين ، ولذلك نرى الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) يصدر فى سنة ٣١١ هـ كتابا يأمر فيه برد تركة من يموت من

---

(١) راجع آدم متز: الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٧٤ — ٧٨ .

أهل الذمة دون وارث إلى أهل ملته لا إلى بيت المال ، وذلك لما « روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن المسلم لا يرث الكافر ، وأن الكافر لا يرث المسلم ، وأنه لا يتوارث أهل ملتين [١] » ، « وأن السنة التي جرت بأن أهل كل ملة يورثون من هو منهم إذا لم يكن له وارث من ذي رحمه [٢] » . ونظراً لما كان لهذه التركات من أهمية بكونها مصدراً هاما من مصادر بيت المال ، أنشىء لها في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) ديوان خاص أطلق عليه « ديوان المواريث » .

وكان هذا الديوان مصدر كثير من العنت والإرهاق والشكوى لأخذ المواريث على غير ما تجرى به السنة [٣] .

ومن مصادر بيت المال أخماس المعادن والركاز [٤] وخمس ما يقذفه البحر أو يستخرج منه مثل اللؤلؤ والعنبر ، وأثمان الأباق من العبيد [٥] ، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة إذا لم يظهر له صاحب [٦] ، ومن مصادر بيت المال أيضا الرسوم الجركية كما سيأتي في الباب الثامن .

وكانت مصادرات الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة مصدراً من مصادر بيت المال فنرى مثلا الخليفة القاهر (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) يصادر أم سلفه المقتدر وأنصاره ويستولي على « ثياب وشي وديباج رومي وتستري [٧] مثقلة بالذهب ، وفرش أدمي وخز رقم وديباج وصناديق فيها ثياب فاخرة وصياغات يسيرة ذهب ، وصياغات كثيرة فضة ، وطيب كثير من عود هندي وعنبر مسك وكافور ، وتماثيل كافور ، قيمة ذلك نحو مائة وثلاثين ألف دينار ، وقيمة التماثيل نحو ثلثمائة ألف درهم . فتسلم أكثر ذلك مؤنس المظفر ليباع ، فتركوا بعضه ليخدم به القاهر » [٨] .

---

(١) هلال بن الصابىء : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص٤٤٨

(٢) المصدر نفسه .

(٣) راجع كتاب الخليفة المقتدر إلى عماله في صدد تعديل قانون المواريث في ابن الصابىء : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٢٤٦ — ٢٤٩ .

(٤) الركاز المال المدفون في الجاهلية .

(٥) من أبق العبد أبقا إذا هرب من سيده من غير خوف ولا كد عمل ، والجمع أباق مثل كافر وكفار .

(٦) آدم متز : الحضارة الاسلامية ص ١٨٩.

(٧) نسبة إلى تستر . وهي معربة عن ششتر أشهر مدن خوزستان .

(٨) مسكويه : تجارب الأمم ج١ ص ٢٤٤.

ولما قتل بجكم صودرت أمواله ، وكانت مدفونة فى مواضع كثيرة من بستانه، وقد قيل إن الخليفة المتقى استولى على ألفى ألف دينار من العين والورق ، كما استولى من ابن شيرازد وكان من أنصار بجكم ، على مائتى ألف دينار [١] ، وكذلك نرى بختيار بن معز الدولة ينفى كبار الديلم ويصادر إقطاعاتهم ويستولى على أموالهم وأموال المتصلين بهم [٢] .

وقد سن بنو بويه طرقا لابتزاز الأموال من أصحابها ، فزاد عضد الدولة فى مساحة الأراضى « واحدا فى عشرة بالقلم ، وأضافه إلى الأصول ، وجعله رسميا جاريا [٣] ، استمر إلى هذه الغاية فى جميع السواد ، وأحدث جنايات لم تكن ، ورسوم معاملات لم تعهد ، وأدخل يده فى جميع الأرجاء [٤] ، وجبى ارتفاعها وجعل لأهلها شيئا منه . وكثرت الظلامة من ذلك فى آخر أيامه . . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ... فأزاله صمصام الدولة بعده ، وأطلق الارتفاع [٥] للملاك، وجعل للمراعى وفرائض الصدقات ديوانا، وأفرد له عمالا وكتابا وجهابذة ، فارتفع من أعمال السواد ما زاد على ألف ألف درهم فى السنة ، وأدخل يده فى وقوف السواد ، ورتب لها ناظرين متصرفين ،وقرر لأربابها إجارة تطلق لهم عنها ، فتحصل منها جملة كثيرة فصارت فى المقبوض [٦] ، وخرجت الإقطاعات من بعد ذلك [٧] وقرر على أسواق الدواب والحمير والجمال عما يباع فيها من جميع ذاك ، وفعل فى ضرائب الأمتعة الصادرة والواردة ما زاد فيه على الرسوم القديمة ، وحظر عمل الثلج والقز وجعلهما متجرا للخاص [٨] ، وكانا من قبل مطلقين لمن يريد عملهما والمتجر فيهما » [٩] .

وقد كثرت موارد الدولة العباسية فى ذلك العصر على الرغم مما أصابها من ضعف ووهن يدل على ذلك هذا البيان الطويل الذى أورده هلال بن الصابىء [١٠] عن النفقات اليومية

---

(١) الصولى: أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ١٩٧، ١٩٨

(٢) مسكويه ج ٢ ص ٢٣٥ ، راجع هذا الكتاب ص ٦٥.

(٣) أى نظاما متبعا .

(٤) فى الأصل أرحاء جمع رحى وهو الطاحون ، ويظهر أنها الأرجاء كما يقتضيه سياق الكلام.

(٥) الارتفاع هو صافى دخل الأرض ونحوها ، يريد أنه اكتفى بأخذ الخراج للدولة من الملاك ويترك لهم ما بقى .

(٦) يعنى أن هذه الأموال قد حصلت من الذين كانت عليهم وصارت فى قبضة أصحاب الأوقاف.

(٧) يعنى أن ما عدا أراضى الأوقاف يجعل إقطاعا ويوزع على الملتزمين على أساس نظام الاقطاع .

(٨) يقصد أنهما جعلا احتكارا للديوان (٩) مسكويه ج ٣ ص ٧١ .

(١٠) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١١ — ٢٢ .

للدولة العباسية فى أوائل عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) ، ومنه نرى أنها بلغت نحو سبعة آلاف دينار ، أى ما يزيد على مليونين ونصف مليون دينار فى السنة ،وإذا علمنا أن صافى ما يصل إلى حاضرة الدولة بلغ ٤ر٩٢٠ر٠٠٠ دينار فى السنة . أمكن توفير ما يقرب من ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة ، حتى إننا نجد فى أواخر عهد هذا الخليفة أن « بالحضرة تسعة آلاف ألف دينار فاضلة عن جميع النفقات ، وكان المعتضد بالله — رحمه الله — قد اعتقد أنه يتممها عشرة آلاف ألف دينار . ثم يسبكها ويجعلها نقرة واحدة ، ويطرحها على باب العامة ليبلغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار ، وهو مستغن عنها ، فاخترمته المنية قبل بلوغ الأمنية » [١] وإليك بعض ماورد فى بيان ابن الصابى، عن نفقات الدولة العباسية اليومية عن « أصل ضمان أحمد بن محمد الطائى فى أول أيام المعتضد بالله رحمة الله عليه ،أعمال سقى الفرات ودجلة وجوخى وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق والدبين وكلواذى ونهر بين والراذانين وطريق خراسان مما شرط عليه أداؤه مياوما فى بيت المال من العين :

ألفى الفى وخمسمائة ألف وعشرين ألف دينار .
قسط كل شهر من ذلك = مائتى ألف وعشرة آلاف دينار .
وكل يوم = سبعة آلاف دينار .

تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ماقرره المعتضد بالله رحمة الله عليه منه :

١٠٠٠ دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجالة ومن يرسمهم من البوابين ومن يجرى مجراهم [٢] .

١٠٠٠ دينار أرازق الغلمان المعروفين بالغلمان الخاصة ، ومنهم حاجب المعتضد وخلفاء الحجاب وعدتهم ٢٥ رجلا كانوا يلازمون الخليفة فى أسفاره .

١٥٠٠ دينار أرزاق الفرسان من الأحرار والمميزين ، وكانت أيام شهورهم خمسين ، فلما جعلت تسعين سمو التسعينية . هذا عدا ما خصص للدواب ، فقد جعل « للدابة فى كل خمسة وثلاثين يوما أربعة دنانير ، وللبغل ثلاثة دنانير ونصف، وللحمار برسم الرجالة دينارين» .

٦٠٠ دينار أرزاق المختارين الذين انتخبوا من كل قيادة وعرفوا بالشهامة والشجاعة

---

(١) هلال بن الصابىء ص ١٨٩ .
(٢) ومن هؤلاء البصريون والديلمة والطبرية والمغاربة والسودان .

من المماليك الناصرية والبغائية والمسرورية والبكجورية واليانسية والمفلحية والأزكوتكينية والكيغلغية والكنداجية (١) .

٥٠٠ دينار أرزاق الفرسان المثبتين، وأيام شهرهم ١٢٠ يوما على ما أوجبه ابن أبي دلف (٢)

١١٠ دينار أرازق سبعة عشر صنفا من المختصين بخدمة دار الخلافة كالقراء وأصحاب الأخبار والمؤذنين وأصحاب الأعلام والبوقين والمخرقين (٣) والمضحكين والطبالين .

٥٠ دينار المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ، وأصحاب الإرباع والمصالح والأعوان والسجانين وأصحاب الطوف ومن فى جملتهم من الفرسان الذين ميزوا وألحقوا بطبقة الدون من المشايخ والمترفين والرجالة الموكلون بأبواب المدينة .

٣٠٠ دينار أثمان أنزال الغلمان المماليك الستينية مما كان يطلق للقواد ليقيم كل منهم « الخبز واللحم لمن فى ناحيته ويوكل عليه من يستجيد (٤) الإقامة لهم » .

٣٣٣½ دينار لنفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز وأنزال الحرم والحشم ومخابز السودان ، منها ٨٠ دينارا للخاصة و٢٥٣½ دينار للعامة .

١٠٠ دينار ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة وآلاته ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء والحمام ونفقات خزائن السلاح ، ومما يرم من الجواشن والدروع ويتخذ من النشاب والأعلام والمطارد ، ونفقات خزانة السروج وخزائن الفرش

٤ دينار أرزاق السقائين بالقرب فى القصر والخزائن والمطابخ والمخابز والدور والحجر والخدم ولوضوء الخاص ومن يعمل بالروايا على البغال من الاصطبلات للحرم والبوابين فى دار العامة .

١٦٧ دينار أرزاق الخاصة ومن يجرى مجراهم من الغلمان والمماليك دون الأكابر الأحرار ، ومن أضيف إليهم من الحشم القدماء .

---

(١) هذه الطوائف تنسب إلى مشهورى قواد الجيش فى ذلك الوقت .

(٢) هو أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف ، وقد حاول الاستقلال ببلاد الكرج وحارب العباسيين فى الوقت الذى ثار فيه صاحب الزنج . وكان كاتبه محمد بن الحسين المعروف بدندان من أكبر أصحاب عبد الله بن ميمون القداح . انظر ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٦٧ .

(٤) وردت فى الأصل المخرفين وهم الذين يلعبون الألعاب السحرية ونحوها كالحواثين والسحرة ومن يشبههم .

(٥) يعنى من يحسن التاديب لهم

١٠٠ دينار أرزاق المستخدمين فى شراب العامة وخزائن الكسوة والصناع من الصاغة والخياطين والأساكفة والحدادين والرفائين والفرائين والمطرزين والنجادين والوراقين والعطارين والمشهرين [١] والنجارين والخراطين وغيرهم ، ومن فى خزانة السلاح والسروج من الخزان والصناع .

١٠٠ دينار أرزاق الحرم ، وقد خصص لها ثلاثة آلاف دينار فى الشهر .

٤٠٠ دينار ثمن علوفة الكراع فى الاصطبلات الخمسة [٢] .

٦٦٢/٣ دينار ما يصرف فى ثمن الكراع والإبل وما يبتاع من الخيل الموصوفة فى أحياء العرب ويستبدل به إذا عطب فى العمل .

٣٠ دينار أرزاق المطبخين .

٣٠ دينار أرزاق الفراشين والمجلسين وخزان الفرش وخزان الشمع وأجرة الأعوان والحمالين فيهما .

٦٢/٣ « ثمن الشمع والزيت .

٥ « أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسروج ومن يخدم فى دواب البريد .

٤٤١/٣ « أرزاق الجلساء وأكابر الملهين .

٢٣١/٣ « أرزاق جماعة من المتطببين وتلامذتهم الملازمين مع ٣٠ دينارا لثمن الأدوية فى خزانة القصر .

٧٠ « أصحاب الصيد من البازياريين والفهادين والكلابزين والصقارين والصيادين وثمن الطعم والعلاج للجوارح وأصحاب الحراب والسباعين وأصحاب الشباك واللبابيد والفحالين ومن معهم من الأعوان والحمالين وأصحاب المرور .

---

(١) الدلالين .

(٢) ذكر هلال بن الصابئ (تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٧ — ١٨) أنه كان هناك خمسة اصطبلات هى :

١ — اصطبل الخاص ، ويشمل على الخيل والحجورة (إناث الخيل) والشهاوى والبراذين (نوع من الخيل) وبغال السروج والقباب والهوادج والفردات والحمير .

٢ — واصطبل العامة وفيه دواب الخدم والغلمان والتفاريق والبازياريين

٣ — واصطبل الدواب والحمليات وما يرد من المروج من المهارى المحرمة ، ويبتاع ويهدى ، وفيه يرتبط مايحتاج إلى العلاج والمراعاة وما يرد من الأسفار . وفيه عقر (جرح) وغمر (عرج)

٤ — واصطبل لبغال الأثقال وحمل العلوفات

٥ — واصطبل بقصر الطين فى الشماسية لمبارك الإبل والجمازات .

١٦ ٢/٣ دينار أرزاق الملاحين فى الطيارات والشذاءات والسميريات والحراقات والزلالات وزواريق المعابر (١).

٤ دينار ثمن النفط للنفاطات والمشاعل وأجرة الرجال فى خدمتها .

١٥ « الصدقة وكانت تفرق على من فى قصر الرصافة من الحرم المحتاجات .

٣٣ ١/٢ « وتجرى على أولاد المتوكل وأولادهم رجالا ونساء .

١٦ ٢/٣ « وتجرى على أولاد الواثق والمهتدى بالله والمستعين وسائر أولاد الخلفاء .

٣٦ ٢/٣ « أولاد الناصر ومشايخ الهاشميين وأصحاب المراتب والخطباء فى المساجد بمدينة السلام .

٣٣ ١/٢ « أرزاق جمهور بنى هاشم من العباسيين والطالبين .

٣٣ ١/٢ « أرزاق عبيد الله بن سليمان وابنه القاسم .

١٥٦ ١/٢ « أرزاق أكابر الكتاب وأصحاب الدواوين والخزان والبوابين والمدبرين والأعوان وسائر من فى الدواوين ، وثمن الصحف والقراطيس والكاغد ، سوى كتات دواوين الإعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة وأصحابهم وأعوانهم ، وخزان بيت المال ، فإنهم يأخذون أرزاقهم بما يوفرونه من أموال الساقطين وغرم المخلين بدوابهم » .

١٦ ٢/٣ « جارى إسحاق بن إبراهيم القاضى وخليفته يوسف بن يعقوب وأولادها وعشرة نفر من الفقهاء .

٣ ١/٢ « جارى المؤذنين فى المسجدين الجامعين والمكبرين والقوام والأئمة والبوابين وثمن الزيت للمصابيح والحصر والماء ، وثمن الستائر فى الصيف ، والخزف والعمارة فى شهر رمضان .

٥٠ « دينار نفقات السجون وثمن أقوات المسجونين وشربهم .

١٠ « دينار نفقات الجسرين وثمن ما يبدل من سفنهما وأرزاق الجسارين .

١٥ « دينار نفقات البيمارستان الصاعدى ، وأرزاق المتطببين والكحالين ومن يخدم المغلوبين على عقولهم والبوابين والخبازين وغيرهم وأثمان الطعام والأدوية والأشربة .

وليس أدل على ضخامة الثروة فى هذا العصر من هذا البيان الطويل الذى ذكره

---

(١) هى أنواع من السفن .

مسكويه [١] عن نفقات الخليفة المقتدر الذى عرف بالتبذير . ومن هـذا البيان نقف على أنه « أتلف نيفا وسبعين ألف ألف دينار ، سوى ما أنفقه فى موضعه وأخرجه فى وجوهه وهذا أكبر مما جمعه الرشيد وخلفه . ولم يكن فى ولد العباس من جمع أكثر مما جمعه الرشيد ، فإن القاسم بن عبيد الله قال للمعتضد وقد سأله عن مقدار ما خلفه واحد واحد من ولد العباس من المال ، إنه لم يكن فيهم من خلف أكثر مما خلفه هارون الرشيد ،فإنه خلف فى بيت المال ثمانية وأربعين ألف ألف دينار » .

ومن أهم نفقات الدولة العباسية النفقات المخصصة للحج ونفقات الغزوات لمحاربة الأعداء من القرامطة والفاطميين والبيزنطيين وغيرهم ، ومايبذل لفداء أسرى المسلمين ، ومايصرف على سفراء الملوك والأمراء عند استقبالهم وتوديعهم وتزويدهم بالهدايا والتحف أحيانا ، وكل ما يتعلق بنفقات دار الخلافة [١] .

(ب) فى مصر:

قلد الخليفة المتوكل خراج مصر أحمد بن المدبر الذى لجأ إلى القسوة فى جباية الخراج، فزاد الضرائب وحجر على النطرون بعد أن كان مباحا ، وفرض على الكلأ المباح ضريبة سميت «مال المراعى» ؛ كما قرر على مايصاد فى البحر والنيل والبحيرات والبرك ضريبة أسماها «مال المصايد» . وكان مال الضرائب ينقسم فى ذلك الوقت قسمين : خراجى وهلالى .

١ — فالخراجى : مايؤخذ على الأرض التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة ، وما يؤخذ من المزارعين على سبيل الهدية مثل الغنم والدجاج .

٢ — والهلالى : مايؤخذ من الضرائب على الكلأ وما يصاد من السمك . وكان الهلالى يعرف فى زمن ابن المدبر وما بعده بالمرافق والمعاون .

وكان ابن المدبر يجمع الخراج ويرسل منه الجزية إلى دار الخلافة ، ويتصرف فيما بقى تصرفا لايتفق ومصلحة البلاد، مما أدى إلى تأخرها، ونقص خراجها إلى ٨٠٠ر٠٠٠ دينار

---

(١) تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٣٨ — ٢٤١ .

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٢٠٢ .

مع أنه بلغ ١٢٠٫٠٠٠ دينار فى عهد عمرو بن العاص ، و ١٤٠٫٠٠٠ دينار فى عهد خلفه عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وبلغ فى عهد ابن طولون ٤٫٣٠٠٫٠٠٠ دينار.

وقد تولى جباية الخراج فى مصر طوال عهد الدولة الإخشيدية أسرة المادرائيين الذين اتسعت سلطتهم فى هذه البلاد . ومن مشهورى هذه الأسرة أبو بكر محمد بن على المادرائى الذى قدم مصر فى سنة ٢٧٢ هـ ، وبقى فيها إلى أن قضى محمد بن سليمان الكاتب على الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ، فعاد معه إلى بغداد ، ثم عاد إلى مصر بصحبة الجند الذين بعث بهم الخليفة العباسى المقتدر لقتال الفاطميين حين غزوا هذه البلاد بقيادة جباسة بن يوسف الكتامى وأبى القاسم بن عبيد الله المهدى .

وقد ذكر المقريزى [1] أن خراج مصر بلغ فى عهد الإخشيد ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، سوى ضياعه التى كانت ملكا له، وأن هذا الوالى كان أول من عين رواتب لمستحقى الصدقة، وبلغت هذه الرواتب فى عهد كافور الإخشيد ٥٠٠٫٠٠٠ دينار فى السنة ، لأرباب النعم والمستورين وأجناس ، ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين فى الأعمال » .

بذل كافور الإخشيد جهده فى تنمية موارد الدولة ، حتى زاد خراج مصر فى عهده على ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار فى السنة . ولم يكتب اسمه على السكة ، بل اكتفى بنقش اسم الخليفة العباسى وحده .

ولما فتح الفاطميون مصر ، أقر جوهر على بن يحيى بن العرمرم على جباية الخراج ، ولكنه لم يلبث أن اشترك معه رجاء بن صولاب . ثم حل محلهما فى الإشراف على جباية الخراج يعقوب بن كلس وعساوج بن الحسن . وجعلت جباية الخراج قسمين : أسند أحدهما إلى على بن محمد بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله ، وأسند الثانى إلى الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذبارى .

وقد ذكر المقريزى [2] أن خراج مصر بلغ فى السنة الأولى من ولاية جوهر ٣٫٤٠٠٫٠٠٠ دينار ، بعد أن انحط كثيرا فى أواخر عهد كافور الإخشيد .

---

(١) خطط جـ ١ ص ٩٩ .
(٢) المصدر نفسه .

ولما جاء الخليفة المعز لدين الله الفاطمى مصر فى أواخر سنة ٣٦٢ هـ ، أمر يعقوب بن كلس وعساوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب ؛ فجمعت أقسامه المختلفة فى مكان واحد ، وعمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التى تفرض على كل منها ، فزادت الضرائب بفضل هذه السياسة المالية الرشيدة التى قضت بفحص الشكايات ، وبفضل ماسلكته الدولة من حزم فى تنفيذ هذا النظام الجديد . وقد ذكر ابن ميسر [١] أن الضرائب التى تجمع من الفسطاط تتراوح بين ٥٠٠ر٠٠٠ و ١٢٠ر٠٠٠ دينار فى اليوم، ومن تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من ٢٢٠ر٠٠٠ دينار فى اليوم . ويغلب على الظن أن ابن ميسر أخطأ فى بيان هذه الضرائب . فذكر لفظ دنانير بدل دراهم . وقد بلغ خراج الدولة الفاطمية فى عهد وزارة الحسن بن على اليازورى ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة .

وكان النظام المالى فى الأندلس يدور حول هذه الأمور الثلاثة وهى: الخزانة العامة ، وإدارة بيت المال ، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة .

أما الخزانة العامة فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى « خازن المال » . ومقر هذه الخزانة القصر ، وفيها تودع الأموال التى تجبى من المدن والقرى . ومن أهمها: أموال التركات التى يموت عنها أصحابها دون أن يتركوا وارثا ، والضرائب المفروضة على الأسواق ، والرسوم الجمركية التى تضرب على السفن ، والخراج ، والجزية ، والأعشار . وقد قيل إن عبد الرحمن الناصر خلف فى بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف . ولا ندرى إذا كان هذا الرقم بالدينار أو بالدرهم . ويغلب على الظن أنه بالدراهم لأنه إذا حسب دنانير لتجاوز ٣٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار ، وفى هذا شىء كثير من المبالغة . وقد ذكر المقرى [٢] الذى عزا ذلك إلى ابن خلدون ، أن الناصر « كان يقسم الجباية أثلاثاً : ثلثاً للجند ، وثلثاً للبناء، وثلثاً مدخراً. وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار . ومن السوق والمستخلص [٣] سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار . وأما أخماس الأموال العظيمة فلا يحصيها ديوان » .

وذكر ابن حوقل [٤] أن عبد الرحمن الناصر استطاع أن يوفر حتى سنة ٣٤٠ هـ

---

(١) تاريخ مصر ص ٤٦ .
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٢٩ .
(٣) الضرائب التى تجبى على التجارة .
(٤) المسالك والممالك ص ٧٧ .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار، وأنه لم يكن فى زمانه سلطان استطاع أن يتوفر عنده مثل هذا المبلغ الضخم إلا أبا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبدالله الحمدانى (٣٥٨-٣٦٩هـ)[1].

أما مايطلق عليه اسم بيت المال فى الأندلس فكان يقتصر على مايرد من الأوقاف. وكان مقره المسجد الكبير بقرطبة، ويقوم هذا الديوان على حفظ المنشآت الدينية ودفع رواتب موظفى المساجد، وتوزيع الصدقات فى أماكن خاصة، ويقوم بالإشراف عليها قاضى القضاة ومن ينوبون عنه تحت إشراف الخليفة. ويشبه من هذه الناحية بعض دواوين وزارة الأوقاف ووزارة الشئون الاجتماعية الآن.

وأما موارد الخليفة الخاصة، فكان يشرف عليها موظف يعرف «بصاحب الدية». كما يشرف هذا الموظف على أراضى الأمير أو الخليفة، ويقوم بزراعتها جماعة من المزارعين على أن يأخذوا جزءا قليلا من المحاصيل لأنفسهم.

٥ — النظام القضائى

(أ) القضاء

١ — فى الدولة العباسية:

تطور القضاء فى العصر العباسى الثانى، فتأثر بالسياسة، وأصبح الخلفاء يتدخلون فى القضاء، حتى حملوا القضاة فى كثير من الأحيان على السير وفق رغباتهم.

فقد قيل إن الخليفة العباسى المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) بعث إلى أبى حازم الكوفى وكان على قضاء الأردن وفلسطين رسولا فقال له: مات على الضبعى بينبع، فإن المعتضد ولغيره مالا عليه. وقد بلغنى أن غرماءه ثبتوا عندك وقد قسطت لهم من ماله، فاجعلنا كأحدهم. فقال أبو حازم: قل لأمير المؤمنين أطال الله بقاءه اذكر لما قال لى وقت قلدنى أنه قد أخرج الأمر من عنقه وجعله فى عنقى، ولا يجوز لى أن أحكم فى مال رجل لمدع إلا ببينة فرجع الرسول إلى الخليفة فأخبره بما أجاب به أبو حازم، فقال له: فلان وفلان يشهدان وهما رجلان جليلان كانا فى ذلك الوقت، فقال أبو حازم: يشهدان عندى وأسأل

---

(١) راجع ما ذكرناه عن عدة الدولة أبى تغلب الغضنفر فى هذا الكتاب ص ١٣٦ — ١٣٨.

عنهما ، فإن زكيا قبلت شهادتهما وإلا أمضيت ماقد ثبت عندى ، فامتنع الرجلان من الشهادة تورعا ولم يجب أبو حازم الخليفة إلى طلبه .

وكثيرا ما اعتذر القضاة عن قبول ذلك المنصب خشية تدخل الخلفاء فى أحكامهم القضائية . فقد قيل إن أبا بكر الرازى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ اعتذر عن قبول منصب قاضى القضاة بعد أن طلب منه ذلك مرارا . وقال ابن الأثير[١] فى حوادث سنة ٣٩٩هـ : «وفيها صرف أبو عمر بن عبد الواحد الهاشمى عن قضاء البصرة ، وكان قد علا إسناده فى رواية السنن لأبى داود السجستانى ، ومن طريقه سمعناه . وولى القضاء بعده أبو الحسن بن أبى الشوارب ، فقال العصفرى الشاعر :

عندى حديث ظريف ... عثله يتعنى
من قاضيين يعزى ... هذا وهذا يهنا
فذا يقول كرهنا ... وذا يقول استرحنا
ويكذبان ونهذى ... فمن يصدق منا ؟ »

كما ضعفت روح الاجتهاد فى هذا العصر بسبب ظهور المذاهب الأربعة ، وأصبح لزاما على القاضى أن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب، واختلف القضاء فى الولايات باختلاف هذه المذاهب ، وأصبح المذهب القضائى الشائع فى العراق مذهب أبى حنيفة النعمان ، وفى الشام والمغرب والأندلس كان القضاة يصدرون أحكامهم وفق مذهب الإمام مالك ، وفى مصر وفق مذهب الإمام الشافعى[٢] .

وإذا تنازع متخاصمان على غير المذهب السائد فى بلد من البلاد ، أناب القاضى عنه من القضاة من يدين بعقائد مذهب المتخاصمين ، واستمرت هذه المذاهب الأربعة حتى اليوم مصدر التشريع الإسلامى ؛ ومن ثم أطلق على العصر العباسى «عصر أئمة المذاهب» ، لأنه وضعت فيه أصول الفقه الإسلامى .

وهناك مذاهب أخرى : كمذهب الزيدية فى اليمن ،وهم أصحاب زيد بن على زين العابدين ابن الحسين بن على ، ويقولون بضرورة توافر الاجتهاد فى الأئمة، ومذهب الإمامية الاثناعشرية

---

(١) جـ ٩ ص ٧٩ .
(٢) المقريزى : خطط : جـ ٢ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

فى فاوس والعراق ، ومذهب الإماميـة السبعية أو الإسماعيليـة الذين ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، ويقولون بضرورة اجتهاد أئمتهم فى الفقه ، كما يستمدون مذهبهم من الكتاب والسنة وفتاوى أئمتهم . ومن المذاهب التى انقرضت : مذهب الخوارج ومذهب المرجئة ، ومذهب الاعتزال ، ومذهب محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ، وقد أخذ عن مذهب الإمام الشافعى ، وكان يقول بالرأى ، فكرهه الحنابلة .

وقد جمع الحديث النبوى فى ستة مصنفات ، أجمع المسلمون على أنها أصح كتب السنة وأصحابها هم ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦هـ ، ومسلم بن الحجاج النيسابورى القشيرى المتوفى سنة ٢٦١ هـ ، وأبو عبدالله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ وأبو عبدالله محمد بن عيسى السلمى الترمذى المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وأبو عبدالرحمن أحمد ابن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ [١] .

على أن رغبة الناس فى التقليد ظهرت بظهور أبى الحسن الأشعرى وتفكيره فى الرجوع إلى مذهب أهل السنة ، ويجب أن لا يعزب عن أذهاننا أن مذاهب السنة الأربعة كانت مصدر التشريع فى هذا العصر ، وأنه لم يتقلد القضاء إلا السنيون ؛ بدليل ما ذكره السيوطى [٢] أن بهاء الدولة البويهى (٣٧٩ — ٤٠٣ هـ) لما قلد الشريف أبا الحسين ابن موسى العلوى قضاء القضاء والحج والمظالم ، لم يوافق الخليفة القادر على هذا التقليد ، لأن هذا الشريف كان إماميا اثنا عشريا .

وكان القضاة فى الدولة العباسية ينوبون عن قاضى القضاة [٣] وهو أشبه بوزير العدل الآن . ويقيم فى حاضرة الدولة ، وكان القاضى أبو يوسف صاحب كتاب « الخراج » أول من تلقب بهذا اللقب فى عهد هارون الرشيد ، واستمر هذا فى العصر العباسى الثانى ، ويقول السيوطى إن سلطة القاضى اتسعت حتى أصبح ينظر فى القضايا المدنية وفى الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأوصياء ، وكثيراً ما تضاف إليه الشرطة والمظالم والقصاص والحسبة ودار الضرب وبيت المال [٤] .

---

(١) كتاب النظم الاسلامية للمؤلف ص ٣٣٧ — ٣٣٨ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤ .
(٣) كان قاضى القضاة يسمى أيضا « أقضى القضاة » . راجع هذا الكتاب ص ٨٠
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٢ — ١٩٣ .

وكان لكل ولاية من الولايات الاسلامية فى بادىء الأمر قاض، وباتساع الدولة العباسية أصبح لكل من هذه الولايات قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، وينظر كل منهم فيما يقوم من النزاع بين من يدينون بعقائد مذهبه .

وكان القاضى يجلس فى أول الأمر فى المسجد ، ثم وجد المسلمون أن هذا لا يتفق وحرمة بيوت الله ، فمنع الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) القضاة من الجلوس فى المساجد ، وكان بعض القضاة يقضى بين الناس فى داره .

وكان لقاضى القضاة ببغداد ديوان يعرف بديوان قاضى القضاة ، ومن أشهر موظفى هذا الديوان الكاتب ويتقاضى ٣٠٠ درهما فى الشهر ، والحاجب ويتقاضى ١٥٠ درهما ، وعارض الأحكام ويتقاضى ١٠٠ درهم ، وخازن ديوان الحكم وأعوانه ويتقاضون ٦٠٠ درهم [١] ، كما اقتضى تطور نظام القضاء فى هذا العصر التحرى عن الشهود ، فإن كان الشاهد معروفا بالسلامة ولم يعرف عنه ما يجرحه قبل القاضى شهادته ، وإن كان غير معروف بها لم تقبل شهادته ، وإن كان مجهولا سئل عنه جيرانه ، ومن ثم وجدت جماعة من الشهود عرفوا بالشهود الدائمين أو المعدلين . وكان القاضى يمتاز باستقلال الرأى . ولا يقبل الشفاعات أو الوساطات . حتى إن قاضى جيش عضد الدولة شفع فى بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضى ليسمع تزكيته وبعدله . فقال له عضد الدولة هذه العبارة التى تبين لنا مدى احترام رأى القاضى وعدم تدخل أولى الأمر فى أعماله : « ليس هذا من أشغالك إنما الذى يتعلق بك الخطاب فى زيادة قائد . ونقل مرتبة جندى وما يتعلق بهم . وأما الشهادة وقبولها . فهو إلى القاضى . وليس لنا ولا لك الكلام فيه » .

وكان القاضى يرتدى السواد شعار العباسيين « ويعتم بعمامة سوداء على قلنسية طويلة [٢] » وكانت القلنسوة السوداء فى القرن الثالث الهجرى خاصة هى التى تميز القضاة . وتلبس مع الطيلسان [٣] .

ويحدثنا السيوطى [٤] عند كلامه عن حوادث سنة ٣٥٩ هـ عن تولية ابن أبى الشوارب

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٧٥ ، عن ابن الأثير .
(٢) الكندى : كتاب القضاة ص ٣٧٨ .
(٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٧٣ .
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٣٦٥ — ٣٦٦ .

منصب القضاء فيقول : «وركب بالخلع من دار معز الدولة ، وبين يديه الدبادب والبوقات ، وفى خدمته الجيش » .

على أن القضاء قد تطرق إليه بعض الفساد ، وأصبح من يرشحون أنفسهم لتقلد هذا المنصب الخطير يتعهدون بتقديم مبلغ معين من المال يؤدونه فى كل سنة، حتى إن ابن أبى الشوارب « شرط على نفسه أن يحمل فى كل سنة إلى خزانة معز الدولة مائتى ألف درهم ، وكتب بذلك سجلا [١] » . ولكن الخليفة المطيع لم يوافق على تقليد هذا القاضى وأمر بعدم دخوله عليه ، ويقول ابن الأثير [٢] فى ابن أبى الشوارب : « وهو أول من ضمن من القضاة ، وكان ذلك أيام معز الدولة ، ولم يسمع بذلك قبله ، فلم يأذن له الخليفة المطيع لله بالدخول عليه . وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء ، ثم ضمنت بعده الحسبة والشرطة ببغداد » .

بيد أن هذا النقص لم يكن شائعاً ، فإننا نجد كثيراً من القضاة ينزهون أنفسهم عن هذه العيوب ، حتى إنهم كانوا يقبلون هذا المنصب بعد تردد ، وبعد أن يشترطوا شروطاً تكفل استقلالهم وتحفظ لهم هيبتهم وكرامتهم ، ويحدثنا السيوطى [٣] أن الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) وجه « إلى القاضى أبى حازم كتابا يقول فيه : إن لى على فلان مالا ؛ وقد بلغنى أن غرماءه أثبتوا عندك ، وقد قسطت لهم من ماله ، فاجعلنا كأحدهم ، فقال أبو حازم : قل له : أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ذاكر لما قال لى وقت قلدنى ، إنه قد أخرج الأمر من عنقه وجعله فى عنقى ، ولا يجوز لى أن أحكم فى مال رجل لمدع إلا ببينة. فرجع إليه فأخبره فقال : قل له فلان وفلان يشهدان — يعنى رجلين جليلين ، فقال : يشهدان عندى وأسأل عنهما ، فإن زكيا قبلت شهادتهما ، وإلا أمضيت ما قد ثبت عندى؛ فامتنع أولئك من الشهادة فزعا ، ولم يدفع إلى المعتضد شيئاً » .

وكذلك ذكر السيوطى [٤] أن الخليفة المطيع (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) « قلد القضاء أبا الحسن محمد بن شيبان الهاشمى بعد تمنع ، وشرط لنفسه شروطا منها : ألا يرتزق على القضاء ، ولا يخلع عليه ، ولا يشفع إليه فيما يخالف الشرع ، وقرر لكاتبه فى كل شهر

---

(١) السيوطى : المصدر نفسه.
(٢) جـ ٨ ص ١٩٣ .
(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

ثلثمائة درهم ، ولحاجبه مائة وخمسين ، وللعارض على بابه مائة ، ولخازن ديوان الحكم والأعوان ستمائة ، وكتب له عهد صورته : هذا ماعهد عبدالله الفضل المطيع لله أمير المؤمنين إلى محمد بن صالح الهاشمي ، حين دعاه إلى ما يتولاه من القضاء بين أهل مدينة السلام مدينة المنصور ، والمدينة الشرقية من الجانب الشرقي والجانب الغربي ، والكوفة وسقي الفرات وواسط وكرخي ، وطريق الفرات ودجلة ، وطريق خراسان وحلوان وقرميسين ، وديار مضر وديار ربيعة وديار بكر ، والموصل والحرمين واليمن ودمشق وحمص ، وجند قنسرين والعواصم ، ومصر والإسكندرية ، وجند فلسطين والأردن وأعمال ذلك كلها ، وما يجرى من ذلك من الإشراف على من يختاره من العباسيين بالكوفة وسقي الفرات وأعمال ذلك وما قلده إياه من قضاء القضاة ، وتصفح أعمال الحكام ، والاستشراف على ما يجرى عليه أمر الأحكام من سائر النواحي والأمصار التي تشتمل عليه المملكة وتنتهي إليها الدعوة ، وإقرار من يجد هديه وطريقه ، والاستبدال بمن يذم شيمته وسجيته احتياطا للخاصة والعامة وجنوا على الملة والذمة عن علم بأنه المقدم في بيته وشرفه المبرز في عفافته ، الزكي في دينه وأمانته ، الموصوف في ورعه ونزاهته ، المشار إليه بالعلم والحجا ، المجمع عليه في العلم والنهى البعيد من الأدناس ، اللابس من التقى أجمل اللباس ، التقي الحبيب المحبور بصفاء الغيب ، العالم بمصالح الدنيا ، العارف بما يفسد سلامة العقبى ، أمره بتقوى الله ، فإنها الجنة الواقية وليجعل كتاب الله في كل ما يعمل فيه رويته ، ويرتب عليه حكمه وقضيته ، إمامه الذي يفزع إليه ، وعماده الذي يعتمد عليه ، وأن يتخذ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم منارا يقصده ومثالا يتبعه ، وأن يراعي بالإجماع ، وأن يقتدي بالأئمة الراشدين ؛ وأن يعمل اجتهاده فيما لا يوجد فيه كتاب ولا سنة ولا إجماع ، وأن يحضر مجلسه من يستظهر بعلمه ورأيه وأن يسوى بين الخصمين إذا تقدما إليه في لحظه ولفظه [1] ؛ ويوفي كل منهما من إنصافه وعدله ، حتى يأمن الضعيف حيفه ، ويبأس القوي من ميله . وأمر أن يشرف على أعوانه وأصحابه ، ومن يعتمد عليه من أمنائه وأسبابه ، إشرافا يمنع من التخطي إلى السيرة المحظورة ، ويدفع عن الإشفاق إلى المكاسب المحجورة » .

٢ — في مصر:

اكتسب قضاة مصر في العصر العباسي الأول خبرة واسعة بسبب اشتغالهم بالفقه الإسلامي واشتهروا بالاستقامة . ويكاد يكون القاضي في ذلك العصر غير قابل للعزل كغيره من موظفي

(١) المراد ان يعدل القاضي بين الخصمين حتى في النظرة واللفظة ، لا يفضل احدهما على الآخر .

الدولة . وقد بلغ من محبة الناس للقاضى أن أصبح الولاة فى مصر يخشون عزلهم حتى لايتعرضوا لكراهية الجمهور . ولا غرو فإنه لم يعد للوالى فى العصر العباسى سلطة عزل القضاة بل صارت تصدر المراسيم بتعيينهم من بغداد مباشرة . وكان تحديد رواتبهم ودفعها من اختصاص الخليفة نفسه .

ولم يكن القضاء فى عهد الطولونيين (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) والإخشيديين (٣٢٣—٣٥٨هـ) تابعين لمذهب واحد ، بل كان كل منهم يحكم وفق المذهب الذى ينتمى إليه ، واشتهر قضاة هذا العصر بالنزاهة والاستقامة وعدم المحاباة .

وقد نبغ فى عهد الطولونيين القاضى بكار بن قتيبة ، وكان من أعلم القضاة بالفقه الإسلامى وكان قاضى القضاة فى مصر وقت الفتح الفاطمى سنة ٣٥٨ هـ أبو الطاهر ، وقد تولى هذا المنصب منذ شهر ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ ؛ فرأى جوهر الصقلى أن عزله وإحلال قاض من الشيعة محله قد يثير غضب المصريين ، فأقره فى منصبه لغرض سياسى فحسب ، وعمل فى الوقت نفسه على الحد من نفوذه .

وفى سنة ٣٦٢ هـ عين المعز قاضيا آخر من الشيعة ، هو على بن أبى حنيفة النعمان المغربى ، فقاسم أبا الطاهر القضاء . فكان ابن النعمان يجلس للقضاء بجامع عمرو بن العاص فى الفسطاط ، ويجلس أبو الطاهر بالجامع الأزهر فى القاهرة . واستمرت الحال على ذلك حتى استقل على بن النعمان بالقضاء فى شهر صفر سنة ٣٦٦هـ على أثر استقالة أبى الطاهر لشيخوخته وضعفه كما قيل . وقرىء على منبر جامع عمرو سجل تقليد على بن النعمان منصب القضاء فى عهد الخليفة العزيز . وظل أولاد النعمان يتقلدون القضاء حتى سنة ٣٩٨هـ ، فتقلد الحسين ابن على بن النعمان هذا المنصب فى مصر وما كان يتبعها من الأعمال فى شهر صفر سنة ٣٩٣ هـ ، وأسندت مقاليد الدعوة الفاطمية إلى قاضى القضاة للمرة الأولى ، فغدا يطلق عليه « قاضى القضاة وداعى الدعاة » .

على أن بعض السنيين كانوا يتقلدون القضاء أحيانا ، إذ أن الفاطميين لم يسيروا دائما على قاعدة إسناد القضاء للمتشيعين خاصة فقد أسند الخليفة الحاكم القضاء لرجل من أهل السنة ، وهو أبو العباس بن العوام الحنبلى المذهب ، الذى بقى فى منصبه حتى مات فى عهد الخليفة الظاهر . وقد تقلد ابن العوام وخلع عليه « وأضيف إليه فى الأحكام مصر وبرقة وصقلية والشام والحرمان ، ماعدا فلسطين ، فإن الحاكم كان ولاها أبا طالب ابن بنت

الزيدى الحسينى ، وجعل لأبى العباس النظر فى المعيار ودار الضرب والصلاة والمواريث والمساجد والجوامع » .

٣ — فى الاندلس :

كان للقضاء مركز ممتاز فى الأندلس شأنه فى سائر البلاد الإسلامية ، فكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء ، « لتعلقها (وظيفة القضاء) بأمور الدين ، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدى القاضى[1] » . وكان قاضى القضاة يسمى « قاضى الجماعة » أيضا ، لأنه يكون فى حاضرة الدولة ، وحكمه نافذ فى جميع أرجائها . ويشترط فى القاضى أن يكون متعمقا فى الفقه مشهودا له بالنزاهة والاستقامة ، ولا يشترط أن يكون عربيا خالصا ، فكثيرا ما أسند هذا المنصب إلى بعض الموالى والمولدين والبربر ، وقد كان يحيى بن يحيى الليثى كبير قضاة الأندلس من أصل بربرى . ويختار القاضى غالبا من قضاة الأقاليم المشهود لهم بالتفوق فى القضاء ، أو ممن تولوا بعض مناصب الدولة الهامة . « ولا سبيل أن يتسم بهذه السمة إلا من هو وال للحكم الشرعى فى مدينة جليلة[2] » .

وكان قاضى الجماعة يقيم بقرطبة ويعين من قبل الأمير أو الخليفة ، وينوب عنه فى الأقاليم قضاة يسمى كل منهم « مسدد خاصة » .

وكان القرآن والسنة مصدر التشريع فى الأندلس ، ويسير القضاة فى أحكامهم على وفق مذهب الإمام مالك ، ويقوم بتنفيذ هذه الأحكام الحكام والولاة .

وقد سار الأمويون فى الأندلس على نهج الخلفاء الأمويين والعباسيين فى الشرق فى تولية قضاتهم قيادة الجيوش نيابة عنهم . ويقول ابن خلدون[3] : « وربما كانوا يجعلون للقاضى قيادة الجهاد فى عساكر الصوائف . وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم ، وكذا منذر بن سعيد قاضى عبد الرحمن الناصر من بنى أمية بالأندلس فكانت تولية هذه الوظائف إنما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب » .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣

(٢) المصدر نفسه .

(٣) مقدمة ص ١٩٣ .

ومن اختصاصات القاضى أيضا الإشراف على موارد الأحباس : وسجلات الفتاوى الفقهية [١] ، والإشراف على الصلاة فى أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذى أسسه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء ، والدعاء فى صلاة الاستسقاء [٢] .

(ب) المظالم

وكان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم ، وهو هيئة قضائية عليا تشبه محكمة الاستئناف فى الوقت الحاضر ، ويسمى رئيس هذا الديوان « صاحب المظالم » ، وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضى . يقول ابن خلدون [٣] عن المظالم : « وهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء . وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة . تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدى ، وكأنه يمضى ماعجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه « ويكون نظره فى البينات [٤] والتقرير [٥] واعتماد الأمارات والقرائن [٦] وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود ، وذلك أوسع من نظر القاضى » .

وكانت محكمة المظالم تنعقد برياسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عن أحدهما . ويعين صاحب المظالم يوما يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى . أما إذا انفرد بالمظالم ، نظر فيها طوال أيام الأسبوع؛ وكانت محكمة المظالم تنعقد فى المسجد.

وقد حرص بعض الخلفاء العباسيين على الجلوس للنظر فى المظالم . فقد ذكر المسعودى [٧] أن الخليفة المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦هـ) بنى قبة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها ، وسماها « قبة المظالم » ، وجلس فيها للعام والخاص . ويقول المسعودى [٨] فى مكان آخر: «وذكر

---

(١) أنشىء هذا السجل فى سنة ٢٩١هـ . وكان قاضى القضاة يستفتى الفقهاء فى بعض القضايا المعروضة عليه ، وجعل من هذه القضايا سجلا عاما أصبح مرجعا هاما لقضاة الأندلس .

(٢) كان قاضى القضاة يشرف على الصلاة أيضا ، ولذلك كان يسمى «صاحب الصلاة» واستمرت الحال على ذلك حتى أفرد الناصر للصلاة شخصا معينا » ولقضاة القضاة شخصا آخر .

(٣) مقدمة ص ١٩٣ .

(٤) الحجج .

(٥) التقرير استقصاء البحث من الخصوم فى المسائل حتى يقروا بما يوضح وجهة نظر القاضى .

(٦) يعنى الأخذ بدلالة القرائن والعلامات التى يتبينها القاضى من حال الخصمين عند فقد الأدلة أو الشهود .

(٧) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٣١ .

(٨) جـ ٢ ص ٤٣٦ .

صالح بن على الهاشمى قال : حضرت يوما من الأيام جلوس المهتدى للمظالم ، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه إلى النواحى فيما يتظلم به إليه ما استحسنته » .

وقد تطور نظام النظر فى المظالم فأصبح الوزراء يجلسون للنظر فيها ، ويجلس أكثر الكتاب ومجالسهم ، بل تعدى الأمر إلى جلوس بعض النساء للنظر فى المظالم ، فقد تمتعت « السيدة » أم الخليفة المقتدر بنفوذ كبير ، واتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها « ثومال » صاحبة للمظالم فى سنة ٣٠٦هـ ، فكانت تجلس فى مكان بنته « السيدة » فى الرصافة « وتنظر فى رقاع الناس كل جمعة . فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان ، وتبرز التواقيع وعليها خطها » (١) .

ولم تكن محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد وحدها ، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل فى شكاوى الشعب عامة .

وكان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضى فى أحكامه . وقد بين الماوردى (٢) الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء ، ومن أهم هذه الفروق أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ماليس للقضاة ، بكف الخصوم عن التجاحد (٣) ، ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب ، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الأمارات والشواهد مايصل به إلى معرفة المحق من المبطل ، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا (٤) إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحا عن تراض (٥) . وليس للقاضى ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد ، وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه فيهم ، والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك وأنه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم . ومن عادة القضاة تكليف المدعى أن يحضر بينة ، ولا يسمعون البينة إلا بعد سؤاله .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ٧٩ — ٨٠

(٣) المبالغة فى إنكار الحق من كلا الخصمين .

(٤) أعضلوا استعصى التوفيق بينهم .

(٥) بمعنى أن القاضى إذا لم يتبين رجاحة حجج أحد الخصمين وأشكل الأمر عليه أحال الخصمين على لجنة من ديوان المظالم أو نحوها للتوفيق بينهما صلحا .

(ح) الحسبة

كانت سلطة القاضى موزعة بينه وبين المحتسب وقاضى المظالم . فوظيفة القاضى فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحيانا مما يستدعى الفصل فيها إلى السرعة ، ووظيفة قاضى المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب . وكان القضاء والحسبة يسندان فى بعض الأحيان إلى رجل واحد ، مع ما بين العملين من التباين . فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم أما عمل المحتسب فمبنى على الشدة والسرعة فى العمل (١) .

كان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة ، وكان يقوم بعمل المحتسب ، ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا فى عهد الخليفة المهدى العباسى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) . وقد أجمل ابن خلدون (٢) أعمال المحتسب فى هذه العبارة فقال :

« ويبحث عن المنكرات ، ويعزر (يزجر) ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة . مثل المنع من المضايقة فى الطرقات . ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى الحمل ، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة مايتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الإبلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلمين (٣) . ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء (٤) ، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه . وليس له إمضاء الحكم فى الدعاوى مطلقا فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعايش وغيرها ، وفى المكاييل والموازين . وله أيضا حمل المماطلين على الإنصاف ، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم . وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها وسهولة أغراضها ، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها

---

(١) راجع الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٦١ — ٧٢ .

(٢) مقدمة ص ١٩٦ .

(٣) لم يقتصر زجر المحتسب هنا على المعلمين إذا ضربوا الصبيان ضربا مبرحا ، بل كان له أن يزجر العالم إذا خالف ما أجمع عليه الفقهاء فى تفسير القرآن أو انفرد برواية حديث ينطوى على الابتداع بقصد إفساد المعقول ، فإذا لم يكف عن ذلك فله أن ينكر عليه ويحول دون تكرار ما حدث إذا أجمع علماء هذا العصر على إنكاره وابتداعه . (الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٣٠) .

(٤) أى طلب رد عدوان الغير .

فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء . وقد كان فى كثير من الدول الإسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره » .

وقد ارتقى نظام الحسبة فى عهد الفاطميين ، وكان للمحتسب نواب يطوفون فى الأسواق فيفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهاة ، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع ، ويشرفون على السقائين لضمان تغطيتهم القرب ولبس السراويل بما لا يتنافى مع الآداب ، ويمنعون معلمى الكتاتيب من ضرب الصغار ضرباً مبرحاً . وكذلك كان المحتسب يجلس للفصل بين الخصوم فى جامعى عمرو والأزهر ، واتسعت سلطته حتى ألزم رجال الشرطة بتنفيذ أحكامه ، وكان يتقاضى راتباً شهريا قدره ثلاثون ديناراً [١] .

أما فى الأندلس فكان يتولى الحسبة فى كل مدينة موظف يسمى المحتسب أو صاحب السوق ، لأن معظم عمله متعلق بالإشراف على أهل الأسواق . وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من المشهود لهم بالعلم والمعرفة والفطنة ، ويختار من بين القضاة ، لأن عمله مرتبط بالقضاء ، وقد حدد المقرى [٢] سلطة المحتسب فى الأندلس ، ومنه يتبين أن هذا النظام بلغ شأواً بعيداً من الدقة ، حتى إن أثمان الحاجيات كانت محددة ، وإن الإشراف على الباعة بلغ مبلغاً كبيراً ، وإن المحتسبين كان « لهم فى أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه ، لأنها عندهم تدخل فى جميع البياعات [٣] » .

رواتب القضاة :

كان القضاء من أهم مناصب الدولة فى هذا العصر ، ولذلك رفع العباسيون رواتب القضاة حتى لا يتطلعوا إلى الرشوة التى يجب أن يتنزه عنها القاضى . فلما تولى قضاء مصر عبد الله بن طاهر قلد عيسى بن المنكدر القضاء فى سنة ٢١٢ هـ وأجرى عليه سبعة دنانير فى كل يوم . وفى عهد أحمد بن طولون كان القاضى بكار بن قتيبة يتقاضى ألف دينار فى

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .
(٣) ورد فى الأصل المبتاعات ، ولعلها محرفة عما أثبتناه .

الشهر . وذكر القلقشندى[١] أن راتب قاضى القضاة بلغ مائة دينار فى الشهر عدا المخصصات الأخرى . وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاة وبين أخذ الأموال بغير حق ، فأمر بأن يضاعف رزق الحسين بن على بن النعمان وصلاته وإقطاعاته ، وشرط عليه ألا يتعرض لدرهم واحد فما فوقه من أموال الرعية .

وقد تقلد على بن المحسن التنوخى المتوفى سنة ٤٤٧ هـ القضاء فى عدة نواح ، وبلغ دخله من القضاء ودار الضرب التى كان يتولاها مع القضاء ستين ديناراً فى الشهر ، مما يدلنا على أن راتب القاضى أخذ فى العصر العباسى الثانى يقل شيئاً فشيئا ، حتى لقد اشترط على بعض القضاة أحياناً أن لايأخذوا راتباً عن قيامهم بأعمال هذا المنصب .

وبعد أن كان الالتزام مقصورا على الخراج ، بمعنى أن تعهد الدولة إلى أشخاص يجبونه على أن يؤدوا لبيت المال مبلغاً معينا ، تعدى هذا النظام إلى القضاء فأصبح القاضى يلتزم القضاء على أن يؤدى لبيت المال مبلغاً من المال مقابل ما يجبيه من رسوم القضايا . وقد التزم عبد الله بن الحسن بن أبى الشوارب لمعز الدولة بن بويه على ٢٠٠ر٠٠٠ درهم فى السنة عن قضاء بغداد[٢].

---

(١) صبح الأعشى فى صناعة الانشا جـ ٣ ص ٥٢٦ .

(٢) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٣٥١ — ٣٥٢ وآدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٣٦٣ — ٣٦٦ .

الباب الثامن

الحالة الاقتصادية

١ — الزراعة :

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب [١] أن العباسيين عنوا بالزراعة وفلاحة البساتين التى قامت على دراسة عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية التى كان لها أثر كبير فى إنارة عقول المسلمين، فتوسعوا فى البحث النظرى، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات .

ولما كانت الزراعة تعتمد على الرى ، عنى العباسيون بتنظيم أساليبه ، وجعل الماء مباحا للجميع ، ولذلك عملوا على تنظيمه فى مصر والعراق واليمن وشمال شرق فارس وبلاد ما وراء النهر والهند وبلغ هذا النظام شأواً بعيداً من الدقة ، حتى إن الأوربيين أدخلوا كثيرا من هذه النظم فى بلادهم. وقد عنيت الدولة العباسية بصيانة السدود والترع ، وجعلوا عليها جماعة من الموظفين أطلق عليهم اسم المهندسين ، ومهمتهم المحافظة على هذه السدود خشية انبثاق الماء منها ، إذ يكفيه (عمران الخارج على بختيار بن معز الدولة) « إيقاع ثلمة يسيرة فى أحد نواحى السد ثم يحمل الماء فيتولى كفايته [٢] فى الهدم والتخريب . فربما أفسد فى ساعة من الليل أو النهار تعب سنة أو نحوها. وذلك أن هذه السدود تكون من قصب وتراب يقام فى وجوه المياه الجارية عند ضعف جريانها وغاية نقصانها. فإذا وردت المياه القوية ، ومنعت من حدورها [٣] ، كفى معها [٤] اليسير من المعونة ، [٥] حتى تنبعث ويدفع بعضها بعضاً . وربما كان سبب انبثاق الماء ثقب فأرة ، ثم يوسعه الماء وينتهى فيه إلى حيث لا حيلة فى سده [٦] .

---

(١) الطبعة الثانية ص ٢٤٣

(٢) أن يبلغ مداه

(٣) أى من انصبابها وحربها

(٤) فى الأصل منها ولعلها تحريف عما أثبتناه .

(٥) يعنى المعاونة فى فتح ثلمة يسيرة يندفع منها الماء .

(٦) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٩٦ — ٢٩٧

وقد جعل العباسيون لماء الرى بمرو ديوانا أطلقوا عليه «ديوان الماء» (١) ، ويشرف على هذا الديوان موظف كبير يعاونه أكثر من عشرة آلاف عامل ، وتودع فى سجلاته مقادير إخراج الأراضى على حسب نوع ريها . فيؤخذ العشر «إذا كان يسقى سيحا أن تسقيه السماء وإن كان يسقى بغرب (٢) أو دالية أو سانية ، ففيه نصف العشر» (٣) ، كما كانوا يعينون بإقامة مقاييس على الأنهار للوقوف على مقدار ارتفاع الماء وانخفاضه للاستئناس بذلك فى فرض الضرائب .

وكذلك كان العباسيون يعنون بحراثة الأرض ويستخدمون لذلك الأبقار ، وقد بلغ عدد أبقار الحرث فى أردبيل ثمانية لكل محراث ، ولكل اثنتين منها قائد كما كانو يعنون بتسميد الأرض والمحافظة على ثمارها ، حتى جعلوا كثيراً من الأطفال لنظارتها أى حراستها وطرد الطيور عنها ؛ وعنوا كذلك بتربية الحيوانات ، وخاصة البقر ، ثم بتربية الجاموس الذى جلبوه من الهند بعد أن كثرت البطائح والمستنقعات فى القرن الرابع الهجرى ، ثم انتشر استعماله فى سائر البلاد الإسلامية ، وكانوا يربون البقر لاستعمال ألبانه ، ويعتقدون أن لحمه يضر بالصحة ، ويفضلون عليه لحم الجاموس . وكانت مصر تجلب كثيراً من حيوانات الذبح من برقة التى تكثر فيها المراعى ، ولا تزال كذلك حتى اليوم ، واشتهرت جزيرة العرب بكثرة الجمال ذات السنام الواحد ، كما اشتهرت بلخ بالجمال ذات السنامين التى تسمى البخاتى ، وكانت الخيل تجلب من بلاد العرب ، وخاصة إقليم الحسا ، إلى بغداد ، كما اشتهرت نجد وفارس بتربية الخيل ومصر بتفريخ الدجاج وتربيته ، وحفظ الحمام فى أبراج لوقايته من الأفاعى (٤) .

ومن الطريف أن بعض البلاد كان يعنى بتربية الكلاب وذبحها ، فكان القرامطة يربون الكلاب ويسمنونها ، ثم يذبحونها ويأكلونها (٥) .

ومن أشهر الحاصلات الزراعية الحنطة ، وتزرع فى البلاد الكثيرة المياه كالعراق وخوزستان ومصر ، والذرة وتكثر فى جنوب البلاد الإسلامية كجنوب بلاد العرب وكرمان والنوبة ، والأرز وتكثر زراعته فى خوزستان ومازندران ، والقلقاس فى فلسطين ومصر

---

(١) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٤٥ .
(٢) الغرب هو الدلو العظيمة يستقى بها على الساقية ، والسانية البعير يسقى عليه أى يستقى من البئر .
(٣) أبو يوسف كتاب الخراج ص ٦٢ .
(٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٢٨١ — ٢٩٤ .
(٥) Nasir —i— khusrau : safar Nameh pp · 227—8

وآسيا الصغرى ، وتكثر زراعة الكروم فى العراق واليمن ومصر وبلخ والشام [١] .

ومن الحاصلات الزراعية أيضا النارنج والأترج الذى يقول المسعودى [٢] إنه « حمل من أرض الهند بعد الثلثمائة (للهجرة)، فزرع بعمان، ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام، حتى كثر فى دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية ، وأنطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر ، وما كان يعهد ولا يعرف ، فعدمت منه الروائح الحرية الطيبة واللون الحسن الذى يوجد فيه بأرض الهند ، لعدم ذلك الهواء والتربة وخاصية البلد » . واشتهرت مصر بزراعة الليمون ؛ « وكان من جملة أصناف الليمون بأرض مصر ليمون يقال له التفاحى يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذة طعمه [٣] » . كما اشتهرت مصر بزراعة البطيخ الذى كانت له سوق نافقة . واشتهر فيها نوع من البطيخ يقال له العبدلاوى نسبة إلى عبد الله بن طاهر الذى حكم مصر فى عهد الخليفة المأمون العباسى ، وهو الذى جلبه من خراسان إليها عند قدومه . وكان تفاح الشام مضرب المثل فى الجودة ، كما كانت العراق ، وخاصة البصرة وكرمان وشمال إفريقية ، تنتج مقادير كبيرة من التمر الذى كان يجفف ويرسل إلى البلاد الأخرى. واشتهرت بلاد الشام وشمال إفريقية بزراعة الزيتون، واشتهرت نابلس وحلب بصناعة الزيت المستخرج منه [٤] . وكثرت زراعة قصب السكر فى كثير من البلاد الإسلامية ، وخاصة فى بعض بلاد الأفغان وفى بلاد الشام ومصر وخوزستان والعراق والأندلس ، ويزرع فى بلاد الهند القرنفل والفلفل والصندل والدارصينى وأشجار التوت لتربية دود القز . ويزرع فى أصبهان السفرجل والكمثرى والتفاح [٥]. ومن أشهر محاصيل مصر فى عهد الفاطميين خاصة القمح والشعير والفول والقصب والقلقاس والباذنجان والفواكه .

وقد حاول مسلمو المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التى لاتنمو إلا فى البلاد الحارة: كالتوابل والقطن وقصب السكر والتوت ؛ ولكن زراعة التوابل لم يقدر لها النجاح ، على حين نجحت زراعة القطن وقصب السكر والتوت فى بعض جهات الأندلس وصقلية [٦]

---

(١) الجاحظ : كتاب التبصر بالتجارة ص ٢٩ . (٢) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .
(٣) المقريزى : خطط جـ ١ ص ١٧٣ .
(٤) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٩٣ .
(٥) راجع الجاحظ : كتاب التبصر بالتجارة ص ٢٦ — ٣٢ .
(٦) Heyd : Histoire de Commerce du Levant. tome. I. p. 50.

واشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والذرة، وبزراعة الفواكه كالبرتقال والكمثرى والتفاح والتين والعنب والرمان ، والخوخ الذى كانت تكثر زراعته فى السهول ، والموز وتكثر زراعته فى وديان البحر الأبيض المتوسط ، كما اشتهرت بزراعة الأرز وقصب السكر والزيتون . واهتم أهل الأندلس بزراعة الكتان والقطن لصناعة الملابس . والتوت لتربية دود القز ، وانتفع الأمويون بمياه الأنهار الكبيرة كنهر كتاجة والوادى الكبير والوادى اليانع وإبرو ، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول ، واستخدموا هذه المياه فى الزراعة التى أحرزوا قصب السبق فيها . ووضع الأمويون تقويما للزراعة عرف بالتقويم القرطبى، الذى أصبح دليلا ودستوراً لزراعة النباتات المختلفة فى مواعيدها ، وأخذه عنهم غيرهم من الأمم .

٢ — الصناعة

كان للصناعة فى العصر العباسى الثانى حظ كبير من عناية الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين اهتموا باستخدام موارد الثروة على اختلافها . ومن الصناعات التى ازدهرت فى هذا العصر صناعة النسيج : فقد اشتهرت مصر بصناعة الكتان الذى كثرت زراعته فى الفيوم . ومن أشهر مراكز هذه الصناعة فى القرن الرابع الهجرى إقليم الفيوم ونواحى بحيرة تنيس ، وخاصة مدن دمياط وشطا ودبيق التى تنسب إليها الثياب الدبيقية ، وفى تنيس التى كانت تصدر إلى العراق وحدها ما تتراوح قيمته بين ٢٠,٠٠٠ ، ٣٠,٠٠٠ دينار سنويا ، وفى دبيق كانت تصنع الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة ، والدبيقى العلم المذهب . وكانت العمائم الشرب المذهبة تعمل بها ، ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع ، وفيها رقمات منسوجة بالذهب ، وقد بلغت قيمة العمامة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل(١).

واشتهرت مدينة كازرون بفارس بصناعة النسيج ، حتى سميت دمياط الأعاجم . كما كان لصناعة القطن فى شرق البلاد الإسلامية مركز ممتاز فى صناعه الكتان ، حتى قال الثعالبى إن القطن لخراسان والكتان لمصر ، وانتقلت زراعة القطن وصناعته من الهند إلى

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٢٦ .

ذكر ناصر خسرو Safar Nameh. p. 139 عند كلامه على الاحتفال بوفاء النيل بحضور الخليفة المستنصر الفاطمى أن ثوب الخليفة كان من صنع دبيق ، وأن قيمته ألف دينار . كما ذكر أيضا أن عمامة صاحب المظلة الذى كان يسير إلى جانب الخليفة ويحمل له المظلة كانت مزينة بالأحجار الكريمة ، وأن ثوبه من جنس ثوب الخليفة .

خراسان وفارس أولا ، ثم انقلبت بعد ذلك بزمن طويل إلى الأقاليم الغربية للدولة الإسلامية واشتهرت مدينة كابل فى هذا العصر بنسيج القطن الذى كانت تصدره إلى الصين ، كما اشتهرت بلاد ما وراء النهر بزراعة القطن وصناعته . وأدخل الحمدانيون هذه الزراعة فى بلاد بين النهرين ، كما انتشرت كذلك فى المغرب والأندلس . ومن أهم مراكز صناعة القطن مرو ونيسابور حيث رخصت أسعاره عن أسعار نسيج الكتان ، حتى إن إسماعيل ابن أحمد السامانى (٢٧٩ — ٢٩٥ هـ) منح كل قائد من قواده ثوبا من الكتان هدية قيمة (١) .

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين من أهم مراكز الصناعة . فقد بلغ نظام الطراز (٢) مبلغا كبيراً من الرقى ، كما ازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية . وتتبين لنا مقدار مهارة المصريين وحذقهم فى تلك الصناعات ، من وصف الكسوة (بضم الكاف وكسرها) التى أمر الخليفة الفاطمى المعز بعملها للكعبة (٣) .

وقد بنى المعز دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفى الدولة على اختلاف مراتبهم ، وقد عنى خلفاؤه بصناعة النسيج ، وكانوا يصنعون مقادير وافرة منها لهم ولرجال بلاطهم .

وهناك أنواع خاصة من الثياب اشتهر فى هذا العصر . من ذلك الثياب العتابية المصنوعة من الحرير ، وتنسب إلى عتاب أحد أحياء بغداد (٤) . والخسروانى (أو الخسرَوانى بفتح الراء) ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى خسرو شاه أحد ملوك الفرس (٥) ، والقلمونى ، وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس . وقد نقلت

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٢) فارسى الأصل معناه التطريز ، ثم أصبح يطلق على الثوب الموشى . ولا يرتدى هذا النوع من الثياب إلا الملوك والأمراء وأصحاب المناصب العالية . وبعد أن كان هذا اللفظ يطلق على الكتابة الموشاة ، أصبح يطلق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة على النسيج المنقوش أو الموشى بالخيط ، وعلى النقوش التى توضع على الأشرطة المستعرضة من أى نوع ، سواء أكان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار ، أو كان محفوراً بالخشب .

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ .

(٤) كان عتاب ابن حفيد عميرة وإليه ينسب هذا الحى الذى اشتهر بصناعة هذا النوع من الثياب أنظر Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes

(٥) Lane: Arabic-English Lexicon

صناعته من بلاد اليونان إلى مصر حيث أصبح يصنع فى دمياط وتنيس خاصة[١]، والتسترى، وهو نوع من الحرير ينسب إلى تستر [٢] أشهر مدن خوزستان ، والقرقبى وهو نوع من القماش كان يصنع فى بلاد اليونان ، ثم أدخلت صناعته إلى مصر ، وأصبح يصنع فى دمياط وتنيس ، واشتهر هذا القماش بألوانه اللامعة التى تتغير دائما لاسيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس [٣] . والنصفية ، وهى ثياب مصنوعة من الحرير والقطن .

وقد ذكر المقريزى [٤] أن الخليفة المعز الفاطمى أمر فى سنة ٣٥٣ هـ بعمل خريطة من لحرير الأزرق التسترى والقرقوبى المنسوج بالذهب ، كان مبينا عليها بالذهب كافة أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن ، كما ظهر عليها مدينتا مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة [٥] . كما ذكر المقريزى [٦] أن الخليفة المستنصر ترك فيما تركه من الكنوز خمسين ألف مقطع من الحرير الخسروانى كان أكثره مذهبا ، كما ترك حشية قلمونية بيعت بألفين وأربعمائة دينار [٧] .

واشتهرت مرو بإقليم طبرستان بصناعة الإبريسم، وتفوق أهل أرمينية فى صناعة التكك الإبريسمية التى كان ثمن الواحدة منها يتراوح بين دينار وعشرة دنانير .

واشتهرت فارس وأرمينية وبلاد ماوراء النهر بصناعة الملابس والفرش الصوفية وكان للبسط الفارسية التى تصنع فى أصبهان خاصة[٨] المكانة الأولى منذ عهد بعيد . كما اشتهرت صناعة البسط الأرمينية فى القرن الرابع الهجرى خاصة ، ومنها انتشرت هذه الصناعة فى آسيا الصغرى ، حيث أصبح للبسط الأزميرية مكانة ممتازة فى أوربا ، كما اشتهرت غرناطة بهذه الصناعة وكادت تبذ مدن المشرق فى ذلك [٩] .

ومما ذكره الجاحظ نرى أن « خير الأكسيه من الصوف ، المصرية ، ثم الخوزيه (نسبة الى خوزستان) الفارسية » واشتهرت سابور والكوفة وجور جنوبى فارس بصناعة

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، Dozu : Supplément aux Dictionnaires Arabes

(٢) وهى معربة عن شستر .

(٣) القرقب طائر يرى فى الغدر والمستنقعات . انظر معجم البلدان لياقوت .

(٤) خطط جـ ١ ص ٤١٧ (٥) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٣٥٧ .

(٦) خطط جـ ١ ص ٤١٦ .

(٧) أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٨) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٢٢ .

(٩) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٩٥ .

الروائح العطرية المستخرجة من البنفسج والنيلوفر والنرجس والسوسن والزئبق والنارنج . واختصت مدينة جور باستخراج ماء الورد الذى كان يحمل إلى الصين والهند واليمن ومصر والمغرب والأندلس (١) .

وقد راجت صناعة الورق فى العصر العباسى الثانى ؛ وكان ورق البردى الذى اشتهرت به مصر . منذ عهد بعيد كثير الاستعمال حتى أوائل العصر العباسى الثانى ، ثم حل محله الكاغد الذى انتقل من الصين إلى البلاد الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . واشتهرت سمرقند بصناعة الكاغد ، حتى قيل إن كواغد سمرقند عطلت قراطيس مصر . وانتشرت صناعة الورق فى دمشق وطبرية وطرابلس الشام ، وحافظت سمرقند على شهرتها فى هذه الصناعة . وقد قال ابن الفقيه الهمذانى عن شهرة فارس فى صناعة الحديد وغيره : « لقد ألان الله عز وجل لهؤلاء القوم الحديد ، وسخره لهم حتى عملوا منه ما أرادوا . فهم أحذق الأمة بالجوامع والأقفال والمرايا وتطبيع السيوف والدروع والجواشن ، ولهم الثياب الجبائية والسينيزية ، ولهم الماورد الجورى ، والطين السيرافى ، والأكسيه الفسوية ، والأدهان السابورية والثياب الكازرونية (٢) » .

واشتهرت بلاد الأندلس باستخراج المعادن من مناجمها المختلفة ، وعلى الأخص الذهب من المناجم الواقعة على نهر تاجة ، والفضة ببعض جهات قرطبة ، والحديد من جبال طليطلة والرصاص من غربى قرطبة ، والنحاس بنواحى طليطلة وشمالى الأندلس ، وقال المقرى إنه كان بالأندلس عدة مقاطع للرخام الأبيض والحمرى والأحمر والمجزع . وقد وصفها وصفاً شائقا وذكر أماكنها وكانت قرطبة مركزاً هاما لصناعة الجلود ، كما اشتهرت الأندلس بصناعة السفن وآلات الحرب من التراس والرماح والسروج واللجم والدروع . وكذلك اشتهرت الأندلس باستخراج الزيت من الزيتون ، والنبيذ من الكروم ، كما مهر أهل هذه البلاد فى استخراج العقاقير من النباتات المختلفة . التى أخذها عنهم الأوربيون فيما بعد (٣) .

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٣١٣ .

(٢) الجاحظ : كتاب التبصر بالتجارة ، ملحق ص ٤١ . أنظر أيضا « باب ما يجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجوارى والأحجار وغير ذلك » (ص ٢٥ — ٣٤) .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٩٥ — ٩٦ .

٣ — التجـارة

(١) طرق التجارة :

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن عناية خلفاء العصر العباسى الأول لم تقتصر على الزراعة والصناعة ، بل انهم اهتموا كذلك بتسهيل سبل التجارة : فأقاموا الآبار والمحاط فى طرق القوافل ، ، وأنشئوا المنائر فى الثغور ، وبنو الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار . وكان لذلك أكبر الأثر فى نشاط التجارة الخارجية والداخلية فأصبحت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب البلاد وتمخر عباب البحار . واحتلت تجارة المسلمين فى العصر العباسى الثانى المكانة الأولى فى التجاره العالمية . وكانت الإسكندرية وبغداد مقياسا لأسعار البضائع العالمية فى ذلك الحين . ومن أشهر طرق التجارة بين الشرق والغرب .

أولا : من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر ، ويقوم به غالبا اليهود الذين كانوا من أكبر المنافسين لتجار المسلمين من فارس والعراق . وكان لهم بمدينة أصبهان حى يسمى اليهودية . كما كان معظم تجار مدينة تستر بخوزستان من اليهود الذين كانوا يشرفون أيضا على تجارة اللؤلؤ الذى يستخرج من خليج فارس (١) . وكان هؤلاء التجار يفدون من مقاطعة بروفانس بفرنسا ، ويسميهم المسلمون فى ذلك الحين تجار البحر أو اليهود الرادانية نسبة إلى نهر الرون ، ويتكلمون العربية والفارسية والرومية والفرنسية والصقلبية ، ويجلبون من الغرب الجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز (٢) والفراء والسمور والسيوف ، ويبدءون رحلاتهم التجارية من بروفانس التى يسميها العرب « فرنجة » . وترسوا سفنهم إما عند الفرما — وكانت تعد من أهم الموانىء التجارية فى ذلك الحين — ثم يحملون هذه السلع على دواب الحمل إلى القلزم ، وهى مدينة السويس الحالية (٣) ، أو إلى الاسكندرية التى كانت ملتقى التجارة العالمية ، ومنها تنقل إلى الفسطاط أو إلى

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٥٦ . آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٢٣ .
(٢) الخز اسم دابة ثم أطلق على الثوب المأخوذ من وبرها ، والخز الذكر من الأرانب .
(٣) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥٤ .

القاهرة عن طريق النيل . ويقول « هيد »[١] إن شهرة بغداد طغت على الإسكندرية حينا من الدهر ، إلا أن هذه المدينة ازدهرت من جديد ، منذ أيام الطولونيين . وكانت هذه السلع تنقل من الفسطاط برا على الدواب إلى القلزم ، ومنها تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانئه الهامة مثل جدة حتى تصل السفن إلى الهند والصين . ويحمل التجار فى عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود والكافور والدارصينى . فإذا وصلوا إلى القلزم اتجهوا إلى الفرما أو إلى الاسكندرية ، ومنها إلى بروفانس ، وأحيانا يقصد بعضهم القسطنطينية[٢] .

ثانيا : ومن أوربا إلى المشرق عن طريق أنطاكية ، ويبدأ تجار اليهود الراذانية من بروفانس بحراً إلى أنطاكية ، ومنها ينقلون السلع على الدواب إلى الفرات إلى أن يبلغوا بغداد عن طريق هذا النهر وجداوله ، ثم يركبون فى دجلة إلى الأبلة[٣] ، ثم إلى عمان والهند والصين .

ثالثا : من بلاد الروس الشمالية إلى المشرق عن طريق بحر قزوين ، ثم إلى مرو فبلخ وبخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين . ويحمل هؤلاء التجار معهم جلود الخز وجلود الثعالب والسيوف والشمع والعسل . وكان المسلمون يعاملونهم معاملة طيبة ويأخذون منهم الجزية باعتبارهم مسيحيين[٤] .

ومما جعل لهذا الطريق أهمية تجارية اعتناق أهل القلجا الإسلام فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وجهود السامانيين الذى عملوا على إقرار الأمن فى خراسان وبلاد ماوراء النهر ، حتى إن قوافل التجار كانت تسير فى أمن ودعه أضف إلى ذلك زواج ولد نصر بن أحمد السامانى من ابنة ملك الصين وما كان لذلك من أثر فى رواج التجارة بين الصين وبلاد السامانيين[٥] .

وينبغى ألا ننسى فتوح محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢٢ هـ) فى بلاد الهند وما كان لها من أثر فى رواج التجارة . ويرجع معظم النقود الإسلامية التى اكتشفت فى شمال أوربا

---

(١) Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen—Age, tome I. p. 41.

(٢) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥٤ .

(٣) بلدة على شاطىء دجلة فى زاوية الخليج الفارسى — أنظر ياقوت معجم البلدان .

(٤) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص١٥٤ . (٥) أنظر لفظ الصين فى معجم البلدان لياقوت .

إلى القرن الرابع الهجرى ، وكان أكثرها من نقود الساسانيين . ولا غرو فقد أصبحت بلاد الروس منذ ذلك الحين طريقا هاما بين شمال أوربا وبلاد المشرق .

رابعا : الطريق البرى من غوربا إلى المشرق ، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق ، مجتازاً بلاد المغرب الأقصى والأدنى والأوسط عن طريق إفريقية (تونس) حتى يصل إلى مصر ، ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق ، ثم يتجه إلى العراق ماراً بالكوفة وبغداد والبصرة ، ثم إلى فارس مارا بالأهواز ، ثم إلى كرمان والهند والصين (١) .

وكان لهذه الطرق التجارية ورواج التجارة فضل كبير فى انتشار الجاليات الإسلامية فى البلاد الممتدة إلى الصين وكوريا . فنرى فى بلاد الخزر والصين وكوريا وغيرها جاليات إسلامية كبيرة لا تقبل غير حكم المسلمين (٢) .

وقد ذكر الرحالة العرب الذين قاموا برحلاتهم فى القرنين الثالث والرابع (التاسع والعاشر الميلاديين) ، أنهم كانوا يلاقون شيئا كثيرا من العطف والرعاية من بعض ملوك الهند ، وأن جماعة من أمراء ملبار اعتنقوا الإسلام ، وسمحوا للعرب بإقامة المساجد فى هذه البلاد . وفى الوقت الذى أنشأ فيه العرب جاليات عربية على سواحل الهند وفى بعض مدنها ، كانت جيوشهم قد جاوزت حدود فارس منذ أوائل القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) واستولت على بلاد السند ، وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية ونمت فى الملتان والديبل . وكانت سفن فارس وبلاد العرب تعرج على تلك البلاد فى ذهابها إلى بلاد الهند والصين ، وفى عودتها حاملة حاصلات تلك البلاد (٣) .

(ب) أشهر مراكز التجارة :

كان لاستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر وعلى المغرب ثم على الأندلس وصقلية أثر كبير فى رواج التجارة ، ومن ثم أصبح العرب وسطاء لنقل التجارة بين الشرق والغرب ، وأصبح بعض المدن الساحلية على هذا البحر ذات أهمية خاصة للتجارة . فقد رأينا أهمية أنطاكيا التى حصنها الخليفة المعتصم حتى أصبحت من أهم مرافق بلاد الشام التجارية (٤) ، كما أصبحت

---

(١) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥٤ — ١٥٥ .
(٢) مز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣١٥ — ٣١٦ .
(٣) Heyd, 32—3 Arnold. The Preaching of Islam p, 363 et seq,
(٤) Heyd, tome I. pp. 43-4.

أداة الاتصال بين الشرق والغرب . وغدت الفرما والإسكندرية من المراكز الهامة للتجارة بين الشرق والغرب حيث تنقل منهما التجارة الآتية من أوربا إلى البحر الأحمر ، والتجار الآتية من الشرق إلى أوربا . وكانت السفن بعد إقلاعها من الأسكندرية ترسو أول الأمر فى ميناء برقة التى كانت تكثر فيها السلع الشرقية والغربية فى القرن الرابع الهجرى ومن طرابلس نرى سلسلة من الموانىء التجارية الهامة تمتد حتى مراكش . وكانت المهدية التى أنشأها الخليفه الفاطمى المهدى أكثر هذه الموانىء عمرانا وازدهارا لقربها من مدينة القيروان ، حتى كانت السفن تفد اليها تباعا من مصر وسورية محملة ببضائع آسيا[١] . كما قامت علاقات تجارية بين الأندلس وغيرها من البلاد الشرقية حاملة منتجات هذه البلاد .

وكانت أيلة والقلزم وجدة من أهم الموانىء التجارية على البحر الأحمر . ولا غرو فقد كانت أيلة والقلزم المنفذين الرئيسين فى شمال البحر الأحمر ، وعن طريقهما كانت تنقل السلع من الغرب إلى الشرق وبالعكس . وترجع أهمية جدة إلى أنها محطة الحجاج المسلمين الذين كانو يفدون إليها عن طريق أيلة والقلزم أو عن طريق عيذاب . كذلك اشتهرت عدن بالتجارة ، لوقوعها على مقربة من مدخل البحر الأحمر جنوبا ، حتى إن السفن المحملة بمنتجات الشرق والغرب كانت ترسو عليها . كذلك كانت البصرة من أهم مراكز التجارة ، لأنها « تعد باب بغداد الكبير ، ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا . . . ومحط رحال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى»[٢]. وأصبحت بغداد مركز التجارة فى العالم الإسلامى حتى كانت هى والأسكندرية ـ كما رأينا ـ يتنافسان الزعامة التجارية ويقرران أسعار السلع فى ذلك الحين ، وزاد من أهمية بغداد التجارية أنها كانت حاضرة العالم الإسلامى فى ذلك العصر وملتقى كثير من الطرق التجارية . وترجع شهرة دمشق باعتبارها مركزا من أهم المراكز التجارية إلى وقوعها على طريق قوافل الحجاج الرئيسى حتى إن الحجاج كانو يجتمعون فيها عند ذهابهم إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وعند عودتهم إليها بعد أداء الفريضة ، مما ساعد على تدفق السلع إلى أسواقها[٣] . وكان كثير من

---

(١) Ibid, p. 49.

(٢) الجاحظ : كتاب التبصر بالتجارة مقدمة ص ٣ .

(٣) Heyd, tome I, p. 42.

حجاج المسلمين يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج فى مكة ، فيتقابلون مع المسيحيين ، وبذلك أصبحت هذه المدينة سوقا ناققة للتجارة بين الشرق والغرب .

واعتاد المسلمون أن يقيموا الأسواق فى أوقات معينة فى المدن التجارية الهامة . ومن المدن التى اشتهرت بأسواقها : أصبهان، التى يحدثنا ناصر خسرو أنه كان فيها بسوق الصرافين مائتا صراف يجلسون فى سوق عرفت بسوق الصرافين[١] ، والبصرة ، التى يقول فيها ابن الفقيه : « أبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وحميرى ، ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى[٢] ، فلا بد أن يرى فيها بصريا أو حميريا »[٣] .

وكانت التجارة تعتمد على إقامة الأسواق ، وتقيم كل طائفة من التجار فى قسم من أقسام هذه الأسواق ، ويمكثون إلى ما بعد الظهر ولا يعودون إلى منازلهم إلا فى المساء . أما أسواق المدن فكانت تقام فى أيام معينة من الأسبوع . وكانت الحوانيت فى مصر والشام وفلسطين تمتد على طول الشارع من الجانبين ، وخصصت فنادق للتجار الغرباء كانت أشبه بالأسواق الكبيرة . وكانوا يضعون بضائعهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها ، ويغلقون غرفهم بأقفال رومية . ويطلق على هذه الأسواق أو المخازن الفنادق أو القياصر[٤] . وهناك خانات أو مخازن كبرى ، كدار البطيخ بالبصرة حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة[٥] : وأما فى بلاد المشرق فكانت الحوانيت تكون صفوفا فى مكان واحد .

وكانت العملة المستعملة فى الأسواق : العملة الذهبية وهى الدينار ، والفضية وهى الدرهم ، وكان الدينار شائعا فى البلاد الغربية للدولة الإسلامية ، وخاصة فى البلاد التى كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل استيلاء العرب عليها أما الدرهم فكان استعماله شائعا فى العراق وفارس . إلا أن استعمال الدنانير لم يلبث أن أصبح فى القرن الرابع الهجرى شائعا فى بلاد العراق . ومع ذلك ظلت سائر البلاد الإسلامية الشرقية تتعامل بالدراهم . وكان الدينار يساوى أربعة عشر درهما فى ذلك العصر . ولكن الدينار كان يختلف من حين إلى حين ومن بلد إلى بلد : فتارة نرى الدينار يساوى ١٠ دراهم وتارة ١٣ درهما وتارة أخرى ١٥ درهما ، ومن وسائل التعامل الصك ، وهو أشبه بالشيك الآن ، والمقايضة ، وقد حرم الإسلام التعامل بالربا ، ولكن اليهود والنصارى أباحوه لأنفسهم فى بعض الأحيان[٦]

---

(١) Nasir-i Khusrau : safar Nameh, p. 253

(٢) يقصد أقصى حدود المملكة الاسلامية شرقا وغربا .

(٣) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٥١ .

(٤) من الكلمة اليونانية paodokeion

(٥) متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٦) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣١٦ — ٣٢١ ، ٣٢٨ — ٣٣٠ .

الباب التاسع

الثقافة والفن

١ — الثقافة

مراكز الثقافة :

انتشرت الثقافة الإسلامية فى هذا العصر انتشارا يدعو إلى الإعجاب ، بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية ، وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية ، إلى العربية ، ونضج ملكات المسلمين أنفسهم فى البحث والتأليف ، وتشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء ورجال العلم والأدب ، وكثرة العمران واتساع أفق الفكر الإسلامى بارتحال المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . ولا غرو فقد كان من أثر قيام كثير من الدول التى استقلت عن الخلافة العباسية أن نشطت الحركة الفكرية ، وراجت الثقافة ، وزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم . ومن ثم نرى صدى هذه النهضة المباركة فى بلاط كل من السامانيين والغزنونيين والبويهيين والحمدانيين فى الشرق ، وفى بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين فى مصر ، وفى بلاط الأمويين فى الأندلس .

أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التى اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية . وخير مثل لذلك ما نشاهده من الآثار التى خلفها المعتزلة ودعاة الإسماعيلية من العلماء والمتصوفين وغيرهم . وكان للجدل والنقاش الذى قام بين هذه الفرق من ناحية ، وبينها وبين العلماء من السنيين من ناحية أخرى ، أثر بعيد فى هذه النهضة العلمية التى يتميز بها هذا العصر ، وخاصة فى القرن الرابع الهجرى ، على الرغم مما انتاب العالم الإسلامى بوجه عام من تفكك وانحلال ، وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف ووهن . ولكن قيام هذه الدول ساعد على ازدياد الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار نتيجة لذلك .

يقول ابن خلدون (مقدمة ص ٣٧٩ — ٣٨٠) فى الفصل الذى تكلم فيه على « أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة » : « إن تعليم العلم من جملة الصنائع . . . وإن الصنائع إنما تكثر فى الأمصار . وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة ، لأنه أمر زائد على المعاش . ثم فضلت (زادت) أعمال أهل العمران عن معاشهم ، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف فى خاصية الإنسان وهى العلوم والصنائع . ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ فى القرى والأمصار غير المتمدنة ، فلا يجد فيها التعليم الذى هو صناعى ، لفقدان الصنائع فى أهل البدو كما قدمناه ، ولا بد له من الرحلة فى طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها . واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة ، كيف زخرت فيها بحار العلم ، وتفننوا فى اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربو (زادوا) على المتقدمين وفاتوا المتأخرين . ولما تناقص عمرانها وابذعر (تفرق) سكانها ، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم ، وانتقل إلى غيرها من أمصار الاسلام » .

كانت هناك فى هذا العصر عدة مراكز للثقافة جذبت إليها رجال الأدب منها :

١ — أصبهان أو الرى حيث أقام بوجه عام الصاحب إسماعيل بن عباد الذى تقلد الوزارة لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بعد أبى الفتح بن العميد . وكان بلاط بنى بويه هناك كعبة يؤمها العلماء ورجال الأدب .

٢ — البلاط السامانى فى بخارى التى وصفها الثعالبى[1] فى هذه العبارة فقال :

« كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد ، وكعبة الملك ، ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدباء الأرض ، وموسم فضلاء الدهر ، فحدثنى أبو جعفر محمد بن موسى الموسوى قال : اتخذ والدى أبو الحسن دعوة ببخارى فى أيام الأمير السعيد (نصر الثانى ابن أحمد ٣٠١ — ٣٣٠ هـ) ، جمع فيها أفاضل غرباتها : كأبى الحسن اللحام ، وأبى محمد

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٩٥ .

ابن مطران ، وأبى جعفر بن العباس بن الحسن ، وأبى محمد بن أبى الشياب ، وأبى النصر الهرثمى ، وأبى نصر الظريفى ، ورجاء بن الوليد الأصبهانى ، وعلى بن هارون الشيبانى ، وأبى إسحاق الفارسى ، وأبى القاسم الدينورى ، وأبى على الزوزنى ، ومن ينخرط فى سلكهم . فلما استقر بهم مجلس الأنس ، أقبل بعضهم على بعض يتجاذبون أهداب المذاكرة ، ويتهادون ريحان المحاضرة ، ويفتقون نوافق الأدب[1] . ويتساقطون عقود الدر[2] ، وينفثون فى عقد السحر[3]. فقال لى أبى : يا ابنى ! هذا يوم مشهود مشهور ، فاجعله تاريخا لاجتماع أعلام الفضل وأفراد الوقت ، واذكره بعدى فى أعياد الدهر وأعيان العمر ؛ فما أراك ترى على السنين أمثال هؤلاء مجتمعين . فكان الأمر على ما قال ، ولم تكتحل عينى بمثل ذلك المجمع » .

وكانت مكتبة نوح بن نصر السامانى — كما يقول ابن خلكان — (ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٣) عديمة المثل ، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدى الناس وغيرها مما لا يوجد فى سواها ولا سمع باسمه فضلا عن معرفته » .

٣ — بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير فى طبرستان القريبة من بحر قزوين؛ وقد وصفه الثعالبى (ج ٤ ص ٥٦ — ٥٧) فى هذه العبارة فقال : « خاتم الملوك وغرة الزمان. ينبوع العدل والإحسان ، ومن جمع الله له إلى غرة الملك بسطة العلم ، وإلى فضل الحكمة نفاذ الحكم . فأوصافه لا تدرك بالعبارات ولا تدخل تحت العرف والعادات . وآن لى أن أعمل كتابا فى أخباره وسيره ، وذكر خصائصه ومآثره ، التى تفرد بها عن ملوك عصره ، فإنى أنوج هذا الكتاب بلمع من ثمار بلاغته التى هى أقل محاسنه ومآثره ، وأكتب فصولا من عالى نثره مختومة ببعض ما ينسب إليه من شريف نظمه مما يجرى مجرى الأمثال من كلامه » .

كان شمس المعالى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان من بيت قارن القديم العريق فى الشرف ؛ وهو أحد البيوتات السبعة من آل ساسان ببلاد فارس . ويطلق مؤرخو العرب

---

(١) أى يفتحون أوعية الأدب التى تشبه نوافج المسك .

(٢) يشبه ما يجرى فى المجالس من الحديث بمنثور الدر يتساقط من العقود .

(٣) يشبه الكلام الجميل فى قوة تأثيره بالعقد التى يعقدها الساحر وينفث فيها من فمه .

على أفراد هذه الأسرة « أهل البيوتات » ؛ ويرجع نسبه ، على ماذكره البيرونى [١] ، إلى قباذ والد أبو شروان أحد ملوك الساسانيين . ويقول ابن اسفنديار فى كتابه « تاريخ طبرستان » إن من يرغب فى تقدير عظمته وأخلاقه فليقرأ ما قاله عنه أبومنصور الثعالبى [٢] والعتبى [٣] . وقد جمع اليزدادى أقواله فى كتاب أسماه « قرائن شمس المعالى وكلام البلاغة » وهى تدل على بلاغة قابوس فى اللغة والبلاغة وعلى شجاعته ومهارته ، ومعرفته باللغة وعلم الفلك والنجوم ، حتى إنه كتب فى الأسطرلاب رسالة أطراها أبو إسحاق الصابى. وكانت بينه وبين الصاحب بن عباد مراسلات ، كما راسل أبا نصر العتبى مؤرخ حياة السلطان محمود الغزنوى [٤] .

٤ — بلاط خوارزم فى خيوة ، وخاصة بلاط خوارزم شاه مأمون الثانى بن مأمون الذى آلت بلاده إلى حكم محمود الغزنوى .

٥ — بلاط السلطان محمود الغزنوى فى غزنة ؛ وقد تمتع بشهرة واسعة ، فنقل كثيرا من المؤلفات إلى غزنة . وكان من أحسن السلاطين ميلا إلى الأدب ، على الرغم من إساءته لرجاله . وقد أرسل إلى مأمون بن مأمون كتابا مع أحد أشراف دولته ، واسمه حسين بن على بن ميكائيل ، يقول فيه : قد علمت أن ببلاط خوارزم شاه كثيرين من العلماء الذين نبغ كل منهم فى فنه مثل فلان وفلان ، وعليك أن ترسلهم إلى بلاطى ليكون لهم شرف المثول بين يدى ، ونقوى على الاستفادة من علمهم وحذقهم ؛ وأرجو من أمير خوارزم أن يسدى إلينا هذا الجميل . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب أخرج فى قالب الود ، انطوى فى الوقت نفسه على الترهيب والتحذير ، وصيغ فى صيغة الأمر كما فهمه مأمون ، الذى لم ير بدآ من أن يبعث فى طلب هؤلاء العلماء وينقل إليهم أوامر السلطان الغزنوى فى هذه الكلمات : السلطان قوى ، ويملك جيشا من رجال الهند وخراسان إلى بلاد العراق . ولا أستطيع أن أورد له طلبا أو أخالف له أمرا ، فما قولكم ؟ وقد مال ثلاثة من هؤلاء العلماء إلى هذا الطلب ، إلا أن ابن سينا ومسيحى لم يميلا إلى تحقيق هذه الرغبة وعولا على الهرب بعلم مأمون . وهلك مسيحى تحت رمال الصحراء على أثر هبوب عاصفة ، ووصل

---

(١) الآثار الباقية ص ٣٩ .
(٢) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٥٦ — ٥٧ .
(٣) جـ ٢ ص ١٤ — ١٧ ، ١٧٢ — ١٧٨ .
(٤) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٧ — ٢٦ .

ابن سينا إلى أبيورد بعد أن صادف صعابا جمة ، ثم تابع السير إلى طوس ، ثم إلى نيسابور حتى وصل أخيرا إلى جرجان ، ونزل ببلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير (١) .

ولكن فى العشرين سنة التى تخللت سنتى ٣٨٨ هـ (٩٩٧ م) ، ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) مات الصاحب بن عباد سنة ٣٩٨ هـ ، وزالت الدولة السامانية سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) ، واغتيل شمس المعالى على أيدى الثائرين من أشراف البلاد سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) . كما قتل مأمون الثانى على أيدى الثوار ، وضم السلطان محمود الغزنوى بلاده إلى أملاكه فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) واستحوذ على رجال الأدب فى بلاد منافسيه .

٦ — بلاط الحمدانيين فى الموصل وفى حلب خاصة فقد كانت حضرة سيف الدولة « مقصد الوفود وموسم الأدباء وحلبة الشعراء . ويقال إنه لم يجتمع قط ببابه أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر . وكان أديبا شاعرا محبا لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به . فلو أدرك ابن الرومى زمانه لما احتاج إلى أن يقول :

ذهب الذين تهزهم مداحهم هز الكماة عوالى المران(٢)

٧ — بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين فى مصر : اشتهر عصر الطولونيين بمصر بطائفة كبيرة من العلماء والمحدثين والمتصوفه والأدباء والشعراء والمؤرخين . نذكر منهم على سبيل المثال : القاضى بكار بن قتيبة ، وأبا الفيض ذا النون المصرى المتصوف ، والربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعى ، وابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وأول مؤرخى مصر الإسلامية . وبلغ الأدب بمصر فى عهد الطولونيين درجة عظيمة من التقدم. لقد روى المقريزى (خطط جـ ١ ص ٣٢٦) عن القاضى أبى عمرو عثمان النابلسى ، الذى قال فى كتابه « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » أنه رأى كتابا لا يقل حجمه عن اثنى عشرة كراسة ، يحوى فهرسة شعراء ميدان ابن طولون . فإذا كانت أسماء الشعراء

---

(١) Browne: Lit Hist. of persia, vol II. pp. 96 – 7.

(٢) المران الرماح والسكماة جمع كمى ، وهو البطل اللابس درعه ، وعالية الرمح ما يركب فيه السنان ، وهى ضد سافلته ، والجمع العوالى .

يقول : ذهب الكرام الذين كان شعر الشعراء يطربهم فيهتزون له كما يهز البطل عالية الرمح حين يختبره ، أى من الأريحية الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ٢ ص ١١ .

فى اثنى عشرة كراسة ، فكم يكون عددهم ؟ وكم يكون مقدار شعرهم وما يكافئون به من الأموال ؟ (١) .

وقد عاد للفسطاط رونقها وبهاؤها بعد تخريب مدينة القطائع على أثر زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ، فنبغ فى عهد الإخشيديين كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين والشعراء . وكان مسجدا عمرو وابن طولون من أهم مراكز الثقافة فى عهد الطولونيين والإخشيديين . وبذت القاهرة الفسطاط والقطائع فى عهد الفاطميين ، وأصبحت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم مراكز هامة للثقافة ، ولا سيما بعد أن حول يعقوب ابن كلس الأزهر فى سنة ٣٧٨ هـ إلى جامعة تدرس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصورا على إقامة الدعوة الفاطمية .

وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة . وألحقوا بها مكتبات تحتوى على مئات الألوف من المصنفات . وروى المقريزى (خطط جـ ١ ص ٤٠٧) أنه كان فى القصر أربعون خزانة ، من جملتها خزانة بها ١٨,٠٠٠ مجلد فى العلوم القديمة .

وأسس الخليفة الحاكم فى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) «دار الحكمة» على مثال أكاديميات بغداد وقرطبة ، وألحق بها مكتبة أطلق عليها « دار العلم » ، حوت مالم يجتمع مثله فى مكتبة من المكتبات . وأجرى هذا الخليفة ومن جاء بعهده من الخلفاء على موظفيها ومن بها من الفقهاء الأرزاق السنية ، وجعل فيها ما يحتاج إليه المطالعون والنساخ من الحبر والمحابر والأقلام والورق (٢) .

٨ — بلاط الأمويين فى قرطبة : وكما نافس أمويو الأندلس العباسيين فى العراق والفاطميين فى المغرب ومصر ، نافست قرطبة بغداد والقاهرة وبخارى وغزنة وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية ، فأصبحت حاضرة الأندلس سوقا نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب وجذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله

---

(١) حسن إبراهيم حسن : المجمل فى التاريخ المصرى ص ١٥٣ .

(٢) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤٥٨ ، جـ ٢ ص ٣٤٢ . ذكر السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣) أن الوزير أبا نصر شابور أردشير ابتاع فى سنة ٣٨٢ هـ دارا بالكرخ وعمرها ، وسماها دار العلم ووقفها على العلماء وأودع بها كثيراً من الكتب .

والتزود من الثقافة الإسلامية . ومن ثم ظهرت فيها طائفة من العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء وغيرهم .

وقد زخرت مكتبة قرطبة بكثير من المصنفات فى مختلف العلوم والفنون . فقد جمع الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) « من الكتب مالا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة ، حتى قيل إنها كانت أربعمائة ألف مجلد ، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر فى نقلها . . . وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحى باذلا فيها ما أمكن من الأموال ، حتى ضاقت عنها خزائنه . وكان ذا غرام بها ، وقد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ، ودق نظره ، وجمت استفادته ، وكان فى المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذيا نسيج وحده . وكان ثقة فيما ينقله . . . وقلما يوجد كتاب من خزائنه ، إلا وله فيه قراءة أونظر فى أى فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن »[1] .

ومما يدلنا على كثرة هذه الكتب وحسن ترتيبها أن فهارس دواوين الشعر التى حوتها مكتبة المستنصر بلغت ٤٤ كراسة ، كل منها فى عشرين ورقة . فإذا كان هذا العدد الكبير مقصوراً على الدواوين ، فكم يكون عدد فهارس المؤلفات فى العلوم والفنون الأخرى[2] ؟

ولم يكن اقتناء الكتب فى الأندلس مقصوراً على الأمراء والخلفاء ، بل اهتم الأفراد باقتناء الكتب فى مكتباتهم الخاصة ، واعتبر ذلك العمل مظهراً من مظاهر المباهاة والافتخار[3] .

كان طلاب العلم فى هذا العصر يجوبون البلاد سعياً إلى موارد العلم والعرفان ، ثم يصنفون المصنفات التى هى أشبه بدوائر للمعارف . وقد قيل إن أبا القاسم سليمان بن أحمد

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٦ — ١٨٧ .

ذكرنا قول المقرى هذا بما رأيناه عيانا فى مكتبة العلامة المغفور له أحمد تيمور باشا ، فطالما ترددنا على خزانة كتبه بدار الكتب المصرية ، وكلما رأينا كتابا نفيسا أو مخطوطا نادرا منها وجدنا له عليه تعليقا ممتعا وإضافات تصحح ما وقع فيه من أخطاء ، هذا مع العناية بنظافة الكتب والمحافظة على جلدها وورقها محافظة نادرة .

(٢) المقرى ج ١ ص ١٨٦ هـ (٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٨ .

الطبرانى الذى ولد بطبرية فى سنة ٢٦٠ هـ . اختلف إلى كثير من البلاد ثلاثة وثلاثين سنة سمع فيها من ألف شيخ . كما أثر عن القاضى عبد الله محمد بن أحمد مولى عبد الرحمن الأوسط الأندلسى أنه رحل من قرطبة وتنقل ببلاد الحجاز واليمن ومصر والشام وأخذ العلم على مائتين وثلاثين شيخا ، ثم عاد إلى الأندلس فى سنة ٣٤٥هـ واتصل بالحكم المستنصر الذى ولاه قضاء استجة ثم قضاء المرية ، فبقى فيه حتى مات . ومن هؤلاء العلماء الذين جابوا البلاد الإسلامية وتحملوا ألوان المشاق والحرمان فى سبيل اكتساب العلم ، أبو القاسم ابن الدباغ الذى نشأ بقرطبة وتلقى العلم على شيوخها ثم رحل إلى بلاد المشرق الإسلامى سنة ٣٤٥ هـ وتنقل بين مصر والشام يأخذ العلم على كبار علمائها زهاء خمس عشرة سنة ، وقيل إن عدد شيوخه بلغ مائتين وستة وثلاثين شيخاً .

وقد أخذ المسلمون بحظ وافر من العلوم على اختلافها ، وميز علماؤهم بين العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم ، والعلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . وأطلقوا على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية ، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم ، أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة ، أو العلوم الدخيلة .

وتشمل العلوم النقلية : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة ، والبيان ، والأدب .

وتشمل العلوم العقلية : الفلسفة ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والطب ، والسحر ، والكيمياء ، والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافية .

(١) العلوم النقلية

١ — التفسير

كان القرآن الكريم ، ولا يزال ، المصدر الأساسى والمنهل الذى يأخذ عنه المسلمون العلوم المختلفة . وقد اتجه المفسرون فى تفسير القرآن اتجاهين : يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور ، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة . ومن أشهر مفسرى هذا النوع ابن جرير الطبرى وابن عطية الأندلسى[1] والقرطبى (٦٧١) ؛ ويعرف ثانيهما باسم التفسير

---

(١) هو أبو محمد عبدالحق بن عطية (٤٨١ — ٥٤٦ هـ) .

بالرأى ، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل . ومن أشهر مفسرى هذا النوع المعتزلة والباطنية . ولم يتخذ التفسير هذه الطريقة المنظمة إلا فى العصر العباسى الثانى بوجه خاص .

ويمتاز ابن جرير الطبرى فى تفسيره الذى يقع فى ثلاثين مجلداً ، والذى وصفه أبو حامد الأسفرايني بقوله : لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير ابن جرير الطبرى لم يكن ذلك كثيراً ، بتحرى الدقة فى النقل عن الرسول والصحابة والتابعين ، ومعارضته أصحاب الرأى ، لأنهم كثيراً ما يتبعون هواهم . ويقول جولدتسيهر[1] عن كتاب تفسير الطبرى إنه دائرة معارف غنية فى التفسير المأثور . وقد أعطى — كذلك — فى تفسيره لإجماع الأمة سلطاناً كبيراً . وعلى هذا النحو انتظم فى تفسيره ، آية بعد آية ، التفسير بالروايات المروية عن العلماء المعتبرين وحدهم ، وأيد ذلك بالأسانيد المختلفة بالرجال الذين وصلت إليه المعرفة عن طريقهم . ولم يسلك هذا الطريق على نحو آلى ، وإنما فعل ذلك على مثال ما كان يسير عليه العلماء المسلمون من وقت طويل ، من نقد الرجال جرحا وتعديلا . فعند ما يظهر أن الحديث غير موثوق به ، فإنه يصرح بما يناسبه ، حتى آراء ابن عباس وقف حيالها موقفاً حراً صريحاً . وقال مرة عن مجاهد الذى كان يحب أتباعه ، إن رأيه « يخالف إجماع الحجة الذين لا يمكن نسبتهم إلى الكذب » . وفى مرة أخرى « وما ذكر هنا عن مجاهد لا معنى له وفساد رأيه لا شك فيه » . وعلى هذا النحو كان يعالج أيضاً آراء الضحاك وغيره من الرواة عن ابن عباس .

وكذلك ألف الطبرى فى علم القراءات كتاباً يقع فى ثمانية عشر مجلدا ، اشتمل على القراءات المعروفة والشاذة ، وتحرى الدقة فى نقدها ؛ فكان يجمع الروايات ويمحصها ويفندها ويخرج منها برأى خاص . وإذا لم تمس هذه القراءات المختلفة المعنى بشكل جوهرى فضل الأخذ بالقراءة الشائعة ، وعارض فى شدة القراءات التى لا تعتمد على الأئمة الذين يعتبرون حجة فى نظره . وكان ابن جرير يهتم عند التفسير بالمعنى الواضح الذى لا يصح العدول عنه . أما إذا كانت هناك مواضع تستدعى تفسيراً آخر . رجع إلى أقوال السلف ، أى إلى الصحابة والتابعين وعلماء الأمة . كما اعتمد كثيراً على القصص الإسرائيلية التى كان يستمدها من مراجع يهودية الأصل كالتى أخذت عن أقطاب اليهود من أمثال كعب الأحبار

---

(١) كتاب المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٨٦ — ٨٧ .

ووهب بن منبه . كما اعتمد أيضاً على بعض قصص النصارى التى استمدها من ابن إسحاق عن أبى عتاب ، وكان نصرانياً من قبيلة تغلب ثم أسلم . وكان ابن جرير يهتم بالأمور الجدية ويتحاشى الدخول فى الجدل الذى لا طائل تحته ، فتراه فى تفسير قوله تعالى فى سورة يوسف (آية ٢٠) عن بيع إخوة يوسف له بدراهم معدودة يقول « إن الله أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة ، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن أو عدد ، ولا وضع عليه دلالة من كتاب ولا خبر من الرسول . . . وليس فى العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع فى دين ولا فى الجهل به دخول ضر فيه ، والإيمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوع عنا تكليف علمه[1] ».

ويعتبر ابن جرير أول من اهتم فى تفسير القرآن بالرجوع إلى الشعر القديم ؛ ولا غرو فقد كانت قدمه راسخة فى علو اللغة والشعر القديم رسوخها فى الدين والتاريخ . ويقول جولدتسيهر[2] : « وقد احتوى على جملة كبيرة من المعالجات اللغوية ، فاكتسب الطبرى بذلك شهرة عظيمة وإن ما قدمه فى تفسيره للقرآن من الناحية اللغوية ، يعد كنزاً ثميناً فى هذه الأبحاث . كما أنه يعد ما فى كتابه من الأبحاث النحوية والاختلافات بين المدرستين النحويتين (مدرسة البصرة والكوفة) من أقدم المراجع لهذه المعرفة . وتظهر هذه البحوث اللغوية كأمر غير مقصود لذاته ، وإنما كانت عنده وسيلة التفسير بالعلم . وهنا لم ينس أن يقصر استعمال هذه الطريقة على هذا المبدأ ، وهو ألا يتناقض ذلك مع ما نعرفه من تفسير مأثور عن أهل العلم من الصحابة والتابعين . فهذه المسائل اللغوية لا تجعله يترك موقفه من تمسكه بالمأثور .

وبهذا كله كان تفسير الطبرى الكبير لب التفسير بالمأثور والقمة العالية التى وصل إليها هذا المذهب فى التفسير » .

ولكن الطبرى أثار عليه كراهة الحنابلة وبعض السنيين الذين اتهموه بالميل إلى الآراء التى كان السلف يقفون منها موقف الحيطة ، كما اتهموه أيضا بأن آراءه تتفق مع آراء المعتزلة بعض الاتفاق ، مع أنه كان يرد على القدرية آرائهم فى القدر ، كما جادل علماء الكلام فى كثير من المسائل ، كرؤية الله رأى العين ، كما كان يخالف التفسير التنزيهى عند المعتزلة ، أى أن الله سبحانه منزه عن الصفات التى يتصف بها البشر ، وتمسك بروايات

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٧ — ٩٠ (٢) المصدر نفسه ص ٩٢ .

شيوخ المحدثين القدماء كالبخارى والقشيرى وأبى داود السجستانى ولكن الحنابلة وبعض العامة حنقوا على ابن جرير ورموه بالرفض والإلحاد ، وحالوا دون دفنه نهاراً ، فدفن ليلا فى داره . وقد عزا ابن الأثير (جـ ٨ ص ٤٥ - ٤٦) ذلك إلى « أن الطبرى جمع كتابا ذكر فيه اختلاف الفقهاء لم يصنف مثله ، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فقيل له ذلك فقال : لم يكن فقيها وإنما كان محدثا ، فاشتد ذلك على الحنابلة وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد ، فشغبوا عليه وقالوا ما أرادوا :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسدا وبغضا إنه لدميم

... وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، فكان حافظا لكتاب الله ، عارفا بالقراءات ، بصيراً بالمعانى ، فقيها فى أحكام القرآن ، عالما بالسنن وطرقها ، صحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها ، عارفا بأقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم فى الأحكام ، ومسائل الحلال والحرام ، خبيراً بأيام الناس وأخبارهم . وله الكتاب المشهور فى تاريخ الأمم والملوك ، والكتاب الذى فى التفسير لم يصنف مثله ، وله فى أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة وأخبار من أقاويل الفقهاء ، وتفرد بمسائل حفظت عنه . . .

وقال ابن خزيمة حين طالع كتاب التفسير للطبرى : ما أعلم على أديم الأرض أعلم من أبى جعفر ، ولقد ظلمته الحنابلة . وقال أبو محمد عبدالله بن أحمد الفرغانى بعد أن ذكر تصانيفه : وكان أبو جعفر ممن لا يأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يعدل فى علمه وتبيانه عن حق يلزمه لربه وللمسلمين إلى باطل ، لرغبة ولا رهبة ، مع عظيم ما كان يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد . وأما أهل الدين والورع فغير منكرين علمه وفضله وزهده ، وتركه الدنيا مع إقبالها عليه إقبالا ، وقناعته بما كان يرد عليه من قرية خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة » .

أما النوع الثانى من التفسير ، وهو التفسير بالرأى ، الذى يخالف التفسير بالمأثور باعتماده على العقل أكثر من اعتماده على النقل ؛ فقد شغف به المعتزلة والباطنية بنوع خاص . فإن المعتزلة لما كانوا يؤمنون بمبدأ التنزيه ، أو بالأحرى بمبدأ نفى الصفات عن الله سبحانه وتعالى ، أخذوا يفسرون القرآن وفق مبادئهم ، مخالفين فى ذلك تفاسير مدرسة التفسير بالمأثور . لذلك نرى مفسرى المعتزلة يلجئون إلى التأويل إذا اعترضهم من الآيات القرآنية

ما يخالف مبدأ نفي الصفات عندهم . وقد عالج المعتزلة رؤية الله يوم القيامة بطريقة تخالف ما قام به المفسرون بالمأثور . من ذلك تفسيرهم قوله تعالى فى سورة القيامة (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) (آية ٢١ – ٢٢) أن رؤية الله إنما تكون على المجاز لا على الحقيقة ؛ على حين يقول المفسرون بالمأثور إن الصالحين يرون ربهم عيانا ، مستدلين بقوله تعالى فى سورة الأنعام (آية ١٠١) (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) ، قائلين إن الأبصار لا تدركه فى الدنيا ، بدليل قوله تعالى عن لسان موسى (رب أرنى أنظر إليك . قال لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى) (سورة الأعراف آية ١٤٣) . وإذا كانت رؤية الله فى الدنيا مستحيلة فهى فى الآخرة أحرى . وإنه من الخطأ فى الفرض أن نظن أن المعتزلة فى تفسيرهم القرآن قد فعلوا ذلك من أجل قصدهم الخروج على الحديث ، أو من أجل النقد الحر فى فهم القرآن ... ولا يسعنا أن ننكر هذه الحقيقة : وهى أنهم لم يظهروا عن تفكير حر ، بل ظهروا عن تقوى وصلاح »[1] .

ومن أشهر مفسرى المعتزلة أبو بكر الأصم المتوفى سنة ٢٤٠هـ ، وأبو مسلم محمد بن بحر الأصفهانى المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، ويقع تفسيره فى أربعة عشر مجلدا ، وابن جرو الأسدى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ ؛ وقد قيل إنه كتب فى تفسيره البسملة نحو ١٢٠ وجها ، وأبو يونس عبد السلام القزوينى المتوفى سنة ٤٨٣ . وقد فسر القرآن تفسيراً مطولا ، حتى إن تفسير الفاتحة وحدها شغل سبعة مجلدات . ويرجع السبب فى عدم ذيوعها بين الناس إلى ضخامتها وما بها من عقائد تخالف عقائد السنيين أحيانا . ومن هؤلاء أيضا الشريف العلوى المعروف بعلم الهدى المرتضى أبى القاسم على بن الطاهر المتوفى سنة ٤٣٦هـ ، وكانت له أمالى فى الشعر والأدب ، شرحها شرحا لغويا دقيقا ، « كما فسر الآيات القرآنية التى وردت فى هذه الأمالى تفسيرا يتمشى مع تفسير المعتزلة ، واقتبس كثيرا من تفاسير أئمة المعتزلة كالجبائى وغيره[2] .

وكذلك اتخذ الباطنية التفسير وسيلة لنشر مبادئهم ، ولجئوا إلى التأويل غير المشروع ، أى الذى لا يوافق العقائد الإسلامية ، فنراهم يفسرون قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل

---

(١) جولدتسيهر : المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن ص ١١٠ — ١١١

(٢) المصدر نفسه ص ١١٣ — ١١٥ .

لكم أنهاراً)(سورة نوح آية ١٠ – ١٢) ، بأن قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم) أى أسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطنى ، ومن قوله (يرسل السماء عليكم مدرارا) بأن السماء هى الإمام ، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم ، ومعنى (يمددكم بأموال وبنين) أن الأموال هى العلم والبنين هم المستجيبون ، ومعنى (يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) أن الجنات هى الدعوة السرية أو الباطنية والأنهار هى العلم الباطنى[١] كذلك فسر الباطنية فى قوله تعالى فى سورة الحشر (آية ١٦) (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين) ، أن الشيطان هو عمر بن الخطاب ، والإنسان هو أبو بكر الصديق . ومعنى أكفر لا تؤمن بإمامة على ابن أبى طالب ، وتفسيرهم قوله تعالى (الشمس والقمر بحسبان)[٢] أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين ، وأن إبليس وآدم المشهوران فى القرآن هما أبو بكر وعلى ، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلى والطاعة له فأبى واستكبر[٣] .

ظل القرآن منبع كثير من العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى هذا العصر ، فاستعان به علماء النحو على استنباط قواعد اللغة العربية ، كما اعتمد الفقهاء فى أحكامهم الفقهية على القرآن ، وألفوا كتبا كثيرة أسموها « أحكام القرآن » واستعانت الفرق الإسلامية بكتاب الله واتخذوه أساسا للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه .

٢ — الحديث

من أهم مصادر التشريع الإسلامى الحديث ، ويأتى فى الأهمية بعد القرآن الكريم . وقد ظهر فى القرن الثانى للهجرة طائفة من أئمة الحديث من أشهرهم فى المدينة الإمام مالك ابن أنس المتوفى سنة ١٧٩هـ ، وفى البصرة حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٧٦هـ ، وفى الكوفة سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١ هـ . وفى الشام الأوزاعى المتوفى سنة ١٨١ هـ واشتهر فى العصر العباسى الثانى من كبار أئمة الحديث الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ . وقد خالف القائلين بخلق القرآن وناله من جراء ذلك كثير من العنت والاضطهاد . ويقول

---

(١) Guyard: Fragments rèlatifs à la Doctrine des Ismaélis (Paris. 4874) ,p. 209

(٢) سورة الرحمن آية ٥ .

(٣) الغزالى : فضائح الباطنية (نشرة جولدتسيهر — ليدن سنة ١٩١٦) ص ١٣ .

ابن خلكان (ج ١ ص ١٧) : «ودعى إلى القول بخلق القرآن فلم يجب، فضرب وحبس. وهو مصر على الامتناع . وكان ضربه فى العشر الأخير من شهر رمضان سنة عشرين ومائتين». وقد ترك كتابه « المسند » الذى يشتمل على ٤٠٠٠٠ حديث ، منها عشرة آلاف مكررة ، وجمع الأحاديث التى تمدح العلويين والأمويين ولم يخش فى ذلك بأس العباسيين ، ويتفق مذهبه مع مذهب الإمام مالك بن أنس من حيث اعتماده على الحديث ، حتى اعتبره البعض محدثا أكثر منه إماما مشرعا .

وقد أخذ عن ابن حنبل جماعة من فقهاء المسلمين من أمثال محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ وفى أيامه أخذت أساليب جمع الحديث وترتيبه تأخذ مكانتها فى الدقة وشدة التحرى . وكان البخارى محدثا ؛ وقد تفوق على من سبقه من المحدثين فى جمع الأحاديث ، فلم يكتف بجمع أحاديث البلاد التى نشأ فيها ، بل تنقل فى البلاد لجمع الحديث ، حتى إن رحلاته استغرقت ست عشرة سنة . كما امتاز بقدرته النادرة فى التمييز بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة[1] ، وساعده على ذلك قوة حافظته ومعرفته بأقدار الرجال . ويعد كتابه الجامع الصحيح المصدر الأول للأحاديث الصحيحة . وقد جمع البخارى ٧٢٧٥ حديثا فيها عدد من الأحاديث المكررة : فإذا حذفنا هذه الأحاديث المكررة منها وغير الموصولة السند ، أصبح عددها أقل من ثلاثة آلاف حديث ، اختارها البخارى ، على ما قيل ، من ثلثمائة ألف حديث ، أى بنسبة ١ — ٢ ٪ . وهذا منتهى الدقة العلمية فى الاختيار والنقد لما جمع من الأحاديث الكثيرة فى رحلاته الطويلة . ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٣٨٦) : « وجاء محمد بن إسماعيل البخارى إمام المحدثين فى عصره ، فخرج أحاديث السنة على أبوابها فى مسنده الصحيح ، بجميع الطرق التى للحجازيين والعراقيين والشاميين ، واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه ، وكرر الأحاديث بسوقها فى كل باب ، بمعنى ذلك الباب الذى تضمنه الحديث ؛ فتكررت لذلك أحاديثه ، حتى يقال إنه اشتمل على تسعة آلاف حديث ومائتين . منها ثلاثة آلاف متكررة[2] ، وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة فى كل باب »[3] .

---

(١) الحديث الصحيح هو الحديث المسند أى الذى يتصل إسناده من الراوى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ ويشترط فى رواته العدل والضبط . أما الحديث الضعيف فهو الذى لا تتوافر فيه هذه الشروط .

(٢) مثال ذلك حديث : بنى الإسلام على خمس ... الخ . فإنه يذكر فى باب الايمان والاسلام ويذكر فى كتاب الصلاة ، وفى كتاب الزكاة ، وفى كتاب الصيام ، وفى كتاب الحج ، باعتباره أنه أصل لفرض هذه الفروض على المسلمين .

(٣) بمعنى أنه يذكر الحديث فى كل باب بسند مخصوص عن الصحابى الذى رواه ، كأن يسنده إلى أبى هريرة أو إلى عبد الله بن العاص . ولكل من هؤلاء الرواة سند ورجال مخصوصون.

وقد صنف البخارى صحيحه فى ٩٧ كتابا ، كل منها يحوى طائفة من الأحاديث تدور حول معنى واحد أو معان متقاربة مرتبط بعضها ببعض، كـكتاب الوضوء ، وكتاب الصلاة وكتاب بدء الوحى . ووضع له منهجا وقواعد عرفت « بشروط البخارى» ، كانت نبراسا استضاء به من أتى بعده من علماء الحديث .

ثم جاء بعده تلميذه مسلم بن الحجاج القشيرى المتوفى سنة ٢٦١ هـ ، وكان من أهل نيسابور ؛ وامتاز ، كالبخارى ، بكثرة رحلاته فى طلب الحديث ، فرحل إلى العراق والشام ومصر والحجاز ، وتكررت رحلاته إلى بغداد خاصة ، وأفاد من البخارى فى أثناء إقامته فى نيسابور مدة ، وعرف مصنف مسلم بصحيح مسلم أو المسند الصحيح ، الذى يقول ابن خلدون (مقدمة ص ٣٨٧) إنه « حذا فيه حذو البخارى فى نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها ، وجمع الطرق والأسانيد ، وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه ، ومع ذلك فلم يستوعبا (أى البخارى ومسلم) الصحيح كله . وقد استدرك النـــاس عليهما فى ذلك » .

وقد وازن الدكتور على حسن عبدالقادر [١] بين صحيحى البخارى ومسلم بقوله : « وإذا ما قرناه (يعنى صحيح مسلم) بالبخارى (أى بصحيح البخارى) بالنسبة لمحتوياته فى مجموعها ، فإننا نرى بينهما اختلافا شكليا . فهو مصنف كالبخارى [٢] ، وقد نظم حسب الأبواب مثله ، ولـكن الأبواب عند مسلم لم يعنون لها . وقد كان غرضه كزميله أن يستخدم كتابه فى الفقه ، ولـكنه ترك للقارىء أن يستنتج وحده ما يراه حقاً فيما يظهر له . وأمر آخر شكلى جاء عند العلماء المتأخرين ، فكلاهما كان يروى الحديث بطرق مختلفة زيادة فى الإثبات ؛ ولـكن البخارى كان يرويها فى أبواب مختلفة بسبب استعمال الحديث لهذه الأبواب . أما مسلم فكان يروى ذلك كله معاً . ومن هنا نستطيع أن نستنتج أن مسلما لم يكن يجعل نصب عينيه ، وفى الدرجة الأولى ، الحياة العملية واستعمالاتها [٣] بل الحديث الخالص فقط » .

وقد صنف بعض أئمة الحديث كتباً أخرى تعد فى المرتبة الأولى من بين كتب الحديث ،

---

(١) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٢) أى على صنوف وأبواب .

(٣) يريد بالحياة العملية حاجة الفقيه الى الحديث فى باب من أبواب الفقه أو العلم كما فعل البخارى فى توزيع أحاديثه على الأبواب والـكتب .

وأطلق عليها اسم الصحاح . وهؤلاء المحدثون هم : أبوداود السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ صاحب السنن ، وأبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى المتوفى سنة ٢٧٨ هـ صاحب الجامع ، وأبو عبدالله محمدبن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ،وأبوعبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ صاحبا السنن . ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٣٨٧) : « ثم كتب أبو داود السجستانى ، وأبوعيسى الترمذى ، وأبو عبدالرحمن النسائى فى السنن بأوسع من الصحيح ، وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل ، إما الرتبة العالية فى الأسانيد وهو الصحيح كما هو المعروف ، وإما من الذى دونه من الحسن وغيره ليكون ذلك إماماً للسنة والعمل . وهذه هى الأسانيد المشهورة فى الملة ، وهى أمهات كتب الحديث فى السنة ؛ فإنها وإن تعددت ترجع إلى هذه فى الأغلب ، ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها فى علم الحديث » (١) .

٣ — الفقه

رأينا أن العصر العباسى الأول كان عصر أئمة مذاهب السنة الأربعة ، وهى مذهب أبى حنيفة ، ومذهب مالك ، ومذهب الشافعى ، ومذهب ابن حنبل ، وقد ظهر فى العصر العباسى الثانى بعض أعلام الفقهاء الذين كونوا لهم مذاهب فى الفقه ، ولكن لم يقدر لها الاستقرار والذيوع أمام هذه المذاهب الأربعة . ومن هؤلاء الفقهاء أبو سليمان داود بن على بن خلف القاشانى ، الذى ينسب إلى قاشان القريبة من أصبهان والمتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ هـ .

كان أبوسليمان داود شافعى المذهب ؛ أخذ فقه الشافعى عن بعض تلاميذه . وله طريقة خاصة تتلخص فى الأخذ بظاهر نص القرآن ، وعدم قبول القياس والتأويل . وفى ذلك يقول ابن النديم (الفهرست ص ٣٠٣) : « هو أول من استعمل قول الظاهر ، وأخذ بالكتاب والسنة ، وألغى ما سوى ذلك من الرأى والقياس » . ومن ثم سمى أبو سليمان داود الظاهرى ، ويعرف أتباعه بالظاهرية أى الذين أنكروا القياس وأبطلوا

---

(١) هذه الدراسات الإسلامية تشبه إلى حد كبير قواعد علم التاريخ وفلسفته ونقده التى ظهرت حديثاً بعد ابن خلدون فى الشرق على يد علماء فلسفة التاريخ ونقاده فى أوربا . وكانت هذه الدراسات الإسلامية الحديثة أساسا للدراسات العربية فى الأدب واللغة وغيرهما من علوم الرواية ، فأول من فتح هذه الميادين هم علماء الحديث ولا ريب ، ومنها دخل الباحثون فى علوم الرواية على اختلاف أنواعها فى المشرق والمغرب .

العمل به . ويقول فيهم ابن خلدون (مقدمة ص ٣٩٠) : « والظاهرية جعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص والإجماع ، وردوا القياس الجلى والعلة المنصوصة إلى النص ، لأن النص على العلة نص على الحكم فى جميع محالها». وبذلك خرج أبوسليمان داود على الأصول والقواعد الفقهية عند الشافعية أنفسهم : فتصدى للرد عليه أبو العباس ابن سريج المتوفى سنة ٣٠٥ هـ فى كتاب أسماه « الرد على المخالفين من أهل الرأى وأهل الظاهر » وله مؤلفات كثيرة ذكرها ابن النديم (ص ٣٠٣ – ٣٠٥) تدلنا على سعة اطلاعه ، وكان ابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ من أتباع المذهب الظاهرى ، ولذلك سمى ابن حزم الظاهرى .

ومن أئمة المذاهب أحمد بن حنبل (١٦٤ – ٢٤١ هـ) الذى تلمذ للامام الشافعى مدة سنتين (١٩٥ – ١٩٧ هـ) ، واعتبره كثير من الشافعية أنه واحد منهم ، وقال فيه الإمام الشافعى حينما خرج من بغداد إلى مصر : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » [١] . ولقد لقى ابن حنبل كثيراً من ألوان الشدة والعنت فى عهد المأمون والمعتصم لعدم اتفاقه مع المعتزلة فى القول بخلق القرآن ؛ فامتحن فى هذه المسألة ، وسجن وعذب ، وبقى كذلك إلى عهد المتوكل الذى ترك القول بخلق القرآن ، وأطلق سراح ابن حنبل الذى توفى ببغداد .

وكان ابن حنبل – كما رأينا – من كبار المحدثين . ولم يختلف العلماء فى كونه محدثاً ، وإنما اختلفوا فى كونه فقيهاً ، حتى إن ابن جرير الطبرى أثار حنق الحنابلة عليه لعدم اعتباره إياه من أئمة الفقه . وفى الحق أن مذهبه فى الفقه مبنى على الحديث ، أى أنه كتاب يجمع بين الحديث والفقه ، كموطأ مالك بن أنس . وقد عرف عن ابن حنبل أنه كان يفضل الأحاديث الضعيفة على القياس الذى لا يجيزه إلا عند الضرورة أى عند فقد الحديث . ويختلف عن غيره من أئمة الفقه ، كأبى حنيفة والشافعى ، فى أنه لم يدون فى الفقه كتاباً مفصلا ، بل روى عنه عدة مسائل فى الفقه كانت عبارة عن إجابات لأسئلة وجهت إليه . أما ترتيب مذهبه الفقهى وتدوينه وتبويبه ، فذلك من عمل تلاميذه وأتباعه ، ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٣٩٢) : « فأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل ، لبعد مذهبه عن الاجتهاد ، وأصالته فى معاضدة الرواية [٢] وللأخبار [٣] بعضها ببعض . وأكثرهم بالشام

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٧ .
(٢) أى تعمقه فى الاعتداد بالرواية وتقديمها على الرأى .
(٣) أى وفى معاضدة الأخبار أى الأحاديث بعضها ببعض .

والعراق من بغداد ونواحيها . وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث » .

ومن أشهر الحنابلة فى هذا العصر أبو القاسم الخرقى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ ؛ وقد صنف كتابه المختصر فى الفقه ، وعبدالعزيز بن جعفر المتوفى سنة ٣٦٣ هـ صاحب كتاب المقنع .

ومن أصحاب المذاهب الفقهية من المجتهدين أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ — ٣١٠ هـ) ، وكان من أهل طبرستان . وقد درس فقه الشافعية ، ولذلك لم يختلف مذهبه المعروف بالمذهب الجريرى عن مذهب الإمام الشافعى . وقال فيه ابن خلكان [١] : « كان من الأئمة المجتهدين . لم يقلد أحداً . . وكان ثقة فى نقله . . وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازى فى طبقات الفقهاء المجتهدين ، ورأيت فى بعض المجاميع هذه الأبيات منسوبة إليه وهى :

إذا أعسرت لم يعلم شقيق ... وأستغنى فيستغنى صديق
حيائى حافظ لى ماء وجهى ... ورفقى فى مطالبتى رفيق
ولو أنى سمحت ببذل وجهى ... لكنت إلى الغنى سهل الطريق

وكان الطبرى واسع الاطلاع كثير التأليف ، ومن كتبه : كتاب الأمم والملوك فى التاريخ ، وكتابه فى التفسير ، وكتاب اختلاف الفقهاء [٢] ، وكتاب تبصير أولى النهى ومعالم الهدى الذى لا يزال مخطوطا ، وكتاب شرح السنة ، وكتاب بشارات المصطفى [٣] ، وكتاب الرد على الحرقوسية ، أى الحنابلة ، لأن أحمد ابن حنبل من بنى حرقوس [٤] .

وهناك مذاهب أخرى انقرضت ، كمذهب سفيان الثورى [٥] المتوفى سنة ١٦١ هـ . وقد أخذ عنه الأوزاعى إمام أهل الشام [٦] ، ومذهب إسحاق بن راهويه المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، حتى إننا نرى من المذاهب الشائعة فى القرن الثالث مذهب الشافعية والمالكية والثورية نسبة إلى سفيان الثورى ، والحنفية والداودية . وفى القرن الرابع نرى من

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٦ .

(٢) نشر الدكتور يوسف شخت بعض أجزاء الكتاب تحت عنوان « كتاب الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى » (ليدن ١٩٣٣) .

(٣) من ١٧ جزءاً بعضها فى النجف والبعض الآخر فى طهران .

(٤) على حسن عبدالقادر : نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ٢١٠ . (٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٧٥ .

المذاهب السائدة مذهب الحنفية والمالكية والداودية ؛ كما نرى مذاهب أخرى أقل انتشاراً كمذهب الحنابلة ، والراهوية والأوزاعية . إلا أنه على مر الزمن أصبحت السيادة للمذاهب الأربعة وهى الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى ، ووقف الاجتهاد عند هؤلاء الأربعة . ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٣٩١ – ٣٩٢) ووقف التقليد فى الأمصار عند هؤلاء الأربعة ، ودرس المقلدون لمن سواهم [١] . وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر من [٢] تشعب الاصطلاحات فى العلوم ، ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ، ولما خشى من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه ، فصرحوا بالعجز والإعواز ، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من [٣] اختص به من المقلدين ، وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ، ولم يبق إلا نقل مذاهبهم ، وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية . لا محصول اليوم للفقه غير هذا ، ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه ، مهجور تقليده ، وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة » .

٤ — علم الكلام

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن علم الكلام يقصد به الأقوال التى كانت تصاغ على نمط منطقى أو جدلى ، وعلى الأخص فى العقائد ، وأن المشتغلين بهذا العلم يسمون « المتكلمين » ؛ كما ذكرنا أن هذا اللفظ كان يطلق أول الأمر على من يشتغلون بالعقائد الدينية ، غير أنه أصبح يطلق على من يخالفون المعتزلة ويتبعون مذهب أهل السنة والجماعة ، ويقول دى بور [٤] : « على أن ظهور الكلام فى الإسلام كان بدعة من أكبر البدع ؛ وقد شدد فى النكير على هذا العلم أهل الحديث الذين كانوا يرون أن ما جاوز البحث فى الأحكام الفقهية العلمية ابتداع ، لأن الإيمان عندهم هو الطاعة ، لا كما يذهب إليه المرجئة والمعتزلة من أنه هو العلم . بل إن هؤلاء الآخرين كانوا يعتبرون النظر العقلى من

---

(١) أى لم يبق منهم أحد .

(٢) سقطت هذه الكلمة من النسخ المطبوعة ، وهى موجودة بالنسخة المخطوطة رقم ١٥ بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية .

(٣) كذا فى نسخة المقدمة المحفوظة بدار الكتب رقم ١٥ بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، وسقطت الواو من جميع النسخ المطبوعة .

(٤) تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة أبى ريدة ، ص ٥١ .

الواجبات المفروضة على المسلمين . وقد صادف هذا الرأى قبولا فى هذا العهد، وفى الحديث أن النبى قال : أول ما خلق الله تعالى العلم ، أو العقل » .

يقول ابن خلدون (مقدمة ص ٤٠٦) إن علم الكلام سمى بذلك « لما فيه من المناظرة على البدع ، وهى كلام صرف ، وليست راجعة إلى عمل ، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه تنازعهم فى إثبات الكلام النفسى » . إلا أن بعض أهل الحديث كانوا يعيبون على المتكلمين ردهم على أهل البدع ، بحجة أن هذا الرد ترويجاً لعقائد هؤلاء المبتدعين ، وذلك لأنهم ـ كما يقول الغزالى [١] ـ « اعتمدوا على مقدمات تسلم (يعتقد صحتها) من خصومهم ، واضطرهم إلى تسليمها ، إما التقليد أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار ، وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم . وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا » .

وكان للمعتزلة أثر كبير فى تطور علم الكلام ؛ فقد تم على أيديهم القول بخلق القرآن، ونادوا بنفى الصفات . مخالفين فى ذلك جمهور أهل السنة . واستمر الصراع والجدل بين طائفتى المعتزلة وأهل السنة والجماعة ، حتى ظهر أبوالحسن الأشعرى ، فتوسط بين الفريقين .

ومن أشهر متكلمى المعتزلة أبوالهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥ هـ . وقد اشتهر بالجدل ، وأصبح على رأس المعتزلة فى أيامه ، وعرف أتباعه بالهذيلية . وقال أحمد بن يحيى بن المرتضى [٢] المتوفى سنة ٣٢٥ هـ ، وكان من أئمة الزيدية الذين يميلون إلى مذهب المعتزلة : « ما رأيت أفصح من أبى الهذيل والجاحظ . وكان أبوالهذيل أحسن مناظرة ؛ شهدته فى مجلس وقد استشهد فى كلامه بثلثمائة بيت . وكان أبوالهذيل « حسن الجدال قوى الحجة : كثير الاستعمال للدلالة والإلزامات [٣] . ولأبى الهذيل كتاب يعرف بميلاس. وكان ميلاس رجلا مجوسياً فأسلم . وكان سبب إسلامه أنه جمع بين أبى الهذيل المذكور وجماعة من الثنوية ، فقطعهم [٤] أبوالهذيل ، فأسلم ميلاس عند ذلك » [٥] . وقد بلغ من قوة جدله الذى شغل كل حياته، وخاصة مع الزنادقة والمجوس والثنوية ، أن أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل ، وهو ـ كما يقول ديبور [٦] ـ أول المفكرين الذين فسحوا للفلسفة المجال لتؤثر فى مذاهبهم الكلامية » .

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٧٩ — ٨٠ . (٢) كتاب المنية والأمل ص ٢٦ .
(٣) يريد أنه يكثر من الاستنباط واستعمال القياس الذى يؤدى إلى نتائج ملزمة للخصم .
(٤) أى أبطل حججهم وأسكتهم . (٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨٠ .
(٦) تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٥٧ .

ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن سيار ، المعروف بالنظام والمتوفى سنة ٢٣١ هـ ، من تلاميذ أبي الهذيل العلاف ، وأستاذ أبي عمرو بن بحر الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) الذى تنسب إليه فرقة الجاحظية من المعتزلة . وقد نسب إليه فى علم الكلام كتب منها : الاعتزال وفضله على الفضيلة ، والاستطاعة وخلق الأفعال . وخلق القرآن . وفضيلة المعتزلة ، وقد رمى الجاحظ من تأليفه إلى الثناء على المعتزلة من ناحية ، والرد على مخالفيهم ، وخاصة الرافضة ، والطعن فيهم من ناحية أخرى . ويظهر أن هذا الكتاب أثار حنق الرافضة ، فردوا عليه ردوداً عنيفة ، ويعتبر كتاب فضيحة المعتزلة لأحمد بن يحيى الراوندى ، وكان معتزلياً ثم أصبح رافضياً ، خير مثل لهذا كما يعد كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى متمما لكتاب فضيلة المعتزلة للجاحظ [١] . كما تناول فى كتابه البخلاء أخباراً تتصل بالمتكلمين والمعتزلة ، وأخذ فى كتابه الحيوان كثيراً من آراء أرسطاطاليس فى كتابه الحيوان [٢] .

وقد أثرت الفلسفة اليونانية فى ثقافة الجاحظ حتى عد من كبار أحرار الرأى ، وعارضه السنيون فى كثير من آرائه . ومما يرمى به قوله : « إن الله لا يدخل النار أحداً ، وإنما النار تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها ، ثم تمسكهم فى نفسها على الخلود » . وقد رد عليه السنيون بقولهم إنه لو كان هذا الرأى صحيحاً لألزم الجاحظ « أن يقول فى الجنة إنها تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها وإن الله لا يدخل أحداً الجنة ، فإن ذل بذلك قطع الرغبة إلى الله فى الثواب وأبطل فائدة الدعاء ، وإن قال إن الله تعالى هو يدخل أهل الجنة الجنة . لزمه القول بأن يدخل النار أهلها [٣] .

ومن كبار متكلمى المعتزلة أبو الحسين عبدالرحيم بن محمد بن عثمان الخياط الذى تنسب إليه طائفة الخياطية . وقد عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ومات فى أوائل القرن الرابع ، واشتهر برده على ابن الراوندى فى كتاب أسماه « الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد [٤] » . وقال نيبرج فى مقدمة هذا الكتاب (ص ١٩ — ٢٠) عن الخياط إنه كان « فى غاية الشهرة ، بعلمه باختلاف المتكلمين ومذاهبهم وآرائهم وتراجمهم ويشهد بشهرته بذلك كثرة ذكره فى كتاب ابن المرتضى ، ومروج الذهب للمسعودى ، وغيرها من الكتب عند الرواية عن المعتزلة أو الحكاية عن رجالها ، ويشهد بواسع علمه كتاب الانتصار من أوله إلى آخره ، فإنه يفيدنا علما مفصلا بدقائق كلام المعتزلة وجلائله ، ويشتمل على أخبار عن المتقدمين منها وآرائهم ومناقشاتهم لا نجد مثلها فى كتاب آخر مما

---

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٦٢ .
(٢) نيبرج : الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ، مقدمة ص ٢٣ — ٢٤ .
(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٦١ . (٤) نشره نيبرج (القاهرة سنة ١٩١٤).

انتهى إلينا . ولقد اقتبس من قبس الخياط المتأخرون الموافق منهم والمخالف ، فقد ألف مثلا تلميذه أبو القاسم الكعبي البلخي كتابا في رجال المعتزلة ومقالاتها أفاد ابن المرتضى منه في كل صفحة من كتابه ، ولو استنتجنا أن التلميذ نقل قصص أستاذه لما أخطأنا . واقتبس من الخياط أيضا البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق .

ومن أشهر متكلمي هذا العصر أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي المعتزلي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ[١] . وتنسب إليه فرقة الجبائية . وكانت له مواقف رائعة مع أبي الحسن الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٢هـ) ، فقد قال الجبائي يوما للأشعري : « ما معنى الطاعة عندك ؟ فقال : موافقة الأمر ، وسأله عن قوله فيها فقال الجبائي : حقيقة الطاعة عندي موافقة الإرادة ، وكل من فعل مراد غيره فقد أطاعه ، فقال شيخنا أبو الحسن رحمه الله : يلزمك على هذا الأصل أن يكون الله تعالى مطيعاً لعبده إذا فعل مراده فألزم ذلك ، فقال شيخنا رحمه الله : خالفت إجماع المسلمين وكفرت برب العالمين[٢] .

ولما مات الجبائي خلفه ابنه أبو هاشم في زعامة الجبائية ، وعرفوا باسم البهشمية نسبة إليه . وكان تأثير أبي هاشم هذا بين المعتزلة عظيما ، حتى إن مبادئه استمرت إلى القرن الخامس الهجري ، كما يتضح من عبارة البغدادي (ص ١٦٩) المتوفى سنة ٤٢٩ هـ : وأكثر معتزلة عصرنا على مذهبه » .

٥ — علم اللغة

تطور علم اللغة في العصر العباسي الثاني تطوراً ملحوظاً بارتقاء النحو وتنظيم المعاجم . فقد رأينا كيف وضع أبو الأسود الدؤلي أساس علم النحو في البصرة التي تعتبر مدرستها أقدم من مدرسة الكوفة بنحو مائة سنة ، وكيف نبغ في هاتين المدرستين كثير من العلماء المبرزين : كأبي عمرو بن العلاء ، والخليل ابن أحمد الذي وضع علم العروض ، ووضع أول معجم عربي مرتب على الحروف الهجائية وهو « كتاب العين » ، وسيبويه صاحب الكتاب في النحو الذي يجمع القواعد التي انتهت إليها مدرسة البصرة منذ عهد أبي الأسود الدؤلي ، إلى أن جاء الخليل بن أحمد ، فنظمها وشرحها وعللها وأملاها على تلاميذه ، ومنهم سيبويه[٣] .

ومن أئمة مدرسة الكوفة علي بن حمزة الكسائي المتوفى سنة ٢٨٣ هـ ، وهو أحد القراء السبعة ، ومن أئمة الكوفيين في النحو ، ومن مؤدبي الأمين والمأمون . وقد أخذ

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٠

(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٠ .

عنه أبو زكريا يحيى بن زياد المعروف بالفراء ، « وكان — كما يقول ابن خلكان[١] — أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب » ، وهو أحد رؤساء المذهب الكوفى بعد أستاذه الكسائى . وقال فيه تلميذه ثعلب : لولا الفراء لما كانت عربية لأنه خلصها وضبطها » . وقد ألف كثيراً من الكتب منها كتاب معانى القرآن ، وهو تفسير لغوى شرح فيه دقائق النحو واللغة ، ويقع فى نحو ألف ورقة ، وهو أشهر كتبه[٢] .

ومن مشهورى الكوفيين المفضل الضبى صاحب كتاب المفضليات فى الشعر . ومن مشهورى النحويين أبو جعفر أحمد بن محمد بن محمد إسماعيل المرادى المصرى النحوى المعروف بالنحاس . وقد رحل إلى بغداد ، وأخذ عن أبى الحسن على بن سليمان الأخفش الأصغر وأبى إسحاق الزجاج ، وابن الأنبارى ونفطويه وغيرهم من أعيان أدباء العراق ، وتوفى بمصر فى شهر ذى الحجة سنة ٣٣٨ هـ (وقيل سنة ٣٣٧هـ) . ومن مؤلفاته « تفسير أبيات سيبويه » ، و « كتاب التفاحة فى النحو » ، و « كتاب الوقت والابتداء » ، و « شرح المعلقات السبع » و « طبقات الشعراء »[٣] .

ومن النحويين أيضا أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن إسماعيل النجيرمى (٣٤٥ — ٤٢٣ هـ) اللغوى البصرى نزيل مصر . وقد نشأ فى بيت اشتهر بالعلم والأدب وكان يوسف أمثل أهل بيته ؛ ومن طريقه روى فى مصر أكثر الكتب القديمة فى اللغة والشعر وأيام العرب ، فإنه كان راوية لها عارفا بها ، وتوفى النجيرمى فى شهر المحرم سنة ٤٢٣ هـ[٤] .

ويعتبر القرن الثالث الهجرى عصر انتقال فى اللغة . فقد ظفر نهاية القرن الثانى بأول محاولة فى ضبط اللغة وعمل المعاجم ، حين وضع الخليل بن أحمد منهج كتاب العين لتلميذه الليث بن المظفر . ولا ريب أن كتاب العين ، مع علو قدر الخليل ، لا يمثل علمه وضبطه للغة ، إذ وقع فيه كثير من الأخطاء التى أخذها عليه العلماء . ولذلك هب لغويو القرن الثالث لاستكمال ما فات كتاب العين من نقص واستدركوا ما فيه من تصحيف وتحريف ، فوضعوا المعاجم الواسعة ، لكنها كانت على طريقة الخليل نفسها من حيث ترتيب حروف

---

(١) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٢٨ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٢٨ — ٣٢٩ . ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٠ ش تفسير .

(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٩ .

(٤) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٥١ .

المعجم على المخارج الصوتيـة والابتداء بحروف الحلق ، وأولها حرف العين . وعلى هذا النظام أنشأ ابن دريد (٢٢٣ — ٣٢١ هـ) كتابه « جمهرة اللغة »[١] . وهو ، وإن خلا من كثير من العيوب التى وجدت فى كتاب العين ، لم يخل من مآخذ . فقد أخذ عليه العلماء بعض الألفاظ التى لم يروها الثقات وانفرد بها ابن دريد ، كما أن فى طريقته فى شرح الـكلمة وتقليب صيغها طريقة كثيراً من الصعوبة وخاصة على الباحث الذى يؤثر السرعة فى الوصول إلى غايته من كتب اللغة .

وكما كان ابن دريد إماما فى اللغة ، كان أديبا بارعا ينشىء النظم وينشىء النثر . ولعله ول من اخترع فن المقامات فى اللغة العربية ؛ فقد تنبه نقاد العرب ومؤرخوهم إلى الأحاديث الـكثيرة التى رواها عنـه تلميذه أبو على القالى فى كتابه « الأمالى »[٢] من أحاديث موضوعة شبيهة بالمقامات والقصص القصيرة ظهرت فيها براعة ابن دريد الأدبية واللغوية . وقد نبه على هذا الحصرى فى كتاب « زهر الآداب » ، وقال إنه مخترع هذا الفن من القصص ، وبه سبق أصحاب المقامات فيما أنشئوا من فنهم بعده ، ولابن دريد شعر كثير كان يذهب فيه كل مذهب من الرقة والجزالة ومن الجد والهزل ، وهو مشهور فى كتب الطبقـات والتراجم ؛ ومن مصنفاته كتاب « الاشتقـاق فى الأسماء » ، وكتاب « زوار العرب »[٣] .

وممن ألف فى اللغة معجما واسعا على طريقة الخليل ، أبو على القالى البغدادى (٢٨٨ — ٣٥٦ هـ) صاحب كتاب « البارع فى اللغة » ، وكتاب « الأمالى » فى اللغة والأدب[٤] . وهو الذى غرس علوم اللغة وآدابها فى الأندلس ، وعليـه تخرجت الطبقـة الأولى من اللغويين وكبار الأدباء فى تلك البلاد .

ومن هؤلاء الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ — ٣٨٥ هـ) ؛ وقد ألف فى اللغة كتاب « المحيط » ، ويقع فى سبع مجلدات ، وابن فارس صاحب كتاب « المجمل » المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، وأبو منصور الأزهرى (٢٨٢ — ٣٧٠ هـ) صاحب كتاب

---

(١) ويقع فى ثلاثة مجلدات ضخام ، غير مجلد للفهارس . وقد طبع بحيدر أباد سنة ١٣٤٥ هـ ، ومنه نـسختان مخطوطتان بدار الـكتب المصرية .

(٢) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ ويقع فى ثلاثة مجلدات تشمل الطرف والنوادر والتنبيه .

(٣) ابن خلـكان جـ ١ ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .

(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤٩٥ — ٤٩٦ .

« التهذيب » . وأشهر علماء اللغة فى القرن الرابع على الإطلاق إسماعيل بن حماد الجوهرى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) صاحب كتاب « الصحاح فى اللغة » ، وقد اقتصر فيه على الألفاظ الصحيحة اقتداء بالبخارى الذى اقتصر على الأحاديث النبوية الصحيحة . ولهذا المعجم مزية أخرى ، فإنه ترك الطريقة التى سار عليها سلفه من اللغويين منذ عصر الخليل ، من حيث ترتيب الحروف الهجائية على المخارج الصوتية ، إلى ترتيبها على طريقة أخرى لا تزال مستعملة فى التعليم وفى أكثر الكتب اللغوية التى جاءت بعده ، مثل « لسان العرب » و« القاموس المحيط » ، وهى أن ترتب المادة اللغوية على الحروف ا ب ت ج الخ ، مع ملاحظة أن يكون الحرف الأخير فى الكلمة هو الباب ، والحرف الأول منها هو الفصل . وهذه الطريقة التى ابتكرها الجوهرى فى ترتيب المعاجم تسهل على الكتاب والشعراء العثور على الألفاظ التى يريدها الكاتب فى الأسجاع ، والشاعر فى القوافى . وقد ذاعت هذه الطريقة بعده فى تأليف المعاجم فى المشرق والمغرب .

ولم يقتصر علماء اللغة على تأليف المعاجم ، وإنما ألفوا فى الاشتقاق والتصريف وأصول النحو واللغة كتبا كثيرة . وعلى رأس هؤلاء أبو على الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧هـ ، وتلميذه ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢هـ صاحب كتاب « الخصائص » الذى يعد أعظم الكتب فى أصول اللغة والنحو . ويقول الثعالبى[1] . فى ابن جنى : « هو القطب فى لسان العرب ، وإليه انتهت الرياسة والأدب » .

ومن علماء اللغة من شرح الدواوين الأدبية ، كأبى زكريا يحيى بن على بن محمد الحسن ابن بسطام الشيبانى التبريزى المعروف بالخطيب (٤٢١ — ٥٠٢ هـ) . وكان أحد أئمة اللغة فى عصره ، وقد تلمذ لأبى العلاء المعرى ، وقال ابن خلكان (جـ ٢ ص ٢٣٣) : « وصنف فى الأدب كتبا كثيرة مفيدة ، منها شرح الحماسة ، وكتاب شرح ديوان المتنبى ، وكتاب شرح سقط الزندى ، وهو ديوان أبى العلاء المعرى ، وشرح المعلقات السبع ، وشرح المفضليات وله تهذيب غريب الحديث ، وتهذيب إصلاح المنطق ، وله فى النحو مقدمات حسنة ، والمقصود منها أسرار الصنعة وهى عزيزة الوجود ، وله كتاب الكافى فى علم العروض والقوافى ، وكتاب فى إعراب القرآن سماه الملخص ، رأيته فى أربع مجلدات وشروحه لكتاب الحماسة ثلاثة : أكبر وأوسط وأصغر : وله غير ذلك من التآليف . . . ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد » .

---

(١) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٨٩ .

ولا بأس من أن نورد هنا ما ذكره ابن خلدون (مقدمة ص ٥٠٢ – ٥٠٣) عن تطور تأليف المعاجم العربية ، قال : « إن كثيراً من العلماء اتخذوا كتاب العين أساساً لمعاجمهم . وجاء أبو بكر الزبيدى ، وكتب لهشام المؤيد بالأندلس فى المائة الرابعة ، فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب ، وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل ، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص . وألف الجوهرى من المشارقة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم ، فجعل البداءه منها بالهمزة ، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس فى الأكثر إلى أواخر الكلم ، وحصر اللغة إقتداء بحصر الخليل . ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيده من أهل دانية فى دولة على بن مجاهد ، كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب ، وعلى نحو ترتيب كتاب العين ، وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها ، فجاء من أحسن الدواوين ، ولخصه محمد بن أبى الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس ، وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح فى اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها ، فكانا توأمى رحم وسليلى أبوه ؛ هذه هى أصول كتب اللغة فيما علمناه » .

٦ — الأدب

(ا) النظم

تمهيد :

كانت نزعة الأمويين فى الشعر ، كما رأينا ، جاهلية لا تميل إلى الفلسفة « وقد ظهر فى العصر العباسى كثير من الشعراء ، نهجوا بالشعر مناهج جديدة فى المعانى والموضوعات والأساليب . ومن أشهرهم بشار ابن برد ، وأبو نواس الذى أنحى باللامة على كل قديم ، وحذا حذوه فى هذا العصر ابن قتيبة (٢١٣ – ٢٧٦ هـ) فى القول بالتجديد ، ثم حذا حذوه من جاء بعده من الكتاب كالثعالبى وابن خلدون .

ومن العوامل التى ساعدت فى العصر العباسى على ظهور المناهج الجديدة فى الشعر ومعانيه وأخيلته وأساليبه وفى الأدب عامة .

١ — اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء فى الدولة العباسية عن نظائرها فى الحياة

الجاهلية ، ففضائل العرب فى الجاهلية لم تعد فى نظر الذين عاشوا فى العصر العباسى الأول مما يتغنى به .

٢ — تطور الحياة المادية التى كانت فى أيام الجاهلية تقوم على السذاجة ، بسبب تعدد أعمال الناس ، وزيادة تجاربهم فى العصر العباسى .

٣ — انتشار الشعوبية التى قامت على حط شأن العرب ونقد أشعارهم ومعانيهم .

٤ — أثر الثقافة الأجنبية ، والفارسية خاصة ، فى الشعر والأدب العباسى . إلا أنه على الرغم من هذا كله ، لا يزال يوجد فى اللغة العربية بعض بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافى والأوزان .

يقول نيكلسن (١) : لم يدخل الفرس على الشعر العباسى مثل تلك الفخامة التى كانت لأساليبه فى الشعر القديم ، ولكنهم أدخلوا عليه الخيال الحى اللطيف ، والتعبير الدقيق ، وعمق الإحساس ، وأمدوه بكثير من الآراء والأفكار . وقد ساعد على هذا التحول فى الشعر العربى ، عدا تأثير الثقافة الفارسية واليونانية ، شدة تأثير الإسلام فى الحياة العامة ، وظهور روح دينى قوى بين الناس ؛ بلغ أقصى مداه فى شعر أبى العتاهية فى الزهد والتهذيب » . فالشعر فى هذا العصر يمتاز برقة العبارة ، والتعمق فى النقد ، والتفنن فى المعانى باختيار الألفاظ .

٥ — اعتماد الشعراء طوال أيام العباسيين — عدا فترات قليلة — على تشجيع الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه لم تكن هناك تجارة كتب منظمة ، كما لم يكن هناك أحد من الناشرين الذين يستطيعون نشر الكتب على نفقتهم . فكان كل اعتماد الشعراء فى كسب عيشهم ، على التقرب من الخلفاء والمقربين إليهم من العظماء بالقصائد الرنانة ابتغاء المنح والعطايا . ولهذا كان الإغراق فى المدح من أهم مميزات الشعر فى أيام العباسيين . أضف إلى ذلك دخول غير العرب ، وخاصة الفرس ، فى حلبة الشعراء . ولما كان الحكم فى الدولة العباسية استبدادياً ، كان الافراط فى المدح هو السبيل الوحيد إلى التقرب من الخلفاء ورجال دولتهم .

---

(١) Lit. Hist. of the Arabs. p. 290,

١ — أمراء الشعر العباسى

وقد ظهر فى هذا العصر كثير من أفذاذ الشعر من أمثال أبى تمام والبحترى وابن الرومى والمتنبي والمعرى والشريف الرضى .

ولد أبو عبادة الوليدالبحترى (٢٠٦ - ٢٨٥ هـ) القحطانى الطائى بمدينة منبج ونشأ بها ، وزار بعض مدن الشام كالمعرة وحلب وحمص حيث لقى بها أبا تمام وأخذ عنه . ثم قصد العراق وأقام ببغداد وسامرا حيث ذاع صيته ، واتصل بالخليفة المتوكل ووزيره الفتح ابن خاقان وأمراء الدولة العباسية فى ذلك الوقت ، ومدحهم ونال جوائزهم . وقد حضر قتل المتوكل ، ثم اتصل بحاشية بعض خلفاء هذا الخليفة ومات فى عهد المعتضد وقد ناهز الثمانين من عمره .

وقد شهد كبار الشعراء بعلو كعبه فى الشعر ؛ فقد أنشد البحترى أستاذه أبا تمام شعرا فقال له : « أحسنت ! أنت أمير الشعراء بعدى » . وقيل للبحترى : « أيما أشعر ، أنت أم أبو تمام ؟ فقال : جيده خير من جيدى ، ورديئى خير من رديئه » . وكان يقال لشعر البحترى سلاسل الذهب وهو فى الطبقة العليا . وقيل لأبى العلاء المعرى : أى الثلاثة أشعر : أبو تمام ، أم البحترى ، أم المتنبي ؟ فقال : المتنبي وأبو تمام حكيمان ، وإنما الشاعر البحترى (١) .

وقيل فى شعر البحترى : « هذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة والسهل الممتنع ، فالله دره . ما أسلس قياده ، وأعذب ألفاظه ، وأحسن سبكه ، وألطف مقاصده ، وليس فيه من الحشو شىء ، بل جميعه نخب » (٢) .

ومن أشهر قصائد البحترى القصيدة التى يمدح فيها الخليفة المتوكل ويصف موكبه فى يوم عيد الفطر :

الله مكن للخليفة جعفر ... ملكا يحسنه الخليفة جعفر
فانعم بيوم الفطر عينا إنه ... يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بمحفل ... لجب يحاط الدين فيه وينصر

---

(١) ابن خلكان جـ ٢ ص ١٧٦ (٢) المصدر نفسه ص ١٧٧ .

خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت عدداً يسير بهـا العديد الأكثر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لابساً نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاضع متواضع لله لا يزهى ولا يتكبر (١)

ومن روائع قصائد البحترى هذه القصيدة السينية التى وصف فيها إيوان كسرى :

حضرت رحن الهموم فوجهت إلى إبيض المدائن عنسى (٢)
أتسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس
وهم خافضون (٣) فى ظل عال مشرف يحسر العيون ويخسى (٤)
حلل لم تكن كأطلال سعدى فى قفار من البسابس ملس (٥)
نقل الدهر عهدهن عن الجدة حتى عدون أنضال لبس (٦)
فكأن الحرماز (٧) من عدم الإ س وإخلاله بنية رمس
لو تراه علمت أن الليالى جعلت فيه مأتما بعد عرس
فإذا ما رأيت صورة أنطا كية ارتعت بين روم وفرس (٨)
والمنـايا موائل وأنوشر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس (٩)

---

(١) ديوان البحترى (طبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ) ص١٠ـ ١١ .

(٢) فى هذا البيت وما بعده يقول حلت الهموم بساحتى فركبت حملى إلى قصر المدائن الأبيض لأتسلى عن حظى ، وآسى لما درس من قصور آل ساسان .

(٣) خافضون ، ناعمو العيش .

(٤) يرد النظر كليلا متعبا ، من قوله تعـالى فى سورة الملك (ثم ارجع البصر مرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) .

(٥) أى هذه الآثار العظيمة ليست كأطلال البدو فى القفار الخلوية .

(٦) أنضاء لبس أى ثياب بالية .

(٧) الحرماز أحد القصور فى الايوان .

(٨) فى هذا وفى الستة الأبواب التالية من القصيدة ، لم نذكر منها إلا البيت التالى وتركنا الأبيات الخمسة التى تليه خشية التطويل ، يصف صورة على جدار القصر تمثل معركة دارت فى أنطاكية بين كسرى والروم .

(٩) الرواية الكبيرة .

ليس يدرى أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لإنس
عمرت للسرور دهرا فصارت للتعزى رباعهم والتأسى
ذاك عندى وليست الدار دارى باقتراب منها ولا الجنس جنسى[1]

ومن أشهر شعراء هذا العصر وأبرعهم فى توليد المعانى وأطولهم نفساً فى القصائد أبو الحسن على بن العباس المعروف بابن الرومى . ولد ببغداد سنة ٢٢١ هـ ، واستقر بها طول حياته ، ولم يتركها إلا قليلا . قيل إنه رحل مرة إلى سامرا ،ولكنه تشوق إلى بغداد وحن إليها فقال :

بلد صحبت بها الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل فى الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد[2]

ولم يكن ابن الرومى عربى الأصل ، بل كانت أمه فارسية وأبوه من أصل رومى ، كما يتبين ذلك من قوله :

كيف أغضى على الدنية والفر س خئولى والروم أعمامى

وقد تأثر ابن الرومى بالفلسفة اليونانية حتى إنه ذهب فى شعره — كما يقول المسعودى[3] — إلى معانى فلاسفة اليونان .

وقد وصفه ابن خلكان (ج ١ ص ٣٥١) فقال : هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة ، فيستخرجها من مكانها ، ويبرزها فى أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية » .

وكان لموت زوجته وأبنائه الثلاثة أثر بالغ فى حالته ، حتى قيل إنه لم يتزوج ، وأصبح رثاؤه مثالا يحتذى فى الجودة . من ذلك قصيدته التى رثى فيها ابنه الأوسط ، وتعد من أرقى ما فاضت به عواطف أب على ولده ، ومنها :

---

(١) فهى جديرة أن أبكيها وإن كنت غريبا لا أمت لأصحابها بنسب .
ديوان البحترى ص ١١٠ ، أنيس المقدسى : أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى ص٢١٧ — ٢١٨
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥١ .
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٩٥ .

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى ... جودا فقد أودى نظيركما عندى
ألا قاتل الله المنايا ورميها ... من القوم حبات القلوب على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتى ... فالله كيف اختار واسطة العقد !
على حين شمت[1] الخير من لمحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنى فأضحى مزاره ... بعيدا على قرب قريبها على بعد
ثكلت سرورى كله إذ ثكلته ... وأصبحت فى لذات عيشى أخا زهد
أريحانة العينين والأنف والحشا ... ألاليت شعرى هل تغيرت عن عهدى ؟
ألام لما أبدى عليك من الأسى ... وإنى لأخفى منك أضعاف ما أبدى[2]

وتعتبر قصيدة ابن الرومى التى نظمها على أثر احتلال صاحب الزنج مدينة البصرة وما أحدثه فيها من التخريب والتدمير من أهم المصادر التاريخية عن ثورة الزنج التى شغلت الدولة العباسية نحو خمس عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، وفيها يقول :

لهف نفسى عليك أيتها البص ... رة لهفا كمثل لهب الضرام
لهف نفسى عليك ياقبة الإسـ ... ـلام ، لهفا يطول منه غرامى
لهف نفسى عليك يا فرضة البل ... دان ، لهفا يبقى على الأعوام
بينما أهلها بأحسن حال ... إذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخولها كأنهم قطع الليـ ... ـل إذا راح مدلهم الظلام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ... أين أسواقها ذوات الزحام ؟
أين فلك فيها ، وفلك إليها ... منشئات فى البحر كالأعلام[3]
أين تلك القصور والدور فيها ... أين ذاك البنيان ذو الإحكام ؟
بدلت تلكم القصور تلالا ... من رماد ومن تراب ركام[4]

وقد عزا ابن خلكان (ج ١ ص ٣٥١ — ٣٥٢) موت ابن الرومى (٣٨٣ هـ) إلى حنق أبى الحسين القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد ، الذى كان

---

(١) شمت الخير ارتقبته ونظرت إليه .
(٢) ديوان ابن الرومى (نشره كامل كيلانى فى ثلاثة أجزاء القاهرة ١٩٢٤) ج ١ ص ٢٩ .
(٣) إشارة إلى أنها كانت فرصة عظيمة .
(٤) أى متراكم بعضه فوق بعض . ديوان ابن الرومى ج ٣ ص ٤٢٢ ــ ٤٢٧ .

يخاف هجوه ، « فدس عليه من سمه فى خشكنانة[١] وهو فى مجلسه . « فلما أكلها أحس بالسم ، فقام ، فقال له الوزير : إلى أين تذهب ؟ فقال : إلى الموضع الذى بعثتنى إليه ، فقال له : سلم على والدى ، فقال له : ماطريق على النار . وخرج من مجلسه ، وأتى منزله ، وأقام أياما ومات . وكان الطبيب يتردد إليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم ، فزعم أنه غلط فى بعض العقاقير ، وقال إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى المعروف بنفطويه : رأيت ابن الرومى يجود بنفسه ، فقلت له : ما حالك ؟ فأنشد :

غلط الطبيب على غلطة مورد ... عجزت موارده عن الإصدار
والناس يلحون[٢] الطبيب وإنما ... غلط الطبيب إصابة المقدار

ومن فحول شعراء هذا العصر أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفى المعروف بالمتنبى (٣٠٢ — ٣٥٤ هـ) ، ولد فى محلة كندة بالكوفة . ويقال إنه كان فى أول أمره سقاء بالكوفة ، ثم رحل إلى الشام ، وإلى هذا يشير أحد الشعراء فى هجائه له :

أى فضل لشاعر يطلب الفضـ ... ـل من الناس بكرة وعشيا
عاش حينا يبيع فى الكوفة الما ... ء وحينا يبيع ماء المحيا[٣]

اتصل المتنبى بسيف الدولة الحمدانى فى سنة ٣٣٧هـ ، وأصبح لسانا ناطقا يشيد بمديحه ، وكان — كما يقول الثعالبى (جـ ١ ص ٩٠) : نادرة الفلك وواسطة عقد الدهر فى صناعة الشعر ، ثم هو شاعر سيف الدولة المنسوب إليه المشهور به ؛ إذ هو الذى جذب بضبعه[٤] ورفع من قدره ، ونفق سعر شعره ، وألقى عليه شعاع سعادته ، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر ، وسافر كلامه فى البدو والحضر ، وكادت الليالى تنشده والأيام تحفظه ، كما قال وأحسن ما شاء :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى ... إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا ... وغنى به من لا يغنى مغردا

---

(١) الخشكنان : نوع من الفطائر المحشوة : يعجن دقيق الحنطة بالشيرج ، ثم يبسط ويملأ بالسكر واللوز أوالفستق وماء الورد ، ويجمع ويخبز (عن تذكرة داود بتصرف) .
(٢) لحا يلحاه لامه .
(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٧ .
(٤) الضبع العضد كلها .

ومن إحدى قصائد المتنبي يعاتب سيف الدولة :

مالى أكتم حبا قد برى جسدى ... وتدعى حب سيف الدولة الأمم ؟
إن كان يجمعنا حب لغرته ... فليت أنا بقدر الحب نقتسم
يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
إذا نظرت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث مبتسم
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم
يامن يعز علينا أن نفارقهم ... وجداننا كل شىء بعدكم عدم
شر البلاد بلاد لا صديق به ... وشر ما يكسب الإنسان ما يصم[1]

فارق المتنبي سيف الدولة مغاضبا ، وقصد مصر ، وامتدح كافورا بأحسن المدائح طمعا فى أن يوليه بعض أعمال مصر ؛ فخلع كافور عليه وأنزله فى داره وعين جماعة لخدمته ، وحمل إليه كثيراً من المال ، ولكنه لم يوله عملا من الأعمال ، معتذرا بأنه لا يستطيع أن يولى رجلا يدعى النبوة ؛ فانقلب مدح أبى الطيب هجاء ، وأسرف فى ذلك كما أسرف فى مدحه من قبل[2] .

فمن مدائح المتنبي لكافور ، قوله فى أول قصيدة أنشدها إياه فى جمادى الآخر سنة ٣٤٦ هـ[3] :

قواصد كافور توارك غيره ... من قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه ... وخلت بياضا خلفها ومآقيها

ولما لم ينل المتنبي من كافور ما طلبه ، استعد للرحيل ، وأنشد فى يوم عرفة سنة ٣٥٠هـ قبل مفارقته مصر بيوم واحد قصيدة طويلة هجا كافورا فيها أشد الهجاء ، ومنها[4] :

عيد بأية حال عدت يا عيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟

---

(١) البرقوقى : شرح ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٢٥٨ — ٢٦٦ .
(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٧٤ .
(٣) أنظر شرح ديوان المتنبى لعبد الرحمن البرقوقى جـ ٢ ص ٥١٤ ، جـ ١ ص ١١٨ — ١١٩ ، ٢٧٠ — ٢٧٦ .
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٧٠ — ٢٧٦ .

لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

قصد المتنبي بعد ذلك بلاد فارس حيث مدح عضد الدولة بن بويه ، فأجزل جائزته ، ومن مدائحه له قوله :

أروح وقد ختمت على فؤادى بحبك أن يحل به سواكا
ولو أنى استطعت خفضت طرفى فلم أبصر به حتى أراكا
وكيف الصبر عنك وقد كفانى نداك المستفيض وما كفاك (١)

ولما عاد من فارس قصد بغداد ، ثم الكوفة ، فتعرضت له عصابة على رأسها فاتك بن أبى الجهل الأسدى ، فحاربها المتنبي وأصحابه ، وقد فكر فى الفرار فقال له غلامه : لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل :

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والحرب والضرب والقرطاس والقلم

فكر راجعاً حتى قتل (٢) .

ولد أبو العلاء فى سنة ٣٦٣ هـ بمعرة النعمان ، وهى بلدة صغيرة ببلاد الشام على مقربة من حماة وشيزر ، تنسب إلى النعمان بن بشير الأنصارى ؛ وسمى المعرى نسبة إلى هذه المدينة . وقد أصيب بالجدرى وهو فى السنة الرابعة من عمره ، وذهب الجدرى ببصره . وعاش معظم حياته فى المعرة فى عصر اضطربت فيه الأحوال السياسية : فكانت إمارة حلب صراعاً بين الحمدانيين والفاطميين تارة ، وبين قبائل البدو والروم تارة أخرى (٣) ، وكان لهذه الأحداث أثر فى شعر أبى العلاء النقدى .

تعلم أبو العلاء النحو واللغة على أبيه ، وكان من أسرة تولى أكثر أفرادها منصب القضاء على المذهب الشافعى فى المعرة وما جاورها من البلاد مثل شيزر ، وبقى القضاء فى هذا البيت إلى أن دخل الصليبيون المعرة ٤٩٢ هـ ، واستمرت الفتيا على مذهب الإمام الشافعى فى هذا البيت أكثر من قرنين . وكان أبو العلاء كثير الترحال فى شبابه زار المدن الشامية المشهورة بالعلم والعلماء كأنطاكية واللاذقية وطرابلس ، وأخذ العلم عن علمائها واختلف إلى مكتباتها (٤) ، كما زار بغداد مرتين : إحداهما فى سنة ٣٩٨ هـ ، والثانية فى

---

(١) البرقوقى : شرح ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٩ — ٥١٨ . الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ١ ص ١٦٣ .
(٢) ابن خلكان : جـ ١ ص ٣٧ . انظر شرح ديوان المتنبى للبرقوقى جـ ١ ص ٢٦٢ .
(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٢ — ٣٤ . (٤) المقدسى : أمراء الشعر العربى ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

سنة ٣٩٩ هـ ، لكنه رجع إلى المعرة ولزم منزله ، وشرع فى التصنيف ، وسمى نفسه رهين المحبسين للزومه منزله وذهاب عينيه [١] .

كان أبو العلاء منذ نعومة أظفاره ؛ شاعراً مطبوعاً قرض الشعر وهو فى الحادية عشرة من عمره ، وكان متضلعاً فى فنون الأدب والنحو واللغة ، حتى قيل إنه كان يحفظ كتاب الجمهرة لابن دريد ، « وأخذ عنه الناس وسار إليه الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار » . وقد عدد ابن خلكان مصنفات أبى العلاء فقال : « وله التصانيف الكثيرة المشهورة والرسائل المأثورة ، وله من النظم « لزوم مالا يلزم » [٢] ، وهو كبير يقع فى خمسة أجزاء أو ما يقاربها . وله « سقط الزند » [٣] أيضاً ، وشرحه بنفسه وسماه « ضوء السقط » وبلغنى أن له كتابا سماه « الأيك والغصون » وهو المعروف بالهمزة والردف (الحرف الذى قبل الهمزة) يقارب المائة جزء فى الأدب أيضاً . ولما فرغ من تصنيف كتاب « اللامع العزيزى » فى شرح شعر المتنبى وقرىء عليه ، أخذ الجماعة فى وصفه ، فقال أبو العلاء : كأنما نظر المتنبى إلى بلحظ الغيب حيث يقول :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

اختصر أبو العلاء ديوان أبى تمام وشرحه وسماه « ذكرى حبيب » ، وديوان البحترى وسماه « عبث الوليد » ، وديوان المتنبى وسماه « معجز أحمد » ؛ وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها ومآخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم ، وتولى الانتصار لهم والنقد فى بعض المواضع عليهم والتوجيه فى أماكن لحظئهم .

كانت لأبى العلاء آراء فلسفية عميقة ، فنراه فى لزومياته جريئاً مبتكراً ، وله آراءه فى الأخلاق والنقد الاجتماعى . ولم يقنع بإظهار النقائص الاجتماعية والسياسية فى جرأة ، بل جعل الحياة السياسية كلها موضوعاً لبحثه ، وأخذ يتأمل فى أعمق معضلاتها [٤] . يؤيد هذا قوله فى لزومياته (٦٤) .

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا فماتت سنة اللؤماء

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٣ — ٣٤ . (٢) طبعة القاهرة سنة ١٨٩١ .
(٣) طبعة بولاق سنة ١٢٨٦ هـ فى جزئين .
(٤) نيكلسن : انظر مادة « أبو العلاء المعرى » فى ترجمة دائرة المعارف الإسلامية .

وقوله :

قد حجب النور والضياء وإنما ديننا رياء
يا عالم السوء ما علمنا أن مصليك أتقياء (١)

وكان أبو العلاء يرى رأى الحكماء الذين لا يأكلون اللحم ؛ وبقى خمساً وأربعين سنة لا يأكل اللحم تديناً حتى لا يعذب الحيوانات بذبحها . وكان بيته كعبة العلماء ؛ فقد زاره عبدالوهاب بن نصر المالكى (٢) ، وكان من كبار الشعراء فأضافه عنده ، وشهد له بالتضلع فى الدين والشعر ، وأشار إلى ذلك فى قصيدته التى أرسلها إلى خازن دار العلم ببغداد حيث يقول :

والمالكى ابن نصر زار فى سفر بلادنا فحمدنا النأى والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكا جدلا وينشر الملك الضليل (٣) إن شعرا (٤)

كذلك زاره فى معرة النعمان ناصر خسرو الشاعر والرحالة الفارسى الذى أصبح داعياً للاسماعيلية (٥) ، والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الإسماعيلية فى فارس وداعى دعاة الفاطميين فى مصر وتحدث إليه فى مذهبه النباتى . وقد اعتز أبو العلاء بتقدير هؤلاء العلماء له وترددهم عليه فقال :

يزورنى الناس : هذا أرضه يمن من البلاد وهذا داره الطبس (٦)

قال الدكتور طه حسين (٧) : إن أبا العلاء « هو الفيلسوف الفذ الذى التزم مالا

---

(١) ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) تولى عبدالوهاب بن نصر القضاء بمدينتى بادرايا وباكسايا الواقعتين على مقربة من النهروان ، وفى مدينة إسعرد الواقعة فى أرض الجزيرة على مقربة من دجلة أو على مسيرة يوم ونصف يوم جنوبى ميافارقين . وهجر بغداد فى أخريات أيامه بعد أن ضاقت به سبل العيش ، وقصد مصر فى عهد الخليفة الظاهر الفاطمى سنة ٤٢٣ هـ ، ولم يلبث أن مات فى تلك السنة . حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٦١ — ١٦٣ .

(٣) الملك الضليل لقب لامرىء القيس الذى عده النبى صلى الله عليه وسلم أشعر الشعراء . وقد روى الكتبى (كتاب فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٧) هذه الأبيات الذى ذكرها فى كلامه عن عبدالوهاب بن نصر المالكى .

(٤) أبو العلاء المعرى : ديوان سقط الزند ص ١٣٤ . حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٦٢ .

(٥) راجع لفظ « أبو العلاء » فى ترجمة دائرة المعارف الاسلامية .

(٦) قصبة ناحية بين نيسابور وأصبهان تسمى قوهستان قاين ، وهما بلدتان كل واحدة منهما يقال لها طبس ، إحداهما طبس العناب ، والأخرى طبس التمر . أنظر لفظ طبس فى معجم البلدان لياقوت .

(٧) ذكرى أبى العلاء ص ٤٠٨ — ٤٠٩ .

يلزم عند المسلمين فى سيرته ولفظه ؛ فحرم الحيوان ، والتزم النبات ، وأبى الزواج والنسل وأراد اعتزال الناس . ولأبى العلاء مع أنه من أصحاب اللذة ، شدة غريبة فى رفض الخمر ، فقد حرمها من جهات ثلاث : من جهة العقل والصحة والدين ، وألف فى ذمها كتابا خاصا سماه « حماسة الراح » . وأبو العلاء هو الفيلسوف الفذ الذى أنكر النبوات ، واعترف بالإله ، وعرض بالتكليف ، وعارض القرآن ، وهزىء بشىء من أحكامه ، ثم بقى مع ذلك سالما لم يصبه أذى فى نفسه حتى مات » (٤٤٩ هـ) .

٢ — شعراء الفرس :

ارتقى الشعر الفارسى وبلغ أقصى مداه فى عهد السامانيين ، ويعد أبوعبدالله بن محمد الرودجى (١٨٥ — ٢٣٦ هـ) أشهر شعراء النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، شهرته على شهرة من سبقه من الشعراء ، حتى لقب أبا الشعر الفارسى ، وأول شعراء الفرس ومن أصاب القدح المعلى والزعامة بين شعراء عصره ، وكان البلعمى وزير إسماعيل ابن أحمد السامانى (٣٣٠ هـ ٩٤٠ م) يقول إن الرودجى لم يكن له نظير بين العرب والفرس . وقد تقلد أبو على البلعمى ابن هذا الوزير الوزارة فى عهد الأمير منصور بن نوح السامانى ، ونقل كتاب تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى إلى اللغة الفارسية وتوفى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) (١) .

واشتهر فى هذا العصر كثير من شعراء الفرس ، نخص بالذكر منهم عمر الخيام صاحب كتاب الرباعيات المشهور ، وابن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ) أحد فلاسفة المسلمين ، وقد نظم كثيراً من القصائد بالفارسية ، كما روى له أيضاً قصائد بالعربية ، من ذلك قوله و النفس :

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهى التى سفرت ولم تتبرقع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ... ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق ... والعلم يرفع كل من لم يرفع
وتعود عالمة بكل خفية ... فى العالمين خرقتها لم يرقع (٢)

---

(١) Browne : Lit. Hist. of persia. Vol. I.pp.355—6,399,369

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٥٣ — ١٥٤ .

ومن شعراء الفرس الذين نظموا القصائد بالعربية مهيار الديلمى المتوفى سنة ٤٢٨ هـ . وقد تحول عن المجوسية إلى الإسلام فى سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) على يد الشريف الرضى نقيب العلويين فى بغداد [١] ومن شعراء الغزنويين الفردوسى الذى يعد أشهر شعراء الفرس فى كل العصور . ويأتى بعده العنصرى شاعر بلاط محمود الغزنوى والأسدى صديق الفردوسى الذى نشأ معه فى مدينة واحدة ، وهو مخترع ذلك النوع من القصائد الجدلية التى يطلق عليها « المناظرة » ، والعسجدى والفروخى السجستانى . ثم يأتى بعد قليل المنوشيرى ، والمنصورى ، واليمينى الذى قيل أنه ألف تاريخ عهد السلطان محمود الغزنوى بالشعر الفارسى ، والشاعرة ربيعة بنت كلب القصدارية . ومن هؤلاء الشعراء أبوسعيد ابن أبى الخير الذى اشتهر برباعياته فى التصوف [٢] .

٣ — شعراء مصر والأندلس :

نبغ فى مصر والأندلس كثير من الشعراء ولا سيما فى العصر الفاطمى . وقد أكثر رجال الأدب فى قول الشعر لمدح الخلفاء الفاطميين ، لما كان يدره هؤلاء من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق المخصصة لهم . ولقد دفعت الرغبة فى الحصول على هذه الجوائز والهبات الشعراء من أهل السنة إلى محاكاة الشعراء الشيعيين ، فاتصل بعضهم ببلاط الخلفاء الفاطميين . على أن الشعراء السنيين . وإن كانوا فى مدحهم أكثر اعتدالا من الشيعيين ، كابن هانىء وغيره ، قد غلوا فى شعرهم للاشادة بمجد الفاطميين ، وكثيراً ما دفعهم هذا الغلو إلى الكفر والإلحاد .

ومن أشهر هؤلاء الشعراء محمد بن هانىء الأندلسى ، وكان من قبيلة الأزد ، ولد فى إشبيلية ببلاد الأندلس حيث قضى أيام صباه . ثم اتصل بالخليفة المعز الفاطمى الذى بالغ فى الانعام عليه . ثم توجه المعز إلى مصر ، فتبعه ابن هانىء ورجع إلى المغرب لأخذ أولاده واللحاق بمولاه . وأعد العدة للرحيل وسار فى طريقه إلى مصر ، فلما بلغ برقة توفى سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، وعمره ست وثلاثون سنة . وقيل اثنتان وأربعون » .

وكان المعز يؤمل آمالا كباراً فى هذا الشاعر ، ويريد أن يباهى به شعراء المشرق ، فإنه لما بلغت المعز وفاة ابن هانىء وهو بمصر ، أسف عليه أسفا شديداً وقال : « هذا

---

(١) المصدر نفسه جـ٢ ص١٤٩ـ١٥٠ Browne: Lit Hist, of persia vol.II.pp.113-114

(٢) Browne : Lit Hist of persia. vol. II. pp. 115–117

الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » [١] . ولاشك أن المعز أصاب فيما قاله ، لأننا إذا تصفحنا ديوان ابن هانىء ، ألفينا أكثره قد نظم فى مدح المعز وأسرته ، حتى لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن ينسب لحسامه من صفات التشيع مانسبه إلى نفسه ، كما يتبين ذلك فى هذين البيتين :

لى صارم وهو شيعى كحامله ... وهو يكاد يسبق كراتى إلى البطل
إذا المعز معز الدين سلطه ... ولم يرتقب بالمنايا مدة الأجل [٢]

ولم يفتر ابن هانىء عن مواصلة مدحه للمعز ، والإغراق فى مدحه حتى جعله فى منزلة عيسى ومحمد ، بل نسب إليه بعض صفات الألوهية [٣] ، ونسب إليه القدرة على إتيان المعجزات [٤] .

ومن أشهر شعراء الفاطميين أبو حامد أحمد الأنطاكى ، وقد عاصر المعز والعزيز والحاكم ، وأشاد بذكر جوهر الصقلى ويعقوب بن كلس وغيرهما ، ومن قوله يمدح بن كلس :

لم يدع للعزيز فى سائر الأر ... ض عدوا إلا وأخمد ناره
فلهذا اجتباه دون سوا ... ه واصطفاه لنفسه واختاره
كل يوم له على نوب الده ... ر وكر الخطوب بالبذل غاره
ذو يد شأنها الفرار من البخ ... ل وفى حومة الوغى كراره
قد أقلت عن العزيز عداه ... بالعطايا وكثرت أنصاره [٥]

(ب) النثر

تنوعت الكتابة لكثرة العلوم وتنوع الفنون فى العصر العباسى الثانى ، وأصبح فى المتكلمين كتاب ، وفى الفقهاء كتاب ، وللفلسفة كتاب ، وللأدب ، وخاصة النثر ، كتاب يجيدن الكتابة فى فنه ويقول الدكتور طه حسين [٦] عن الكتاب فى القرن

---

(١) ابن خلكان جـ ٤ — ٥
(٢) ديوان ابن هانىء (طبعة بيروت ١٣٢٦هـ) ص ١٨٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٤ — ٣٦ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٦٤ .
(٥) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .
(٦) صحيفة الجامعة المصرية ، ابريل ١٩٣١ ص ٥ .

الثالث الهجرى إنهم «قد تقسموا فنونا مختلفة ، وتخصص كل منهم فى فرع من هذه العلوم : فمنهم من تخصص فى الفلسفة والكلام ، ومنهم من تخصص فى اللغة والنحو ، وقليل منهم من جمع من هذه الأشياء شيئا كثيراً . بل نرى أن هذه الحياة العقلية غلبت العقل العربى على الخيال العربى ، ورفعت شأن النثر على شأن الشعر ، وأكثرت الكتاب وقللت الشعراء». والذى يهمنا هنا هو النثر الأدبى .

اهتم الأدباء بدراسة البيئة التى تحيط بهم : فألف القاضى محمد بن إسحاق الصيمرى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ كتاب مساوى العوام وأخبار السفلة والأغتام[١] . ووصف الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الحياة فى المدن ، ويعد أبا النثر العربى الجديد ، كما يعد أعظم كتاب النثر أثراً ، حتى قال ثابت بن قرة المترجم : « ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس : أولهم عمر ابن الخطاب ، والثانى الحسن البصرى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ »[٢] ، وإن أسلوبه وما تحويه كتبه من معلومات غزيرة يؤهله لأن يوضع فى المرتبة الأولى من متقدمى كتاب النثر العربى[٣] .

ويقول المسعودى[٤] فى مؤلفات الجاحظ : « ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه مع قوله بالعثمانية[٥] . وقد كان أبو الحسن المدائنى كثير الكتب ، إلا أن أبا الحسن المدائنى كان يؤدى ما سمع وكتب الجاحظ ، مع انحرافه المشهور : تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ووصفها أحسن وصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع ، خرج من جد إلى هزل . ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة . وله كتب حسان منها : كتاب البيان والتبيين[٦] ، وهو أشرفها ، لأنه جمع فيه المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ، ومستحسن

---

(١) يعنى الأغبياء الجهال .

(٢) ياقوت : ارشاد الأريب جـ ٦ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٣) Browne : Lit Hist. of Persia, Vol. . p . 351

(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٣٩ — ٤٤٠ .

(٥) أى تشيعه لعثمان بن عفان كما هو مذهب أهل البصرة ، ومذهبهم مخالف لمذهب الشيعة العلوية فى الكوفة .

٦) اعتبر ابن خلدون (مقدمة ص٥٠٦) كتاب البيان والتبيين أحد أركان الأدب فقال : «وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم ان اصول هذا الفن واركانه اربعة دواوين وهى : ادب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأبواب الأربعة فتبع لها وفروع عنها .

الأخبار ، وبليغ الخطب مما لو اقتصر عليه مقتصر لا كتفى به ، وكتاب الحيوان ، وكتاب الطفيليين والبخلاء وسائر كتبه فى نهاية الكمال ما لم يقصد منها إلى نصب[١] ولا إلى دفع حق . ولا يعلم ممن سبق وخلف من المعتزلة أفصح منه » .

ومن أشهر مؤلفات الجاحظ : رسالة التربيع والتدوير[٢] التى هجا فيها أحمد بن عبد الوهاب ، وتقع فى نحو ١٥٠ صفحة [٣] .

ويمتاز القرن الرابع الهجرى بنهضة أدبية مباركة . فقد ظهر فيه كثير من أعلام البيان من بينهم طائفة من الوزراء ، وذاع استعمال السجع فى الرسائل . وقد وصف متز[٤] هذه الرسائل فى هذه العبارة فقال : « إن رسائل القرن الرابع الهجرى هى آية الفن الإسلامى ومادتها أنفس ما اشتغل به الفنانون ، وهى اللغة . ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التى صنعتها أيدى الفنانين فى ذلك العهد من الزجاج والمعادن ، لاستطعنا أن نرى فى هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق ، وامتلاكهم ناصية البيان فى أصعب صورة ، وتلاعبهم بذلك تلاعبا . وليس من محض الاتفاق أن يكون كثير من وزراء ذاك العهد أساتذة البيان وأعلامه . لذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليقة بأن تنشر كتبا للناس . وكان من أولئك الوزراء : الخصيبى ، وابن مقلة ، والمهلبى ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والإسكافى وزير السامانيين ، وابراهيم بن هلال الصابىء الذى تقلد ديوان الإنشاء فى بغداد سنة ٣٤٩ هـ .

ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى الحرانى (٣٢٠ — ٣٨٤ هـ) من أشهر رجال الأدب فى هذا العصر . وقد ولد ببغداد ، ووصفه الثعالبى[٥] فى هذه العبارة فقال :

---

(١) النصب التدين ببغض على ، ويلقب اصحاب هذا المذهب بالنواصب والناصبة واهل النصب ، لأنهم نصبوا لعلى اى عادوه . انظر القاموس المحيط .

(٢) وهى الرسالة الرابعة من رسائل الجاحظ الاحدى عشرة (القاهرة ١٣٢٤) . وقد طبعت فى ليدن سنة ١٩٠٣ ضمن ثلاث رسائل هى : رسالة إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك وكافة جند الخلافة ، وكتاب فخر السودان على البيضان ، وكتاب التربيع والتدوير (ص ٨٦ — ١٥٧) .

(٣) انظر طه حسين : صحيفة الجامعة المصرية (إبريل ١٩٣١)

(٤) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٣٩٩ — ٤٠٠ .

(٥) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٣١٨ .

« أوحد العراق فى البلاغة ، ومن به تثنى الخناجر فى الكتابة[١] ، وتتفق الشهادات له بلوغ الغاية من البراعة والصناعة » . وقد تقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ ، فى عهد معز الدولة بن بويه ثم فى عهد ابنه عز الدولة بختيار . وأثار كراهة عضد الدولة برسائله اللاذعة على لسان بختيار ، فحقد عليه واعتقله بعد أن استولى على السلطنة بالعراق على أثر قتل بختيار سنة ٣٦٧ هـ ، ثم أطلقه فى سنة ٣٧١ هـ بشفاعة بعض أصدقائه ، وأمره أن يضع له كتابا فى أخبار بنى بويه سماه « التاجى » . وقد قيل إن عمال السوء سعوا بالصابى عند عضد الدولة وأوغروا صدره وأثاروا سخطه وحركوا ضغنه عليه ، على الرغم من أنه أكب على تأليف هذا الكتاب ، وأخذ يتأنق فى تصنيفه وترصيفه ، وينفق من روحه على تقريظه وتشنيفه[٢] ، فرفع إلى عضد الدولة أن صديقا للصابى دخل عليه يوما فرآه فى شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبديل والتبييض ، فسأله عما يعمله من ذلك فقال : أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها . فأمر (عضد الدولة) بأن يلقى تحت أرجل الفيلة ، فأكب نصر بن هارون ومطهر بن عبد الله وعبد العزيز بن يوسف على الأرض يقبلونها بين يديه ويستشفعون إليه فى أمره ويتلطفون فى استيهاب دمه إلى أن أمر باستيحائه[٣] مع القبض عليه وعلى أشيائه واستئصال أمواله ، فبقى فى ذلك الاعتقال بضع سنين إلى أن تخلص فى آخر أيام عضد الدولة إلى أن رزحت حاله وتهتك ستره »[٤] .

وكان ابن أبى الصابى متمسكا بدينه على الرغم مما بذله الخلفاء والسلاطين والوزراء من جهود لتحويله إلى الإسلام ، حتى إن بختيار عرض عليه الوزارة إذا أسلم ، « فلم يهده الله للاسلام كما هداه لمحاسن الكلام . وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة ، ويخدم الأكابر أرفع خدمة ، ويساعدهم على صيام شهر رمضان ، ويحفظ القرآن حفظا يدور على طرف لسانه وسن قلمه »[٥] .

---

(١) تثنى اى توضع فى الأغماد والمقصود هنا انه يستغنى بقلمه عن استعمال السيف والخنجر كما يقول الشاعر :

قوم اذا رامـوا عداوة معشر سفكوا الدماء بأسنة الأقلام

(٢) اى تزينه بالشنوف وهى كالأقراط من الحلى .

(٣) اى تركه حيا .

(٤) الثعالبى يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢١٩ .

وكان الصاحب بن عباد يحب أبا إسحاق الصابى أشد الحب ويواصل إرسال منحه وعطاياه إليه . قال أبو القاسم على بن محمد السكوخى ، وكان الصاحب يقول : كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبدالعزيز بن يوسف ، وأبو إسحاق الصابى ، ولو شئت لذكرت الرابع ، يعنى نفسه .. وكان الصاحب يكتب كما يريد ، والصابى يكتب كما يؤمر ، وبين الحالين بون بعيد ، وكيف جرى الأمر فهما هما ، وقد وقف فلك البلاغة عندهما » (١) .

كذلك يعد الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥ هـ) وزير فخر الدولة بن ركن الدولة البويهى فى أصبهان والرى وهمذان من أشهر رجال الأدب فى عصره . وقد وصفه الثعالبى (٢) وصفاً شائقاً فى هذه العبارة فقال : « هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان . . وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة إليهم ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب (٣) ؛ واحتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى وملك رقاب المعانى ، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين : كأبى نواس ، وأبى العتاهية ، والعتابى ، والنمرى ، ومسلم بن الوليد ، وأبى الشيص ، ومروان بن أبى حفصة ، ومحمد بن مناذر ، وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والزهرى (٤) وجرجان مثل : أبى الحسين السلامى ، وأبى بكر الخوارزمى ، وأبى طالب المأمونى ، وأبى الحسن البديهى ، وأبى سعد الرستمى ، وأبى القاسم الزعفرانى ، وأبى العباس الضبى ، وأبى الحسن بن عبدالعزيز الجرجانى ، وأبى القاسم بن أبى العلاء ، وأبى محمد الخازن ، وأبى هاشم العلوى ، وأبى الحسن الجوهرى ، وبنى المنجم ، وابن بابك ، وابن القاشانى ، وأبى الفضل الهمذانى ، وإسماعيل الشاشى ، وأبى العلاء الأسدى ، وأبى الحسن الغورى ،

---

(١) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) يتيمة الدهر جـ ٣ ص ١٦٩ - ١٧٠

(٣) أى جمع من تدبيره بين بلاد الشرق والغرب .

(٤) كذا فى كتاب يتيمة الدهر للثعالبى ولعلها الرى .

وأبى دلف الخزرجى ، وأبى حفص الشهرزورى ، وأبى معمر الإسماعيلى ، وأبى الفيض الطبرى ، وغيرهم ممن لم يبلغنى ذكرهم أو ذهب عنى اسمه ، ومدحه مكاتبه الشريف الموسوى الرضى ، وأبو إسحاق الصابى ، وابن حجاج ، وابن سكرة ، وابن نباتة . . وما أحسن وأصدق قول الصاحب :

إن خير المداح من مدحته شعراء البلاد فى كل نادى

ذكر ابن خلكان [١] أنه « اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره » . وصنف الصاحب كثيراً من الكتب ، منها كتاب فى سبعة مجلدات أسماه « المحيط » ، وكتاب الكافى فى الرسائل ، وكتاب الأعياد وفضائل النيروز ، وكتاب الإمامة ذكر فيه فضائل على بن أبى طالب وأثبت إمامة من تقدمه ، وكتاب الوزراء ، وكتاب الكشف عن مساوى شعر المتنبى إلى غير ذلك من الرسائل البديعة [٢] .

وكانت مكتبة الصاحب تزخر بالمصنفات ، حتى إن نوح بن أسد السامانى لما كتب إليه يستدعيه ليفوض إليه وزارته وتدبير أمر مملكته ، فكان من جملة أعذاره إليه ، أنه يحتاج لنقل كتبه خاصة ، إلى أربعمائة جمل » [٣] .

وقد تطور الأدب تطوراً ملحوظاً فى هذا العصر ، فبعد أن كانت المحسنات اللفظية مقصورة على الرسائل الرسمية ، تعدت إلى الرسائل الإخوانية (أو الشخصية) بوجه عام ، وأصبحت كتابة هذه الرسائل فى أواخر القرن الرابع الهجرى فناً من أرقى الفنون ، حتى ستطاع كثير من الأدباء أن يتخذوا من كتابة هذه الرسائل الجديدة وسيلة للتكسب ، كما كان الشعراء من قبل ، ومن أشهر هؤلاء الأدباء أبو بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ هـ وكان أبوه من خوارزم وأمه من طبرستان ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبرى ، وقد قصد لصاحب بن عباد وهو بأرجان ، وتنقل فى كور العراق والشام ، واتصل بسيف الدولة الحمدانى ، وشرق بعد أن غرب ، وورد بخارى » ، ثم نيسابور ، ثم قصد سجستان

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٧٥ .
(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ٧٥ .
(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٧٦ .

وطبرستان ، ثم عاد إلى نيسابور وأقام بها ، وتوثقت الصلة بينه وبين الصاحب بن عباد في أصبهان[١] .

ويحكى أنه قصد حضرة الصاحب بن عباد وهو بأرجان ؛ فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجابه : قل للصاحب على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن فى الدخول . فدخل الحاجب وأعلمه ، فقال الصاحب : قل له ، قد ألزمت نفسى أن لا يدخل على أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ؛ فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك ، فقال له أبو بكر : إرجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال ، فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمى ، فأذن له فى الدخول فدخل عليه ، فعرفه وانبسط له[٢] .

حاز الخوارزمى شهرة واسعة فى ميدان الأدب فقصده الطلاب من كل حدب وصوب . فمن رسائله فى الفقر : وإنما يكره الفقر لما فيه من الهوان ، ويستحب الغنى لما فيه من الصوان[٣] . فإذا نبغ الغم من رتبة الغنى ، فالغنى هو الفقر ، واليسر هو العسر . لا بل الفقير على هذه القضية احسن من الغنى وأقل منه أشغالا ؛ لأن الفقير خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رق . فلا يستبطئه إخوانه ولا يطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر فى الفطر صدقته ، ولا فى النحر أضحيته ، ولا فى شهر رمضان مائدته ، ولا فى الربيع باكورته[٤] ، ولا فى الخريف فاكهته ، ولا فى وقت الغلة شعيره وبره ، ولا فى وقت الجباية خراجه وعشره . وإنما هو مسجد يحمل إليه ولا يحمل عنه[٥] ، وعلوى يؤخذ عليه[٦] ؛ تتجنبه الشرط نهاراً ويتوقاه العسس ليلا ؛ فهو إما غانم وإما سالم . وأما الغنى فإنما هو كالغنم غنيمة لكل يد سالبة ، وصيد لكل نفس طالبة ، وطبق على شوارع

---

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٩٣ — ١٩٤ ، ٥٢٣ .

(٢) أى سر به ورفع الكلفة بينه وبينه . ابن خلكان ج ١ ص ٥٢٣ .

(٣) أى صون الكرامة والنفس .

(٤) باكورة الشىء أول ما يظهر منه .

(٥) أى أن الفقير يشبه المسجد فى أنه يوهب له ولا يستوهب منه .

(٦) لا يؤخذ عليه أى لا ينتقد عليه شىء ، وفى الأصل « عنه » ولعله تحريف .

النوائب[١] ، وعلم منصوب فى مدرجة المطالب[٢] ، تطمع فيه الإخوان ويأخذ منه السلطان وينتظر فيه الحدثان[٣] ويحيف ملكه النقصان[٤] » .

وكان أبو بكر الخوارزمى شيعيا غاليا . ولو وازنا بين رسائل الخوارزمى ورسائل الصابى ، لوجدنا رسائل الصابى أكثر اتزانا وأقل مبالغة وأقرب إلى الواقع . وكان أهم ما امتازت به رسائل الخوارزمى المحسنات البديعية والسلاسة ... وبين هذا الأسلوب وبين الأسلوب العربى القديم كثير من وجوه الشبه ، من شغف بالألفاظ الجزلة ذات الجرس[٥] والتشبيهات الحسنة وقلق نفس الكاتب غير أن ما كانت تنطوى عليه الفروسية قديما من نبل العاطفة قد تغير وصار موضع سخرية ؛ وهذه هى الصورة الوحيدة التى أتيحت له فى مجتمعات المدن . أما الصفات الرئيسية التى اتصف بها أسلوب الخوارزمى ، فهى أيضا صفات الأسلوب الساخر : وهى المبالغة والتكرار ، وهو يعمد إليهما باعتبارهما طريقة فنية فى الكتابة[٦] » .

وكان زعيم هذا النوع من الكتابة أحمد بن الحسين الهمذانى المعروف ببديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٨ [٧] . وكان — كما وصفه الثعالبى [٨] — « معجزة همذان ونادرة الفلك ، وبكر عطارد[٩] ، وفرد الدهر وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وشرف النفس وصفاء الذهن وقوة النفس ، ومن لم يدرك قرينه فى ظرف النثر وملحه وغرره ودرر النظم ونكته . ولم ير ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره وجاء بمثل إعجازه وسحره ، فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب : فمنها أنه كان ينشد

---

(١) يشبه الغنى بالطبق على الإناء لأنه يغطى بماله النوائب التى تنتاب الناس .

(٢) بمعنى أنه كالراية المنصوبة الظاهرة يقصد إليها كل طالب ، والمراد أن الغنى يكون ظاهراً فى قومه . فإذا نزلت بهم المغارم والمطالب قصده الطالبون أولا .

(٣) أى يرتقب نزول الحوادث به .

(٤) أى يأتى على مملوكه النقص بالحوادث والعلل ، الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ٤ ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٥) الجرس الموسيقى والعذوبة .

(٦) متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٤٠٤ .

(٧) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٩ .

(٨) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٢٤٠ .

(٩) قال الأزهرى : « عطارد كوكب الكتاب » ومعناها أن الذين يولدون فى طلوع عطارد يكونون ذوى حظ فى الأدب والكتابة والشعر .

القصيدة التى لم يسمعها قط ، وهى أكثر من خمسين بيتا ، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لا يخرم حرفا ولا يخل بمعنى ، وينظر فى الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ، ثم يهذها[1] عن ظهر قلبه هذا ويسردها سردا . وهذه حاله فى الكتب الواردة عليه وغيرها .

وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة فى معنى بديع وباب غريب ، فيفرغ منها فى الوقت والساعة والجواب عنها فيها .

وربما كان يكتب الجواب المقترح عليه ، فيبتدى بآخر سطر منه ثم هلم جرا إلى الأول ويخرجه كأحسن شىء وأملحه . ويوشح القصيدة[2] الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه . ويقترح عليه كل عويص وعسير من النثر ، فيرتجله فى أسرع من الطرف على ريق لا يبلعه ونفس لا يقطعه » .

اتصل بديع الزمان بالصاحب بن عباد وأخذ عنه ، كما اتصل بأبى بكر الخوارزمى . ومن رسائله إلى الخوارزمى : « أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقائه ، كما طرب النشوان مالت به الخمر ، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر ، ومن الامتزاج ببولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب ، ومن الابتهاج بمرآه كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب »[3] .

ومن رقعة له : « يعز على أيد الله الشيخ أن ينوب فى خدمته قلمى عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى قبل وصولى ، ويرد مشرع الأنس به كتابى قبل ركابى ، ولكن ما الحيلة والعوائق جمة :

وعلى أن أسعى وليـ ـس على إدراك النجاح

وقد حضرت داره وقبلت جداره ، وما بى حب للحيطان ولكن شغف بالقطان ، ولا عشق للجدران ولكن شوق إلى السكان »[4] .

---

(١) الهذ سرعة القراءة .
(٢) التوشيح التزين بالوشاح ، والمراد انه يجمع بين صناعتى الشعر والنثر .
(٣) رسائل بديع الهمذانى ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(٤) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٤٣ .

على أن بديع الزمان كان بخلاف الخوارزمى ، سنيا مغاليا فى عقائد هذا المذهب . وكان من أثر ذلك أن دب الخلاف بينهما ، فتقارعا وتساجلا ، وكانت الغلبة لبديع الزمان الذى ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق ، وخاصة بعد موت الخوارزمى . وكان بديع الزمان يضع من قيمة أسلوب الخوارزمى ويقول : إنه لا يجيد من الكتابة «إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم ، المتناول لكل يد وفم »(١) .

ومن قول بديع الزمان فى تعزية : « الموت خطب قد عظم حتى هان ، وأمر قد خشن حتى لان ، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها ، وجنت حتى صار الحمام أصغر ذنوبها . فلتنظر يمنة هل ترى إلا محنة ؟ ثم لتعطف يسرة هل ترى إلا حسرة ؟ »(٢) .

وهناك رجل آخر من رجال الرسائل المشهورين ، هو أبو الفتح على بن محمد البستى الذى اشتهر بحذقه فى الشعر والنثر . وقد أمر سبكتكين أبو السلطان محمود الغزنوى بإحضاره حين فتح مدينة بست ، فدخل فى خدمة سبكتكين ، وأصبح كاتب الرسائل فى ديوانه وشاعر بلاطه ، ثم خدم ابنه محموداً بعد وفاته ، ومات فى منفاه ببخارى سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩م)(٣) . وقد حذق الصناعة البديعة التى اشتهرت فى زمانه على يد ابن العميد والصاحب وأضرابهما . وكانت له طريقة جميلة فى التجنيس خاصة . « فمن ألفاظه البديعة قوله : من صلح فاسده أرغم حاسده ، من أطاع غضبه أضاع أدبه ، عادات السادات سادات العادات ، من سعادة جدك وقوفك عند حدك ، الرشوة رشاء الحاجات ، أجهل الناس من كان للاخوان مذلا وعلى السلطان مدلا ، الفهم شعاع العقل ، المنية تضحك من الأمنية ، حد العفاف الرضا بالكفاف ، ما لخرق الرقيع ترقيع .

وقد ذاعت أشعار البستى فى زمانه وحفظها الناس وتناقلوها . وكثير منها كان يروى على ألسنة الرواة فى مجالس القاهرة ومقاهيها . من ذلك القصيدة التى مطلعها :

زيادة المرء فى دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسران

ومنها أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان(٤)

---

(١) رسائل بديع الهمذانى ص ٧٦ .

(٢) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٢٤٤ .

(٣) تاريخ اليمينى جـ ١ ص ٦٧ — ٧٢ .

(٤) Browne : Lit Hist. of Persia, Vol. 1. pp. 98 . 100.

(ب) العلوم العقلية

١ — الفلسفة :

وتأثر المسلمون بالفلسفة اليونانية بعد أن ترجمت كتبهم إلى العربية فى عهد الرشيد والمأمون ، فاشتغل « كثير من المسلمين بدراسة الكتب التى ترجمت إلى العربية ، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلاطها ، نخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن إسحاق الكندى ، الذى نبغ فى الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم ، وقد حذا فى تأليفه حذو أرسطو ، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها » وكان معاصراً للمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . وكان المأمون — كما لا يخفى — أكثر الخلفاء عناية بالفلسفة وحثا للعلماء على دراستها ونقل كتبها ، كما لا يخفى أثر الفلسفة فى علم الكلام .

وقد انتقلت الثقافة اليونانية إلى المشرق عن طريق الكنائس المسيحية التى تأثرت بهذه الثقافة ، وخاصة الكنيسة النسطورية التى انتشرت آراؤها فى بلاد المشرق عامة وفى فارس خاصة ، وآراء الكنيسة اليعقوبية والملكانية التى انتشرت فى سورية . كما كان لمدارس الرها أثر كبير فى نشر الثقافة اليونانية وفى مدارس نصيبين ، حيث كانت تدرس العقائد النسطورية والثقافة اليونانية التى نالت تشجيع آل ساسان من ملوك الفرس . ولا تقل مدارس حران فى بلاد الجزيرة عن مدارس الرها ونصيبين ؛ إذ كانت تدرس فيها الآراء الفلسفية اليونانية والأفلاطونية الحديثة (١) ، وكان الحرانيون — أو الصابئة ، وهذه هى التسمية التى أطلقت عليهم فى القرنين التاسع والعاشر (الثالث والرابع الهجرى) — (٢) ينسبون حكمتهم الصوفية إلى هرمس المثلث الحكمة (٣) وأغاثاذيمون (٤) وأورانيوس (٥) وغيرهم . وقد أخذوا عن حسن نية بآراء موضوعة ترجع إلى العصر

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١٥ — ١٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٧ — ١٨ .

(٣) ذكر ابن النديم (الفهرست ص ٣٩٣ — ٤٩٤ ، ٤٩٦ — ٤٩٧) أن الكندى اطلع على مقالات لهرمس فى التوحيد « لا يجد الفيلسوف اذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها .

(٤) أو أوغاثو ذيمون ، وهو مصرى ، وكان أحد أنبياء اليونانيين والمصريين .

(٥) يسميه ابن النديم أرانى ويذكره مع أنبياء الحرانيين والكلدانيين .

الإغريقى المتأخر ، وربما يكون بعض هذه الآراء قد وضع بين ظهرانيهم . وقد نشط قليل منهم فى الترجمة وفى التأليف الذى يدل على سعة العلم ، وكان لكثيرين منهم اتصال علمى وثيق بعلماء الفرس والعرب من القرن الثامن إلى العاشر (الثانى إلى الرابع الهجرى) [١].

وقد أسس كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) فى مدينة جنديسابور معهداً تدرس فيه الفلسفة والطب وغيرهما من العلوم ، وكان معظم أساتذته من المسيحيين النسطوريين . وكان لتسامح هذا الملك وشغفه بالثقافة العقلية أثر كبير فى جذب العلماء ، لا من النسطوريين وحدهم ، بل من اليعقوبيين والسريانيين ، الذين ذاعت شهرتهم فى الطب ، سواء فى عهد الساسانيين أو فى عهد الخلفاء الراشدين ، ويدل على هذا التسامح ما لقيه الفلاسفة الوثنيون من أنصار المذهب الأفلاطونى الحديث من وسائل التشجيع والتعضيد [٢] .

وممن تأثر بالآراء الفلسفية اليونانية خاصة أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى ، من قبيلة كندة اليمنية التى ينسب إليها أمرؤ القيس الشاعر . وهو - كما يظهر من اسمه - عربى الجنس ، ولذلك سمى فيلسوف العرب . وكان - كما يقول ابن النديم [٣] - « فاضل دهره وواحد عصره فى معرفة العلوم القديمة بأسرها . . . وكتبه فى علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والأرثماطيقى والموسيقى والنجوم وغير ذلك » .

نشأ الكندى فى الكوفة وتعلم فى البصرة ثم فى بغداد ، وكانت - كما نعلم - من مراكز الثقافة الإسلامية التى تأثرت بالثقافتين الفارسية واليونانية ، واشتهر الكندى بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية وتنقيح ما ترجمه غيره من المترجمين . وتأثر بآراء المعتزلة ، كما تأثر بالفلسفة اليونانية ، وخاصة فلسفة أرسطو ، واشتغل بالرياضيات وماوراء الطبيعة ، ومن أشهر تلاميذه أحمد بن محمد الطيب السرخسى المتوفى سنة ٢٨٦ هـ . وكان مؤدب الخليفة المعتضد ، واتصل به اتصالا وثيقاً ، ثم قلده الحسبة ، وجعل يستشيره فى أمور خلافته ، واشتغل بالكيمياء والجغرافيا والتاريخ [٤] . ومن تلاميذ الكندى أيضاً أبو معشر البلخى المنجم المشهور المتوفى سنة ٢٧٢ هـ ، كما تأثر بآراء إخوان الصفا [٥].

---

(١) راجع دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١٧ ، ١٨ هامش (١) ، (٢) ، (٣) .
(٢) المصدر نفسه ص ١٨ - ١٩ .
(٣) كتاب الفهرست ص ٣٥٧ .
(٤) دى بور : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٢٤ - ١٢٦ .
(٥) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٦٦ .

وذكر ابن النديم (ص ٣٥٨ - ٣٥٩) مؤلفات الكندى فى الفلسفة والمنطق والحساب ، والموسيقى والنجوم والهندسة ، والفلك والطب والجدل والنفس والسياسة وغيرها .

ومن هؤلاء الفلاسفة أبو نصر الفارابى (٣٣٩ هـ) الذى لقب المعلم الثانى ، والرئيس ابن سينا (٤٢٨ هـ) وحجة الإسلام الغزالى (٥٠٥ هـ) على أن بعض الخلفاء والعامة حاربوا المشتغلين بالدراسات الفلسفية . فاضطهدوا الفلاسفة واتهموهم بالزندقة حتى لقد نودى ببغداد فى سنة ٢٧٩ هـ بألا يقعد على الطريق منجم وألا تباع كتب الفلسفة .

وقصى الحاجب المنصور بن أبى عامر على الفلاسفة وأمر بإحراق كتبهم مع ميله إلى الفلسفة وإنما فعل ذلك ليتقرب إلى العامة ، ومن ثم كانت دراسة المسلمين للفلسفة ضرورية للدفاع عن الشريعة الإسلامية ، وما له صلة بالعلوم الفلسفية التى أباح الإسلام دراستها للحاجة إليها كالطب .

ومن أشهر فلاسفة هذا العصر هذه الطائفة التى تعرف باسم « إخوان الصفا » . وكانت ذات نزعة شيعية متطرفة ، حتى قيل إنها إسماعيلية [1] ، وكانت هذه الطائفة - كما يقول براون [2] - موضع عطف بنى بويه الذين اشتهروا بأفكارهم الحرة ، وحلوا محل العنصر التركى ردحا من الزمن ، وأصبح لهم النفوذ الفعلى فى بغداد حول منتصف القرن الرابع (٣٣٤/٩٤٥) . ومن ثم استطاعت هذه الطائفة أن تتم ما بدأه المعتزلة ، وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والإنسجام بين الشريعة الاسلامية والفلسفة اليونانية وتوحيد الثقافة فى صورة دائرة معارف » .

وكان إخوان الصفا جماعة سرية تتألف من طبقات متفاوتة . وقد أخذوا كثيراً من مبادىء الفلسفة الطبيعية ، متأثرين بالفيثاغورية الحديثة ، ولجئوا إلى تأويل القرآن تأويلا مجازيا [3] وتعتبر رسائل إخوان الصفا أشبه بدائرة معارف ، أخذت من كل مذهب فلسفى بطرف ، وتدل فى الوقت نفسه على أن مؤلفيها نالوا حظاً موفوراً من الرقى العقلى . وتتألف هذه الرسائل من إحدى وخمسين رسالة تقوم على دعائم من العلم الطبيعى ، ولها

---

(١) يرى بعض أن إخوان الصفا جماعة من علماء القرامطة الاسماعيلية ، وأنهم اتخذوا البصرة مركزا لنشاطهم ، العلمى ، وكان لهم فرع فى بغداد .

(٢) Browne : Lit. Hist. of persia, vol. I. p. 292.

(٣) دى بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٩٥ .

من وراء هذا أغراض سياسية ، وتبدأ فلسفة إخوان الصفا بالنظر فى الرياضيات، وبالتلاعب بالأعداد والحروف ، ثم تنتقل إلى المنطق والطبيعيات ، فترد كل شىء إلى النفس وما لها من قوى ، وتنتهى أخيراً إلى الاقتراب من معرفة الله على نمط صوفى ، وصفوة القول فى آرائهم أنها تتضمن مذهب جماعة مضطهدة ، تبدو النزعات السياسية مع جميع أجزائه ، ونرى من خلاله بعض ما عاناه أصحاب هذه الرسائل من آلام وما قاموا به من كفاح ، وما استهدفوا له هم وأسلافهم من ظلم منه نتبين ما كان يختلج فى نفوسهم من الأمل ، وما تواصوا به الصبر . وهم يلتمسون فى هذه الفلسفة الروحية سلوى لنفوسهم وتطهيراً لها . وهذه الفلسفة هى دينهم ، وشعارهم المذكور أن يكون الواحد منهم مخلصاً حتى الموت ، لاعتقادهم أن ملاقاة الموت فى سبيل صلاح الإخوان هى الجهاد الصحيح . وكانوا يؤولون الحج إلى مكة بأنه مثل ضربه الله لطواف الإنسان على هذه الأرض (١) . فأوجبوا على الانسان أن يساعد أخاه فى هذه الحياة بكل ما يستطيع ، فيجب على صاحب المال أن يجعل للفقير حظاً من ماله ، وعلى من أوتى شيئاً من العلم أن يعلم أخاه الجاهل ، غير أن العلم — كما نراه فى رسائل لإخوان الصفا — قد حبس على خاصة المستنيرين من أفراد الطبقة العليا (٢)

من هذا نرى أن الغرض الذى كان يرمى إليه مؤلفو هذه الرسائل هو محاولة التوفيق بين الدين والعلم ، ولكنهم لم يستطيعوا إرضاء أهل الدين ولا أهل العلم ، فإن المتكلمين والفقهاء السنيين عابوا عليهم طريقتهم فى التأويل ، كما أن الفلاسفة ، والمتأثرين منهم بفلسفة أرسطو بوجه خاص ، عابوا عليهم مبادئهم الفلسفية . ومع هذا استطاعت الفلسفة اليونانية أن تستقر فى الشرق بفضل هذه الطائفة ، كما تأثرت بكتاباتهم طوائف الاسماعيلية : كالدرزية والنزارية المشهورين بالحشيشية فى فارس والشام ، كما أفاد آخرون فى تأليف موسوعاتهم على غرار رسائل إخوان الصفا (٣) .

وقد ذكر الشهرزورى أسماء خمسة من العلماء من مؤلفى هذه الرسائل وهم : أبو سليمان محمد بن نصر البستى ، ويسمى أيضاً المقدسى (أو المقدّسى) . وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى ، وأبو أحمد النهرجورى (أو المرجانى) ، والعوفى ، وزيد بن رفاعة . ويظهر أن الثلاثة الأولين من هؤلاء من أصل فارسى كما يتضح من أسمائهم . وكان من بينهم أيضا

---

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ١١٩ .

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٩٨ — ٩٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٩٩ .

ابن سينا الطبيب والفيلسوف المشهور الذى « انتهت بموته (سنة ٤٢٨ هـ) — كما يقول Dietrici[١] — حركة الفلسفة فى المشرق »[٢] .

ومن أشهر فلاسفة المسلمين فى هذا العصر أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى[٣] (٣٣٩ هـ) . وكان أبوه من كبار القواد . وقد تنقل أبو نصر فى أمهات المدن الإسلامية ، واختلف إلى بغداد حيث أخذ المنطق على أبى بشر متى بن يونس الحكيم المشهور ، وإلى حران حيث أخذ عن يوحنا بن خيلان الحكيم ، ثم عاد إلى بغداد « وقرأ بها علوم الفلسفة ، وتناول جميع كتب أرسطاطاليس ، وتمهر فى استخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها . ويقال إنه وجد كتاب لأرسطاطاليس وعليه مكتوب بخط أبى نصر الفارابى ، أنى قرأت هذا الكتاب مائة مرة . ونقل عنه أنه كان يقول : قرأت السماع الطبيعى لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة ، وأرى أنى محتاج لمعاودة قراءته »[٤] . ويعتبر الفارابى أكبر فلاسفة المسلمين ، حتى لقب بفيلسوف المسلمين بالحقيقة وفيلسوف المسلمين غير مدافع[٥] .

اتصل الفارابى ببلاط سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب ، وصحب سيف الدولة عند فتحه مدينة دمشق ومات بها فى سنة ٣٣٩ هـ . وترجع شهرته إلى شروحه الكثيرة على مؤلفات أرسطو ، حيث لقب « المعلم الثانى » ، تمييزا له عن أرسطو الذى لقب « المعلم الأول » . كما يمتاز الفارابى برسائله الكثيرة فى علم النفس والإلهيات : ومنها العقل والمعقول ، والنفس ، وقوى النفس ، والواحد والوحدة ، والجوهر ، والزمان ، والخلاء ، والمكان ، والمقاييس . كما كتب عدة رسائل للتوفيق بين آراء أرسطو وأفلاطون منها : كتاب الجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون الإلهى وأرسطاطاليس ، وأغراض أفلاطون وأرسطو ، وكتاب التوسط بين أرسطاطاليس وجالينوس . كما نشرت له رسالة آراء

---

(١) نشر رسائل إخوان الصفا وترجمها إلى الألمانية بين سنتى ١٨٥٨ ، ١٨٨٦ م . ونشرت أيضا فى ثلاثة اجزاء (بمباى ١٣٠٥ هـ) فى ثلاثة اجزاء ، تصنيف احمد بن عبد الله .

(٢) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I. p. 293.

(٣) سمى بذلك لأنه ولد فى محلة وسيج المنيعة الواقعة فى إقليم فاراب ببلاد ما وراء النهر .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٧٦ .

(٥) القفطى : إخبار الحكماء ص ١٨٢ .

أهل المدينة الفاضلة[١] ، وتقع فى أربعة وثلاثين فصلا ، وتبين مدى تأثر الفارابى بأفلاطون[٢] . كما تكلم الفارابى فى الأخلاق والمنطق ، وفيما وراء الطبيعة ، فتكلم عن الموجود والله[٣] ، وعن العالم العلوى ، والعالم السفلى ، وبحث فى النفس الإنسانية والعقل فى الإنسان ، وعن الحياة الآخرة[٤] .

ومن فلاسفة هذا العصر الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله المشهور بابن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ) الذى أحيى آثار أرسطو وأفلاطون فى الفلسفة وأبقراط وجالينوس فى الطب . ولهذا داع صيته فى هاتين الناحيتين فى العصور الوسطى ، ليس فى تفكير أهالى أسيا وحدها ، بل فى تفكير الأوربيين أيضا[٥] .

ولد ابن سينا فى إحدى قرى مدينة بخارى ، وانتقل مع أسرته إلى هذه الحاضرة وهو فى الخامسة من عمره ، وحفظ القرآن ودرس الأدب وأصول الدين وحساب الهندسة والجبر ولما يجاوز العاشرة من عمره ؛ ثم درس على أبى عبد الله الناتلى الفلسفة والمنطق ، ثم درس وحده الطبيعيات والإلهيات مستعينا فى ذلك بمؤلفات الفارابى . ثم درس الطب ونبغ فيه ولم يكن قد جاوز السابعة عشرة . ولما اضطربت أحوال الدولة السامانية خرج ابن سينا من بخارى وقصد خوارزم شاه على بن مأمون بن محمد . ثم انتقل إلى نيسابور وأبيورد وطوس وغيرها . وكان يتردد على شمس المعالى قابوس بن وشمكير فى طبرستان . ثم انتقل إلى الرى وقزوين وهمذان ، وتقلد الوزارة لشمس الدولة (٣٨٧ — ٤١٢ هـ) ابن فخر الدولة . ولكن الجند ثاروا عليه ، فتوارى ، ثم أعيد لمداواة هذا الأمير الذى قلده الوزارة من جديد ، وظل فيها إلى أن مات . ثم تولى تاج الدولة ، فلم يستوزره ، فتوجه إلى أصبهان ، فأحسن إليه أميرها علاء الدولة[٦] .

ألف ابن سينا فى المنطق مقتفيا أثر أبى نصر الفارابى . ويعتبر المنطق المدخل للفلسفة

---

(١) طبعة مصر سنة ١٣٢٣ هـ .

(٢) راجع مادة « أبو نصر الفارابى » فى ترجمة دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) يرى الفارابى أن كل موجود إما واجب الوجود أو ممكن الوجود ، وليس هناك بين هذين الضربين وجود .

(٤) راجع دى بور : تاريخ الفلسفة ص ١٢٧ وما يليها .

(٥) Browne : Lit ist of Persia, Vol. II. p. 106.

(٦) ابن خلكان ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

التى ألف فيها الكتب وتأثر بأرسطو ، كما بحث فى الإلهيات وشرح إلهيات أرسطو ، وتكلم عن الطبيعة . وكان يحاول ما استطاع أن يوفق بين فلسفته وعقيدة أهل السنة أو الجماعية ، كما تكلم فى الإنسان والنفس الإنسانية والعقل ، وانفرد فى العقل بآراء . ففى رسالته حى بن يقظان يرى أنه هو هادى النفوس الناطقة الإنسانية ، وهو العقل الفعال آخر العقول الملكية ، وهو الذى يؤثر فى العقل الإنسانى[١] .

وكان ابن سينا — كما يقول ابن خلكان (ج ٢ ص ١٥٣) — « نادرة عصره فى علمه وذكائه وتصانيفه ؛ وصنف كتاب الشفاء فى الحكمة والنجاة والإشارات والقانون ، وغير ذلك مما يقارب مائة مصنف ما بين مطول ومختصر .

٢ — الطب

كان لتقدم الطب فى أواخر العصر العباسى الأول أثر كبير فى العصر العباسى الثانى ، فقد نبغ فى عهد الواثق والمتوكل كثير من الأطباء من أمثال يحيى بن ماسويه المتوفى سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) ، وبختيشوع الذى دخل فى خدمة الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، وكانوا يثقون به فى معالجة نسائهم وأولادهم[٢] . ولكن المتوكل صادر ثروته الضخمة التى جمعها من اشتغاله بالطب ونفاه إلى البحرين فى سنة ٢٤٤ هـ لأسباب واهية[٣] .

وممن نبغ فى الطب أيضا حنين بن إسحاق المتوفى سنة ٢٦٠ هـ ، وكان — كما يقول ابن خلكان (ج ١ ص ١٦٧) — إمام وقته فى صناعة الطب » . كما اشتهر بنقل كثير من الكتب اليونانية وترجم عن اليونانية كتاب إقليدس ، الذى نقحه ثابت بن قرة فيما بعد . ومن مؤلفات بختيشوع فى الطب كتاب المسائل فى الطب للمتعلمين ، وكتاب علاج العين ، وكتاب الأسنان واللثة ، وكتاب تدبير الفاقة ، وكتاب معرفة أوجاع المعدة وعلاجها ، وكتاب المولودين لثمانية أشهر (عمله لأم ولد المتوكل) ، وكتاب الأغذية ، وكتاب اللبن[٤] .

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١٨١ .

(٢) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٤١١ ، ٤١٣ .

(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I, pp. 344, 345.

(٤) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٤١٠ .

اعتمد العباسيون على أطباء العراق والهند ، كما اعتمدوا على الطب الذى خلفه اليونان . وقد نبغ فى عهد الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) من الأطباء ابن بختيشوع ، وابن ماسويه ، وميخائيل ، وحنين بن إسحاق ، وحذقوا صناعة الطب ومرنوا عليها ، واعتمدوا فى علاج مرضاهم على ما كسبوه من تجارب ، كما أفادوا من كتب اليونان ونظرياتهم فى تشخيص الأمراض .

كذلك وصف الأطباء فى هذا العصر ، الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها ، حتى لقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحاق ، وطلب منه أن يصنف له كتابا يذكر فيه جميع ما يحتاج إلى معرفته ، « فصنف له كتابا جعله ثلاث مقالات ، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد » (١) .

ويعد أبو يعقوب إسحاق بن حنين المتوفى سنة ٢٩٨ هـ (وقيل سنة ٢٩٩ هـ) من أشهر أطباء هذا العصر . وقد فاق أباه حنين بن إسحاق فى النقل من اليونانية والسريانية إلى العربية « وكان — كما يقول ابن النديم (ص ٤١٥) — فصيحاً بالعربية ، يزيد على أبيه فى ذلك » . واتصل بالخلفاء وكبار رجال الدولة ، ثم انقطع إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد وأصبح من المقربين إليه (٢) ، وله كثير من الكتب فى الطب غير ما نقله إلى العربية ، منها كتاب الأدوية المفردة على الحروف ، وكتاب تاريخ الأطباء (ابن النديم ص ٤١٥) .

ومن أشهر أطباء هذا العصر : أبوسعيد سنان بن ثابت بن قرة المتوفى سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) (٣) وابنه إبراهيم المتوفى سنة ٣٣٦ هـ . وقد أراد الخليفة القاهر أن يحوله إلى الإسلام فهرب ، ثم اعتقد هذا الدين بعد ذلك (ابن النديم ص ٤٢١) .

وقد اعتمدت معاهد الطب العملية ، أو البيمارستانات ، على نظام معاهد الطب الأجنبية ولا سيما السريانية منها ، لأن السريان غلبوا على مهنة الطب فى العصر العباسى الأول . فاقتبس المسلمون فكرة البيمارستان منهم . وكان يطلق على مدير البيمارستان إذا كان سريانى الأصل « الساعور » . ومعناها بالسريانية « متفقد المرضى » ، أما إذا كان

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٦ (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٦ — ٦٧
(٣) الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٤٥ .

مسلماً أطلق عليه « رئيس الأطباء » ، وهو الذى يشرف عليهم ويأذن لهم بممارسة مهنة الطب(١) .

وقد أطلق على من يشتغل بالطب فى العصور الوسطى «حكيم» لأن الطب كان إذ ذاك من أبواب الحكمة أو الفلسفة ، وكان الأطباء بحسب تخصصهم أنواعاً مختلفة كالطبائعية والكحالين والجرائحية والمجبرين وغيرهم .وقد ذكر ابن قيم الجوزية أنواع الأطباء فى هذه العبارة فقال : « والطبيب فى هذا الحديث يتناول من يطب بوصفه وقوله وهو الذى يختص باسم الطبائعى ، وبمرووده وهو الكحال . وبمبضعه ومراهمه وهو الجرائحى ، وبمواساه وهو الختان ، وبريشته وهو الفاصد ، وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجام ، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبر ، وبمكواته وهو الكواء ، وبقربته وهو الحاقن . وسواء كان طبه لحيوان بهيم أو إنسان ، فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم (٢) .

ويعتبر أبوبكر محمد بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣١١ هـ أشهر أطباء عصره، ويعرف عند الأوربيين باسم Rhazee وكان فى حداثة سنه مولعاً بالغناء ، ثم أقبل على دراسة الطب بعد أن جاوز الأربعين . « فقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها ، فبلغ من معرفة غوابرها الغاية ، واعتقد الصحيح منها ، وعلل السقيم ، وألف فى الطب كتبا كثيرة . وقال غيره : كان إمام وقته فى علم الطب المشار إليه فى ذلك العصر ، وكان متقنا لهذه الصناعة حاذقا بها ، عارفا بأوضاعها وقوانينها ، تشد إليه الرحال لأخذها عنه؛ وصنف فيها الكتب النافعة : فمن ذلك كتاب الحاوى ، وهو من الكتب الكبار يدخل فى مقدار ثلاثين مجلداً ، وهو عمدة الأطباء فى النقل منه والرجوع إليه عند الاختلاف ؛ ومنها كتاب الجامع ، وهو أيضاً من الكتب النافعة ، وكتاب الأعصاب وهو أيضاً كبير » .

اتصل الرازى بمنصور بن إسحاق بن أحمد بن نوح السامانى . فألف له كتابه « المنصورى فى الطب » ويعد أشهر كتبه ؛ « وهو على صغر حجمه من الكتب المختارة، جمع فيه بين العلم والعمل ، ويحتاج إليه كل أحد » (ابن خلكان ج ٢ ص ٧٨) .

وقد ذكر ابن النديم (ص ٤١٧) أسماء كتب الرازى ، فمنها : « كتاب الحاوى ،

---

(١) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ص ١٩ ، ٢٤ .
(٢) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ص ١١٠ .

ويسمى الجامع الحاضر لصناعة الطب ، وينقسم هذا الكتاب اثنى عشر قسما : القسم الأول منه فى علاج المرضى والأمراض ، القسم الثانى فى حفظ الصحة ، القسم الثالث فى الرئبة والجبر (١) والجراحات ، القسم الرابع فى قوى الأدوية والأغذية وجميع ما يحتاج إليه من المواد فى الطب ، القسم الخامس فى الأدوية المركبة ، القسم السادس فى صناعة الطب ، القسم السابع فى صيدلة الطب : الأدوية وألوانها وطعومها وروائحها ، القسم الثامن فى الأبدان . القسم التاسع فى الأوزان والمكاييل ، القسم العاشر فى التشريح ومنافع الأعضاء ، القسم الحادى عشر فى الأسباب الطبيعية من صناعة الطب ، القسم الثانى عشر فى المدخل إلى صناعة الطب مقالتان : فى الأولى الأسماء الطبية ، وفى الثانية أوائل الطب » .

ومن هذه الكتب كتاب فى أن الحمية المفرطة تضر بالأبدان ، وكتاب ما يقدم من الفواكه والأغذية وما يؤخر ، وكتاب الجدرى والحصبة ، وكتاب الحصى فى الكلى والمثانة ، وكتاب إلى من لا يحضره طبيب ، وكتاب الأدوية الموجودة بكل مكان ، وكتاب الطب الملوكى ، وكتاب اختصار النبض الكبير لجالينوس ، وكتاب الفالج ، وكتاب هيئة الكبد ، وكتاب النقرس (٢) وعرق المدينى ، وكتاب القلب ، وكتاب هيئة السماخ (٣) ، وكتاب أوجاع المفاصل اثنان وعشرون فصلا ، وكتاب أقراباذين (يعنى المادة الطبية) ، وكتاب تقسيم الأمراض وأسبابها وعلاجاتها على الشرح ، وكتاب فى العلة التى لها يحدث الورم من الزكام فى رؤوس بعض الناس ، وكتاب فى التلطف فى إيصال العليل إلى بعض شهواته ، وكتاب دفع مضار الأغذية ، وكتاب ترتيب أكل الفواكه ، وكتاب ما يعرض فى صناعة الطب (٤) .

اشتهر الرازى بالكرم والعطف على الفقراء والمرضى ، حتى كان يعالجهم وينفق عليهم ومن إرشاداته الطبية : « ومهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية ، ومهما

---

(١) رأب الصدع أصلحه وشعبه ولمه فى صناعة جبر العظام .

(٢) بتشديد النون وسكون القاف وكسر الراء : ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ، ويسمى داء الملوك .

(٣) يعنى تشريح سماخ الأذن .

(٤) راجع ابن النديم (ص ٤١٧ — ٤١٩) حيث تجد كل ما ألفه الرازى فى الطب والمنطق والفلسفة والهندسة والكيمياء.

قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب . . . وإذا كان الطبيب عالما والمريض مطيعاً فما أقل لبث العلة . ومن كلامه : عالج فى أول العلة بما لا تسقط به القوة [١] .

وقد أسندت إلى الرازى إدارة مارستان الرى ثم مارستان بغداد فى عهد الخليفة المكتفى العباسى .

كان على بن العباس المجوسى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) طبيب عضد الدولة البويهى ، ومؤلف كتاب « كامل الصناعات » أشهر أطباء عصره ، وكان يقيم مع عضد الدولة فى مدينة شيراز . وقد ذكر نظامى عروضى السمرقندى فى كتابه « چهار مقالة » الذى ترجمه براون [٢] إلى الانجليزية أن شهرة على بن العباس قد ذاعت على أثر معالجته حمالا اعتاد أن يحمل أحمالا ثقيلة ، وأصيب من جراء ذلك بصداع مزمن كان يقعده عن عمله من حين إلى حين . وقد أصيب بهذا المرض وحاول الانتحار أكثر من مرة بعد أن قاسى الآم هذا المرض سبعة أو ثمانية أيام . وتصادف أن مر هذا الطبيب ببيت المريض ، فجاء أخوه واستحلفه بالله سبحانه وتعالى وأخبره بحالة أخيه وطلب إليه أن يعوده . وكان هذا المريض بديناً يلبس حذاء ثقيلا ، فحلل بوله ، ثم أمر بنقله إلى جهة خلوية ، وأمر أحد خدمه بخلع حذائه وضربه على قفاه ، ثم أمر بخلع عمامته ولفها حول عنقه ، وأمر المريض أن يمتطى صهوة جواده ويعدو به حول ذلك المكان الفسيح ، فبدأ الدم يتدفق من خياشيمه حتى ساءت حاله ، ونام نوما عميقا وسط هذه الدماء المتدفقة من أنفه ، وفقد ثلثمائة درهم من دمه ، ثم حملوه إلى داره ونام يوما وليلة ، وزال عنه الصداع ولم يعاوده أبداً . ولما سأل عضد الدولة طبيبه عن هذه الطريقة الغريبة فى معالجة هذا المريض ، أجابه أن الدم قد تجمد فى رأسه . وأنه كان من المستحيل أن يخلصه من هذا الدم المتراكم بالحجامة ، فلجأ فى علاجه إلى هذه الطريقة التى صادفت هذا النجاح .

ذكرنا من قبل أن ابن سينا درس المنطق والفلسفة على أبى على النلى تا ، وأنه أخذ الفقه على إسماعيل الزاهد ، واشتغل بالطب بعد أن توجه الناتلى إلى خوارزم شاه مأمون بن محمد « وتأمل الكتب المصنفة فيه ، وعالج تأدبا لا تكسبا ، وعلمه هذا فاق الأوائل والأواخر فى أقل مدة ، وأصبح فيه عديم القرين فقيد المثل . واختلف إليه فضلاء هذا القن

---

(١) ابن النديم ص ٤١٦ . ابن خلكان ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) Chahar Maquaal, trans. by E.G. Browne. Anecbote XXXVI. pp. 124—5

وكبراؤه ، يقرءون عليه أنواعه والمعالجات المقتبسة من التجربة . وسنه إذ ذاك نحو ست عشرة سنة ، وفى مدة اشتغاله لم ينم ليلة واحدة بكاملها ، ولا اشتغل فى النهار بسوى المطالعة ، وكان إذا أشكلت عليه مسألة ، توضأ وقصد الجامع وصلى ، ودعا الله عز وجل أن يسهلها عليه ويفتح مغلقها له . وذكر عند الأمير نوح بن نصر السامانى (٣٣١ - ٣٤٣ هـ) صاحب خراسان فى مرض مرضه ، فأحضره وعالجه حتى برىء ، واتصل به وقرب منه ، ودخل إلى دار كتبه . فظفر أبو على فيها بكتب من علم الأوائل وغيرها ، وحصل نخب فوائدها ، واطلع على أكثر علومها . واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة ، فتفرد أبو على بما حصله من علومها . وكان يقال إن أبا على توصل إلى إحراقها لينفرد بمعرفة ما حصله منها وينسبه إلى نفسه . ولم يستكمل ثمانى عشرة سنة من عمره إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم بأسرها التى عاناها[1] .

ولما اضطربت أمور الدولة السامانية خرج أبو على من بخارى وقصد قصبة خوارزم ، واختلف إلى خوارزم شاه على بن مأمون بن محمد ، ثم انتقل إلى نسا وأبيورد وطوس وغيرها من البلاد . وكان يقصد الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير فى طبرستان . وكان السلطان محمود الغزنوى قد بعث فى طلب العلماء الذين كانوا ببلاط خوارزم شاه . فلما هرب ابن سينا أمر هذا السلطان بنشر صورته فى الآفاق . وقد مرض أحد أقرباء شمس المعالى قابوس بن وشمكير ، فعالجه ابن سينا وتم شفاؤه على يديه ، فاستدعاه قابوس إليه وعرف شخصيته ، لكنه آثر بقاءه فى خدمته . ولما سجن قابوس ومات ذهب ابن سينا إلى داهستان ، ثم عاد إلى جرجان وصنف بها كتابه الأوسط الجرجانى . ثم انتقل إلى الرى ، ثم إلى قزوين وهمذان ، وتقلد الوزارة لشمس الدولة بن فخر الدولة (٣٨٧ - ٤١٢ هـ) . لكن الجند ثاروا عليه فتوارى ، ثم أعيد لمداواة هذا الأمير ، وتقلد الوزارة من جديد ، وظل فيها إلى أن مات شمس الدولة ، وتولى تاج الدولة فلم يستوزره ، فتوجه إلى أصبهان ، فأحسن إليه أميرها علاء الدولة ابن كاكويه الذى يقول فيه ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٧٠) : « ولا شك أن أبا جعفر (ابن كاكويه) كان فاسد الاعتقاد ، فلهذا أقدم ابن سينا على تصانيفه فى الإلحاد والرد على الشرائع فى بلده[2] .

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٢) انظر ترجمة أبى على بن سينا فى ابن خلكان جـ ١ ص ١٥٢ — ١٥٤ .

وكما زخرت بلاد المشرق بطائفة من الأطباء الذين ضربوا فى الطب بأوفر سهم ، كذلك حفل المغرب الإسلامى ، وخاصة مصر ، بطائفة من أشهر أطباء هذا العصر . ومن هؤلاء سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون ، وكان نصرانيا . ويقول ابن الداية[١] إن ابن طولون شكا من الإسهال ، فنصح له هذا الطبيب أن يلزم الحمية يومين ، لكنه خالفه وأكل ، فانقطع عنه الإسهال . ولما علم هذا الطبيب بذلك ، أيقن أن حياة ابن طولون قد آذنت بالأفول ، ووصف حاله فى هذه العبارة : « ضعف قوته الناهضة يقهر الغذاء ، وسيتحرك حركة منكرة » . وقد صدق هذا الطبيب ومات ابن طولون بعد يومين[٢] .

ومن الأطباء الذين اشتهروا بمصر إبراهيم بن عيسى الذى صحب أحمد بن طولون إلى مصر ومات بها فى سنة ٢٦٠ هـ ، والحسن بن زيرك ، وكان من أطباء ابن طولون أيضا ، ومات قبله بيوم واحد[٣] .

ولا غرو فقد نبغ فى هذا العصر كثير من المصريين فى علم الطب وما يتصل به من صناعة الأدوية والعقاقير . وقد عمل ابن طولون فى مؤخر جامعه ميضأة وخزانة شراب ، بها الأدوية والأشربة التى قد يحتاج إليها المصلون ، وقرر لهذا المكان الخدم ، وعين للمسجد طبيبا خاصا يقوم بتطبيب المرضى من المصلين ؛ ويكاد هذا يشبه نظام الإسعاف اليوم .

وكان ابن طولون يعنى بالشئون الصحية ؛ فقد بنى المارستان للمرضى فى أرض العسكر (سنة ٢٥٩ هـ) ، وجعل له حمامين ، خص أحدهما بالرجال والآخر بالنساء ، وأباحه للناس على اختلافهم من غير تمييز فى الأديان والمذاهب .

وقد اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح ، وقلدوهم المناصب العالية . وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط . ومما ساعد على تقدم دراسة الطب أنه أصبح يدرس نظريا وعمليا فى المارستانات التى كانت أشبه بكليات للطب

---

(١) سيرة ابن طولون ص ٨١ .
(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٣ — ٨٥ .
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٣ .

تخرج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والكحالين ، أى الذين يعالجون أمراض العيون . وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملما بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية ، وخاصة السريانية واليونانية ، بجانب إلمامه بالطب . وقد أورد القفطى وابن أبى أصيبعة تراجم كثير من الأطباء الذين نبغوا فى هذا العصر .

ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمى ، وقد نشأ فى بيت المقدس ثم تنقل فى كثير من المدن فى طلب هذا العلم ، وتوفر على دراسته حتى نبغ فيه ، كما أتقن طريقة تركيب الأدوية . ثم اتصل التميمى بالحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيدى عامل الرملة وما يليها من البلاد الساحلية فى عهد الإخشيديين ، فقربه إليه ، ثم صحب يعقوب ابن كلس وصنف له كتابا يشمل عدة مجلدات سماه « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء » . ثم اتصل بالأطباء الذين وفدوا على مصر مع الخليفة المعز لدين الله الفاطمى .

ومن أطباء المعز موسى العازار الإسرائيلى الذى حذق صناعة الطب ، كما اشتهر ابنه إسحاق بن موسى فى الطب ، وكان مقربا من المعز ، لكنه مات فى شهر صفر سنة ٣٦٣هـ فحزن هذا الخليفة على وفاته لحذقه وكفايته ؛ وعين مكانه أخاه إسماعيل بن موسى وكان قد تحول إلى الإسلام ، وابنه يعقوب بن إسحاق . ومن كتب موسى بن العازار فى الطب « الكتاب المعزى فى الطبيخ » الذى ألفه للخليفة المعز ، وكتاب الأقرباذين[1] .

وممن نبغ فى الطب فى عهد الخليفة العزيز أبو الحسن على بن رضوان . وقد خلف كثيرا من الكتب التى تبرهن على سعة فكره وعلو كعبه فى هذه الناحية ، كما أن له كتبا فى الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة[2] . كذلك نبغ أبو الفتح منصور ابن سهلان بن مقشر النصرانى ، طبيب الخليفة الحاكم الخاص . وكان مقربا منه كما كان مقربا من أبيه العزيز . وكان لشفاعته عند الحاكم أثر كبير فى إطلاق سراح الكتاب من النصارى واليهود وإعادتهم إلى مراكزهم[3] .

---

(١) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٥ .

(٣) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ اوتيخا ج ١ ص ١٨٥ — ١٨٦ . القفطى : إخبار العلماء باخبار الحكماء (طبعة لايبسك ١٩٠٣) ص ١٧٨ — ٤٢٨ .

ومن أطباء هذا العصر رجل يهودى كان خامل الذكر يرتزق بمداواة الجراح . واتفق أن الحاكم أصيبت ساقه بعقر مزمن وعلى الرغم من عناية ابن مقشر وغيره لم يبرأ الحاكم من هذا الجرح ، ولما أحضر هذا الطبيب إليه وضع على الجرح دواء يابساً ، فشفى بعد ثلاثة أيام ، فمنحه الخليفة ألف دينار وخلع عليه ، ولقبه « بالحقير النافع » وجعله من أطباء الخاص [1] (يحيى بن سعيد ص ١٧٨) .

٣ — علم الفلك والنجوم :

وكان لعلم النجوم أثر كبير فى توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتمدون على التنجيم فى تنفيذ سياستهم . فقد اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم فى تأسيس مدينة بغداد ، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسى للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم الذى أخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها . وكذلك اختار الإسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم فى بلاد اليمن ، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون له شأن فى نشر هذه الدعوة فى تلك البلاد [2] . ومن قصيدة الفهرى التى يقول فيها :

فعند الست والتسعي ن قطع القول فى العذر

ما يدلنا على عقيدة الإسماعيلية بأن دولتهم ستقوم فى سنة ست وتسعين ومائتين . وكان لهذه العقيدة أثر كبير فى انضواء كثير من الناس تحت لواء دعاة الإسماعلية [3] كذلك حذا الفاطميون حذو العباسيين فى الاعتماد على التنجيم . فقد ذكر ابن دقماق [4] أن مدينة القاهرة التى بناها جوهر سميت بهذا الاسم لأن أساسها شق على طلوع كوكب المريخ الذى يسمى « القاهر » .

وكذلك اهتم الخليفة الحاكم الفاطمى بعلم النجوم ، حتى إنه أنشأ رصداً بسفح المقطم

---

(١) يرجع هذا إلى أنه كان خامل الذكر لا إلى أنه كان يهوديا ، لأن الخلفاء والأمراء المسلمين كانوا يعاملون أهل الذمة من المسيحيين واليهود معاملة تنطوى على العطف والرعاية .

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن (طبعة هنرى كاسل ، لندن ١٨٩٢) ص ١٤٠ .

(٣) أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٧٧ .

(٤) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٢ ص ٣٥ .

أطلق عليه « الزيج الحاكمى » . واستعان بأبى الحسن على بن يونس المنجم المصرى المتوفى سنة ٣٩٩ هـ صاحب الزيج [١] المعروف بالزيج الحاكمى وزيج ابن يونس .

وقد نبغ فى علم النجوم أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخى ، وكان فى بدء حياته من أصحاب الحديث ، ثم اشتغل بعلم النجوم ، ثم نبغ فيه بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره ، وعمر طويلا حتى جاوز المائة . وكان أبو معشر — كما يقول ابن خلكان (ج ١ ص ١١٢) — « إمام وقته فى فنه ، وله التصانيف المفيدة فى علم النجامة » . ومن أشهر كتبه فى النجوم : كتاب المدخل الكبير ، وكتاب المدخل الصغير ، وكتاب هيئة الفلك واختلاف طلوعه ، وكتاب السهمين وأعمار الملوك والدول ، وكتاب تفسير المنامات من النجوم ، وكتاب الأمطار والرياح وتغيير الأهوية (ابن النديم ص ٣٨٦ — ٣٨٧) .

وقد وضع أبو عبدالله محمد بن جابر البتانى الحرانى الصابى المتوفى سنة ٣١٩ هـ ، ويعرف عند الأوربيين باسم Albategnius [٢] ، الزيج الصابى الذى أثبت فيه الكواكب الثابتة فى سنة ٢٩٩ هـ [٣] ، « وله الأعمال العجيبة والأرصاد المتقنة . . وكان أوحد عصره فى فنه ، وأعماله تدل على غزارة فضله وسعة علمه » [٤] . ومن أشهر كتبه أيضاً كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك [٥] .

وقد اشتهر بالنجامة بيت أبى الحسن على بن أبى عبدالله هارون بن على بن يحيى بن أبى منصور ، وكان أبو منصور جد أبيه منجم أبى جعفر المنصور ، وابنة يحيى متصلا بالفضل ابن سهل الذى كان يعمل برأيه ، ثم صار منجم المأمون ونديمه وأسلم على يديه ، وتوفى بحلب عند خروج المأمون إلى طرسوس [٦] . وكان أبو الحسن على (٢٧٧ — ٣٥٢ هـ) من أكبر علماء النجوم فى عصره ، وقد قربه الصاحب بن عباد إليه وأطلق عليه اسم « جليس

---

(١) الزيج بكسر الزاى هو كتاب يحسب فيه سير الكواكب ومنه يستخرج التقويم ، أعنى حساب الكواكب لسنة سنة وهو فارسى . أنظر كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٢٧ .

(٢) Browne Lit. Hist. of Persia, vol. 1. p. 363

(٣) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٨٠ .

(٥) ابن النديم ص ٣٩٠ .

(٦) ابن خلكان ج ٢ ص ١٩٤ .

الخلفاء وأنيس الوزراء »[١] . ومن كتبه « كتاب النيروز والمهرجان » ، وكتاب شهر رمضان الذى أهداه إلى الخليفة الراضى بالله العباسى[٢] .

وبلغ الاهتمام برصد الكواكب غايته فى القرن الرابع الهجرى . وقد قيل إن شرف الدولة بن عضد الدولة (٣٧٦ — ٣٧٩ هـ) لما استقرت قدمه فى العراق « أمر بأن ترصد الكواكب السبعة فى مسيرها وتنقلها فى بروجها على مثال ما كان المأمون يفعل »[٣] .

وقد ضرب أبو الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) بسهم وافر فى علم النجوم . وليس أدل على ذلك من مخاطراته فى بلاط غزنة على ما جاء فى المقالة الثالثة والعشرين من ترجمة كتاب « تشهار مقاله[٤] » تأليف النظامى العروضى السمرقندى . ذلك أن السلطان محمودا الغزنوى بعث فى طلب البيرونى وهو فى حديقة قصره الصيفى ، وغرس فيها ألف شجرة ليمتحن البيرونى فى علم النجوم ، فسأله : من أى الأبواب الأربعة سأخرج ؟ فأجاب البيرونى : اجمع رأيك واكتبه على قطعة من الورق وضعها تحت وسادتى . ثم طلب أبو الريحان أسطرلابا واختبر النجوم ، ثم دون قراره فى قطعة من الورق وضعها تحت الوسادة . ثم قال السلطان محمود : هل اهتديت إلى قرار ؟ فقال البيرونى : نعم ! وأمر السلطان أن يثقب أحد الحيطان ويتخذ منه باب خامس خرج منه ، ثم أمر باحضار الورقة . ولما أحضرت قرأ ما فيها وهو أنه لن يخرج من أحد هذه الأبواب الأربعة ، إلا أنه ستفتح فتحة فى الحائط الشرقى ، وسيخرج من هذا الباب ، ولما قرأ السلطان هذه الورقة أخذ الغضب منه كل مأخذ ، وأمر بأن يلقى أبو الريحان من فوق سطح القصر . لكنه لم يصب بأذى ، لأنه سقط على شبكة أقيمت لطرد الذباب فتمزقت ، واستطاع أن يصل إلى الأرض ولم يلحق به أى ضرر . ولما أمر السلطان بإدخاله قال له : يا أبا الريحان ! هل تنبأت بهذا الحادث أيضا ؟ فأبرز من جيبه كراسة « مذكرة » كتب فيها : سيلقى بى فى هذا اليوم من قصر السلطان ، لكنى سأصل إلى

---

(١) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٠٢ .
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٦ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٢ .
(٤) The Chahar Maqàla (Four Discoures), trans. by E. G. Browne (London, 1899) pp. 92—95.

الأرض سالما وأنهض معافى الجسم . لكن ذلك لم يجر على هوى السلطان الذى زاد غضبه وأمر باعتقاله فى قلعة غزنة ، حيث بقى ستة أشهر لم يجرؤ فيها أحد على أن يكلم السلطان فى أمره ، ثم أطلق بفضل تدخل الوزير أحمد بن حسن الميمندى[1] الذى انتهز إحدى الفرص المناسبة وقال للسلطان إن أبا الريحان البيرونى ، ذلك الرجل المسكين ، على الرغم من صدق نبوءته ، قد قيد وسجن بدلا من أن يخلع عليه ويجزل له العطاء ، فأجابه السلطان : اعلم يا سيدى أن هذا الرجل ليس له نظير فى الدنيا سوى ابن سينا ، لكن كل تنبؤاته لم تتفق مع رغباتى . والملوك كالأطفال الصغار ، يجب على المرء أن يتكلم بما يتفق ورغباتهم ليفوز بمنحهم وعطاياهم . وكان من الخير له أن يخطىء فى إحدى هاتين النبوءتين ، ومع ذلك مر بإحضاره فى الغد . وأعطه جوادا محلى بالذهب وخلعة سلطانية وعمامة من الطيلسان ، وهبه ألف دينار وعبدا وأمة .

٤ — الرياضيات

وممن اشتهر بالرياضيات ثابت بن قرة الحرانى (٢٢١ — ٢٨٨ هـ) ، وكان فى بدء أمره صيرفيا بحران ، واتصل بالخليفة المعتضد الذى أدخله فى عداد من اعتمد عليهم فى التنجيم ، وبفضل ثابت ارتفع شأن الصابئة وعلت منزلتهم عند الخلفاء . ومن أشهر مؤلفاته فى الرياضيات : كتاب حساب الأهلة ، وكتاب فى استخراج المسائل الهندسية ، وكتاب الأعداد ، وكتاب شكل القطاع . وكان سنان بن ثابت المتوفى سنة ٣٣١ هـ من كبار الرياضيين والمهندسين فى هذا العصر ؛ على أن شهرته فى الطب فاقت شهرته فى هذه النواحى[2] .

ومن أشهر الرياضيين أبو الوفا محمد بن محمد بن إسماعيل بن العباس[3] . وقد ولد فى نيسابور سنة ٣٢٨ هـ ، ووفد على العراق وهو فى العشرين من عمره ، وتعلم الحساب على عمه أبى عمرو المغازلى وخاله أبى عبد الله محمد بن عنبسة . ومن مؤلفاته : كتاب ما يحتاج إليه العمال والكتاب من صناعة الحساب وهو سبعة أقسام ، كل قسم سبعة

---

(١) نسبة إلى ميمند ، وهى رستاق بفارس وبنواحى غزنة أيضا . أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٢) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٨٠ ، ٤٢١ . (٣) المصدر نفسه ص ٣٩٤ .

أبواب ، شملت جميع أنواع الرياضيات ، وكتاب الخوارزمى فى الجبر والمقابلة ، وكتاب المدخل إلى الأرثماطيقى ، وكتاب استخراج ضلع المكعب ، وكتاب معرفة الدائرة من الفلك .

ومن أشهر الرياضيين فى عهد الفاطميين أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم ؛ وقد نشأ فى البصرة ثم انتقل إلى مصر وأقام بها . « وكان — كما يقول ابن أبى أصيبعة[١] — فاضل النفس ، قوى الذكاء ، متفننا فى العلوم ، لم يماثله أحد من زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه . وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر الزهد محبا للخير ، وقد لخص كثيرا من كتب أرسطاطاليس وشرحها ، وكذلك لخص كثيرا من كتب جالينوس فى الطب . وكان خبيرا بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها الكلية ، إلا أنه لم يباشر أعمالها » .

٥ — التاريخ

زخر العصر العباسى الثانى بطائفة كبيرة من أعلام التاريخ . ولا غرو فإن هذه النهضة العلمية قد وضعت أسسها فى أواخر العصر العباسى الأول بعد أن نشطت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية ، وبدأ المسلمون يصنفون الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وساهم الفرس فى هذه الحركة بأوفر نصيب . ومن أشهر مؤرخى القرن الثالث الهجرى اليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) . وكان شيعيا متحمسا لعقائد الشيعة . ولذلك أسهب فى الكلام على الأئمة ، ونقل كثيرا من الأقوال التى أثرت عنهم . ويعتبر كتابه فى التاريخ المعروف بتاريخ اليعقوبى[٢] من أعظم المصادر التاريخية ، كما يعد كتابه « البلدان » من أشهر الكتب الجغرافية[٣] .

ومن هؤلاء المؤرخين أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦هـ (٨٨٩ م) ، وقد خلف كثيرا من الكتب ، منها كتاب الإقامة والسياسة المنسوب إليه ،

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٠ .

(٢) فى جزئين Ed. Houtsma, Leyden, 1883

(٣) Ed. De Goeje, Leyden, 1892

وكتاب المعارف[١] الذى يعد بحق مجموعة معارف مفيدة ، وكتاب عيون الأخبار[٢] ، ويعد من خيرة كتب الأدب والتاريخ مادة وترتيبا[٣] .

ومن هؤلاء المؤرخين البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) ، ويعد كتابه فتوح البلدان من أحسن المصادر فى الفتوح الإسلامية . ومن هذه المصادر كتاب الأخبار الطوال[٤] ، لأبى حنيفة الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) وأول هؤلاء المؤرخين الأربعة من أصل عربى ، على حين يرجع الثلاثة الأخيرون إلى أصل فارسى .

ويعتبر كتاب الأمم والملوك[٥] لأبى جعفر محمد بن جعفر جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٣ م) من أمهات الكتب التاريخية الموثوق بصحتها . ولا غرو فإن الطبرى أكثر تحقيقا ممن سبقه من المؤرخين ، فضلا عن أنه انفرد بذكر حوادث لم يذكرها أحد قبله . وقد تكلم على الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة إلى سنة ٣٠٢ هـ ، ثم جاء عريب بن سعيد القرطبى المتوفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ — ٩٧٧ م) ، فوصل الحوادث فى كتابه المسمى « صلة تاريخ الطبرى »[٦] من سنة ٢٩١ هـ إلى نهاية عهد الخليفة المقتدر العباسى سنة ٣٢٠ هـ[٧] .

وكان القرن الرابع غنيا بكثير من المؤرخين . ومن هؤلاء سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، واشتهر باسم أوتيخا Eutychius . وكان أحد بطارقة الإسكندرية ، وخلف كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (بيروت ١٩٠٩)

---

(١) طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣/١٩٣٤ .

(٢) فى أربعة أجزاء طبعت بدار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٣ — ١٣٤٩/١٩٢٥ — ١٩٣٤ .

(٣) Eed, De Goeie, Leyden, 1855 القاهرة سنة ١٣١٧ هـ (١٩٠٠) .

(٤) ed. Kratchkovsky, Leydea, 1892

(٥) طبع دى غوية هذا السفر الكبير فى ١٣ مجلدا : منها مجلدان للمقدمة التاريخية والفهارس (١٨٧١ — ١٩٠١) . وقد طبع أيضا فى القاهرة عدة طبعات من أقدمها طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

(٦) طبعة دى غوية سنة ١٨٩٨ م والمطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ .

(٧) ترجم أبو على محمد البلعمى وزير منصور بن نوح السامانى كتاب تاريخ الأمم والملوك لمحمد ابن جرير الطبرى بصورة موجزة إلى الفارسية ، وقام بنقل هذه الترجمة إلى الفرنسية كل من ديبيو وزوتنبرج Dubeau and Zotenberg (Paris. 1867—74)

انظر Browne Hist of Persia, Vol. I, pp. 359. 399

الذى ذيله يحيى بن سعيد الأنطاكى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م)، ويسمى « صلة كتاب أوتيخا ».

ومن مشهورى المؤرخين فى هذا العصر أبو عبد الله محمد بن عبدوس المعروف بالجهشيارى صاحب كتاب الوزراء والكتاب[١]، وهو « مؤرخ قديم من طبقة ابن جرير الطبرى (المتوفى ٣١٠ هـ)، والمسعودى (المتوفى ٣٤٥ أو ٣٤٦ هـ). وكان أبوه عبدوس الجهشيارى حاجب على بن عيسى وزير المقتدر العباسى، ثم ولى ابنه محمد بن عبدوس هذه الحجابة لعلى بن عيسى لما انضم إلى حامد بن العباس حين تقلد الوزارة سنة ٣٠٦ هـ. وكان ابن عبدوس على جانب عظيم من حسن الخلق؛ فكان يأبى الإسفاف فى القول ولا يتسع صدره للغو[٢]

وللجهشيارى كتب كثيرة أشهرها كتاب « الوزراء والكتاب »، وهو أول ما ألف من نوعه فى تاريخ الوزراء. وقد حذا المؤرخون حذو الجهشيارى فى تاريخ الوزراء. فألف هلال بن المحسن الصابى (٣٥٩ — ٤٤٨ هـ) كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء (بيروت ١٩٣٣)، وصل به تاريخ الجهشيارى إلى سنة ٣٩٣ هـ، كما استمد منه ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ »، وابن الطقطقى فى كتابه الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » (القاهرة ١٩٣٣).

ومن مؤرخى هذا العصر أبو بكر محمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦م)، وكان مجوسيا من أهل جرجان، وقد تتلمذ عليه الراضى بن المقتدر قبل أن يلى الخلافة[٣] وكتابه « الأوراق[٤] » مجموعة نفيسة فى الأدب والتاريخ.

---

(١) انظر مقدمة كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى، حققه ووضع فهارسه الأساتذة مصطفى السقا، وإبراهيم الإبيارى، وعبد الحفيظ شلبى (الطبعة الأولى).

(٢) المصدر نفسه ص « و »، « ز ».

(٣) أبو بكر الصولى: أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٥ — ٦، ٢٦.

(٤) نشر ج. هيورث دن من هذا الكتاب « كتاب أخبار الراضى بالله والمتقى لله »، ويتناول تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢ هـ إلى سنة ٣٣٢ هـ (القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م)، وكتاب أخبار الشعراء (القاهرة سنة ١٩٣٤ م)، وكتاب أشعار الخلفاء وأخبارهم (القاهرة سنة ١٩٣٦).

ويعتبر كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر[١] لأبى الحسن على المسعودى الذى ينتسب إلى عبد الله ابن مسعود الصحابى ، من أهم المصادر التاريخية فى هذا العصر ، وخاصة فى الناحية الاجتماعية ، ويتناول الكلام على الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة إلى أيامه ، ومن كتبه أيضا كتاب التنبيه والإشراف ، وهو من الكتب الهامة فى تاريخ القرامطة وعلاقتهم بالعباسيين بوجه خاص[٢] .

ومن مؤرخى هذا العصر الحسن بن زولاق الذى عاصر الإخشيديين والفاطميين ، وامتدت حياته فى الدولة الفاطمية إلى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) ، وقد أتى فى كتابه «فضائل مصر وأخبارها وخواصها» على تاريخ مصر منذ عصورها الأولى ، وهو حجة فى تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين ، لأنه كان مصريا ، ولأن شهرته قد ذاعت لسعة اطلاعه فى مادة التاريخ .

ومن المؤرخين الذين عاصروا الخليفة العزيز بالله الفاطمى أبو الحسن على الشابشتى حاجب وشمكير بن زيار الديلمى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ (٩٨٨ م) . وقد اتصل أبو الحسن بخدمة العزيز ، فولاه خزانة كتبه ، واتخذه وجلسائه وندمائه ، وترك فى كتابه «الديارات» اخبارا طريفة عن الأديار فى العراق والموصل وسورية والجزيرة ومصر ، وما قيل فيها من من الأشعار وما جرى من حوادث وأمور (مخطوط برلين — فيبر ١١٠٠) .

وهناك كتاب آخر عن كنائس وأديرة مصر لأبى صالح الأرمنى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) . اعتمد فيه على ما سمعه وشاهده بنفسه فى زياراته للكنائس والأديار فى القاهرة وضواحيها[٣] . وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عز الملك محمد بن أبى القاسم المعروف بالمسبحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) ، كتب عن مصر كتابا مسهبا سماه تاريخ مصر ، يقع فى ثلاث عشرة ألف ورقة أى فى ستة وعشرين ألف صفحة[٤] : ولا يوجد من هذا الكتاب غير الجزء الأربعين بمكتبة الإسكوريال بأسبانيا . وهذا

---

(١) نشره وترجمه إلى الفرنسية بربيه دى مينار وبافت Barbier de Meynurb et Pavet (Praiaries dor), Pais, 1861—1877 ونشر فى القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ فى جزئين .

(٢) الكتبى : فوات الوفيات (القاهرة ١٢٩٩ هـ) جـ ٢ ص ٤٥ .

(٣) نشره مستر B. T. A. Evetts ، وزعم فى مقدمته أن كتاب الديارات للشابشتى قد ضاع وأنه لا يعرف إلا عن طريق العبارات التى اقتبسها منه غيره من الكتاب .

(٤) ابن خلكان جـ ١ ص ٥١٦ .

الكتاب أحد تصانيف المسبحى التى بلغت الثلاثين ، والتى لم يعد لها الآن وجود إلا فى هذه المقتبسات التى نعثر عليها فى ثنايا الكتب .

ولا ننسى ما كتبه ثلاثة من الكتاب المعاصرين وهم مسكويه[١] المتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١ م) . وهلال الصابى[٢] المتوفى سنة ٤٤٨هـ (١٠٥٦) ، وأبو شجاع[٣] المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) .

أما تاريخ مسكويه المسمى « تجارب الأمم » . فهو من أهم الكتب العلمية فى اللغة العربية . ويتناول جزء من هذا الكتاب الكلام على الحوادث المتممة لتاريخ الطبرى (وينتهى فى سنة ٣٦٩ هـ) ، ولا يكتفى مسكويه فى تاريخه بذكر الحوادث ، بل يعنى بالشئون الاجتماعية وخاصة الأحوال الاقتصادية عناية كبيرة . وبذلك خطا خطوة جديدة تقل بها دراسة التاريخ من سرد الحوادث الجافة إلى معالجة الشئون الاجتماعية والعمرانية .

وقد أسهب مسكويه فى تاريخ الصدر الأول من أيام بنى بويه ، ولم يغفل أن يمدنا بتاريخ الأحوال الخارجية للعباسيين . وذيل ظهير الدين محمد بن الحسين الروذراورى وزير الخليفة العباسى المقتدى (٤٧٦ — ٤٨٧ هـ / ١٠٨٢ — ١٠٩٣ م) المعروف بأبى شجاع ، تاريخ مسكويه بتاريخه الذى تناول فيه الكلام على المدة التى بين سنتى ٣٦٩ ، ٣٨٩ هـ . وتلاه هلال الصابى فى تاريخه الذى ذيل به أمدروز كتاب الوزراء إلى سنة ٣٩٣ هـ ونقله عنه مرجليوث[٤] .

---

(١) اختلف الكتاب فى صحة ثبوت اللقب له أو لأبيه ، فبعضهم كالتنوخى (نشوار المحاضرة ص ١٧٣) وحاجى خليفة (رقم ٢٤٣٠) يزعم أن اللقب متصل بأبيه ، على حين يقول غيرهم من أمثال بديع الزمان الهمذانى (ص ١٥٧ . وقد سماه مسكويه) ، وياقوت (إرشاد ٢ ص ٨٨) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٩٢) ، والقفطى (إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٣١ ، وابن أبى أصيبعة (عيون الأنباء فى أخبار الأطباء ج ١ ص ٢٤٥)) بأن اللقب متصل به هو .

(٢) ياقوت (ارشاد ج ٧ ص ٢٥٥) وابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠٢ — ٢٠٣) ، ووستنفلد Geschichle der Arader Litteratur, no. 198

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٤) انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٩ ، ١٠ وقد طبعت هذه الكتب الثلاثة فى القاهرة (١٣٣٣ — ١٣٣٤ / ١٩١٥ — ١٩١٦) .

ومن المصادر التى ألفها جماعة من المؤرخين والأدباء فى هذا العصر : كتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣هـ. وهو من أمهات الكتب التى يعتمد عليها فى دراسة تاريخ الدولة العباسية منذ تأسيس مدينة بغداد فى عهد الخليفة المنصور سنة ١٤٥ هـ إلى سنة وفاة هذا المؤلف . ويشمل هذا الكتاب على وصف ضاف لمدينة بغداد ، كما يمدنا بأخبار من عاش فيها من الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ممن عاش فيها أو رحل إليها من أهل العلم والفضل . ويقع هذا الكتاب فى أربعة عشر مجلدا ، ولا غنى عنه لطلاب البحث فى تاريخ الدولة العباسية فى أزهى عصورها إلى سنة وفاة المؤلف .

كذلك لا نغفل عن مؤلفات أبى الريحان البيرونى[١] الخوارزمى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) . وقد قضى حياته تحت كنف أمراء بيت مأمون بن مأمون أمير خوارزم ، ثم زار حول سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير الذى اشتهر فى طبرستان بتشجيع العلماء ، وأهدى إليه تاريخه المشهور « الآثار الباقية عن القرون الخالية[٢] » ، ويتناول الكلام على نظم الطوائف والجماعات المختلفة ، والاحتفال بالأعياد القومية والدينية بوجه خاص . ثم عاد إلى خوارزم حيث قضى بقية حياته فى بلاط محمود الغزنوى . كذلك ألف البيرونى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » ، ويعرف باسم « تاريخ الهند » ، وقد نشر نسخته العربية وترجمتها ادوارد سخاو . ثم ألف البيرونى كتابه « التفهيم » ، وهو باللغة الفارسية . كما وضع كتابه « التفهيم فى الفلك » الذى أهداه إلى الأميرة ريحانة الخوارزمية ، و « القانون المسعودى » وقد أهداه إلى السلطان مسعود بن محمود الغزنوى ، كما أهدى كتابه الذى ألفه فى الأحجار الكريمة إلى السلطان مودود بن مسعود .

وكتب فى هذا العصر فى تاريخ مكة كل من الأزرق المتوفى سنة ٢٤٤ هـ (٨٥٨ م) ، والفاكهى المتوفى حول سنة ٢٧٢ هـ (٨٨٥ م)[٣] ، والنرشخى الذى وضع كتابه

---

(١) نسبة إلى Bérûn أحد أحياء حاضرة هذه البلاد . انظر :
Sachau : Preface to Bèrûni's Chronology of Ancient Nations, English Translation, p. VII

(٢) Chronology of Ancient Nations (London, 1879)

(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia. Ibia Vol. I. pp. 345, 57

« تاريخ بخارى » حول سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) والصاحب إسماعيل بن عباد الذى وضع كتابه حول سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) . ومن هذه الكتب التاريخية أيضا « تاريخ أصفهان » للافروخى ، وتاريخ طبرستان للبزدادى ، وقد وضعا أول الأمر بالعربية ، ولكنهما لم يعرفا إلا عن طريق الترجمة الفارسية . أضف إلى ذلك ما كتبه أبو نصر العتبى عن حياة السلطان محمود الغزنوى إلى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م) ، مع أن هذا المؤلف عاش حتى سنة ٤٢٨ ؛ ويسمى هذا الكتاب « تاريخ اليمينى(١) » ، نسبة إلى يمين الدولة محمود الغزنوى(٢) .

٦ — الجغرافيا

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أنه « كان لاتساع نطاق التجارة فى العصر العباسى الأول ، واتصال مدينة بغداد حاضرة العباسيين بالبلدان القاصية برا وبحرا ، ثم تعبيد الطرق وجعلها آمنة ، أثر كبير فى تسهيل الأسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين والرحالين . فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة ، ووضعوا فى وصفها الكتب والأسفار ، ووصفوا ما شاهدوه فى البلدان التى اختلفوا إليها وصفا دقيقا مبنيا على المشاهدة . وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة هى خلاصة مشاهداتهم وتجاربهم التى اكتسبوها من أسفارهم فى كثير من الأقاليم والممالك والبلدان .

لكن مما يسترعى النظر أن هذه الثروة الجغرافية العظيمة التى خلفها جغرافيو المسلمين لم تظهر ظهورا واضحا إلا فى العصر العباسى الثانى . ويعتبر ابن خرداذبه الفارسى الأصل الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى من أقدم جغرافيى المسلمين فى العصر العباسى . وقد خلف لنا كتابه « المسالك والممالك(٣) » ، الذى يعتبر بحق من أقدم الكتب الجغرافية التى ظهرت فى اللغة العربية . وهو عبارة عن دليل يستعين به

---

(١) طبعة القاهرة سنة ١٢٨٦هـ ، ويقع فى جزئين .

(٢) Browne, vol. II. pp. 114—115

(٣) نشره دى غويه فى ليدن سنة ١٨٨٩ م (ص ٤ — ١٨٣) ، ويليه نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى ، ويشمل الباب الحادى عشر من هذا الكتاب وعنوانه : فى ديوان البريد والسكك والطرق إلى نواحى المشرق والمغرب (١٨٤ — ٢٦٦) .

المسافرون فى الاهتداء إلى الطريق البحرى الذى يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبلة ويصل إلى الهند والصين .

ومن جغرافيى هذا العصر اليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) صاحب كتاب « البلدان » . وقد قام برحلات طويلة فى أرمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب ، ودون نتائج رحلاته فى كتابه ، والهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ (٩٧٣ م) ، وقد ألف كتابه « صفة جزيرة العرب » . وكان أبو الحسن على المسعودى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ (٩٥٦ م) من كبار الرحالين المسلمين . وقد زار كل أرجاء العالم تقريبا ، فزار بلاد الفرس والهند وجزيرة سرنديب ، وصحب التجار إلى بحار الصين ، كما زار زنزبار وسواحل إفريقية الشرقية والسودان ، وقام برحلات فى إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين ، وزار مصر فى عهد الإخشيد سنة ٣٣٠ هـ ، واهتم بوصف الأهرام وغيرها من الآثار أكثر من اهتمامه بوصف المبانى والبلاط وطبقات الشعب وحالة السكان . إلا أنه مع ذلك لم يغفل الكلام على وصف نظام الرى وجبر الخليج وقطع السدود وليلة الغطاس(١). كما وصف ما قام به المصريون من أعمال البحث والتنقيب عن الآثار ، وكشفهم أقبية مملوءة بالهياكل والموميات ، وما كان لذلك من أثر فى تنبيه الأذهان إلى أهمية البحث عن الآثار المصرية القديمة(٢) .

وقد ألف أبو إسحاق الإصطخرى الفارسى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كتاب الأقاليم ، ووضحه بالخرائط ، كما ألف كتابه « المسالك والممالك » الذى وصف فيه نتائج مشاهداته فى الأقاليم التى زارها . ونقل كثيرا من كتاب صور الملوك لأبى زيد البلخى تلميذ الكندى الفليسوف المشهور ، واعتمد على ما دونه بوزرج بن شهريار أحد أهالى رامهرمز الذى كتب كتابه « عجائب الهند » باللغة العربية ، مستعينا فى ذلك بمشاهداته وما نقله عن غيره من الرحالة(٣) . ثم جاء ابن حوقل فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وراجع كتاب المسالك والممالك للاصطخرى وزاد عليه وأخرجه بنفس هذا الاسم(٤) . وكلا الكتابين قد ألف فى النصف الثانى من

---

(١) مروج الذهب جـ ١ ص ٢١٢ — ٢١٣ .
(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .
(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 368
(٤) نشره دى غويه فى المجموعة الجغرافية العربية (ليدن سنة ١٨٧٣ م)

القرن الرابع الهجرى ، ويحتوى كل منهما على وصف دقيق لكل جزء من أجزاء العالم الإسلامى وأشهر مدنه وأماكنه .

ومن أشهر الجغرافيين والرحالة فى القرن الرابع الهجرى شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشارى المقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ، وكتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم(١) » ذو قيمة عظيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية(٢) .

وقد أودع ناصر خسرو (٤٨١ / ١٠٨٨) الرحالة الفارسى كتابه سفر نامه(٣) (أو زاد المسافر) مشاهداته فى بلاد الفرس والعراق ، وفى بلاد الحجاز والشام وفلسطين ومصر ، التى زارها فى أيام الخليفة المستنصر الفاطمى وأقام فيها نحو سنتين (٤٣٩/٤٤١هـ) ووصف لنا ثروة البلاط الفاطمى وأبهته ، وما كانت عليه القاهرة من يسر ورخاء . وكان ناصر خسرو وزيرا فى بلاط خراسان ، ثم اعتزل السياسة ، فحج بيت الله . وعينه الخليفة المستنصر كبيرا لدعاة الإسماعيلية فى خراسان ، فاعتبر القاهرة المركز الرئيسى للمذهب الذى يدين بعقائده ، كما اعتقد أن الفاطميين هم الأئمة حقا(٤) .

٢ — الفن

(أ) العمارة عند العباسيين

كثرت العمارة فى العصر العباسى الثانى ، فبنيت المدن التى امتلأت بالقصور والمساجد والمتنزهات . وكان تأثير الفن الفارسى فى الفن الإسلامى عظيما فى هذا العصر . فأولع الخلفاء العباسيون والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة ببناء القصور الفخمة المحلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج ، وعليها صور من الجص المجسم ؛ كما كانت طبقاتها مغطاة بستور من الديباج مزينة بالرسوم التى كانت من مميزات الفن الفارسى .

عزم جعفر المتوكل على أن يبنى مدينة جديدة يتخذها حاضرة لدولته ، فوضع أساس

---

(١) نشره دى غويه (ليدن ١٩٠٦)

(٢) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٧٠

(٣) Safar Nameh, trans by Charles Schefer (Paris, 1881) .

(٤) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢١٣ ، ٢٤٨ — ٢٥٠ .

مدينة الجعفرية (١) فى مكان قريب من مدينة سامرا من ناحية الشمال ، وبنى قصره الذى سماه الجعفرى نسبة إليه ، وشجع الأمراء والقواد وغيرهم على البناء ، ويقول الطبرى (جـ ١١ ص ٥٦) إن المتوكل أمر بنقض قصرى المختار والبديع بسامرا وحمل ما فيهما من خشب الساج لاستعماله فى بناء قصره الجديد (٢) .

كذلك بنى المتوكل فى هذه المدينة قصراً آخر سماه لؤلؤة ، امتاز بارتفاع بنائه ، كما أمر بحفر نهر يأخذ ماءه من دجلة ويصل إلى هذه المدينة ، عرف باسم جبة دجلة ، وأنفق على شق هذه الترعة مائتى ألف دينار ، وكان يقوم بحفرها اثنا عشر ألف عامل ؛ كما بلغت تكاليف قصر الجعفرى أكثر من مليون دينار . يقول ياقوت (٣) إن سامرا كادت تخرب وتخلو من أهلها على أثر انتقال المتوكل إلى الجعفرية . ولم تلبث هذه المدينة أن تخربت على أثر مقتل هذا الخليفة فى سنة ٢٤٧ هـ ، بعد أن هجرها ابنه وخليفته المنتصر ، وعاد إلى سامرا التى ظلت حاضرة الدولة العباسية إلى سنة ٢٧٩ هـ حيث عاد الخليفة المعتضد إلى بغداد ، فسقطت عمائر سامرا ولم يبق منها إلا المسجد الجامع (٤) .

وكان المتوكل ولوعاً بالعمارة وزخرفة الأبنية وتزيين جدرانها بالرسوم التى تمثل الحروب والمواقع الحربية ، يقول المسعودى (٥) : « وأحدث المتوكل فى أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعروف بالحيرى والكمين والأروقة . وذلك أن بعض سماره حدثه فى بعض الليالى أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بنى نصر أحدث بنياناً فى دار قراره ، وهى الحيرة ، على صورة الحرب وهيئته للهجه (لشغفه) بها وميله نحوها ، لئلا يغيب عنه ذكرها فى سائر أحواله ، فكان الرواق مجلس الملك ، وهو الصدر والكمان ميمنة وميسرة ، ويكون فى البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه ، وفى اليمين منها خزانة الكسوة ، وفى الشمال ما احتيج إليه من الشراب . والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق ؛ فسمى هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيرى والكمين إضافة إلى الحيرى . واتبع الناس المتوكل فى ذلك اتباعا بفعله . واشتهر إلى هذه الغاية » .

---

(١) وتسمى أيضا المتوكلية .
(٢) أنظر لفظ الجعفرى فى معجم البلدان لياقوت .
(٣) أنظر لفظ الجعفرى فى معجم البلدان لياقوت .
(٤) ترى أنقاض هذا المسجد فى قرية لا تزال تحمل اسم سامرا .
(٥) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٦٩ .

حفل عصر بنى بويه بالعمارة التى ولع بها معز الدولة : فقد أنشأ فى سنة ٣٥٠ هـ قصراً فخما شرق بغداد ، أنفق عليه ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، أى ما يقرب من مليون دينار ، ونزع ملكية المبانى المجاورة لهذا المكان ، وأمر بخلع الأبواب الحديدية ببغداد والرصافة ونقلها إلى قصره ، كما نقض دور الخلافة بسامرا ، (١) ، وأحضر مهرة البنائين (٢) وقد أصاب هذا القصر ما أصاب غيره من قصور الخلافة فى سامرا على يد بهاء الدولة الذى شرع فى تخريبه واستعماله أنقاضه فى بناء قصره الذى بناه فى سنة ٤١٨ هـ (٣) .

كذلك كان عضد الدولة ولوعاً بالعمارة ، وإليه يرجع الفضل فى تعمير مدينة بغداد بعد أن أصابها التدمير بسبب إهمال شأنها مدة طويلة ، حين اتخذ بعض الخلفاء مدينتى سامرا والجعفرية حاضرة للدولة . لذلك أعاد عضد الدولة بناء كثير من مساجدها وأدر الأرزاق على القائمين بها من المؤذنين والأئمة والقراء ، كما أعاد بناء ما تخرب من أرباض هذه المدينة، وأمر أصحاب العمارات التى أصابها الخراب بإعادتها إلى ما كانت عليه وتجميلها ، وأمد العاجزين منهم بما يحتاجون إليه من المال . كما عمل على تجميل الأحياء الواقعة على ضفتى نهر دجلة ، وأقام الميادين والمتنزهات ، فامتلأت ـ على ما يقول مسكويه (٤) ـ هذه الخرابات بالزهر والخضرة والعمارة بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح (٥) الجيف والأقذار ، وجلبت إليها الغروس من فارس وسائر البلاد . كما عمل عضد الدولة على تجديد ما دثر من الأنهار وأعاد حفرها بعد أن أهملت زمناً طويلا ، وأقام جسر بغداد وحصنه بالدرابزينات ووكل به الحفظة والحراس (٦) ، وأصلح الطريق الذى كان يمتد من العراق إلى مكة ، وأعاد بناء مشهد على والحسين (٧) . كذلك أنشأ البيمارستان المنسوب إليه فى الجانب الغربى من بغداد (٣٧٢ هـ) ، وعين له الأطباء وغيرهم من الموظفين، وأمده بكل ما يحتاج إليه (٨).

وليس هذا كل ما قام به عضد الدولة من الأعمال العمرانية، فقد بنى بفارس وخوزستان كثيراً من العمائر ، كما بنى البيمارستان العضدى المشهور ، « وعمل السكور (٩) وأنفق

---

(١) نوع من الجير (المصيص) .
(٢) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ١٨٣ .
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٦
(٤) تجارب الأمم ج ٢ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ .
(٥) الأماكن التى تطرح فيها القمامات والجيف ونحوها .
(٦) مسكويه : نفس الجزء والصفحة .
(٧) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٥ .
(٨) أبو المحاسن ج ٤ ص ١٤١ .
(٩) السكر (بتشديد السين وسكون الكاف) سد النهر .

فيها الأموال ، وأعد عليها الآلات ، ووكل بها الرجال ، وألزمهم حفظها بالليل والنهار ، وراعى ذلك منهم أتم مراعاة فى آونة المدود والجوارف ، وأزمنة الغيوث الهواطل ، وأوقات الرياح العواصف (١) » .

وكان البويهيون يعنون ببناء الأسوار حول المدن ؛ فقد أمر أبو كاليجار (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) ببناء سور مدينة شيراز فى سنة ٤٣٦ هـ لرد غارات السلاجقة الذين تفاقم خطرهم فى ذلك الحين . وبلغ طول هذا السور اثنى عشر ألف ذراع وعرضه ثمانية أذرع ، وجعل له أحد عشر بابا (٢) .

(ب) العمارة فى مصر

١ — تأسيس مدينة القطائع ـ جامع ابن طولون :

ولم يكن ولوع أمراء مصر وخلفاؤها بالعمارة أقل من ولوع العباسيين . ذلك أنه لما ضاقت مدينة العسكر التى أسسها صالح بن على العباسى سنة ١٣٣ هـ بسكانها من أتباع ابن طولون وحاشيته وعسكره ، اتخذ لإقامته قصراً فسيح الأرجاء ، واتخذ أمامه ميداناً فسيحاً . ثم اختط كبار رجال دولته وقواده وغلمانه وأتباعه دورهم حول هذا المكان ، واتخذ كل منهم قطيعة خاصة به ، فسميت هذه المدينة « القطائع » . كانت هذه المدينة تمتد غربى القلعة ، ويحدها من الشمال خط ينطبق عليه شارع الصليبة ، ومن الغرب نواحى المشهد الزينبى ، ومن الجنوب العسكر ، وفى هذه المدينة أقامت الطوائف المختلفة من سودانيين ونوبيين وروم وغيرهم ، وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم الطائفة التى تسكنها . كذلك أفرد ابن طولون لأصحاب الحرف والصنائع والتجار قطائع خاصة بهم ، فعمرت المدينة وامتدت مبانيها حتى اتصلت بالفسطاط ، وقد حدد المقريزى مدينة القطائع فى عهد حمد بن طولون فقال : إنها كانت تمتد من قبة الهواء التى بنيت على أطلالها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون ، ومن الرميلة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين (٣) .

---

(١) مسكويه ج ٣ ص ٦٨ ـ ٦٩ .
(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦٩ .
(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣١٧

عنى ابن طولون ببناء قصره وتجميله ، وجعل له ميداناً فسيحاً . كان يطلق على القصر اسم « الميدان » ؛ وربما كان ذلك لاتساعه ، وعمل ابن طولون للميدان أبوابا كثيرة : فباب الميدان خصص لدخول الجند وخروجه ، وباب الصوالجة (١) ، وباب الخاصة لا يدخل منه إلا خاصة الأمير ، وباب الجبل لأنه كان يلى جبل المقطم ، وباب « الدرامون » وكان يجلس عنده حاجب أسود عهد إليه النظر فيما يرتكبه الغلمان السودان من الجرائم وباب « دغناج » لأنه كان يجلس عنده خادم أسود يقال له دغناج ، وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج ، وباب الصلاة لأنه كان فى الشارع الأكبر ، ومنه يتوصل إلى جامع ابن طولون . وكان على هذا الباب صورة سبعين من جبس ، ولهذا سمى باب السباع أيضاً ، وكان لابن طولون طريق خاص . به ثلاثة أبواب يتصل بعضها ببعض .

وفى مدينة القطائع بنى أحمد بن طولون ثالث المساجد الجامعة التى أقيمت فيها صلاة الجمعة منذ الفتح الإسلامى بعد جامعى عمرو والعسكر ، وقد بنى هذا الجامع على جبل يشكر فى الجهة الجنوبية من القاهرة ، وهو أقدم آثار مصر الإسلامية التى بقيت على حالها الأولى بعد مقياس النيل بجزيرة الروضة (٢) ويحيط بهذا المسجد من الجهات الأربع شوارع ابن طولون جنوبا والزيادة غرباً وبئر الوطاويط شرقا (٣) والحضيرى شمالا ، وكانت هذه الجهات تعرف بخط المغاربة .

وقد دعت حالة ضيق مسجد العسكر بالمصلين لكثرة جند ابن طولون وخدمه وعبيده إلى شكوى الناس ، فرأى أن يقوم بهذا العمل تحقيقاً لرغبة الناس من جهة ، ورغبته فى الخير من جهة أخرى ، ثم لأن وجود القطائع من غير مسجد فيها نقص يجب تلافيه ، خصوصا وأن أول ما كان يعنى به الولاة عند إنشائهم المدن لاتخاذها حاضرة للبلاد أن يبنوا مسجدا يقيمون فيه شعائر الدين ، كما كانت الحال عند تأسيس الفسطاط والعسكر والقاهرة .

وكان ابن طولون يرمى من بناء هذا الجامع إلى إقامة الصلاة فيه لضيق جامع العسكر بالمصلين كما تقدم ، واتخاذه معقلا له إذ تهدده خطر خارجى أو داخلى ، وليكون أيضاً أشبه

---

(١) المراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الانجليز والفرنسيين باسم « پولو » وهى شبيهة بلعبة كرة القدم .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٥٥ . ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ١١٤ — ١١٥ .

(٣) تحول هذا الشارع الآن إلى ميدان .

بمعهد تدرس فيه العلوم الدينية ، ومكان تعلن فيه أمور الدولة ، وتعقد فيه المحاكم للفصل فى قضايا الأفراد أو فض المشاكل التى تنشأ بينهم وما إلى ذلك . وبعد الفراغ من بناء هذا الجامع ، افتتحه ابن طولون سنة ٢٦٥ هـ ، وعهد فيه بالصلاة والخطبة إلى القاضى بكار ابن قتيبة .

ولجامع ابن طولون أهمية خاصة بالنسبة إلى جوامع مصر ، لأنه يعد المثال الأول الذى اتخذه بناة المساجد الجامعة فيما بعد ، وفى وسط الجامع بنى ابن طولون فوارة مشبكة من جميع نواحيها ، عليها قبة مذهبة مقامة على عشرة أعمدة ، وفى جوانبها ستة عشر عموداً من الرخام . أرض هذه الفوارة وقبتها محاطة كذلك بالرخام ، وعلى سطح الفوارة علامات للزوال لتعيين أوقات الصلاة ، وقد صنعت من خشب الساج ، أما المنارة فمراقيها (أى درجاتها) من ظاهرها ، بمعنى أن الرائى يرى الصاعد من داخل المسجد وخارجه ، وتمتاز هذه المنارة على غيرها من المنارات باتساع عرضها ، على مثال منارة المسجد الذى بناه المتوكل العباسى فى مدينة سامرا .

٢ — تأسيس مدينة القاهرة — الجامع الأزهر :

لما تم لجوهر الصقلى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ عدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر حاضرة للفاطميين ، وفكر فى تأسيس مدينة جديدة تكون مقراً للفاطميين ، ومركزاً لنشر دعوتهم الدينية ، وحصنا منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين أخذوا يهددون حدود مصر الشمالية . لذلك وضع أساس مدينة القاهرة (١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ) ، كما وضع أساس قصر مولاه المعز . ثم اختطت كل قبيلة من البربر حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها . فاختطت جماعة من برقة (الحارة البرقية) ، واختط الروم حارتين : إحداهما حارة الروم والأخرى حارة الروم الجوانية بقرب باب النصر .

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة ، وأقام حوله السور ، سمى المدينة كلها « المنصورية » نسبة إلى المنصور أبى المعز ، وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز مصر ، فسماها « القاهرة المعزية » ، وتقع هذه المدينة شمالى الفسطاط ، وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويله ، وحدودها الشرقية هى حدود القاهرة الحالية أما الجهة الغربية فلم تجاوز خليج أمير المؤمنين ، وتحد شمالا بباب النصر ، وجنوبا بباب زويلة ، وشرقا

بباب البرقية والباب المحروق (الدراسة الآن) ، وغربا بباب السعادة وباب الفتوح وباب الخوخة . وكانت القاهرة المعزية تشمل أحياء جامع الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق (١) . ويقال إن الخليفة المعز لما قدمها فى أواخر سنة ٣٦٢ هـ ورأى أنه لا ساحل لها ، لم يعجبه موقعها وقال : « يا جوهر ! فاتتك عمارتها ههنا (٢) » ، يريد المقس (٣) .

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير من اللبن ضم الخطط التى تكونت منها القاهرة المعزية ، وكان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة . وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، على حين كان يعرف الجزء الواقع خارجها بظاهر القاهرة ، وهو عبارة عن خطط وأحياء جديدة تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل ، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وهى المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق والحسينية (٤) .

وقد وضع جوهر أساس القصر الذى بناه لمولاه المعز (١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ) ، فى الفضاء الفسيح بداخل سور القاهرة من الناحية الشرقية . لذلك أطلق عليه اسم « القصر الكبير الشرقى » . ويسمى أيضاً القصر المعزى ، لأن المعز لدين الله هو الذى أمر جوهراً ببنائه حين سيره لفتح مصر ووضع له رسمه . وكان يقيم فيه الخليفة ويجلس للنظر فى أمور الدولة ، كما كان يشتمل على دواوين الحكومة وخزائن السلاح وغيرها والجند الخاص بحراسة الخليفة ، وبه أربعة آلاف حجرة .

وقد وصف على مبارك باشا مدينة القاهرة كما كانت فى أيام الخليفة المعز فقال : « شكل مدينة القاهرة فى أيام القائد جوهر كان مربعاً تقريباً ، ضلعه ألف ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فداناً : منها سبعون فداناً بنى فيها القصر الكبير ، وخمسة وثلاثون فداناً للبستان الكافورى ، ومثلها للميادين ، فيكون الباقى مائتى فدان هو الذى توزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين حارة بجانبى قصبة القاهرة . وكان سور المدينة الغربى بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين متراً ، وفى سنة ست وثمانين وأربعمائة فى

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٢٧٣ . (٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا باخبار الخلفا ص ٧٤ .
(٣) كانت تقع عند جامع أولاد عنان الآن . (٤) المقريزى جـ ١ ص ١٠٩ .

وزارة بدر الجمالى وخلافة المستنصر بالله الفاطمى ، هدم هذا السور وبنيت الأبواب من الحجر (١) .

اتخذ جوهر عدة أبواب لمدينة القاهرة أشهرها : باب زويلة (٢) ، وباب النصر ، وباب الفتوح ، وباب العيد . فلما تولى أمير الجيوش بدر الجمالى الوزارة سنة ٤٦٥ هـ ، أعاد بناء السور والأبواب بالحجر قريباً من مواضعها أولا ؛ وكانت مبنية باللبن ، فنقل باب النصر الذى بناه جوهر إلى المكان الذى به الآن ، كما بنى باب الفتوح حيث يبدأ شارع المعز لدين الله الفاطمى بجوار جامع الحاكم ، ونقل باب زويلة إلى حيث موضعه الآن ، وهو المعروف عند العامة « ببوابة المتولى (٣) » . وكان باب زويلة يتكون من بابين متجاورين عند سبيل العقادين الآن ، ونقل باب النصر ، وكان على مقربة من مدرسة القاصد ، إلى موضعه الحالى . وكانت هذه الأبواب الثلاثة التى جدد بناءها بدر الجمالى من عمل ثلاثة إخوة من مدينة الرها .

ولما فتح جوهر مصر سنة ٣٥٨ هـ ، وأسس مدينة القاهرة فى نفس الليلة التى دخل فيها مدينة مصر (أى الفسطاط والعسكر) ؛ لم ير أن يفاجىء السنيين فى مساجدهم بإقامة شعائر المذهب الفاطمى ، حتى لا يثير كراهة المصريين ، لذلك وضع أساس الجامع الأزهر (١٤ من رمضان سنة ٣٥٩ ، ٩٧٠ م) ، ولما تم بناؤه فى سنتين تقريباً ، أقيمت الصلاة فيه ولأول مرة فى ٧ من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٤) .

يشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً ، عدا الملحقات التى تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها . أما المقصورة التى بناها جوهر ففيها ستة وسبعون عموداً من الرخام الأبيض اللون فى صفوف متوازية . وفى سنة ١١٦٧ هـ بنى الأمير عبدالرحمن كتخدا مقصورة ثانية بها خمسون عموداً من الرخام ، وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان بهما مائة وستة وعشرون عموداً ، وإذا أضيف إلى هذا العدد الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع ، بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترتفع المقصورة الجديدة نحو ذراع عن المقصورة التى بناها جوهر القائد

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٨١ .

(٢) نسبة إلى قبيلة زويلة (بوزن سفينة) إحدى قبائل المغرب التى قدمت إلى مصر على أثر الفتح .

(٣) نسبة إلى متولى الحسبة فى مدينة القاهرة ، وقد أطلق عليه هذا الاسم فى العهد العثمانى ، إذ كان متولى الحسبة فى مدينة القاهرة يجلس على مقربة من هذا الباب .

(٤) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٢٧٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٤ .

وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفى كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء ، وأما صحن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف ، مرصوف بالحجر ، تقام فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين ، ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائق مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو بن العاص ، وزينت حيطانه بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفى الجميل .

وقد أنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محراباً يسمى الآن « القبلة القديمه » ؛ ثم أقيمت به تسعة محاريب أخرى ، لم يبق منها سوى ستة أشهرها اثنان : يعرف أحدهما بالمقصورة القـــديمة ، والآخر بالمقصورة الجديدة ، ولـكل منهما إمام يخالف صاحبه فى المذهب الفقهى .

وللأزهر منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع وقد نقل المنبر الأصلى الذى أنشأه جوهر إلى جامع الحاكم . وأنشىء به عند تأسيسه منارة واحدة . ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات ، يؤذن عليها فى أوقات الصلوات الخمس وفى ليالى رمضان والمواسم . وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتى ، ومهمته التنبيه على أوقات الصلوات ، وكان يعرف الأوقات بالنظر فى المزاولة التى لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر ، وكانت مساجد القاهرة تتبع أصوات المؤذنين فى الأزهر فى الأذان .

وأهم خصائص الأزهر أنه بدأ كغيره من المساجد لإقامة الشعائر ، ولم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب مختلف العلوم والفنون ، ففى سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية ، وسرعان ما أصبح الأزهر مثابة علمية ، وقد عمل الخليفة العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين على جذب طلاب العلم إليه من كافة أرجاء البلاد الإسلامية. بما كانوا يقدمونه إليهم من المأكل والمسكن وما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر .

وقد زاد فى بنـاء هذا الجامع كثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين ، وأنشئوا فيه مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع ، كما حبسوا عليه كثيرا من الأوقاف ، وأهدوا إليه الهبات الجليلة . وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمى أول من

بنى بجوار الأزهر دارا لجماعة من الفقهاء ، عدتهم خمسة وثلاثون ، كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر .

(ج) العمارة فى المغرب والأندلس

١ — تأسيس مدينتى المهدية والمنصورية

أقام عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب بمدينة القيروان التى أسسها عقبة ابن نافع ، واتخذها حاضرة لدولته إلى سنة ٣٠٣ هـ ، حيث وضع أساس مدينة جديدة سماها « المهدية » . وقد عزا البكرى[1] بناء هذه المدينة إلى محاولة أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس ومن معهم من كتامة قتل المهدى والتنكيل بأهل القيروان .

خرج المهدى إلى تونس يرتاد لنفسه موضعا يبنى فيه مدينة حصينة يعتصم بها إذا خرج عليه أحد الخوارج . وقيل إنه وجد فى بعض الكتب ما يدل على خروج أبى يزيد مخلد بن كيداد على دولته[2] . ثم وفق المهدى إلى موضع المهدية ، وهى متصلة بالبحر كهيئة كف منصلة بزند ، فتأملها فوجد فيها راهبا فى مغارة ، فقال له : هم يعرف هذا الموضع ؟ فقال : هذا يسمى جزيرة الخلفاء . فأعجبه هذا الاسم ، فبناها وجعلها دار مملكته »[3] .

تقع المهدية على بعد ستين ميلا جنوبى القيروان . وقد ذكر البكرى أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، وأنه يدخل إليها من الجانب الغربى . وقد شيدت مبانيها بالصخر ، واتخذ المهدى لهذه المدينة بابين من الحديد لا خشب فيهما ، زنة كل باب منهما ألف قنطار وطوله ثلاثون شبرا ، ووزن كل مسمار من المسامير التى استعملت فى تركيبه ستة أرطال . ونقش على هذين البابين صور بعض الحيوانات . وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجا ، عدا ما كان يجرى فيها من القنوات . ولم تلبث هذه المدينة أن أصبحت مرفأ

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٠

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٣ .

(٣) انظر لفظ المهدية فى معجم البلدان لياقوت

هاما وسوقا نافعة للسلع التى كانت تحملها السفن من الاسكندرية ، ومن الشام وصقلية وغيرها (١) .

ولما فرغ المهدى من بناء حاضرته الجديدة فى سنة ٣٠٥ هـ قال : « اليوم آمنت على الفاطميات ، يعنى بناته » . ثم انتقل إليها فى شهر شوال سنة ٣٠٨ هـ ، وأقام بها ، ثم عمر فيها الدكاكين ورتب فيها أرباب المهن ، وجعل لكل طبقة سوقا خاصا بها ، فنقلوا إليها أموالهم ، وكان لهذه المدينة أرباض كثيرة آهلة عامرة ، منها ربض زويلة ، وكان أقرب أرباض المدينة إلى قصره ، وفيه الأسواق والحمامات ، وربض الحمى ، وقد أقام فيه أجناد إفريقية من العرب والبربر ، وربض قفصة (٢) .

وقد أمر المهدى ببناء مدينة أخرى بجوار مدينة المهدية ، وجعل بين المدينتين ميدانا فسيحا ، وأحاطها بسور وأبواب أقام عليها الحراس ، وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر ، وأسكنها أرباب الدكاكين بحرمهم وأهاليهم (٣) . ويظهر أن المهدى حذا فى ذلك حذو أبى جعفر المنصور حين نقل أسواق حاضرة خلافته إلى الكرخ .

بقيت مدينة المهدية حاضرة الدولة الفاطمية حتى خرج أبو يزيد بن كيداد على الخليفة القائم ، ثم ولى ابنه المنصور الخلافة سنة ٣٣٤ هـ وانتصر على أبى يزيد بالقرب من مدينة القيروان ، فاتخذ مدينة صبرة القريبة منها حاضرة لدولته (سنة ٣٣٧ هـ) فسميت المنصورية نسبة إليه .

وكان لهذه المدينة خمسة أبواب : الباب القبلى ، والباب الشرقى ، وباب زويلة ، وباب كتامة . وباب الفتوح ، كانت جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب الأخير ، وقد نقل الخليفة المنصور إلى حاضرته الجديدة أسواق مدينة القيروان وأرباب الصناعات ، فازدهرت فيها الصناعة والتجارة ، وغدت حاضرة الدولة الفاطمية إلى أن أقدم الخليفة المعز مصر (٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ) ، فأصبحت القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية .

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٩ . ذكر البكرى (ص ٨٤ — ٨٦) أن السفن التى كانت تخرج من المهدية كانت تمر فى طريقها الى الاسكندرية بكثير من الموانىء كمدينة قابس ، ومرسى الأندلسيين ، ومرسى مدينة طرابلس ، ولبدة ، وسرت ، وأجدابية ، وسوسة ، وبرقة ، وتينى ، وطبرق ، والزيتونة ، والسلوم والأندلسيين ، ثم تصل الى الإسكندرية .

(٢) البكرى ص ٢٠ — ٣١ . (٣) أنظر لفظ المهدية فى معجم البلدان لياقوت .

(٤) البكرى ص ٢٥ . أنظر لفظ المنصورية فى معجم البلدان لياقوت .

تأسيس مدينتى الزهراء والزاهرة :

ولما ولى عبدالرحمن الناصر حكم بلاد الأندلس كانت قرطبة حاضرة هذه البلاد . وقد بلغ عدد سكانها خمسمائة ألف نسمة ، وعدد دورها ثلاثة عشر ألفا ومائة ، غير قصورها الفخمة وضواحيها الثمانية والعشرين وحماماتها الثلثمائة ، ومساجدها التى بلغت ثلاثة آلاف على ما قيل ، ولم يتفوق عليها فى الاتساع سوى مدينة بغداد ، وقد أولع أهل قرطبة بمقارنتها بها ، فقال بعضهم :

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها ولا تعظم بلاد الفرس والصين
فما على الأرض قط مثل قرطبة وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

كذلك بلغت شهرة قرطبة أهالى جرمانيا الذين أطلقوا عليها فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) « جوهرة العالم » (١) .

أما مدينة الزهراء فإنها لم تقل عن قرطبة روعة وبهاء قد ذكر المقرى (٢) فى سبب بناء هذه المدينة «أن الناصر ماتت له سرية (مملوكة) وتركت مالا كثيرا ، فأمر بأن يفك بذلك المال أسرى المسلمين ، وطلب فى بلاد الافرنج أسيرا فلم يوجد (٣) ، فشكر الله تعالى على ذلك فقالت له جاريته الزهراء ، وكان يحبها حبا شديدا . اشتهيت لو بنيت لى مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة لى ، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمالى قرطبة » ، وسماها الزهراء .

على أن ما أدلى به المقرى لا يمكن أن يكون سبب مباشرا لبناء هذه المدينة ، إذا عرفنا أن عبدالرحمن الناصر ولى الأندلس بعد فترة طويلة انتابها الضعف ، فلما وطد عبدالرحمن دعائم ملكه ، ووحد بلاد الأندلس وأصبح خليفة للمسلمين ، فكر فى بناء مدينة يتخذها حاضرة لخلافته ، مقتديا فى ذلك بأبى جعفر المنصور حين بنى مدينة بغداد ، وعبيد الله المهدى حين بنى مدينة المهدية ، والمعز لدين الله حين بنى مدينة القاهرة فيما بعد

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٦ . Dozy : Spanish Islam. p. 449

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٤٨ ــ ٢٤٩ .

(٣) يقصد مملكتى ليون ونافار .

وضع الناصر أساس مدينة الزهراء فى أول المحرم سنة ٣٢٥ هـ فى الشمال الغربى من مدينة قرطبة وعلى بعد ثلاثة أميال منها . وتأنق فى بنائها ، وجلب إليها الرخام الأبيض من المرية ، والمجزع من رية ، والوردى والأخضر من إفريقية ، وأرسل بعضه هدية من الملوك والأمراء ، وقد استعمل فى بناء هذه المدينة ستة آلاف من الصخر المنحوت المعدل كل يوم ، سوى الصخر غير المعدل والآجر [١] ، وأقيم بها أربعة آلاف سارية [٢] ، وعمل فى بناء المدينة كل يوم عشرة آلاف عامل وألف وخمسمائة دابة ، واستمر العمل فى بنائها حتى نهاية عهد عبدالرحمن الناصر (٣٥٠ هـ) ، وفى عهد ابنه الحكم المستنصر إلى سنة ٣٦٥ هـ ، أى نحوا من أربعين سنة [٣] .

بنيت الزهراء على سفح جبل العروس ، وكانت تشتمل على ثلاث مدن متدرجة فى البناء . كما يتبين ذلك من عبارة الادريسى » [٤] حيث يقول : « وهى فى ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينه فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازى الجزء الأوسط ، وسطح الثلث الأعلى يوازى على الثلث الأسفل ، ولكل ثلث منها سور ؛ فكان الجزء الأعلى منها قصورا يقصر الوصف على صفاتها ، والجزء الأوسط لبساتين وروضات والجزء الثالث الديار والجامع » .

بدأ الناصر ببناء قصره ، مقتديا فى ذلك بجده الأمير محمد وأبيه عبدالرحمن الأوسط وجده الحكم ، الذين شيدوا قصورهم الفخمة ، كالمجلس الزاهر ، والبهو الكامل ، والقصر المنيف . فبنى الناصر إلى جانب المجلس الزاهر قصره العظيم الذى سماه « دار الروضة » ؛ ثم اختط مدينة الزهراء الذى اتخذها دارا لاقامته ، وكرسيا لخلافته ، وبنى فيها دورا فسيحة للحيوان ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، ودارا لصناعة آلات الحرب ، والحلى للزينة [٥] .

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٩ .

(٢) السارية هى الأسطوانة أو العمود . ذكر المقرى فى كتاب أزهار الرياض فى أخبار عياض (طبعة الأستاذ السقا وآخرين جـ ٢ ص ٢٧٠) أن عدد السوارى المجلوبة من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية ، ومن بلاد الأفرنج تسع عشرة سارية ، وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية ، وسائرها من مقاطع الأندلس : طركونة وغيرها . فالرخام المجزع من رية ، والأبيض من غيرها ، والوردى والأخضر من إفريقية من كنيسة سفاقس .

(٣) ذكر المقرى (نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٩) أن الناصر كان ينفق على بناء مدينة الزهراء ثلثمائة ألف دينار مدة خمس وعشرين سنة ، أى سبعة ملايين ونصف مليون دينار فى مثل هذه المدة عدا ما أنفقه ابنه الحكم من بعده مدة خمس عشرة سنة .

(٤) صفه المغرب وأرض السودان ومصر والمغرب ص ٢١٢ .

(٥) ابن خلدون : كتاب العبر جـ ٤ ص ١٤٤ .

وقد ذكر المؤرخون أن حيطان قصر الزهراء كانت من الذهب والرخام السميك الصافى ، وأن قرامده من الذهب والفضة ، ووضعت فى وسط المجلس « اليتيمة » التى أهداها إياه إمبراطور القسطنطينية . وفى وسط هذا القصر صهريج عظيم مملوء بالزئبق وفى كل من جوانب القصر ثمانية أبواب ، انعقدت فى حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجواهر ، القائمة على ساريات من الرخام الملون والبلور الصافى . «وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب ، فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار . وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه ، أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لكل من فى المجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك ، وقيل إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس » (١) .

ومن عجائب قصر الزهراء الحوض المنقوش المذهب الذى جلب من القسطنطينية ، والحوض الصغير الأخضر (٢) المنقوش بتماثيل الإنسان . « وقالوا لا قيمة له لفرط غرابته وجماله ، وحمل من مكان إلى مكان حتى وصل إلى البحر . ونصبه الناصر فى بيت المنام ، فى المجلس المستشرف الشرقى المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالى ، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد إلى جانبه صورة غزال ، إلى جانبه صورة تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب . وفى المجنبتين حمامة ، وشاهين ، وطاووس ، ودجاجة ، وديك . . . وكل هذا من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها . وكان المتولى لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم ، لم يتكل الناصر على أمين غيره . وكان يخبز كل يوم برسم حيتان البحيرة ثمانمائة خبزة (وقيل أكثر) ، إلى غير ذلك مما يطول تتبعه » (٣) .

وقد أطنب المؤرخون والرحالة فى وصف قصر الزهراء ، فقال المقرى (٤) : « إنه لم يبن مثله فى الإسلام البتة . . ولو لم يكن فيه إن السطح الممرد المشرف على الروضة ، المباهى بمجلس الذهب والقبة ، وعجائب ما تضمنته من إتقان الصنعة وفخامة الهمة ، وحسن

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٠ ، ٢٥٦ .
(٢) وقد جلب من الشام ، وقيل من القسطنطينية .
(٣) المقرى : أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٧٠ — ٢٧١ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .
(٤) أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

المستشرف (المنظر) ، وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب موضون ، وعمد كأنما أفرغت فى القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة ، وحياض وتماثيل مجيبة الأشخاص ، لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها » .

وعلى الرغم من أن مدينة الزهراء لا تبعد كثيرا عن قرطبة ،أراد الناصر أن يستكمل مدينته الجديدة ببناء مسجد جامع فيها . ولا غرو فإن المسجد لم يكن مكاناً للعبادة فحسب ، بل كان أيضاً مركز الحركة السياسية والاجتماعية ، ومعهدا يجتمع فيه علماء التفسير والحديث وغيرهم .

ويعد مسجد الزهراء من آيات الفن الإسلامى ، وقد عمل فى بنائه ألف رجل فى اليوم : منهم ثلثمائة بناء ، ومائتا نجار ، وخمسمائة من الصناع والفعلة . وطول المسجد من القبلة إلى الجوف (١) ، سوى المحراب ، سبع وثلاثون ذراعا ، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسع وخمسون ذراعا . وأقيم فى المسجد منبر حوله مقصورة بديعة . وفرش بالرخام الحرى ، وأقيمت فى وسطه فوارة يجرى فيها الماء . وقد بناه الحكم ابن الناصر ، وتم بناؤه فى شهر شعبان سنة ٣٢٩ هـ (٢) .

رأى الناصر أنه إذا انخفض ماء نهر الوادى الكبير الذى تقع عليه قرطبة والزهراء ، أصبح هذا الماء لا يصلح للشرب ، فحفر قناة تمر بالجبل طولها ثمانون كيلومترا ، وفى سنة ٣٢٩ هـ تم بنـــاء هذه القناة الغريبة الصنعة التى لا تزال آثارها الهندسية باقية إلى الآن (٣) .

وقد أطنب المؤرخون والرحالة فى وصف مدينة الزهراء ، وجداولها المتدفقة ، وبساتينها النضرة ، ومبانيها الفخمة ، وقصورها الجميلة ، ودور الموظفين ورجال البلاط وثكنات الجند ، وغلمان الصقالبة الذين كانوا يغدون ويروحون فى شوارعها الواسعة بسراويلهم الحريرية الخالصة أو الموشاة بالذهب والفضة ، وجماعة القضاة والفقهاء والشعراء الذين يسيرون فى جد ورزانة فى ردهات القصر الفخمة وأبهائه الفسيحة (٤) .

---

(١) الفضاء المتسع غير المسقوف الذى يسمى الصحن .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٨ ، أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .

(٣) المقرى : أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(٤) Stanley Lane — poole : The moors in spain, pp. 140 — 141.

وإن هذا العمل الذى يشهد لأمويى الأندلس بالبراعة فى الهندسة والبناء كلف الناصر أموالا ضخمة ، حتى قيل إنه خصص ثلث خراج دولته فى بناء هذه المدينة (١) ، وإنه لقى معارضة قوية تزعمها رجل اشتهر بالورع والتقوى والتفقه فى الدين ، هو المنذر بن سعيد البلوطى الذى ولاه الناصر إمامة الصلاة بقرطبة والزهراء بعد أن تم بناء مسجدها . وقد تحلى هذا الإمام بالشجاعة التى جعلته ينقد تصرف الخليفة متهما إياه بأنه بذل الأموال الضخمة فى بناء المدينة مما شغله عن مباشرة أمور الدولة .

على أن هذه المدينة لم تعمر طويلا ، بل ذبلت ودكت معالمها حين ولى الحجابة عبدالرحمن بن المنصور ابن أبى عامر الحاجب ، ويلقب بشنجول (٢) . ففى سنة ٣٩٩ هـ خلع الخليفة المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن ، وتقلد الخلافة من بعده محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبد الرحمن الناصر . وهدم مدينة الزهراء ، واتخذ قرطبة حاضرة لخلافته (٣) .

ولم يقتصر بناء المدن على الخلفاء ، بل تعداه إلى الوزراء،فقد بنى المنصور بن أبى عامر الحاجب مدينته الزاهرة بضواحى قرطبة وشيد فيها قصرا فخما . وفى سنة سبعين وثلثمائة انتقل إليها المنصور واتخذ فيها الدواوين والأعمال ، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه ، فابتنوا بها الدور والقصور ، واتخذا خلالها الضياع .وقامت بها الأسواق وكثرت بها الأرفاق (٤) . وتنافس الناس بالنزول فى أرباضها التى اتصلت بأرباض قرطبة (٥) .

---

(١) المقرى : أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٦٩ — ٢٧١ .

(٢) شنجول تصغير شانجة ملك قشتالة الذى أهدى ابنته إلى المنصور فتزوجها وأنجب منها ولده عبدالرحمن الذى عرف باسم شنجول نسبة إلى جده لأمه .

(٣) قال ابن خلدون (العبر جـ ٤ ص ١٤٩ — ١٥٠) انه تلقب الناصر لدين الله ، وحجر على الخليفة هشام ، وطلب منه أن يوليه عهده ، وأحضر أهل الحل والعقد وكتب عهده ، ولكن العامة غضبوا على عبدالرحمن لتعديه على حرمة الخلافة ، وخرج عليه محمد بن هشام بن عبدالجبار بن الناصر فى سنة ٣٩٩ هـ ، وتلقب المهدى ، وخلع هشاما وحبسه ، وأسر شنجول وقتل .

(٤) الأعمال ووجوه الرزق .

(٥) المقرى : نفح الطيب جـ ص ٢٧٥ .

الباب العاشر

الحالة الاجتماعية

١ — طبقات الشعب

(ا) فى عهد العباسيين :

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أنه يقصد بالحالة الاجتماعية فى بلد من البلاد، ذكر طبقات المجتمع فى هذا البلد من حيث الجنس والدين ، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض ، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها ، وما يتمتع به كل منهم من الحرية ، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء ، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات وأماكن النزهة، ووصف المنازل وما فيها من أثاث وشراب ولباس ، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع .

كان الشعب فى أواخر العصر العباسى الأول يتألف من عدة عناصر ، هى العرب والفرس والمغاربة . وقد ظهر العنصر التركى على مسرح السياسة فى عهد الخليفة المعتصم الذى اتخذهم حرساً له ، وأسند إليهم مناصب الدولة العالية ، وأهمل العرب والفرس ، فأصبح الأتراك خطرا يهدد حياة الخلفاء أنفسهم ، حتى إن كثيرين من هؤلاء الخلفاء ذهبوا ضحية تآمرهم ، على أن بعض الخلفاء أدركوا خطر هذا العنصر ، فاستعانوا بالمغاربة والفراغنة . وغيرهم من الجنود المرتزقة ، كالأكراد والقرامطة الذين بدأت الدولة العباسية تستعين بهم منذ أيام الخليفة الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) . إلا أن الخلفاء العباسيين لم يسلموا من خطر هذه العناصر التى كانت تنضم إلى أمراء الأمراء تارة ، وإلى الخلفاء أخرى .

ولما انتقلت السلطة إلى بنى بويه قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين كان البويهيون ينتسبون إليهم ويعتمدون عليهم فى إقرار نفوذهم . ووقع بنو بويه فيما وقع فيه العباسيون من قبل ، وأصبح الديلم خطرا يهدد كيان الدولة العباسية بسبب قيام المنافسة بينهم وبين الأتراك ، واستعانة البويهيين بهؤلاء تارة وأولئك تارة أخرى . وقد أدرك معز الدولة

هذا الخطر فأوصى ابنه بختيار بمداراة الديلم والتودد إلى الأتراك . ولكن بختيار ، على الرغم من استعانته بالأتراك ، لم يسلم من شرهم . فعزلوه وانضموا إلى ابن عمه عضد الدولة، ومهما يكن من شيء فقد كان الجيش فى عصر بنى بويه يتألف من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراغنة وغيرهم من المرتزقة .

كان من أثر انقسام المسلمين فى هذا العصر إلى شيع وطوائف أن تعرض المجتمع الإسلامى إلى التفكك والتنازع : فهناك السنيون الذين كانوا يكونون السواد الأعظم ويتمتعون بقسط وافر من الحرية والطمأنينة فى عهد نفوذ الأتراك وفى عهد إمرة الأمراء، وهناك الشيعيون الذين قاسوا كثيراً من العنت والاضطهاد ، حتى استولى بنو بويه على العراق ، فتمتعوا بشيء غير قليل من الطمأنينة فى ظل هؤلاء البويهيين المتشيعين . ومن ثم قامت المنازعات بين الشيعيين والسنيين ، فضرب يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب وحبس فى بغداد سنة ٢٣٥ هـ(١). ولم ينج من عنت هذا الخليفة إلا العلويون الذين لجئوا إلى مصر . ومع ذلك أمر هذا الخليفة واليه على هذه البلاد بإخراج العلويين من مصر إلى العراق ، ثم أمر بإرسالهم إلى المدينة ، على أن يحيى بن عمر العلوى لم يلبث أن خرج على الدولة العباسية ، ولكنه قتل فى عهد المستعين سنة ٢٥٠ هـ (٢) . كذلك ثار بطبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، واستولى عليها وعلى جرجان ، وحكم هذه البلاد عشرين سنة (٢٥٠ — ٢٧٠ هـ) إلى أن مات ، فخلفه أخوه ؛ وكانا يدعوان إلى الرضا من آل محمد ، ثم خلفه الحسن بن على الحسنى المعروف بالأطروش (٣) .

بيد أن الشيعيين انتعشوا فى عهد بنى بويه ، وأصبحوا يقيمون شعائرهم فى شيء كثير من الطمأنينة ، وإن كانت مساكنهم لم تتعد المكان المحيط بسوق الكرخ غربى بغداد إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى . وفى سنة ٣٤٩ هـ قامت فتنة بين العامة ببغداد ، وتعطلت صلاة الجمعة فى مساجد السنيين على حين أقيمت فى مسجد براثا الشيعى ، ولم تلبث هذه الفتنة أن سكنت باعتقال معز الدولة جماعة من السنيين . وفى السنة التالية احتفل الشيعيون بيوم عاشوراء الذى جعلوه من أيام الحزن عندهم (٤) .

---

(١) الطبرى جـ١١ ص ٤٢ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠٩ — ٤١٥ ، ٤٧٤ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤١٣ — ٤١٤ . (٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٢٣ .

وفى الثامن عشر من شهر ذى الحجة من هذه السنة احتفل الشيعيون بيوم غدير خم ، وأمر معز الدولة بإظهار الزينة فى بغداد فرحا بعيد الغدير ، وضربت الدبادب والبوقات(١).

ولم يكن هذا الاختلاف قائماً بين السنيين والشيعيين وحدهم ، بل تعداه إلى بعض السنيين وبعض . فقد رأينا أن الحنابلة أصبحوا قوة يخشى بأسها ، حتى إنهم حالوا دون دفن محمد بن جرير الطبرى سنة ٣١٠ هـ ، لأنه جمع كتابا فى اختلاف الفقهاء لم يذكر فيه أحمد بن حنبل من بين هؤلاء الفقهاء (٢) ؛ كما رأينا كيف بلغ من تشددهم فى الدين أن قاموا فى وجه ذوى اليسار وكسروا أوانى الخمر وحطموا الآلات الموسيقية وضربوا المغنيين(٣) ذكر السيوطى (٤) أن الحنابلة ثاروا ببغداد سنة ٣١٨ هـ ، لاختلافهم مع غيرهم من السنيين فى تفسير قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً (٥)) ، فقال الحنابلة إن المقصود من هذه الآية أن يقعد الله نبيه على عرشه ، وقال غيرهم بل هى الشفاعة ، واحتدم الجدل بسبب ذلك واقتتل الحنابلة مع خصومهم (٦) .

ومن طبقات الشعب طبقة الرقيق ، وكانت مصر وشمال إفريقية وشمال جزيرة العرب من أهم أسواق الرقيق الأسود ، وقد جلب إلى العراق كثير من الزنجيات اللاتى عرفن بكثرة النسل ، كما جلب كثير من الزنج لفلاحة الأرض وحراسة الدور . وكثر الزنج فى العراق ، وأدت كثرتهم إلى قيام ثورة الزنج الخطيرة التى دامت أكثر من أربع عشر سنة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، وكلفت الدولة العباسية كثيراً من الأموال والدماء .

وقد كثر شراء الرقيقات اللاتى أصبح منهن المغنيات وارتفع ثمنهن . وقد قيل إن ابن رائق اشترى حول سنة ٣٢٥ هـ جارية مولدة سمراء موصوفة بحسن الغناء بأربعة آلاف دينار (٧) ، وارتفع ثمن الرقيق الأبيض بسبب انقطاع عبيد الأندلس فى القرن الرابع الهجرى وتخريب الثغور الغربية ، وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقى من الرقيق وهو بيزنطة وأرمينية (٨) .

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٩٧ .
(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ٤٥ — ٤٦ .
(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٠٦ — ١٠٧ .
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٥ .
(٥) سورة الأسرى آية رقم ٧٩ .
(٦) راجع كتاب الخليفة الراضى إلى الحنابلة فى مسكوية : تجارب الأمم جـ ١ ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .
(٧) الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ١٠١ .
(٨) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٤٢ .

ومن الرقيق الأبيض الذين كانوا يسمون العلماء ، الأتراك والديلم والأكراد الذين قاموا بدور هام فى السياسة والحرب فى هذا العصر . وكانوا يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى الأول ، إذ كان اتخاذ الرقيق منتشراً انتشاراً كبيراً . وكانت سمرقند ، التى كانت تعد من أكبر أسواق الرقيق ، بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر ، كما كان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها (١) . ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة ازدراء ، لأن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق ، وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب ، حتى إنهم كانوا يفضلونهم أحيانا على العربيات الحواثر .

ومن طبقات الشعب فى ذلك العصر أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود . وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الدينى ويقيمون شعائرهم الدينية فى أمن ودعة . وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعا من التسامح . ولم تتدخل الحكومة الإسلامية فى شعائر أهل الذمة ، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضروا مواكبهم وأعيادهم ويأمروا بحمايتهم .

وكان للنصارى بطريق يعينه الخليفة بعهد خاص كما يعهد لكبار العمال ، ويطلق عليه الجاثليق النسطورى أى رئيس المسيحيين الشرقيين ، وكان يتمتع بنفوذ كبير بين أبناء ملته (٢) ، وكذلك عومل بطريق اليعاقبة (٣) .

وكان لليهود رئيس خاص يلقب أحيانا بلقب الملك ، ويدفع له أهل ملته الضرائب ، فيأخذ نصفها ويرسل النصف الآخر إلى بيت المال ، بخلاف ما كانت عليه الحال بالنسبة إلى النصارى الذين كانوا يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة . ويطلق على رئيس اليهود ببغداد رأس الجالوت ، وقد امتد نفوذه على اليهود المقيمين فى البلاد الواقعة شرقى الفرات ؛ وبلغ عدد اليهود بالعراق وحدها ٦٠٠ر٠٠٠ . وكلما تقدمنا شرقا زاد عدد اليهود : ففى همذان مثلا بلغ عددهم ثلاثين ألفا ، وفى أصبهان خمسة عشر ألفا ، وفى شيراز عشرة آلاف ، وفى غزنة ثمانين ألفا ، وفى سمرقند ثلاثين ألفا ، ويظهر أن عددهم كان ضئيلا فى بلاد الشام ،

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ٢٦٨ .

(٢) متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٥٨ — ٥٩ .

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٦٠ ، راجع نسخة الجاثليق فى تذكرة ابن حمدون التى نشرها أمدروز سيوبة الملكية سنة ١٩٠٨ ص ٤٦٧ وما يليها .

وخاصة فى أثناء الحروب الصليبية ، حتى إن عددهم فى الحى الخاص بهم فى بيت المقدس لم يجاوز أربعة أنفس أو مائتين على ما ذكره بنيامين ، أو شخص واحد على ما ذكره بتاحيا . أما فى دمشق فقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف ، وفى حلب خمسة آلاف (١) ،ويقول المقدسى (٢) إنه كان بخراسان « يهود كثيرة ونصارى قليلة » ، ويقول على بلاد الجبل : « واليهود به أكثر من النصارى (٣) » .

وفى القرن الرابع الهجرى اعترفت الدولة العباسية بالمجوس الذين لم يكن قدتم التغلب عليهم فى البلاد البعيدة ، لتمسكهم بدينهم وتقاليدهم وكراهتهم للاسلام بأنهم أهل ذمة .وكان لهم ـ كما كان لليهود ـ رئيس دينى يلقب بألقاب الملوك، يدفع له أبناء نحلته الضرائب كما يفعل اليهود(٤)،وكان منصبه وراثيا وقد كثر عدد المجوس فى القرن الرابع فى العراق وجنوبى فارس(٥).

(ب) فى عهد الفاطميين :

وكان الشعب المصرى فى عهد الفاطميين يتكون من أهل السنة الذين كانوا منذ أيام الطولونيين ، يكونون السواد الأعظم من المصريين . وكانوا يختلفون مع الشيعيين أنصار الفاطميين ، الذين لم يدخروا وسعا فى نشر مذهبهم فى المساجد والقصور وفى دور العلم وغيرها . وقد فعلت هذه السياسة فعلها فى النفوس ، فتحول كثير من السنيين إلى المذهب الفاطمى رغبة فى الهبات والعطايا والمناصب ، واضطر كثير من الموظفين من أهل السنة إلى التحول إلى المذهب الفاطمى ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب .

أما الطبقة الثانية فهى طبقة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم فى بلاد المغرب ثم فى مصر ، وكان الفاطميون يعتمدون عليهم فى جيوشهم ، وخاصة الكتاميين الذين كانوا عصب الدولة الفاطمية وقوتها فى مصر .

والطبقة الثالثة هى طبقة أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود ، وقد دفعت رغبة كثير منهم فى الحصول على الهبات والعطايا والمناصب إلى اعتناق المذهب الإسماعيلى لأغراض مادية. وقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، فتقلدوا أرقى المناصب فى عهد الخليفة العزيز . وشغلوا فى عهد المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية فى الدولة ، بل تقلدوا الوزارة أيضا .

---

(١) متز :الحضارة الإسلامية جـ ١ ص٦٠ — ٦٢ (٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص٣٢٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٩٤ . (٤) متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٥٨ .
(٥) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص١٢٦ .

والطبقة الرابعة هى طبقة الأتراك الذين كثر عددهم منذ أيام الدولة الطولونية . فقد استعان أحمد بن طولون ، وكان تركيا من بلاد ماوراء النهر ، بعدد كبير من هؤلاء الأتراك وظهر أمر الأتراك فى مصر فى عهد الحاكم حين بالغ ابن عمار فى محاباة المغاربة .

والطبقة الخامسة هى طبقة السودانيين الذين كثر عددهم فى مصر منذ عهد كافور الإخشيد ، وظهر أمرهم فى أيام الخليفة الحاكم الذى استعان بهم على الأتراك ، فأحرقوا القاهرة حنقا منهم على المصريين الذين لم يرضوا عن سياسته المضطربة . وقد ظهر أمر هؤلاء السودانيين من جديد فى أيام الخليفة الظاهر الذى تزوج بسيدة سودانية ، ثم تفاقم خطرهم فى عهد ابنه المستنصر .

(ح) فى عهد الامويين بالاندلس :

وكان الشعب فى بلاد الأندلس يتألف من عدة عناصر ، من بينها المسلمون من العرب والبربر الذين ساهموا فى فتح هذه البلاد بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير ، ومن مسيحي الأندلس من الأسبان الذين دخلوا فى الإسلام بعد الفتح .

أما العرب فقد نزل كثير من القبائل الجنوبية أو اليمنيين والقبائل الشمالية أو المضريين ، وسكنوا فى أماكن كثيرة ، ونزل كثير من المضريين فى طليطلة وسرقسطة وإشبيلية وبلنسية وغيرها ، كما نزل اليمنيون بغرناطة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وبطليوس .

وعلى الرغم من أن البربر قد أبلوا بقيادة طارق بن زياد البلاء الحسن فى فتح بلاد الأندلس وتحملوا أكثر أعباء هذا الفتح ، نرى العرب يحرمونهم ثمار فتوحهم وينزلونهم لأقاليم الجبلية الوعرة المجدبة فى الشمال ، حيث استهدفوا لخطر حملات المسيحيين الذين أقاموا فى الأماكن الحصينة ، على حين نعم العرب بالوديان الخصبة البعيدة عن خطر عصابات المسيحيين . لهذا ثارت ثائرة البربر واستعرت حفائظهم على العرب (١) وأخذوا يناصبونهم العداء كما كانوا يناصبون العرب والروم من قبلهم فى بلاد المغرب .

ولكن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) استطاع أن يرغم البربر على الطاعة وأن يعيد وحدة البلاد . ولم يستطع هؤلاء البربر الظهور إلا بعد وفاة المنصور بن أبى عامر (٣٩٣ هـ) ، حيث غدت بلاد الأندلس مسرحا لفوضى القوى المتعادية المتنافسة ، ومن بينها

---

(١) Lane — Poole : The Moors in Spain, pp . 53 - 5

البربر الذين اعتمد عليهم المنصور فى تحقيق سياسته حتى أصبحوا خطرا يهدد كيان الدولة(١) وبعد وفاة الحاجب المنصور انفض هؤلاء البربر من حول أخيه عبد الرحمن وقتلوه وأزالوا دولة العامريين(٢) ، وساعدوا أفراد البيت الأموى بعضهم على بعض لذلك نرى البربر يلتفون حول محمد بن هشام (بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر) الذى تلقب بالمهدى ويساعدونه فى الحروب التى قامت بينه وبين هشام بن سليمان (بن عبد الرحمن الناصر) . ولما وجد محمد بن هشام حنق أهل قرطبة على البربر لمناصرتهم المنصور بن أبى عامر وأولاده طردهم من جيشه وجردهم من سلاحهم(٣) وقد تخلى البربر عن المهدى وناصروا هشام بن سليمان شوال سنة ٣٩٩ هـ) وحثوه على الخروج على طاعة المهدى . ولكن أهل قرطبة فتكوا بهم فتكا ذريعا وقتلوا منهم خلقا كثيرا لذلك ساعد البربر سليمان بن الحكم ولقبوه المستعين بالله ، وساروا معه إلى قرطبة التى أصبحت مسرحا للفوضى والنهب والإحراق ، حتى دخلها سليمان سنة ٤٠٠ هـ ، وفر المهدى ، واستعان بالنصارى على طرد البربر والمستعين ، وتم لهم ما أرادوا ، وأدى ذلك إلى تفريق كلمة المسلمين وظهور ملوك الطوائف ، وقامت دولة بنى حمود بمساعدة البربر على ما تقدم .

أما المسيحيون فكانوا فريقين : فريق بقى متمسكا بدينه القديم ، وفريق آخر عرف باسم المستعربين. وعلى الرغم من أنهم ظلوا على عقيدتهم الأولى ، أظهروا ميلهم إلى تعلم اللغة العربية ، فتكلموا بها ، وألفوا الكتب ، ونظموا الشعر ، وتخلقوا بأخلاق العرب وعاداتهم . وكان يحكمهم حاكم من بينهم يسمى الكونت يختاره الأمير أو الخليفة ، ولهم ممثل يمثلهم فى البلاط وآخر يقوم بجمع الخراج كما كان ولهم قاض منهم ومحكمة استئنافية برياسة الكونت وكثيرا ما كان هؤلاء المسيحيون يعينون فى أرقى المناصب المدنية والحربية ويتمتعون بقسط وافر من التسامح الدينى ، ويختطلون بإخوانهم فى حرية تامة .

وقد تمتع اليهود فى هذا العصر بشىء كثير من التسامح الدينى الذى لم يظفروا به تحت حكم القوط ولا غرو فقد أسند إليهم كثير من مناصب الدولة ، وأصبح بعض الحرف ، خاصة الطب ، مقصورا عليهم ، وغدوا عنصرا هاما فى الإدارة والتجارة والثقافة وأضحت قرطبة مركز الدراسات العبرية ، وأصبح كثير من اليهود يتحدثون باللغة العربية الصحيحة ويكتبون بها .

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٣ ص ١٥٠ .
(٢) ابن خلدون جـ ٤ ص ١٤٩ — ١٥٠ .
(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ٨٤ .

وكان لليهود ، كما كان للمسيحيين ، نظام إدارى خاص بهم . وقد ذكر الادريسى[1] أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلا جنوبى قرطبة وأنهم كانوا « يسكنون بجوف المدينة ولا يداخلهم فيها مسلم البتة ؛ وأهلها أغنياء مياسير أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين » . وليس أدل على مابلغه اليهود فى عهد الامويين بالاندلس من نفوذ من اختيار حسداى بن شبروط اليهودى لاستقبال سفراء الدول الذين كانوا يفدون على البلاط الأموى فى هذه البلاد . وقد قام حسداى هذا بدور هام فى البعثة التى أوفدها قسطنطين الثانى إمبراطور الدولة البيزنطية إلى عبد الرحمن الناصر ، وفى البعثة التى أوفدها أوتو إمبراطور ألمانيا ، كما أسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية طيبة لدى ملكة نافار .

ومن أهم طبقات الشعب فى الأندلس « الصقالبة » الذين قربهم عبد الرحمن الناصر إليه بعد أن رأى أن روح العصبية العربية كانت مثار النزاع والانقسام ، فتخلص من العرب واعتمد على جماعة من الارقاء والمماليك الذين اتخذهم حرسا له ، كما اتخذ منهم جنودا يعتمد عليهم فى إذلال العرب وقد ذكر المقرى[2] أن عدد الصقالبة بلغ بقصر الزهراء وحده ٣٧٥٠

ولكن هؤلاء الصقالبة لم يلبثوا أن انضموا إلى الثورات التى قامت بعد موت الحاجب المنصور الذى عمل على القضاء على العرب والصقالبة ، واعتمد على البربر كما تقدم ؛ كما استعان بهم عبد الرحمن الناصر فى حروبه التى شنها على مسيحى الأندلس الشماليين وعلى الفاطميين .

٢ — مجالس الغناء والطرب

(١) فى الدولة العباسية :

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن العباسيين انغمسوا فى الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة ، وأن قصور الخلفاء والامراء وكبار رجال الدولة كانت مضرب المثل فى حسن رونقها وبهائها ، كأنها امتازت بفخامة بنائها واتساعها وما يكنفها من حدائق غناء وأشجار متكاثفة ، كما ازدانت بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والتربيعات المرصعة والمذهبة . وكان العباسيون فى العراق والطولونيون والفاطميون فى مصر والامويين فى

---

(١) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ليدن ١٨٦٦) ص ٢٠٥ .

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٩٦ .

الأندلس ينفقون فى سبيل رفاهيتهم عن سعة ، ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور . لذلك حفلت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بالمغنين والموسيقيين ، وأصبحت مجالسهم آية من آيات الروعة والجمال .

أخذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفرس كما نعلم . وعلى الرغم من ضعف الدولة فى العصر العباسى الثانى ، كان للخلفاء مجالس للطرب والغناء يحضرها الشعراء والأدباء والمغنون والموسيقيون والملهون . وقد ذكر المسعودى (١) أن مجلس المتوكل أول خلفاء العصر العباسى الثانى جمع مرة بين الشعراء والأدباء والملهين . وقد مدح البحترى هذا الخليفة بقصيدة قال فى مطلعها :

عن أى ثغر تبتسم ... وبأى طرف تحتكم ؟
حسن يضىء بحسنه ... والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر الـ ... ـمتوكل بن المعتصم
أما الرعية فهى من ... أمنات عدلك فى حرم

فلما انتهى هذا الشاعر سار القهقرى للانصراف ، فوثب أبو العنبس الصيمرى الشاعر ، فقال : أمير المؤمنين تأمر برده ، فقد والله عارضته فى قصيدته هذه . فأمر برده فأخذه الصيمرى ينشد قصيدة له على مثل قافية البحترى ووزنها يهجوه فيها فقال :

فى أى سلح ترتطم ... وبأى كف تلتقم

ووصل ذلك بما أشبه من الشتم ، فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، وخص برجله اليسرى وقال : يدفع إلى أبى العنبس عشرة آلاف درهم ، فقال الفتح (بن خاقان) : ياسيدى البحترى الذى هجى وأسمع المكروه ينصرف خائباً ! قال : ويدفع إلى البحترى عشرة آلاف درهم . قال : يا سيدى ! فهذا البصرى الذى أشخصناه من بلده لايشركهم فيما حصلوه ؟ قال : ويدفع إليه عشرة آلاف درهم . فانصرفنا كلنا فى شفاعة الهزل ، ولم ينفع البحترى جده واجتهاده وحزمه . ثم قال المتوكل لأبى العنبس : أخبرنى عن حمارك ووفائه وما كان من شعره فى الرؤيا التى رأيتها . قال : نعم يا أمير المؤمنين ، كان أعقل من القضاة ، ولم يكن له جربة ولا زلة ، فاعتل علة على غفلة ومات منها ، فرأيته فيما يرى النائم ، فقلت

---

(١) مروج الذهب (طبعة باريس) جـ ٨ ص ٢٠٢ — ٢٠٦ .

له : يا حمارى ! ألم أبرد لك الماء وأنق لك الشعير ، وأحسن إليك جهدى ؟ فلم مت على غفلة ؟ وما خبرك ؟ قال : نعم ! لما كان فى اليوم الذى وقفت على فلان الصيدلانى تكلمه فى كذا وكذا ، مرت بى أتان حسناء ، فرأيتها ، فأخذت بمجامع قلبى ، فعشقتها ، واشتد وجدى بها ، فمت كمدا متأسفا ، فقلت له : يا حمارى ! هل قلت فى ذلك شعرا ؟ قال : نعم ! وأنشدنى :

هام قلبى بأتان ... عند باب الصيدلانى
تيمتنى بدلال رضا ... بشاياها الحسان
وبخـــدين أسيليـ ... ـن كلون الشقران
وبخـــد ذى دلال ... مثل خد الشنفرانى
فيها مت ولو عشـ ... ـت ، إذا طال هوانى

فقلت : يا حمارى ! فما الشقرانى ؟ قال : هذا من غريب الحمير ، فطرب المتوكل ، وأمر الملهين المغنين أن يغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار ، وفرح ذلك اليوم فرحا شديداً وسر سروراً لم ير مثله ، وزاد فى تكرمة أبى العنبس وجائزته » .

كان الخليفة المعتمد مشغوفا بالطرب والغناء والموسيقى . دخل عليه يوما جماعة من ندمائه فسأل عبدالله بن خرداذبة والد أبى القاسم عبيد الله الجغرافى المشهور صاحب كتاب « المسالك والممالك » عن نشأة الموسيقى والغناء وما طرأ عليهما من تغيير ، فأجاد فى وصفهما فى البلاد الإسلامية منذ أقدم العصور ، فسر المعتمد وقال له : « قد قلت فأحسنت ووصفت فأطنبت ، وأقمت فى هذا اليوم سوقا للغناء وعيدا لأنواع الملاهى ، وإن كلامك لمثل الثوب الوشى ، يجتمع فيه الأحمر والأصفر والأخضر وسائر الألوان » . ثم سأل عن الصفات التى يجب أن تتوافر فى المغنى الحاذق ، فقال له : المغنى الحاذق يا أمير المؤمنين من تمكن من أنفاسه (١) ولطف فى اختلاسه (٢) وتقرع فى أجناسه ، ثم سأله عن أنواع الطرب « قال : على ثلاثة أوجه يا أمير المؤمنين ، وهى طرب محرك مستخف لأريحية (٣) ينعش النفس ودواعى الشيم عند السماع . وطرب شجن وحزن ، لا سيما إذا كان الشعر

---

(١) أى من جمع نفسه لمد الصوت .
(٢) أى اختلس النفس دون أن يشعر الناس به.
(٣) يحرك الارتياح للكرم من كثرة الطرب .

فى وصف أيام الشباب والشوق إلى الأوطان والمرائى لمن عدم من الأحباب ؛ وطرب يكون فى صفاء النفس ولطافة الحس [١] لا سيما عند سماع جودة التأليف وإحكام الصنعة ، إذ كان من لا يعرفه ولا يفهمه ولا يسره ، بل تراه متشاغلا عنه ؛ فذلك كالحجر الجلمد والجماد الصلد . سواء وجوده وعدمه . وقد قال يا أمير المؤمنين جمهور من الفلاسفة المتقدمين وكثير من حكام اليونانيين : من عرضت له آفة فى حاسة الشم كره رائحة الطيب ، ومن غلظ جسمه كره سماع الغناء فتشاغل عنه وعابه وذمه . قال المعتمد : فما منزلة الإيقاع وأنواع الطروق وفنون النغم ؟ : قال : قد قال فى ذلك يا أمير المؤمنين من تقدم ، إن منزلة الإيقاع من الغناء منزلة العروض من الشعر ، وقد أوضحوا الإيقاع ووسموه بسمات ولقبوه بألقاب وهو أربعة أجناس . ثقيل الأول وخفيفه ، وثقيل الثانى وخفيفه ، والرمل الأول وخفيفه ، والهزج وخفيفه » [٢] .

ثم أخذ ابن خرداذبة يصف الإيقاع فى كثير من الإفاضة حتى قال : « فهذه يا أمير المؤمنين جوامع فى صفة الإيقاع ومنتهى حدوده . ففرح المعتمد فى هذا اليوم وخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضر من ندمائه ، وفضله عليهم » .

وللمعتمد مجالس ، قد دونت فى فى أنواع من الأدب ، منها مدح النديم وذكر فضايله ، وذم التفرد بشرب النبيذ وما قيل فى ذلك من النثر والشعر ، وما قيل فى أخلاق النديم وصفاته وأنواع الشرب ، وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه ، وأصول الغناء عند العرب وغيرهم ، وأخبار الأعلام من مشهورى المغنيين المتقدمين والمحدثين ، وهيئة المجالس مراتبهم [٣] .

ولم تقتصر مجالس الغناء ، بل تعدتهم إلى الأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة . فقد وصف المبرد مجلس محمد بن عبدالله بن طاهر بن الحسين [٤] .

وكان انتشار الغناء فى هذا العصر راجعا إلى كثرة الجوارى ، وكان معظم القيان اللاتى يحترفن الغناء ببغداد فى أوائل القرن الرابع الهجرى من الجوارى . وقليل منهن من

---

(١) أى من أنواع الطرب ما هو استجابة للدواعى الفنية وحدها من إحكام صنعة الغناء وجودة الايقاع وحسن تأليف اللحن ، وهذا النوع لا يطرب له الا الفنان القوى الحس .

(٢) المسعودى : مروج الذهب (طبعة باريس) ج ٨ ص ٩٥ ــ ٩٩ .

(٣) المسعودى (طبعة باريس) ج ٢ ص ١٠٠ ــ ١٠٣ .

(٤) المصدر نفسه ج ٧ ص ٤٨٥ ــ ٣٩٣ .

الحرائر[١] وذكر السيوطى[٢] أن الخليفة القاهر أمر فى سنة ٤٢١ هـ بتحريم القيان والخمر وقبض على المغنين وكسر آلات اللهو ، كما فعل الحنابلة فى أوائل هذا القرن ، وأمر ببيع المغنيات من الجوارى على أنهن غير مدربات على الغناء سوادج ومن الغريب أن هذا الخليفة كان مولعا بالشراب وسماع المغنيات .

(ب) فى مصر والاندلس

وقد عنى الطولونيون والفاطميون بالغناء والموسيقى ، يدلنا على ذلك بيت الذهب الذى بناه خمارويه ابن أحمد بن طولون ، واتخذ على حيطانه صورا بارزة من الخشب تمثله وتمثل حظاياه ومغنياته بأشكال بلغت حد الكمال والبهاء ودقة الزخرف . وكان على رءوس تماثيل النساء أكاليل من الذهب الخالص وأكاليل من الكوادن[٣] المرصعة بالجواهر ، وعلى آذانها المثبتة فى الحيطان بمسامير ، أجراس ثقال الوزن محكمة الصنع وقد لونت أجسادها بالأصباغ العجيبة التى تبدو للرائى كأنها ثياب حقيقية وذكر المقريزى[٤] أيضا أن خمارويه كان إذا جلس لسماع الغناء وسمع المكبرين يكبرون ، أمر المغنيات بوقف الغناء ، وأخذ يسمع أصوات المكبرين فى سكون وخشوع . وذكر المقريزى فى مكان آخر[٥] أن الخليفة الحاكم الفاطمى أصدر بين سنتى ٣٩٨ ، ٤٠١ هـ قوانين تحرم الاجتماعات للهو واللعب على شواطىء الخليج . كما حرم فتح الأبواب والنوافذ على هذه الشواطىء وقد تلت هذه القوانين قوانين أخرى تمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها ، وتمنع البعض الآخر سماع المغنيات . يقول ابن خلكان[٦] إن النساء قبعن فى بيوتهن سبع سنين حتى ولى الخلافة الظاهر بن الحاكم . وقد ذكر المؤرخون أن البساسيرى لما أقام الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر فى بغداد ، أشادت إحدى المغنيات بهذا الحادث وغنت فى حضرة الخليفة الفاطمى هذين البيتين :

---

(١) متز : ج ١ ص ٢٩٥ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧ .

(٣) لعلها جمع كدن ، وهو — كما فى القاموس المحيط — ثوب للخدر (المنزل) أو ثوب توطىء به المرأة فى الهودج ، ويتعين أن يكون المراد به هنا ثوب الخدر ، وهو أشبه بالطرحة اليوم .

(٤) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣١٦ — ٣١٧ .

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ، حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٣٢٨

(٦) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٧ .

يابنى العباس صدوا ملك الأمر معـــد
ملـككم كان معارا والعوارى تســترد

فطرب الخليفة وأقطعها أرضـا لاتزال تعرف إلى اليوم فى مدينة القاهرة باسم أرض الطبالة.

وقد أولع أمويو الأندلس بالغناء والموسيقى ، وأجزلوا العطاء للمغنين والموسيقيين . وقد قيل إن علون وزرقون كانا أول من دخل هذه البلاد من المغنين ، وذلك فى عهد الحكم ابن هشام (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) ، الذى اشتهر بالغناء فى زمانه منصور اليهودى . وفى عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) وفد على الأندلس أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب[1] . وقد روى المقرى قصة هذا المغنى ، وكيف تفوق على أستاذه إسحاق ابن إبراهيم الموصلى الذى خيره بين الموت والنفى ، وكيف رحل إلى قرطبة فقربه عبد الرحمن إليه وأجزل له العطاء ، وكيف أصبح لفن الغناء على يديه مكان ملحوظ بين الفنون فى هذه البلاد ، على ما ذكرناه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

(ا) فى الدولة العباسية:

اتخذت دور بغداد وسامرا وغيرهما من أمهات المدن فى هذا العصر على مثال دور الفرس والروم ، وكانت مبنية بالآجر ومغطاة بالكلس . وتنقسم دور الأغنياء ثلاثة أقسام هى : مقاصير الحرم ، وحجرات الخدم ، ومجالس السلام الخاصة بالضيافة . ويحيط بها حدائق غناء تزرع فيها الفاكهة والرياحين . وقد حليت جدرانها وسقوفها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة ، وزينت أسطحها بالقباب المرفوعة على عمد دقيقة تظهر للعين كأنها معلقة فى الفضاء . ويحيط بكل دار سور واحد . أما دور العامة فلم يكن لها أسوار يحيط بها ، وإنما كانت نوافذها تطل على الشوارع ، حتى إن المار ليستطيع أن يرى من بداخلها .

وكانت قصور الخلفاء تشتمل على دور واسعة ، وقباب وأروقة وبساتين ومسطحات

---

(١) اطلق عليه هذا اللقب لسواد لونه وفصاحة لسانه تشبيها له بطائر أسود حسن الصوت .

مظللة بالأشجار . وكانت الأروقة تسمى بالأربعينى أو الستينى أوالتسعينى ، على قدر الغلمان الذين يجتمعون فى كل منها .

وقد ابتدع المتوكل — كما رأينا — نوعا من القصور يسمى الحيرى ، ينقسم ثلاثة أقسام : أوسطها الباب الأكبر ، وإلى جانبيه البابان الصغيران . وكان هذا الخليفة يتخذ فى طريق الوصول إلى قصوره ثلاثة أبواب ضخمة يدخل منها الفارس برمحه ، وحذاالناس حذو المتوكل فى هذا النوع من البناء . ومن أشهر هذه القصور « قصر التاج » الذى وضع أساسه الخليفة المعتضد فى الجانب الشرقى من دجلة على مقربة من القصر الحسنى الذى كانت تقيم فيه بوران بنت الحسن بن سهل وزوج الخليفة المأمون ، ثم أتمه الخليفة المكتفى . ويقول ياقوت[1] إن واجهة قصر التاج كانت على خمسة عقود أقيم كل عقدعلى عشرة أساطين من الرخام .

وكانت قصور الخلفاءأشبه بمدن كبيرة لاتساعها : تشتملعلى دور وبساتينومسطحات تظللها الأشجار ، كما كانت تشتمل على قاعات ذات قباب وأروقة . ويزيد فى جمال هذه القصور البرك والأنهار الجارية ، وقد رأينا أن الخليفة القادر كان يجلس فى قصره المعروف ببيت الرصاص « وبين يديه نهر يجرى الماء فيه إلى دجلة »[2] :

ومن أحسن البساتين التى كانت تلحق بقصور الخلفاء بستان القاهر المعروف ببستان النارنج الذى وصفه المسعودى[3] فقال : وكان للقاهر . . . بستان من ريحان ، وغرس من النارنج ، قد حمل إليه من البصرة وعمان مماحمل منأرض الهند ، قد اشتبكتأشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من أحمر وأصفر وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر . وقد جعل مع ذلك فى الصحن أنواع الأطيار من القمارى والدباسى والشحارير[4]والببغاء ، مما قد جلب إليه من الممالك والأمصار ، وكان فى غاية الحسن » .

(ب) فى مصر :

وقد تأثر الطولونيون فى تشييد قصورهم بالبناء الحيرى ، فبنى أحمد بن طولون قصره

---

(١) أنظر لفظ « التاج » فى معجم البلدان .
(٢) هلال الصابى : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٤٢٠ .
(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٥٢٨ .
(٤) هذه كلها انواع من الحمام .

على مثال قصور الخلافة العباسية . ولما ولى ابنه خمارويه انتقل إلى قصر أبيه ، وزاد فيه ، وحول الميدان الفسيح الذى كان أمام القصر إلى بستان غرس فيه الرياحين على اختلافها ، والشجر بأنواعه الكثيرة ، ونقل إليه الودى[1] المختلف طولا وقصرا ، يتناول من ثمره القائم والجالس . وأمر خمارويه ، فحمل إلى هذا البستان أصناف الشجر المطعم وأنواع الورد ، وزرع فيه الزعفران .

ومما زاده خمارويه فى هذا القصر « بيت الذهب » ، وكان من أعجب مبانى الدنيا . وهو إيوان فسيح يتصل برواق رحب ، طليت حيطانه بالذهب المحلول باللازورد ، ويمتاز بحسن النقش وجمال التنسيق . وكذلك بنى خمارويه فى هذا القصر بيتا أطلق عليه «الدكة» على مثال قبة الهواء التى بناها حاتم بن هرثمة عامل الأمين العباسى فى مصر على جبل المقطم حيث قلعة الجبل الآن وكان خمارويه ومن أتى بعده من الأمراء يختافون إلى هذه الدكة طلبا للراحة وتبديل الهواء[2] . وقد وضعت فيها الستائر لتقى الجالسين من الحر والبرد بحيث ترفع وتخفض عند الحاجة ، وفرشت أرضها بفاخر الفرش ، واتخذ لكل فصل من الفصول فرش يناسبه . وكان خمارويه يجلس فى هذا المكان حيث يشرف على مافى قصره وبستانه ، فيشاهد النيل والجبل والصحراء وكافة جهات مدينة القطائع[3] .

ومن أشهر القصور فى عهد الإخشيديين قصر المختار الذى بناه محمد بن طغج الإخشيد فى جزيرة الروضة ، كما اتخذ بستانا عرف فيما بعد بالبستان الكافورى ، لأن كافورا اتخذه مكانا للتنزه فى أيام الجمعة والأحد والثلاثاء ، فنسب إليه .

تنزه محمد بن طغج الإخشيد مرة فى بستان يمتلكه أبو بكر المادرائى ، الذى تقلد خراج مصر واتسعت ثروته حتى بلغ خراج ضياعه أربعمائة ألف دينار فى السنة ، فقدم له من أفخر ألوان الطعام والشراب ، وفرشت أرض البستان بالبسط ، ونصب بين يدى ضيفة الكبير تماثيل مصنوعة من الذهب والفضة والكافور والعنبر وصينيتين من الفضة ملئت إحداهما دنانير وملئت الأخرى دراهم لينثر منهما على من يشاء من رجال الدولة أو على المغنين والمغنيات .

---

(١) الودى : الشجر الصغار المنقولة .

(٢) الكندى : كتاب الولاة ص ١٤٧ .

(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣١٧ .

وفى عهد الفاطميين بنى الخليفة العزيز كثيرا من القصور التى تدل على وفرة ثروة مصر . من ذلك القصر الغربى ، وكان يقع غربى القصر الشرقى الذى بناه جوهر الصقلى للخليفة المعز شرقى مدينة القاهرة . وكان أصغر من القصر الشرقى ، لذلك أطلق على القصر الغربى الصغير تمييزا له عن القصر الشرقى الكبير وهو القصر الذى بناه المعز .

وقد بنت الملكة تغريد زوجة المعز قصر القرافة ، وكان يتصل به بستان وحمام . وقد وصف المقريزى [١] هذا القصر فقال : إنه كان قصراً فخما يسر الناظرين ، يتردد عليه أهلوه طلباً للراحة ، وبه قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس . كما بنت تغريد منازل العز [٢] ، وهو قصر فخم على شاطىء النيل ، اتخذه ابنها العزيز والخلفاء الفاطميون من بعده للتنزه .

وابتنى العزيز قصوراً أخرى فى عين شمس ، كما بنى فى عهده قصر البحر الذى يقول فيه ابن خلكان [٣] إنه لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب . كذلك أسس العزيز قاعة الذهب التى كان يجتمع فيها مجلس الملك . وكانت مؤسسة أثاثا فخما ، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب . وكانت كلها من رسم واحد ولون واحد . وفى صدر قاعة الذهب حشية عليها عرش الخليفة المحجوب بستور ، حتى إذا جلس وانعقد المجلس رفعت تلك الستور .

ويمتاز الفاطميون ببناء المناظر ، وهى أماكن اتخذها الخلفاء فى القاهرة ومصر والروضة والقرافة وغيرها للنزهة والاحتفال ببعض الأعياد ، وقد عدد المقريزى (خطط جـ ١ ص ٤٦٥) هذه المناظر ووصف الاحتفال فيها ببعض الأعياد . وهذه المناظر هى : الأزهر ، اللؤلؤة ، الدكة ، المقس ، باب الفتوح ، البعل ، التاج ، الخمس وجوه ، الصناعة دار الملك ، منازل العز ، الهودج ، بركة الحبش ، الأنداس ، قبة الهواء ، السكرة .

(جـ) فى الأندلس :

ولم تكن قصور الأمويين فى الأندلس بأقل روعة وبهاء من قصور العباسيين والطولونيين والفاطميين . فقد اشتهرت قرطبة والزهراء وطليطلة وغيرها من مدن الأندلس بقصورها

---

(١) خطط جـ ١ ص ٤١٥ .

(٢) راجع وصف هذا المنزل فى المقريزى : خططجـ ١ ص ٤٨٥ ، والمقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٤ـ٣٢٥ .

(٣) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٥٢ .

الفخمة ، وقد ذكرنا أن أمراء الأمويين فى الأندلس ، كالحكم الأول وعبدالرحمن الأوسط ومحمد ، شيدوا قصوراً فخمة كالمجلس الزاهر ، والبهو الكامل ، والقصر المنيف ، وقصر الدمشق ، وأن عبدالرحمن الناصر شيد بمدينة الزهراء قصره العظيم الذى سماه دار الروضة ، والذى أطنب المؤرخون والرحالة فى وصفه ، وقد وصف المقرى [1] قصر قرطبة فى هذه العبارة فقال : « ابتدع الخلفاء من بنى مروان منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها ، فى قصرها البدائع الحسان ، وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وعمونوا المؤن الجسيمة ، حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه ، فى قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة والخالصة والنحاس المموه ، إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة . وفى هذا القصر القباب العالية السمو ، المنيفة العلو التى لم ير الراءون مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها » .

ومن قصور الأمويين فى الأندلس القصر الذى بناه المأمون بن ذى النون بطليطلة ، وقد أنفق على بنائه أموالا ضخمة ، وجعل فى وسطه بحيرة فى وسطها قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وجلب الماء إلى القبة بحيث كان ينزل من أعلاها ويحيط بها من جوانبها « فكانت قبة الزجاج فى غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شىء ولا يصله ، وتوقد فيها الشموع ، فيرى لذلك منظر بديع عجيب ، وبينما هو فيها مع جواريه ذات ليلة إذ سمع منشداً ينشد :

أتبنى بناء الخالدين وإنمـــا ... مقامك فيها لو علمت قليل
لقد كان فى ظل الأراك كفاية ... لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فنغص عليه حاله وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أظن أن الأجل قد قرب ، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفى . . . وذلك سنة ٤٦٢ هـ » [3] .

---

(١) خطط جـ ١ ص ٤٦٥ .
(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٩ .
(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

٤ — الطعام والشراب

(١) عند العباسيين

أسرف المسلمون فى الطعام وتفننوا فى ألوانه ، واهتم به الخلفاء ، حتى إنهم أجازوه للشعراء وصفه ، روى المسعودى [١] عند كلامه على الخليفة المكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) عن محمد بن يحيى الصولى الشطرنجى قال : « كنا يوما نأكل بين يدى المكتفى ، فوضعت بين أيدينا قطائف رفعت من بين يديه فى نهاية النضارة ورقة الخبز وإحكام العمل ، فقال: هل وصفت الشعراء هذا ؟ فقال له يحيى : نعم ! فقال أحمد ابن يحيى فيها :

قطائف قـــد حشيت باللوز والسكر الماذى حشو الموز
تسبح فى آذى دهن الجوز سررت لما وقعت فى حوزى

كذلك أولع الأمراء وغيرهم من الأغنياء بتنوع الطعام والإسراف فى إعداده . فقد ذكر المسعودى [٢] عند كلامه على يعقوب بن الليث الصفار مؤسس الصفارية « أنه كان يذبح له فى كل يوم عشرون شاة ، فتطبخ فى خمس قدور من الصفر الكبار . وله قدور حجارة يتخذ له فيها بعض ما يشتهيه ، وله أوزة كل يوم وخبيصة (رقاقة) وفالوذج مع القدور الخمس ، وهى ألوان غليظة ، فيأكل منها ويفرق الباقى فى الغلمان الذين فى داخل مضربه ، ثم أهل عسكره حول مضربه وقربهم منه على حسب مراتبهم عنده » .

وقد تأنق أبو جعفر محمد بن بسام فى إعداد مائدته وتزيينها بالورد والرياحين وألوان الطعام والشراب ، قال أبو عبدالرحمن العتبى : ودخلت عليه فى بعض الأيام وهو جالس فى موضع فى آخر داره ، وقد رفعه على بركة وفى صدره صفة [٣] ، وهو يشرف منها على البستان وعلى حيز الغزلان وحظيرة القمارى [٤] وأشباهها ، فقلت له : يا أبا جعفر ! أنت والله جالس فى الجنة . قال : ليس ينبغى لك أن تخرج من الجنه حتى تصطبح فيها . فما جلست واستقربى المجلس حتى أتوه بمائدة جزع [٥] لم أر أحسن منها ، وفى وسطها جام

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٥٨ .
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٤٥ .
(٣) مكان عال قد يشبه البلكون الآن .
(٤) جمع قمرى وهو الحمامة .
(٥) بفتح الجيم وكسرها وتسكين الراى . الجزع اليمانى الصينى فيه بياض وسواد ، وكل ما فيه بياض وسواد فهو مجزع ،

جزع ملونة(١) قد لوى على جنباتها الذهب الأحمر ، وهى مملوءة من ماء ورد ، وقد جعل سافا على ساف(٢) كهيئة الصومعة من صدور الدجاج ، وعلى المائدة سكرجات جزع فيها الأصباغ وأنواع الملح . ثم أتينا بشنبوشق بلور(٣) وبعده جامات اللوزينج . ورفعت المائدة وقمنا من فورنا إلى موضع الستارة ، فقدم بين أيدينا أجاثة (طشت) صينى بيضاء قد كرمت بالبنفسج والخيرى(٤) ، وغيرها مثلها قد عبىء فيها التفاح الشامى ، قدرنا مقدار ما حضر فيها ألف حبة ، فما رأيت طعاما أنظف منه ، ولا ريحاً أظرف منه ، فقال لى : هذا حق الصبوح : فما أنسى إلى الساعة طيب ذلك اليوم » .

(ب) فى مصر والاندلس :

كان أحمد بن طولون مضرب المثل فى الكرم والجود ، قال المقريزى(٥) : « وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر وعلى الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة . وكان راتبه لذلك فى كل شهر ألفى دينار ، سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم ، وسوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم للصدقات فى داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس فى القدور الفخار والقصاع ، على كل قدر أوقصعة لكل مسكين أربعة أرغفة ، فى اثنين منها فالوذج ، والإثنان الآخران على القدر . وكانت تعمل فى داره وينادى : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر — وتفتح الأبواب ، ويدخل الناس الميدان ، وابن طولون ينظر الناس فى المجلس الذى تقدم ذكره ، ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون ، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته » .

وقد حذا خمارويه بن أحمد بن طولون حذو أبيه فى الكرم والجود ، فبلغت نفقات مطبخه الذى عرف باسم مطبخ العامة ثلاثة وعشرين ألف دينار فى كل شهر . وذكر المقريزى(٦) عند كلامه على دار الحرم التى بناها خمارويه لنساء أبيه ، أنه عين لهذه الدار الخدم والطهاة ، وأدر عليهن الأرزاق والأطعمة التى بلغت من كثرتها ووفرتها ،أن الطهاة والخدم كانوا يعطون ما بقى منها للعامة .

---

(١) أى من زجاج ملون بسواد وبياض ، وهو وعاء بلور على هيئة الشمبوشك .
(٢) أى طبقة فوق طبقة من لحم الدجاج كهيئة مخروط .
(٣) هو وعاء بلور على هيئة الشمبوشك .
(٤) قد فرش فيها البنفسج والخيرى وهو نوع من الرياحين .
(٥) خطط جـ ١ ص ٣١٦ .
(٦) خطط جـ ١ ص ٣١٨ .

ومن ألوان الطعام : الدجاج ولحوم الجدى والضأن والفالوذج واللوزينج والقطائف والهرائس من العصيدة التى كانت تعرف على عهد المقريزى باسم المأمونية ، وبلغ من وفرة هذه الأطعمة أنها أصبحت فى متناول العامة ، حتى كانت القطعة من الدجاج أو لحوم الضأن أو الجدى أو الحلوى الكبيرة تباع بدرهم واحد أو درهمين ، « بحيث أن الرجل إذا طرقه ضيف خرج من فوره إلى باب دار الحرم ، فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه ، مما لا يقدر على عمل مثله ولا يتهيأ له من اللحوم والفراخ والدجاج والحلوى مثل ذلك » .

كذلك كان الإخشيديون يعنون بالطعام وتنوع ألوانه واشتماله على العناصر الضرورية للتغذية فقد ذكر ابن زولاق أن الإخشيد كان يميل إلى لون من ألوان الطعام يقال له حماضية ، تعمل من الحماض الذى يستخرج من الأترج ، وهو نوع من البرتقال ، ويلقى به فى الحصرمية ، وهو العنب الأخضر الذى لم ينضج بعد ، ثم يلقى عليها ماء الورد والأفاويه[1] ، وكان للاخشيد طبيب خاص يشرف على الطعام ويشير بما يصلح تقديمه منه للأمير[2] ولا يبعد أن يكون قد اتخذ هذا الطبيب ليحول دون تقديم طعام فاسد أو مسموم عن طريق من تحدثه نفسه باغتياله .

وكان كافور ينفق على مائدته إلى حد التبذير : روى أبو المحاسن عن كتاب « كنز الدرر وجامع الغرر »[3] ، لأبى بكر بن عبد الله بن أيبك المتوفى فى القرن الثامن الهجرى ، « أنه بلغ ما كان يعمل فى مطبخ كافور — لما قوى سلطانه وكثرت أمواله — فى كل يوم من اللحم ألفان وسبعمائة رطل ، وخمسمائة طائر دجاج ، وخمسمائة طائر حمام ، ومائة طائر إوز ، وخمسون خروفا رميسا ، ومائة جدى سمين ، وعشرون فرخا سمكا ، وخمسمائة صحن حلوى فى كل صحن عشرون رطلا ، ومائتان وخمسون طبقاً فاكهة ، وعشرة أفراد نقل ، وخمسمائة كوز فقاع[4] كبير ، ومائة قرابة سكر وليمون » ، روى ابن خلكان[5] عن وكيل كافور قال : « خدمت الأستاذ كافورا والجراية التى يطلقها ثلاث عشرة جراية فى كل يوم ، ومات وقد بلغت على يدى ثلاثة عشر ألفا فى كل يوم » .

---

(١) المغرب فى حلى المغرب ص ٣١ . أنظر ستينجاس .
(٢) ابن زولاق : المغرب ص ٣٦ .
(٣) فهرست التاريخ بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨ .
(٤) وهو شراب يتخذ من الشعير ، سمى بذلك لما يرتفع فى رأسه ويعلوه من الزبد .
(٥) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٣١ .

ومن العجب مانقرؤه فى الثعالبى[١] من دعوة بعض الشعراء أصدقاءهم إلى وليمة يصفونها فى قصائدهم ، ويضمنونها ألوان الطعام والشراب وما تتخلله الوليمة من ضروب اللهو والسرور وسماع الموسيقى والغناء ، وتزيين السماط بالورود والرياحين وكل مايضفيه صاحب الدعوة على زائريه من مظاهر البهجة والسرور ، فقد بعث محمد بن أبى الجرع الشاعر المعروف بهذه القصيدة إلى بعض أصدقائه يدعوهم فيها إلى تناول الطعام قبل حلول شهر رمضان .

وكان الفاطميون يقيمون الأسمطة فى الأعياد والمواسم ، وخاصة فى أول العام الهجرى وفى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى غرة رمضان ، وفى عيدى الفطر والأضحى حيث كانت تعم خيراتهم الناس فيها وقد عنوا بالاحتفال بعيدى الفطر والأضحى احتفالا رائعا ؛ ففى ليلة عيد الفطر كان يقام بالإيوان الكبير ، الذى يقابل مجلس الخليفة ، سماط ضخم طوله نحو ثلثمائة ذراع ، وعرضه سبع أذرع ، نثرت عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية مما أعد فى دار الفطرة الخليفة .

وكانت الاحتفالات الرسمية تقترن بالاحتفالات والمآدب الشعبية ، ويستقبل الشعب المصرى هذه المواسم بمظاهر الحبور والبهجة ، إلا يوم عاشوراء ، فقد كان يعتبر يوم حزن شامل تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ، حيث ينشدون الأناشيد المحزنة فى رثاء الحسين ؛ ويقام سماط يسمى سماط الحزن ، ينظم فى منتهى البساطة فى بهو صغير ويعد عليه خبز الشعير والعدس والجبن ، ويحضره الخليفة ملثما مرتديا الثياب القاتمة .

وقد ابتدع زرياب فى بلاد الأندلس ألوانا من الطعام ، فأدخل بقلة الهليون المسماة عندهم الأسفراج Aspirago ، كما زاد فى الأطعمة لونا أطلقوا عليه «النقايا»، يصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب ، ولونا من التقلية أطلقوا عليها تقليه زرياب ، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب فى مرق كثير الأفاوية والتوابل . كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة ، وابتكر أسمطة الطعام من الأديم (الجلد) وقد اتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤهم وخواصهم زرياب قدوة فيما سنه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التى نسبت إليه[٢] .

وقد ذكر المقرى[٣] عند كلامه على قصر عبد الرحمن الناصر أن عدد فتيان قصر

---

(١) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣٥٤ — ٣٥٥

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥١ ، ٧٥٢

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٦٩

الزهراء بلغ ١٣٫٧٥٠ ، وأنه خصص لهم من اللحم كل يوم ١٣٫٠٠٠ رطل ، عدا الدجاج والحجل والطيور والأسماك .

وقد رأينا كيف كان الخلفاء والأمراء وذوو اليسار كلفين بالحصول على بواكير الفواكه طرية سليمة ، بوساطة البريد الذى بلغ حد الكمال فى عهد بنى بويه فى المشرق وفى عهد الفاطميين فى مصر .

٥ — الملابس

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن اللباس الفارسى أصبح لباس البلاط الرسمى وأن أباجعفر المنصور أمر بلبس القلانس ، وهى القبعات السود الطويلة المخروطية الشكل بصفة رسمية كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة . يتبين لنا ذلك من العملة التى ضربت فى عهد الخليفة المتوكل ، حيث تظهر صورته مرتديا ملابس فارسية . وكان اللباس العادى للطبقة الراقية فى العصر العباسى يشتمل على سروالة فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوه ، أما لباس العامة ، فيشتمل على إزاء وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام ، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال .

غير أن الخليفة المتوكل أدخل نوعا جديدا من الملابس نسب إليه ، فأظهر لباس الملحم (المبطن) ، وفضل ذلك على سائر الثياب ، واتبعه من فى داره على لبس ذلك . وشمل الناس لبسه ، وبالغوا فى ثمنه اهتماما بعمله واصطناع الجيد منها ، لمبالغة الناس فيها وميل الراعى والرعية إليها . فالباقى فى أيدى الناس إلى هذه الغاية من تلك الثياب يعرف بالمتوكلية وهى نوع من ثياب الملحم نهاية فى الحسن والصبغ وجودة الصنع[1] .

وكان لباس الخليفة العباسى فى المواكب القباء الأسود[2] أو البنفسجى الذى يصل إلى الركبة ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة غالية ، وكان الأمراء والنبلاء يقلدون الخلفاء فى ملابسهم ، أما الخلفاء والقضاة فكانوا يلبسون العمامة والطيلسان مقتدين فى ذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم ، كما كانوا يلبسون قلنسوة طويلة ، حولها عمامة ذات لون أسود ، وهو شعار العباسيين .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٩

(٢) كان القباء مفتوحا عند الرقبة ، فيظهر القفطان زاهيا من تحته وكانت أكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذى أمر بجعلها فضفاضة ؛ ويقال إن عرض الأكمام بلغ ثلاثة أذرع

وكان لباس الناس قبل ذلك شيئاً واحدا لايتميز أحد عن أحد بلباسه ، وكان الكتاب يلبسون الدراعات ، وهى ثياب مشقوقة من الصدر ، ويلبس القواد الأقبية الفارسية القصيرة وأما غير العلماء فيلبسون فى داخل بيوتهم القلنسوة وحدها فوق كلوتة[١] من الحرير الأبيض ، ثم استعاضوا عنها بكلوتة خفيفة بنفسجية اللون . وكان اللباس العادى للطبقة الراقية يتألف من سراويل فضفاضة وقميص ودراعة وقفطان وقباء وقلنسوة وعباءة أوجبة وكان الأغنياء من الرجال والنساء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير والصوف أو الجلد ، ويسمونها « الموزج »[٢] . وثمة فروق ملحوظة فى ملابس أصحاب المهن المختلفة أما لباس العامة فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى « قمربند » وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال ، أما الجنود فيلبسون الأحذية ، على حين ينتعل بعض الأعيان كليهما فى وقت واحد ، ويخلعون الحذاء الخارجى المسمى « الجرموق » عند دخول المساجد أو القصور[٣]

وقد أحدث الخليفة المستعين تغييرا فى الملابس ، فصغر القلانس بعد أن كانت طويلة ، وأمر بلبس الأكمام الواسعة التى أصبح عرضها ثلاثة أشبار[٤] . وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب ليحفظ فيها الإنسان كل ما يحتاج إلى حفظه كالدنانير والكتب . فكان المهندس يضع فيها أدواته الهندسيه ، ويضع الصيرفى رقاعه ، والخياط أدوات الخياطة ، والقاضى الكراسه التى يقرأ فيها يوم الجمعة ، ويحفظ الكاتب الرقعة قبل عرضها[٥].

وكان السواد شعار العباسيين الرسمى[٦] ؛ وكثيرا ما كان الأثرياء يلبسون الثياب

---

(١) بتشديد اللام ، هى كلمة فارسية معناها الطاقية الصغيرة من الصوف المضربة بالقطن أبو المحاسن النجوم الزهرة ج ٧ ص ٣٣٠ ،

(٢) الموزج شبه الجورب من الجلد يلبسه الفرسان ومن يشبههم . وكان الفتح بن خاقان إذا جلس فى حضرة الخليفة المتوكل وأراد أن يقوم إلى المتوضأ ، أخرج من ساق موزجه كتابا يطالعه فى ممره وعوده . فإذا وصل إلى الحضرة الخليفية أعاده إلى ساق موزجه . أنظر كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠ .

(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٣٠ .

(٥) متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(٦) راجع ماقيل عن اتخاذ العباسيين السواد شعارا لهم فى كتاب « السيرة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية تأليف فان فلوتن وترجمة المؤلف : ص ١٢٤ — ١٢٦ .

البيض لما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلق الجنة بيضاء ، وخير ثيابكم تلبسونها فى حياتكم وتكفنون بها موتاكم » . وكانوا يلبسون الملابس ذات الألوان الطبيعية ، لأن الألوان غير الطبيعية لايلبسها إلا الإماء والقيان والنبطيات . وكان اللون الأزرق فى المشرق واللون الأبيض فى الأندلس علامة الحداد وفى القرن الرابع كانوا لايجيزون للرجال لبس الثياب الملونة إلا فى خاصة بيوتهم ، وإنما أجازوا لبسها للنساء(١).

كانت ملابس المرأة تتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة ، عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة فى البرد . وكانت المرأة العربية إذا خرجت من بيتها ترتدى ملاءة طويلة تغطى جسمها ، وتقى ملابسها من التراب ، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة.

وقد تطورت ملابس النساء فى العصر العباسى تطورا ظاهرا عما كانت عليه فى العصر الأموى ؛ إذا اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس (البرنس) مرصعا بالجواهر ، محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة . ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى علية بنت المهدى وأخت الرشيد . وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزنار البرنس للزينة . أما نساء الطبقة الوسطى فكن يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب ، يلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، ويلبسن الخلاخل فى أرجلهن والأساور فى معاصمهن وأزنادهن ؛ ولم يجهلن فن التجميل الذى أخذنه عن الفارسيات ، وكان «طابع الحسن» الصناعى مما يتحلى به الأعرابيات(٢) ،

واتخذ الناس من القماش المشمع المماطر فى البلاد التى يكثر فيها المطر(٣) وقد ورد ذكر المماطر فى إحدى قصائد البحترى حين سأل أحد ممدوحيه أن يهب له ممطراً يقيه المطر(٤)

وفى عهد الفاطميين فى مصر كانت القاهرة من أهم مراكز النسيج ، وقد بلغ نظام الطراز مبلغا عظيما من الرقى . واشتهرت مصر بأنواع خاصة من الثياب الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية . من ذلك القلمونى ذى الألوان البراقة التى تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ، وكانت تصنع فى دمياط وتنيس خاصة . والقرقبى الذى اشتهر بألوانه اللامعة

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٨٧ — ١٨٩ .
(٢) أمير على : مختصر تاريخ العرق ص ٣٨٩ — ٣٩٩ .
(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٩٦ .
(٤) ديوان البحترى ج١ ص ١٨٥ .

التى تتغير إذا انعكست عليها أشعة الشمس ، والنصفية ، وتصنع من الحرير والقطن والدبيقى الذى ينسب إلى مدينه دبيق حيث كانت تصنع الثياب المثقلة والعمائم الشرب المذهبة وفى دار الكسوة التى بناها الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى القاهرة كانت تفصل الثياب للخليفة والأمراء والوزراء وسائر موظفى الدولة ، على اختلاف مراتبهم ، والخلع التى كانت تمنح بسعه للوزراء والأمراء والأشراف فى عيد الفطر ، حتى سمى عيد الحلل .

وفى بلاد الأندلس تحكم زرياب فى ابتداع الأزياء ، وحث الناس على تغيير الملابس لتكون مناسبة للفصول ، و « رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم الملون ، من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة ، الكائن فى ست بقين من شهر بؤنه الشمسى من شهورهم الرومية ، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسى . منها ثلاثة أشهر متوالية ، ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة . ورأى أن يلبسوا فى الفصل الذى بين الحر والبرد المسمى عندهم الربيع من صبغهم جباب الخز والملحم والمحرر والدارييع التى لابطائن لها . لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر التى ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشى ثياب العامة . وكذا رأى أن يلبسوا فى آخر الصيف وعند أول الخريف المحاشى المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرس البرد فى الغدوات إلى أن يقوى البرد . فينتقلوا إلى أثخن منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء[1] . كما أبطل زرياب عادة إعفاء الشعر وإسداله مفروقا إلى الحاجبين والصدغين[2] .

٦ — المرأة

كانت المرأة فى العصر العباسى الثانى ، كما كانت فى العصر العباسى الأول ، تتمتع بقسط وافر من الحرية فقد تدخل بعض النساء فى شئون الدولة ، كقبيحه أم المعتز ، والسيدة أم المقتدر وقهرمانتها ثومال ، وأم موسى ، وست الملك أخت الخليفة العزيز الفاطمى ، والسيدة صبح أم هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر فى الأندلس .

وقد قامت قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) بدور هام فى عزل

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥٢ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٧٥١ — ٧٥٢ :

الخليفة المستعين ، ليصفو الجو لابنها المعتز . واشتهرت قبيحة بالثراء ، حتى ذكر ابن الأثير (جـ ٧ ص ٧٠) أنهم وجدوا عندها مليونا وثمانمائة ألف دينار . ومع ذلك عرضت ابنها لعنت الأتراك الذين تأخرت رواتبهم المستحقة لهم وقدرها خمسون ألف دينار فقط ، ولم يلبث أن ذهب ضحية هذا البخل .

واستأثرت « السيدة » أم الخليفه المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) بنفوذ كبير فى الدولة العباسية . وليس أدل على عظم نفوذها وتدخلها فى شئون الدولة وتمتعها بنفوذ أقوى من نفوذ الخليفة ، من ذلك الكتاب(١) الذى بعث به إليها الوزير المصلح على بن عيسى يتنصل فيه من التبعات التى ألقتها عليه فى إدارة شئون الدولة المالية .

وعلى الرغم مما قام به هذا الوزير من إصلاح كان مصيره العزل . وفى ذلك يقول ابن الأثير (جـ ٨ ص ٣٧) أن أم موسى القهرمانة ذهبت إلى منزل الوزير لتتفق معه على ما يحتاج حرم الدار والحاشية من الكسوات والنفقات ، فوصلت إليه وهو نائم ، فطلب إليها حاجبه أن تنتظر ساعة حتى يستيقظ ، فعادت إلى دارها مغضبة ، ولما استيقظ الوزير أرسل حاجبه وولده يعتذران إليها فلم تقبل ، ودخلت على الخليفة المقتدر ورمت الوزير بما أدى إلى عزله عن الوزارة وقبض عليه .

وليس هذا كل ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ ، فقد اتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين قرمانتها « ثومال » صاحبة للمظالم . فكانت تجلس أيام الجمع فى مكان بنته « السيدة » فى الرصافة(٢) . ومما يدل أيضاً على مبلغ تدخل السيدة فى شئون الدولة هذه الحكاية التى قصها الصولى(٣) الذى تلمذ له الراضى بن المقتدر وهو أمير ، فإنها تبين لنا عدم اهتمام السيدة وقهرمانتها بتنشئة الأمراء تنشئة قوامها التوافر على العلم ، وتوجيههم وجهة صالحة فى الإلمام بنظم الحكم ، والوقوف على أحوال الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول ، بل على العكس من ذلك ، فإن النساء ، اللاتى غدون أصحاب الحل والعقد ، لم يأبهن أن يكون الأمير أو ولى العهد متعلما مثقفاً ، وإنما يردنه ضعيفاً غير ملم بشئون الحكم .

وقد أدى تدخل « السيدة » فى شئون الدولة إلى ضعف الخلافة العباسية ، كما أن إلقاء القبض على الوزير المصلح على بن عيسى بسبب اعتذاره عن إجابة قهرمانتها أم موسى إلى ما طلبت قد حرم الخلافة الاستفادة بمواهبه الممتازة وسياسته الرشيدة ، كما كان من أثر تعيين « ثومال » قهرمانة « السيدة » صاحبة للمظالم ، أن استهتر العامة بالخلافة ونظروا إلى حكامها نظرة الاحتقار والازدراء .

---

(١) راجع هذا الكتاب فى مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣
(٣) الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٥ — ٦ ، ٢٦

ازداد نفوذ حرم الخليفة فى عهد الوزير حامد بن العباس ، وأصبحن يتدخلن فى شئون الدولة ، على حين قبع الخليفة فى داره ، فكن يجلس للمظالم وينظرن فى رقاع الناس ، ويصدرن الأوامر مذيلة بتوقيعاتهن . كما عملت السيدة على عزل الوزير أبى العباس أحمد ابن عبدالله بن أحمد بن الخصيب ، وصودرت أمواله فى سنة ٣١٤ هـ .

وكان للنساء شأن كبير فى الدولة الفاطمية ، حتى إنهن كن يتدخلن فى شئون الدولة ، واشتهر كثير منهن بالثراء والبذخ . ذكر المقريزى (خطط جـ ١ ص ٤١٥) أن رشيدة بنت المعز تركت نحو مليون ونصف من العملة الذهبية (١,٧٠٠,٠٠٠ دينار أى ثلاثة أرباع مليون جنيه) ، وتركت أختها عبده كثيراً من خزائن الحلى والصناديق التى تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد ، وثلثمائة قطعة فضية ، وثلاثين ألف ثوب صقلى ، وغير ذلك من الذخائر .

وفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) أنفقت السيدة تغريد زوجة المعز أموالا جمة على بناء مسجدها بالقرافة ، وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ، كما بنت هذه السيدة قصر القرافة كما تقدم

وقد تزوج الخليفة الفاطمى العزيز بسيدة رومية نصرانية على المذهب الملكانى ـ مذهب كنيسة القسطنطينية ، فولدت له ابنه الحاكم وابنته ست الملك . وكان لزوج العزيز هذه نفوذ كبير فى الدولة ، حتى إن الخليفة عين أخويها بطريرقين ملكيين : أحدهما فى الإسكندرية والآخر فى بيت المقدس (١) .

وقد امتازت ست الملك بالحزم ورجاحة العقل ، واشتهرت بالكرم والحلم ، وعرفت بالتسامح الدينى ؛ وكثيراً ما كانت تعطف على النصارى ، وكانت مع أخيها الحاكم مساوية السلطة ، مما أثار حفيظتها ، ولا سيما عندما انتقد مسلكها ، فتآمرت على قتله بالاشتراك مع سيف الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة .

وقد تركت ست الملك ثروة ضخمة ، منها ثمانمائة جارية ، وثمان جرات ملأى بالمسك ، وكثير من الأحجار الكريمة ، من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل . وكانت مخصصات هذه الأميرة خمسين ألف دينار فى السنة (٢) .

---

(١) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٤٤ — ١٤٥

(٢) المقريزى : جـ ١ ص ٤١٥ راجع كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٢٤٤ ، ٢٤٧

ومن نساء هذا العصر زوجة الظاهر وأم المستنصر ، وكانت سودانية ، على ما تقدم . واشتهرت بالعطف على أبناء جلدتها السودانيين ، الذين كثر عددهم وقوى بطشهم فى عهد المنتصر ، حتى بلغ عدد الجنود السودانيين خمسين ألفا ولم يظهر بين طبقة العامة فى ذلك العصر نساء كان لهن أثر فى الحياة السياسية أو فى ترقية المجتمع ، بل كان النشاط فى هذه النواحى مقصورا على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة .

وكان للمرأة شأن كبير فى بلاد الأندلس ، وقامت الجوارى بدور هام فى قصور الخلفاء والأمراء ورجالات الدولة . وليس أدل على صحة هذا القول من قصة « طروب » جارية عبد الرحمن الأوسط ؛ فقد بلغ من شدة ميله إليها وكلفه بها أنها حين غضبت منه وأبت أن تقابله ، ترضاها بدر المال والحلى الذى قدرت قيمته بمائة ألف دينار . وقد ذكر المقرى أن هذه الجاريه كانت تبرم الأمور مع نصر الخصى ، وأن عبد الرحمن لم يرد لها شيئا مما أبرمته كذلك. أولع عبد الرحمن بجارية أخرى تسمى مدثرة ، فأعتقها وتزوجها ، كما أولع بجوارى أخر منهن شفاء ، وقلم ، وكانت أديبة رواية للشعر حافظة للاخبار ، كما كانت حسنة الخط(١) .

كذلك تمتعت السيدة صبح زوجة الحكم الثانى وأم المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) بنفوذ كبير فى الدولة الأموية بالأندلس ، وتغلبت على أمور ابنها الذى لم يكن قد جاوز العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إليه ، وأصبحت تتمتع بالنفوذ المطلق والسلطان الذى لا يحد ، وأسندت أمور الدولة إلى المنصور بن أبى عامر الذى غدا ساعدها الأيمن ، لكنه أصبح بعد قليل الحاكم المطلق للدولة الإسلامية فى الأندلس كما تقدم .

وكان كثير من الخلفاء من أمهات أولاد : فكانت شجاع أم المتوكل خوارزمية ، والسيدة أم المقتدر رومية ، كذلك كانت أم المستكفى ؛ وكانت أم المطيع صقلبية وقد لعبت الإماء دورا هاما فى تاريخ الدولة العباسية فى هذا العصر ، كما يتبين من هذه الرسالة الممتعة التى كتبها الشيخ أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون البغدادى المتطبب ، يذكر فيها أنواع الجوارى(٢) فى البلاد الإسلامية ننقل بعضها عن كتاب متز(٣) حيث يقول :

« فالهنديات لهن حسن القوام وسمرة الألوان وحظ وافر من الجمال ، مع صفرة وصفاء

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٢) وردت هذه الرسالة فى مخطوط رقم ٤٩٧٩ بمكتبة برلين ورقه ١٣٦ ب ، ١٣٧ ا ، ١٤٥ ا ١٥١ ب .

(٣) الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٢٧١ — ٢٧٤ .

بشرة وطيب نكهة ولين نعمة ؛ لكن الشيخوخة تسرع إليهن . . . وهن يصلحن للولد ورجالهم لحسن النفوس والأموال وعمل الصنائع الدقيقة ، غير أن النزلات تسرع إليهن . والقندهاريات فى معنى الهنديات ، والسنديات ينفردن بدقة الخصور وطول الشعور : والمدنيات سمر الألوان معتدلات القوام ، قد اجتمع فيهن حلاوة القول ونعمة الجسم ، وملاحة دل وحسن شكل وبشر ، ولا غيرة فيهن على الرجال ، قنوعات بالقليل ، لا يغضبن ولا يصخبن ويصلحن للقيان . . والمكيات خنثات مؤنثات لينات الأرساغ ، ألوانهن البياض المشرب بسمرة ، قدودهن حسنة ، وأجسامهن ملتفة ، وثغورهن نقية باردة ، وشعورهن جعدة ، وعيونهن مراض (١) فاترة ؛ والطائفيات سمر مذهبات مجدولات ، أخف خلق الله أرواحا ، وأحسنهن فكاهة ومزاحا ؛ لسن بأمهات أولاد ، يكسلن فى الحمل ويهلكن عند الولادة .

والبربريات مطبوعات على الطاعة نشيطات للخدمة ، ويصلحن للتوليد ، لأنهن أحدب شىء على ولد (٢) . ويقول أبو عثمان (الجاحظ) وهو من ممارسة هذا الشأن (٣) : إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب وهى بنت تسع حجج ، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج ، ثم جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة ، فتأدبت بالعراق ، جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات وخنث المكيات وآداب العراقيات ، واستحقت أن تخبى (تخبأ على الأصح) فى الجفون وتوضع على العيون . والزنجيات مساويهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن قبحت صورتهن ، وتحددت أسنانهن ، وقل الانتفاع بهن ، وخيفت المضرة منهن ، والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب ، وليس فى خلقهن الفهم ؛ والرقص والإيقاع فطرة لهن وطبع فيهن . ولعجومة ألفاظهن عدل بهن إلى الزمن والرقص . ويقال لو وقع الزنجى من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع . وهم أنقى الناس ثغوراً لكثرة الريق ، وكثرة الريق لفساد الهضوم ، وفيهن جلد على الكد . فالزنجى إذا شبع فصب العذاب عليه صبا فإنه لا يتألم ، وليس فيهن متعة لصنانتهن (نتن الريح) وخشونة أجسامهن . أما الحبشيات فالغالب عليهن نعمة الأجسام ولينها وضعفها ، يتعاهدهن السل والدق (الهزال) ، ولا يصلحن للغناء ولا للرقص ، دقاق لا يوافقهن غير البلاد التى نشأن فيها . وفيهن خيرية

---

(١) ذابلة مكسورة وهو من جمال النساء .
(٢) أحسن وأعطف على الأولاد .
(٣) أى من الخبيرين به .

وسلاسة انقياد ، يصلحن للائتمان على النفوس ، يخصهن قوة النفوس وضعف الأجسام ، كما يخص النوبة قوة الأجسام وضعف النفوس ؛ قصار الأعمار لسوء الهضم . والبجاريات مذهبات الألوان ، حسنات الوجوه ، ملس الأجسام ، ناعمات البشرة . جوارى متعة . إن جلبت الواحدة صغيرة وسلمت من أن ينكل بها — لأنهن يقورن ويمسح بالموسى أعلى فروجهن حتى يبدو العظم — فيصرن شهرة من الشهر (١) ، والشجاعة والسرقة فى رجال البجة طبع وغريزة ، ولهذا لا يؤمنون على مال ولا يصلحون أن يكونوا خزاناً .

والنوبيات من جملة أجناس السودان ، ذوات ترف ولطف ، وأبدانهن يابسة من لين بشرة . وهواء مصر يوافقهن ، لأن ماء النيل شربهن فى بلادهن . وإذا انتقلن عن غير مصر تسلطت عليهن العلل الدموية والأمراض الحادة ، والتركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعمة ، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة ، وقدودهن مابين الربع والقصير . والطول فيهن قليل . وهن كنوز الأولاد ومعادن النسل ، قل ما يتفق فى أولادهن وحش ولا ردى التركيب . والروميات بيض شقر ، سباط الشعور (٢) زرق العيون ، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء وأمانة ، يصلحن للخزن ، لضبطهن وقلة سماحتهن (٣) ، ولا يخلو أن يكن يألفن صنائع دقيقة . أما الأرمنيات فالملاحة للأرمن لولا ما خصوا به من صحة بنية وشدة أسر (قوة البدن) . والعفة فيهن قليلة أو مفقودة ، والسرقة فيهن فاشية . وقل ما يوجد فيهن بخل ، وفيهن غلظ طبع ولفظ ، وليست النظافة فى لغتهن ، وهن عبيد كد وخدمة ، متى تركت العبد ساعة بغير شغل ، لم يدعه خاطره إلى خير ، لا يصلحون إلا على العصا والمخافة ، الواحد منهم إذا رأيته كسلان ، فليس ذلك عجز قوة ، بل دونك والعصا ، وكن مع ضربه وانقياده لما تريده على حذر ، فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلا عن الغضب ، لا يصلحن لمتعة . وجملة الأرض أن الأمر أشر البيضان ، كما أن الزنج أشر السودان . وما أشبه بعضهم ونساؤهم ببعض فى قوة الأجساد وكثرة الفساد وغلظ الأكباد »

---

(١) أى شناعة من الشناعات فى القبح .
(٢) الشعر السبط هو الطويل المسترسل الناعم وهو ضد الجعد .
(٣) أى لحسن محافظتهن على ما تحت أيديهن وعدم تفريطهن فى شىء .

٧ — الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات

(أ) الأعياد والمواسم :

عنى المسلمون منذ عهد بعيد بالاحتفال بالعيدين فى شىء كثير من الأبهة والعظمة . وكانوا يحتفلون برمضان احتفالا شائقا ، ويتخذون غرة رمضان من مواسمهم الدينية ؛ كما كانوا يحتفلون بالعيدين احتفالا دينياً ، فيؤم خلفاء المسلمين الناس فى الصلاة ويلقون عليهم خطبة فى فضائل العيد وما يجب على المسلمين مراعاته للمحافظة على شعائر الإسلام . ولا عجب لقد كانت مظاهر الإسلام تتجلى فى الاحتفال بالعيدين فى البلاد الإسلامية، وخاصة فى بغداد وبيت المقدس ودمشق والقاهرة .

وكان الاحتفال بعيد الفطر يبلغ منتهى الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون فيها الشعور الإسلامى قويا ، مثل طرسوس ، حيث كان يتوافد إليها غزاة المسلمين من أنحاء البلاد الإسلامية ، وترد إليها تبرعات أهل البر من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للغزو بأنفسهم وقد قيل : « ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان إلى مصر والمغرب ، إلا بطرسوس، لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة » . ولا يخفى ما كان هنالك من أثر واضح فى ظهور الأبهة الإسلامية بأجلى مظاهرها فى الاحتفال بالأعياد بطرسوس ، حتى أصبح عيد الفطر والأضحى فى تلك المدينة من محاسن الاسلام ، لتظهر قوة المسلمين أمام أعدائهم من الروم فى الثغور .

وكانت المدن الإسلامية ، كبغداد فى عهد العباسيين ، والقاهرة فى عهد الفاطميين ، تسطع فى أرجائها الأنوار ليالى العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل ، وتزدحم الأسهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات ، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل ، وتتلألأ الأنوار الخاطفة للأبصار من قصور الخلافة ، وقد لبست الجماهير فى بغداد وغيرها من المدن الاسلامية التابعة للدولة العباسية الطيالسة السود تشبها بالخلفاء العباسيين الذين اتخذوا السواد شعارا لهم . وكان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة مصنوعة من

القصب والورق مجللة بالسواد ، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم[١]) .

ولم يقتصر احتفال الخلفاء العباسيين على العيدين ، بل شمل الأعياد الفارسية القديمة : كالنوروز والمهرجان والرام التى أصبحت فى العصر العباسى من أهم أعيادهم الرسمية . وكانت تتجلى عظمة الخلفاء العباسيين وأبهتهم فى الاحتفال بالعيد ، واتجهت سياستهم إلى اجتذاب الشعب على اختلاف طبقاته بالعطايا والأرزاق والهبات والأسمطة التى كانوا يمدونها فى الأعياد والمواسم ، وخاصة فى أول العالم الهجرى ، وفى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد الخليفة الجالس على العرش ، وفى غرة رمضان ، وفى أيام النيروز والمهرجان والرام كما عنوا بالاحتفال بعيدى الفطر والأضحى احتفالا رائعاً .

وكان الخلفاء عامة والفاطميون خاصة يحتفلون بعيد الفطر ، الذى كانوا يتبركون به وتعم خيراتهم الناس فيه ، فمن هذه الخيرات نفرقة الفطرة ، والكسوة ، وعمل السماط ، وركوب الخليفة لصلاة العيد . وكان هؤلاء الخلفاء يهتمون بالاحتفال بعيد الفطر فى العشر الأخير من شهر رمضان ، واتخذ الفاطميون فى القصر بابا أطلقوا عليه « باب العيد » ، لأن الخليفة كان يخرج منه فى يومى العيد إلى المصلى ، شرقى القصر الكبير فى الفضاء الذى تشغله الآن قرافة باب النصر وراء حى الحسينية .

كذلك اهتم العباسيون بالنوروز فى أول العام ، والمهرجان فى آخره ، كما كانوا يحتفلون بسائر الأعياد الفارسية القديمة التى أصبحت فى العصر العباسى من أهم أعياد المسلمين الرسمية . وقد جعل العباسيون النوروز عيدا قومياً يتهادون فيه ويقيمون الولائم والحفلات كما اتخذوا من النوروز موعدا لجمع الخراج . ونقرأ فى هذا العصر كثيرا عن النوروز من حيث صلته بجمع الخراج [٢] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٣٧ .

(٢) مسكوية : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٥ ، ٢٤٨ ، ٤٠٧ .

ولمصر منذ القدم نوروز خاص يسمى النوروز القبطى ، وهو أول السنة القبطية . وفى مستهل توت توقد النيران فى ليلة النوروز ويرش الماء فى يومه ، وتفرق الكسوة على رجال الدولة وعلى أولادهم ونسائهم ، وتوزع الرسوم التى جرت العادة بتوزيعها عليهم كما يتبادلون الهدايا فى هذا اليوم . واستمر الاحتفال بالنوروز فى العهد الإسلامى إلى أن فتح الفاطميون مصر ، فاهتموا بالاحتفال بهذا العيد . و « زاد اللعب بالماء ، ووقود النيران . وطاف أهل الأسواق . وعملوا فيلة ، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم ، ولعبوا ثلاثة أيام ، وأظهروا السماجات والحلى فى الأسواق . ثم أمر المعز بالنداء بالكف ، وأن لا توقد نار ولا يصب ماء . وأخذ قوم فحبسوا ، وأخذا قوم فطيف بهم على الجمال »[1].

كذلك احتفل العباسيون بالمهرجان ، وكانوا يتهادون فيه بالهدايا الكثيرة كهدايا النوروز ، ومنها السكر . وفى هذا العيد يكثر الهرج والملاهى واللعب والفرح والسرور .

وفى عهد الفاطميون فى مصر كانت هناك عدا مواكب الخلفاء أيام السبت والثلاثاء ، وأيام الجمع ويومى العيدين ، أيام دينية أخرى ، وفيما يلى أسماء الأعياد والمواسم التى كان يحتفل بها الفاطميون وهى : رأس السنة ، أول العام ، يوم عاشوراء وهو يوم مقتل الحسين بن على (١٠ المحرم) ، مولد النبى صلى الله عليه وسلم (١٢ ربيع الأول) ، مولد على بن أبى طالب ، مولد الحسن ، مولد الحسين ، مولد فاطمة ، مولد الخليفة القائم بالأمر ، ليلة أول رجب ، ليلة نصف رجب أول شعبان ، ليلة نصف شعبان[2] غرة رمضان ، جبر الخليج ، يوم النوروز ، يوم الغطاس[3] ، يوم الميلاد ، عيد النصر[4] ، خميس العهد[5] .

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤٩٣ ،

(٢) كانت هذه الليالى الأربع الأخيرة تسمى ليالى الوقود ؛ وكان الناس يصومون فى هذه الأيام الأربعة كصومهم رمضان ، فكانوا يحتفلون بها كما يحتفلون برمضان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى يومنا هذا .

(٣) كان المصريون منذ عهد بعيد يحتفلون بليلة الغطاس . وقد وصف المسعودى (مروج الذهب جـ ١ ص ٢١٢ — ٢١٣) هذا الاحتفال فى عهد الاخشيد .

(٤) كان يقع يوم ١٦ من المحرم ، وهو اليوم الذى أطلق فيه الخليفة الحافظ الذى حبسه الوزير أبو على بن الأفضل بن بدر الجمالى .

(٥) هو الخميس الذى يحتفل فيه النصارى بأنجيلهم ، وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام ، وهو من الأعياد التى بقيت فى العهد الفاطمى مشاركة للنصارى فى شعورهم . وأهل القاهرة يسمون ذلك اليوم خميس العدس خطأ .

(ب) المواكب :

كانت مواكب الخلفاء العباسيين أكثر روعة من مواكب الأمويين ، وخاصة فى أيام الجمع ، وفى مواكب الحج التى تشبه فى مصر الاحتفال بسفر المحمل إلى الحجاز وعودته منها وقد وصف مسكوية[١] موكب الخليفة الطائع (٣٦٣ — ٣٨١ هـ) لتقديم العزاء بوفاة شرف الدولة البويهى فى سنة ٣٧٩ هـ .

كانت أعمال خمارويه بن أحمد بن طولون تدل على حبه للظهور ، وكان شخصه محاطا بمظاهر العظمة والأبهة إذا خرج للصيد أو للتنزه أو الاحتفال بعيد من أعياد الدولة. وكان موكب هذا الأمير حافلا يزيده هيبة أولاد الحوف[٢] وشناتره الضياع ، وكانوا من قطاع الطرق ضخام الأجسام ، عرفوا بالشجاعة والبأس ، فأدخلهم خمارويه فى خدمته وأدر عليهم الأرزاق والعطايا ، ومنع عن الناس أذاهم ، واتخذهم حرسا له ، وكانوا يلبسون الأقبية وجواشن الديباج ، ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة ، ويتقلدون بالسيوف المحلاة . ويسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة يتلوهم ألف من السودان ، لهم درق[٣] من حديد محكم الصنعة ، وعليهم الأقبية والعمائم السود ، فيخالهم الناظر بحرا أسود لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم . ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم والبيض[٤] التى تلمع على رءوسهم من تحت العمائم . فإذا مضى السودانيون قدم خمارويه ، وسار منفردا عن موكبه بمقدار نصف غلوة (رمية) سهم . ويحف به حرسه المختار وهو ممتط فرسا ، فإذا سار ، سار

---

(١) راجع ما ذكره المقريزى (خطط ج ١ ص ٤٩٠ — ٤٩٤) عن هذه الأعياد والمواسم .

(٢) الحوف بمصر حوفان : الشرقى والغربى ، أول الشرقى من جهة الشام ، وآخر الغربى قرب دمياط ؛ يشتملان على بلدان وقرى كثيرة . ولعله يريد بذلك عرب الحوف .

(٣) معربة عن لفظ فارسى هو دريجة ، وهى درع بيضاوى الشكل غالباً ، وفى وسطه نتوءات وله مقبض فى ظاهره ويتراوح طوله بين قدم ونصف وقدمين . وتصنع الدرقة غالباً من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السميكة ، وأحيانا من جلد التمساح .
أنظر Lane : Arabic—English Lexicon ، الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٣٤٧ (٢).

(٤) جمع بيضة وهى الخوذة الحديدية .

الناس جميعا وبينهم الجند فى صمت عميق كأن على رءوسهم الطير[١] .

وفى الاحتفال بصلاة الجمعة فى عهد الفاطميين مايدلنا على العظمة التى كانت تحيط بالخلفاء الفاطميين ، ويرينا السكرم الذى مكنهم من اجتذاب كثيرين من الأنصار إليهم وفى أيام الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، كانت تزدان الدور والحوانيت والأسواق التى يمر بها الخليفة فى طريقه إلى الجامع لصلاة الجمعة ، ويقف كثير من الناس على جانبى الطريق . وكان الاحتفال بوفاء النيل من أعظم الاحتفالات التى كانت تقام فى مصر فى العصر الفاطمى ولا يزال ذلك إلى اليوم .

(ج) الحفلات

وكان الخلفاء والأمراء يهتمون اهتماما بالغا بإقامة الحفلات التى تتجلى فيها مظاهر الروعة والجلال ، فقد أقام الخليفة العباسى المقتدر حفلة رائعة ، بمناسبة قدوم رسول إمبراطور الروم بغداد فى سنة ٣٩٥ هـ لطلب عقد الهدنة مع العباسيين[١] وقد وصف السيوطى[٢] هذا الاحتفال فقال : « وفى سنة ٣٠٥ هـ قدمت رسل ملك الروم بهدايا وطلبت عقد هدنة فعمل المقتدر موكبا عظيما ، فأقام العسكر وصفهم بالسلاح ؛ وهم مائة وستون ألفا ، من باب الشماسية إلى دار الخلافة ، وبعدهم الخدام وهم سبعة آلاف خادم ، ويليهم الحجاب وهم سبعمائة حاجب . وكانت الستور التى نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج ، والبسط اثنين وعشرين ألفا ، وفى الحضرة مائة سبع فى السلاسل إلى غير ذلك » .

كذلك احتفل الحاكم الفاطمى باستقبال رسول إمبراطور الروم ؛ فأمر بتزيين القصر فكان من بين الأكياس التى تحتوى على الحرير المشغول بالذهب كيس عليه رقم ٣٣١ . وقد نقل كله إلى الإيوان المعد لاستقبال الرسول وعلق على حوائطه ، فغدا الإيوان كله يتلألأ

---

(٥) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣١٨ .

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٣٧ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٥٣ .

بريق الذهب . وقد وضعت أمام الإيون قطعة على هيئة دراقة مرصعة بالأحجار الكريمة ، فكان لانعكاس أشعة الشمس عليها بريق يخطف الأبصار ويضيء ماحواليها(٣) .

ويتجلى اهتمام الأمويين بالأندلس بإقامه الحفلات والتأنق فيها ، من وصف استقبال الحكم المستنصر أردون ملك الجلالقة ، حين وفد على قرطبة فى سنة ٣٥١ هـ واستنجد بالحكم على منافسه وابن عمه شانجه، فجاء به غالب الناصرى وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم ؛ ثم تحركا بهم ثانى يوم نزولهم إلى قرطبة ، فأخرج المستنصر بالله إليهم هشام بن محمد بن عثمان المصحفى فى جيش عظيم كامل التعبية ، وقدموا إلى باب قرطبة ، فمروا بباب قصرها . فلما انتهى أردن إلى ما بين السدة وباب الجنان ، وسأل من مكان رمس الناصر لدين الله ، فأشير إلى ما يوازى موضعه من داخل القصر فى الروضة ؛ فخلع قلنسوته ، وخضع نحو مكان القبر ودعا ، ثم رد قلنسوته إلى رأسه .

زواج قطر الندى من الخليفة المعتضد :

كان المسلمون يهتمون بحفلات الزواج اهتماما بالغا ، فقد رأينا كيف بلغ إسراف خلفاء العصر العباسى الأول وبذخهم بما فعله الخليفة المهدى عند زواج ابنه هارون الرشيد من السيدة زبيدة ، وما أنفقه المأمون على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل الذى تجلى إسرافه وبذخه فى هذا الزواج . وقد تجلى بذخ العباسيين والطولونيين فى زواج الخليفة العباسى المعتضد من أسماء المعروفة بقطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون .

وقد استطاع خمارويه بما هيأه له بيت مال مصر ، أن يبذل الأموال الضخمة بذل من لا يخشى فقراً ولا يهاب عوزا ، فقد ذكر ابن دقماق(١) أنه « حمل معها ما لم ير مثله ، ولا سمع به إلا فى وقته » ، وذكر المقريزى (خطط جـ ١ ص ٣١٩) « أنه لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس إلا حمله معها » .فمن هذا الجهاز دكة من أربع قطع من الذهب، عليها قبة من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجوهر

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤١٥ .
(٢) الأنتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص٦٧
(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٧٤ .

لا يعرف لها قيمة ، ومائة هون من الذهب لدق الطيب ، وألف تكة ثمن الواحدة منها عشرة دنانير . وقد أمر خمارويه بعد أن فرغ من الجهاز بأن يبنى لابنته على رأس كل مرحلة قصر أشبه بالنزل أو مكان الاستراحة تنزل فيه فى طريقها إلى بغداد . وأعدت هذه القصور بكل ما تحتاج إليه ؛ فكانت فى سفرها ممتعة بجميع وسائل الراحة وأسباب الرفاهية كما لو كانت فى قصر أبيها . أما مبلغ نفقات هذا العرس فلم نقف عليه فى مصدر من المصادر التى رجعنا إليها . وقد ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ١٧٤) أن صداقها كان مليون درهم . وليس هذا بالشىء الكثير بجانب ما أنفق على تجهيزها ، إذا علمنا أن ابن الجصاص الجوهرى الذى عهد إليه بإعداد الجهاز ، نال جائزته وهى أربعمائة ألف دينار بقيت بعد إعداد كل ما تحتاج إليه العروس (١) .

كل هذا يدلنا على مبلغ الرخاء الذى شمل مصر فى عهد خمارويه ، وما كان من تقدم الصناعة ، ورواج التجارة ، وعمارة الأسواق لدرجة لم تبلغها فى غضون القرن الخامس الهجرى ، وهو العصر الذى عاش فيه المؤرخ والفقيه القضاعى الذى يقول : « ولا يعرف اليوم فى أسواق القاهرة تكة بعشرة دنانير إذا طلبت توجد فى الحال »(٢) . على أن هذا يدل من جهة أخرى على ما انطوى تحت هذا العمل وغيره من الأعمال من إفقار خمارويه للدولة من جراء زواج ابنته إلى الخليفة المعتضد العباسى . وقد ذكر لنا التنوخى (٣) أن قطر الندى لما وصلت إلى بغداد كان خمارويه فى شدة وكرب شديدين بسبب تجهيز ابنته الذى استنفذ كل ثروته . وليس أدل على صحة هذا القول من أنه احتاج إلى شمعة فلم يوفق إلى إيجادها لوقته ، فلعن ابن الجصاص الذى عده مصدر فقره وبلائه .

وقد أقيمت فى قصر خمارويه الحفلات والمآدب بمناسبة هذا الزواج ، واجتمعت النساء فى أحسن ملابسهن الحريرية وظهرن فى أجمل حليهن ، وارتدت قطر الندى ثوبا من الحرير الأبيض ، ووضع على رأسها إكليل من الذهب وطرحة مرصعة بالجواهر ، وعلى أذنيها قرط ثقيل الوزن على شكل حلقة من الذهب ، وفى أصابعها الخواتم ، وفى معصمها

---

(١) ابن دقماق ج ٤ ص ٦٧ .

(٢) المقريزى خطط ج ١ ص ٣١٩ .

(٣) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (طبعة مرجليوث) ص ٢٦٢ .

سوار من الذهب المرصع بالجواهر ، وزين وجهها بالأصباغ المختلفة ، فبدت فى أحسن زينة .

ومد السماط ، وزين بالأزهار ذات الرائحة الذكية والألوان المختلفة. وجلست العروس فى صدر السماط ، وجلست أمها عن يمينها وجدتها مياس عن يسارها . ووضع فى طرفى السماط قطعتان كبيرتان من الحلوى ، وعليه صحاف ملأى بألوان الطعام المختلفة .

خرجت قطر الندى من قصر أبيها فى موكب اخترق مدينة القطائع التى اشترك أهلها فى توديع ابنة الأمير الذى تقدم الموكب ، يحف به حرسه المختار يلبسون الأقبية ويتقلدون السيوف المحلاة بالذهب ، وهو يمتط فرسه الأشهب ، متقلدا سيفا بحمائل ، تكسوه الهيبة ، ويتبعه جيشه من المصريين والأتراك يحملون الدروع والسهام ، ومن السودانيين يرتدون الأردية والعمائم السود .

ولما وصلت قطر الندى إلى بغداد نزلت فى قصر صاعد ، وأقيمت الحفلات ودعيت النساء من علية القوم ، وكن يرتدين أفخر الثياب ويتزين بأنفس الحلى ، ومدت الأسمطة ، وعليهـــا ألوان الطعام ، على النحو الذى مدت به فى مصر ، وأحضرت القيان والمغنيات .

وكان من أثر الزواج أن ولى الخليفة المعتضد خمارويه جميع البلاد الممتدة من الفرات إلى برقة ، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء ، وخلع عليه اثنتى عشرة خلعة وسيفا وتاجا ووشاحا .

ولم يحتفل المؤرخون بنقل صور من الحفلات الشعبية للزواج وغيره ، ولـكن هذا يفهم ضمنا مما نقلوه من صور الحفلات الملـكية ، لأن ما يفعله الملوك تحتذيه الشعوب فى صور متفاوتة على حسب أقدارهم ومنازلهم . وما زال الناس فى كل عصر يقلدون الرؤساء وكبار الناس وينسجون على منوالهم فى مظاهر حيـــاتهم . والناس على دين ملوكهم .

٨ — أنواع التسلية

كان الناس فى هذا العصر يتلهون بلعبة الشطرنج التى عرفها المسلمون فى عهد الرشيد ثم انتشرت بين العرب ، وكانوا يلعبون على قطعة مربعة حمراء من أدم . وقد نقل المسعودى (١) عن الجاحظ أن ما اتفق عليه الناس من صور رقعة الشطرنج ست صور ، ظهر منها فى عهد الراضى الجوارحية ، نسبة إلى الجوارح ، وتتألف رقعتها من سبعة أبيات ثمانية ، وأمثلتها اثنا عشر فى كل جهة منها ستة ، كل واحد من الستة يسمى باسم جارحة من جوارح الإنسان التى يميز وينطق ويسمع ويبصر ويبطن ويسعى ، وهى سائر الحواس ، والخامس المشترك وهو الذى من القلب .

كذلك كان النرد من الألعاب التى اعتاد الناس أن يتلهوا بها فى العصر العباسى الأول. ويستعمل فى اللعب به ثلاثون حجرا وفصان ، على رقعة رسم اثنا عشر منزلا أو أربعة وعشرون منزلا . وقد شبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة اسما كنها ، ومنازل الرقعة بساعات الليل والنهار ، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل ، وما يخرج من الفصين إذا رمى بهما القضاء الجارى على العباد . والمشهور أن الشطرنج اختراع هندى وأن النرد من اختراع الفرس .

وكان سباق الخيل فى هذا العصر من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والأمراء والولاة وكبار رجال الدولة . وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة على أن يكون وسيلة للحصول على المال ، لما فيه من تهيئة الناس لركوب الخيل عند الحرب . وبلغ من شغف الناس بالسباق أن كان السابق يستولى فى بعض الأحيان على الحصان المسبوق (٢) وقد ورد فى المسعودى (٣) وصف شائق لخيل السباق والشروط التى يجب أن تتوافر فيها ، ووصف تاج الدولة أبو الحسين أحمد بن عضد الدولة الصيد بالفهود فى قصيدة طويلة رواها الثعالبى (٤) .

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ ص ٥٢١ — ٥٢٣ ، ٥٢٥ .
(٢) متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢١٥ .
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٣٥ .
(٤) يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢٠٠ .

وكانت السباحة والمصارعة من أهم أنواع التسلية عند العباسيين . ففى عهد الخليفة المستكفى (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ) « انهمك شباب بغداد فى تعلم المصارعة والسباحة ، حتى صار السباح يسبح وعلى يده كانون ، وفوقه قدرة ، فيسبح حتى ينضج اللحم[١] » . وقد جعل أحمد بن طولون فى قصره بمدينة القطائع ميدانا فسيحا يضرب فيه بالصوالجة ، وهى لعبة الكرة المعروفة عند الإنجليز وغيرهم باسم پولو ، وهى شبيهة بلعبة كرة القدم[٢] .

وقد عنى أحمد بن طولون بحلبات السباق ، فبنى مكانا لعرض الخيل سماه « المنظر » . ووصف القضاعى المؤرخ هذا العرض ، فقال : إنه من عجائب الإسلام الأربعة وهى : هذا العرض ، ورمضان بمكة ، والعيد بطرسوس ، والجمعة ببغداد . وأضاف هذا المؤرخ أنه بقى منها فى أيامه شهر رمضان بمكة ، والجمعة ببغداد ، وقل الاهتمام بالاحتفال بيوم الجمعة ببغداد بعد استيلاء هولاكو التتارى عليها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م[٣]) .

وكانت حلبة السباق عند الطولونيين بمثابة الأعياد ، لما كان يصحبها من إقامة معالم الزينة ، وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة التامة . وفى هذه الحلبات يجلس الناس لمشاهدة السباق ، كما جرت عادتهم بمثل ذلك فى الاحتفال بالأعياد . فإذا جاء وقت السباق ، أطلقت الخيل إلى غايتها ، فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضا حتى نهاية الشوط .

وقد أولع خمارويه بالصيد ولعا شديدا ، فكان يخرج فى جهات الأهرام والعقاب وغيرها ، ولا يكاد يسمع بسبع إلا قصده فى صحبة رجال عليهم اللبود ، فيدخلون فى الغابة ويتناولون الأسد بأيديهم وهو سليم ، ثم يضعونه فى قفص من الخشب محكم الصنعة يسعه وهو قائم . فإذا عاد خمارويه من صيده حمل بين يديه القفص الذى فيه السبع ، واجتمعت العامة لمشاهدة السبع[٤] .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٤ .
(٢) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣١٥ .
(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣١٨ — ٣١٩ .
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣١٨ .

وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمى ، نكمارويه بن أحمد بن طولون ، مشغوفا بجوارح الطير الغريبة ، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان . وكان مغرما أيضا بالصيد ، وخاصة صيد السباع(١) . وولع بعض الخلفاء الفاطميين بالصيد ؛ وكان الخليفة الآمر يعطى الرهبان فى دير نهيا(٢) بالقرب من الجيزة عشرة آلاف درهم كلما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير(٣) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٠٠ .

(٢) وصف الشابشتى (Aziz Suryal Atiya : Some Egyptian Monasteries According to the Unpublished Ms. of al — Shabushit's Kitab Al Diyarat, p. 17) أن دير نهيا بالجيزة « من أحسن الديارات وأنزهها وأطيبها ، عامر برهبانه وسكانه . وله فى النيل منظر عجيب ، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته . فاذا انصرف الماء وزرع ، أظهرت أراضيه غرايب النوار وأصناف الزهر ، فهو من المتنزهات الموصوفة والبقاع المشهورة . وله خليج يجتمع إليه سايز الطيور ، فهو أيضا متصيد حسن » .

(٣) أبو صالح : كنائس وأديرة مصر ص ٧٧ — ٧٨ . ناصر خسر : Kasir - i Khusrau : Safar Nameh, pp. 155 — 156. انظر كتاب « الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٢١٧ ، ٢٤٦ .

ملاحق الكتاب

الملحق الاول

كيف كان عضد الدولة يقضى يومه ؟(١)

« فإنه كان يباكر دخول الحمام ؛ فإذا خرج منه ولبس ثيابه أدى فرض الصلاة ، ودخل إليه خواصه وحواشيه ، فجلس منهم أبو القاسم المطهر بن عبد الله وزيره ومن قام مقامه بعده ، فسأله عما عمله فيما سبق التقدم به إليه ، فيخبره بذلك ثم يذكر له ما عرض من الأمور ويستأذنه فى كل أمر ، فيوعز إليه بما يعتمده فيه ، ويفعل مثل ذلك مع أبى الحسن على بن عمارة وأبى عبد الله بن سعدان عارضى الجيش : ذاك للديلم وهذا للأتراك والأعراب والأكراد . فإذا ترحل النهار سأل عن ورود النوب المترددة بالكتب ، ولها وقت معلوم تصل فيه وتراعى من ساعات النهار ؛ فإن اتفق أن تتأخر قامت القيامة ووقع البحث عن العارض العائق ، فإن كان بعائق ظاهر فيه عذر قبل ، أو عن أمر يحتاج إلى إزالته أزيل ، أو من تقصير النوبيين أنزل العذاب بهم . ولقد ذكر بعض الطراد(٢) أن أحد المرتبين قالت له امرأته : قد طبخنا أرزا فتوقف لتأكل منه وتمضى ، فتوقف بقدر ما أكل ، وتأخرت النوبة ذلك المدى ، فضرب الطراد والمرتبون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاثة آلاف عصا . لا جرم أن النوب كانت تصل من شيراز فى سبعة أيام . وكان يحمل مع المرتبين بواكير الفواكه والمشموم من نواحى فارس وخوزستان فتصل طرية سليمة . وقيل أن بعض أصاغر الحواشى حمل فى النوبة من همذان فى كنانة(٣)، دنانير يسيرة إلى منزله . وقد كان عادتهم جارية بذلك ، فقصرت عن أهلها . وعرف عضد الدولة الخبر ، فلم يزل يكشف عن ذلك إلى أن ظهر للخرائطى آخذ الدنانير فأمر بقطع يده .

---

(١) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ج ٣ ص ٤٠ — ٤٣ .

(٢) من المطاردة وهى الإجراء للسباق ، والمراد هنا أحد المشرفين فى محاط البريد .

(٣) فى الأصل كتانة ، والصواب كنانة وهى جعبة السهام وتصنع من أدم .

فإذا وصلت النوبة كان فض ختومها وفتح خرائطها وإخراج الكتب منها بحضرته ، ويأخذ منها ما كان إلى مجلسه . ويخرج الباقى إلى ديوان البريد فيفرق على أربابه ، ثم يقرأ الكتب إليه كتابا كتابا ويطرحه إلى أبى القاسم عبد العزيز . فإذا تكامل وقوفه عليها جدد أبو القاسم قراءتها عليه ، فيأمره فى جواب كل فصل بما يوقع به تحته ، وأخرج منها ما يأمر بإخراجه ليوجه عليه المطهر بن عبد الله أو من يجرى مجراه فى تذكرة ، وهى أبدا بين يديه ، يعلق فيها ما يعرض له . ثم يسأل عن الطعام عند فراغه من ذلك . فإذا حضر الوقت الذى رسمه بالأكل فيه ، استدعاه فأصاب منه ، وطبيب النوبة قائم على رأسه ، وهو يسأله عن شىء شىء من منافع الأغذية ومضارها ، ثم يغسل يده وينام . فإذا انتبه جدد الوضوء وصلى الصلاة الوسطى ، وخرج إلى مجلس الشرب فجلس وحضر الندماء والملهون .

ووافى أبو القاسم بن عبد العزيز فقعد بحضرته على رسمه ، وعرض عليه ما كتبه الكتاب أو كتبه هو بنفسه من أجوبة الكتب الواردة ، فربما زاد فيها أو نقص منها ، ثم تصلح وتختم وتجعل فى إسكدارها ، وتحمل إلى ديوان البريد فتصدر فى وقتها . ومتى غاب أبو القاسم بن عبد العزيز لأمر يقطعه أو تأخر فى داره واحتيج إلى كتاب يكتب ، يستدعى كاتب النوبة ، فأجلس بين يديه ، وتقدم بما يريده إليه ، وأملاه عليه . وهو مع ذلك يشرب ويسمع الغناء ويسأل عما يمضى من أشعاره وما يجب معرفته من أخباره ، ولا يزال على ذلك إلى أن يمضى صدر الليل ثم يأوى إلى فراشه .

وإذا كان يوم موكب برز للأولياء ولينهم ببشر وتأنيس تعلوها هيبة ووقار ، وأجاب كل ذى حاجة بما يجب فى السياسة من بذل ومنع ، وتفرق الناس عند انتصاف النهار ، وأقام أصحاب الدواوين وكتابهم إلى حين غروب الشمس . فأما عموم الأيام فإن الأمر يجرى على ما تقدم ذكره ...

فأما ما ذكر فى أمر تدبيره لجنده ، فقد كانت أموالهم مطلقة فى أوقاتها متتبعة فى تصرفاتها ، وأكثر كتابهم وأصحابهم عـونا له عليهم ، وطبل العطاء يضرب فى كل يوم ، ويحضر من تنتهى إليه الدعوة من القواد ، ومعه أصحابه بأحسن رتبة ، فقبض ماله ، والزيادات فى الأصول محظورة على العموم ، إلا عند الفتوح وما تدعو السياسة إليه من استمالة القلوب » .

الملحق الثانى

سياسة يعقوب بن الليث الصفار(١)

« كانت سياسة يعقوب بن الليث لمن معه من الجيوش سياسة لم يسمع بمثلها فيمن سلف من الملوك من الأمم الغابرة من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف ، وحسن انقيادهم لأمره واستقامتهم على طاعته ، لما كان قد شملهم من إحسانه وغمرهم من بره وملأ قلوبهم من هيبته.. واتخذ لنفسه عريشا من خشب يشبه السرير حيثما توجه من مسيره ، فيكثر الجلوس عليه ويشرف منه على أهل عسكره وعلى قضيم(٢) دوابه ، ويؤمن الخلل من وكلائه ؛ فإذا رأى شيئا يكرهه بادر بتغييره . وقد كان انتخب من أصحابه ألف رجل على اختبار لهم والغنى الظاهر منهم والنكاية فى حروبهم ؛ فجعلهم أصحاب الأعمدة الذهب ، كل عمود منها فيه ألف مثقال من الذهب ، ثم يليهم فى اللباس والغنى فوج ثان أصحاب الأعمدة الفضة . فإذا كان فى الأعياد أو فى الأيام التى يحتاج فيها إلى مباهاة الأعداء والاحتفال ، دفع إليهم تلك الأعمدة وإنما ضربت هذه الأعمدة عدة للنوائب .

« وسئل بعض ثقاته ممن ينظر حاله عن أشغاله فى خلواته وعن مجالسته مع أهل بطانته، وهل يسير مع أحد أو يجالسه ، فذكر أنه لا يطلع أحدا على سره ، ولا يعرف أحد بتدبيره وعزمه ، و [يكون] أكثر نهاره خاليا بنفسه يفكر فيما يريده ، ويظهر غير ما يضمره ، ولا يشرك أحد فيما يريده برأى ولا غيره . وإن تفرجه واشتغاله بغلمان صغار يتخذهم ويؤدبهم ويخرجهم ويدعوهم ويدفع لهم ما قد عمله لهم من السيور يتضاربون بها بين يديه، ففى هذا أكثر شغله إذا فرغ من تدبيره . ولما وقع الصفار الحسن بن زيد الحسينى بطبرستان ، وذلك فى سنة ستين ومائتين ، وقيل سنة تسع وخمسين ومائتين ، وانكشف الحسن ابن زيد رأمعن يعقوب فى الطلب ، وكانت معه رسل السلطان قد قصدوه بكتب ورسالة من المعتمد وهم راجعون فى طلب الحسن بن يزيد ، قال له بعضهم لما رأى من طاعة رجاله وما كان منهم فى تلك الحرب . ما رأيت أيها الأمير كاليوم ؟ قال له الصفار . وأعجب منه ما أربك إياه ؛ ثم قربوا من الموضع الذى كان فيه عسكر الحسن بن زيد ، فوجدوا

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٤٣ — ٤٤٥ .

(٢) قضيم الدواب صوتها وهى تأكل ، من قضت الدابة الشعير أى كسرته بأطراف أسنانها .

البدر والكراع والسلاح والعدد وجميع ما خلف فى العسكر حين الهزيمة ، على حاله لم يلتبس أحد من أصحابه منه بشىء ، ولا دنوا إليه معسكرين بالقرب منه ، من حيث يرونه بالموضع الذى خلفهم فيه الصفار ، فقال له الرسول . هذه سياسة ورياضة راضهم الأمير بها إلى أن تأتى له منهم ما أراد . وكان لا يجلس إلا على قطعة مسح يشبه أن يكون طوله سبعة أشبار فى عرض ذراعين أو أرجح ، وإلى جانبه ترسه وعليه اتكاؤه ، وليس فى مضربه شىء غيره . فإذا أراد أن ينام من ليله أو نهاره ، اضطجع على ترسه ونزع راية فيجعلها مخدته ، وأكثر لباسه خفتان مصبوغ فاخى .

« وكان من سنته [أن] للقواد والرؤساء والعظماء عنده مراتب فى الدخول بباب مضربه ، بحيث تقع عينه عليهم ويرى مداخلهم ، فيمرون مع أطناب[1] الشقاف إلى خيمة مضروبة ، بحيث لا يرى هو موضعها ؛ لكنه يرى مداخلهم إليها ومخرجهم منها . فمن احتاج إليه منهم واحتاج إلى كلامه أو أمره أو نهيه دعاه فأمره ، وكان دخولهم بحيث يقع نظره عليهم عوضا من السلام عليه . ولم يكن لأحد أن يتقدم إلى باب مجلسه إلا رجل من خواصه يعرف بالعزيز وإخوته ، وله من وراء خيمته خيمة تقرب من أطناب مجلسه فيها غلمان من خواصه . فإذا احتاج إلى أمر يأمره به ، صاح بهم فخرجوا إليه ، وإلا فهو فى أكثر نهاره وليله فى ذلك الموضع لا يقومون على رأسه ، وخيمته من داخل أخبية[2] مطنبة كلها ، يدور فيها خمسمائة غلام يبيتون من داخل مضربه ، على كل نفس منهم ثقة وكل يتفقد أحواله لئلا يكون منهم عبث أو فساد فهو المأخوذ به . . . وقال بعض من ورد إليه برسالة السلطان (يعنى الخليفة العباسى) : . أيها الأمير ؟ أنت فى رياستك ومجلسك ليس فى خيمتك إلا سلاحك ومسح[3] أنت عليه قال : إن رئيس القوم يأتم به أصحابه فى أفعاله وسيرته ، فلو استعملت ما ذكرت من الأثاث لأثقلنا البهائم ولأتم بى فى فعلى من فى عسكرى ، ونحن نقطع فى كل يوم المهامة[4] والمفاوز والأودية والقيعان[5] . ولا يصلح لنا إلا التخفيف . وكان قليل الاستعمال للبغال فى عسكره ، وكان فى عسكره خمسة آلاف جمل بختى[6] وأضعاف عددها حمير

---

(١) الطنب بضم الطاء وسكون النون (أوضمها) : الحبل تشد به الخيمة ؛ ومطنب : شدود بالحبال

(٢) الخباء هو كل ما يعمل من وبر أو صوف ، وقد يكون من شعر ، والجمع أخبية من كساء وأكسية ، ويكون على عمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك فهو بيت .

(٣) المسح بالكسر اليلاس أو اللباس وجمعها مسوح كحمل وحمول .

(٤) هام يهيم على وجهه لا يدرى أين يتوجه ، والهياء المفازة التى لا ماء فيها ، ورجل هيمان عطشان

(٥) القاع والقيعة ، وجمعها قيعان ، المستوى من الأرض الذى لا ينبت .

(٦) البختى بضم الباء وتسكين الخاء واحد البخت والبخاتى وهى الإبل الخراسانية ؛ وفى الأصل جمل بخت

شهب كالبغال ، وهى الحمير المعروفة بالصفارية تحمل الأثقال عوضا عن البغال . وكان السبب فى ذلك أنه إذا نزل خليت الجمال والحمير للرعى وليس فى وسع البغال ذلك .

الملحق الثالث

رد الإخشيد على كتاب رومانوس إمبراطور الروم[1]

وكتب محمد بن طغج (صاحب الديار المصرية) وما معها من البلاد الشامية والأعمال الحجازية ، إلى أرمانوس ، ملك الروم : من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين . إلى أرمانوس عظيم الروم ومن يليه . . .

أما بعد ، فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا وإسحاق رسوليك ؛ فوجدناه مفتتحا بذكر فضيلة الرحمة ، وما نمى عنا إليك وصح من شيمنا فينا لديك ، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة فى رعايانا وما وصلت به من هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخليص الأسرى إلى [غير] ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه . . .

وإنك إنما خصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك ؛ فإن ذلك لو كان حقا وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه ، وكان لك فى ترك مكاتبتنا غنم ورشد ، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ، ولا يراه وصمة ولا نقيصة ولا عيبا ، ولا يقع فى معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة . فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار ، ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته . والذى تجشمته من مكاتبتنا ، إن كان كما وصفته ، فهو أمر سهل يسير لأمر عظيم خطير ، وجل نفعه وصلاحه وعائدته تخصكم . لأن مذهبنا انتظار إحدى الحسنيين ؛ فمن كان منا فى أيديكم فهو على بينة من ربه وعزيمة صادقة من أمره وبصيرة فيما هو بسبيله ، وإن فى الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه وحميد عاقبته ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاذه من أن يفتنه[2] ولم يعده (يحفظه) من أن يبتليه هذا إلى أوامر الإنجيل الذى هو إمامكم ، وما توجبه عليكم عزائم سياستكم

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ١٠ — ١٨ .

(٢) يعنى يبتليه بأمور على سبيل المحنة والتمحيص .

والتوصل إلى استنقاذ أسرائكم . ولولا أن إيضاح القول فى الصواب أولى بنا من المسامحة فى الجواب : لأضربنا عن ذلك صفحا ، إذ رأينا أن نفس السبب الذى من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم أو عدا عنهم إلى من حل محلنا فى دولتهم ، بل إلى من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من منعه ورد ملتمسه ممن جاوره ، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله فى إجابتهم ، ولا عار على أحد وإن جل قدره فى ردهم . ومن وثق فى نفسه ممن جاوره ، وجد قصده أسهل السبيلين عليه وأدناهما إلى إرادته حسب ما تقدم . وكذلك كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا ولم يقرب من منزلتنا . فمالكنا عدة ، كان يتقلد فى سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن[1] ...

وأما الفداء ورأيك فى تخليص الأسرى ، فإنا وإن كنا واثقين لمن فى أيديكم بإحدى الحسنيين ، وعلى بينة لهم من أمرهم ، وثبات من حسن العاقبة وعظم المثوبة ، عالمين بحالهم ، فإن فيهم من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا ولذتها ، سكونا إلى ما يتحققه من حسن المنقلب وجزيل الثواب ، ويعلم أن الله قد أعاذه من أن يفتنه ولم يعده من أن يبتليه . وقد تبينا مع ذلك فى هذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضون والسلف الصالحون ، فوجدنا ذلك موافقا لما التمسته وغير خارج عما أحببته ؛ فسررنا بما تيسر منه ، وبعثنا الكتب والرسل إلى عمالنا فى سائر أعمالنا ، وعزمنا عليهم فى جمع كل من قبلهم وأتباعهم بما وفر الإيمان فى إنفاذهم ، وبذلنا فى ذلك كل ممكن ، وأخرجنا إجابتك عن كتابك ليتقدم فعلنا قولنا ، وإنجازنا وعدنا ، ويوشك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وقع أحسن الموقع منك إن شاء الله ...

والحمد لله أحق ما ابتدىء به وختم بذكره ، وصلى الله على محمد نبى الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلم تسليما » .

---

(١) ورد فى هذا الكتاب أن سلطان الإخشيد شمل ما كان يسمى قديما ملك مصر ، وممالك اليمن ، وأجناد الشام التى منها جند حمص ، وجند دمشق ، وجند الأردن ، وجند فلسطين ، وما يتقلده من أمر مكة والمدينة ، وأن سياسته لهذه البلاد كانت ترمى إلى تأليف قلوب الرعية وجمعهم على الطاعة وإقرار الأمن والدعة فى المعيشة وكسبها المودة والمحبة — صبح الأعشى ج ٧ ص ١٣ — ١٤.

الملحق الرابع

الموقعة التى دارت ببلاد الشام بين محمد بن سليمان الكاتب والحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة(١)

« ولما كان فى يوم الثلاثاء لست ليال خلون من المحرم (سنة ٢٩١ هـ) ، رحلت من الموضع المعروف بالقروانة نحو موضع يعرف بالعليانة فى جميع العسكر من الأولياء ، وزحفنا بهم على مراتبهم فى القلب والميمنة والميسرة وغير ذلك ، فلم أبعد أن وافانى الخبر بأن الكافر القرمطى أنفذ النعمان ابن أخى إسماعيل بن النعمان أحد دعاته فى ثلاثة آلاف فارس وخلق من الرجالة ، وأنه نزل بموضع يعرف بتمنع ، بينه وبين حماه اثنا عشر ميلا . فاجتمع إليه جميع من كان بمعرة النعمان وبناحية الفصيص وسائر النواحى من الفرسان والرجالة . فأسررت ذلك عن القواد والناس جميعا ولم أظهره ، وسألت الدليل الذى كان معى عن هذا الموضع ، وكم بيننا وبينه ، فذكر أنه ستة أميال ، فتوكلت على الله عز وجل ، وتقدمت إليه فى المسير نحوه ، فمال بالناس جميعا ، وسرنا حتى وافيت الكفرة ، فوجدتهم على تعبئة ، ورأينا طلائعهم .

فلما نظروا إلينا مقبلين ، زحفوا نحونا ، وسرنا إليهم . فافترقوا ستة كراديس ، وجعلوا على ميسرتهم ، على ما أخبرنى من ظفرت به من رؤسائهم ، مسرورا العليصى وأبا الحمل وغلام هارون العليصى وأبا العذاب ورجاء وصافى وأبا يعلى العلوى فى ألف وخمسمائة فارس ، وكمنوا كمينا فى أربعمائة فارس خلف ميسرتهم بإزاء ميمنتنا ، وجعلوا فى القلب النعمان العليصى ، والمعروف بأبى الخطى والحمارى وجماعة من بطلانهم فى ألف وأربعمائة فارس ، وثلاثة آلاف راجل ، وفى ميمنتهم كليبا العليصى والمعروف بالسديد العليصى والحسين بن العليصى وأبا الجراح العليصى وحميدا العليصى وجماعة من نظرائهم فى ألف وأربعمائة فارس ، وكمنوا مائتى فارس . فلم يزالوا زفا(٢) إلينا ونحن نسير نحوهم غير متفرقين ، متوكلين على الله عز وجل . وقد استحثت الأولياء والغلمان

---

(١) الطبرى جـ ١١ ص ٣٨٦ — ٣٨٨ .

(٢) زف يزف زفا وزفوفا وزفيفا : أسرع .

وسائر الناس غيرهم ، ووعدتهم . فلما رأى بعضنا بعضا حمل الكردوس الذى كان فى ميسرتهم ضربا بالسياط ، فقصد الحسين بن حمدان وهو فى جناح الميمنة . فاستقبلهم الحسين بارك الله عليه وأحسن جزاءه بوجهه وبموضعه من سائر أصحابه برماحهم ، فكسروها فى صدورهم ، فانفلوا عنهم .

وعاود القرامطة الحمل عليهم ، فأخذوا السيوف واعترضوا ضربا للوجوه ، فصرع من الكفار الفجرة ستمائة فارس فى أول واقعة ، وأخذ أصحاب الحسين خمسمائة فرس وأربعمائة طوق فضة ، وولوا مدبرين مفلولين ، واتبعهم الحسين فرجعوا عليه ، فلم يزالوا حملة وحملة . وفى خلال ذلك يصرع منهم الجماعة بعد الجماعة ، حتى أفناهم الله عز وجل ، فلم يفلت منهم إلا أقل من مائتى رجل . وحمل الكردوس الذى كان فى ميمنتهم على القاسم بن سيما ويمن الخادم ومن كان معهما من بنى شيبان وبنى تميم ، فاستقبلوهم بالرماح حتى كسروها فيهم . واعتنق بعضهم بعضا ، فقتل من الفجرة جماعة كثيرة ، وحمل عليهم فى وقت حملتهم خليفة بن المبارك ولؤلؤ ، وكنت قد جعلته جناحا لخليفة فى ثلثمائة فارس ، وجميع أصحاب خليفة وهم يعاركون بنى شيبان وتميم ، فقتل من الكفرة مقتلة عظيمة واتبعوهم . فأخذ بنو شيبان منهم ثلثمائة فرس ومائة طوق ، وأخذ أصحاب خليفة مثل ذلك .

وزحف النعمان ومن معه فى القلب إلينا ، فحملت ومن معى ، وكنت بين القلب والميمنة . وحمل خاقان ونصر القشورى ومحمد بن كمشجور ومن كان معهم فى الميمنة ، ووصيف موشكير ومحمد بن إسحاق كنداچيق وابنا كيغلغ والمبارك القمى وربيعة بن محمد ومهاجر بن طليق والمظفر بن حاج وعبد الله بن حمدان وحى الكبير ووصيف البكتمرى وبشر البكتمرى ومحمد بن قراطغان . وكان فى جناح الميمنة جميع من حمل على من فى القلب ومن انقطع ممن كان حمل على الحسين بن حمدان ، فلم يزالوا يقتلون الكفار فرسانهم ورجالتهم حتى قتلوا أكثر من خمسة أميال . ولما أن تجاوزت المصاف بنصف ميل ، خفت أن يكون من الكفار مكيدة فى الاحتيال على الرجالة والسواد . فوقفت إلى أن لحقونى ، وجمعتهم ، وجمعت الناس إلى ، وبين يدى المطرد المبارك مطرد أمير المؤمنين . وقد حملت فى الوقت الأول ، وحمل الناس .

ولم يزل عيسى النوشرى ضابطا للسواد من مصاف خلفهم مع فرسانه ورجالته على ما رسمته له . فلم يزل من موضعه إلى أن رجع الناس جميعا إلى من كل موضع .

وضربت مضربى فى الموضع الذى وقفت فيه حتى نزل الناس جميعا . ولم أزل واقفا إلى أن صليت المغرب ، حتى استقر العسكر بأهله ، ووجهت فى الطلائع ، ثم نزلت وأكثرت حمدا لله على ما هنأنا به من النصر ، ولم يبق أحد من قواد أمير المؤمنين وغلمانه ولا العجم وغيرهم غاية فى نصر هذه الدولة المباركة ، فى المناصحة لها إلا بلغوها ، بارك الله عليهم جميعا . ولما استراح الناس خرجت والقواد جميعا لنقيم خارج المعسكر إلى أن يصبح الناس خوفا من حيلة تقع . وأسأل الله تمام النعمة وإيزاع[1] الشكر . وأنا ، أعز الله سيدنا الوزير ، راحل إلى حماه ، ثم أشخص إلى سلمية بمن الله تعالى وعونه ، فمن بقى من هؤلاء الكفار مع الكافر ، فهم بسلمية ، فإنه قد صار إليها منذ ثلاثة أيام ، واحتاج إلى أن يتقدم الوزير بالكتاب إلى جميع القواد وسائر بطون العرب من بنى شيبان وتغلب وبنى تميم ، يحزبهم جميعا الحير على ما كان فى هذه الوقعة ، فما بقى أحد منهم ، صغير ولا كبير ، غاية ، والحمد لله على ما تفضل به ، وإياه أسأل تمام النعمة » .

اللمحة الخامسة

الجدل بين طائفتى المعتزلة وأهل السنة والجماعة[2]

« ثم لما كثرت العلوم والصنائع ، وولع الناس بالتدوين والبحث فى سائر الأنحاء ، وألف المتكلمون فى التنزيه ، حدثت بدعة المعتزلة فى تعميم هذا التنزيه فى السلوب[3] ، فقضوا بنفى صفات المعانى من العلم والقدرة والإرادة والحياة زائدة على أحكامها ، لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم ، وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها . وقضوا بنفى السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام ، وهو مردود لعدم اشتراط البنية فى فى مدلول هذا اللفظ . وإنما هو إدراك المسموع أو المبصر . وقضوا بنفى الكلام لشبه ما فى السمع والبصر ، ولم يعقلوا صفة الكلام التى تقوم بالنفس ، فقضوا بأن القرآن مخلوق ،

---

(١) التوزيع كالايزاع ، معناه القسمة والتفريق أى توزيع الشكر على الناس.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٥ — ٤٠٦ .

(٣) أى فى أنواع النفى والسلب بتنزيه الله عن كل ما لايليق به من الصفات .

بدعة صرح السلف بخلافها ، وعظم ضرر هذه البدعة ، ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم(١) فحمل الناس عليها ، وخالفهم أئمة السلف ، فاستحل لخلافهم أبشار(٢) كثير منهم ودماؤهم وكان ذلك سببا لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد ، دفعا فى صدور هذه البدع . وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعرى إمام المتكلمين ، فتوسط بين الطرق ، ونفى التشبيه ، وأثبت الصفات المعنوية ، وقصر التنزيه على ماقصره عليه السلف ، وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه ، فأثبت الصفات الأربع المعنوية ، والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل . ورد على المبتدعة فى ذلك كله ، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح ، وكمل للعقائد فى البعثة ، وأحوال الجنة والنار ، والثواب والعقاب ، وألحق ذلك الكلام فى الإمامة ، لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية من قولهم إنها من عقائد الإيمان ، وبه يجب على النبى تعيينها والخروج عن العهدة(٣) فى ذلك لمن هى له ، وكذلك على الأمة(٤) . وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية ، ولا تلحق بالعقائد ؛ فلذلك ألحقوهما بمسائل هذا الفن . . . وكثر أتباع الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، واقتفى طريقته من بعده تلاميذه كابن مجاهد(٥) وغيره ، وأخذ عنهم القاضى أبو بكر الباقلانى(٦) ، فتصدر للامامة فى طريقتهم ، وهذبها ، ووضع المقدمات

---

(١) أخذها المأمون والمعتصم عن أحمد بن أبى داود وبشر المريسى وغيرهما من متقدمى المعتزلة .

(٢) جمع بشر وهو الجلد ، يعنى استحل قتلهم وجلدهم .

(٣) أى تبرئة الذمة ببيان من تكون له الخلافة .

(٤) يريد أنه من الواجب على الأمة تعيين الإمام أو الخليفة إن لم يعينه سلفه .

(٥) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد ، الطائى البصرى ثم البغدادى ، أحد شيوخ المالكية وصاحب أبى الحسن الأشعرى ، وناصر مذهب أهل السنة ، غلب عليه علما الأصول والكلام ، وكان حسن الدين جميل الطريقة . وعنه أخذ القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المالكى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ علم الكلام ، وهو الذى راوده الباقلانى على الخروج إلى شيراز لمناظرة المعتزلة بحضرة فناخسرو ، كما ذكر المقرى فى أزهار الرياض .

وهو غير أبى بكر بن مجاهد شيخ القراء ، لأن هذا متقدم الوفاة ، وليس معاصرا للباقلانى (راجع ابن مجاهد المتكلم على طريقة الأشعرى فى تاريخ بغداد للخطيب ، الترجمة ٣٦١ ، وفى الديباج المذهب فى علماء المذهب لابن فرحون اليعمرى المالكى (انظر هامش المقرى : أزهار الرياض فى أخبار عياض ج ٣ ص ٨٥ ـ ٨٦ طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر بإشراف الأستاذ مصطفى السقا وآخرين) .

(٦) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٨١) « أنه كان على مذهب الأشعرى ، وأنه صنف كتبا كثيرة فى علم الكلام ، وكان أوحد زمانه ، وانتهت إليه الرياسة فى مذهبه .. وكان كثير التطويل فى المناظرة مشهورا بذلك عند الجماعة » . وتوفى فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٣ هـ .

العقلية التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار . . . وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الإيمانية فى وجوب اعتقادها ، لتوقف تلك الأدلة عليها ، وإن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول . وجملت هذه الطريقة ، وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية إلا أن صور الأدلة تعتبر بها الأقيسة(١) ولم تكن حينئذ ظاهرة فى الملة ، ولو ظهر منها بعض الشىء فلم يأخذبه المتكلمون ، لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية بالجملة. فكانت مهجورة عندهم لذلك » .

الملحق السادس

استقبال الحكم المستنصر الأموى بالأندلس ، أردون ملك جليقية حين وفد عليه فى سنة ٣٥١ هـ واستنجد به على منافسه وابن عمه شانجه(٢)

« وأمر المستنصر بإنزال أردون فى دار الناعورة ، وقد كان تقدم فرشها بأنواع الغطاء والوطاء ، وانتهى من ذلك إلى الغاية ، وتوسع له فى الكرامة ولأصحابه ، فأقام بها الخميس والجمعة . فلما كان يوم السبت ، تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد إقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال فى ذلك من العدد والأسلحة والزينة . وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح ، وقعد الإخوة وبنوهم ، والوزراء ونظراؤهم صفا فى المجلس ، فيهم القاضى منذر بن سعيد ، والحكام والفقهاء . فأتى محمد بن القاسم بن طملس بالملك أردون وأصحابه ، وعالى لبوسه ثوب ديباجى رومى أبيض ، وبليوال من جنسه وفى لونه . وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر. وقد حفته جماعة من وجوه الذمة بالأندلس ، يؤنسونه ويبصرونه ، فيهم وليد بن حزون قاضى النصارى بقرطبة ، وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما . فدخل بين صفى الترتيب ، يقلب الطرف فى نظم الصفوف ، ويجيل النظر فى كثرتها وتظاهر (قوة) أسلحتها ورائق حليتها فراعهم ما أبصروه ، وصلبوا على وجوههم ، وتأملوا ناكسى رءوسهم غاضين من جفونهم ،

---

(١) يريد أن الأدلة تتوقف صحتها ونقدها على الأقيسة المنطقية ، ولم تكن هذه الصناعة المنطقية فاشية فى أهل الملة الإسلامية لذلك العهد ، وما وجد منها كان مجفوا من علماء الدين لاتصاله بعلوم الفلسفة .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٣ — ١٨٦ ، أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٨٨ — ٢٩٤ .

قد سكرت أبصارهم(١) ، حتى وصلوا إلى باب الأقباء ، أول باب قصر الزهراء . فترجل جميع من كان خرج إلى لقائه، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم حتى انتهوا إلى باب السدة. فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشى على الأقدام، فترجلوا ، ودخل الملك أردون وحده راكبا مع محمد بن طملس ، فأنزل فى برطل(٢) البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التى بدار الجند ، على كرسى مرتفع مكسو الأوصال(٣) بالفضة. وفى هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجه بن ردمير الوافد على الناصر لدين الله رحمه الله تعالى . فقعد أردون على الكرسى ، وقعد أصحابه بين يديه ، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه ، فتقدم يمشى وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح .

فلما قابل المجلس الشرقى الذى فيه المستنصر بالله ، وقف وكشف رأسه وخلع برنسه ، وبقى حاسرا إعظاما لما كان له من الدنو إلى السرير ، واستنهض ، فمضى بين الصفين المرتبين فى ساحة السطح إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو فلما قابل السرير خر ساجدا سويعة ، ثم استوى قائما ، ثم نهض خطوات ، وعاد إلى السجود ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدى الخليفة ، وأهوى إلى يده ، فناوله إياها ، وكر راجعا متقهقرا على عقبه ، إلى وساد ديباج مثقل بالذهب ، جعل له هنالك ، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير . فجلس عليه ، والبهر قد علاه ، وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممتثلين فعله فى تكرير الخنوع ، وناولهم الخليفة يده ، فقبلوها وانصرفوا متقهقرين ، فوقفوا على رأس ملكهم ، ووصل بوصولهم وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة ، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم . وأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده أمامه وقتا ريثما يفرخ روعه (يطمئن) فلما رأى أن قد خفض عليه (اطمأن فى المجلس) افتتح تكليمه . . .

فكرر أردون الخضوع ، وأسهب فى الشكر ، وقام للانصراف مقهقرا ، لا يولى الخليفة ظهره ، وقد تكنفه الحفدة من جلة الفتيان ، فأخرجوه إلى المجلس الغربى فى السطح ، وقد علاه البهر وأذهله الروع ، من هول ما باشره وجلالة ماعاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة . فلما أن دخل المجلس ، ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليا منه ، انحط ساجدا

---

(١) أى أصبحوا كالسكارى لا يستطيعون فتح عيونهم لروعة ما رأوا .
(٢) البرطل بفتح الباء والطاء المظلة الضيقة .
(٣) الاجزاء أى أنه مغشى عند اتصال أجزائه بالفضة .

إعظاما له . ثم تقدم الفتيان به إلى البهو الذى بجوفى هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب. وأقبل نحوه الحاجب جعفر ؛ فلما بصر به قام إليه ، وخضع له ، وأومأ إلى تقبيل يده ، فقبضها الحاجب عنه ، وانحنى إليه ، فعانقه وجلس معه ، فغبطه ، ووعده من إنجاز عدات[1] الخليفة له بما ضاعف سروره ، ثم أمر الحاجب جعفر ، فصبت عليه الخلع التى أمر له بها الخليفة . وكانت دراعة منسوجة بالذهب ، وبرنسا مثلها ، له لوزة[2] مفرغة من خالص التبر ، مرصعة بالجواهر والياقوت ، ملأت عين العلج[3] نجلة ، فخر ساجداوأعلن بالدعاء . ثم دعا الحاجب أصحابه رجلا رجلا ، فخلع عليهم على قدراستحقاقهم فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم ، وخر جميعهم خاضعين شاكرين . ثم انطلق الملك أردون وأصحابه ، وقدم لركابه فى أول البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب ، عليه سرج حلى ، ولجام حلى مفرغ ، وانصرف مع ابن طملس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه ، وقد أعد له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون . واستقر الملك أردون وأصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وإرغاد المعاش ، واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه ، ما أفاضوا فى التبجح به والتحدث عنه أياما » .

---

(١) جمع عدة وهى الوعد .
(٢) حلية على شكل اللوزة .
(٣) العلج رجل من كفار العجم .

مصادر الكتاب

نورد فى الثبت الآتى أهم مصادر الكتاب ، وقد رتبت أسماء المؤلفين على حسب أحرف الهجاء ، مع ذكر سنة وفاة المؤلف .

ابن الأثير (٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) : على بن أحمد بن أبى الكرم

١ — « الكامل فى التاريخ » ١٢ جزءاً (بولاق ١٢٧٤ هـ)

لإدريسى (٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م) : محمد بن عبدالعزيز الشريف الفاوى

٢ — « نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان » (روما ١٥٩٢)

أرنولد : « سير توماس و . . Arnold : Sir Thomas W

٣ — «The preaching of Islam» 3rd ed, by Reynold A. Nicholson (London 1925) ، ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، وإسماعيل النحراوى (القاهرة ١٩٤٧) .

٤ — « The Caliphate » (Oxford, 1924)

الأشعرى (٣٢٤ هـ = ٩٣٦ م) : الإمام أبو الحسن على بن إسماعيل

٥ — « مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين » نشرة ريتر (اسطنبول ١٩٢٩)

الأصفهانى (٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م) : أبوالفرج

٦ — « كتاب الأغانى » ٢١ جزءا (القاهرة ١٢٨٥ هـ) ، (القاهرة ١٩٢٧ — ١٩٣٦)

ابن أبى أصيبعة (٦٦٧ هـ = ١٢٧٠ م) موفق الدين أبوالعباس أحمد بن القاسم الخزرجى

٧ — « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » جزءان (القاهرة ١٢٩٩ — ١٣٠٠ هـ)

أمارى : ميشيل Amari : Michel

٨ — « مكتبة صقلية العربية » Biblioteca Arabo—Sicula فى جزئين

أمدروز : هـ . ف . Amodrez : H. F.

٩ — « Three Years of Buwaihid Rule in Baghdad. A. H 389—393 Being a fragment of the History of Hilal -as- Sabi (A. H. 448) from a Ms. in the Library of the British Musaum.

أمير على : سيد Ameer Ali : Sayed

١٠ — « A Short History of the Saracens » (Lond. 1921)

« مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى » (القاهرة ١٩٣٨) نقله إلى العربية : رياض رأفت

أوتيخا (٣١١ هـ = ٩٢٩ م) سعيد بن البطريق

١١ — « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » (بيروت ١٩٠٩)

أوليرى : دى ليسى O' Leary, de Lacy

١٢ — «A Short History of the Fatimid khalifate» (Lond. 1923).

بارتولد : ف Bartold : F

١٣ — « تاريخ الحضارة الإسلامية » ، نقله إلى العربية حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٢)

بالمر : Palmer

١٤ — « Haroun al—Raschid (Lond. 1881)

باون هارولد Bowen : Harold

١٥ — «The Last Buwayhids» J. R. A. S. (April, 1929), pp.225-45.

البحترى (٢٨٥ هـ = ٨٩٨ م) أبو عبادة الوليد الطحانى

١٦ = « ديوان البحترى » (القسطنطينية ١٣٠٠ هـ)

بديع الزمان (٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) : أحمد بن محمد

١٧ — « رسائل بديع الزمان الهمذانى » ، شرح الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسى (بيروت ١٨٩٠)

براون : إدوارد ج . Browne : Edward G.

١٨ — «A Literary History of persia» (From the Earliest Times until Firdawsi 4 vols. Vol, 1 (London. 1909) Vol. II (London, 1906),

١٩ — «The Chahar Maqala (Four Discourses) of Nidhami —i— Samarqandi» trans. from Persian (Loud, 1899).

بروكلمان : كارل . Brockelmann : Carl

٢٠ — «Geschichte der Arabischer Litteratur» 2 vols, (Wimare. 1898 - 1902)

ابن بسام (٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م) : أبو الحسن على الشنتريني

٢١ — « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، نشرت الأجزاء الأربعة الأولى منه (القاهرة ١٣٥٨ — ١٣٦٤ هـ = ١٩٣٩ — ١٩٤٥ م)

البغدادى (٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبدالقادر بن طاهر .

٢٢ — « الفرق بين الفرق » (القاهرة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م)

البكرى (٤٨٧ هـ = ١٠٩٧ م) : أبو عبيد الله بن عبدالعزيز

٢٣ — « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » (باريس ١٩١١ م)

البلاذرى (٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) : أحمد بن يحيى بن جابر

٢٤ — « فتوح البلدان » (القاهرة ١٣١٨ هـ)

البلخى (٣٢٢ هـ = ٩٢٣ — ٩٣٤ م) : أبو زيد بن سهل

٢٥ — « كتاب البدء والتاريخ » وينسب حقيقة إلى مطهر بن طاهر المقدسى ، ستة أجزاء

دى بور : ت . ج . De Boer : T. J.

٢٦ — « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » ، نقله إلى العربية محمد عبدالهادى أبو ريدة (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م)

البيرونى (٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) : أبو الريحان محمد بن أحمد

٢٧ ـــ « الآثار الباقية عن القرون الخالية » (طبعة إدوارد سخاو) ليبزج سنة ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ . وترجمة إلى الإنجليزية وعلق عليه إدوارد سخاو بعنوان :

the Chronology of Ancient Nations (London, 1879).

بيمونت ومونود : Bemont et Monod

٢٨ ـــ « Histoire de l 'Europe au Moyen Age (395 — 1270) » (Paris, 1921)

التنوخى (٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م) : أبو على المحسن بن على بن محمد بن أبى الفهم

٢٩ ـــ « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » (القاهرة ١٩١٨ ـ ١٩٢١) ، ترجمه إلى الإنجليزية د . س . مرجليوث (لندن ١٩٢٢)

تيمور : المغفور له أحمد باشا

٣٠ ـــ « التصوير عند العرب » نشره وعلق عليه الدكتور زكى محمد حسن (القاهرة ١٩٤٢)

٣١ ـــ « نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها » (القاهرة ١٣٥١ هـ)

الثعالبى (٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبد الملك

٣٢ — « يتيمة الدهر » أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م)

الجاحظ (٢٢٥ هـ = ٨٦٩ م) : أبو عثمان عمرو بن بحر

٣٣ — « كتاب التاج فى أخلاق الملوك » (القاهرة ١٣٣٢ هـ = ١٩٢٤ م)

حققه المرحوم أحمد زكى باشا

٣٤ ـــ « كتاب البيان والتبيين » أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٢٨)

٣٥ ـــ « كتاب التبصر بالتجارة » الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥)

نشره وصححه وعلق عليه السيد حسن حسنى عبد الوهاب باشا التونسى .

٣٦ ـــ ثلاث رسائل نشرت فى كتاب (القاهرة ١٣٤٤ هـ) : الأولى فى الرد على النصارى ، والثانية فى ذم أخلاق الكتاب ، والثالثة فى القيان

جبون : إدوارد . Gibbon : Edward

٣٧ ـــ « The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, » 7 vols. ed. by G. B. Bury.

٣٨ ـــ الجهشيارى (٣٣١ هـ = ٩٤٢ ـــ ٩٤٣ م) : أبو عبد الله محمد بن عبدوس

« كتاب الوزراء والكتاب » (القاهرة ١٩٣٨)

حققه ونشره الأستاذ مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى

٣٩ ـــ دى جوبينو : De Gobineau

« Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale (Paris, 1865).

(جولد تسيهر : إجنتس Goldziher : Ignaz

٤٠ ـــ « المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن »

ترجمه الدكتور على حسن عبد القادر (القاهرة ١٣٦٣ هـ = ١٩٤٤ م)

٤١ — « Vorlesungen ùber den Islams » (2nd ed., Heidelberg, 1910). trans. into French by Félix Arin under the title « Le Dogme et la Loi de l'Islam » (Paris, 1920)

جويار : س . Guyard : S.

٤٢ — « Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis » (Paris, 1874)

٤٣ — حتى : فيليب . ك . Hitti : Philip . K.
« History of the Arabs » (London,1940 1944).

٤٤ — « The Origins of the Druze People and Religion » (Columbia, 1928).

حاجى خليفة (١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م) : مصطفى كاتب شلبى
« كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » (ليبسك ولندن ١٨٣٥ — ١٨٥٨)

ابن حزم (٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م) : أبو محمد على بن أحمد
٤٥ — « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » أربعة أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ)

حسن إبراهيم حسن :
٤٦ — « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢)
٤٧ — « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية » تأليف فان فلوتن Van Vloten ، ترجمه وعلق عليه بالاشتراك مع الشيخ محمد زكى إبراهيم (القاهرة ١٩٣٣)
٤٨ — « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » تأليف أدولف جرومان ، ترجمه المؤلف إلى العربية وعلق عليه ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٤) ، وترجمة الجزء الثانى تحت الطبع.
٤٩ — « تاريخ الإسلام السياسى » الجزء الأول ، الطبعة الثانية فى عشرة أبواب ، (القاهرة ١٩٤٨)
« تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ، الجزء الثانى ، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٤٨) ، والجزء الثالث ، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٤٩).
٥٠ — « النظم الإسلامية » بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن (القاهرة ١٩٣٩)
٥١ — « الدعوة إلى الإسلام » تأليف سير توماس أرنولد ، ترجمه المؤلف بالاشتراك مع الأستاذين عبد المجيد عابدين ، وإسماعيل النحراوى (القاهرة ١٩٤٧)
٥٢ — « مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى » ، بحث مستخرج من « كتاب المجمل فى التاريخ المصرى » (القاهرة ١٩٤٢) (ص ١٢٧ — ٢٢٩) والطبعة الثانية من الكتاب ستظهر قريبا
٥٣ — « كافور الإخشيدى » ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول ، مايو ١٩٤١
٥٤ — « انتشار الإسلام فى الهند » ، بحث مستخرج من كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول ، مايو ١٩٤٤

٥٥ — عبيد الله المهدى إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب ، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف (القاهرة ١٩٤٧)

٥٦ — المعز لدين الله الفاطمى ، مؤسس الدولة الفاطمية فى مصر ، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف (القاهرة ١٩٤٨)

٥٧ — تاريخ القاهرة ، تأليف ستانلى ليبول ، ترجمه المؤلف بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن ، والأستاذ إدوارد حليم (القاهرة ١٩٤٩)

٥٨ — Relations between the Fatimids in North Africa and the Umayyads in Spain (Extract from the Bulletin of the Faculty of Arts, Fouad I. University. Dec., 1948)

الحمادى اليمانى (من فقهاء السنة فى اليمن فى أواسط القرن الخامس الهجرى) : محمد بن مالك ابن أبى الفضائل

٥٩ — « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » (مطبعة الأنوار ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩م)

ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله

٦٠ — « كتاب المسالك والممالك » طبعه دى غويه (ليدن ١٨٨٩) وبذيله نبذ من كتاب « الخراج وصنعة الكتابة لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى »

الخضرى : محمد

٦١ — « تاريخ الدولة العباسية » (القاهرة ١٩١٦)

الخطيب البغدادى (٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ — ١٠٧١ م) : الحافظ أبو بكر أحمد بن على

٦٢ — « تاريخ بغداد أو مدينة السلام » ١٤ جزءا (القاهرة ١٣٤٩ هـ = ١٩٣١ م)

الخفاجى : شهاب الدين أحمد

٦٣ — « شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل » (القاهرة ١٢٨٢ هـ)

ابن خلدون (٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد

٦٤ — « مقدمة ابن خلدون » (بيروت ١٨٨٦ م) ونسخة محفوظة بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٥

٦٥ — « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ)

ابن خلكان (٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى

٦٦ — « وفيات الأعيان » جزءان (بولاق ١٢٨٣ هـ) (المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ)

ترجمه إلى الانجليزية دى سلان De Slane (باريس ١٨٤٢ — ١٨٤٨)

الخوارزمى (٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) : أبو بكر محمد بن العباس

٦٧ — « رسائل الخوارزمى » (القسطنطينية ١٢٩٧ هـ)

الخوارزمى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب

٦٨ — « كتاب مفاتيح العلوم » . صنفه سنة ٣٦٦ هـ (القاهرة ١٣٤٤ هـ) ، (ليدن ١٨٩٥ م)

الخياط (توفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى) : أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان المعتزلى

٦٩ — « كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد » مع مقدمة وتحقيق وتعليقات للدكتور نيبرج (القاهرة ١٣٤٤ = ١٩٢٥ م)

ابن دقاق (٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ — ١٤٠٧ م) : إبراهيم بن محمد المصرى

٧٠ — « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » الجزءان الرابع والخامس ، (القاهرة ١٣٠٩ هـ = ١٨٩٢ م)

دوزى : ر . ب . ا . Dozy : R. P. A.

٧١ — « Histoire des Musulmans d'Espagne » (Leyden, 1861), trans. into English by F. G. Stokes « The Moslems in Spain » (London, 1913).

٧٢ — « Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes » Amsterdam, 1845).

٧٣ — « Supplément au Diclonnaires Arabes », 2 vols. (Leyden. 1881).

٧٤ — « Essai sur l'Histoire de l'Islamisme », trans. du Hollandais par Victor Chauvin (Leyden—Paris, 1879).

الدينورى (٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) : أبو حنيفة أحمد بن داود

٧٥ — « الأخبار الطوال » جزءان (ليدن ١٨٨٨)

« رسائل الحاكم بأمر الله »

٧٦ — كتبها كثير من دعاة الفاطميين فى سنة ٤٠٨ هـ ، وهى مخطوطة بدار الكتب المصريه بالقاهرة (مذهب الشيعة رقم ٢٠)

الرضى (٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م) : الشريف أبو الحسن محمد بن موسى

٧٧ — « ديوان الشريف الرضى » (بيروت ١٣٠٧ هـ)

ابن الرومى (٢٨٣ هـ = ٨٩٦ م) : أبو الحسن على بن العباس

٧٨ — « ديوان ابن الرومى » ثلاثة أجزاء ، نشره كامل كيلانى (القاهرة ١٩٢٤)

زكى محمد حسن :

٧٩ — « الفن الإسلامى فى مصر » الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥)

٨٠ — « الفنون الإسلامية فى العصر الإسلامى » (القاهرة ١٩٤٠)

٨١ — « كنوز الفاطميين » (القاهرة ١٩٤٠)

ابن زولاق (٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م) : أبو محمد الحسن بن إبراهيم

٨٢ — « العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج » ، نشره ابن سعيد المغربى ، (٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م) فى كتاب المغرب فى حلى المغرب (ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩ م)

زيدان : جرجى

٨٣ — « تاريخ التمدن الإسلامى » خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦)

دى ساسى : س De Sacy, Silvestre :

٨٤ — « Exposé de la Religion des Druzes, précédé d'une Introduction et de la Vie du Khalife Hakim—Biamr—allah», 2 vols. (Paris, 1838).

٨٥ — «Chrestomathis Arabe», 3 vols. (Paris, 1826—27).

٨٦ — «Recherches sur l'intiation à la Secte des Ismaéleens», Journal Asiatique, 1824.

لى سترينج : جاى Le Stange : Guy.

٨٧ — Baghded During the Abbasid Caliphate (Oxford, 1924).

ابن سعيد (٦٧٣ = ١٢٧٥ م) على بن موسى المغربى

٨٨ — المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق» (ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩ م)

السلاوى : الشيخ أحمد بن خالد الناصرى

٨٩ — «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» ، فى أربعة أجزاء (القاهرة ١٣١٠ — ١٣١٢ هـ)

السيوطى (٩١١ هـ = ١٦٠٥م) : عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين

٩٠ — «تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة» (القاهرة ١٣٥١ هـ)

٩١ — «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» جزءان (القاهرة ٣٢٧ هـ) . ترجمه إلى الإنجليزية ميجر هـ . س . جاريت Major H. S. Jarrett(كلكتا ١٨٨١ م)

٩٢ — «تفسير الجلالين» أربعة أجزاء

الشابشتى (٣٨٨ هـ = ٩٩٨م) : أبو الحسن على بن محمد

٩٣ — « كتاب الديارات » (مخطوط بمكتبة برلين Weimar, 1100) . وقد نشر الدكتور عزيز سوريال عطية الجزء الخاص «بديارات مصر التى يقصد للشرب فيها والتنزه بها » ، وترجمها إلى الإنجليزية

Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologie copte, t. v. (1939).

شتاينجاس : ف Steingass: F.

٩٤ — «Persian English Dictionary» (London, 1930).

أبو شجاع (٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م) : محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم الوزير ظهير الدين الروذراودى

٩٥ — « ذيل كتاب تجارب الأمم» ، نشره هـ . ف . أمدروز ، وترجمه إلى الإنجليزية د . س . مرجليوث (أكسفورد ١٩٢١)

شكيب أرسلان : الأمير

٩٦ — «تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط» (القاهرة ١٣٥٢ هـ)

الشهرستانى (٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم

٩٧ — «الملل والنحل» ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ)

الشيرازى (٤٧٠ هـ = ١٠٧٧م) : المؤيد فى الدين هبة الله

٩٨ — «السيرة المؤيدية» ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة فؤاد الأول » القاهرة رقم ٢٦٠٥٦

الصولى (٣٣٥ هـ = ٩٤٦ م) : أبو بكر محمد بن يحيى

٩٩ ـــ «كتاب الأوراق» ، قسم أخبار الشعراء ، نشره ج . هيورث دن (القاهرة ١٩٣٤)
١٠٠ ـــ «أخبار الراضى بالله والمتقى لله» أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢ هـ إلى سنة ٣٣٣ هـ ، نشره ج . هيورث دن (القاهرة ١٩٣٥)
١٠١ ـــ «أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم» نشره ج . هيورث دن (القاهرة ١٩٣٦)

ابن طباطبا : محمد على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى
١٠٢ ـــ «الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية» (القاهرة ١٩٢٣)

الطبرى (٣١٠ هـ = ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير
١٠٣ ـــ «تاريخ الأمم والملوك» (طبعة دى غويه ـــ ليدن ١٨٨١ م) ، (القاهرة ١٣٢٦)
١٠٤ ـــ «تفسير محمد بن جرير الطبرى» فى ثلاثين مجلدا
١٠٥ ـــ «اختلاف الفقهاء» ، نشر يوسف شخت بعض أجزاء من هذا الكتاب تحت عنوان « الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لمحمد بن جرير الطبرى» (ليدن ١٩٣٣)

طه حسين بك
١٠٦ ـــ «حديث الأربعاء» (القاهرة ١٩٢٥ م)
١٠٧ ـــ «ذكرى أبى العلاء» (القاهرة ١٣٣٤ هـ = ١٩١٥)

الطوسى (٤٦٠هـ = ١٠٦٧ ـــ ١٠٦٨ م) : محمد بن الحسن
١٠٨ ـــ «فهرست كتب الشيعة» (كلكتا ١٨٥٥ م)

طيفور (٢٨٠ هـ = ٨٩٣ ـــ ٨٩٤م) : أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر
١٠٩ ـــ «تاريخ بغداد» الجزء السادس ، طبعة هـ . كلر (H. Keller) (لايبسك ١٩٠٨)

ابن عبدربه (٣٤٩ = ٩٤٠) شهاب الدين أحمد
١١٠ ـــ «العقد الفريد» ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٨م)

العتبى (٤٢٨ هـ = ١٠٣٦م) : أبو نصر محمد بن عبد الجبار
١١١ ـــ «تاريخ اليمينى» فى جزئين (القاهرة ١٢٨٦ هـ) ، وبه شرح الشيخ أحمد بن على الحنفى المنينى المتوفى سنة ١١٧٣ هـ ، وسماه «الفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبى»

ابن عذارى (توفى فى أواخر القرن السابع الهجرى) : أبو عبدالله محمد المراكشى
١١٢ ـــ «البيان المغرب فى أخبار المغرب» نشره دوزى فى ثلاثة أجزاء (ليدن ١٨٤٨ ـــ ١٨٥١ م وباريس ١٩٣٠)

عريب بن سعد (٣٦٦هـ = ٩٧٦ ـ ٩٧٧م) : القرطبى
١١٣ ـــ « صلة تاريخ الطبرى » طبعة دى غويه (ليدن ١٨٩٧ م) ، (القاهرة ١٢٢٠ هـ)

على ابراهيم حسن : الدكتور
١١٤ ـــ «تاريخ جوهر الصقلى» (القاهرة ١٣٥١هـ = ١٩٣٣م)
١١٥ ـــ « دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص » (القاهرة ١٩٤٣)

على حسن عبد القادر : الدكتور
١١٦ ـــ «نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى» ، الجزء الأول (القاهرة ١٣٦١ ـــ ١٩٤٢م)

العمرى (٧٤٢ هـ = ١٣٤١) شهاب الدين أحمد بن فضل الله

١١٧ — «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» نشره وعلق عليه أحمد زكى باشا (القاهرة ١٣٤٢هـ = ١٩٢٤ م)

ابن العميد (٦٧٢م = ١٢٧٣ هـ) الشيخ المكين جرجس بن العميد

١١٨ — «تاريخ المسلمين» (١٦٢٥ م)

العينى (٨٥٥ هـ = ١٤٥١م) بدر الدين محمود بن احمد بن موسى

١١٩ — «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ

الغزالى (٥٠٥ = ١١١١م) الامام أبوحامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد

١٢٠ — «المنقذ من الضلال» (دمشق ١٣٤٣ هـ = ١٩٣٤ م)

١٢١ — «فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة» (القاهرة ١٣١٩ هـ = ١٩٠١م)

١٢٢ — «فضائح الباطنية» نشره جولدتسيهر (ليدن ١٩١٦)

دى غويه : م . ج De Goeje : M. G.

١٢٣ — Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides (Leyden, 1886)

فاسيل إف . ا Vasil, Ev. A.A.

١٢٤ — «Cambridge Mediaeval History,» vol. IV. pp. 138—52.

أبو الفدا (٧٣٢ هـ = ١٣٣١م) : اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه

١٢٥ — «المختصر فى أخبار البشر» ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ) ، القاهرة ١٣٢٥ م

فنلى : جورج Finaly : George

١٢٦ — «History of the Byzantine Empire (716-1705 A. D.)» (London, 1856),

ابن قتيبة (٢٧٦ هـ = ٨٨٩م) : أبو محمد عبد الله بن سلم

١٢٧ — «المعارف» (١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤م)

١٢٨ — «عيون الأخبار» أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٤٣ — ١٣٤٨ هـ)

قدامة (٢٣٧ هـ = ٩٤٨م) : أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادى

١٢٩ — «نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة» (طبعة دى غويه — ليدن ١٨٨٩)

القزوينى (٦٣٨ هـ = ١٢٨٣م) : أبوعبد الله زكريا الأنصارى

١٣٠ — «آثار البلاد وأخبار العباد» (جوتنجن ١٨٤٨م)

القفطى (٦٤٦هـ = ١٢٤٨م) : جمال الدين على بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب

١٣١ — «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» (ليبسك ١٣٢هـ = ١٩٠٣م)

بن القلانسى (٥٥٥ هـ = ١١٦٠م) أبو يعلى حمزة

١٣٢ — «ذيل ياريخ دمشق» ، مصحوب بمذرات من تواريخ ابن الفارق ، وسبط ابن الجوزى والذهبى (بيروت ١٩٠٨ م)

القلقشندى (٢٨١ هـ = ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد

١٣٣ — «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧)

الكتبى (٧٦٤ هـ = ١٣٦٣م) محمد بن شاكر بن أحمد الحلبى

١٣٤ — «فوات الوفيات» ، جزءان (القاهرة ١٢٩٩ هـ)

كريزول : ك . ا . Creswell K. A. C.

١٣٥ — «Early Muslim Archictec'ure» 2 vols, (Oxford, 1938 and 1938

كريمر : ألفرد فون Kremer : Alfred Von.

١٣٦ — «Cultuegeschichte des Orients unter den chalifen» 2 vols. (Calcutta, 1920).

كشاجم : أبو الفتح محمود

١٣٧ — «ديوان كشاجم» . مخطوط ملك الأستاذ مصطفى السقا

الكندى (٢٥ هـ = ٩٦١) أبو عمر محمد يوسف

١٣٨ — « كتاب الولاة وكتاب القضاة» (طبعة روفن جست)
Rhuvon Guest, E. J. W. Gibb Memorial Series (London, 1912)

لويس : برنارد Lewis : Bernard.

١٣٩ — «The Origins of Ismailism» (Cambridge, 1940).

ليبول: ستانلى Lane—Poole : Stanley.

١٤٠ — «The Muhammadan Dynsties» (Paris, 1925)

١٤١ — «The Moors in Spain» (London, 1887).

١٤٢ — «A History of Egypt in the Middle Ages» (London, 1924).

١٤٣ — «The Moors in Spain» (London. 1887).
ترجمه إلى العربية على الجارم بك (القاهرة ١٩٤٤)

ماسنيو : لوى Massignon : Louis

١٤٤ — «La Passion D'Al-Hosyn-Ibn-Manssour Al-Hallaj,» 2 vols. (Paris, 1922),

مامور : الأمير Mamur : Prince

١٤٥ — «Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs (London, 1934).

الماوردى (٤٥٠ هـ = ١٠٥٧ م) : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى

١٤٦ — «الأحكام السلطانية» (القاهرة ١٢٩٨هـ)

متز : آدم Metz : Adam.

١٤٧ — «The Renaissance of Islam», trans. into English by S. Khuda Bukhsh and D. S. Margoliouth (London. 1939).
وترجمه إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريده ، فى جزئين (القاهرة ١٣٥٩ — ١٣٦٠ هـ = ١٩٤٠ — ١٩٤١م)

المتنبى ٣٠٤هـ = ٩٦٥م): أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفى

١٤٩ — « ديوان المتنبى » نشره وشرحه عبد الرحمن البرقوقى (القاهرة ١٣٤٨ هـ = ١٩٣٠ م)

المدور : جميل نخلة
١٤٩ — «حضارة الاسلام فى دار السلام» (القاهرة ١٣٥١هـ = ١٩٣٢ م)
أبو المحاسن (٨٧٤ = ١٤٦٩م) : جمال الدين يوسف تغرى بردى
١٥٠ — «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» جزءان (طبعة جوينبل ، ووليم بوير) (ليدن ١٨٥١ ـ ١٨٥٥ م) ، ج ١ ـ ٩ (طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٣٤٨ ـ ١٣٦١ هـ = ١٩٢٩ م ـ ١٩٤٢م)
المراكشى (٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ ـ ١٢٧١م) : محيى الدين أبو محمد عبد الواحد بن التميمى
١٥١ — «المعجب فى تلخيص أخبار المغرب» (طبعة دوزى ، ليدن ١٨٨١) ، وترجمه وشرحه ا . ف فانيان E. Fagnan (الجزائر ١٨٩٣)
ابن المرتضى (٣٢٥ = ٩٤٦ ـ ٩٣٧م) : المهدى لدين الله أحمد بن يحيى
١٥٢ — «باب ذكر المعتزلة» من كتاب المنية والأمل ، طبعة الهند
١٥٣ — «كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر جزءان (القاهرة ١٣٤٦ هـ) ، وترجمه إلى الفرنسية باربيه دى مينار Barbier de Meynard تحت عنوان Prairies d'Or (باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧)
١٥٤ — «كتاب التنبيه والإشراف» (طبعة دى غويه ـ ليون ١٨٩٧)
مسكويه (٤٢١ هـ = ١٠٣٠م) : أبو على أحمد بن محمد
١٥٥ — «كتاب تجارب الأمم» ، جزءان» نشره هـ . ف أمدروز (القاهرة ١٣٣٢ ـ ١٣٣٣ هـ = ١٩١٤ ـ ١٩١٥ م) ، وترجمه إلى الإنجليزية د . س مرجليوث (أكسفورد ١٩٢١)
وذيله أبو شجاع وهلال الصابى (الجزء الثالث) (القاهرة ١٣٣٤ هـ = ١٩١٦م)
مسلم (٢٦١هـ = ٨٧٥م) : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى
١٥٦ — «الجامع الصحيح» ٨ أجزاء (القاهرة ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢م)
المعرى (٤٤٩ = ١٠٥٧م) : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان
١٥٧ — «سقط الزند» (القاهرة ١٣١٩هـ) ، (بولاق ١٢٨٦هـ) فى جزئين
١٥٨ — «لزوم مالايلزم» (القاهرة ١٨٩١م)
١٥٩ — «آثار أبى العلاء المعرى» ، والجزء الأول ، باشراف الدكتور طه حسين بك (القاهرة ١٣٦٣ هـ = ١٩٤٤م)
المقدسى (٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعى المقدسى المعروف بالبشارى .
١٦٠ — «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» طبعة دى غويه (ليدن ١٨٧٧)
المقدسى نيس : أ
١٦١ — «تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى» ، الجزء الأول (بيروت ١٩٣٥)
١٦٢ — «أمراء الشعر العربى» الطبعة الثانية (بيروت ١٩٣٦)
المقريزى (٨٤٥ = ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على
١٦٣ — «اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا» (بيت المقدس ١٩٠٨)
المقرى (١٠٤١ هـ = ١٦٣٢م) شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

١٦٥ ـــ « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » أربعة أجزاء (بولاق ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م)

١٦٦ ـــ « أزهار الرياض فى أخبار عياض » ثلاثة أجزاء ، ضبطه وحققه وعلق عليه الأساتذة مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى (القاهرة ١٣٥٨ ـــ ١٣٦٠ هـ = ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ م)

بن منجب (٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م) : أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على الصيرفى المصرى .

١٦٧ ـــ « الإشارة إلى من نال الوزارة » (القاهرة ١٩٢٤ م)

ميجون ج : Migeon: G

١٦٨ ـــ «Manuel d'Art Musulman» : 2 vols. (Paris, 1927).

ميور وليام تميل Muir : Willam Tempie

١٦٩ ـــ «The Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall (Edinburgh, 1925)» .

ابن ميسر (٦٧٧ هـ = ١٢٧٨م) : محمد بن على بن يوسف بن جلب

١٧٠ ـــ « تاريخ مصر » طبعة هنرى ماسيه (Henri Massé) (القاهرة ١٩١٩م)

ناصر خسرو (٤٨١هـ = ١٠٨٨م) .

١٧١ ـــ سفر نامه «Relation du voyage de Nasiri Khosrau (Safar Naméh) en Syrie, en Palestine, en Egypte en Arabie et en Perse». trans. from Persian by Charles Schefer (Paris, 1881)

ابن النديم (٣٨٣هـ = ٩٩٣م) : محمد بن اسحاق

١٧٢ ـــ « كتاب الفهرست » جزءان (لايبسك ١٨٧١م) ، (القاهرة ١٣٤٨هـ)

النسيبى :

١٧٣ ـــ « كتاب مطالب السئول فى غزوات الرسول » مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ٤٩٧٩

النعمان (٣٦٣هـ = ٩٧٣م) : أبو حنيفة المغربى

١٧٤ ـــ « المجالس والمسايرات » ، ثلاثة أجزاء ، مخطوط بجامعة فؤاد الأول ، القاهرة رقم ٢٦٠٦٠

نظام الملك (٤٨٥ = ١٠٩٢م).

١٧٥ ـــ « كتاب سياسة نامه » Siasset Naméh. Traité de Governement. composé pour le Sultan Melik-châh Par le Vizir Nizam onl-maulk.

Texte Persan (ed. by Charles Schefer) 3 vol. (Paris, 1891—1897).

النوبختى (٢٠٢هـ = ٩١٤م) : أبو محمد الحسن بن موسى

١٧٦ ـــ « كتاب فرق الشيعة » (استامبول ١٩٣١)

النويرى (٧٣٢هـ = ١٣٣٢م) أحمد بن الوهاب

١٧٧ ـــ « نهاية الارب فى فنون الأدب » ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٠

نيكلسون ا . رينولد Nicholson : A. Reynold

«Literary History of the Arabs ». (Cambridge. 1930) ـــ ١٧٨

ابن هانئ. (٣٢٧هـ = ٩٧٣م) ابو القاسم المكنى بأبي الحسن محمد

١٧٩ ـــ «ديوان ابن هانئ» (بيروت ١٣٢٦هـ) .

هل : يوسف. Hell : Joseph.

«The Arab Civilsation». trans. from German by Khuda Bukhsh (Cambridge. 1936

هلال الصابي (٤٤٨هـ = ١٠٥٦م) ابوالحسن بن ابي إسحاق إبراهيم الكاتب

١٨٠ ـــ « تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» . نشره هـ . ف . امدروز (بيروت ١٩٠٤) .

وذيل به مرجليوث كتاب «تجارب الأمم» لمسكويه (القاهرة ١٩١٩)

هيد : و . Heyd : W .

«Histoire du Commerce du Levant au Moyen—âge» ـــ ١٨٢

2 vols. (Leipzig. 1925).

وستنفلد . ف فون. Wustenfeld : F. Von.

Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke» ـــ ١٨٣

(Cottingen. 1882).

ياقوت (٦٢٦هـ = ١٢٢٩م) : شهاب الدين ابو عبد الله الحموى الرومى

١٨٤ ـــ «معجم البلدان» ١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٢٥هـ = ١٩٠٧م)

١٨٥ ـــ «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» ، طبعة دكرى جب (القاهرة ١٩٠٧ـ١٩١١م)

يحيى بن سعد الانطاكى (٤٥٨هـ = ١٠٦٦م)

١٨٦ ـــ «صلة كتاب أوتيخا» جزءان (بيروت ١٩٠٩م)

اليعقوبى (٢٨٢هـ = ٨٩٥م) أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

١٨٧ ـــ «تاريخ اليعقوبى جزءان (طبعة W. Th. Houtsma)

١٨٨ ـــ « كتاب البلدان» (طبعة دى غويه ـ ليدن ١٨٩٢)

أبويوسف (١٩٢هـ = ٨٠٧ ـ ٨٠٨م) يعقوب بن إبراهيم

١٨٩ ـــ « كتاب الخراج» (بولاق ١٣٠٢ هـ ، والمطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦هـ)

كشاف

(ا)

آمد : ٤٧ ، ١١٩
إبراهيم بن احمد بن إسماعيل : ٧٧
« « الأغلب : ٦٤ ، ١٤٥
« « ناصر الدولة الحمدانى : ١١٩
« « المتوكل : ٥
« « مخلد بن محمد : ١٢
« « المرزبان : ١١١
« « مسعود : ١٠١
« « المقتدر : ٢٩
أبرهمن بال : ٩١
أبهر : ٧٦
أبو بكر الباقلانى : ٥٥
أبو بكر بن الحداد : ١٤١
أبو بكر الرازى : ٨٢
أبو بكر الصديق : ٤
ابن ابى الدنيا : ١٨
ابن ابى الساج : ٢٤
أحمد بن أسد : ٧٣
« « إسماعيل السامانى : ٧٤ ، ٧٥
« « بويه : ٣١ ، ٤٢ ، ٤٣
« « حنبل : ٣٤٣ ، ٣٤٧
« « خاقان المفلحى : ٣٤
« « خالد : ١٢٧
« « داود : ٢١
« « طولون : ٨ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٣٩١ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩
أحمد بن عبد الله بن إسحق : ٣٤
« « عبد الله الاصبهانى : ٣١
« « عيسى بن الشيخ : ١٠ ، ١١
« « المدبر : ٢٧
أبو أحمد الموسوى : ١١٨
أحمد بن يعقوب : ٢٠
أحمد بن ينال تكين : ٩٧
الاخفش الصغير : ٢٤
أخميم : ١٤١
ادريس بن عبد الله بن الحسن : ٦٤
أذربيجان : ١١١ ، ٢٤٤
أرجان : ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٠٦
أردبيل : ٣٣٠
الاردن : ١٠ ، ١٢٧
أرذن : ١١١
أرسلان بن سلجوق : ٨٩
أرمينية : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٣١
أسبانيا : ١٧٠
اسحق بن أحمد بن أسد : ٧٥
أبو إسحق الاسكافى : ٣٠
إسحق بن دينار . ١٢٧
إسحق بن سليمان الاسرائيلى : ١٤٧
أبو إسحق القراريطى : ٣١
اسحق بن كنداج : ١٥ ، ١٦ ، ١٨
أسد بن سامان : ٧٣
أسد بن عبد الله القسرى : ٧٣
أسفار امير قزوين : ٢٦ ، ٤٣
الاسكندرية : ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٤١٥
اسماء بنت خمارويه : ١٣١
إسماعيل بن أحمد السامانى : ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤
إسماعيل بن جعفر الصادق : ١٣ ، ١٤٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٤
إسماعيل بن سبكتكين : ٨٧ ، ٩٧
إسماعيل بن عباد ـ الصاحب : ٣٧٣ ، ٣٧٥
أشبيلية : ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩١
أشروسنة : ٧٣
أشناس التركى : ١٢٦
أصبهان : ٢٦ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٩٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٨٩ ، ١٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ٤١١

اصطخر : ٤٢
افشكين : ١٥١ ، ١٥٢
افريقية : ٢ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ٢٦٧
الافغان : ٨٦
الب ارسلان السلجوقى : ١٠٠
البتكين : ٦٤
البغونس الرابع : ١٩٠
الياس بن اسحق : ٧٥
الياس بن اسد : ٧٣
الياس بن منصور : ١٦٠
املح الناس ، ام المستكفى : ٣٤
الانبار : ٥٥
انطاكية : ١٢٤ ، ٢٣٧
انوجور ، أبو القاسم : ١٣٩ ، ١٤٠
اوتو الاكبر : ٢٤٢ ، ٢٤٣
الاهواز : ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٧
ايتاخ : ١٢٦
ايران : ٤٠٤
ايطاليا : ١٥٩
ايلك خان : ٩٠ ، ٩١
ايلك بغراخان : ٨١

(ب)

بادية السماوة : ١٩
باسيل الثانى : ١٢٤ ، ٢٣٨
باغر التركى : ٦ ، ٨
باكباك : ١١ ، ١٢٧
بجكم : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٤
بلاد البحرين : ١٢ ، ١٧ ، ١٤٤ ، ١٩٢ ، ٣٨٥
بجيرا : ٩٠
بخارى : ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٩ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠
بختيار بن معز الدولة : ٤٤ ، ١١٨ ، ١١٩
بدر الجمالى : ٤١٢
بدر بن حسنويه : ٥١ ، ١١٢
بدر الدجى ، ام القائم : ٥٩
بدر صاحب الجيش : ١٩
برجوان الخادم : ١٥٣
برشلونة : ١٧٠
برقة : ١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٤٨
البساسيرى : ١٠٩
بعاور : ٨٥ ، ٩٩
البصرة : ٥ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٣٩ ، ٣٨٠
البطائح : ٤٥
البطيحة : ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٠٦ ، ١٠٨
بغداد : ٥ ، ٨ ، ١٠ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣٣٨ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٨٠ ، ٣٩٣ ، ٤٠٢ ، ٤ ، ٤١٦ ، ٤٣٢
بغراخان : ٨٠
بكار بن قتيبة : ١٣٧
بكتوزون : ٨١ ، ٨٨
بكجور : ١٢٣ ، ١٢٤
بكر بن مالك : ٧٨
بلبيس : ١٥٢
بلخ : ٩١ ، ٩٦ ، ٩٨
بلد : ١١٩
بلكاتكين : ٨٥
بلكين بن زيرى : ١٥٠ ، ١٥٥
بلفسية : ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٩١
البنجاب : ٩٠ ، ٩١ ، ٩٩
بهاء الدولة بن بويه : ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٤
بهاطية : ٩٠
بهرام جور : ٣٧ ، ٧٣
بوشنج : ٦٥
بيت المقدس : ١٣٩ ، ٣٩
بيروت : ١٢٥

(ت)

تاهرت : ١٦١ ، ١٦٤
تركستان : ٨٢
ترمذ : ١٠٠
تغريد زوجة المعز : ١٥٢ ، ٤٤٧
تغلب : ١١٥
أبو تغلب بن حمدان : ٤٦ ، ٤٧ ، ١١٨ ، ١١٩
تكريت : ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ١٠٥
تنيس : ١٣٣
توزون : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ١١٦ ، ١٣٠
تونس : ٦٤ ، ١٦١

(ث)

ثابت بن قرة الحرانى : ١٩
ثومال ٩ ٢٢

(ج)

الجبائى : ٢٤
جرجان : ٣٦ ، ٢٧ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠
الجرجرائى : ١٥٤
الجزيرة : ٦١٢ ١٣١
الجزيرة الخضراء : ١٨٥
جعفر الصادق : ١٩٤ ، ١٩٥
جعفر بن فلاح : ١٤٨
جعفر بن المعتصم : انظر المتوكل
أبو جعفر الترمذى : ٢٠
أبو جعفر بن شيرزاد : ٣٤ ، ٣٥
جلال الدولة بن بويه : ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠
جنديسابور : ٣٨٠
الجنيد : ٢٤
جوجرات : ٩٤
جوهر الصقلى : ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣
جيان : ١٧١
جيبال : ٩٠
جيجك ، أم المكتفى : ١٩
جيش بن خارويه : ١٣٣

(ح)

حامد بن العباس الوزير : ٢٣٨ ، ٢٧٧
أبو حامد الاسفرايينى : ٥٦
الحاكم بأمر الله : ٥٥ ، ٥٦ ، ١٢٥ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٣٣٦ ، ٣٦٩
حباسة بن يوسف الكتامى : ١٣٦ ، ١٤٥
الحجاز : ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٩٠ ، ٣٤٥
الحديثة : ١٥
حران : ١١٨ ، ١٢١
الحسن الأعصم : ٢٠٠
الحسن بن بويه : ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٣
الحسن بن زولاق : ١٤١
الحسن بن زيد العلوى : ١٠
الحسن بن عبد الله بن حمدان : ٣١ ، ٣٤
الحسن بن عبيد الله بن طغج : ١٢١ ، ١٤٢ ، ١٤٨
الحسن العسكرى : ١٩٣
الحسن بن على الأطروش : ٧٥
الحسن بن محمد الحجام : ١٦٥ ، ١٦٦
الحسين بن بهرام : ١٩٧
الحسين بن حمدان : ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٣٦ ، ١٣٨
الحسين بن زكرويه : ١٩ ، ٢٨٦
الحسين بن على : ٥ ، ٧ ، ١٣٢
الحسين بن محمد العميد : ٤٢
الحسين بن منصور الحلاج : ٢٢٤
أبو الحسين البريدى : ٣٠
أبو الحسين العتبى : ٧٩
حفصة : ٤
الحكم المستنصر : ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٥٤ ، ٣٣٧
الحلاج : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩
حلب : ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٢٤ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥١ ، ٢٣٥ ، ٢٧٥
حلوان : ٧٦
حماة : ١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٥١ ، ٢٧٥
حمدان قرمط : ١٧
حمدان بن ناصر الدولة : ١١٥ ، ١١٨
حمص : ٢٣ ، ١٢٤ ، ١٥١ ، ٢٣٠ ، ٣٥٨
حميد بن يصليت : ١٦٥
ابن حوشب : ١٧

(خ)

خراسان : ١٢ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١١٠ ، ٢٢٥
أبو سعد خسروشاه : ٦٣
خلف بن احمد : ٧٨ ، ٨٨
خمارويه : ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢٨٧ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩
خوارزم : ٩٢ ، ١٠٠ ، ٣٩٠
خوزستان : ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٣ ، ١٠٦ ، ١١٢

(د)

دارا بن منوچهر : ٩٧
داود صاحب الملتان : ٩١
درهم بن الحسين : ٦٥
دغفل بن مفرج الطائى : ١١٩
دمشق : ٦ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٨ ، ٢٠١ ، ٢٤٥
دمياط : ٥ ، ١٣٣
ديار بكر : ٣٤ ، ٤٧ ، ١١٥ ، ١١٨
ديار ربيعة : ٣٤ ، ٤٧ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٣٦
ديار مضر : ٤٧ ، ١١٩
الدينور : ٧٦ ، ٩٩

(ر)

رابعة العدوية : ٢٢١
رأس العين : ١٢١
الراضى ، الخليفة : ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ١٠٣
رافع بن هرثمة : ٦٨
ربيعة بن أحمد بن طولون : ١٣٢
الرحبة : ٢٠ ، ١١٧ ، ١١٨
رستم بن الحسين بن فرج : ١٤٤
الرصافة : ١٦
رقادة . ١٤٥ ، ١٥٩ ، ١٦١
الرقة : ١٥ ، ١٩ ، ٣٣ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣١
ركن الدولة بن بويه : ٢٧ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١
الرملة : ١١٩ ، ١٢١ ، ١٣٨ ، ١٤٩
الرها : ١٩
روجر النرمندى : ١٤٦ ، ١٥٥
ابن الرومى : ١٩
الرى : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٨٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ٣٧٣
ريحان الكتامى : ١٦٥

(ز)

الزاهرة : ١٧٢
زبطرة : ١٢١
الزجاج النحوى : ٢٤
زكرويه بن مهرويه : ١٩ ، ١٩٧
زنجان : ٤٢
زيادة الله بن الأغلب : ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦١
زيرى بن مناد : ١٤٨

(س)

سامان : ٧٣
سامرا : ٢ ، ٨ ، ١٣ ، ١٦ ، ٦٨ ، ٢٣٣ ، ٢٩٠ ، ٣٦٠
سبتة : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٩
سبك السبكرى : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤
سكتكين : ٤٦ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠
ست الملك : ١٥٤
سجستان : ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠
سجلماسة : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٦١
سرخس : ٩٨
سردانية : ١٥٠
سرقسطة : ١٧٥ ، ١٧٨

سرقوسة : ١٥٩
سرنديب : ٩٠
سعد الدولة الحمدانى : ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥
سعيد الخادم : ٨
سعيد الدولة بن حمدان : ١٢٥
سعيد بن محمد الحبيب : ١٤٤
أبو سعيد الجنابى ١٧
سلطان الدولة بن بويه : ٥٦ ، ٥٧ ، ١٠٨
سلمان الفارسى : ٢٢٠
سلمية : ١٤٤
سليمان بن الحسن بن مخلد
« « عبد الله بن طاهر : ١٠
« المستعين : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧
سمرقند : ٧٣ ، ٧٥ ، ٨١ ، ١٥٥ ، ٤٢٤
سنجار : ٢٠٨ ، ٢٧٥
السند : ٩١ ، ٩٧ ، ٩٨ ،
سيبويه المصرى : ١٤١
سيف الدولة الحمدانى : ٣١ ، ٣٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٩ ، ٢٣٦ ، ٣٣٥ ، ٣٨٣
سيمجور : ٧٤

(ش)

شاطبة : ١٨٧
الشام : ٥ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٤ ، ٦٢ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ٣٤٥
شرف الدولة بن بويه : ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٢
الشريف الرضى : ٦٣ ، ٥٤ ، ١١٨
شغير الخادم : ١٢٧
الشلمغانى : ٢٢٩ ، ٢٣٠
شهاب الدين الغورى : ١٠٢
شيبان بن أحمد بن طولون : ١٣٣ ، ١٣٤
شيراز : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٣ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٣٦ ، ١٥١ ، ٤٠٨ ، ٤٢٤
بن شيرزاد : ١١٦ ، ١٧

(ص)

الصاحب بن عباد : ٥٢ ، ١١١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠
صالح بن النضر الكنانى : ٦٥
صالح بن وصيف : ١٠
صبيح — أم هشام : ١٧٩
صقلية : ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٨
صمصام الدولة بن بويه : ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٢
صنعاء : ١٤٤
صنهاجة : ١٤٧
صور : ١٢٥
صيدا : ١٢٥
الصين : ٨٠ ، ٤٠٤

(ط)

طارق بن زياد : ٤٢١
طاهر بن الحسين : ٦٥ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ١٢٦
طاهر بن عبد الله بن طاهر . ٦٥
طاهر بن محمد بن عمرو : ٦٩
الطائع — الخليفة : ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ١٠٥ ، ١١١
طبرستان : ١٠ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٢ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٩٧ ، ٣٣٣ ، ٣٤٨ ، ٣٩٠ ، ٤٠٢
طبرية : ١١٩ ، ١٢١ ، ١٣٧
طرابلس : ١٢٤ ، ١٦١ ، ٣٦٤
طرسوس : ١٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧
طغج بن جف : ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦
طغرل : ١٠١
طليطلة : ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ٤٣٧
طنجة : ١٦٦ ، ١٨٩
ابن طيفور : ٧

(ع)

عائشة أم المؤمنين : ٤ ،
العباس بن أحمد بن طولون ، ١٥٩ ، ١٦٠

أبو العباس ناشئ : ٧٩
العباس بن الحسين : ٤٥
العباس بن القاسم : ١٩
أبو العباس بن واصل : ٥٥
العباس بن الفضل الفزارى : ١٥٨
عبد الرازق الفهرى : ١٦٣
عبد الرحمن بن الحكم بن هشام : ١٧٠
« « عيسى بن داود : ٢٧
« « ، وزير الراضى : ٢٥٥
« الناصر الأموى : ١٦٦ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠
عبد الرشيد بن محمود الغزنوى : ١٠٠
عبد الرحمن بن أبى سهل : ١٦٣
عبد العزيز بن مروان : ١٢٦
عبد العزيز بن النعمان القاضى : ١٥٢
عبد الله بن أحمد بن حنبل : ٢٠
« « حمدان أبو الهيجاء : ١١٥
« « العباس : ١٧
« « عزيز : ٧٩ ، ٨٠
عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن : ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣
عبد الله بن المعتز : ٢٠ ، ٣١ ، ١١٥
عبد الله بن ميمون القداح : ١٤٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧
أبو عبد الله البريدى : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤٣
أبو عبد الله الشيعى : ١٧ ، ١٤٤ ، ١٦١ ، ١٩٨
عبد الله بن المنصور بن أبى عامر : ١٨٢
عبد الملك بن نوح : ٧٨ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٨
عبيد الله بن سليمان بن وهب
عبيد الله بن طغج : ١٣٦ ، ١٣٨
عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : ٨ ، ٦٧
عبيد الله المهدى : ١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٦٥ ، ١٧٦ ، ٢٠٩ ، ٢٥٧
عدن : ١٩٩
عدى بن أحمد بن طولون : ١٣٣
العراق : ٥ ، ١٠ ، ١٩ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٢٩
العريش : ١٤ ، ١٢٨
العزيز بالله الفاطمى : ٤٧ ، ٨٩ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٣٩ ، ٣٦٩
عضد الدولة بن بويه : ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٧٩ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ٥١٩ ، ٣٦٤
عكبرة : ٤٤ ، ١١٦ ، ١١٧
علاء الدين بن كاكويه : ٩٧ ، ١١٣
على بن أبى طالب : ٤٩ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٢٢٩ ، ٢٦٦
أبو الحسن على بن الإخشيد : ١٢١ ، ١٤٠
على بن بويه : ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٣
على بن الحسن التنوخى : ٢١٨
على بن حمود : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧
على زين العابدين بن الحسين : ٢٠٩
على بن عمر بن إدريس : ١٦٢ ، ١٦٣
على بن عيسى : ٢٠ ، ٢١ ، ٣٠
على بن محمد بن الفرات : ٢١
على بن محمد مقلة : ٣٤
على بن مسعود الغزنوى : ١٠٠ ، ١٠١
أبو على بن سيمجور : ٨٧
أبو على بن محتاج : ٧٧
أبو على بن مروان الكروى : ١١٩
أبو على بن مقلة : ٢٧
علية بنت المهدى : ٤٤٤
عماد الدولة بن بويه : ٤٥ ، ٥٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠
عمان : ٤٥ ، ١٣٦
عمر بن منصور : ١٧٣
عمر بن الخطاب : ٤ ، ٢٢٠ ، ٣١٦
عمر بن عبد العزيز ٤ ، ١٣ ، ٥٤
عمرو بن سليم التجيبى : ١٥٨
عمرو بن الليث الصفار : ١٧ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤
عمرو بن يعقوب بن الليث : ٧٤
عنبسة بن إسحق : ١٢٧ ، ٢٨٨
أبو عوانة : ٢٤
عيسى بن نسطورس : ١٢٤ ، ١٥٢

(غ)

الغزالى : ٢١٩
غريب الحال: ٢١
غزنة : ٦٥، ٨٠، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١
الغور : ٩٠

(ف)

فاتك ـ غلام ابن ابى الساج : ٧٦
فارس : ٢٦، ٣٤، ٣٦، ٣٩، ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٥٠، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٥، ٨٥، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٦، ١٨٩، ٣٦٦
أبو الفوارس ـ صاحب كرمان : ٥٨
فائق الخاصة : ٨١
فائق الحصى : ٨٠
الفتح بن خاقان : ٦
فخر الدولة : ٥١، ٥٢، ٧٩، ٨٧، ١١٢
الفرات : ١٨، ٥١، ١٢٣
ابو فراس الحمدانى : ١٢٢، ١٢٣
فرغانة : ٧٣، ٧٥، ١٣٥، ١٣٧
فروخ شاه : ١٠١
الفسطاط : ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٤١، ١٤٨، ٣٣٦
ابو الفضل بن العميد : ٤٢، ٤٣
ابن الفقيه الهمدانى : ١٩
فلسطين : ١٠، ١٢٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١
فم العلم : ٤
فناخسرو : ١٠٩
فيروز شاه بن بويه : ٦١، ١٠٦

(ق)

قابوس بن وشمكير : ٣٩٠، ٤٠٢
القادر بالله : ٥١، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٨١، ٩٧
القاسم بن حمود : ١٨٧، ١٨٨
ابو القاسم البريدى : ٤٥
القاسم بن عبيد الله بن وهب : ١٩
قاليقلا : ٥
القاهر بالله : ٢٤، ٢٥، ٢٩، ٢٤٧
القاهرة : ٦٤، ١١٩، ١٢٥، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٣، ٢٠١، ٣٢٣، ٣٣٦، ٣٧٩، ٤٠٥، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٥، ٤٣٣، ٤٤٤
القائم بامر الله : ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ١٣٧، ١٤٦، ١٦٥
قبيحة ام المعز : ٦، ٨، ١٠
قراتكين الجهشيارى : ٥١
قراطيس ، ام الواثق : ٤
قرطبة : ٦٤، ١٦٥، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ٢٤٣، ٢٥٣، ٣١٣، ٣٣٧، ٣٣٨، ٤١٦، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٣٣، ٤٣٧
قرعويه : غلام سيف الدولة : ١٢٣
قرميسين : ٤٩
قرواش بن المقلد : ٥٥، ٦٠
قزوين : ٤٢، ٧٣، ٧٦، ٨٩
القسطنطينية : ٢٣٩، ٢٨٨، ٤١٨
قشمير : ٩١، ٩٢
القطائع : ١٣٤
قطر الندى بنت خمارويه : ١٨، ٢٧٧
قلعة اصطخر : ٦٣
قم : ٤٢، ٧٦، ١١٥
قنسرين : ١٣٨
قوام الدولة ابو الفوارس : ٥٦
القيروان : ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٦١، ١٩٨، ١٧٥، ٤١٤، ٤٤٥

(ك)

كابل : ٨٦، ٩٩
كافور : ١٣٠، ١٢١، ١٣٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٨
ابو كاليجار بن سلطان الدولة : ٥٧، ٥٨، ٥٩
كشامة : ١٤٥، ١٤٩
الكرج . ٤٢، ١٠٣

كرمان : ٣٩، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦١، ٦٢، ٧٦، ٩٧، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨
كسرى ابرويز : ٥١
كسرى انوشروان : ٣٨٠
كلجند : ٩٢
كورتكين : ٣٠
الكوفة : ٥، ١٧، ٥٥، ٥٦، ١٢٤، ١٣٣، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٦، ٣٦٢، ٣٨٠

(ل)

لؤلؤ — والى الرقة : ١٥
الليث بن على الصفارى : ٧٤
لبدة . ١٦٠

(م)

ماجور التركي : ١٠، ١١، ١٥، ١٢٨
ماردين : ١١٥، ١١٩
ماكان بن كالى : ٢٦، ٣٠، ٤٢، ٧٦
المامون : ٤، ٦٥، ٧٣، ٢١٣، ٢١٨، ٣٨٥
المتقى : ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٤٣، ٤٤، ١١٦، ١٢٠، ٣٩٨
المتوكل : ١، ٤، ٥، ٨، ١١، ١٤، ١٣٥، ٢١٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٥، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٨٣، ٢٩٦، ٣٨٥، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٢٩، ٤٣٤، ٤٤٢
مجد الدولة بن فخر الدولة : ٨٨، ١١٢
محمد بن إبراهيم بن سيمجور : ٧٩
« « ابى الساج : ١٦
« « ابى عون : ٤
« « احمد بن الاغلب : ١٥٧، ١٥٨
« « ادريس : ٦٢
« « اسماعيل البخارى : ٣٤٤
« « اسماعيل بن جعفر الصادق : ١٩٦
« « اسماعيل بن عباد : ١٨٨
« « الليث الصفار . ٧٤
محمد بن جعفر النقيب : ٣٤
ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد : ٢٥
محمد بن الحسين الروزرواري : ٤٠١
محمد بن رائق : ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٦، ١٣٨
محمد بن داود بن الجراح : ٢٠، ٢١
« « داود الظاهرى : ٢٤
« « زيد : ٧٣
« « سليمان الكاتب : ١٩، ١٣٣، ١٣٤، ٢٨٦
محمد بن طاهر بن الحسين : ٢١، ٦٨
« « طغج الاخشيد : ٣٣، ٣٤، ١١٦، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ٤٣٥
محمد بن العباس : ٤٥
« « عبيد الله بن طاهر : ٨
« « عبيد الله بن خاقان : ٢١
« « عبد الملك الزيات : ٢٦٥
« « على بن الليث العفار : ٧٠
« « عيسى القاضى : ٣٢
« « القاسم الكرجى : ٢٧
« « المتوكل : ٥
« « محمود الغزنوى : ٩٧
« « المسيب : ١١٩
« « المظفر بن محتاج : ٢٧
« « المعتضد ، القاهر بالله : ٢٢
« « المغيث : ٥
« « نصر المروروزى : ٢٠
« « هانى الاندلسى : ١٤٩
« « هشام بن عبد الجبار : ١٨٣
« « الواثق : ٤
محمود بن سباتيكين : ٥٦، ٨٠، ٨١، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٧، ١١٣، ٣٢٧، ٣٣٤، ٣٦٨، ٣٩٠
المدائن : ١٦، ٥٥
المدينة : ١٣٨، ١٤٠، ١٤٨، ١٥٠
المرتضى بالله : ٢٠
مرداويج بن زيار : ٢٦، ٣٠، ٤٢، ٤٣، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٩، ٢٠٠، ٢٥٨
مرسيه : ١٧١

مرو : ٧٧ ، ٨٨ ، ٩٨ ، ٣٢٤
المرية : ١٩٠
مساور الشاورى : ١٠
مساور بن عبد الحميد بن مساور ٢٠٧ ، ٢٠٨
المستعين بالله : ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ٢٠٧ ، ٤٤٣
المستكفى بالله : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٦
المستنصر : ١٥٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٤٠٥
مسعود بن محمود الغزنوى : ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ٤٠٢
مسعود بن مودود : ١٠٠
مسلمة بن مخلد : ١٢٦
مشرف الدولة بن بويه : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨
مصالة بن حبوس : ١٦٤
مصر : ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٤ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٣٠٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٣٨ ، ٣٩١ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤٣٩
المصحفى : الحاجب ١٨٠
المطيع : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٨ ، ١٠٩ ، ١١٧ ، ٢٤٩ ، ٣١٠
المظفر بن المنصور بن أبى عامر : ١٨١
المظفر بن ياقوت : ٤٢
المعتز بن المتوكل : ٦٥ ، ٨ ، ٩ ، ٢٠ ، ٢٨٢
المعتصم : ٢ ، ٤ ، ١٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٥ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٨١ ، ٨٥
المعتضد : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١١٥ ، ١٣١ ، ٢٧١ ، ٢٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣٨٦ ، ٤٣٤
المعتمد : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٣١ ، ٢١٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٤٣٠ ، ٤٣١
المعدل بن على بن الليث : ٧٤
المعرة : ٣٥٨
المعز الفاطمى : ١٢٣ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢٨٩ ، ٣٠٥ ، ٣٢٤ ، ٣٦٩ ، ٣٩٢
معز الدولة بن بويه : ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ٢٤٨
المفوض : ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧
المقتدر : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١١٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣١٥ ، ٤٤٦
المكتفى : ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٧٤ ، ١٣٣ ، ٤٣٨
مكران : ٩٧
مكناسة : ١٦٤
مكة : ١٢ ، ١٩ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٥ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٢٥
الملتان : ٩٠
عطية : ١٢١
الملك العزيز : ٦١ ، ٦٣ ، ١٠٨
الملك الرحيم : ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١٠٨ ، ١٠٩
منبج : ٣٥٨
المنتصر : ٦ : ٧ ، ٨ ، ٢١٠
منجوتكين : ١٢٥
منشا بن إبراهيم : ١٥٢
المنصور بن أبى عامر : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٣٨١ ، ٤٩٢
منصور بن اسحق السامانى ٨٢
المنصور الفاطمى : ١٤٦ ، ١٤٧
منصور بن نوح : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٨
ابو منصور بن كاليجار : ٦٢
أبو منصور بن صالحان : ٥٢
أبو منصور بن المتقى : ٣١
المنصورية : ١٤٧ ، ٥١٠
المهتدى بن الواثق : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٤٦ ، ٣١٤
المهدية : ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٠٩ ، ٤١٤ ، ٤١٥
مهذب الدولة : ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٦
مودود بن مسعود : ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١
موسى بن بغا : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١١
موسى بن عيسى : ١٢٦
موسى بن أبى العافية : ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦
موسى الكاظم : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥

الموصل : ١٠، ١٢، ١٥، ١٦، ٣٠، ٣١، ٣٤، ٣٦، ٤٤، ٤٧، ٥٥، ٦٠، ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ٢٣١، ١٣٨، ١٤١، ١٩٢، ٢٧٥
الموفق : ٨، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٦٧، ٦٨، ١٢٧، ١٢٨، ٢٩، ١٣١
مؤنس الخادم : ٢١، ٢٢، ٣٤، ٢٨، ٣١، ٦٩
المؤيد الشيرازى : ٦، ٣٠٥، ٣٦٦
ميافارقين : ٤٧، ٦١، ١١٧، ١١٩، ١٢١، ١٢٣

(ن)

ناروين : ٩٣
نازوك : ٢٢
ناصر الدولة بن حمدان : ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٤٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١٢٠، ١٣٨
عزيز خادم المتوكل : ١٤
نصر بن احمد السامانى : ١٨، ٢٧، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ١١٠
ابو نصر بن بختيار : ١٧
ابو نصر خواشاذه : ٥٢
نصيبين : ٣٣، ١١٦، ١١٨، ١٢١، ٣٧٩
نقفور فوكاس : ٢٣٦
نهاوند : ٧٦، ١١٥
نوح بن اسد : ٧٣
نوح بن نصر السامانى : ٣٤، ٧٧، ٧٨، ٨٦
نوح بن منصور : ٧٩، ٨٠، ٨١
نيسابور : ٦٥، ٧٥، ٧٧، ٨٠، ٨١، ٨٧، ٨٨، ٩٨، ٣٨٤، ٣٩٦

(هـ)

هارون بن خمارويه : ١٣٢، ١٣٣
هارون بن الرشيد : ٣٠٣، ٣٠٨، ٣٨٥
هارون الشارى : ١١٥
هارون بن سليمان : ٨٠
هارون بن غريب : ٢٢، ٢٨
هجر : ١٢، ٤٥
هراة : ٦٥، ٧٣، ٨٠، ٨٥، ٨٨، ٩٧، ٩٨
هشام بن عبد الملك : ٢٩٦
هشام المؤيد : ١٧٩، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧
همذان : ٢٦، ٣٦، ٤٠، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٥٢، ٥٦، ٦٠، ٧٦، ٩٧، ١٠٤، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٣، ٣٧٣
الهند : ٦٥، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٤٤، ٢٢٥، ٣٢٦

(و)

الواثق : ٢٤، ١٢٦، ١٣٥، ٢١٣، ٢١٨، ٢٦٥، ٣٨٥
واسط : ٤، ٨، ٢٧، ٢٩، ٣٢، ٣٤، ٤٥، ٤٧، ٥٠، ٥٢، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٧٦، ١٠٨، ١٠٩، ١٣٠، ٢١٣
وشمكير بن زيار : ١٦، ٢، ٧٦، ٧٨، ١٠٣، ١٠٩، ١١٠
وهران : ١٦٧

(ى)

يارجوخ : ١٢٧، ١٢٨
يانس المؤنسى : ١٢٠
يحيى بن إدريس بن عمر : ١٦٤، ١٦٥
يحيى بن اسد : ٧٣
يحيى بن خالد البرمكى : ١٩٦
يحيى بن زكرويه : ١٩
يحيى بن على بن حمود : ١٨٨
يحيى بن القاسم بن ادريس : ١٦٣
يزيد المهلبى : ٧
ابو يزيد مخلد بن كيداد : ١٤٦، ١٤٧
اليسع بن مدرار : ١٤٤، ١٤٥
يعقوب بن الليث الصفار : ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٧٠، ٤٨٧
يعقوب بن كلس : ١٠٢، ٢١٣، ١٢٤، ١٤٨، ٢٦١، ٤١٣
اليمن : ١٧، ١٤٤، ١٥١، ١٩٤، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٣
يمن الحاجب : ٢١
يوسف بن ابى الساج : ٢٦، ٧٦

مؤلفات ومترجمات

الدكتور حسن ابراهيم حسن

١ — « تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » — الجزء الأول ، (الطبعة الثانية) سنة ١٩٤٨ فى تسعة أبواب بدلا من خمسة .

٢ — الجزء الثانى (الطبعة الثانية) سنة ١٩٤٨ ، مع زيادات كثيرة .

٣ — الجزء الثالث سنة ١٩٤٩ ، مع تعديلات كثيرة .

٤ — « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » (المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٩٣٢) .

٥ — « النظم الإسلامية » بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن ، (القاهرة سنة ١٩٣٩) .

٦ — « النظم الإسلامية » — قررته وزارة المعارف لطلبة السنة التوجيهية ، (القاهرة سنة ١٩٤٥) .

٧ — « تاريخ عمرو بن العاص » (الطبعة الثانية) القاهرة سنة ١٩٢٦ .

٨ — « مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى » ، بحث مستخرج من « كتاب المجمل فى التاريخ المصرى » (القاهرة سنة ١٩٤٢) ص ١٢٧-٢٢٩ .

٩ — « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية » تأليف فان فلوتن ترجمه وعلق عليه المؤلف ، بالاشتراك مع الأستاذ محمد زكى إبراهيم ، (القاهرة سنة ١٩٣٣) .

١٠ — « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » ، تأليف الدكتور أدولف جروهمان ، ترجمه المؤلف إلى العربية وعلق عليه ، الجزء الأول (القاهرة سنة ١٩٣٤) الجزء الثانى (تحت الطبع) .

١١ — « الدعوة إلى الإسلام » ، ترجمه المؤلف إلى العربية وعلق عليه ، بالاشتراك مع الأستاذين عبد المجيد عابدين ، وإسماعيل النحراوى ، (القاهرة سنة ١٩٤٧) .

١٢ — « تاريخ العصور الوسطى فى الشرق والغرب » للسنة الثانية الثانوية ، بالاشتراك مع الأستاذ أحمد صادق الطنطاوى ، الطبعة الثانية (القاهرة سنة ١٩٣٣) .

١٣ — « عبيد الله المهدى » إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف (القاهرة سنة ١٩٤٧) .

١٤ — « المعز لدين الله الفاطمى ، إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر » ، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف (القاهرة سنة ١٩٤٨) .

١٥ — « تاريخ القاهرة » تأليف ستانلى لينبول ، ترجمه المؤلف إلى العربية بالاشتراك مع الأستاذين على إبراهيم حسن ، وادوارد حليم (القاهرة سنة ١٩٤٩) .